

الفكر السياسي

في هذا العدد

١. شباب القضية.....د.علي عقلة عرسان.....٧
٢. انتفاضة الأقصى: أبعاد ونتائج وآفاق.....د.حسين جمعة.....٢٥
٣. انتفاضة حق وخطاب قوة.....عبد الكريم ناصيف.....٤٨
٤. مؤامرة الغرب على الإسلام.....عبد الوهاب محمود المصري.....٦٩
٥. فكرة أميركا الأم الحاضنة لفكرة إسرائيل.....مصطفى الولي.....١٠٣
٦. الاستراتيجية الشاملة للولايات المتحدة.....موسى الزعبي.....١١٠
٧. الانهيار الأمريكي ما بين الواقع والسنتية.....أحمد الريح.....١٣٠
٨. أمريكا: صناعة الحب وصناعة الكراهية.....د.بسام ساعي.....١٤٤
٩. التربية المدنية: دراسة في أزمة الانتماء والمواطنة في التربية العربية.....د.عبدالله مجيد.....١٥١
١٠. حدود الحكمة العقلية في الدراسات الأفلاطونية.....محمد عرب.....١٧٩
١١. المشروع النهضوي العربي بين تجديد الوعي الفكري والتوجهات الليبرالية.....ماجد صالح السامرائي.....٢٠٥
١٢. مفهوم الحوار في إشكاليات الاختلاف والتواصل ونظام القيم.....محمود حيدر.....٢١٩

ملف العدد :

١٣. أربعة أعوام لتغيير العالم: استراتيجية بوش (٢٠٠٥-٢٠٠٨).....تأليف: برنيو ترتريه.....
- ترجمة: د.قاسم المقداد.....٢٣٣
١٤. نشوء القوى: المشهد الجيوسياسي المتغير.....ترجمة: منار إبراهيم الشهابي.....٢٨٩

وثائق:

١٥. القرار ١٥٥٩.....٣١١
١٦. بيان لرئيس مجلس الأمن.....٣١٢
١٧. تقرير كوفي عنان عن تنفيذ القرار ١٥٥٩.....٣١٤
١٨. اتفاق.....٣٢٥
١٩. البيان الختامي لمؤتمر القمة العربية.....٣٣٤
٢٠. وثيقة البيان الختامي لمؤتمر الدول العربية وأمريكا الجنوبية.....٣٣٨
٢١. كتاب أهل الإسلام.....محمد قرانيا.....٣٥٥

المدير المسؤول
رئيس الاتحاد
رئيس التحرير:

د.علي عقلة عرسان

الهيئة الاستشارية:

د.طيب تيزيني

د.غازي حسين

العدد :

الحادي والعشرون

شتاء

٢٠٠٥

التوزيع في الجمهورية العربية السورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات

فاكس / ٢١٢٢٥٣٢ / هاتف / ٢١٢٧٧٩٧ / ص.ب / ١٢٠٣٥ / .

السنة السادسة

شباب القضية

د: علي عقلة عرسان

بسم الله الرحمن الرحيم

شباب قضية ما وحيوية حضورها وتأثيرها وتجدها يتعلق بإقبال الشباب عليها، وتجديد اهتمام الأجيال بها، وإكسابها قوة وعمقاً ورسوخاً في العقل والوجدان الفردي والجمعي، وجعلها أحد أهم موجّهات الفعل ودوافع السلوك، من جهة؛ واستعداد تلك القطاعات البشرية لتبني القضية وتحمل تبعات الصراع المترتب عليها، والمضي قدماً في تقديم الجهود والاجتهاد والتضحيات على طريق تحقيق الأهداف الرئيسة لتلك القضية ومتابعة نهج الذين ضحوا من أجلها، وذلك بامتلاك القوة والأدوات والإمكانيات واستمرار الاستعداد لما ترتبه الأهداف من متطلبات وتبعات.

ومستقبل الصراع العربي الصهيوني، الذي انبثق عن قضية فلسطينية واستمر بسببها، لا يخرج عن هذه المقولة الأساس ولا يشذ عنها، فمستقبله مرتبط باستمرار اهتمام الشباب العربي بالقضية وبجوهر الصراع المتصل بها وأهدافه ونتائجه وما نشأ على هوامشه من قضايا فرعية، وما فرضه من علاقات بين الأقطار والأحزاب والتجمعات البشرية في الوطن العربي وبينه وبين بلدان العالم.

وعلى ذلك فإن طرح السؤال المتعلق بمستقبل الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين، بوصفها قضية قومية بكل الأبعاد والمفاهيم والمسؤوليات والتبعات والنتائج، إن طرح ذلك السؤال على شباب العرب اليوم وعلى أجيال الأمة الصاعدة، يشكل أهم مدخل لرسم صورة المستقبل وتلمس نوع الاهتمام والمشكلات في مجتمع الغد، ومن ثم المداخل الرئيسة للمستقبل ومعالم صورته.

ويجوز لنا أن نطرح السؤال على أرضية الشك في تبني الشباب والأجيال القادمة للقضية بنفس الأهداف والأبعاد والاستعداد الذي لنا ولمن سبقونا، انطلاقاً من حجم

المتغيرات ونوع المطالب بتغيير في مجالات عدة وما يرافق ذلك ويمهد له ويدفع باتجاهه من ضخ إعلامي مركز لإحداث تغيير جذري وجوهري في البنية الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية للمجتمع العربي، ولسبر غور الالتزام القومي والوطني، على أرضية السائد من مفاهيم وتوجهات واهتمامات، في عصر يشهد انتفاضات التغيير، ولدى أجيال تعصف بها أزمات ومشكلات ومعلومات تجعلها عرضة لكل الاحتمالات.

ولا ينطوي الشك الذي أجزنا لأنفسنا أن ننطلق منه على تسليم مسبق بأن طينة الشباب العربي الأصلية قد تغيرت وأنه تنكّر أو يمكن أن يتنكّر للقضية العربية المركزية ولتضحيات الأجيال السابقة التي تحملت تبعات ذلك الصراع الذي نتج عنها منذ نشأته، ولكنه مدخل على أرضية موضوعية تستدعي الاستعداد لمواجهة كل ما يقدمه العقل والمنطق من معطيات واستنتاجات من جهة وما يدفع باتجاهه الواقع والمتغيرات والتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية العربية وما يحدثه من اختراقات في صفوف كثير من الشرائح الاجتماعية لا ينجو منها الشباب.

ومن الأسئلة التي تتفرع على جذع ذلك السؤال الأساس أكتفي هنا بطرح سؤالين:

١- هل الشباب العربي، والأجيال الصاعدة منه، ما يزال يؤمن بعروبة فلسطين، كل فلسطين وبمسؤوليته عنها، وبأن عليه أن يرفض الاحتلال الصهيوني ومشروعه الذي يستهدف مستقبل الأمة، ويقاوم ذلك الكيان العنصري المزروع في المنطقة بالقوة ليحقق التحرير؟! أم أنه يسلم بأن للكيان الصهيوني حقاً في الوجود والبقاء، وأن له جزءاً من فلسطين التاريخية- صغر ذلك الجزء أم كبر- وأن التعايش معه والقبول به هو الاختيار المستقبلي الذي اختاره، أو الذي لا معدى له عن القبول به.؟

هناك من يزعم أن هذا السؤال لم يعد قائماً أصلاً، فالعرب خضعوا لتوجه عام- عربي ودولي- يسلم بوجود الكيان الصهيوني، والتنازع الآن هو حول جزء من فلسطين محتل وأرض عربية احتلت بسبب قضية فلسطين وما دار من صراع قومي حولها، وأن مشكلات المستقبل ليست حصراً في الانسحاب والتوجه السلمي الشامل لدى جميع الأطراف وإنما في مستقبل المنطقة. وطرح هذا السؤال يعني عدم تسليم بما يعتبره (البعض) من المسلمات، وإثارة لبعض وجوه جوهريّة من القضية ووضعها أمام الشباب ليناقدش ويتحصص ويختار.

٢- هل الشباب العربي المنهك حتى العظم بقضايا مثل: تأمين فرصة العمل، والمسكن، وإقامة الخلية الاجتماعية "الأسرة"، وتأمين لقمة العيش، والوصول إلى نوع من العلاقات السليمة في مجتمعه: سياسية- اقتصادية- اجتماعية- يوفر له قدرًا من الرجاء؟؟ هل ذلك الشباب الذي تطحنه ظروف المجتمع الاستهلاكي وشروطه، وأشكال الفساد والاستلاب والذي مضى بعيداً في تطلعاته المشتقة من معطيات ذلك المجتمع.. هل هو على استعداد الآن لتحمل تبعات حروب جديدة، وتقديم تضحيات قاسية، والسير في طريق الصراع لعقود جديدة من الزمن؟! وهل التفكير بالحرب تفكير له ما يسوغه في عصر تعلن فيه القوى الفاعلة والمؤثرة في سياسة العالم وقراره بأنه مضى زمن الحروب - على افتراض تصديق هذا الكلام-؟! وهل نملك أدوات الحرب وعددها والقدرة على خوضها؟! وهل هناك من سبيل لاستعادة ما نريد استعادته بغير الحرب؟! أم أن الحرب تفرض علينا فعلاً ويُفرض علينا ألا نستعد لها ونحاصر بالعجز حيالها؟

في معرض تلمس أبعاد السؤال الأول وما قد تبنى عليه الإجابة من معطيات، لا بد لنا من التنكير بالأمور الآتية بإيجاز شديد:

أن حقوق الأمم والشعوب، لا سيما ما يتصل من تلك الحقوق بالأرض والمقدسات والحريات والحقوق الأصلية، لا يذهب بالتقادم، ولا يجوز التنازل عنه بسبب عدم قدرة جيل على استرداد تلك الحقوق أو بعضها لأن مستقبل الأجيال والوطن يبقى رهناً بالتوازن الداخلي للشخصية العامة من جهة وللقوى والمصالح من جهة أخرى.

إن فلسطين- كل فلسطين- أرض عربية: وهي أرض العرب العموريين بفروعهم. وفلسطين جزء من سورية الطبيعية ومن ثم من بلاد الشام. ونحن عندما قاومنا الاستعمار ورفضنا مشاريعه وثرنا على تجزئته لوطننا وشعبنا لم نفعل ذلك لنقدس ما ترك لنا من تجزئته لوطننا وشعبنا.. لم نفعل ذلك لنقدس ما ترك لنا من تجزئة وأنظمة وحدود، ولا لنحتفظ بتفاصيل ما رسمه لنا من مخططات لا تهدف إلا إلى إضعافنا وفرض التبعية علينا، وتمير مخططاته- مخططات الصهيونية- في وطننا، ولم نفعله كي نصبح ورثة للاستعمار ونتابع الدفاع عن تلك التركة، ونسكت عن مطالب بعودة الاستعمار والانتداب لأنه يريد التركة كلها.

فهل ترانا نقول في أي قطر عربي تتشأ فيه مشكلة... تلك قضية ذلك القطر، ومادام

فريق من أبنائه - يمثل أبنائه أو لا يمثلهم - قد اختار اختياراً فهو صاحب الحق في ذلك الاختيار؛ حتى لو كان اختياره يلحق أشدّ الضرر بالأمة وبالقضايا المصيرية والحق التاريخي والمستقبل؟! ألسنا في مركب واحد ومن يخرقه وتحت أية ذريعة يتسبب في إغراق الجميع؟! إن قضية فلسطين منذ نشأت، والمشروع الاستيطاني الصهيوني منذ بدأ خطواته الأولى في زمن الإمبراطورية العثمانية، إن تلك القضية وذلك المشروع نشأ في الإطار القومي وفي إطار تخطيط استعماري شامل لترسيخ ذلك المشروع على حساب المشروع القومي ولدفعه تماماً، كما أن الوعي القومي كان يفترض أن تكون المسؤولية عن تلك القضية مسؤولية شاملة. وما محاولات النيل من الوعي والتوجه القوميين إلا استكمالاً لمخططات ذلك المشروع على حساب وعي الأمة بذاتها وبمسؤوليتها المشتركة.

ولأنه لم تتم مواجهة قومية بالمعنى الصحيح والدقيق والشامل، ولأن بعض توجهات التفكير والعمل القوميين كانت ملغمة أو قصرت أو توقفت وعيها بالقضية ومسؤولياتها عنها عند حدود معينة لأسباب خاصة بتيار أو حزب أو شخص، فإن البعد القومي لقضية ولأية قضية قطرية ذات انعكاسات قومية. ودخول الصراع على أساس عربي شامل، هو مما يستدعي وقفة ومناقشة وموقفاً، لا سيما من قبل الشباب والمسؤولين عن الوعي والذاكرة والوجدان، عن التربية والسياسة والثقافة والإعلام.

إن الأمم لا تتنازل عن حقوقها الثابتة وقضاياها العادلة لمجرد أنها أرهقت، أو أرهق جيل من أجيالها، أو انهزمت في معركة، ولا تنهزم الأمم وتيأس بسبب تقريط قطر أو نظام أو حاكم بحق، ولا يتراجع الصراع العادل وينتهي لأنه يمس جوهر الحق أو جوهر الوجود، والأمم لا تهزمها خسارة معركة إنما يهزمها الإحباط والضياع وغياب الوعي أو تغيبه وتفكك الأواصر وتفتت الإرادة وتشتت الرأي وزوغان الرؤية وانتشار الطابور الخامس بفاعلية بين صفوف أبنائها، من دون ردع وإع وقوي. وصراع أي أمة من أجل حق من حقوقها، وعدم تنازلها عن ذلك الحق، وتقديم التضحيات من أجل استرداده، كل ذلك يبيّن شخصيتها وقدرتها وأخلاق أبنائها ومواقفهم لتدافع عن كل حقوقها وبقائها، ولتصون وجودها في مراحل التاريخ، والتاريخ لا يتوقف عند الانتصار في قضية أو الانهزام في معركة فاحتمالات المواجهة بين الشعوب والأمم احتمالات مفتوحة دائماً، هكذا يفيدنا التاريخ، وهكذا نرى أن يكون الاستقراء والاستعداد.

وعليه فإن محاكمة جيل ما، أو فئة ما، لموضوع هذا الحق من حقوق الأمة أو ذاك يجب ألا تبني على أساس التعب - والتنازل - والحسابات الآنية الضيقة الأفق وتورم هذا الزعيم أو ذاك والتحاقه بهذا العدو أو ذاك، وإنما ينبغي أن تبني على أساس من الوعي

التاريخي والمستقبلي الشامل بالحق واستمرار ذلك الوعي، وبالقدرة على استرداد الحق والمحافظة عليه، وامتلاك الإرادة ومسوغات الدفاع عنه ومقومات ذلك الدفاع.

إن الأجيال العربية لم تختار الحرب مع الصهاينة وإنما فُرضت عليها تلك الحرب فرضاً، ولم تختار المحنة في العراق أو في لبنان السبعينات والثمانينات.. ولم تختار العداء للأميركا، وإنما فُرض عليها ذلك. والمشروع الصهيوني مشروع توسعي -استيطاني- استعماري مستمر، وهو مرحلي الأداء والخطط والبرامج وكل مرحلة فيه تهيب لما بعدها، ولا يوجد مسوغ أبداً للقول بأن سلام -الاستسلام سوف يؤدي إلى سلام دائم في المنطقة، فالكيان الصهيوني ليس كيانه مسالماً، وجوهر الصهيونية معاد للسلام، والتحالف الأميركي الصهيوني تحالف عضوي يستهدف المنطقة بكل الأبعاد والمستويات. وعلينا ألا نؤخذ بترويج مروجين لما يغير ذلك، أيا كانت مواقعهم، لأن قراءة الواقع والتاريخ القريب تفيد بغير ذلك.

كما أنه لا يوجد منطق مقنع في القول: إن العالم اليوم ليس مع الحرب وإن عهد الحروب قد انتهى، وإنه علينا أن نخضع لمنطق القوة المنتصرة لأنه منطق العصر الذي أرسى أمور الدول والأمم والشعوب على ما آل إليه أمر العالم بعد انتهاء الحرب الباردة بانتصار الولايات المتحدة الأميركية على الاتحاد السوفيتي.

- فالحرب مستمرة على الحقوق والشعوب والدول الصغيرة والضعيفة بكل أشكالها: الحرب الساخنة والحرب الباردة، وحروب الاستنزاف الاقتصادي، وفرض التبعية وأشكال الغزو الثقافي، وإلحاق العالم برؤية وحيدة الطرف للعالم تفرضها مصالح الولايات المتحدة الأميركية، والقوى المتحالفة معها.

الحرب تشنها علينا، نحن العرب المتشبثين بحق وعدل ووجود ووطن، تشنها علينا الصهيونية و"الكيان الصهيوني" والولايات المتحدة كل يوم، وعلى من لا يرى استمرارها أن يدقق جيداً ليراهها ساخنة وباردة في كل الميادين، يغذيها دمنا المستباح بالدرجة الأولى، وتستهدف الأرواح والأرض والمقدسات والاقتصاد والثروات والطاقة والقرار السياسي والإرادة العربية، وتستهدف الشخصية الثقافية والعقيدة الدينية، والأجيال المقبلة تحديداً.

وإذا كنا نرفض الحرب ولا نؤمن بها، ونختار السلام - حتى لو كان البعض يختار سلام الاستسلام - فإن الحرب مستمرة ضدنا. ضده. مفروضة علينا بشكل أو بآخر، وإذا كنا نرفض الاستعداد لها هرباً من تحمل تبعاتها فإننا سنواجهها عاجزين ونتحمل تبعاتها حين يختار الآخر زمانها ومكانها، وهو يفعل ذلك. أمّا إذا أردنا الاستعداد لها وأخذنا نتذرع

بعد القدرة على ذلك لأن الهوة أصبحت سحيقة بين تقدم الأعداء وتخلفنا نحن، فإن هذا المنطق يقود إلى الآتي:

- اليأس فالحزيمة من الداخل في كل مواجهة وقبل أية مواجهة.
- القبول بالذل وبكل ما ترمي الأمم والدول القوية إلى فرضه على العربي.
- انحلال الإرادة والأجيال فالأمة، واحتلال الأرض، وجعل أبناء الأمة عبيداً لشهواتهم وللآخرين.
- عدم السير في طريق امتلاك القوة على أرضية العلم والإيمان تأسيساً على اليأس وهزائم الأعماق.

وكل هذا لا يؤدي إلى ما يشكل أية أرضية إنسانية سليمة من أي نوع لأفراد أو مجتمع أو أمة من أي نوع، أو تكوين وطن يحميه أبناؤه، فضلاً عن أن تلك حالة يُراد فرضها علينا لإدخال اليأس على نفوسنا وجعلنا نتهوى قبل هبوب الريح ونستطيب الخنوع.

إن استعدادنا لدخول معترك امتلاك القوة على أرضية العلم والنقانة هو الأساس الذي ينبغي أن نبني عليه خياراتنا وتوجهنا وتربيتنا وقرارنا السياسي وعلاقاتنا الاجتماعية والدولية، لأن امتلاك القوة شرط من شروط قيام الأمم والدول، ومن شروط حماية وجودها وحماية مصالحها والدفاع عن حقوقها وثرواتها وحدودها، ولا يمكن أن تقوم توازنات مثالية في العالم من دون روادع مادية، منها روادع القوة.

وما إعلانات الإمبريالية الأميركية- والصهيونية عن عالم مستقبلي بلا حروب، في الوقت الذي تشن فيه الحروب من كل نوع على العرب والمسلمين خاصة، إلا استخداماً لأساليب الحرب النفسية بفاعلية في حرب ما زالت مستمرة ضد هذه الأمة، ورغبة في فرض الهيمنة الشاملة وتعطيل إرادة الحرية لدى العرب وكسر صور الممانعة كلها.

وعلى من يريد أن يتقصى حقائق التوجه الاستعماري " الإمبريالي " لدى كل من الولايات المتحدة والكيان الصهيوني أن يقرأ جيداً الأحداث والمواقف الأميركية الصهيونية منذ بداية المشروع الصهيوني في المنطقة.

إن امتلاكنا للقوة أمر ضروري وحيوي لكل المواجهات المحتملة وصور البناء والسلام التقدم المنشود، وهو المخرج لنا مما نحن فيه من استنزاف وخضوع وضياح وحصار وتهديد مستمر بأنواع الدمار والإذلال؛ وانعدام التوجه نحو ذلك أو التشكيك في جدوى ذلك

التوجه، هو ما يعمل على ترسيخه العدو وما يحاصرنا به الأميركيون الذين يتابعون الدول التي يمكن أن نتقاهم معها حول أية معدات وتجهيزات دفاعية، وما يقوم به الطابور الخامس الذي يعمل بين طهرانينا، بإيحاء وتحريض وتمويل ودعم من القوى التي تشن علينا الحرب المستمرة، حرب الاستعمار والاستيطان والاستنزاف والنقثيت والتئيس والفتن الطائفية والعرقية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية والكيان الصهيوني.

أما سؤال هل ننجح في ذلك أم لا فهو سؤال المستقبل، ولا أومن بجذوى مصادرة المستقبل ولا أقر بحق أحد في فعل ذلك، ولدي كل ما يعزز الثقة بإمكانية الشباب العربي، من خلال قدرات الأمة وتوجهها السياسي العام على تحقيق تقدم في هذا المجال والوصول إلى نتائج طيبة تؤدي إلى حماية الذات والحقوق وصوغ مستقبل أكرم على أرضية الأمل.

ومستقبل أمة ليس هو ما يراه جيل بل ما تراه وتقرره أجيال، وما يخطو جيل على طريق خطوات بناءة في إطار استراتيجية شاملة.

- ٢ -

في القسم الأول طرحت سؤالين، تلمست الإجابة على أحدهما، وبقي الثاني قيد المتابعة وهو:

" هل الشباب العربي المنهك حتى العظم بقضايا مثل: تأمين فرصة العمل، والمسكن، وإقامة الخلية الاجتماعية "الأسرة"، وتأمين لقمة العيش، والوصول إلى نوع من العلاقات السليمة في مجتمعه: سياسية - اقتصادية - اجتماعية توفر له قدراً من الأمل، هل ذلك الشباب الذي تطحنه الأحداث وتشيره أو تغويه وتستهو به شعارات القوى الاستعمارية المسمومة، وتحديات العصر، وظروف المجتمع الاستهلاكي وشروطه، والذي مضى بعيداً في تطلعاته المشتقة من معطيات العصر والمجتمع والواقع الراهن.. هل هو على استعداد لأن يتحمل تبعات حروب جديدة، ويقدم تضحيات قاسية، ويسير في طريق الصراع عقوداً جديدة من الزمن؟! وهل التفكير بالممانعة التي قد تجر الحرب تفكير له ما يسوغه في عصر تعلن فيه القوى الفاعلة والمؤثرة في سياسة العالم وقراره، أنه مضى زمن الحرب وجاء زمن "سلام" مر ومكلف ربما ما بعده أبداً سلام؟! وهل نملك أدوات الحرب وعددها والقدرة على خوضها؟! وهل هناك من سبيل لاستعادة ما نريد استعادته من حقوق بغير الممانعة والقوة وربما الحرب؟!..

أبدأ من حيث انتهيت في تفرعات هذا السؤال مؤكداً حقيقة تعززها استقراءات عديدة

للحوادث والتجارب والمسجل من خبرة الإنسان والمتناقل الراسخ منها في التقاليد والتواريخ، وهي أن حقاً لا يطالب به أهله معرض للموت، وأن حقاً لا تدعمه القوة معرض للضياع والتنكر لشرعيته، وأن قوة لا تستند إلى الحق قد تغير الواقع وتفرض حقائقها ولكنها لن تقيم العدل ولن تقود الناس إلى الأمن والاستقرار والازدهار. وإذا ما تمكنت قوة غاشمة من فرض واقع على الأرض وعززت فعلها ذاك بإعادة تكوين الذاكرة والوجدان لدى أجيال أصحاب الحق، فإنها تلغي حضوراً لتاريخ وتحدّد فعاليته وفعالية القوة التي يمكن أن يملكها أصحابه، وتمهد لصنع تاريخ يملك قوة التأثير ما استمرت قوته في الحضور عبر الواقع الجديد الذي خلقتة القوة له. وإن بقاء الحق حياً في وجدان أهله وذاكرتهم، وبقاء التاريخ حاضراً مؤثراً يؤديان حتماً إلى فعل يتنامى ليمكّن قوة خلاقة تعيد تغيير الواقع ليستعيد التاريخ سياقه الطبيعي والعدل مجراه والشعب كرامته. وعليه فإن صاحب الحق المنتهك مطالب بأمرين رئيسيين:

١ - إبقاء التاريخ حياً وفاعلاً بإبقاء حقائقه ووقائعه مستقرة في الذاكرة والوجدان، وحضور منطقه في القراءة والاستقراء.

٢ - السعي لامتلاك قوة، بالمفهوم الشامل للقوة: معرفية وروحية ومادية، بصورة تمهد لاستعادة الحق وإعادة السياق الطبيعي للتاريخ والعدالة والكرامة.

ولن يكون ذلك من دون امتلاك قوة معنوية ومادية، ولن يتحقق من دون خوض صراع مشروع وطويل الأمد ومكلف وصعب، في ميادين عدة وعلى جبهات عدة منها الجبهة الأخيرة المشروعة والمقرة تاريخياً أيضاً: الحرب.. " كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.. ". ولن تتراجع قوة غاشمة عن غيها وشهوة العدوان التي لديها ولا عن أطماعها وعما حققتة وما يمكن أن تحقّقه باستعمال العنف إلا بتأثير قوة رادعة تجعلها تراجع حساباتها وتضع حداً لعدوانها من خلال قانون الربح والخسارة وعبر تدقيق في موازين القوى ونتائج الاشتباك، وتدرك أنها إذا لم تفعل ذلك سلماً وبمنطق وعقل وحكمة أجبرت على فعله بالقوة الرادعة.

وعليه فإن القوة بمفهومها الشامل ومعانيها الأوسع هي عنصر الحسم الأول وأداته الأكبر، وهي التي تردع نزوعاً عدوانياً متنامياً وتحد من شهوة الطغاة والمستبدين وأصحاب الرؤى العنصرية والطموح الإمبريالي. الإمبراطوري، أو تجبرهم على التعقل بتأثير الخوف وتحت وطأة منطق الحسابات الدقيقة لنتائج المغامرات والأفعال التي يفكرون بالإقدام عليها، وهي التي تضع حداً للأطماع التي تحرك الأقوياء والنزعات

الشريرة لدى الأشرار ومن يعميهم التعصب الأعمى والتعالي العنصري، وتغري بابتلاع الضعفاء أو إخضاعهم أو العبث بمصائرهم ومصالحهم. وربما من هذا المنطلق تساعد القوة - في عالم نشأ على مقولاتها وممارستها والتمتع بنتائج انتصارها - على لجم الطيش وإعادة المغامرين والطائشين والمهووسين بالدم والقتل والدمار إلى العقل والحكمة وأستشعار الخطأ وربما الندم والتوبة، أو تجعلهم يخسرون بالقوة ما هم فيه وما هم عليه، أي بقوة الرادع والتاريخ القديم والحديث ممتلئ بوقائع من هذا النوع ويضج بالكثير من الدروس.

فالقوة لا توقف زحفها إلا قوة، والقوة فعل لا بد أن يستثير رد فعل يوازنه وإلا انهيار الجانب الذي تقتحمه القوة وتستهدفه، وما أخذ من حق بالقوة لا يعيده إلا تأثير قوة مضادة موازنة لها أو متفوقة عليها.. إن سلباً وإن حرباً؛ وتاريخ الأمم حافل بالصراع من أجل الحقوق والحريات والمصالح، ولكن لا يوجد في التاريخ إلا استثناءات لا يعتد بها، أعاد فيها قوي حقاً لآخر تحت تأثير الحكمة ومحبة السلام ومراعاة للقيم والعدل، وما يتم من ذلك دون حروب يتم حتماً تحت تأثير موازين القوى وحساباتها وتقدير مصالحها المستقبلية.

وانطلاقاً من ذلك، وبناء على تجاربنا مع العدو الصهيوني عبر تاريخ الصراع المرديد معه ومع من يتحالف معه ويدعم عدوانه وضلاله، واستناداً إلى مسيرة "السلام" الخائبة التي بدأت بكامب ديفيد وتنامت رسمياً منذ مؤتمر مدريد، وفرخت خيبات وتنازلات لا يمكن قبولها نرجح أن استعادة حقوقنا المغتصبة وأراضيها التي يحتلها الكيان الصهيوني أو الولايات المتحدة الأميركية، لا تتم إلا بامتلاك القوة بمفهومها الشامل، واستخدام هذه القوة بحسابات دقيقة وتعقل وحكمة وبعد نظر وطول نَفَس، وقد يقودنا الأمر إلى الدفاع عن أنفسنا إذا ما فرضت القوة عدواناً علينا وعندها تُفرض علينا الحرب وهي كره لنا..

فهل نملك أدوات الحرب وعددها والقدرة على خوضها، دفاعاً عن النفس أو دفعاً للمحتل والمغتصب والغازي والطامع.. واستعادة للحق والحرية والأرض والمقدسات والكرامة؟!

إن مؤشرات ميزان القوى بين العرب والكيان الصهيوني تشير إلى امتلاك العرب لقوة تقارب قوة العدو في مجال الأسلحة التقليدية، وهناك تفاوت لمصلحة أحد الطرفين في بعض الأسلحة الأخرى. أما الأسلحة والمعدات وأنواع القوة التي تدخل في مجالات ما هو غير تقليدي: أي تلك التي توصف بأسلحة التدمير الشامل، فإن العدو يملك منها

ما لا نملك، وعلى رأس ما يملك السلاح النووي والأسلحة الكيماوية والجرثومية التي لا يملك العرب شيئاً منها، وله في مجال أقمار التجسس والتصنيع الحربي، ووسائل الاتصال، والقدرة المعلوماتية الحديثة، ما يتفوق به على العرب مجتمعين. وإذا أضفنا إلى ذلك الدعم غير المحدود الذي تقدمه الولايات المتحدة الأميركية له، وما يقدمه الغرب له عند الضرورة، وقدرة رأس المال والإعلام المهيأة لتعزيز قدرته، ولخوض الحرب النفسية والنجاح فيها، لا سيما بتوظيف الطابور الخامس الذي لم يعد أفواجا من أشخاص "متعاونين.. متعاملين" مزروعين في مواقع مؤثرة جماهيرياً وفي مفاصل صنع القرار فقط، بل أصبح ينتشر في مواقع ومؤسسات وتجمعات وجمعيات تعمل جميعاً تحت مسميات ولا فتات مختلفة، أدركنا أن ميزان القوى مختل لمصلحة الكيان الصهيوني فكيف إذا أضيف إليه حليفه العضوي المنخرط في الدمار والدم والقتل وإشعال الفتن وتحريك نوازع الشر.

وتتجسم هذه الفجوة بيننا وبينه وتتضخم في ضوء المعطيات الآتية:

١- إن ميزان القوى الذي تُقدّم لنا مؤشراتته يقوم على ما يملكه العرب من مقومات القوة العسكرية في مقابل ما يملكه الكيان الصهيوني، ولكن العرب ليسوا رأياً واحداً وقراراً واحداً وقلباً واحداً في الحرب، ولم يكونوا كذلك في أية معركة خاضتها بعض الأقطار باسم القضية وحق الأمة ضد العدو الصهيوني. وعلى ذلك فإن الحساب ينطوي على خلل، وتقوم به مراكز الدراسات العسكرية والجهات المعنية بهذه الأمور لإحداث المزيد من التضليل ولإيجاد مبررات أكثر لدعم قدرة الكيان الصهيوني القتالية وتعزيز عدوانه واستيطانه ومشاريعه التوسعية، وبث اليأس في نفوس أبناء الأمة بعد أن بثت الفرقة في صفوفها وبين دولها وأنظمتها وحكامها. والوضع العربي اليوم أسوأ، في هذا المجال من أوضاع عربية في السابق.. فهناك احتلال مباشر وآخر غير مباشر للقرار والإرادة ولكن.. لا بد من تلمس مخرج.. فالأمة في عهد طغيان الاستعمار الغربي المباشر قاومت وتحدت وقدمت التضحيات وحقت أقطارها الاستقلال.

٢- إن العرب لا يستندون إلى مصادر مضمونة لسد حاجتهم من الأسلحة التقليدية الضرورية للحالات الدفاعية؛ ولا يصنعون ما يمكن أن يلبي تلك الحاجة في أية حدود من جهة، ويعتمدون في تأمينها على الغرب صاحب القرار والموقف المنحاز لمصلحة العدو الصهيوني من جهة أخرى، أو على من لا يستطيعون القيام بتزويد "زبائنه" بشيء إذا ما اعترض الغرب على ذلك. وهو

يعترض دائماً وأبداً ويعطّل أي اتفاق في هذا المجال بإقناع أو تبادل المصالح أو الضغط. وعلى ذلك فإن الخلل سيبقى مستمراً في مجال تأمين الأسلحة التقليدية وصيانتها وتحديثها ما لم يملك العرب قدرة على التصنيع الحربي تمكنهم من تحرير سلاحهم ومن ثم قرارهم بتأمين مطلق لاحتياجاتهم. ولن يتأتى لهم ذلك من دون قرار سياسي وقدرة اقتصادية وإنتاجية للتجهيزات والأدوات والمستلزمات من الصناعات المدنية والعسكرية، ولكن ذلك يحتاج أولاً إلى استراتيجية موحدة تقوم على وحدة رؤية ومصير، ومن ثم التحرك الجماعي في ضوء ذلك. إن العرب لا يملكون تحالفات، ولا يستندون إلى علاقات دولية متينة تمكنهم من نقل العلم والتكنولوجيا وتوطينهما في أرضهم وقيادة العملية الإنتاجية وتطويرها - في كل مراحلها - بأموالهم - وأيدي أبنائهم وعقول أولئك الأبناء. وهم فيما يبدو لا يأمنون على أموالهم في تطوير قدرات بلدانهم بالاستثمار فيها والمساهمة في بناء قوتها الشاملة ابتداء من الصناعات الضرورية للاستهلاك المدني وانتهاء بالاحتياجات العسكرية الدفاعية. ولكن لا مخرج لهم مما هم فيه ما لم يعيدوا النظر بما في نفوسهم وما يحكمهم من علاقات.

٣- إن العرب لا يأخذون بخيار القوة لتحرير الأرض، بل يأخذون بخيار استراتيجي شامل يسمونه "السلام" ولا يملكون قوة لحماية ذلك "السلام" ولا يسعون لامتلاكها. ويأخذون بخيار التسوية أو التصفية وما إلى ذلك من تعابير تدل على توجهات ثابتة، أو استراتيجية، كما تقول قراراتهم. وعليه فإن مجرد التوجه الشامل نحو امتلاك قوة تعزيزاً لأحد اختياري الحسم: سلماً أم حرباً، غير موجود في صلب القرار والإرادة لدى الأقطار العربية بقدر متوازن وبشكل مستقر وبتوجه ثابت. وهذا بحد ذاته يجعل التوجه نحو ذلك الاختيار الحيوي مفقوداً أو ضعيفاً إلى درجة الهزال.

٤. إن العرب، عند استقراء توجهات أنظمتهم وتصرفاتها وقراراتها في معظم الأقطار العربية وفي إطار الجامعة العربية، نجد أنهم يلقون أسلحتهم وأوراقهم كلها تحت قدمي الكيان الصهيوني وحليفه الأميركي، وسوف يشيِّعون تضامنهم "الأدنى" الذي مات ولم يعلن عن موته بانتظار تسوية ما يترتب على ذلك الموت وتحديد موقع القبر وتاريخ التشييع، والتضامن آخر أوراقهم وربما أهمها إذا ما انتعش ونما. وهم بهذا التقلت من كل مسؤولية قومية وحتى وطنية في حالات كثيرة، وفي تبرؤهم من القوة، أية قوة، ومن التوجه نحو التفكير بالسعي لامتلاكها، وفي انصرافهم إلى

الكيان الصهيوني العدو المحتل العنصري البغيض، يطلبون وده والمصالحة معه، وتطبيع العلاقات بينهم وبينه بعد الاعتراف التام به، وإقبالهم على المحتل الأميركي إقبال الفَرَّاش على نار المصباح، يقضون على آخر ما بقي لهم من مقومات القوة المعنوية وهي التضامن، ويضعون جماهيرهم وأجيالها الصاعدة ومستقبل تلك الأجيال في دائرة اليأس ومداره ويسوّغون لها أن تتخلص من المسؤولية، وأن تتوجه نحو اهتمامات سطحية في العمل العربي.

وهذا كله، في نهاية المطاف، يجعل ميزان القوى مختلاً- على أرض الواقع وفي صلب التوجهات السياسية والفكرية والاستراتيجية العربية- لمصلحة العدو الصهيوني الذي يعزز قدراته القتالية في كل ساعة ويعزز صناعاته العسكرية: التقليدية وغير التقليدية، وهو يتبجح، في الوقت ذاته، بالسلام ويتوجه ثابت نحو السلام. كما يعزز مواقع الإمبريالية الأميركية التي تريد مع حلفائها من الغربيين أن تعيد الاستعمار إلى المنطقة من جديد وتقيم فسيفساء متناحرة في أرض العرب على أرضية معطيات عدة.

ولا نجد في منطق الأعداء ذاك خروجاً على طبيعتهم، ولا تراجعاً عن استراتيجيتهم وبرامجهم المعلنة، ولا عن مشروعاتهم الإمبريالية المستمرة: فطبيعتهم عدوانية عنصرية، وبرامجهم استيطانية استعمارية، وحربهم اليوم ذات وجوه استعمارية احتلالية، واقتصادية، وثقافية، ودينية، مستمرة عبر خطط ومخططات واضحة، ومشروعاتهم الاستعماري ماضٍ نحو أهدافه في الهيمنة على الوطن العربي: أمنياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً بعد تقسيمه وإشغال الفتن في أرجائه وعلينا ألا نطالبهم بأخلاقيات لأن ذلك لا يدخل في حساباتهم أبداً على الرغم مما يتخدونه من شعارات تستظل بالأخلاق. وسواء تحقق لهم ذلك بالحرب أم بالسلم، فهم يريدون تحقيقه على أرضية امتلاك القوة وتعزيزها؛ وذلك منطق يستفيد من قراءات للتاريخ على أرضية رفض للأخلاق واستهتار بالحقوق المشروعة للشعوب وبالشعوب ذاتها، وأخذ بمقولات حق القوة، والازدراء بقوة الحق وما يستند إليه الحق من قوانين وقرارات وشرعيات ومشروعات من أي نوع، وإزراء أشد بالأخلاق والروحانيات والعدالة والحرية.

وهذا الواقع المر الذي يسعى فيه العدو نحونا بأنياب وأظفار، ويجرحنا بشفراته صباح مساء، ويجعلنا ننزف كل يوم، ويختطف من بيننا أرواحاً كل يوم، ويستنزف طاقتنا على غير هدى في كل لحظة.. هذا الواقع يجبرنا على مواجهة شق جوهرى من السؤال الذي طرحناه: أعني: هل التفكير بالحرب تفكير له ما يسوغه في عصر تعلن فيه القوى الفاعلة والمؤثرة في سياسة العالم وقراره أنه مضى زمن الحروب، وتشن علينا في الوقت ذاته كل

أنواع الحروب؟!

إن الحقائق المحيطة بنا، وما يجري فعلياً على أرضنا، أرض الأمة العربية كلها، وما يخطط لنا، كل ذلك يشير إلى أن الحرب أو الابتزاز باسمها: أي التهديد بالقوة وإحداث شعور بضرورة الاختيار بين القهر أو الموت تحت تأثيرها، والتهديد والتصعيد المستمرين ضد المقاومة المشروعة للاحتلال، وضد دول تقول لا للاستسلام وتقول بحق المقاومة في مواجهة المحتل، وأرضها محتلة في الوقت ذاته، من الأمور القائمة والمستمرة في وطننا، ولا يفيدنا فعل النعامة شيئاً، فرأس في الرمل وعينٌ مغمضة لا تعنيان غياب الجسم الحي المكشوف تحت الشمس.

إن الحرب، أو تحقق نتائجها تحت ظلها الأسود، أمرٌ مفروض علينا؛ وإن الحرب لم تلغ من التاريخ البشري الراهن، وإن القهر والاستغلال والنهب وحتى القتل الذي يتم باسمها أو تحت مظلتها، من الأمور المستمرة في عالم اليوم الذي يعاد ترتيبه بفعل القوة العمياء وتأثيرها وتدخلها المباشر، ولمصلحة من يملكها ومن اشتط كثيراً في توظيفها ليحقق أطماعه ومصالحه وشهوة التسلط لديه ومصالح حلفائه وعملائه. وتشير الإحصائيات إلى أن العالم خسر في ظل الحرب الباردة وما تلاها أكثر مما خسر في الحرب العالمية الثانية من الأرواح بسبب الحروب الصغيرة أو المحدودة.

وإذا كانت الحرب مستمرة ضدنا بأشكال مختلفة، وتشن علينا يومياً: سراً وعلناً، وتستبيح دمننا وتبيحه، وتدمر بيوتنا ومقدساتنا وبناء دولنا فوق رؤوسنا، فما معنى أن نبذل الوهم الكبير الذي يرمي إلى تخديرنا للفتك بنا أكثر، ونسكت على الكذبة التي تكبر وتتدحرج في شوارعنا ومعارج نفوسنا، وتزداد ثقلًا واتساعاً كل يوم، وتخنق الأمل والإرادة في أعماقنا؟!

إن معناه ألا نستعد لمواجهة ما يُراد بنا، وأن نخضع لما يراد لنا، وأن نقدم ما يُطلب منا، وأن نزداد تهاقناً وضياًعاً وعجزاً، وأن نغرق تماماً في أعماق النيه والموت ومستنقعات الدم، وأن نخسر العاملين الأهم: عامل الزمن وعامل الإرادة الحرة، ليحقق أعداؤنا تفوقاً نهائياً ونرتمي نحن في مستنقع استسلام نهائي، ونخسر الأجيال وتوجهاتها باختيار تربية وثقافة وتطلعات واهتمامات لا تحمي ولا تبني.

إن الحرب النفسية والإعلامية والثقافية والسياسية والاقتصادية مستمرة ضد أمتنا، ومستمر ضدها النخر والتخريب والنقثيت والموت، في الوقت الذي يزداد فيه قضم الأرض ونهب الثروات، وتدمير النفوس والأوطان، والسيطرة على الثروات والقرارات، وتعزيز

الحضور الفعلي للقوة العسكرية الأميركية - الصهيونية بصور مختلفة، كما تستمر الحرب الساخنة، والحرب السرية القذرة، وحرب الفساد والإفساد وشراء الضمائر وأنواع من المؤسسات، ويعلن التهديد بالموت ضد من يقاومون الاحتلال الصهيوني والمشروع الصهيوني واتفاقيات الإذعان ووجود الاحتلال ومشاريع الغرب لتخريب البنى العربية والإسلامية، الروحية والمادية، وضد من يفكرون بأسلوب يغاير ما يريدوه المحتلون والمرتبطون بهم.

الحرب مستمرة بكل الأشكال وغيابنا أو تغييبنا عن حقائقها هو أعتى أشكال تلك الحرب، وعلينا أن نستيقظ لتتخلص من ذلك الكابوس ولنحسن الرؤية.

إننا لا نعشق الحرب، ولا نريدها، وليست لنا أطماع مَرَضِيَّة وتطلعات طغيانيَّة أو استعمارية نحققها بواسطتها، ولكنها مفروضة علينا من الطغاة والمستعمرين والعنصريين والحاquدين على أمتنا وقوميتنا وثقافتنا وعقيدتنا، والمنكرين لتاريخنا ولدورنا الحضاري، ونحن مدعوون للدفاع عن أنفسنا، ومدعوون إلى أن نصرخ في وجه الجلاذ حتى حين تكون السكين على العنق.

بقي أن نسأل بعد ذلك: ما هو الثمن؟! وهل هناك أمل؟! وهل من جدوى لما قد نأخذ به من توجه؟! وعلى عتبة هذا التساؤل أقول: الإنسان ليس مجرد معدة، والأمم ليست قطعاناً، والحياة ليست كأي نوع من الوجود، وحضارات الأمم وعقائدها وهويتها وشخصيتها الثقافية ليست غباراً، والوجود الآمن والكرام لمفرد أو مجتمع أو وطن أو أمة لا يتحقق في هذه الغابة البشرية من دون ثمن ومن دون قوة؛ ومن لا يريد أن يدفع ثمن الحرية والكرامة والأمن والحضارة سيجد نفسه خارج ذلك كله، ويمكن أن يعيش عيش السائمة، وهو الذي يقرر ويختار، ولكل اختيار قيمة وثمر. والثمر قد يكون باهظاً، ولكن الأمل موجود لمن يقرر أن يدفع ثمن الوجود الحي والكرامة، فالإنسان لا يخوض صراعاً من أجل أهداف إنسانية مشروعة من دون ثمن ومن دون أمل ومن دون مسوغات ومشروعية.

من أجل هذا، وانطلاقاً من هذا، وفي ضوءه هل يكفي أن نوجه التحية للمجاهد حسن نصر الله رجل المواقف والمبادئ، صوت لبنان العربي الموحد المقاوم المستقل الحر السيد الوفي المؤدب، الذي قدم صورة لبنان الصحيحة الصادقة من ساحة رياض الصلح في بيروت بعد ظهر يوم الثلاثاء السابع من آذار ٢٠٠٥، وقدم حقائق الموقف والأوضاع، وقال للصهاينة وقال للفرنسيين وللأميركيين ما نقوله معه، وقال للصهاينة ما

نؤكدده وينبغي أن نعمل من أجله:

"لا مكان لكم بيننا ولا عيش لكم معنا.. الموت لإسرائيل". إنه بكل بساطة يوقظ الأمة ويضعها أمام الحقيقة الراهنة، ويدعو الشباب والمناضلين في كل جيل ومن كل جيل عربي، وكل مناضل مجاهد شاب على نحو ما، يدعوهم إلى مواجهة ما يُفرضه أعداؤنا علينا من خيارات.. بغية. ولكن كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

- ٣ -

مستقبل قضية ما هو شبابها.. وهي شابة ما دامت حية في وجدان الأجيال. والشباب مستقبل الأمة ورصيدها والأساس المتين الذي يقوم عليه كل بناء تبنيه ويتحقق به التطلع الذي تبتغيه، به يتعين نوع حضورها بين الأمم ونوع أدائها على طريق التقدم، وعلى قدراته وطاقاته المادية والمعرفية والروحية يتوقف الإنتاج والعطاء والأداء بإبداع في كل مجال من مجالات الحياة والعمل والعلم.

وإذا كانت أمتنا العربية تعاني في وضعها الراهن من مشكلات صعبة وأزمات حادة وتعيش أوضاعاً متردية فإن انعكاس ذلك يكون شديداً على الشباب ووطأته تزداد شدة على حاضرمهم ومستقبلهم وسبل خروجهم بها من أزماتها بخروجهم أولاً من أزماتهم، فكيف يكون وضع أمة، إذا كانت مشكلاتها في شبابها، وكيف تتحدد معالم المستقبل لها ولهم إذا كان الضياع أو الإحباط أو الانبهار والانهيال يسيطران على السياسات والرؤى والممارسات والتطلعات والآمال التي لها ولهم.. وكيف يقبلون على فكر يسفّه، وقضايا تبتذل، وأهداف تتم السخرية منها ليل نهار؟!

إن نظرة متأنية نلقيها على التربية الاجتماعية والرسمية، في البيت والمدرسة والمجتمع، وعلى نوع المعرفة التي يهتم بها الشباب ومناهج التعليم المتاحة ومدى استفادته منها من جهة، وعلى قيم الشباب واهتماماتهم وتطلعاتهم التي يصنعها أو يساهم في صنعها على الأرجح: إعلام وافد وآخر راكد، أو راقد في التبعية والتخلف ومخترق لدرجة التشطي من جهة أخرى، تجعلنا في حالة من القلق والأرق تضاعف همومنا الناشئة عن تردي الحاضر ملقية ظلالاً قاتمة على المستقبل.

فالشباب يضع الهوية والأصالة والتراث موضع تساؤل من حيث الجدية والجدوى، ولا يخوض معترك هذا التساؤل على أرضية المعرفة الواعية بما لديه والقدرة على إصدار حكم

واختيار قائمين على معيار سليم يستمد مقوماته وقيمه من الانتماء والتمايز، وإنما ينطلق في أكثر الحالات من اتهام جاهز للذات يروج له بأشكال مختلفة على أرضية مقولة تزعم أن الحداثة الضرورية لدخول العصر وللتقدم تتنافى مع الأصالة والتراث ومقومات هوية منها اللغة والعقيدة ومعطى التقاليد العادات والتمايز الاجتماعي وكأن التحديث والأخذ بما ينجزه والعلم والعمل به يتنافى مع العربية بما حملت من معارف وفكر وإبداع ومع الإيمان وما يوجبه ويوحى به، ومع الهوية القومية بمقوماتها، ومع الأخلاق والأعراف الاجتماعية والسلوك تلك المحكومة بقيم العروبة والإسلام!!

وبعض شبابنا اليوم ينصرف عن جهاد النفس وعن العلم المحض والعمل المجهد ونتأجه إلى المتعة السهلة والاستغراق في نعم مجتمع استهلاكي وقيمه ومواصفاته وما يرفعه من قيم ومعايير، وهو في ذلك يعيش التباساً يزيد درجة الإحباط وضعف الرؤية.

ذلك أنه إذا كانت الحياة لا تُعاش إلا مرة واحدة فقط وعلى المرء ألا يضيع فرص عمره وحظوظه من السعادة فيها، فإن ذلك بالذات يقتضي التدقيق في نوع الفرص ومعاني السعادة التي ينبغي أن يقتصرها الأسوياء ويسعون إليها، وأنها ينبغي ألا تتنافى مع المكانة المرموقة بين الناس، والكرامة الشخصية التي لا تتفصل عن كرامة الأمة والوطن والانتماء إليهما، والحرية المسؤولة التي تجعل الحر الحق هو الذي يحرره الوعي وامتلاك القوة بشمول معناها، وهو ذاك الذي يتخلص من عبودية الجسد والشهوة والطمع الطموح المريض، ليكون حراً بالمعرفة وبالعبودية لله وحده وليس لعبيده.

وأناس أمة لا يملكون أن يحرروا أرضهم واقتصادهم وقرارهم وسيادتهم، لا يحققون الحرية في استهلاك إنتاج الأقوياء المستغلين وتقليدهم في أشكال الملابس والمأكول والسلوك، والسير في طريق الانتحار المعنوي والمادي على المدى البعيد بالعيش في وهم امتلاك منتج القوة بالقوة الشرائية، واتباع مسلك الانحلال في إطار وهم ممارسة الحرية من كل قيد.

وشبابنا الذي ورث خيباتنا وإحباطنا وحصد الزؤان الذي بذره جيل أو أجيال سابقة يغرق ويغرق ما تبقى له ولنا من أمل إذا اعتقد أن خلاصه يكمن في الخروج على ما تبقى من أهداف وقيم والتزامات يرتبها الانتماء لأمة تعيش واقع الإحباط أو الضعف، وأخذ بالتحلل من كل تبعات الماضي والحاضر وأهداف المستقبل، وقرر الانطلاق من رؤية محدودة منقوصة تصور له أن كل ما دعا إليه الذين لم يحققوا انتصاراً عربياً وتقدماً علمياً ويقظة معرفية منقذة، يجب التخلص منه وهجره ليكون من بعد ذلك وربما على أنقاضه

تقدم وتكون حياة بلا أزمات خانقة ومنغصات عيش، ويكون دخول عصر المتقدمين الأقوياء. فالمعارك التي لم تحسم والصراعات المستمرة، ومعترك التحرير والتحرر والتقدم العلمي والتقني والاجتماعي التي خاضتها أجيال سابقة ولم تصل فيها إلى نصر ونجاح تامين، وخلفت كل هذا الرصيد من الألم المر والأمل المهيض الجناح.. خاضتها تلك الأجيال في ظل ظروف صعبة جداً من المؤامرات والتخلف والأمية وفقدان القدرة واختلال التوازن الذي يعود لأسباب ومعطيات بعيدة الغور في التاريخ. ويستطيع النظر المنصف أن يرى كم حققت الأمة من تقدم في بذل الجهد ومتابعة الجهاد وتقديم التضحيات إذا وقف على حجم التآمر والتواطؤ وقدراته وعلى حجم الإنجازات ومداها، في ظل معطى علم حقق القوة وقوة تمكنت بالعلم فتيات لأصحابها تقدماً حسب متوالية هندسية في حين نتقدم نحن - إن تقدمنا - حسب متوالية عددية، والفرق كبير وما ينبغي أن يقطع على طريق تحقيق توازن ما يحتاج إلى نفس طويل وصبر جميل وعمل دؤوب وهمة عالية وعريكة لا تلين.

وشبابنا الذي يقع في كل دقيقة من يومه تحت تأثير الضخ الإعلامي الذي يُشهر في وجهنا اليوم أعتى سلاح يوجه ضد الثقة بالنفس والمستقبل، ولا سيما المسموع - المرئي من ذلك الإعلام يحتاج في معركة استعادة الثقة والانتماء إلى إعلام وطني وقومي خال من الألغام والاختراق القتال ومرترقة الأقوال والمواقف، يوازن الكفة ويرد على مقولات الترويج والتخريب والتشويه والافتراء، ويدخل معترك المنافسة بمصداقية وعلم ومهنية عالية وأخلاقية أعلى وباقتدار تام من حيث شكل الأداء ومضمونه وفنيته ومهنيته وتشويقه ومواضيعه ونوع المعرفة التي يقدمها والمعلومات التي يبثها والقيم التي يرفعها ويريد أن يرسخها.

إن مستقبل الأمة رهن بما يحققه شبابها من وعي وثقة، وما يكتسبه على أرضية ذلك من علم ومعرفة وتقدم في التحصيل والتطبيق، وما يملكه من ثقة بالذات، وقيمه من صلات واعتماد متبادل قائم على الثقة بالآخر الشريك في المصير، ليكون راغباً في خوض صراع وقادراً على الفوز فيه أو مالكاً لمعطى الأمل من أجل خوضه والفوز فيه. فكيف يتسنى له ذلك من دون اقتناع تام بتحويل جهده من المتعة والاستمتاع بما يقدمه مجتمع الاستهلاك ومغريات الشهوة واللذة المادية العابرة إلى جهاد النفس وإجهادها في ميدان اكتساب العلم والمعرفة وتحويل العلم إلى تقانة عالية في الإنجاز والإنتاج، وامتلاك القوة على أرضية العلم والإيمان والعمل بهما، ليضمن حضوراً فاعلاً في ميادين التقدم جميعاً يكفل له الخروج من وضع التخلف والتردي إلى وضع منقذ تزداد فيه خصوبة الروح وتتعزيز قدراتها على تذوق المتعة فيما يجعل الإنسان حراً وكريماً وعزيزاً في تربة وطنه

وتربة ثقافته، قادراً على تحقيق حضور متألق بين الأمم وعلى تقديم البديل الذي من شأنه أن يجعله فذاً في الاستمتاع بموقع متميز وهوية متميزة ومجتمع تتوازن فيه حاجاته المادية والمعنوية فيتوازن روحاً وجسداً، وينعكس ذلك التوازن متعة فذة هي الأخرى لدى الفرد الذي يأكل مما ينتج ويحمي ما يبني ويصون ما يعتقد، ويجد للذة الجسد وقعاً في الروح وللذة الروح استجابة من الجسد.

إننا مدعون لنقدم لشبابنا القدوة والامكانيات التي تساعد على حل مشكلات العمل وتكوين الأسرة والخروج من دوائر الفساد والإفساد، وإشاعة المسؤولية والمساواة، وشبابنا مدعو للتأمل فيما يلقي عليه من أسئلة وتبعات وما يواجهه من تحديات، مثل ما نحن مدعوون إلى التفكير بما ينقذه مما يعاني منه ليكون هو لنا قوة، وليكون لنا نحن فيه أصلاً أمل ومستقبل، وذلك لا يُنال إلا على جسر من التعب، حيث ينذر الشباب نفسه ليحقق له ولأُمته ما يريد وما تريد. تلك مهام صعبة وشبابنا لها بكل ثقة واقتدار. ورحم الله من قال :

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مَرَادِهَا الْأَجْسَامَ



انتفاضة الأقصى: أبعاد ونتائج وآفاق

د. حسين جمعة

جرت أقلام كثيرة بالحديث عن المقاومة عامة والانتفاضة خاصة، واختلفت حول جدواها وأشكالها، ونتائجها ... وبخاصة بعد أن تخلصت إسرائيل - بالسلم - من ياسر عرفات.

ويحاول بحثنا إثبات ماهية الانتفاضة / المقاومة الفلسطينية باعتبارها غدت طقساً يتجدد مادام الاحتلال قائماً للأرض والحياة والوجود ... وفي إطار التجربة التاريخية، واستناداً إلى المبادئ الدينية والإنسانية والشرائع الدولية ومبادئ الحق الطبيعي في الوجود ...

ومن هذا كله انبثقت آفاقها بعد أن عرض البحث لأبعادها ونتائجها ... فمن أبعادها أن انتفاضة الأقصى (٢٨/٩/٢٠٠٠م) أعادت باندلاعها الزمن النضالي العربي كله إلى الظهور وظهر معها صحة سياسية ونضالية، حين استندت إلى مفاهيم الشهادة الراقية باعتبارها دفاعاً عن الوجود ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والحياة ... مما جعلها تسقط مزاعم الكيان الصهيوني حين صور نفسه للعالم بأنه المعتدى عليه، وبأن المقاومة تنشر الإرهاب ضد أبنائه ... ولهذا فمن حق الكيان الصهيوني - كما يزعم قادته - أن يقوم بإجراءات أمنية مهما بلغت وحشيتها للدفاع عن نفسه ...

ولكن انتفاضة الأقصى في عامها الخامس أخذت توضح بأن إسرائيل إنما هي دولة إجرامية تتحايل على القانون الدولي ومن ثم فهي التي تصنع الإرهاب وتزرع الرعب الذي امتد إلى أبنائها فأخذوا يفكرون بالهجرة المعاكسة بعد أن أصيب كثير منهم بالأمراض والشدوذ، بل شرع بعضهم يقدم على الانتحار ... ولا سيما بعد تراجع التنمية لدى الكيان، وازدياد الفقر، وسقوط مفهوم الأمن القومي (الإسرائيلي) ... واحتلال البنية الديمغرافية للسكان حيث أثبتت المرأة الفلسطينية أنها أهم عنصر في معادلة الصراع.

أما على الصعيد الفلسطيني فقد تعمقت هوية الإنسان الفلسطيني طفلاً أم شيخاً وأدرك أن المقاومة الشعبية النضالية وحدها من تحقق له تطلعاته ولذلك لا بد من التضحية. ولهذا دخلت المرأة في عمق الصراع العربي الإسرائيلي، وطورت المقاومة أنظمتها وخططها، وأخذت ترسم آفاقها المستقبلية بخلق الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الكيان الصهيوني والدول الداعمة له، ومن ثم تنمية آليات الحفاظ على الوجود والأرض بتربية وطنية ترتبط بالعمق العربي والإسلامي والإنساني، وتوعية طروحات الصهيونية حول أرض الميعاد والأرض الخالية، وخرافة شعب الله المختار، وفضح كذبة هيكل سليمان بعد أن أثبتت المكتشفات الأثرية اختلاقها.

ولكي تصل إلى ذلك لا بد من وعي وخبرة وثقافة توصل لذلك كما توصل للثقافة العربية الإسلامية

... واتخاذ القدوة النضالية الحسنة ... والإسهام الحقيقي في تبني آليات إعلامية وتقنية فضائية لإيضاح حقيقة الكيان الصهيوني، لكسب الرأي الدولي والوقوف من الآخر داخلياً وخارجياً موقف الواعي المنفتح على أفكاره دون اتهام أو محاباة.....

وبهذا كله تنتصر الانتفاضة / المقاومة، وإن استطاعت قوى داخلية وخارجية أن توقفها إلى حين ... إنها الطقس المختزن في داخل كل فرد فلسطيني وعربي منذ اليبوسيين إلى ثورة البراق ثم انتفاضة الحجارة حتى اليوم، إنها المعادل الوجودي للحياة في الرّدّ على كل حيل الصهيونية وغدرهم و واغتصابهم للأرض ... فالضحية لا تعيش مع المفترس.

انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠ م) أبعاد ونتائج وأفاق

قد يقول قائل: إن الحديث عن انتفاضة الأقصى التي اندلعت شرارتها إثر تدنيس أرثيل شارون للأقصى الشريف يوم دخله في (٢٨/٩/٢٠٠٠م) لم يعد جديداً ... فقد جرت كثيراً أفلام الدارسين في الوقوف عند أبعادها ونتائجها وذهب غير واحد من تلك الأفلام إلى التشكيك بجذوى المجابهة المسلحة للفلسطينيين والعرب، لاختلال الموازين العسكرية والدولية، لصالح العدو الاستيطاني الصهيوني ومن ثم الاحتلال الأمريكي للعراق وغيره ... وأخذ التفاضل بين أسلوب المقاومة المسلحة وأسلوب المقاومة السلمية بكل أشكالهما يجري على الألسنة هنا وهناك.

ونرى أنه ما من باحث في أي موضوع قد قال الكلمة الأخيرة، ولهذا فإن ما قدمه الآخرون في الحديث عن الانتفاضة أصبح جزءاً لا يتجزأ من مادة كل بحث ومن ثم فقد أفاد بحثنا منها لكنه يطمح إلى أن يضيف كلمة أخرى في شأنها وإذا كانت هذا الرؤية تمثل مشروعية البحث العلمي فإن أي بحث يعالج القضايا الوطنية والقومية الكبرى يصبح ذا نكهة خاصة لأنها تمثل روح التعبير عن الوجود والانتماء ...

ومن هنا أرى أن العلاقة علاقة وجودية بين المخلوق عامة وبيئته أو مجاله الحيوي كما يقال في عالم الحيوان .. فالحيوان - أيّاً كانت قدراته - يلتصق غريزياً ببيئته ويدافع عنها، لكن علاقة الإنسان بالمكان تتخذ أشكالاً راقية من الانتماء والتفاعل لما أودعه الله فيه من سر إعمار الأرض وتسخير كل شيء لخدمته في الوقت الذي حرم الله على الإنسان قتل أخيه الإنسان ... لكن بني إسرائيل كانوا على الدوام أعداء المحبة والإنسانية، لهذا خصهم الله - سبحانه وتعالى - بحكم النهي عن القتل الذي استمرؤوه بحق البشرية فقال: « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك لمسرفون » (المائدة ٣٢/٥)، فتعاليمهم في التوراة والتلمود وغيرهما تثبت عنصريتهم، وهمجيتهم في سفك الدماء وبراعتهم في الغدر والخداع والتعامل بالربا و [١] ومن ثم فإن الحكم واضح في بني إسرائيل الذين قَدَسوا القتل والفساد في الأرض، إذ كان واجب البشرية دفع أذاهم وشروهم أينما وجدوا ... وليس انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (٢٨/٩/٢٠٠٤م) إلا شكلاً من أشكال مجابهة الفساد والقتل (والقتل أنفى للقتل) كما قيل على الألسنة.

فدخول شارون حرم المسجد الأقصى ليس مجرد زيارة مباحة في مفهوم الشرع الإسلامي، وإنما

رسالة صهيونية مبنية على معتقدات كاذبة تؤمن بتأسيس مملكة إسرائيل وبناء هيكل سليمان المزعوم بعد هدم الأقصى الشريف، ولا سيما أن عدداً من الصهاينة العنصريين قد صرحوا بأن الطائرات الإسرائيلية ستقوم بذلك بعد أن أخفقت عملية الأنفاق المحفورة تحته، ولم تفلح بهدمه، أو إثبات أي صلة لليهود به فضلاً عن ارتباط فلسطين اسماً وتاريخاً بالشعب الفلسطيني كما دلت عليه المكتشفات والآثار [٢].

لهذا كله كانت انتفاضة الأقصى التي فاجأت العالم كله بما فيه الصهاينة، بعد أن تهيأت لها العبر والدروس من الانتفاضتين السابقتين: انتفاضة الحجارة لعام (١٩٨٧) التي أوقعتها محادثات أوسلو ومعاهدتها في (١٩٩٣/٩/١٣) وانتفاضة النفق سنة (١٩٩٦) التي أوقعتها محادثات واشنطن في (واي ريفر) سنة (١٩٩٨) [٣].

لقد رجح للشعب الفلسطيني في الداخل وفي منافي الشتات أن المجابهة المسلحة هي السبيل الوحيد والأخير لمقاومة غطرسة الإبادة الوحشية الصهيونية المنظمة وبخاصة إثر الاخفاقات السياسية المتلاحقة للسلطة الفلسطينية التي وضعتها كل قراراتها في السلة الأمريكية خاصة والأوربية عامة، فكانت الانتفاضة وسيلته الوحيدة التي يملكها أمام القتل والتجهير [٤] والإلغاء والوجود ...

فانتفاضة الأقصى بحكم وضعها التاريخي والوطني والقومي والاجتماعي والسياسي والفكري أدركت أن قدرها الحتمي يتجلى في الدفاع عن الوجود والمصير، بعد أن تركزت في أبعاد كثيرة تعد في طبيعتها نتائج في آن معاً ومنها :

١- أعادت الانتفاضة الزمن الوطني والقومي كله ودفعه واحدة إلى الوراء، فأكدت أن الصهاينة يريدون فلسطين أرضاً بلا شعب، لأنهم يطبقون تعاليم التلمود وكتاب (الكابلاه) أي (الرعب والإرهاب) بحق السكان الأصليين لفلسطين، ويرون أن أرواح هؤلاء الفلسطينيين نجسة على حين أن أرواحهم من روح الله ... لأنهم شعب الله المختار [٥].

لهذا مارسوا من قبل عمليات الإبادة الجماعية، وفق أحط المعتقدات التي يؤمنون بها ليصلوا إلى أهدافهم، وإقامة دولتهم المزعومة من الفرات إلى النيل كما صرح بها ذات يوم وزير الدفاع السابق (موشي دايان) لصحيفة (الجيروزلم بوست) في (١٠/٨/١٩٦٧م) إذ قال : ((إذا كنا نملك التوراة وكنا نعتبر أنفسنا كشعب تورا فإنه يجب أن نملك الأرض التوراتية، أرض القضاة والشيخو والقدس والجليل وأريحا وأمكنة أخرى)). إن موشي دايان ومن ثم شارون يطبقون ما جاء في سفر التكوين رقم (١٣-١٤-١٥-١٧) إذ روى السفر الخامس عشر أن الرب عقد مع ابراهيم عهداً يقول : ((لنسلِك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير)) أي الفرات [٦]. أنهم يرون قتل الأغيار جزءاً من قرابين مقدمة للإله الذي يرعى عظمة مستقبلهم السعيد [٧].

فالانتفاضة كانت تتحرك في صميم هذه المفاهيم التي آمن بها الصهاينة وتتشكل فيها أبعادها المتعددة ... ولا سيما ما يتعلق بالصحة الفكرية

٢- شكلت الانتفاضة صحة فكرية فاعلة في داخل فلسطين وبلاد العرب والإسلام والعالم كله لفهم حقيقة الكيان الصهيوني، وتجلت هذه الصحة دراسات وأبحاثاً كثيرة حين خاضت غمار المجابهة علانية. ولا شيء أدل على هذا من تصريح أو بيان غابريل ماركيز الذي رفض جائزة نوبل للآداب لكيلا

يقترن اسمه باسم مناحيم بيغن وإرييل شارون شاربي الدماء [٨].

فكثير من المثقفين والمفكرين والأدباء الشرفاء لم يكونوا قادرين على اقتحام ساحة الانتفاضة واكتشاف أسرارها والوقوف إلى جانب المستضعفين في الأرض لولا إدراكهم لما يجري في الأرض المحتلة من إبادة جماعية للشجر والحجر والبشر ولولا أنهم عاشوا حقيقة هذا البعد من الصخرة الواعية ...

٣- مارست انتفاضة الأقصى مبدأ التحام القوى السياسية الداخلية ولا سيما قيادات الانتفاضة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية ... فقد اتفقوا جميعاً على التحرر الوطني في إطار تعزيز الهوية الفلسطينية العربية والإسلامية ... ثم انتقل اتفاقهم إلى تعاون فاعل ومثمر على صعيد المجابهة العسكرية بكل الوسائل ... وهذا البعد لم يتوافر لانتفاضة الحجارة سنة (١٩٨٧م).

٤- عاشت انتفاضة الأقصى مفاهيم الشهادة الراقية، فلم يكن الاستشهاد هوية ولا انتحاراً لسبب ذاتي أو اجتماعي وإنما هو دفاع مشروع عن الوجود والحياة فأطفال الحجارة كبروا ونضجوا نتيجة المعاناة الطويلة لممارسة العدو الوحشية في تجويع البطون واستمرار الحصار وتجريف الأرض وتهديم البيوت على العجائز والنساء والأطفال ... لم يكن لهذا الطفل خيار إلا الدفاع عن وجوده وحياته ولا يضيره أن يموت في سبيلهما وعلى أرضه. فكذب مقولة موشي دايان : الكبار يموتون والصغار ينسون وتنتهي قضية الشعب الفلسطيني

ومن ثم فكل طفل كان يتمنى أن يعيش طفولته كبقية أطفال العالم وأن يمارس حياته بهدوء وأمان، وأن يحظى بأقل التعليم والمعرفة دون قهر أو ذل أو قتل أو إغلاق لمدرسة ... لكن الصهاينة أعداء الطفولة والإنسانية لم يتركوا له شيئاً، حتى الحلم بوطن محدود قتلوه في نفسه وسرقوه من مخيلته

فلو أحصينا ما قامت به إسرائيل وفق العديد من الإحصاءات ولا سيما إحصاءات الأمم المتحدة وأقوال مبعوثها (تيري رود لارسن) لرأينا - منذ بداية الانتفاضة - ما يأتي: [٩]

أ- قتلت ما يزيد على (٣٧٠٠) فلسطينياً فيهم (٦٥٢) طفلاً و (٢٤٢) امرأة منهم من سقطن شهيدات في أثناء الذهاب إلى المشفى ...

ب- جرح ما يزيد على (٤٤٠٢٢) شخصاً، جراحات كثير منهم خطيرة وأخرى عطلت حياة الجرحى الطبيعية ولا سيما أنها تستخدم الأسلحة المحرمة دولياً كما تستخدم طائراتها وصواريخها استخداماً غير قانوني ولا شرعي ...

ت- كما أسرت ما يزيد على (١٥٠٠٠) أسير في سجون لا تليق بالبشر مع التعذيب والعقوبات القاسية المحرمة دولياً كما في المادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام (١٩٤٨م) والمادة السابعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام (١٩٩٦م) وغيرهما ...

ث- إنها قتلت (٣٠٠٠٠) من رؤوس البقر والأغنام والماعز

ج- إنها قلعت ما يزيد على (١٠٠٠٠) شجرة

ح - إنها دمرت (٥٧٠) منشأة فلسطينية

خ - صادرت (٢٠٨١٥) دونماً لصالح الجدار العنصري فقط، فضلاً عن مئات الآلاف المصادرة

من قبل لبناء المستوطنات وغيرها [١٠].

د - إنها فصلت العمال الفلسطينيين، فأوجدت أزمة عطالة وبطالة زاد عدد العاطلين على (٢٦٠) ألفاً، فضلاً عن سياسة التهجير للعرب بأشكال شتى مرعبة [١١].

فإسرائيل ظهرت بكل وضوح أنها دولة إرهابية إجرامية خارجة على القانون الدولي، والشرائع السماوية والإنسانية فهي لم تكتف بإيقاف التنمية الفلسطينية حتى بلغت خسارتها ما يعادل (١٥) مليار دولار فتراجع القطاع الزراعي بنسبة (٧٥%) عما قبل والقطاع الصناعي بنسبة (٦٥%) فازداد عدد الفقراء حتى بلغوا مليوني نسمة لا يزيد إنفاق أفضل واحد فيهم على دولار واحد باليوم ... وإنما عمدت بكل وحشية وهمجية إلى قتل بشع بحق الفلسطينيين إنها تمارس القتل المنهجي والاغتيالات المنظم الفردي والجماعي، لأن ((القوة تأتي قبل الحق، وبغير القوة لا يقبل شعب من أرضه)) كما قال هرتزل [١٢].

إن إسرائيل تمارس إرهاب الدولة مستعملة الآلة العسكرية الأمريكية كالسيارات المفخخة وطائرات الفانتوم والأباتشي والقذائف المسمارية و والجدول كثيرة وطويلة كلها تثبت جرائمها ومجازرها التي لم يسلم منها طفل ولا امرأة ولا ضعيف ولا عاجز ومن ذلك مثلاً فضلاً عن اغتيالات الموفدين الدوليين وغيرهم: [١٣].

أ - اغتيال المهندس يحيى عياش في مطلع عام (١٩٩٦م) بوساطة هاتقه النقال

ب - استهدفت الشيخ صلاح شحادة في (٢٣/٧/٢٠٠٢م) فقتلت (٢٨) شخصاً بريئاً غالبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ.

ج - اغتيال ستة أشخاص منهم نضال فرحات (١٦/٢/٢٠٠٣م) عن طريق تفخيخ طائرة لا سلكية (لعبة أطفال) وتنجيرها عن بعد.

د - اغتيال محمد العبيدات في بيت لحم يوم (١٣/١٠/٢٠٠٢م) بوساطة تفجير هاتف عمومي.

هـ - قتل (١٧) قيادياً من منظمة حماس وجرح كثيرين آخرين معظمهم من الأطفال و النساء يوم (٢٠/٣/٢٠٠٣م) حين فجرت سيارة عند مدخل مخيم النصيرات.

و - محاولة اغتيال عدد من الفلسطينيين فكانت الحصيلة جرح أربعين شخصاً جراح بعضهم خطيرة في أيلول (٢٠٠٤م) في ميدان الياسين شرقي الشجاعة حين ضربته بالصواريخ من طائرات الأباتشي وغيرها ...

ز - اغتيال محمود أبو طوالبه يوم (٢٣/٣/٢٠٠٤) حين وجهت طائرة اسرائيلية صواريخها إليه برفقة شيخ المجاهدين المرحوم أحمد الياسين.

ح - اغتيال شيخ المجاهدين أحمد الياسين وهو خارج من صلاة الفجر يوم (٢٣/١٠/٢٠٠٣م) حين وجهت الطائرات صواريخها إليه وهو مقعد في كرسيه.

ط - اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي يوم (١٧/٤/٢٠٠٤م) حين قصفت الطائرات النفاثة الإسرائيلية منزله بالصواريخ الموجهة.

ي - اغتيال عز الدين الشيخ خليل وسط دمشق في حي الزاهرة بسيارة مفخخة فجرت عن بعد بوساطة العملاء والخونة يوم (٢٣/٩/٢٠٠٤م).

إن قائمة الإجرام طويلة وأسماء الشهداء كثيرة فقد حاولت اغتيال السيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في الأردن سنة (١٩٩٧م) ولكن الله أمد بعمره، على حين اغتالت ما يزيد على (٤٠٠) شخصية قيادية بكل الوسائل التي تملكها وبشكل منظم ومخطط له دون أن يردعها قانون دولي، أو بقايا من ضمير إنساني فالقتل عند قادة إسرائيل يعادل وجودهم كما قالت غولدماير ((أنا أقتل، فأنا موجودة)) [١٤].

ويمكن أن نشير إلى أسماء آخرين من الشهداء الذين اغتالهم إسرائيل ومنهم (جمال منصور وجمال سليم ومحمود أبو هنود ومهند الطاهر وإبراهيم بني عودة ونصر جزار وأيمن حلاوة ومهند أبو حلاوة ويسر رزوق وحسين عبيات وثابت ثابت وأحمد ربحان ورائد نزال وناصر عويس وأبو علي مصطفى قائد الجبهة الشعبية).

إن قادة الحركة الصهيونية يتبارون في ارتكاب المجازر الوحشية الجماعية وكذلك هم أطفالهم الذين يتلذذون بقتل العرب إذ تقول تلميذة يهودية صغيرة ((تستبد بي رغبة جامحة لقتل العرب جميعاً))، ثم يُشرعُ حاخاماتهم ذلك كله [١٥].

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لم تصر دولة الكيان الصهيوني المدعومة بقرار الفيتو الأمريكي وآلته العسكرية على ارتكاب إبادة الجماعية بحق الفلسطينيين؟ والجواب لا يكمن -فقط- في التخلص من أكبر عدد، وإرعابهم لإكراههم على الهجرة والاستيلاء على أملاكهم واستجلاب يهود العالم بدلاً منهم ... وإنما يكمن -أيضاً- في خلط الأوراق بين مفهوم الإرهاب والمقاومة وإيهام العالم بما تتبناه من مخططات القتل والشر بعد أن كشفت انتفاضة الأقصى زيف ما تقوله، وخداعها المستمر لكي تتصل من كل قرار دولي فهي تتبنى سياسة القتل العشوائي لأهداف منها :

١- إظهار إسرائيل بصورة الدولة الشرعية المعتدى عليها من الإرهاب الفلسطيني والعربي والإسلامي مستغلة اعتراف الدول بها في هيئة الأمم المتحدة، بما فيها الدول العربية والإسلامية ولا سيما بعد قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و (٣٣٨)

فهي تظهر للعالم أنها لا تمارس عملية القتل المنظم والتدمير المنهجي وإنما تقوم بتخليص العالم الحر من الإرهابيين وشرورهم لأنهم يهددون السلام العالمي والعالم الغربي المتمدن ... ولهذا وجب التخلص من هؤلاء الإرهابيين في إطار الدفاع عن الذات وعن السلام وقد نجح شارون في ربط محاربته للفلسطينيين تحت اسم الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م) بمكافحة أمريكا للإرهاب في أفغانستان على الرغم من أنه من عتاة الإرهابيين كدولته الخارجة على القيم والشرائع والقوانين.

٢- إظهار القدرات العسكرية الفائضة عند الصهاينة لزرع الرعب والخوف في نفوس الشعب الفلسطيني وقادته ... فهذه الآلة العسكرية المتفوقة قدرة وتقانة يمكنها النيل من رموز المقاومة والوصول إليها أينما كانت لهذا عمد الصهاينة إلى أمرين اثنين:

الأول : القيام بضربات وقائية واستباقية عسكرية بالطائرات النفاثة بطيار ومن دون طيار، وبطائرات الأباتشي، وبالصواريخ والقذائف المسماية وغيرها ... ونفذت ذلك مسوغة إياها بالدفاع عن الذات، وفي إطار مظلة مكافحة الإرهاب الدولي، ... إنها تنفذ مجازرها الجماعية وإبادة الوحشية تحت هذا الشعار ... وهذا ما تمارسه أمريكا في أفغانستان والعراق ... مستغلة

هيمنتها على المحافل الدولية، وسيطرتها على الإعلام والاتصالات والفضائيات

الثاني: شراء ضعاف النفوس من الفلسطينيين والعرب ومن باعوا أنفسهم للشيطان وخانوا أوطانهم وعقيدتهم ... فجندت إسرائيل عدداً منهم فكانوا مرتزقة مخلصين ينفذون أوامرها في ظل مبدأ التهيب والترغيب ... واستطاعت أن تجند نحو (٦٠٠٠) عميل، وبهذا أحدثت شرخاً كبيراً وقاتلاً في بنية المجتمع الفلسطيني ثم العربي.

٣- المحافظة على الروح المعنوية للصهاينة، وتحريرهم من عقيدة الخوف والرعب والاضطراب والقلق والأمراض النفسية الأخرى التي استشرت فيهم وتعاضمت في أنماطهم السلوكية، ومن ثم قتل الروح المعنوية المتصاعدة التي بدأت تتعزز لدى الفلسطينيين والعرب وتدفعهم إلى الأمل والمستقبل.

٤- فرض الصيغ الأمنية الخاصة بها لإنجاز عملية السلام / التسوية أو ما يسمى بعملية وقف إطلاق النار للتوصل من القرارات الدولية، ولاسيما قرار حق العودة رقم (١٩٤) تاريخ (١١/١٢/١٩٤٨م) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والقاضي فيما تضمنه من قرارات بالسماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم بعد انقضاء محنتهم ... وعدم تقسيم القدس وفق أي نظام بما فيه القرار رقم (١٨٦) تاريخ (١٤/٤/١٩٤٨م) القاضي بتعيين وسيط دولي لحماية المواقع المقدسة ... وقبله القرار (١٨١) تاريخ (٢٩/١١/١٩٤٧م) الذي قضى في بنده الثالث بتقسيم القدس وفق نظام حكم دولي يرأسه مجلس وصاية علماً أن اليهود آنذاك لم يشكلوا نسبة سكانية تزيد على (٨%) ولا يملكون من الأرض إلا (٥%) [١٦].

وبهذا كانت إسرائيل تهدف من عملياتها الإجرامية، واغتيالاتها المنهجية إلى كسر التشبث بالأرض والعودة إليها. وهي في آن معاً تهدف إلى تفرغ فلسطين المحتلة من السكان حين تجبرهم وحشيتها على التهجير مرة أخرى إلى الأردن أو إلى أي مكان آخر، ومن ثم تتقلب على خارطة الطريق وهي الخديعة الكبرى لإدارة بوش الابن في الوقت الذي نتساءل: كيف يمكن لجائع، أو ذليل مهجور، أو إنسان استوى لديه الموت مع الحياة ألا يثور على جلاديه، ومغتصبي الحياة من أخوته أو أبنائه، أو أقربائه ؟

فإذا تركنا المفاهيم الدينية - وهي أصل راسخ في نفسية الفلسطيني وثقافته - فإن انتفاضة الأقصى حققت نتائج باهرة في صميم معادلة الوجود والحياة والتعاؤل بنيل الحرية وهي نتائج تنبثق من الأبعاد السابقة وأبرزها:

١- أظهرت الانتفاضة أن الكيان الصهيوني دولة إجرامية إرهابية لا تقوم إلا على قتل الأغيار، والتلذذ بسفك دمائهم. فالصهاينة يرسمون خطط الاغتيال والقتل الجماعي والتهجير والتفريغ للفلسطينيين من أرضهم. ومن ثم فإن الانتفاضة أبرزتهم بأنهم أعداء السلام مهما تقولوا بأنهم لم يجدوا شريكاً للتفاوض معه في السلطة الفلسطينية ... لقد اتضح للعالم كله أن إسرائيل تريد تدمير البنية الاجتماعية والأسرية للشعب الفلسطيني ومن ثم تدمير البنية الوطنية والقومية، فلا يتذكر إلا الموت والقتل والتدمير والتصفية التي تمارسها آلة الدمار الوحشية ...

إنه التاريخ يكرر نفسه كما تصوره كتبهم لتعزيز الرعب في نفوس الناس وكما أظهره في شخصية يوشع بن نون التي اصطنعوها مثلاً لهم في القتل والدمار والفساد فالصهاينة يزعمون أن فلسطين - ويسمونها يهودا - سقطت بالدم والنار وستنهض بالطريقة نفسها [١٨].

٢- أثبتت الانتفاضة أن وعي أطفال فلسطين في كل مكان قد ازداد عمقاً في هويتهم إذ تعلق الطفل بأرضه وخبر معالمها الجغرافية بكل تفاصيلها، هضاباً وجبالاً، سهولاً وودياناً، أنهاراً وطرقاً، صحارى وغابات، قرى ومدناً ... غدا الطفل الفلسطيني مسكوناً بحب فلسطين و ما يجري على ثراها، فشرع يتمنى أن يكون أحد أبطالها المناضلين ولو كان طالباً جامعياً أو مهندساً أو محامياً أو أخذت أحلام العودة تكبر في نفسه ويرجو أن ينقل إلى ترابها ولو رفاتاً بعد أن كان هذا الحلم محصوراً بكبار السن من أبناء النكبة ...

٣- أثبتت الانتفاضة للعرب وللعالم كله أن المقاومة الشعبية المنظمة والموحدة هدفاً ووسيلة تعد السبيل الأمثل للتحرير مفيدة من تجارب الشعوب المكافحة الأخرى. وحين تعلقت المقاومة الشعبية بالكفاح المسلح بكل أنماطه لم تهمل الأشكال الأخرى في الوقت الذي أدركت أن العمل الشعبي المقاوم إنما هو عمل تراكمي أساسه الإرادة والصبر والصدق والإخلاص، والتسلح بالعلم والمعرفة والتقنية وكل ما تحتاجه إليه معركة التحرير.

٤- قضت الانتفاضة على عامل الرعب والخوف والقلق، والاضطراب وكل عجز تمكن في النفوس من آلة البطش الصهيونية ومجازرها الجماعية البشعة، ونقلته إلى نفوس الصهيانية وصفوفهم على الصعيد المدني والعسكري، فقد أدت روح الجهاد - على مستوى الكيان الصهيوني - ولا سيما العمليات الاستشهادية إلى نتائج مهمة منها:

أ - دفعت كثيراً من الصهيانية إلى التفكير مجدداً بحقيقة الهوية الصهيونية أهي حقيقة أم مزيفة ؟.

ب - ازدادت الهجرة المعاكسة من فلسطين المحتلة إلى الخارج، إذ وصل عدد الذين غادروا حتى منتصف عام (٢٠٠٤م) نحو مليون مهاجر [١٩] وبهذا لم يعد شعار (الوطن الآمن) أو (الدولة العبرية الآمنة) صحيحاً ولا حقيقياً، لأن الشعور بالأمن تراجع إلى حد كبير ... علماً أن الصهيوني الذي أتى إلى الأرض المحتلة تحت زعم التوراه بالأرض الموعودة كان يعتقد بأنه سيعيش بهدوء وطمأنينة لأنها من دون شعب [٢٠] ولهذا وحده - تجري محاولات الصهيانية الحديثة للقضاء على الانتفاضة مستغلين الوضع الدولي والضعف العربي.

ج - ازدادت معدلات الجريمة ومحاولات الانتحار فضلاً عن انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ... فالمجتمع الصهيوني أصبح مأزوماً وغير قادر على مجابهة المشكلات اليومية التي خلقتها الانتفاضة له ... بل غدا الصهيوني - تحت مزاولة الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني - متبلد المشاعر، يمارس الإرهاب والجريمة على أبناء هويته بكل انتماءاتهم ... ولا سيما من يهود أفريقيا وآسيا ...

د- ازداد عدد الفقراء والجوعى في المجتمع الإسرائيلي ولم يعد كثير من أبنائه قادرين على تغطية النفقات المنزلية والشهرية ... ففي عام (٢٠٠٣م) - مثلاً - لوحظ انخفاض متزايد في مستويات الحياة وظهر هذا على ألسنة الناس ... ولا سيما أن عملية التنمية قد تراجعت، فأصيب الاقتصاد الإسرائيلي بخسائر بلغت نحو (١٠ مليار) دولار.

صحيح أن المقاومة لم يكن هدفها تهديد المنشآت الاقتصادية الإسرائيلية بيد أن استمرار الأزمات

الداخلية سكانياً واجتماعياً وإصابة التنمية بهزات كثيرة ... قد أدى إلى زيادة عدد الجوعى والفقراء

...

هـ - أسقطت الانتفاضة مفهوم الأمن القومي، ومفهوم القوة الإسرائيلية المتوحشة التي لا تقهر ... فالعمليات الاستشهادية أعادت صياغة المفاهيم الأمنية بمثل ما أعادت صياغة الأنماط السلوكية الحياتية للصهاينة ... ثم ازداد الانقسام داخل المؤسسة العسكرية، فقد امتنع (٢٧) طياراً عن تنفيذ أوامر أرئيل شارون فضلاً عن امتناع كثير من الصهاينة عن الانخراط في الجيش أو الخدمة في الضفة الغربية وقطاع غزة ... إذا أهملنا الإشارة إلى فرار عدد من أعضاء الجيش من الخدمة.

ولما زادت المشكلات المتنوعة في المؤسسة العسكرية زادت معدلات تدريب المستوطنين في الوقت الذي زادت الانتقادات الموجهة إلى شارون وإن لم يوجد منافس حقيقي له حتى الآن في الكيان الصهيوني بما في ذلك حزب العمل الذي سعى إلى الإئتلاف معه لتشكيل الحكومة لأهداف محددة

و- نقلت الانتفاضة المعركة إلى داخل البيت الصهيوني فالعمليات الاستشهادية جعلت ساحتها أرض فلسطين كلها بما فيها الأرض المحتلة منذ عام (١٩٤٨م) فلم يعد الكيان الصهيوني قادراً على منع المقاومة من الوصول إلى تل أبيب أو غيرها مما كان يظنه أنه بأمان وسلام ... ومن ثم لم يعد - أيضاً - يقرر موعد الهجوم أو تجنبه على ما يملكه من آلة همجية وتقنيات متقدمة ... فالمبادرة انتقلت إلى الاستشهادي فهو الذي يقرر زمان العملية ومكانها ...

هكذا أثبتت عمليات الاستشهاد بكل قوة واقتدار أن عملية الخوف والرعب صارت لصيقة بنفوس الصهاينة، ولا سيما حين شاركت المرأة الفلسطينية بعمليات استشهادية، أذهلت العدو وأرعبته، ووضعت الوطن الفلسطيني على عتبات النصر مصداقاً لحديث الرسول الكريم (ص) ((نصرت بالرعب مسيرة شهر)) [٢١]

ومن هؤلاء الشهداء :

- ١- وفاء ادريس عمرها ٢٦ سنة من مخيم الأمعري وهي أول من قام من النساء بعملية استشهادية في (٢٨/١/٢٠٠١م) أدت إلى قتل صهيوني واحد وجرح (١٤٠) آخر ... فأحدثت عمليتها رعباً كبيراً في نفوس الإسرائيليين، بدليل زيادة التدابير الأمنية المشددة
- ٢- دارين أبو عيشة طالبة تدرس الأدب الإنكليزي وقد فجرت نفسها عند حاجز شرطة في الضفة الغربية يوم (٢٧/٢/٢٠٠٢م).
- ٣- آيات الأخرس عمرها ١٨ سنة فجرت نفسها بالقدس الغربية فقتلت اثنين من الصهاينة وفي (٢٩/٣/٢٠٠٣م).
- ٤- عندليب طقاطقة فجرت نفسها في القدس الغربية فقتلت ستة من الصهاينة في (نيسان/٢٠٠٢م).
- ٥- نورا شلهوب استشهدت عند أحد الحواجز ولم تستطع تنفيذ العملية.
- ٦- هبة عازم دراغمة قتلت ثلاثة وجرحت العشرات في أحد الملاهي يوم (١٩/٥/٢٠٠٣م).

- ٧- المحامية هند جرادات قتلت اثنين وعشرين صهيونياً في (٢٠٠٣/١٠/٤) م .
- ٨- ريم صالح الرياشي وهي أم لطفلين وأول استشهادية من غزة فجرت نفسها عند معبر (إيرنز) فقتلت أربعة صهاينة وجرحت العشرات يوم (٢٠٠٤/١/١٤) م.
- ٩- زينب علي عيسى فجرت نفسها يوم (٢٠٠٤/٩/٢٢) م في مجموعة من الصهاينة ...
- ولو قام أحد منا بعملية إحصائية لعدد من قتل من الصهاينة حتى مطلع (٢٠٠٤) م لوصل إلى (٩٧٩) قتيلاً و(١١٣٥٦) جريحاً مقابل (٤٣١٩) جريحاً من عام (١٩٤٧) م إلى عام (٢٠٠٠) م.
- ٥- طورت الانتفاضة خططها وأنظمتها الداخلية، في الوقت الذي طورت آليات العمليات الجهادية والأسلحة المحلية الفردية، فأنتجت قذائف القسام وابتكرت الأنفاق الملغمة
- وبهذا كله تنوعت أشكال المقاومة ولا سيما العسكرية وهي أشكال لا تتفصل عن المقاومة السياسية والاقتصادية شعبياً وحزبياً ورسمياً محلياً وعربياً ودولياً ... ولا سيما ما يتعلق بالجدار العنصري الذي حكمت محكمة العدل الدولية في لاهاي ببطلانه.
- ٦ - ازداد دعم الجمعيات المحلية والعربية والإنسانية لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستقلاله وفق مبادئ الشرعية الدولية وقراري مجلس الأمن رقم (٢٤٢) تاريخ (١٩٦٧/١١/٢٢) ورقم (٣٣٨) تاريخ (١٩٧٣/١٠/٢٢) م [٢٢].
- وكذلك ازداد دعم الحكومات ولا سيما الغربية الأوربية لهذين القرارين وطفقت الجمعيات وبعض الحكومات تقدم المساعدات الغذائية والطبية والإسعافات والأدوات اللازمة للمستشفيات فضلاً عن الأطباء ...
- ولعل فيما تقدم من نتائج التصعيد الفلسطيني والعربي وعلى صعيد الكيان الصهيوني فقد أثبتت مع الصحوه العربية قدرة فهم طبيعة الكيان الصهيوني العنصري من قبل أحرار العالم وارتباط هذا الكيان بتعاليم وعقائد شرعية شريرة مجسدة في التوراة والتلمود وكتاب (الكابلاه) وفتاوى الحاخامات: لعقة الدم الإنساني، فهذه العقائد عززت همجية الجنرالات وشهوتهم إلى الإبادة الجماعية وعمقت خبث الساسة وكراهيته للبشرية ... [٢٣] إن الكيان الصهيوني مجتمع مأزوم بالعنصرية وشرورها إنه حاقد على القيم والمبادئ والشعوب
- وهاقد مضى على الصراع العربي الصهيوني ما يزيد على ٥٥ عاماً من المجابهة ولم يفلح العرب في تخطي الواقع الدولي المجسد بهيئة الأمم المتحدة التي أصدرت قراراتها معترفة بالكيان الصهيوني كما في القرار (٤٦) تاريخ (١٩٤٨/٤/١٧) م القاضي بوقف العمليات العسكرية والقرار السابق الصادر أيضاً عن مجلس الأمن رقم (١٨١) تاريخ (١٩٤٧/١١/٢٩) م القاضي بتقسيم فلسطين والقدس بين الفلسطينيين واليهود ...
- ولما تحولت حماية الصهاينة من الانتداب البريطاني ثم أوربا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأخذ التحول الديمغرافي شكلاً مربعاً في توطين المهاجرين في فلسطين على حساب أصحابها ... وخاضت الدول العربية مع الكيان الصهيوني عدة حروب منها حرب (١٩٥٦ م و ١٩٦٧ م و ١٩٧٣ م) فضلاً عن

حرب (١٩٤٨م) وعن المقاومة المسلحة المستمرة للشعب الفلسطيني بانتفاضات متكررة منذ ثورة فلسطين (١٩٣٦م-١٩٣٩م) وتشكيل كتائب الجهاد المقدس في عام (١٩٤٧-١٩٤٨م) بقيادة عبد القادر الحسيني ثم انطلاق شرارة العمل الفدائي في (١/١/١٩٦٥م) ... نقول: لما كان ذلك كذلك لجأ عدد من الفلسطينيين والحكومات العربية إلى اعتماد سياسة المقاومة السلمية ثم أخذت تتشكل في نفوس كثير من الناس مفاهيم التفاضل بين المقاومة المسلحة والمقاومة السلمية ثم طفق كثير منهم في صميم مظاهر العجز العربي - يميل إلى المساومة وتبني استراتيجية السلام كخيار وحيد . [٢٤].

لهذا كله جاءت المؤتمرات العديدة، ابتداء بمديرد عام ١٩٩١م ومروراً باتفاقات أوسلو (١٣/٩/١٩٩٣م) واتفاقية وادي عربة عام (١٩٩٤م) وقبلها كلها اتفاقية كامب ديفيد في (٢٦/٣/١٩٧٩م) [٢٥] ملبية لتبني مفهوم السلام .

ولا مراء في أن انتفاضة الأقصى قد كشفت ألعيب الكيان الصهيوني والتفافه على أي قرار دولي لإقامة السلام فخارطة الطريق التي تبنتها اللجنة الرباعية ممثلة بالأمم المتحدة والولايات المتحدة وأوروبا وروسيا تحولت إلى خطة شارون في فك الارتباط ومفهوم غزة أولاً وفق الانسحاب الأحادي من قبل إسرائيل عندما لم تستطع أن تحدث حرباً أهلية فلسطينية [٢٦].

ولا مراء أيضاً في أن الرئيس الفلسطيني الذي قتلته إسرائيل بالسهم في يوم الجمعة (٢٩/ رمضان/ ١٤٢٥هـ / ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤م) لأنه رفض التنازل النهائي عن القدس وقد وقع هو الآخر في فخ التسويات الإسرائيلية والجلوس إلى طاولة المفاوضات برعاية الولايات المتحدة المنحازة إلى إسرائيل ... على الرغم من نجاح خطته بالانتقال من خارج الأرض المحتلة إلى داخلها ...

وبناء على ذلك بدأ سؤال كبير يراود كثيراً من الناس شرقاً وغرباً ولا سيما أهل الفكر والثقافة والسياسة: ما مصير انتفاضة الأقصى، وقد تسلم محمود عباس رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية وهو أحد مهندسي اتفاقيات السلام مع زميله رئيس وزراء السلطة الفلسطينية أحمد قريع والواصل للمقاومين بالقتلة والإرهابيين [٢٧] ؟.

ما الآفاق التي ستنتهي إليها هذه الانتفاضة ومن ثم الشعب الفلسطيني والعربي برمته ؟! وما قدرتها على الاستمرار في ضوء ذلك كله وقد أخذت الأصوات تعلو هنا وهناك بإنهاء عسكرة الانتفاضة ؟! وما حقيقة هذا المصطلح ؟!

وهذا كله ينقلنا إلى الحديث عن الآفاق المستقبلية.

آفاق الانتفاضة :

ليس هناك عاقل يشك في أن انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (٢٨/٩/٢٠٠٤م) قد لاقت عمليات إضعاف كثيرة من الداخل والخارج نتيجة ضغوط شتى ومزاعم عديدة ومتنوعة فجرت مساومات حثيثة لاسقاط مفهوم المجابهة العسكرية واللجوء إلى المجابهة السياسية ... لهذا بدأ عدد من قادة السلطة الفلسطينية يدعون بصراحة إلى إنهاء عسكرة الانتفاضة بحجة انجاح العمل السياسي.

ونعتقد بأن قيادات الانتفاضة بكل تياراتها قد تجاوزت ذلك كله حتى الآن بحنكة عالية وقدرة كبيرة على المناورة ولم تقع في أي شرخ داخلي وأظهرت أن أي عمل مقاوم ينبغي أن يظل إنجازاً وطنياً

وقومياً، شعبياً وعربياً وإنسانياً ... ولا سيما أن مقاومتها للاحتلال الاستيطاني الصهيوني دخل في صميم معادلة الوجود والحياة فضلاً عن مفاهيم العقيدة الدينية التي كفلت حق الدفاع عن الذات

لهذا فإن تاريخ المجابهة منذ الوعد المشؤوم لبلفور في (١٩١٧/١١/٢م) وثورة البراق في (١٩٢٩/٨/٢٣) وحتى انطلاق انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠/٩/٢٨م) قد أكد استحالة عيش الضحية مع القاتل، وعزز عمليات الصمود والصبر والإرادة لاستنهاض القدرات والانتفاض على الجلال الغازي الغاصب للأرض والحياة القائم على التعصب العنصري التلمودي الاستعماري الاستيطاني الوحشي [٢٨].

ونرى أن انتفاضة الشعب الفلسطيني قد أصبحت طقساً تقليدياً على مر التاريخ ولهذا قد تخبو يوماً أو تتوقف ولكنها تغدو ناراً تحت الرماد تتأجج إلى أن يحين زمانها فتتوقد من جديد على أيدي المناضلين الشرفاء لهزيمة الشر الموجود في العالم والمتجسد بالكيان الصهيوني ... ولهم من سجلهم التاريخي المثل الأكبر منذ اليبوسيين - سكان القدس - وحتى اليوم ومنه : [٢٩].

١- لقي الإسكندر المقدوني الأكبر مقاومة مسلحة حين غزا منطقة غزة ثم عكا.

٢- اندحر الصليبيون على أسوار عكا بعد أن نزعت شوكتهم في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م).

٣- انهزمت على أرض فلسطين / أرض الرباط والجهاد/ جيوش هولاكو الجارة.

٤- انهزمت على أسوار عكا سنة (١٧٩٩م) مدافع نابليون ومكائده.

إنها سلسلة تاريخية طويلة من مقاومة الغزاة والطامعين التي انتهت بالاحتلال الأوربي للوطن العربي وديار الإسلام فكانت فلسطين والأردن ومصر والسعودية وغيرها من نصيب الانتداب البريطاني وذلك نتيجة اتفاق (سايكس بيكو) الذي تبودلت وثائقه في (٩-١٦/٥/١٩١٦م) بين بريطانيا وفرنسا وفيه أثر كبير للصهيونية [٣٠]

ثم حلت أوربا مشكلتها بوجود اليهود على حساب العرب الفلسطينيين وظهرت مساندتها لليهود بأنماط عديدة ... ومن ثم ظهرت المقاومة بأشكال شتى ... لأن مقاومة الاحتلال والغزو والاستلاب مشروع في السنن الكونية وفي الدساتير والتشريعات الدولية وقوانينها ... فإذا كان الوطن العربي يمثل قلب العالم فضلاً عما تختزنه أرضه من خيرات طبيعية وبشرية، فإن فلسطين تعد واسطة العقد لهذا القلب ... هذه الواسطة التي انفرد بها الوحش الصهيوني ليفتك بها بممارسات شاذة وهمجية، على حين طفق عدد من العرب والمسلمين يعمدون إلى التطبيع معه أو مهادنة رغبته.

من هنا يصبح التساؤل عن آفاق الانتفاضة وتجلياتها ضرورة حتمية لاستمرارها حتى تحقيق الأهداف المنشودة ويمكن أن تتجلى تلك الآفاق بما يأتي:

١ - التمسك الثابت بالوجود والأرض باعتبارهما حقاً شرعياً إلهياً ودينياً ورفض الاعتراف بأي قانون دولي يتعارض مع الحق الإلهي في الوجود أو ينال من قدسية الرجوع إلى أرض الأجداد في سياق وطن حر وكريم لا يرضخ للابتزاز والاستسلام.

فإذا كانت نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان - المادة الثالثة - قد كفلت لكل فرد حق الحرية والأمان الشخصي في إطار حق الحياة، فتطابقت مع الحق الإلهي فإن من حق الشعب الفلسطيني والأمة

العربية والإسلامية الدفاع عن وجودها، ومقاومة أي شكل من أشكال الاعتداء والاحتلال ومقاومة كل أنماط التطبيع الثقافي والاقتصادي [٣١].

فالقوانين الدولية التي تجسدت خلال تاريخ البشرية تفرض ضمان حياة الشعوب في العيش الحر الكريم، وإقامة التوازن الحيوي المعبر عن العدل والحق الإلهي في العيش لئلا تغطي دولة على أخرى بما تمتلكه من قوة فائضة ... وعلى الأمم المتحدة والهيئات الإقليمية ألا تصبح أدوات تسخر بأيدي الدول القوية للسيطرة على الدول الصغيرة والشعوب المستضعفة وهي التي نصت قوانينها على حق تقرير المصير ومشروعية النضال الوطني للشعوب المحتلة كما في قرارات الجمعية العامة كالقرار رقم (٢٦٢٥) والقرار (٣٣١٤) و(٣٢٣٦) [٣٢].

٢- التربية الوطنية القومية وربطها بالعمق الإسلامي والإنساني وتجسيد انتفاضة الأقصى بها، أي محاولة تطبيق مفهوم المثل العربي القائل: خيامنا منفصلة وقلوبنا متحدة ... وتبدأ عملية التوحيد من الداخل بالالتفاف حول المقاومة وتطوير آلياتها وأدواتها وأنماطها فكل ما في الوطن يبرز عملية التجميع لا التفريق ... وبهذا ينزع الإسفين الذي دقه الصهاينة وأمريكا بين المسلمين والمسيحيين من عرب فلسطين ... ومن ثم تتعمق الصلة بالعرب والمسلمين خارجها، وقد أدركت - منذ وقت مبكر - منظمة المؤتمر الإسلامي هذا الاتجاه منذ نشأتها في (٢٢-٢٥/٩/١٩٦٩م) نتيجة إحراق المسجد الأقصى من قبل غلاة الإجماع الصهيوني في (٢١/٨/١٩٦٩م).

فقد اجتمعت في الرباط بدولة المغرب (٢٥) دولة عربية وإسلامية في أول دورة فيها للتشاور والتعاون والتنسيق والتوحد وتلاحم المواقف لصيانة المقدسات وحماية القيم الروحية والخلقية من السقوط ...

ثم أرسدت الدورة الثالثة في (٢٥-٢٨/١/١٩٨١م) في مكة المكرمة بالسعودية أول استراتيجية كاملة للعمل الإسلامي والحفاظ على مقدسات القدس وعدم تمزيقها وجاءت الدورة الرابعة في (١٦-١٩/١/١٩٨٤م) لتدعم القضية الفلسطينية باعتبارها جوهر الصراع العربي الصهيوني وتنفيذ قرارات لجنة القدس ... ثم أكدت الدورة الخامسة في الكويت (٢٦-٢٩/١/١٩٨٧م) دعم القرارات الشرعية الدولية وقضية القدس والسلام العادل والشامل وعقدت تحت عنوان (دورة التضامن الأسوي) ...

أما الدورة التاسعة (١٢-١٣/١٠/٢٠٠٠م) فقد عقدت تحت شعار (انتفاضة الأقصى الشريف) فأدانت جرائم الصهيونية إدانة شاملة واسعة [٣٣].

ثم إن التربية الوطنية القومية الإسلامية الإنسانية تعني الثقة بكل موقف للآخر في إطار الانتماء وعدم الاتهام والتخوين، فالوحدة الداخلية وتعميق صلتها بالوحدة العربية والإسلامية ثم أحرار العالم الشرفاء أساس آفاق العمل المستقبلي للانتفاضة ... فالحاجة إلى التوحد ودعم المقاومة أينما وجدت - وبكل الأشكال والوسائل - واجب ديني وإنساني يستند إلى الحق الإلهي والتشريعات والقوانين الدولية في حق الحياة والوجود ... وهذا يتطلب الاستمرار بالحوار الحر والديمقراطي بين أبناء الوطن لإيجاد علاقة عضوية صحيحة بينهم، ثم بينهم وبين البعد العربي.

٣- الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الشرعية الدولية وقوانينها سواء أكان ذلك في قرارات الأمم المتحدة ومنظماتها أم في قرارات المنظمات الإقليمية وعلى المستويات كلها دولاً وجمعيات وأحزاباً ... فما زلنا نعانى حتى اليوم من تفسير كلمة واحدة في القرار (٢٤٢). ثم إن القوانين الدولية كاتفاقية

(جنيف) لعام (١٩٤١م) -مثلاً- تلزم مادتها رقم (١٣٦) باتخاذ عقوبات جزائية على كل من يأمر أو يشارك في التصفيات الجسدية أو الإعدام خارج القانون ... ويلزم كل طرف متعاقد بملاحقة المتهمين وتقديمهم للمحاكم مهما كانت جنسياتهم ... فإذا ما تحلى الشعب الفلسطيني والعربي بالوعي والخبرة والحكمة حصن نفسه من القوانين التي يتلاعب فيها الصهاينة والامبراليون كما يشاؤون.

لذا من حق الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية أن تقاضي الدول المعتدية والأفراد المتوحشين وفق القوانين الدولية، فمثلاً جاء في بروتوكول جنيف المؤرخ في (مايو/أيار/٩٨٩م) وفي المادة العاشرة مقاضاة أولئك وحق الدفاع عن الوجود والحياة من قبل المعتدى عليه [٣٤].

ولما كانت الأمم المتحدة مرجعية دولية لحل النزاعات الدولية وفق قراري الجمعية العامة (٢٦٢٥) و (٣٣١٤) كان على العرب والمسلمين استغلال ذلك أحسن استغلال بكل حكمة ووعي ودراية، ولاسيما أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي أنشئت بقرار من هيئة الأمم المتحدة ثم غدت الدولة الوحيدة الخارجة عن قراراتها وقوانينها بما فيها قرار التقسيم في (٢٩/١١/١٩٤٧م) ووعد بلفور المشؤوم في (٢/١١/١٩١٧م)

٤- دراسة آليات التعامل مع الغرب وأمريكا ودول العالم وفهم اللغة والأساليب التي تمارسها كل دولة إزاء الصراع العربي الصهيوني ... ويحتاج هذا إلى قيام القيادات العربية والمتقنين والمناضلين بحملة مدروسة موثقة بالأدلة التاريخية والقانونية والعلمية والموضوعية لكشف المغالطات التاريخية التي وقعت فيها هذا الدول ... ولا سيما حين ربطت الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى إثر أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) بين العرب والإسلام من جهة وبين الإرهاب من جهة أخرى ... وقد أطرت إدارة بوش الابن /هذه الإدارة اليمينية المتصهينة كثيراً من دول العالم في هذا الاتجاه مستغلة أوضاعها الداخلية كما هي حرب الشيشان في روسيا.

ولهذا فإن هناك عدواً واحداً - كما تزعم - قد ظهر بعد سقوط ما عرف بالاتحاد السوفيتي وهو يتجلى بالإرهاب الدولي الذي يقوم به المسلمون وعرب متخلفون للنيل من العالم الحر والديمقراطية والتقدم ...

وحين استمالت أمريكا بعض الحكومات العربية إلى موقفها درءاً لدفع تهمة الارهاب عنها فإن أرئيل شارون قد نجح في تضليل كثير من دول العالم حين ربط المقاومة الفلسطينية بمفاهيم الارهاب الدولي الذي يقف العالم كله ضده ... فادعى أن الفلسطينيين مسؤولون عن الارهاب الذي يوجهونه نحو الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة إذ قال لبوش الابن في زيارة لواشنطن : ((إن ما حصل للولايات المتحدة تعيشه إسرائيل يومياً ... إنها معركة واحدة ضد الارهاب تجمع بين إسرائيل وأمريكا والعالم الحر)) ... وكان يهود باراك قد قال من قبل لإذاعة (B.B.C) ((الدين الإسلامي دين ارهاب)) [٣٥].

ولهذا كله يستوجب على العرب والمسلمين والشرفاء في العالم أفراداً ودولاً وأحزاباً مواصلة دعم الانتفاضة والعمل الفوري على ايقاف التطبيع الذي يجري باتجاهات متنوعة مع الصهاينة وتفعيل المقاطعة الشاملة لإسرائيل.

٥- استثمار الانجازات العديدة التي قدمتها انتفاضة الأقصى لكشف ما تتبناه دولة الكيان الصهيوني من مبادئ وسياسات وإبادة وحشية جماعية منظمة ... مثل:

أ - تعرية مقولة ربط المقاومة بالإرهاب ولا سيما الإرهاب الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة ومن ثم كشف زيف ما تقوم به إدارة بوش المتغترسة والمتصهينة، التي تريد السيطرة على العالم تحت اسم (النظام العالمي الجديد - العولمة) [٣٦]، ومحاربة الديكتاتورية والتخلف في المنطقة العربية والإسلامية وإشاعة الحرية والديمقراطية فيها...

ب - الرد على خرافة المقولة التاريخية حول الأرض الفلسطينية الخالية من الشعب وأرض الميعاد، فالشعب الفلسطيني ثابت الجذور تاريخياً وواقعياً في فلسطين، على حين أن الصهاينة مجموعات غازية طارئة عليها، فعلى الرغم من تدفق الهجرات اليهودية إلى فلسطين حتى عام (١٩٤٨م) لم يزد عدد اليهود الصهاينة على (٦٥٠٠٠) ألف يهودي على حين كان تعداد الفلسطينيين (١٤١٥٠٠٠) ثم جاءت نكسة حزيران (١٩٦٧/٦/٥م) فطردت إسرائيل (٤٦٥) ألف فلسطيني من الضفة والقطاع ... لكنها لم تستطع أن تمنع ازدياد عدد السكان الفلسطينيين الأصليين داخل الأرض المحتلة عام (١٩٤٨م) وإن فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية أو تمنع ازدياد سكان الضفة والقطاع إذ أصبح عددهم عام (١٩٦٧م) نحو (١٤٠٠٠٠) ثم بلغ عام (٢٠٠٢م) (٣,٥) مليون، وفي الجزء الشرقي من القدس وحده (٢٢٠) ألف فلسطيني فضلاً عن أن إسرائيل أبعدت (١,٥) مليون فلسطيني بين عام (١٩٦٧-٢٠٠٤م) منهم (٢٦٥) ألف شاب [٣٧]. وبهذا كله كانت المرأة الفلسطينية تمثل القنبلة الديمغرافية السكانية في وجه الصهاينة لكشف زيف الأرض الخالية فدولة الكيان الصهيوني سعت جاهدة إلى تغيير الخارطة السكانية لفلسطين بل لبنان أيضاً وقد خطط لذلك كله، إذ كتب ديفيد بن غوريون في (١٩٤٨/٥/٢١م) في يومياته عن لبنان: ((إن تقوى المسلمين في هذا البلد مصطنع ويمكن أن يقلب بسهولة على أن تقام في هذا البلد دولة مسيحية سيكون نهر الليطاني حدها الجنوبي)) [٣٨].

فخطط الصهاينة واضحة في احتلال جنوب لبنان وتغيير الخارطة الديمغرافية على حين كانوا واثقين من تغييرها بفلسطين المحتلة مستتدين إلى الهجرات المتتالية لليهود إلى فلسطين وممارسة الإبادة الجماعية الوحشية للفلسطينيين، وهو ما يمارسه شارون يومياً ... ضد سكان الضفة الذين بلغوا (٢٣٠٠٠٠٠) عام (٢٠٠٢م) كما بلغ عدد سكان غزة ما يزيد على (١٢٠٠٠٠٠) فلسطيني فيكون المجموع كما قلنا (٣,٥) مليون فإذا كان الاستيطان مخططاً له منذ عهد بعيد بمشاريع كثيرة ومدرسة [٣٩] فإن الواقع الفلسطيني قد نال منه.

ج - الرد على خرافة (شعب الله المختار) على اعتبار أن اليهود المتصهينين إنما يجسدون قمة النزعة العنصرية نحو البشرية ... وعلى الرغم من أن الجمعية العامة ألغت قرارها (٣٣٧٩-٣٠د) تاريخ ١٩٧٥/١١/١٠ الذي عد الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، فإن عنصرية بني صهيون متأصلة، وهي تعد خطراً على البشرية كلها، لأنها تمثل قمة التمييز العنصري فضلاً عن كونها عقيدة استعمارية توسعية. ما جعل الدارسين يربطون بينها وبين النازية الهتلرية خاصة [٤٠]. فخطرنا لن ينحصر في المنطقة العربية إذا حققت أطماعها فيها بل سينال العالم كله.

د - استغلال الجرائم الصهيونية البشعة في ارتكاب الإبادة الجماعية الوحشية ومصادرة الأراضي

وجرف المزروعات بحجج أمنية واهية - كما هو الحال في إقامة الجدار العنصري الذي سبقت الإشارة إليه وإلى جرائم الصهيونية - لفضح كل ما تقوم به إسرائيل من ممارسات همجية منظمة باعتبارها دولة خارجة عن القانون والشرعية الدولية.

هـ - فضح كذبة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى ولا سيما ما يتعلق بخرافة حائط المبكى (طوله ثلاثين متراً) وهو جزء لا يتجزأ من الجدار الغربي للحرم القدسي الشريف (طوله مئة متر وعلوه عشرون) وهو المعروف بحائط البراق... [٤١].

وقد أكدت حفريات اليهود أنفسهم بطلان مزاعمهم حتى صرح العالم الإسرائيلي في الآثار (إسرائيل فلنكشتاين) في (آب) لعام (٢٠٠٤م) بأنه لا صلة لليهود بالجدار وأن الهيكل خرافة توراتية وكان عالم الآثار اليهودي (بنيامين مازار) قد كتب مثل ذلك في تقرير له أصدرته الجمعية الأثرية الإسرائيلية سنة (١٩٧١م) [٤٢].

و - القيام بحملة واسعة ومدرسة لوضع حد لاستغلال مفهوم العداء للسامية وكشف المغالطات السياسية والدينية للربط بين المسيحية واليهودية [٤٣] وكشف عملية استغلال مفهوم الحرية والديمقراطية. فقد راج استعمال هذا المفهوم للسيطرة على الآخرين، على الرغم من أنه لا يمثل إلا ديمقراطية الذئب [٤٤].

٦ - السعي الجاد لتأصيل الثقافة العربية والإسلامية في إطار الحداثة الإنسانية وكشف الأضاليل الكبرى حول التراث العربي والإسلامي ولا سيما ما يتعلق بالجهاد، أو المقاومة ... فالتراث ممتد فينا وجزء لا يتجزأ من دورة الحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل ... وعلينا ألا نخضع تحت أي تصور معاد لعملية تغيير تمارس قسراً على ثقافتنا ومناهجنا وعاداتنا فتراثنا لم يكن يوماً مغلقاً على الآخر، ولم يمارس عليه عمليات القهر والتبعية والاستلاب كما يحدث لنا مع الغرب اليوم....

وهذا كله يدعونا إلى الإعداد الثقافي الكافي لأبناء الأمة وربطه بالحق الإلهي والطبيعي في الدفاع عن الوجود والحياة مهما طال الزمن ... إن المخطط الصهيوني الامبريالي الغربي والأمريكي ليس وليد اللحظة الراهنة في القضاء على كل ما هو عربي وإسلامي، إنه نتيجة جهود تاريخية وفكرية واجتماعية وسياسية وعسكرية طويلة ومستمرة ومركزة ... لأن العرب والمسلمين وحدهم من يملكون نظرية متكاملة الثقافة، ومتوازنة بين الرغبات المادية والروحية ... ولهذا كله فإن الحضارة الغربية برمتها - وإن أحرزت انتصارات شتى في مجالات متعددة، مادية غالباً - حضارة مادية جسدية تعلي من قيمة الإنسان الأرضي المتفوق، وهو ما تتبناه الصهيونية عينه، على حين تدهورت القيم الروحية والخلقية بشكل لا نظير له ... داخل الكيان الصهيوني بمثل تدهورها في المجتمع الغربي الذي يشجع المنحرفين فيه، كما في ولاية كاليفورنيا - مثلاً - التي كثر فيها الشواذ ...

٧ - إيلاء الإعلام والتقنيات المتقدمة والفضائيات العناية القصوى وتسخيرها لكشف أضاليل اليهود والإمبريالية، وما تمارسه على شعبنا داخل الأرض المحتلة ... وألا يصبح مشهد الدماء مشهداً مألوفاً تتبلد عنده المشاعر والأذهان

إن محاولة كسب الرأي العام الدولي لا يتم إلا بالقيام بعمل إعلامي فكري منظم وفاعل في المحافل كلها مستقيماً من كل نظم المعلومات المستحدثة ... فالعرب أصحاب حق، على حين أن المحتل

الصهيوني غاصب ومعتد ... في الوقت الذي ينبغي أن تمارس فيه أجهزة الإعلام والصحافة والمنابر الحرة في المؤتمرات والندوات كشف المشاريع الاستسلامية التي تؤدي إلى ضياع الأوطان والثروات والكرامة والحرية ...

٨- اتخاذ القدوة الحسنة في القيادة:

إن القيادة الحكيمة والواعية والصادقة والمناضلة المتشبثة بالثوابت الوطنية والقومية دون احتكار لسلطات القيادة في المقاومة وغيرها تغدو قيادة شعبية ودولية ولا سيما إذا كانت ممثلة لمؤسسات الحرية والديمقراطية ... وفي إطار دورات تشريعية تكفل تنمية الكوادر القيادة والمنافسة المستمرة فيما بينها لتظل القدوة الحسنة مستمرة

إن مثل هذه القيادة التي تتفتح بتوازن فاعل على الحوار الداخلي والخارجي، وعلى قيادات النضال التحرري تعد القدوة الحسنة للمقاومة ... هذا يعني أن الانشغال بالرموز التاريخية للقادة قد ذهب إلى غير رجعة، وذهب معه التنازع على سلطتها وصلاحياتها وقيادتها لعملية البناء والتحرير والمقاومة ... فالوطن والأمة ينبغي أن يعزز مفهوم القدوة الحسنة، في الوقت الذي يدفعان أبناءهما إلى الاحتذاء بها وتمثلها إن سد الخلل في الوحدة الوطنية الداخلية باتخاذ القدوة الحسنة يقوي النزوع الإنساني الحر لدى المقاومين والمواطنين على السواء ويعمق صلتهم بمحيطهم العربي والإسلامي والدولي ... ويمنع من نفوسهم دوافع انقضااض أحدهم على الآخر.

ولهذا لا يضير هذه القدوة أن تمارس بصدق مفهوم الديمقراطية والحرية في الانتخابات المباشرة من قبل الشعب، لأن تاريخها النضالي وسلوكها القويم سيجعلها أبداً القدوة المرجوة على أن ينظم الدستور سنوات عملها في إطار المنافسة الحرة النزيفة على القدوة الحسنة لخير الوطن والمقاومة.

ومن ثم تنتهي - وإلى الأبد - مزاعم فقد العرب للديمقراطية ... وهذا هو الدافع للغرب عامة وأمريكا خاصة للقيام بمهمة إرساء الديمقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها، كما هو حاصل في العراق، وكما حصل في أفغانستان ودول أخرى كثيرة من قبل ... إذ تدخلت أمريكا مباشرة في شؤونها وقلبته حكوماتها ... وأخذت تمارس مفاهيم الحرية و الديمقراطية التي تعزز مصالحها وتضمن ولاء الحكومات التي تنتجها

٩- اتخاذ الحركات المناضلة للاحتلال، وكذلك الأحزاب والشعوب في كل مكان وزمان رمزاً و قدوة للمسير على طريقها في التحرر من المحتل الغاصب سواء أكانت حركات سلمية كما فعل غاندي، أم حركات مسلحة وهي كثيرة وآخرها ما قامت به المقاومة الوطنية في لبنان بقيادة (حزب الله) ...

وهذا يفرض على الانتفاضة خاصة والشعب الفلسطيني والعربي عامة التحلي بالإرادة والصبر والعزيمة التي لا تلين أمام جبروت القهر و الظلم والفتك الوحشي للآلة العسكرية القاتلة ...

وأخيراً نقول: إن ممارسة النضال التحرري لا تكون بنت ليلة وضحاها، فدرّب الكفاح الوطني والإنساني درب طويل وشائك ومليء بالألغام والتضحيات ... وما شعب فلسطين ببعيد عن هذا السبيل ... فهو الذي توارث النضال جيلاً إثر جيل، فإذا صارت الانتفاضة عنده طقساً عقيدياً، فلأنه مازال يدافع عن وجوده وكان المسيري قد قال : ((وبما أن الهجمة الصهيونية على الفلسطينيين كانت بهذه

الشراسة فالمقاومة العربية أخذت أشكالاً واضحة أيضاً ... فالفلسطينيون لم يكن أمامهم سوى رد الهجوم الذي شن عليهم دفاعاً عن أراضيهم وحقوقهم القومية ضد المستعمرين الصهاينة. ومثل هذه المقاومة الحقيقية والعميقة لها - بلا شك - أبعادها الأخلاقية المطلقة، حيث إنها في النهاية تأكيد لكرامة الإنسان وإرادته في مواجهة العنف والقهر المادي، إلا أنها - مع هذا - ليست غيبية. فهي تضرب بجذورها في الواقع الاجتماعي والتاريخي، وتعبّر عن نفسها من خلال أشكال سياسية وعسكرية مألوفة [٤٥].

وستظل أرض الجهاد والرياط خزاناً لانتفاضات جديدة فيما لو خمد أوار انتفاضة الأقصى لأمر ما، ولا سيما بعد موت الرئيس ياسر عرفات، ومجيء محمود عباس ... الذي يصر على إنهاء مفهوم عسكرة الانتفاضة وإيلاء التسوية السلمية مكانتها الدولية. ولكننا نرى أن أي انتفاضة للشعب الفلسطيني إنما هي صرخة مدوية للدفاع عن الكرامة والوجود والمقدسات ورفض ملموس للقهر وحياة القيد والذل والتجويع والتهميش والتشريد، والقتل الوحشي

تلك هي أبعاد انتفاضة الأقصى ونتائجها وذلك هو تصورنا لآفاقها المستقبلية، فالانتفاضة معجزة الشعب الفلسطيني البطل الصامد باعتبارها غدت طقساً يتعبد به إلى أن يحقق انتصاره في الحرية والحياة تحت الشمس ...

مصدقاً لقوله تعالى :

« الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقـــٰى عزيزاً »
(الحج / ٢٢ / ٤٠)

الحواشي

- ١- انظر - مثلاً - أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية ٢٨-٣٢ واليهود - عقائد وتاريخ اجرامي ٦٨ وما بعدها و ١٠٩ وما بعدها و ٢١٧ وما بعدها، والمشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي - حقائق ووثائق - ٦٠ وما بعدها.
- ٢- انظر مثلاً - الموسوعة الفلسطينية ١/٢١٩ - ٢٢٢-٢٢٤/٣ و ٢٧٧-٢٧٤/٣ والمشروع الصهيوني ٣٨٢ وأبعاد القضية الفلسطينية ١٣٠-١٣٢ وانظر حاشية (٤١) مما يأتي.
- ٣- انظر المشروع الصهيوني ٣٥٧ و ٣٧١.
- ٤- انظر أسطورة هرمجدون ٢٣٣.
- ٥- انظر أسطورة هرمجدون ٢٣٦-٢٤٠ وأزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير ٢٢٢-٢٢٣.
- ٦- الموسوعة الفلسطينية ١/٥٩٢ وانظر المشروع الصهيوني ٦٩ و ٤١٨ و أسطورة هرمجدون ٢٢٥ و ٢٧٧-٢٨٨ وأزمة فلسطين ١٩٨.
- ٧- انظر أسطورة هرمجدون ١٨٤.
- ٨- انظر مجلة الأسبوع الأدبي - عدد ٩٣٢-١٣/١١/٢٠٠٤م - ص ١ و ٥.
- ٩- انظر مثلاً - المشروع الصهيوني ٤٥٤ وحاشية (١٠) من حواشينا.
- ١٠- انظر الاستيطان الاستيطاني [محاضرات في الاستيطان الصهيوني] ٣٧-٤٠ و ٥١ - ٥٨ و ٦٠ - ٧٤ و

- ٩٩ - ١٠٣ والمشروع الصهيوني ٤٦٥-٥٠٥ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٥١٢-٥١٨.
- ١١ - انظر المشروع الصهيوني ٢٠١-٢٠٥.
- ١٢ - محاضرات في الصهيونية ٦٦.
- ١٣ - انظر مثلاً - اليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٣٠٦ - ٣١١ و ٣١٥-٣١٨.
- ١٤ - محاضرات في الصهيونية ٦٦ انظر الإيديولوجية الصهيونية ١٢٨/٢.
- ١٥ - محاضرات في الصهيونية ٦٦ وانظر المشروع الصهيوني ٧٢ وما بعدها.
- ١٦ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/٥٥٢ و ٥٥٧ و ٣/٣٥٩-٣٦٢ وحق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف ٣٩-٤٤ والمشروع الصهيوني ١٩٧ و ٢٠٦-٢١٠ وأزمة فلسطين ١٤٥-١٤٨.
- ١٧ - انظر حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف ٢٨.
- ١٨ - انظر الإيديولوجية الصهيونية ٢/٦٩-٧٠ و ٩٤-٩٥ والمشروع الصهيوني ٦١-٧٢ والموسوعة الفلسطينية ٥٩٢/١ وما بعدها.
- ١٩ - انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/٥٢٣-٥٢٥ وأزمة فلسطين ١٤٥-١٩٨ وحاشية رقم (٤) و(٥) و (١١) مما تقدم.
- ٢٠ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٨٣-١٨١ و ٤/٥١٦-٥٢٣ والمشروع الصهيوني ٢٧٣.
- ٢١ - لسان العرب - نصر.
- ٢٢ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/٣٢٠ - ٣٢١.
- ٢٣ - انظر المشروع الصهيوني ٧٢-٧٤ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٨٣ وما بعدها و ١٣٢ وما بعدها و ١٥٩ وما بعدها والموسوعة الفلسطينية ٣/٣٤٦-٣٥٥ وحاشية (٤٠) مما يأتي.
- ٢٤ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٥٠-٩٦ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٣١٩-٣٧١.
- ٢٥ - انظر الموسوعة الفلسطينية ٣/٦٢٥-٦٣٢ والمشروع الصهيوني ٣٧١.
- ٢٦ - انظر حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف - ٢٨-٣٣ ولا سيما فيما يتعلق بخريطة الطريق.
- ٢٧ - انظر حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف ٣٣ في ما قاله محمود عباس في بيانه، وما قاله المؤتمرين في شرم الشيخ ثم استحضر التصريحات الكثيرة له حول انتهاء عسكرة الانتفاضة باعتبارها وجهة نظره التي يتبناها في المرحلة الراهنة.
- ٢٨ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/٤١٥-٤١٨ و ٦١٤.
- ٢٩ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٥٠-١٩٦ و ٢/٢٤٨-٢٥٠ و ٣/٢٩٠-٣٠٥ و ٣٦٨ و ٣٨٩ و ٣٩٨ و ٤/٦٠٩ و ٦١١ و ٦٢٥ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٥٠٦-٥١٢ والصهيونية غير اليهودية ١٠٨.
- ٣٠ - انظر الموسوعة الفلسطينية ٢/٥٣٤ والصهيونية غير اليهودية ١٦٩-١٧١.
- ٣١ - انظر الموسوعة الفلسطينية ٢/٢٥٠-٢٦٢.
- ٣٢ - انظر الموسوعة الفلسطينية ١/٥٥٣-٥٥٥.
- ٣٣ - انظر السابق ٤/٣٣٣-٣٣٦.
- ٣٤ - السابق ٢/٢٥٠-٢٦١.
- ٣٥ - انظر دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية ٢٦٤.

٣٦- انظر الموسوعة الفلسطينية ١٨٣/١-١٩٢ والمتقف العربي وآفاق الواقع ٥٢ وما بعدها، والثقافة القومية وتدايعات العولمة ٧٨-٨٢.

٣٧- انظر الموسوعة الفلسطينية ١٨١/١-١٨٣ و ٢٣٩-٢٤١ و ٥٨٣-٥٨٧ و ٥٩١-٥٩٩ و ٥١٦/٤-٥٢٣ وأبعاد القضية الفلسطينية ١٧-١٩ و ٣٥ وأزمة فلسطين ١٨٢-١٨٩ و ٢٠٨-٢٠٩ والإيديولوجية الصهيونية ٧٠/٢-٧١ والصهيونية غير اليهودية ٢٧٠ والاستيطان الصهيوني ٩٠-٩٢ وأسطورة هرمجدون ١٧٠ واليهود عقائد وتاريخ إجرامي ٢٩١ وما بعدها و ٤٨٩-٤٩٢.

٣٨- أزمة فلسطين ١٢٩.

٣٩- انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١-٢٣٥ والاستيطان الصهيوني ٨١-٩٨ والصهيونية غير اليهودية ٢٦٧-٢٧٢ وأسطورة هرمجدون ١١٦-١٢٣.

٤٠- انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١-٢٣٥ والاستيطان الصهيوني ٨١-٩٨ والصهيونية غير اليهودية ٢٦٧-٢٧٢ وأسطورة هرمجدون ١١٦-١٢٣.

٤١- انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١-٢٢٢ و ١٣٦/٢ وأسطورة هرمجدون ١٢٨ وراجع حاشية (٢) مما تقدم.

٤٢- انظر مجلة فلسطين المسلحة - مقال (محمد جمال القدسي) - عدد أيلول ٢٠٠٤م.

٤٣- انظر الموسوعة الفلسطينية ٥٣١/٢ والإيديولوجية الصهيونية ١٣٢/٢-١٣٣ وأسطورة هرمجدون ٣٧-٦٦ والصهيونية غير اليهودية ٦٠-٦٤ و ١١٦ و ١٤٦ و ١٦٩ و ٢٤٤.

٤٤- انظر المشروع الصهيوني ٨٠.

٤٥- الإيديولوجية الصهيونية ١٣٢/٢.

المصادر والمراجع

١- أبعاد القضية الفلسطينية من المناورات الدولية إلى انتفاضة الأقصى - عبد الله خلف - دار الوطن للطباعة - الكويت - ط١ - ٢٠٠١م.

٢- أثر الانتفاضة في الهوية الجماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة - محمود معياري - مجلة الدراسات الفلسطينية - بيروت - ربيع / ٢٠٠٤.

٣- أزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير - مروان الماضي - الأهالي للطباعة والنشر - دمشق - ط١ - ٢٠٠١م.

٤- الاستيطان الصهيوني (محاضرات في الاستيطان الصهيوني) - د. طلال ناجي - مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر - بيروت - ط١ - ٢٠٠٤م.

٥- أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية - عرض وتوثيق هشام آل قطيط - دار النميز للطباعة و النشر - دمشق - ط١ - ٢٠٠٤م.

٦- الاغتيالات الإسرائيلية - والتصفيات السياسية - عماد لبد - مجلة رؤية - السنة الأولى - العدد ١٢ - أيلول / ٢٠٠١م.

٧- الاغتيال الانتقائي الإسرائيلي - آمال الخزامى - مجلة رؤية - السنة الثالثة - العدد ٢٨ - آذار مارس ٢٠٠٤م.

٨- انتفاضة الأقصى - دروس وعبر - علاء الدين معصوم حسن - مجلة الأسبوع الأدبي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - العدد ٨٩٠ - ١٠/١ - ٢٠٠٤م.

- ٩- الانتفاضتان الفلسطينيتان - أوجه الشبه والاختلاف - د. أسعد عبد الرحمن - جريدة الاتحاد - أبوظبي - الإمارات - تاريخ ١٩/٣/٢٠٠٤م.
- ١٠- انتفاضة الحجارة - عبد الجبار عدوان - جريدة الشرق الأوسط - ٣٠/١٢/١٩٩٠م.
- ١١- الإيديولوجية الصهيونية - د. عبد الوهاب المسيري - عالم المعرفة - الكويت رقم ٦١-١٩٨٣م.
- ١٢- التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية - محمد يونس الحسيني - القدس - ١٩٤٦م.
- ١٣- الثقافة القومية وتداعيات العولمة - ماجد السامرائي - مجلة الفكر السياسي - السنة السابعة - العدد ٢٠ - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - خريف ٢٠٠٤م.
- ١٤- جدلية الإرهاب وحق الشعوب في المقاومة - نواف الزرو - مجلة رؤية السنة الثانية - العدد ١٦/شباط ٢٠٠٢م.
- ١٥- جذور القضية الفلسطينية - إميل توما - دار الجبل - بيروت.
- ١٦- الجهاد الإحصائي الفلسطيني (Gov. PsWWW.pnic).
- ١٧- جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن - أبو بصير صالح مسعود - دار الفتح للنشر - بيروت - ط٣ - ١٩٧٠م.
- ١٨- حائط البراق بين الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي - مجلة المتحف العربي - الكويت - عدد ٣.
- ١٩- حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف - د. علي عقلة عرسان - انظر رقم (١٣) مما تقدم.
- ٢٠- دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية - سمير صالح - دار النمر - دمشق - ٢٠٠٢م.
- ٢١- رجال من فلسطين المحتلة - عجاج نويهض - بيروت - ١٩٦٨م.
- ٢٢- سيف الانتفاضة ورقبة الاقتصاد الإسرائيلي - د. علي أسعد عبد الرحمن - جريدة الاتحاد - أبوظبي - الإمارات - ٢٥/٨/٢٠٠٤م.
- ٢٣- الصهيونية غير اليهودية - ريجينا الشريف - ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز - سلسلة عالم المعرفة - الكويت رقم ٩٦-١٩٨٥م.
- ٢٤- الصهيونية والعنف - عبد الوهاب المسيري - دار الشروق - بيروت - ط١ - ٢٠٠١م.
- ٢٥- صورة إحصائية عن الأوضاع الفلسطينية في الوطن والشتات - أحمد يونس - مجلة الأرض للدراسات الفلسطينية - دمشق - عدد ١١/٢٠٠١م.
- ٢٦- الفلسطينيون بين الهوية القومية والهوية الدينية - موسى البديري - مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد ٢١ - شتاء ١٩٩٥م.
- ٢٧- القانون الدولي المتعلق بسير العمليات الفدائية - (مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى) - صادر عن لجنة الصليب الأحمر الدولية - جنيف - ١٩٩٦م.
- ٢٨- القرارات الصهيونية بحق القدس - أحمد الأشيري - دار الحق - بيروت - ٢٠٠٢م.
- ٢٩- لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت - ١٩٥٥ - ١٩٥٦م.
- ٣٠- المثقف العربي وآفاق الواقع - د. حسين جمعة - انظر رقم (١٣) مما تقدم.
- ٣١- مجلة فلسطين المسلحة - محمد جمال القدسي - أيلول - ٢٠٠٤م.
- ٣٢- محاضرات في الصهيونية - د. طلال ناجي.

- ٣٣- المرأة والطفل الفلسطيني في الذكرى الرابعة للانتفاضة - نبيل السهلي - صحيفة اللواء اللبنانية - ٢٠٠٤/٩/٣٠ م.
- ٣٤- مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى - د. أمين عبد الله محمود - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - رقم ٧٤-١٩٨٤ م.
- ٣٥- المشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي - حقائق ووثائق - عدنان مصطفى بيلونة - بيروت للطباعة - دمشق - ٢٠٠٠ م.
- ٣٦- معالم المشاركة الاجتماعية للانتفاضة الأقصى - غازي خلف - مجلة الوحدة الإسلامية - السنة الثالثة - العدد ٢٩ - نيسان /ابريل ٢٠٠٤ م.
- ٣٧- الموجز في تاريخ فلسطين منذ فجر التاريخ حتى عام ١٩٤٩ - د. الياس شوفاني - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت - ١٩٩٦ م.
- ٣٨- الموسوعة الفلسطينية - اصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية - في أربعة مجلدات - دمشق ط١ - ١٩٨٤ م.
- ٣٩- موقع مركز الإعلام الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت.
- ٤٠- النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت.
- ٤١- النموذج الانتفاضي والأزمة الصهيونية - عبد الوهاب المسيري - جريدة الاتحاد - أبو ظبي - الإمارات - ١١/٤/١٩٩٧ م.
- ٤٢- الواقع السكاني والاقتصادي في الضفة والقطاع - نبيل محمود السهلي - مجلة فلسطين المسلحة - العدد العاشر - تشرين الأول / اكتوبر - ٢٠٠٢ م.
- ٤٣- وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩) أوراق أكرم زعتر - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت - ١٩٧٩ م.
- ٤٤- اليهود : عقائد وتاريخ إجرامي - نافذ كاسر سويد - مؤسسة سندباد - دمشق - ط١ - ٢٠٠٣ م.

دوريات أخرى :

- ١- جريدة الأسبوع الأدبي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - عدد ٩٣٢ - ١٣/١١/٢٠٠٤ م.
- ٢- صحيفة تشرين - دمشق - سورية - ١٧/٩/٢٠٠٤ م.
- ٣- صحيفة المستقبل - بيروت - لبنان - ٣٠/٩/٢٠٠٤ م.



خطاب الحق وخطاب القوة

عبد الكريم ناصيف

مدخل:

عبر التاريخ ظلت مسألة الحق والقوة شغلاً شاغلاً للناس وموضعاً دائماً للجدل. ذلك أنه ما من أحد يستطيع تحديد الحدود الدقيقة للحق، وكثيراً ما يلتبس الأمر على الناس بحيث لا يمكنهم التفريق بين الحق وضده، أي الباطل، فيمارسون ما يمارسونه باسم الحق فيما يكون هو باطلاً، فإذا ما نبههم أحد إلى خطيئهم استغريوا، وربما انقلبوا عليه لهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أيها الحق ما تركت لي صاحباً". من هذا، المنطلق يمكننا أن نفهم أيضاً قول معاوية بن أبي سفيان في أهل الشام "والله لأحاربتك بقوم لا يفرقون بين الجمل والناقة، أي يمكنني إقناعهم بأن الجمل ناقة والناقة جمل، ومن هنا أيضاً كان تساؤل حكماء صهيون في بروتوكولاتهم "ترى أين يبتدئ الحق وأين ينتهي؟". (١).

ذلك أن الحق مفهوم ذهني مجرد يمكننا تعريفه بالقول:

الحق: هو كل صواب صحيح صالح يتساق مع القيم والمثل العليا، يحقق العدالة والإنصاف ويلتزم بالحقيقة والخير والفضيلة، ولأنه يصعب، في الغالب، تحديد الصواب والصحيح تماماً، العدالة والإنصاف، الحقيقة والخير.... أو على الأقل ثمة مجال للمراوغة والمداورة في تحديدها فإنه يصعب القول أين يبتدئ الحق، وأين ينتهي تماماً، أما القوة فيمكن تحديدها.

القوة: هي كل شيء مادي محسوس له فعل مباشر وتأثير مباشر أو غير مباشر ويكون على شكل سلاح أو مال أو قدرات وإمكانات حسية أخرى يمكن تلمسها والتعامل معها، وبالتالي يمكن تحديدها تماماً وبدقة، تكون العلاقة بين الحق والقوة سوية وبلا إشكال طالما سارت القوة في ركاب الحق وعملت على إحقاقه، لكن إذا ما تحولت إلى علاقة تعارض وتضاد حدث الخلل بين حق لا يملك قوة، أي حق الضعيف يكاد يكون باطلاً، وقوة غاشمة لا تملك حقاً، أي باطل يكاد يتحول إلى حق، هذه المفارقة هي ما تعيننا في مقاربتنا هذه، أي حين تقف القوة الغاشمة وجهاً لوجه ضد الحق دون أن تقيم اعتباراً لوازع من ضمير أي بمعنى آخر تجسد الباطل. فالحق كما يفترض الإنسان، هو قيمة مطلقة بذاتها، قوية بذاتها، قائمة بذاتها، إنه يستمد وجوده وقوته من كونه يجسد قيم الخير، العدالة، الإنصاف إلى آخر ما هنالك من القيم النبيلة السامية التي جعلها مثله العليا والتي يحلم بتحقيقها الإنسان. أليس الله هو الحق بذاته؟.. في الوقت نفسه أليس الله هو القوة أيضاً، القدرة التي لا حدود لها؟ إذن، يرى الإنسان في صورة

الله الحق والقوة متحدين معاً وهي الصورة المثلى التي يريد الأشياء على غرارها فلا يعود ثمة صراع بين الحق والقوة أبداً، أي تكون القوة في خدمة الحق ويكون الحق هو المسيطر المهيمن الذي لا ينازعه باطل ولا تقف في وجهه قوة. ولعل مسيرة الإنسان الحضارية بمجملها كفاح دائم مستمر لتحقيق هذه الصورة، فهو، الذي نشأ في الغابة وخضع لشريعته دهوراً طويلة، ظل يفكر بإنهاء شريعة الغاب هذه، القوة الغاشمة القاهرة التي لا تعرف للحق اعتباراً ولا تقيم للمنطق وزناً. ولم يقتصر أمره على التفكير وحسب بل راح يسعى لإبدال هذه الشريعة بقوانين يغدو معها الحق قوياً بذاته قائماً بذاته وجاءت قوانين حمورابي، اليونان، الرومان.... الخ. ثم جاءت الأديان كلها لترسيخ هذه الحقيقة في ذهن الإنسان فجعلت منه صورة الله على الأرض ألم يخلق الإنسان في أحسن تقويم؟ إذن لماذا لا تكون القوة عنده في خدمة الحق وليس العكس، بل لماذا لا تصبح القوة والحق عنده وجهين لعملة واحدة؟ الجواب، بالطبع، هو أن الإنسان لم يصل، حتى الآن إلى الغاية المرجوة، لم يتخلص حتى الآن من شريعة الغاب تشده قوتان، قوة الخير وقوة الشر ويتذبذب بين قطبين: قطب الملاك وقطب الشيطان، لهذا السبب نجد أنه ما يزال هناك حق بلا قوة وقوة بلا حق، كلاهما يعارض الآخر ويسعى للسيطرة عليه.

كما نجد من يجادل بأن القوة هي الحق سواء كانت هذه القوة ظالمة أم عادلة، باطلة أم محقة، انظر ما تقوله "بروتوكولات حكماء صهيون: "أما بدايتهم، بداية تكون المجتمع، فإنهم كانوا مأخوذون بالقهر من القوة الغاشمة العمياء، ولهذه القوة كانوا خائفين.... وأستنتج من هذا أنه بموجب ناموس الطبيعة "الحق للقوة" (٢). فحسب رأي هؤلاء، المؤمنين بالقوة والقوة فقط، يكفي أن تمتلك ناصيتها لتجد الناس يخضعون لك، يسبحون بحمدك ويضفون كل صفات النبل والخير على أعمالك، بل إنك لتجد من يقلب لك الأبيض أسود والأسود أبيض لمجرد أنك صاحب القوة، هنا ينشأ ما نسميه بالخطاب، ذلك أن كلاً من صاحب القوة وصاحب الحق يتوسل للوصول إلى أهدافه بما يخاطب به الآخر ويكسبه إلى صفه فما هو الخطاب: **الخطاب: هو القول الموجه إلى الآخر بغرض إقناعه ويكون حاملاً رسالة أو محدداً موقفاً أو معبراً عن سياسة.**

لهذا السبب يتماهى الخطاب مع السياسة التي يجسدها، فنقول هذا خطاب حق وهذا خطاب قوة أي خطاب يجسد سياسة الحق وخطاب يجسد سياسة القوة الغاشمة أي الباطل، فما هي الفروق بين هذا الخطاب وذلك؟ وماهي منطلقات كل منهما وسماته؟..

منطلقات خطاب القوة:

أ . القوة هي الحق: ينطلق أصحاب هذا الخطاب من مقولة أن القوة بحد ذاتها هي الحق، أما ما عداها فهراء، انظر ما تقوله "بروتوكولات حكماء صهيون: "حقنا منبعه القوة، وكلمة حق هي وجدانية معنوية مجردة وليس على صحتها دليل، ومفادها لا شيء أكثر من هذا: أعطني ما أريد فأبرهن بذلك على أنني أقوى منك" (٣) وبالتالي يبرهن على أنه هو صاحب الحق... لقد ناقش مكيا فيللي صاحب كتاب "الأمير" هذه النقطة ثم أعلن بكل فظاظ أن "الميدان المجرد للواقع هو ميدان القوة... (٤) وأن انتصار الأقوى هو حقيقة التاريخ الإنساني الأساسية" (٥). كما أطلق في الفصل الثاني من كتابه هذا الحكم البارد "إن شهوة الاكتساب أمر عادي وطبيعي بلا مرأى، وكل من ينساق إليها إذاً كان يملك الوسائل اللازمة يستحق الإطراء ولا يستحق اللوم" (٦). إذن من حق صاحب القوة أن يستخدم كل ما لديه من وسائل

وأدوات بغض النظر عما إن كان على حق أو غير حق، فالحكمة الأولى والأخيرة في سياسة "الأمير" هي استخدام القوة أي الحرب". إن الحرب والمؤسسات والقواعد المتصلة بها هي الموضوع الوحيد الذي ينبغي للأمير أن يصرف إليه أفكاره وأعماله، إنها المهنة الحقيقية لكل من يحكم، بها يستطيع أولئك الذين ولدوا أمراء أن يبقوا أمراء، بل بها أيضاً يستطيع من ولدوا رعايا بسطاء أن يصبحوا أمراء وإنا شهدنا عواهل يفقدون دولهم لأنهم أهملوا السلاح وفضلوا عليه لذاذا الاسترخاء. إن من يستخف بفن الحرب يخطو الخطوة الأولى إلى خرابه ومن يمتلك أسرار هذا الفن امتلاكاً تاماً، يمتلك وسيلة الارتقاء إلى السلطة". (٧).

إن تضخم القوة، كما نرى في "أمير" مكيافيللي وغيره، يفرز مفاهيم واعتبارات تختلف كل الاختلاف عن مفاهيم المنطق واعتبارات الحق المتعارف عليها كقيم ومثل عليا، هذا التضخم يصل إلى حد يتعذر معه على صاحب القوة أن يرى شيئاً غير ما يريه إياه منظار قوته فحق الشعوب بالحياة وحققها بالاستقلال وحققها بالحرية، وكل ما إلى ذلك من مفاهيم تنتقي ليغدو العالم لديه مجرد حلبة صراع وتنافس، للأقوى فيها كل حق وليس للضعيف أي حق على الإطلاق، انظر ما يقوله مكيافيللي:

"إن الشعوب متقلبة بطبعها، وإذا كان من الميسور إقناعها بأمر من الأمور فمن الصعب تثبيتها بهذا الاقتناع. لذا يجب أن تكون الأمور مرتبة بحيث يمكن جعلها تؤمن بالقوة عندما تقفد إيمانها" (٨). إذن، حسب رأي مكيافيللي، اللغة الوحيدة التي يمكن لصاحب القوة استخدامها مع الشعوب هي لغة القوة والخطاب الوحيد هو خطاب القوة، لنتابع ما يقوله في مكان آخر "كل من يستولي على دولة اعتادت على الحياة الحرة ولا يدمرها يجب أن يتوقع أن يلحق به الدمار... فمهما اتخذ من احتياطات ومهما فعل إذا لم يحل الدولة وإذا لم يشتت سكانها، فإنه سيراهم في أول فرصة تسنح لهم يذكرون حريتهم ويثيرون ذكرى مؤسساتهم المفقودة ويبدلون جهدهم لاستعادتها". (٩). وهذا ما يفسر لماذا دمر الرومان قرطاجة تدميراً كاملاً، ثم زرعوا أرضها ملحاً كيلا ينبت فيها نبات. كما يفسر فظائع هولوكو في بغداد حين وضع يده عليها حارقاً مخرباً مدمراً كيلا يبقى أثر لشيء اسمه دولة أو عاصمة وهو ذاته ما تفعله الامبريالية الأنكلو أمريكية اليوم في العراق بإلغائها كل ماله علاقة بالدولة هناك، وهو نفسه ما يفسر تصرفات إسرائيل في أرضنا المحتلة وما تقوم به من قتل وذبح وتدمير منازل واقتلاع أشجار، ذلك أن صاحب القوة يصل إلى اعتقاد راسخ بأنه مجرد امتلاكه القوة يغدو له الحق كله في أن يفعل بالآخر ما يشاء، انظر ما يقوله مكيافيللي أيضاً: "أليس هو صاحب الحظ في أن يصل إلى السيطرة والسلطة؟ إذن عليه أن يهيئ لهذا الحظ بالقوة والعنفوان، ومن الخير أن يبدو أمامه مندفعاً، لأنه (أي هذا الحظ) امرأة مستعدة للاستسلام لأولئك الذين يستخدمون العنف ويعاملونها بقسوة، للشبان المندفعين الجسورين المتسلطين أكثر من استعدادها للاستسلام للرجال الذين يعاملونها بلطف واحترام". (١٠).

إن أصحاب سياسة القوة وخطابها، وتجسدهم اليوم القوى الامبريالية الاستعمارية الصهيونية، ليدركون هذه المقولة جيداً ولا يؤمنون بسواها، لذلك ينطلقون في خطابهم للأخر دائماً منها، فالحق في نظرهم هو للقوة، والقوة وحدها، إن القوة هي المعيار الوحيد لديهم، وهي قيمة القيم، منها وحدها ينطلقون، ولا شيء سواها يعتبرون.

ب . الغاية تبرر الوسيلة:

ينطلق خطاب القوة من قاعدة ثانية توازي الأولى في الأهمية، ذلك أن استراتيجية القوة وسياساتها لا تقيمان وزناً إلا للغاية التي يهدفان للوصول إليها لذا لا يضع خطاب القوة في حسابه أي اعتبار للوسيلة الشريفة النزهاء، بل هو ينطلق من أن بإمكانه استخدام أية وسيلة وكل وسيلة يمكن أن توصله إلى غايته. "فالناتج تبرر الأسباب والوسائل علينا في وضع منهجنا أن نراعي ما هو أفيد وضروري أكثر مما نراعي ما هو أصلح وأخلاقي". (١١).

هكذا تقول "بروتوكولات حكماء صهيون" فيما أكد مكيافيللي على هذه القاعدة وجعلها أحد المبادئ الأساسية التي ينبغي على الحاكم أن ينطلق منها، فهي ما يتحدث عن الحاكم قائلاً: "إن عليه أن يحاول أن يكون ثعلباً وأسدً في وقت واحد لأنه لن يرى الفخاخ إذا كان أسدً فقط، وإذا كان ثعلباً فقط فإنه لن يدفع عن نفسه خطر الذئب... (١٢). فيما يقول في مكان آخر: "إن أقصى ما يؤخذ بعين الاعتبار من أعمال الناس ولاسيما أعمال الأمراء الذين لا يمكن أن يخضعوا لامتحان المحكمة هو نتيجة هذه الأعمال، فليفكر الأمير فقط في المحافظة على حياته وعلى دولته، فإذا نجح في ذلك عدت جميع الوسائل التي لجأ إليها شريفة ونالت إطرار كل الناس. إن العامي يعتني دائماً بالمظهر والحوادث، أو ليس العامي هو العنصر الذي يتألف منه الناس؟" (١٣)، ولأن الناس يفتنون بالمظاهر فإنه يوصي الأمراء والحكام بأن يظهروا ما لا يبطنون، أن يخفوا حقيقتهم وبموهوها أو أن يقولوا شيئاً ويفعلوا شيئاً آخر، لننظر كيف يمدح في كتابه "الأمير" فضيلة الظهور والإيهام والرياء معتبراً إياها من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها صاحب السلطة وخطاب القوة: "فحسن له دائماً أن يظهر بمظهر الحليم، الأمين، الإنساني، المتدين، الصادق (وهو في حقيقته غير ذلك كلياً)، ويجب أن ندرك جيداً أنه يستحيل على "الأمير" ولاسيما "الأمير الجديد" أن يراعي في مسلكه كل ما يجعل الناس يكسبون سمعة رجال الخير، وإنه مضطر في كثير من الأحيان من أجل المحافظة على دولته أن يعمل ضد الإنسانية وضد الرحمة وضد الدين نفسه.... فالناس جميعاً يرون مظهرهم وقليلون يعرفون ما أنت معرفة عميقة وهؤلاء القلة لن يجرؤوا على الوقوف في وجه الغالبية المدعومة أيضاً بجلال السلطة الملكية". (١٤).

ولقد طبق الاستعمار أو حاول في أغلب الأحيان تطبيق هذه القاعدة، إذ يتظاهر بالإنسانية الشفوقة الرحيمة الخالصة وهو لا يدخل بلداً إلا كرسول صادق للإنسانية وخادم أمين للحضارة والمدنية وحامل لرسالة الحرية والديمقراطية، بل لقد وصلت المكيافيللية بنابليون أثناء حملته على مصر أن خاطب الشعب العربي هناك بلغة المسلم الحنيف وبآيات بينات من القرآن الكريم يكاد من يقرأها أن يقسم أغلظ الأيمان إن نابليون أنقى المسلمين وأكثرهم ورعاً وأنه لم يجيئ إلى مصر إلا بدافع من حمية الدين والمروءة بل وربما النخوة العربية كي يخلص شعبها من براثن الطغاة والمستبدن.

هذا هو دين أصحاب سياسة القوة دائماً ينطلق خطابهم من الغاية تبرر الوسيلة ولا يجدون حرجاً في استخدام أية وسيلة مادامت توصلهم إلى غايتهم، ألم يقل هرتزل في يومياته: "يجب أن يستعمل الإنسان أية وسيلة للوصول إلى غايته؟" (١٥). أجل، فهرتزل، كما مكيافيللي، صاحب خطاب قوة لا يشق له غبار.

ج . المصلحة هي الأساس:

إن النقطة الأساسية التي ينطلق منها صاحب سياسة القوة وخطابها أو يأخذها باعتباره هي

مصالحه، فأهدافه مصلحة وبواعثه مصلحة، من هنا جاءت عبارة تشرشل المشهورة "في السياسة لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة بل مصلحة دائمة"، والمقصود بالسياسة هنا هي سياسة القوة والباطل التي لا تلتزم بعرف أو أخلاق ولا تعرف معنى صداقة أو رابطة إنسانية إلا بقدر ما يمت ذلك لمصلحتها ويعمل في إطار منفعتها، لنزّ معاً ما يقوله ماكس ليرنر حين يتساءل عن نوايا أمريكا الحقيقية من سلوكها وهي تبني امبراطوريتها العالمية: "تكران الذات؟ لا، أبداً فبواعثها مصلحة، يملئها عليها خوفها من السيطرة الشيوعية من ناحية ومن ناحية ثانية شبح الكساد الاقتصادي الذي يقض مضاجع رجال الأعمال إذ ينبغي على دولاب الصناعات الدفاعية أن يدور على أكمل وجه. ولكن إذا كان الباعث . هنا . أنانياً، فإن نتائجه تختلف عن نتائج الامبراطوريات الاستعمارية وأيديولوجيات الماضي". (١٦).

وإذا أمعنا النظر في كلمة "أناني" هذه، نجد أن صاحب سياسة القوة وخطابها هو أناني دائماً، ينطلق من أنه ويتمركز حولها تمركزاً مرضياً بحيث يتحول إلى نوع من الغطرسة والعجرفة، التكبر والتجبر فلا يعود يرى في العالم كله سوى نفسه، هو الأرقى، هو السوبرمان، فيما الآخرون كلهم مجرد رعا أو "غويم" كما هم في نظر اليهود الصهاينة أو حسب النظرية النازية التي تقول بتفوق العرق الآري، فيما كان الاستعمار كله ينطلق من هذه النظرة، فظهر مصطلح "عبء الرجل الأبيض"، أيام الاستعمار البريطاني ومصطلح رسالة الحضارة مع الاستعمار الفرنسي، و"شعب الله المختار"، لدى اليهود والأمريكان أنفسهم. هاهي ذي "بروتوكولات حكماء صهيون" تقول: "والله قد أنعم علينا، نحن شعب الله المختار...." (١٧). فيما يقول السناتور الأمريكي بفريدج في أواخر القرن التاسع عشر يوم بدأت أمريكا تفكر بالتوسع على حساب جيرانها الأمريكيين: "إن الله قد اختار الشعب الأمريكي من بين جميع الأجناس ليقود العالم أخيراً إلى تجديد نفسه". (١٨). أما أدلاي ستيفنسون، خصم آيزنهاور في انتخابات الرئاسة في الخمسينيات فقد صرح بملء فمه: "أن الله قد أوكل إلينا القيام بمهمة مرعبة أقلها زعامة العالم الحر" (١٩). هذه النظرة الأنانية النرجسية هي نتاج التمحور الذاتي الذي ينتقي معه الآخر وتتقي مصالحه ليبقى صاحب سياسة القوة وخطابها هو الوحيد الأورث وتبقى مصلحته هي الأساس والمنطلق، الوسيلة والغاية. صديقه من يخدمه ويقدم له المكاسب والمنافع، أما عدوه فهو من يقف في وجهه أو يحاول وضع حد لأطماعه، وليس مهماً أن يكون هذا "العدو" قد خدمه من قبل أو قدم له الكثير أم لا، المهم أن يكون قادراً على الاستمرار في خدمته وتأمين منفعه، هذا يفسر لماذا تسقط حكومات في العالم الآن أو تصفى رؤوس كبيرة أو يستبدل حكام بحكام. فمصلحة صاحب القوة هي الأساس، وخطابه للآخر وتعامله معه إنما ينطلقان من هذه المصلحة. يقول ماكس ليرنر: "لقد وجهت الشؤون الاقتصادية والتجارية (أي المصالح والمنافع المادية) سياسة أمريكا الخارجية كما وجهت الجهاز السياسي والنظام القضائي وتفسير الدستور والصحافة والكنائس... بل وحتى الحركة العمالية". (٢٠).

د . لا حدود للقوة:

غالباً ما يصل صاحب سياسة القوة إلى درجة يتوهم فيها أن قوته بلا حدود فينطلق في خطابه للآخر من هذا المنطلق، ظاناً أن العالم كله صار ملكه، وأن النجاح الأول الذي حققه كفيل بتحقيق النجاح تلو الآخر، ألا يقول المثل: المال يجز المال كما يجز القمل الصئبان؟ إذن، القوة تجر القوة، وهو ما يغريه باللجوء إلى المزيد من القوة والمزيد من تغييب المنطق والضرب بالأخلاق عرض الحائط، إذ ما أفلحت أمريكا في إلحاق الهزيمة بالنازية في الحرب العالمية الثانية حتى أغراها ذلك بأن تمد نفوذها

وتوسع هيمنتها، فطلع لنا آيزنهاور "بمبدأ الفراغ" وهو المبدأ الذي يسمح له بأن يضع قدمه في كل مكان يخليه الاستعمار القديم ويتركه فارغاً فتأتي أمريكا لتسد هذا الفراغ، وحتى اليوم ما يزال خطاب القوة الأمريكي منطلقاً من هذا المبدأ: العالم فارغ، إذن لنملأه نحن الاستعمار القديم انتهى، لنحل محله إذن. الاتحاد السوفييتي انهار، لنملأ ما ترك من فراغ خلفه، هاهو ذا، ماكس ليرنر يقول: "إن تاريخ أمريكا (الولايات المتحدة طبعاً)، بأكمله قد طبع بميل دائم نحو التوسع، تعطش للأرض، تعطش للقوة، تعطش للعظمة وتعطش لكل جديد وهي حاجات روت نفسها بنفسها". (٢١). إذن استخدام القوة يغري بالمزيد من استخدام القوة، وكسب المنافع يغري بالمزيد من هذا الكسب وهكذا: "كرة ثلج كلما دحرجتها ازدادت تضخماً. لقد بدأ خطاب القوة في أمريكا مذ وقفت في وجه الاستعمار الإسباني والبرتغالي طبقاً لمبدأ مونرو وبجدة أن أمريكا للأمريكيين. لكن هل وقفت أمريكا عند هذه الحجة؟... ماكس ليرنر يجيبنا: "إنه لمن الخفة أن يفكر المرء بأن قوة خارقة كهذه دفعت حدودها إلى أطراف القارة يمكنها أن تقف جامدة عند شواطئ المحيط". (٢٢). والواقع كانت نبوءة ليرنر صادقة، إذ بدأت نزعة أمريكا التوسعية تشد وتشد وبدأ خطاب القوة لديها يسيطر وسيطر إلى أن غدت اليوم القوة العظمى الوحيدة في العالم التي لا تعرف غير لغة القوة ولا تتحدث مع الآخرين إلا بخطاب القوة ومن منطلق واحد هو: قوتي بلا حدود فلا يقف أحد في وجهي... هذا الموقف يتماهى مع موقف الصهيونية نفسها اليوم، فهي لا تعرف سوى لغة القوة ولا تستخدم غير خطاب القوة، ضاربة عرض الحائط بكل آراء ومواقف العالم، ظانة أنه لا حدود لقوتها، متحالفة مع امبريالية القوة والباطل الأمريكية بغية الوصول إلى هدف مشترك واحد وتحقيق مصلحة مشتركة واحدة... ربما سالكين في ذلك الطريق الذي اختطته لهم البروتوكولات التي تقول لهم: وهذا الأمر (أي السبي والجلاء والتفرق والشتات في الأرض) الذي كان فيما مضى مجلى ضعفاً، انقلب فيما بعد سبباً لقوتنا التي أفضت بنا الآن إلى أن نلج الباب الذي منه نيسط سيادتنا وسلطاننا على العالم كله". (٢٣). وذلك بغض النظر طبعاً عن رأي العالم، أو برغم أنفه، فأصحاب القوة، تتضخم الآن لديهم ويزدادون عجرة وغطرسة إلى درجة ينتقي معها كل أسلوب آخر للتعامل مع الآخرين، فهم يشعرون أن قوتهم بلا حدود، إذن من يقف في وجههم وأية حدود تحدهم؟...

المثال الصريح اليوم على هذه اللا محدودية للقوة هو الامبريالية الأتكلو أمريكية التي تعتبر أن العالم كله ملكها الخاص، امبراطوريتها التي وعدها الله بها، لذا لا تنفك تنتقل بخططها العدوانية من بلد إلى آخر، بدءاً من الفلبين وحتى الفوكلاند مروراً باندونيسيا وماليزيا، الباكستان وأفغانستان، العراق وسورية... الخ، انظر ما قاله بول غودمان في ١٩ تشرين الأول من عام ١٩٦٧ وفي مدرج من مدارج وزارة الخارجية في واشنطن أمام أربعمئة من عتاة الامبريالية الأمريكية، بينهم رجال من البنتاغون والمخابرات المركزية والأجهزة الحكومية الأخرى: أنتم أخطر مجموعة من الناس في عالم اليوم. لقد فككتكم النماذج الاجتماعية القديمة وأفسدت ثقافتها، أشعلتم الحروب القبلية وغيرها، في فيتنام تشاركون بأنفسكم بالقتل الجماعي، وبسببكم اندلعت الفتن العنصرية في نيو أرك. أنتم تصنعون النابالم والقنابل المركبة من قنابل أخرى والطائرات التي تبديد الأرز، كما قتلت أسلحتكم مئات الألوف من الناس في فيتنام ولسوف تقتلون مئات الآلاف من الناس في بلدان أخرى.. الخ (٢٤). لماذا؟ لأنهم يشعرون أنه لا حدود لقوتهم فلماذا لا يسفكون الدماء ويزرعون الدمار في كل مكان؟..

هذه هي منطلقات خطاب القوة فما هي منطلقات خطاب الحق؟...

لقد رأينا من قبل أن الحق هو كل صواب صحيح صالح يتساق مع المبادئ والقيم والمثل العليا من: عدالة، إنصاف، استقامة، خير، فضيلة... الخ. ذلك أن الحق هو المعيار الذي نميز به الصحيح من الخطأ والصالح من الطالح، والحق هو الذي تحدد به مالك وما ليس لك، وهو الذي تتحقق به العدالة فلا يجور أحد على أحد ولا يتعدى أحد على أحد، كذلك يتحقق به الإنصاف فيأخذ كل ذي حق حقه ويدع ماله بحقه، ويتساوى أمامه الناس جميعاً فلا يرث زيد ويبقى عمرو بلا إرث، كما تستقيم به الأمور فلا تتحرف ولا تعوج وذلك كله لما فيه خير الإنسان، فرداً كان أم مجتمعاً.

بالتالي، فإن على خطاب الحق أن يكون حاملاً لهذه القيم، مجسداً لتلك المبادئ والمثل، وهو ما يجسده في الوقت الراهن خطاب الحق العربي الذي يقف وجهاً لوجه أمام القوة الامبريالية الغاشمة والباطل الصهيوني المتعنت ليدافع عن حق شعبنا العربي في فلسطين والعراق في الحياة، عن حق أمتنا كلها في الحرية والوحدة والاستقلال. وهو إذ يدعو لإحقاق الحق واستعادة الأرض والحرية والاستقلال. إنما يخاطب في الناس ضميرهم لمناصرتهم والوقوف إلى جانبه. إنه الخطاب الذي يدافع عن الحقيقة، ويقف في وجه الظلم، وهو، كخطاب حق، ينطلق من منطلقات مغايرة تماماً لمنطلقات خطاب القوة، أو الباطل، آخذاً بالحسبان اعتبارات أخرى، أهمها:

آ . الحق هو القوة بذاته:

وهو أمر يبدو بديهياً في بادئ الأمر، فالحق بحد ذاته يشكل القوة الفاصلة الحاسمة في كل أمر يختلف عليه، يراه الناس فيعترفون به ويخضعون له. وهذه هي الصورة المثلى التي حلم الإنسان بالوصول إليها وسعى من أجل تحقيقها أي أن يكون الحق قائماً بذاته، قوياً بذاته، لا حاجة به للسيف كي يعترف به الآخرون ولا ضرورة للقوة الغاشمة كي يلتزم به الناس. إنها حالة من الارتقاء يصل إليها الإنسان، ويكون مزوداً بكل أدوات التفريق بين ما هو صحيح وما هو خطأ ما هو صالح وما هو طالح، ما هو خير وما هو شر، فيتمسك بالأول ويتجنب الثاني دون قسر من سلطة أو إكراه من قوة ودون خوف من حساب أو عقاب، فهو مع "الحق للحق ولمعرفته بأنه حق، يكفي أن تطرح قضية كي يميزها الناس فيقولوا: حق أو باطل ويلتزموا بها إن كانت حقاً أو يققوا ضدها إن كانت باطلاً، وهي الحالة التي تجسدها المدينة الفاضلة تلك التي كتب عنها الفلاسفة وتصورها الشعراء وهي الحالة التي تسير باتجاهها الحضارة البشرية منتقلة بعيداً عن شريعة الغاب وهيمنة القوة وحدها ليصبح الحق هو القوة بذاته، وليتحقق المثل القائل: "لا يصح إلا الصحيح".

ب . المبدأ وهو الأساس:

إذا رأينا في خطاب القوة أن المصلحة هي الأساس، ففي خطاب الحق، المبدأ هو الأساس، ذلك أن خطاب الحق يعني بالقيم والمبادئ الأخلاقية والمثل التي تشكل، أساساً، قوام الحق ذاته، ولهذا يركز اهتمامه كله على تلك المثل والمبادئ: ما يتساق معهما وما لا يتساق، ما يمثلها وما يتنافى معها، فيترك هذه ويتمسك بتلك حتى ولو كان ذلك على حساب مصلحته ومنفعته... إنه يضحي بالمصالح من أجل المبادئ، بل ربما يضحي صاحبه بحياته ذاتها من أجل المبدأ الذي يؤمن به، والتاريخ مليء بالأمثلة التي لا تعد ولا تحصى على أصحاب حق ضحوا حتى بأنفسهم من أجل مبادئهم: سقراط ألم يشرب السم

مضحياً بنفسه كيلا يغير من خطاب الحق الذي يؤمن به؟ المسيح ألم يذهب إلى الجلجلة دفاعاً عن أفكاره ومبادئه؟.. جان دارك ألم تسلم نفسها للمحرقة دون أن تغيّر من خطابها أو تبدل؟... الخ، فأصحاب خطاب الحق جميعاً، يضحون بالمصالح من أجل المبادئ على عكس أصحاب خطاب القوة الذين يضحون بالمبادئ كلها من أجل المصلحة والمنفعة، وهو ما يسمهم بالجشع والطمع، إذ يريدون الاستحواذ على كل شيء فيما يكون خطاب الحق منزهاً عن الجشع والطمع بعيداً عن المنفعة والمصلحة، همّه إحقاق الحق والتمسك بالمبادئ والمثل العليا فقط.

ج . الغاية الشريفة تحتاج إلى وسيلة شريفة:

إنه أحد المنطلقات الأساسية لخطاب الحق، لهذا لا يلجأ صاحب هذا الخطاب من أجل تحقيق غايته إلى أية وسيلة لا تتناسب مع تلك الغاية شرفاً وصحة واستقامة، إنه يعلم أن الوسيلة جزء لا يتجزأ من الغاية، وأن الغاية ترتبط ارتباطاً عضوياً بالوسيلة لكنها لا تبررها، إذ لا يجوز للوصول إلى منصب في سلطة مثلاً اللجوء إلى الرشوة أو الخداع، واستخدام الأساليب الملتوية من تسخير للمرأة مثلاً أو حبك للمؤامرات أو لجوء للدس والنميمة... الخ، مما يفعله أصحاب سياسة القوة وخطابهم بل إن بعض هؤلاء لا يتورعون عن التعامل مع أعداء الوطن للوصول إلى غاياتهم في منصب أو مال، يتحولون إلى مجرد أذناب وعملاء يخدمون المستعمر والمحتل.. وهي خيانة عظمى في قوانين الدنيا وشرائعها كلها، مهما تكن مبررات هذا التعامل، يستحق مرتكبها عليها الإعدام، أما صاحب خطاب الحق فيأبى أن يتوسل لغاياته الحقّة الشريفة بوسائل غير حقّة وغير شريفة وذلك لإيمانه المطلق بأن ما قام على فاسد فهو فاسد، وأن المقدمات الصحيحة وحدها هي التي توصل إلى النتائج الصحيحة.

د . الحدود التي لا يجوز تجاوزها:

يؤمن صاحب هذا الخطاب أيضاً بأن للحق حدوداً تفرقه عن الباطل، وتوصل بينهما، كما يؤمن أن لقوة هذا الحق حدوداً وأنه لا يجوز الإفراط في استخدامها أو انقلب إلى ضدها فصارت قوة ظالمة غاشمة لا تختلف عن قوة الباطل في شيء. لهذا يحرص صاحب خطاب الحق إلى أن يقف عند حدود حقه لا يتعداها مقدار شعرة، هذا الأمر نجده على صعيد الفرد كما نجده على صعيد الدولة، من هنا يمكن أن تقوم علاقة سليمة بين الأفراد في المجتمع، إذ يعرف كل منهم حقه الذي يجب أن يقف عند حدوده لا يتعداها، سواء كان ذلك الحق ممتلكات، أو مسكناً أو حرية، فحرية يدي تنتهي حيث تبدأ حرية أنفك، وحقي في ما أملك ينتهي حين يبدأ حقك في ممتلكاتك وهكذا الدول لها حدود، وحقها في السيادة يقف عند هذه الحدود، فيما يبدأ حق غيرها، لقد علم الناس من خلال تجاربهم أن تجاوز هذه الحدود يشكل خطراً دائماً يهدد الأمن والاستقرار لهذا حرصت المنظمات والمواثيق العالمية على التأكيد دائماً على هذا المبدأ، حيث تقول المادة (١٥)، من ميثاق بوغوتا على أنه "لا يحق لأية دولة أو مجموعة دول أن تتدخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومهما كان السبب، في الشؤون الخارجية أو الداخلية لدولة أخرى أياً كانت هذه الدولة" (٢٥).

هذه بعض أهم المنطلقات التي ينطلق منها خطاب الحق فما هي سماته؟

سمات خطاب الحق:

ثمة سمات عديدة يختلف بها خطاب الحق عن خطاب القوة، سنعمل هنا على إيجاز أهمها:

١ . الأخلاقية: يتسم خطاب الحق بأنه يتمسك بأهداب الأخلاق دائماً... لا يحدد عن المبادئ القويمة ولا ينحرف، إذ يكون صاحب هذا الخطاب حريصاً على الابتعاد عن الكذب، والكذب رأس الشرور وأبو الرذائل كما نعلم، كما يكون حريصاً على تجنب اللف والدوران، الغش والخداع، وذلك لعلمه أن الحق صادق دائماً والصدق رأس الفضائل، فيعتمد صاحب هذا الخطاب إلى أن يقدم لمن يخاطبه المعلومة الصحيحة والخبر اليقين، معتمداً في إقناعه على الحجة الصحيحة والمحاكمة المنطقية السليمة، لا على تلفيق الأكاذيب والتدليس عليه بحيث تتسع الحدود بين الصح والخطأ ويتوه المرء في متاهة الغش والخداع، وعلى نحو لا يخرج منها. على أن أهم مافي أخلاقية هذا الخطاب هو احترام إنسانية الإنسان ومعاملته معاملة المرء لأخيه، فصاحب خطاب الحق يدرك أن الآخر إنسان مثله، كما يؤمن بأن من حقه عليه أن يكون صادقاً معه باعتباره أخاً له، يستحق منه كل رحمة وكل لطف وكل نبل في المعاملة. إنه يحترمه ويقدره كإنسان، وهو حريص على أن يمارس هذا الآخر إنسانيته وحريته في محاكمته الأشياء بنفسه والحكم عليها بنفسه دون قسر أو إرغام.

ب . الموضوعية: من أهم سمات خطاب الحق: الموضوعية، فصاحب هذا الخطاب يكون دقيقاً أميناً مجرداً عن كل غرض ذاتي أو منفعة شخصية، يريد لمن يخاطبه أن يعرف الموقف الحق بنفسه وأن يتوصل إلى قناعاته الخاصة بذاته، عبر ما يقدمه من معلومات دقيقة وتفاصيل صحيحة وأخبار صادقة لا يحرف منها شيئاً ولا يشوه شيئاً. إنه يؤمن أنه بالتجرد والنزاهة والموضوعية يخدم أخاه الإنسان ويأخذ بيده إلى أن يفرق بين الحق والباطل وأن يناصر الحق دون الباطل.

ج . الشفافية: يقوم خطاب الحق على الشفافية أي العفوية، البراءة، الصراحة، الوضوح، فصاحب خطاب الحق ينبغي أن يكون أبعد ما يكون عن المكر وروح التآمر، التصنع والتعقيد، إنه يعرف ماله وما عليه، يميز جيداً بين ما هو حق وما هو باطل وهو يدعو لهذا الحق، بصورة عفوية لا التواء فيها ولا تصنع. خطابه يخرج من القلب مباشرة دون إجهاد فكر أو اصطناع تفكير. عواطفه، مشاعره، أحاسيسه كلها تشحن خطابه فيتجلى ذلك الخطاب صريحاً واضحاً ملؤه الحماسة والحيوية، وأبعد ما يكون عن الغموض والالتباس، وهو ملتزم بالحقيقة والحقيقة وحدها دون سواها، لا يعتمد إلى تمويه أو إخفاء، بل يقدم الحقيقة للمخاطب واضحة صريحة، والخطاب الذي يخرج من القلب غالباً ما يدخل إلى القلب مباشرة، إنه خطاب عفوي شفاف لا لبس فيه ولا غموض، وهو ما يجعله أسرع وصولاً وأقرب منالاً.

د . المباشرة: خطاب الحق ينطلق كالسهم إلى الهدف بشكل مستقيم ويصيب كبد الحقيقة بصورة مباشرة، ذلك أنه ينطلق من إيمان أكيد بصحة الموقف وسلامته ويعبر عن التزام شديد بذلك الموقف، لهذا لا يشعر صاحبه بأية حاجة للمراوغة أو التقرب غير المباشر، فالناس قادرون على تمييز الحق من الباطل وبالتالي يتقبلون الحق ويرفضون الباطل، وهو ما يجعل موقف صاحب الحق أو شعوره بحقه قوياً إلى درجة تجعله أكثر جرأة وقدرة على مخاطبة الآخر بصراحة ومباشرة تامتين.

هـ . المصدقية: يعنى خطاب الحق كثيراً بالمصدقية، إذ إنه لا يهتم بالآني المؤقت الزائل، بل يعنى بالدائم البعيد المدى. يعنى بما هو استراتيجي طويل الأمد أكثر مما يعنى بالتكتيك قصير الأمد، لهذا السبب يتعين عليه أن يكسب لخطابه المصدقية التي تجعل الناس في مرات قادمة يصدقون ما يقول ولا يكذبونه وينفرون منه، فإذا توافرت هذه المصدقية كان باستطاعته أن يفلح في إقناع الآخر دائماً وبأقل

جهد ممكن، عكس ما تكون عليه الحال إذا افتقد الخطاب المصدقية إذ سيكون على صاحبه أن يبذل جهداً مضاعفاً ربما عشرات المرات لكي يحصل على تصديق الناس له. إن نجاح صاحب الخطاب أو فشله إنما يتوقف إلى حد كبير على هذه المصدقية، لذا تقع المصدقية في الدرجة العليا من سلم الأولويات لدى خطاب الحق ويسعى للوصول إليها بكل السبل، بينما لا يعنى خطاب القوة كثيراً بهذه المسألة، إن لديه وسائل أخرى للإقناع غير المصدقية. إنه يعتمد على الإقناع بالقوة والإكراه، وليس بالحجة والمنطق.

ثمة بالتأكيد، سمات أخرى لخطاب الحق كالأمانة، الدقة، الصراحة، الالتزام بالحقيقة وحدها... الخ. إنما للأسف لا يتسع المجال لذكرها هنا، لكن ما تراها سمات الخطاب الآخر؟

فيما يلي سنتعرض لأهمها:

سمات خطاب القوة:

أ . العنف: إن خطاب القوة عنيف، دائماً فهو يستخدم الكلمة القاسية والعبارة الشديدة، هاهو ذا الحجاج يخاطب أهل العراق: "والله إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها..."، ومن يعود إلى خطب الولاة في ذلك الزمان يرى سمة العنف واضحة تماماً في كل ما يقولون وفي كل ما يستشهدون:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

و:

"هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد أتيناك بسواق حطم....الخ.

إنه الخطاب الذي يهدد ويتوعد، ينذر بالموت والهلاك، يحض على القتل والبطش، تنتظر ما يقوله يهوا، رب اليهود، لقومه وهم يدخلون أرض كنعان: "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة، بل تحرمها تحريماً: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحواريين واليبوسيين(٢٦)...الخ. لكن ماذا تعني تحرمها تحريماً؟ إنها تعني أن يقضوا على أولئك الناس جميعاً قضاءً مبرماً وأن يزيلوهم من الوجود، ونجد ذلك أكثر وضوحاً في مكان آخر، إذ يقول: "وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها".(٢٧).

هذا العنف الذي يتسم به خطاب القوة نجده لدى كل المؤمنين باستراتيجية القوة العاملين على استخدامها، فهم كما يستخدمون القوة المادية المحسوسة ويلجؤون للعنف الوحشي في سلوكهم وتصرفاتهم، كذلك يستخدمون ويلجؤون إليه في خطابهم، فهذا هتلر بكل عنفوانه وقوته يهدد ويتوعد العالم، وهذا شارون لا يتكلم إلا بلغة القتل والذبح، وبوش لا يتحدث إلا بلغة الحديد والنار، الحروب الاستباقية والحروب الوقائية...الخ، فالأمر ليس نابحاً من صدفة، بل هو في صميم التعاليم القديمة التي تشريها شارون وبوش ورؤوس استراتيجية القوة العاشمة مذ كانوا صغاراً، لننظر ما يقوله حكماء صهيون: "...فالعنف يجب أن يتخذ قاعدة".(٢٨)، وفي مكان آخر يقولون: "قل هي الشراسة، ومتى ما كانت في محلها ولا تتراجع إلى الرفق غدت عامل القوة الأكبر في الدولة، وإن تعلقنا بهذا المنهج لا يراد به الكسب والمغنم فحسب، بل نريده أيضاً من أجل الواجب، انتهاء بالقافلة نحو النصر ونعود فنقرر أنه العنف(٢٩)...الخ....إن هو العنف والشراسة ما ينبغي أن يتسم به صاحب القوة وخطاب القوة، وهما

كلاهما يتجلبان بكل وضوح في خطاب رأس الامبريالية ورأس الصهيونية: بوش وشارون وفي سلوكهما أيضاً.

ولا غرو، فالبروتوكولات تقول: "وهذا هو السبب في أنه من الضروري لنا قبل كل شيء أن نسلح أنفسنا وندخر في قلوبنا تلك الروح البطاشة التي لا تعرف الخوف ولا تهاب العواقب وتكتسح في طريقها كل عقبة. روح الفاتك الغشوم (٣٠)؟.."

ب . اللا أخلاق: رأينا فيما سبق أن خطاب الحق يتسم بالأخلاق والرحمة والإنسانية، لكن على الطرف النقيض يقف خطاب القوة الذي يتجرد تماماً من الأخلاق، ضارباً بها عرض الحائط، مستخدماً كل الأساليب التي لا تمت للأخلاق بصلة، إذ لا مانع لدى خطاب القوة من اللجوء للغدر والخيانة، الخداع والكذب. لنر ما يقوله حكماء صهيون: "وهذا الشر هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الغاية المقصودة من الخير، ولذلك لا ينبغي أن نتردد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة، متى لاح لنا أن بهذا تحقق الغاية، وفي السياسة يجب على الواحد المسؤول أن يعرف كيف تقتصر الفرص.... (٣١)".

إذن، هم يعلمون صاحب استراتيجية القوة وخطابها، أن يمارس كل الرذائل ويستخدم كل ما هو لا أخلاقي: مكر، خديعة، رشوة، خيانة، انتهازية... فقط من أجل بلوغ غايته، وهذا ما يفسر لنا اليوم خطب بوش الموجهة للعالم وسلوكه، وإعلامه يخدع العالم؛ يعتم على الحقائق، يخفي ما يرتكبه جنوده من موبقات. بحجة مكافحة الإرهاب يرتكب شر أشكال الإرهاب: مجازر، قتل، تجويع، إذلال، انتهاكات، كذلك يفعل شارون في فلسطين يدعي أنه الضحية وهو القاتل، معتدى عليه وهو المعتدي، يمارس عليه الإرهاب وهو الإرهابي الأكبر في التاريخ.... هنا، وفي هذا المجال أيضاً، كانت التعليمات التي يسيرون عليها واضحة، إذ ينبغي إخفاء الحقائق عن "الغوييم"، كما يعتبر هو وسيده الناس جميعاً، لننظر ما نقوله بروتوكولاتهم: دولتنا الماضية قدماً في طريقها، من حقها أن تبدل أهوال الفتن والحروب بما هو أخف وأهون وأخفى عن العيون، وهو إصدار أحكام بالموت ضرورية من وراء الستار، فيبقى الرعب قائماً وقد تبدلت صورته فيؤدي ذلك إلى الخضوع الأعمى المبتغى". (٣٢).

إنه الخضوع الأعمى من "الغوييم" جميعاً ما يبتغونه، ولكي يحققوا ذلك لابد من إلقاء الرعب في قلوبهم وذلك بقتل بعضهم لكي يدب الرعب في قلوب بعضهم الآخر، كما لابد لهم من تدمير البيوت واكتساح الأشجار وذبح الأطفال والنساء وتهديدهم دائماً بذلك ليظل السيف مسلطاً على رقابهم، وهو تماماً ما يجسده خطاب شارون اليوم في فلسطين وخطاب بوش في العالم كله، لكن دون أن يتكلم أحد عن الحقيقة ذاتها، ألم يقل غوبلز وزير الدعاية النازية من قبل "الكذب، الكذب فلا بد أن يصدقك الناس؟"، إنهم يسيرون على خطا غوبلز، فيكذبون ويكذبون، يأتي بوش إلى العراق غازياً معتدياً محتلاً لكن إعلامه ولسانه وأذنايه كلهم يقولون إنه جاء محرراً صديقاً مخلصاً للشعب العراقي ومصالحه، شارون يرتكب المجازر، قاتلاً مذبحاً مدمراً، ويقول إعلامه بل بوش نفسه إنه رجل سلام ومحبة ووثام، فكيف ذلك؟ حكماء صهيون يجيبون:

"السياسة مدارها غير مدار الأخلاق، ولا شيء مشترك بينهما، والحاكم الذي يخضع لنهج الأخلاق لا يكون سائساً حاذقاً فيبقى ما بقي على عرشه مهزوزاً متداعياً وأما الحاكم اللبيب الذي يريد أن يبسط حكمه فيجعله وطيداً، يجب عليه أن يكون ذا خصلتين: الدهاء النافذ والمكر المخادع، وأما تلك الصفات

التي يقال إنها من الشرائع القومية العالمية، كالصراحة والإخلاص والأمانة والشرف، فهذا كله يعد في باب السياسة من النقائص"(٣٣).

إذن، خطاب القوة . الباطل غير معني البتة بالأخلاق، بل هو يحض على نقيضها، انظر ما تقوله البروتوكولات أيضاً. والوسيلة إلى ذلك رمي البلدان المختلفة بما يشغل بالها ويقيمها ويقعدها فتسوء العلاقات بين الحكومات ورعاياها ويظل هذا الانهيار في طريقه حتى تستنزف قوى الإنسانية وتهلكها الانقسامات وتغشو بينها الكراهيات والمكائد والحسد والاستغاثات طلباً للنجاة من تعذيب الأجساد كما تقشو المجاعات ونشر الجراثيم عمداً..."(٣٤). هذا بالضبط ما فعله الصهيونية في أرضنا السليبية وغير أرضنا السليبية، وهو ذاته ما يفعله بوش أمريكا في العراق وغير العراق من كل أرض يحل بها جنده وجلاؤذته.

ج . التضليل والتمويه: إن أخطر ما في الكذب الذي يمارسه خطاب القوة هو أنه لا يضل الآخرين فحسب بل يضل صاحبه نفسه أيضاً، إذ يظل صاحب هذا الخطاب يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه فعلاً، وهكذا يحدث له ما حدث لأشع، ومن ثم يغدو من المحال عليه أن يرى شيئاً خارج دائرة تلك الكذبة مما يفضي به إلى التعت والتصلب وهما الصفتان اللتان يتسم بها خطاب القوة واللذان يجسدهما اليوم تماماً كل من شارون وبوش، فهما لا يستمعان لأحد ولا يحاوران أحداً، فرنسا، ألمانيا، روسيا، الصين، العالم كله في أعينهما لا قيمة له، مقتنعان كل القناعة بأنهما هما الحق طالما يمتلكان القوة، أليست القوة في عرفهما هي، الحق ذاته؟... إذن ليست العالم وليركع مذعناً لكل ما يريدون.

يرتكز خطاب القوة، كما سبق وذكرته على ضربه بالأخلاق كلها عرض الحائط على الكذب والتدجيل، التضليل والتمويه، كما أن خطاب القوة لا يوفر وسيلة للتغريب بالآخر وإيهامه والضحك عليه، لنلق نظرة معاً على الطريقة التي يخاطب بها مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر إبان الحرب العالمية الأولى، شريف الحجاز حسين بن علي:

"إلى السيد الحبيب النسيب، سلاله الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبله العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين..."(٣٥).

إن هذا السيد الجليل المبجل دولة الشريف، سيد الجميع... الذي عمت بركته الناس أجمعين هو نفسه حسين بن علي الذي كانت بريطانيا تتآمر عليه في الوقت ذاته، مع فرنسا وروسيا القيصرية لعقد اتفاقية سايكس بيكو بغية اقتسام تركية الرجل المريض في الدولة العثمانية وإعطاء وعد بلفور لليهود بإقامة دولة لهم، وهو نفسه الذي قضى آخر أيامه منفياً مقهوراً على يد الاستعمار البريطاني ذاته.

ولا غرو، فبروتوكولات الصهاينة كانت قد حددت لأصحاب القوة وخطابها الطريق الذي عليهم أن يسلكوه، إذ تقول: السلاح الذي يحتمل أن يستعمله أعداؤنا في وجهنا يجب أن نستعمله نحن مسبقاً، وعلينا أن نحاول بالطف مقال وأنعم كلام وأرفع طراز في تليفق الفتاوى القانونية، تسويغ أحكام القضايا التي تبدو خارقة للعادة، جريئة وظالمة، إذ من المهم بمكان كبير أن نجعل هذه الأحكام تتشع بأرفع صور العدالة ونطرحها أمام الناس نماذج من المثل الأخلاقية(٣٦).

في هذا الباب دخل مثال نابليون يوم غزوه لمصر، كما سبق ورأينا، إذ لبس لبوس الحمل ووضع الجبة على كتفيه والعمامة على رأسه ثم استهل بياناته بآيات القرآن وملاً منشوراته بتعاليم الإسلام وأحاديث الرسول وذلك بغرض واحد هو الكذب على الله والتضليل، الذي يصل إلى حد تضليل الذات نجد أمثلة كثيرة، عليه أيضاً، هاهو ذا تيودور روزفلت يقول في بداية القرن العشرين: "إن قدرنا هو أمركة العالم (٣٧)". وهي الدعوى نفسها التي انطلقت منذ التسعينيات باسم العولمة وهي في حقيقتها أمركة، كما صرح بذلك وبكل وضوح رئيس الولايات المتحدة وقبل تسعين عاماً من هذا التاريخ، كذلك كتب إيمرسون ذات يوم: "إن رسالة أمريكا هي رسالة التحرير (٣٨)"، أليس هو ذاته كلام بوش وهو يغزو أفغانستان؟ ثم العراق؟، ثم، ربما كوريا الشمالية وإيران، بعد أن حددهما بأنهما محور الشر. فقناعة أصحاب القوة وخطابها كما سبق وأشرنا، هي أنهم الأرقى والأعظم دائماً، انظر ما قاله ألبرت بيفريدج، ممثل إنديانا في مجلس الشيوخ أيام روزفلت نفسه: "إن الله لم يعدّ خلال ألف سنة الشعوب التوتونية والشعوب الناطقة بالإنكليزية لكي تتأمل نفسها بكسل ودون طائل. لقد جعل منا أساتذة تنظيم العالم لكي نتمكن من نشر النظام حيث تسيطر الفوضى، وجعلنا جديرين بالحكم كي نتمكن من إدارة الشعوب البربرية والهرمة، وبدون هذه القوة ستعم العالم ثانية البربرية والظلام وقد اختار الله الشعب الأمريكي دون سائر الأجناس كشعب مختار لكي يقود العالم أخيراً إلى تجديد ذاته (٣٩)"، فأأي ضلال أشد من هذا الضلال؟ وأي تضليل للآخر وللذات أفضح من هذا التضليل؟...

د . الغرور و الغطرسة: يتصف خطاب القوة أيضاً بالغرور والغطرسة وهما الصفتان اللتان تعتبران توأمين للتعنت والتصلب اللذين سبق وذكرناهما، والغرور ينشأ أساساً من تضخم الأنا فرداً كان أم جماعة، إلى حد يملأ ساحة الوعي ملغياً بذلك الآخر كلياً، فخطاب القوة لا يأخذ بالحسبان ذلك الآخر ولا يولييه أية أهمية، إنه هو وحده الأمر الناهي السيد المطاع... إلى آخر تلك الصفات التي يتصف بها صاحب القوة لذلك يخرج خطابه مفعماً بالغرور والغطرسة إلى درجة تدعو للقرزز. إن من يدرس خطاب القوة الذي تستخدمه إسرائيل وأمريكا اليوم ليرى على الفور كم حكامهم مغرورون متعجرفون "سنلاحق الإرهابيين أينما كانوا" يقولون وهم يقصدون الوطنيين الشرفاء الذين يدافعون عن حريتهم واستقلال بلادهم. "سنقتل، سنذبح، سندمر، سنجتث...". كلها كلمات يستخدمها خطاب شارون وبوش اليوم، أي خطاب القوة، ولقد سبقهما إلى ذلك موسوليني وهتلر وسواهما ممن آمن بمبدأ "القوة هي الحق"، وانطلق يتحدى العالم على غير وجه حق.

لكن غرور حكام أمريكا وإسرائيل اليوم ليس وليد اليوم، بل هو نتاج تراكم طويل ربما بدأ مع أمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر وبإسرائيل منذ ألحقت هزائمه الواحدة تلو الأخرى بالعرب، انظر ما يقوله السيناتور بيفريج في أواخر القرن التاسع عشر بعد غزو أمريكا لكوبا والفلبين. "لقد خط لنا القدر سياستنا: فالتجارة العالمية سوف تكون ويجب أن تكون لنا. سوف نغطي المحيطات بمراكبنا التجارية. سوف نبني بحرية حربية على قدر عظمتنا، فالقانون الأمريكي والنظام الأمريكي والحضارة الأمريكية سوف تزرع على هذه الشواطئ التي ما تزال حتى الآن دامية غارقة في ظلمات الجهالة لكنها سوف تصبح مباركة وسعيدة!!.. تحت تأثير هذه القوى التي تحدت من لدن الإله!! (٤٠)". فأأي غرور أشد من هذا الغرور؟ وأية غطرسة تضارع هذه الغطرسة!! القوة الأمريكية متحدرة من لدن الإله!!.. والبلدان التي ستستعمرها أمريكا ستكون مباركة وسعيدة!!! إنه هو نفسه خطاب القوة الذي يواجه به بوش العالم اليوم، فيزعم أن

دباباته وقواته المحتلة ستستقبل من قبل الشعب العراقي بالأزهار والأرز، إنها الأحلام الامبريالية في السيطرة على العالم كله... نشر القانون الأمريكي والنظام الأمريكي و الحضارة الأمريكية بحجة أن الله نفسه هو الذي اختارهم لهذه المهمة وهو الذي أناط بهم هذه الرسالة. إنه الغرور القاتل الذي يدفعهم إلى أمركة العالم وتحويله إلى مزرعة للولايات المتحدة كل ما فيها لهم وكل ما فيها رق وعبيد عندهم.

وإذا كان هؤلاء الامبرياليون يحاولون التخلص من تهمة الاستعمار ونكرانها، فإنهم يضطرون بعد المراوغة إلى الاعتراف بها، انظر ما يقوله رونالد ستيل في كتابه السلام الأمريكي: "إن طموحنا ليس امبريالياً، مع ذلك فهو يؤدي إلى استعمال نفس الأساليب الامبريالية كإقامة الحاميات العسكرية حول العالم وتقديم المعونات إلى الزبائن (العملاء) من الحكام والسياسيين وإنزال العقوبات الاقتصادية وإذا اقتضى الأمر استخدام القوة العسكرية ضد اليابان العنيدة والاستعانة بجيش من الإداريين الاستعماريين العاملين في المؤسسات والأجهزة المهمة (٤١)". ترى أليس هذا بالضبط ما يفعله بوش في سياسته الخارجية اليوم؟... وبأية لغة يتحدث إلى العالم؟ بأي خطاب؟ بخطاب القوة المفعم حتى مخ العظم بالغرور والغطرسة.

هـ . التكتّم والسرية: على العكس من خطاب الحق الذي يتسم بالصراحة والوضوح، يعتمد خطاب القوة إلى التكتّم والسرية فهو يظهر غير ما يبطن ويقول غير ما يفعل، وذلك أمر طبيعي، إذ من الصعب على خطاب القوة أن يكشف عن نوايا صاحبه فينفصح. لذا يعتمد إلى أن يكتّم ما في نفسه، أن يخفي خططه الحقيقية ليبيد وبمظهر الحمل البريء، الذي لا يمكنه إيذاء أحد، بينما هو ذئب مفترس يتربص بالقطيع الشر، منتظراً الفرصة للانقضاض عليه وتمزيقه. مثال على ذلك: "في ليلة ١١ . ١٢ من آذار عام ١٩٣٨، فاجأ هتلر العالم بحركة سريعة حققت الهيمنة على النمسا، لنقرأ معاً التوجيه الذي دفع به الفوهرر قواته لاحتلال النمسا. ففي صباح الحادي عشر من آذار أصدر هتلر أول توجيه لعملية أوتو (أي عملية ابتلاع النمسا) ولقد كان على عجلة من أمره إلى الحد الذي أهمل فيه توقيع التوجيه وهذا ما جاء فيه: سري للغاية.

إذا ثبت أن الوسائل الأخرى غير ناجحة ولا مجدية فإنني أعترم غزو النمسا بالقوات المسلحة لإقامة أوضاع دستورية (!!!) وبالمناسبة أليس هذا ما قاله بوش في غزوه للعراق؟! ولأحول دون وقوع أي اعتداءات أخرى ضد السكان الموالين لألمانيا (وهذه؟... أليست أيضاً الحجة التي تذرّع بها بوش في الغزو ذاته؟) سأتولى بنفسى توجيه العملية كلها. يجب أن تكون قوات الجيش والسلاح الجوي التي أدرجت وحداتها بالتفصيل في القفزة السابعة جاهزة للقيام بالغزو قبل الثانية عشرة من ظهر الثاني عشر من آذار عام ١٩٣٨.

يجب أن يوحي سلوك الجنود بالانطباع بأننا لا ننوي أن نشن حرباً على النمسيين ولهذا يجب تجنب أي استفزاز (٤٢)" الشيء ذاته فعله بعد بضعة أشهر من العام نفسه، وفرض هيمنته على تشيكوسلوفاكيا دون أن يطلق طلقة واحدة ولقد تم له ذلك والعالم كله، وفي مقدمته تشمبرلين بريطانيا وديلابيه فرنسا، ينظر إليه جاحظ العينين فاغر الفم.

إنه التكتّم على النوايا الحقيقية لصاحب خطاب القوة والتصرف بسرية تامة وكذلك التمويه واللجوء إلى كل ما يخدع ويغش، ألم يحتل بوش أفغانستان تحت شعار الديمقراطية؟.. ألم يغزو العراق تحت

شعار التحرير والحرية؟ ألم يظل حتى آخر لحظة يتستر بذريعة أسلحة الدمار الشامل والتفتيش عنها وهو يخطط للحرب والاحتلال؟ ألم يراوغ ويناور سنين وشهوراً في الأمم المتحدة وخارج الأمم المتحدة ونيته الحقيقية هي إعادة الاستعمار للعراق ومن ثم إعادة الاستعمار للوطن العربي كله؟ إنه التكتّم والسرية للذات يلجأ إليهما خطاب القوة، لعلمه أن الرفض والمقاومة وسيكونان رد الطرف الآخر الوحيد إذا ما انكشفت الحقيقة، فينطلق من قاعدة "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"، كما يلتزم بالمبادئ التي وضعها منظرو استراتيجية القوة وخطابها عبر التاريخ. انظر ما يقوله سان تسي في كتابه "فن الحرب":

"الحيلة أساس فن الحرب، لذا ينبغي التظاهر بالعجز عندما تتوفر القدرة على الهجوم، والتظاهر بعدم العمل عند الرغبة في استخدام الجيوش، وإقناع العدو بأننا بعيدون عندما نكون على مقربة منه وبأننا قريبون ونحن بعيدون عنه، استخدموا الفخ لجذب العدو، وتظاهروا بالفوضى ثم اسحقوه (٤٣). إذن، تكتموا، وتظاهروا، واخدعوا، هي الأسس التي يلجأ إليها خطاب القوة واستراتيجيتها دائماً، لأنها الوحيدة التي تيسر لها سبل النجاح. ألم تقل البروتوكولات، "والعامل الرئيسي في نجاح خططنا السياسية هو كتمان المساعي والمشروعات والقاعدة أن السياسي ليس شرطاً أن تتفق أقواله مع أفعاله (٤٤)."

و- لغة الأمر الواقع: يتسم خطاب القوة بأنه يستخدم دائماً لغة الأمر الواقع دون اعتبار لأي منطق أو اهتمام بأي حق أو عدل، ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح في سلوك الصهيونية وخطابها منذ نشأتها حتى اليوم. لقد اختط هرتزل وزملاؤه من رواد الصهيونية الأوائل سياسة تقوم على استخدام القوة خطاباً وسلوكاً وعلى استغلال الظروف الدولية للوصول إلى مآربهم وتحويل الحق إلى باطل والباطل إلى حق. في يومياته، يكتب هرتزل عن ذلك بوضوح تام، إذ يقول بتاريخ ١٩٠٠/٣/٦: "ما لم يكن كل شيء يخدعني، فإن اللحظة المناسبة للعمل قد حانت، والوضع الدولي العام مناسب أيضاً، فقد صرف انتباه القوى المتصارعة حالياً عن المشرق، ويمكن تدبير أمر "الأمر الواقع" بدون إثارة معارضة كثيرة، هذا الأمر الواقع هو مانسعى إليه منذ وقت طويل (٤٥)". إذن، هرتزل يتحدث بلغة الأمر الواقع بعد أن درس الوضع الدولي ورآه مناسباً، وعلى أساس هذا الأمر الواقع راح يعمل ويتحرك متنقلاً من قيصصر ألمانيا إلى سلطان بني عثمان إلى... آخره، وكل ما يهدف إليه هو فرض الأمر الواقع، أي إقامة دولة يهودية في فلسطين. انظر ما يكتبه في يومياته أيضاً بعد مباحثات طويلة أجراها مع عزت بك، مبعوث السلطان عبد الحميد، الذي استطاع ترتيبه وفق ما يشتهي بالرشاوي والهدايا والمال. إنه يقول: "ثم بدل عزت في لهجته. وقدم النصيحة التالية كصديق: (ادخلوا هذه البلاد (أي فلسطين) كرجال مال واكسبوا أصدقاء لكم ثم بعد ذلك تستطيعون أن تفعلوا ما تشاءون، وغمز بعينه غمزة قوية... (٤٦)". أي يغدو استعماركم لفلسطين أمراً واقعاً لا يستطيع أحد الحيلولة دونه.

أحفاد هرتزل اليوم يستخدمون الخطاب ذاته ويسلكون الطريق ذاته: إقامة مستوطنات في قلب الضفة وغزة، احتلال أراض جديدة، إقامة جدار عازل رغم أنف العالم كله، هو الذي وقف بكل وضوح ضد هذه التصرفات، لكن شارون لا يؤمن إلا بسياسة الأمر الواقع، ولا يستخدم غير خطاب الأمر الواقع "هذا ما أريده، وسأصل إلى ما أريد وليذهب العالم فليلبظ البحر". بوش يستخدم الخطاب ذاته، وفي غزوه للعراق مثال صريح على ذلك الخطاب، إذ رغم أن مجلس الأمن والأمم المتحدة وشعوب العالم كلها وقفت ضد غزوه للعراق، إلا أنه، وقبل أن يغزوه، كان يتحدث عن مرحلة ما بعد صدام حسين وتبرم إدارته عقوداً

لاستغلال نفط العراق وإعادة إعمار العراق قبل أن يدخل جندي أمريكي واحد للعراق.

ز- الترغيب والترهيب: من أهم السمات التي يتسم بها خطاب القوة أيضاً لجوؤه إلى الترغيب والترهيب، ولقد حدد تيودور روزفلت بكل دقة هذه السمة لأعدائه الإمبرياليين الأمريكيين في معالجة قضية كوبا عام ١٨٩٧، وهو التاريخ الذي يجمع المحللون السياسيون على أنه بداية مرحلة التوسع الإمبريالي الأمريكي، حين قال: "تكلّموا بهدوء واحملوا عصا غليظة، عندئذٍ يمكنكم أن تتوغلوا بعيداً"، وإذا كان هنالك من مرادف لعبارة "تكلّموا بهدوء"، فإنما هو "الترغيب"، إذ على خطاب القوة أن يحسن فن القول المعسول والكلام المخادع وذلك لكسب "موطئ قدم، بين صفوف الناس وشقهم وإحداث ثغرة يمكن لصاحب خطاب القوة أن يدخل منها. إنه يدرك أن صورته البشعة (استعماراً أو صهيونية) لا تلقى قبولاً أبداً إلا إذا استطاع تمويهها وتذهيبها عسى أن يخدع الآخرين بذلك، كما يعلم أن خير طريقة لإعطاء السم هي أن يكون في السم، لذا نراه حريصاً على استخدام كل الوسائل لترغيب الآخر واستمالته إليه، فالترغيب يوفر عليه الكثير من الجهد والمال وربما استخدام القوة، أي يغني في كثير من الأحيان عن الترهيب. لننظر ما تقوله البروتوكولات: وأما شباب الغويم (أي أبناء كل من ليس يهودياً الذي يعتبرون في مرتبة البهائم)، فقد فتنهم في عقولهم ودوخنا رؤوسهم وأفسدناهم بتربيتنا إياهم على المبادئ والنظريات التي نعلم أنها فاسدة". (٤٧).

إذن يدخل صاحب استراتيجية القوة وخطابها إلى صفوف الأغرار والبسطاء من الناس، يزين لهم ما يشاء من صور، ويلعب بعقولهم حتى يدوخها ويغريهم بهذا المطمع أو ذاك إلى أن يتحولوا إلى أدوات طيعة في يده تنفذ له مآربه دون حتى أن نعلم.

يتخذ الترغيب أشكالاً عدة فهو قد يكون تلويحاً بذهب أو فضة، وما أكثر النفوس الضعيفة التي يسيل لعابها للذهب والفضة، نجد ذلك بكل وضوح في البروتوكولات التي تحض على استخدام الذهب لشق الطريق أمام مآرب الصهيونية وغايتها قائلة: أما اليوم فالقوة التي تتسخ قوة الحكام إنما هي الذهب (٤٨). ولا عجب، فالذهب يغري ويرغب ولطالما عرف اليهود قوة هذا المعدن الأصفر في شق الطرق وبلوغ الغايات، بل إن ذلك يدخل في صلب ديانتهم، انظر ما يقوله كارل ماركس "ما هو أساس الديانة اليهودية؟ إنها الحاجة التطبيقية، الأنانية، المال فالمال إله إسرائيل المقدس". (٤٩).

إن هرتزل، أبا الصهيونية، ومجسد الديانة اليهودية الصرفة يعرف ما للمال من قوة إغراء وترغيب فيكتب تعليقاً على مباحثاته مع مبعوث السلطان العثماني قائلاً: ثم عاد (أي عزت بك) إلى مصالح سيده (أي السلطان العثماني قائلاً: تحتاج الحكومة إلى مليون جنيه الآن (قلت لنفسني من أجل سكة حديد الحجاز)، فهل بإمكانك الحصول لنا عليها؟ قلت بسرعة: نعم أعطني استعماراً غير مقيد (في فلسطين) وسوف تحصل على المليون بوقت قصير. أستطيع أن أعدك بذلك رأساً لأنني من أجله جئت (٥٠). كما يقول في مكان آخر من يومياته سنحافظ على صداقتها (أي حكومات أمريكا الجنوبية) بالهدايا والرشوات والقروض... (٥١)، وفي مكان آخر أيضاً يجب أن نؤثر على جمهوريات أمريكا الجنوبية بالمال... (٥٢)، وذلك حين كانت أنظار الصهاينة متجهة نحو إقامة دولة لليهود في الأرجنتين.

قد يكون الترغيب أيضاً على شكل منصب أو سلطة تعرض على الضعيف الطامع فينجرف في تيار العمالة يمد يده إلى صاحب خطاب القوة غير عابئ بشيء سوى بلوغه ذلك المنصب أو السلطة، والتاريخ

مليء بأمثال هؤلاء الأشخاص الذين لم يترددوا في التحالف مع المستعمر الغاشم وخيانة الوطن والشعب من أجل كرسي أو منصب. إنها الثغرة التي نفذ منها أبرهة الحبشي إلى أبي رغال وإيزابيلا ملكة إسبانيا إلى أمراء الطوائف العرب وبريطانيا إلى مهرجات الهند وأمريكا اليوم إلى قرصاي أفغانستان وجنبي العراق وأمثالهما...

كذلك قد يستغل خطاب القوة الدين كورقة يلعب بها لترغيب الآخرين وتحسين صورته في أعينهم واستمالتهم للتعاون معه. وما نابليون في حملته على مصر الذي جئنا على ذكره من قبل ومنشوراته المليئة بتعاليم الرسول الكريم، إلا مثال صارخ على ذلك، كما إن إرسال البعثات التبشيرية التي غالباً ماكانت تسبق جحافل الاستعمار الباغية مثال آخر. في أفريقيا، جنوب شرقي آسيا سومطرة وأندونيسيا، كانت البعثات التبشيرية تتغلغل تحت ستار الدين كي تزين صورة من وراءها وتؤمن لهم المعلومات الضرورية ليأتي بعد ذلك المستعمر البريطاني أو البرتغالي أو الهولندي... الخ.

علاوة على ذلك قد يتخذ الترغيب شكل فكرة، هي في ظاهرها حق لكن في باطنها باطل، وما دعوى الحضارة والمدنية ونشرهما تلك التي لجأ إليها خطاب القوة زمن الاستعمار الكولونيالي إلا مثال على ذلك، ففرنسا في شمالي أفريقيا العربية رسولة حضارة ومدنية تنشر العلم والتقدم وتقضي على البربرية والفرسنة والهمجية(!!!) ومثلها بريطانيا في الهند وأفريقيا، كذلك إيطاليا في ليبيا وإسبانيا في ساقية الذهب، والصهيونية في فلسطين، انظر ما يقوله هرتزل زوراً وبهتاناً: إذا كانت مشيئة الله(!!) أن نعود إلى وطننا التاريخي(!!) فنحن نرغب أن نعود إليه ممثلين للحضارة....(٥٣). وهو تماماً ما يزعمه أحفاده اليوم، فإسرائيل رائدة للحرية والديمقراطية، تجسيد للقانون والنظام، والإمبريالية الأمريكية تكتسح جيوشها العالم قاتلة، مدمرة، مخربة، إنما تحت راية "الحرية والديمقراطية، التحرير والحضارة(!!)".

لكن خطاب القوة كما يرغب يرهّب، انظر مايقوله بروتوكولات صهيون: فإذا ما تقاعسوا (أي الغويم) عن تنفيذ التعليمات التي تصدر إليهم، فهم إما سيلقون الجزاء والعقاب متهمين وإما سيغيبون عن الوجود بالمرّة، وإنما نضعهم هذا الوضع لكي نحملهم على خدمة مصالحنا حتى النفس الأخير... (٥٤).

ذلك أن بث الرهبة في النفس يدفع المرء إلى الخضوع والإذعان، وهذان هما ما يريده خطاب القوة، فهما الوسيلة الوحيدة لتحقيق بغيته، لذا لا يتورع صاحبه عن ارتكاب المجازر، تدمير المدن، حرق الزرع والضرع، إتيان أي عمل يخيف الآخرين، ويجعلهم يذعنون، وواقع الأمر أن كثيراً من الأعمال الإجرامية واللا إنسانية التي يرتكبها صاحب استراتيجية القوة وخطابها قد لا تكون هدفاً بحد ذاتها بل وسيلة لهدف آخر هو: "الترهيب والتخويف" فهذا جابوتينسكي الذي أسس عام ١٩٢٥ حزباً صهيونياً خاصاً به يتساءل: هل حدث أن تخلى أي شعب عن أرضه بمحض إرادته؟". ثم يجيب: "إن العرب الفلسطينيين لم يكونوا ليوافقوا على فقدان سيادتهم دون إرغامهم على ذلك بالقوة(٥٥)". هذا الإرغام يوضحه على نحو أشد مناحيم بيغن زعيم الحزب الصهيوني "حيروت" وزعيم عصابة "أرغون" في كتابه "العصيان" حيث يقول: "لقد غرسنا الذعر بين ٦٣٥ ألف عربي.... إن الأهمية السياسية والاقتصادية لهذا الحدث واضحة ولا مبالغة فيها (٥٦). إذن بيغن يريد من الترهيب وسيلة لغايات أبعد: سياسية واقتصادية، وهذا ما فعلته وتفعله الامبريالية الأمريكية في العالم اليوم، ألم يشر روزفلت لأصحابه باستخدام العصا الغليظة؟.. هل تعني هذه العصا سوى البطش والفتك، التخويف والترهيب؟...

على أن للترهيب، مثلما للترغيب، أشكاله المختلفة، فقد يكون عسكرياً محضاً يلجأ إلى قوة السلاح والقتل والتدمير والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى، كما قد يتخذ شكلاً اقتصادياً فتمارس القوة الغاشمة ضغطاً: منها الحصار، المضاربة الاقتصادية، التجويع، الإفقار وذلك بهدف ترهيب البلد ومن ثم إخضاعه، ومثال العراق في العقد الأخير من القرن العشرين وما تعرض له من السياسة الإمبريالية العالمية واضح وضوح الشمس، فقد فرض الأنكلو أمريكيان حصاراً اقتصادياً خانقاً على هذا البلد قائلين دون موارد أو مداورة: "تريد من العراق الخضوع والإذعان"، كما فرضوا على "سمائه حظراً جويّاً لا تطير معه طائرة، كذلك فرضوا عليه الانقطاع عن العالم والعزلة حتى عن محيطه العربي وكل ذلك بهدف بعيد هو: إيصال شعبه إلى حافة الموت جوعاً وبالتالي إلى الإذعان والاستسلام.

إذن الترغيب والترهيب هما وجهان لعملة واحدة يستخدمها خطاب القوة، وهما كل لا يتجزأ بالنسبة إليه يتم واحدتهما الآخر كما يتم الليل النهار وهذا ما تعبر عنه مقولة الجزرة . العصا التي يتمسك بها خطاب القوة جيداً ويتقن ممارستها أيما إتقان.

لقد قدمت مفاوضات الحسين مكماهون إبان الحرب العالمية الأولى الجزرة التي أغرت الزعماء العرب بالتحالف مع بريطانيا ودفعت قياداتهم لوضع كامل ثقتهم في ذلك الحليف الطيب (!!!)، ألم يؤكد مكماهون في رسالته إلى الشريف حسين المؤرخة في ٣٠ آب ١٩١٥، والتي استهلها بحشد هائل من ألقاب التبجيل الطنانة وعبارات التمجيد الرنانة والتي سبق وأوردناها، أقوال اللورد كتشر "حول رغبة بريطانيا في استقلال بلاد العرب وسكانها، مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها؟ (٥٧)، أجل، هذا ما فعله مكماهون فأية جزرة قدمها يا ترى؟ وأية عصا استخدمها بعد ذلك في عقد اتفاقية سايكس بيكو، وفي اقتسام تركة الرجل المريض وتمزيق الوطن العربي واستعمار. خطاب القوة الإمبريالية الأمريكية اليوم يسير على النهج نفسه تماماً، فقد عبرت أمريكا عن أسلوب الترغيب والترهيب مذ بدأت رحلتها الإمبريالية، بمقولتين؛ أولاًهما "سياسة العصا الغليظة"، التي نادى بها روزفلت، كما رأينا من قبل، والتي ما يزال معمولاً بها حتى يومنا هذا، والثانية: "سياسة الدولار" التي نادى بها الرئيس في العقد الثاني من القرن العشرين وما تزال سارية المفعول حتى اليوم أيضاً، فحيث لا تجدي سياسة الدولار . أي تقديم المعونات والهبات، الرشاوى والقروض . تجدي سياسة العصا الغليظة، والأمثلة على ذلك في تاريخنا الحديث أكثر من أن تعد وتحصى.

خاتمة:

تلكم هي بعض سمات خطاب القوة وليست كلها، إذ لا يتسع المجال لذكر السمات الأخرى من انتهاز ووصولية، مراوغة ومناورة، احتيال واستغلال، هي كلها سمات لخطاب القوة الذي جسده الاستعمار عبر التاريخ وتجسده الإمبريالية والصهيونية اليوم، وإذا كان صراع القوة الغاشمة مع الحق هو صراع الباطل مع الحق، وهو صراع تمتد جذوره إلى الأزل، وربما سيبقى إلى الأبد، فإن وجود القوة إلى جانب الباطل والضعف إلى جانب الحق إنما يعني هزيمة الحق وانتصار الباطل وبالتالي اختلال الصورة المثلى التي يحلم الإنسان بتحقيقها دائماً ألا وهي صورة: الحق=القوة، صورة الحق القوي بذاته القائمة بذاته، صورة "جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً"، فمتى يحقق الإنسان هذه الصورة . الحلم؟..

الهوامش والإحالات:

- ١ . عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، المجلد الأول، ص ١٧٩ .
- ٢ . المرجع نفسه، ص ١٨٠ .
- ٣ . المرجع نفسه، ص ١٨٣ .
- ٤ . مكياقيللي، الأمير، عن أمهات الكتب السياسية، وزارة الثقافة، ج ١، ص ٣٢ .
- ٥ . المرجع نفسه .
- ٦ . المرجع نفسه .
- ٧ . المرجع نفسه .
- ٨ . المرجع نفسه .
- ٩ . المرجع نفسه .
- ١٠ . المرجع نفسه .
- ١١ . بروتوكولات...م.١، ص ١٨٤ .
- ١٢ . مكياقيللي، المرجع نفسه، ص ٥٢ .
- ١٣ . المرجع نفسه، ص ٥٤ .
- ١٤ . المرجع نفسه، ص ٥٤ .
- ١٥ . يوميات هرتزل، ص ٣٦٢ .
- ١٦ . ماكس ليرنر، أميركا كحضارة، ص ٨٩٣ .
- ١٧ . كلود جوليان، الإمبراطورية الأمريكية، دار الحقيقة، بيروت، ص ٤٠ .
- ١٨ . المرجع نفسه .
- ١٩ . ماكس ليرنر، المرجع نفسه، ص ٥٤٠ .
- ٢٠ . المرجع السابق، ص ٨٨٦ .
- ٢١ . المرجع السابق، ص ٨٨٦ .
- ٢٢ . المرجع السابق .
- ٢٣ . بروتوكولات، ص ٢٣١ .
- ٢٤ . كلود جوليان، المرجع نفسه، ص ٤٥٩ .
- ٢٥ . ماكس ليرنر، المرجع نفسه .
- ٢٦ . العهد القديم، تثنية، الإصحاح العشرون .
- ٢٧ . المرجع نفسه .
- ٢٨ . بروتوكولات، المرجع نفسه، ص ١٨٦ .
- ٢٩ . المرجع نفسه، وكذلك الصفحة .
- ٣٠ . المرجع نفسه، الصفحة ٢٢٣ .

٣١. المرجع نفسه، الصفحة ١٨٦.
٣٢. المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
٣٣. المرجع نفسه.
٣٤. المرجع نفسه، ص ٢٢٨.
٣٥. العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، منشورات مجلة الفكر العسكري، ص ٦٦٩.
٣٦. عجاج نويهض، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢١٤.
٣٧. كلود جوليان، المرجع نفسه، ص ٦٩.
٣٨. المرجع نفسه، ص ٤٦٢.
٣٩. المرجع نفسه، والصفحة.
٤٠. المرجع نفسه، والصفحة ٥٢١.
٤١. رونالد ستيل، السلام الأمريكي، إصدار بوشيت، شاستيل، ١٩٦٧، ص ٢٦.
٤٢. خيرى حماد، تاريخ ألمانيا النازية، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء الثاني، ص ١٠٧.
٤٣. ليلهارت، الاستراتيجية وتاريخها في العالم، دار الطليعة، بيروت، ص ١٣٥. وسان تسي هو منظر عسكري صيني يرجع تاريخ كتابه "فن الحرب" لعام ٥٠٠ ق.م.
٤٤. عجاج نويهض، المصدر نفسه، ص ٢١٣.
٤٥. يوميات هرتزل، ص ١٥٩.
٤٦. المرجع نفسه، ص ٢٠٢.
٤٧. عجاج نويهض، المصدر نفسه، ص ٣٠٧.
٤٨. المرجع نفسه، ص ١٨٠.
٤٩. بروفسكي وشولستر، الصهيونية في خدمة المرجعية، منشورات وزارة الثقافة، ص ٤٠.
٥٠. يوميات هرتزل، ص ٢٠٣.
٥١. المرجع نفسه، ص ١٨٨. ١٨٩.
٥٢. المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
٥٣. المرجع نفسه، ص ٣٦٢.
٥٤. عجاج نويهض، المصدر نفسه، ص ٣٠٥.
٥٥. بروفسكي وشولستر، المرجع نفسه، ص ٥٧.
٥٦. المرجع نفسه، ص ٨٠.
٥٧. العماد مصطفى طلاس، المرجع نفسه، ص ٥١٣.

مؤامرة الغرب على الإسلام

عبد الوهاب محمود المصري

مقدمة: (١)

هل هنالك شيء اسمه "مؤامرة الغرب على الإسلام"؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فلماذا؟ وكيف؟ وسنحاول، في هذا البحث، الإجابة عن تلك الأسئلة، معالجين الأمر تحت العناوين التالية: أولاً - كلمات بين يدي البحث. ثانياً - في تحرير المصطلحات الرئيسية. ثالثاً - خلفية لا بد منها. رابعاً - في مؤامرة الغرب على الإسلام (هل هي موجودة؟ أسباب العداء وآلياته). ونختتم بالخلاصة والنتائج.

أولاً - كلمات بين يدي البحث

١- كلمات غريبة:

*"البابا هو العدو الداخلي، والإسلام هو العدو الخارجي".

مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) زعيم الإصلاح البروتستانتي (١)

*"لقد علمتنا الحرب أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه".

وزير المستعمرات البريطاني عام ١٩٣٨ (٢)

*"ما لم يتم تدمير إمبراطورية السارزن (أي المسلمين)، فلن يتمجد الرب بعودة اليهود إلى وطن آبائهم وأجدادهم".

جورج بوش الجد

في كتابه "حياة محمد" - ١٨٣١م (٣)

*"إن الغرب يختبئ تحت تعابير مثل "الأصولية الإسلامية" و"الإرهاب"، ولكن الهدف المقصود هو الإسلام نفسه".

باتريك سيل

كاتب بريطاني (٤)

(١) في الأصل محاضرة أُلقيت في مركز الدراسات الإسلامية في دمشق بتاريخ ٦/٩/٢٠٠٤، ثم أُجريت عليها تعديلات لتناسب المقام.

٢- كلمات شرقية:

*"ما دام القرآن يتلى، فلن يهدأ بال الغرب".

الدكتور محمود زقزوق وزير الأوقاف المصري (٥)

*"لقد جرى تشخيص الإسلام عدواً للهيمنة الأمريكية، كما كان الشأن مع شيوعية الاتحاد السوفييتي سابقاً".

الدكتور حامد عمار

مفكر وتربوي مصري (٦)

*"الإسلام في الغرب اليوم هو العدو رقم واحد".

الدكتور محمد عابد الجابري

مفكر مغربي (٧)

*"إنهم في الغرب يصورون الإسلام على أنه الطفل الذي تكهن له المنجمون بأنه سيهدد عرش الملك، فبات الملك يسعى إلى قتله".

الدكتور محمد أحمد النابلسي

رئيس اتحاد علماء النفس العرب (٨)

ثانياً - في تحرير المصطلحات الرئيسية

لا بد لنا، في البداية، من تحرير (أو تحديد مفهوم) المصطلحات الرئيسية المستخدمة في هذا البحث، وهي: الإسلام، والغرب، والمؤامرة.

١ - الإسلام

الإسلام، حسب تعريفات الجرجاني، هو "الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول محمد ﷺ" (٩). والإسلام، حسب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، هو "التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى" (١٠). والإسلام، حسب شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي، "يعني إسلام الوجه لله" (١١).

وهكذا، فالإسلام هو التسليم والخضوع والانقياد لما جاء في الوحي الإلهي، من عقائد (وهي الإيمان بالله وملآئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر)، وعبادات شعائرية (كالصلاة والصوم)، ومعاملات تتضمن القيم والأحكام والتكاليف الشرعية التي تحكم سلوك الفرد والجماعة والمجتمع. ويقول علماء الدين: تقوم العقائد على الإقناع، والعبارات على الاتباع، والمعاملات على العدل في كل حال وحتى مع الأعداء.

ومن أبرز الخصائص العامة للإسلام: الوسطية والواقعية، والجمع بين الثبات والمرونة، والإنسانية، والغيرية. وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل من تلك الخصائص..

*الوسطية: إن الوسطية في الإسلام تعني العدل، وتعني الاستقامة على المنهج السليم. وهي دليل

الخيرية، ودليل القوة. ومن مظاهر الوسطية في الإسلام: الوسطية في الاعتقاد، وفي الشعائر، وفي الأخلاق، وفي التشريع، والتوازن بين الروحية والمادية، والتوازن بين الفردية والجماعية.

***الواقعية:** الواقعية في الإسلام هي مراعاة واقع الكون، وواقع الحياة، وواقع الإنسان.

وهي واقعية مثالية سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تقريط الواقعيين من البشر. ومن دلائل هذه الواقعية: التيسير ورفع الحرج، ومراعاة سنة التدرج، والنزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى. وتشمل واقعية الإسلام المجالات التالية: العقيدة، والعبادات، والتربية، والأخلاق، والتحليل والتحريم، وتشريعات الزواج والأسرة، والحدود والقصاص والتعزير.

***الجمع بين الثبات والمرونة:** إن للثبات والمرونة في الإسلام مظاهر ودلائل شتى، نجدها في مصادر الإسلام وشريعته وتاريخه. ويتجلى الثبات في المصادر الأصلية القطعية للتشريع من كتاب الله وسنة رسوله، بينما تتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها. ونجد في أحكام الشريعة الثبات في العقائد الأساسية، وفي الأركان العملية الخمسة، وفي المحرمات اليقينية كالسحر والزنى، وفي أمهات الفضائل كالصدق والأمانة، وفي شرائع الإسلام القطعية في الميراث والحدود وغيرها. وفي المقابل، نجد المرونة فيما يتعلق بجزيئات الأحكام وفروعها العملية وخصوصاً في السياسة الشرعية.

وللفقهاء أن يجتهدوا في منطقة الفراغ التشريعي (التي تركتها النصوص عمداً لاجتهاد أولي الأمر والرأي)، وفي منطقة النصوص المتشابهات (التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها محتملات لأكثر من فهم)، وبحيث يجوز الفتوى بتغيير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد، وكل ذلك مع الالتزام بالثوابت والقطعيات.

***الإنسانية:** الإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكرم ميزه الله تعالى وفضله على كثير من خلقه. ومن مظاهر تكريم الإنسان. خلقه في أحسن تقويم، وتمييزه بالعنصر الروحي الذي هو نفخة من روح الله تعالى، وتسخير الكون لخدمة الإنسان، ومن ثمرات الإنسانية في الإسلام:

مبدأ الإخاء الإنساني، ومبدأ المساواة الإنسانية.. ففيما يتعلق بالإخاء، ينطلق الإسلام من حقيقة أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمتهم بنوة واحدة مشتركة ورحم واصله. وكان الرسول محمد ﷺ يدعو ربه دبر كل صلاة قائلاً: ".... اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة". رواه أبو رواد. فيعلن الرسول، بذلك، الأخوة بين عباد الله كلهم لا بين العرب وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، مشيراً إلى الجامع المشترك بينهم، الموحد بين أجناسهم وطبقاتهم وهو العبودية لله تعالى. ولقد طبق المسلمون مبدأ الإخاء، وأقاموا على أساسه مجتمعاً إنسانياً فريداً شعاره "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" -حديث رواه البخاري وغيره. وأما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه أن الإسلام يخدم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى.. الإنسان من أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطاً كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية، يقول القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

- الحجرات: ١٣. إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع.. فالعربي إنسان، والعجمي إنسان، والأبيض إنسان، والأسود إنسان، والحاكم إنسان، والمحكوم إنسان، والرجل إنسان، والمرأة إنسان، والحر إنسان، والعبد إنسان، وما دام الكل إنساناً، فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد. وقد اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس إنقاذاً للجميع، وهذا ما قرره القرآن الكريم بكل وضوح: «أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» - المائدة: ٣٢. ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولاً وطبقها المسلمون فعلاً، المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.. فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع، والفرائض ملزمة للجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع (١٢).

***الغريبة:** يقول الدكتور محمد عابد الجابري: "من العبارات التي تتكرر في القرآن بعد لفظ "الإيمان" وكأنها ترتبط معه بعلاقة شرط بمشروط، عبارة "العمل الصالح". وإن استعراضاً سريعاً للخطاب القرآني يدلنا على أن عبارة «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» التي تتكرر مراراً بهذه الصيغة أو بصيغ أخرى، ترمز حقاً إلى أن "العمل الصالح" هو محور القيم الإسلامية القرآنية، واجتماع "الإيمان" و"العمل الصالح" ينتج عنه قيمة دينية أخرى تعتبر من أسمى القيم في كل دين هي "التقوى" ولها في القرآن مكان أسمى. فـ "التقوى" ليست مجرد قيمة تدل على فضيلة تربط المؤمن بالله، بل هي أيضاً فضيلة متجهة نحو الآخرين، نحو الناس. ومن استقراء الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه القيمة الأخلاقية الكبرى، ندرك بسهولة أن "العمل الصالح" مقوم أساسي فيها. وبعبارة أخرى، يمكن القول إن الإيمان وحده ليس تقوى، بل لا بد أن يصاحبه العمل الصالح. وقديماً فرق المتكلمون بين "الإيمان" و"العمل"، وكان منهم من قال بالعكس، وربما لاعتبارات سياسية كذلك" (١٣). بل إن فرقة منهم، وهم المعتزلة اعتبرت أن الإيمان هو الإقرار والتصديق والعمل، فجعلت العمل داخلياً في ماهية الإيمان" (١٤).

ومن هنا، يلتمس الدكتور الجابري فرقاً دقيقاً بين "المروءة" التي هي القيمة المحورية العربية قبل الإسلام و"العمل الصالح" الذي هو القيمة المحورية التي أضافها الإسلام. فبما أن المروءة هي كمال الرجولية، فهي تخدم صاحبها، ترفع من شأنه وتجعله محط تقدير واحترام، فهي بهذا المعنى قيمة ينعكس أثرها الأخلاقي على الشخص "المتصف بها". أما "العمل الصالح" الذي هو جوهر البر والتقوى فهو عمل في صالح "الناس" (١٥).

٢- الغرب

يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن كلمة "غرب" لم تكن في المرجعية العربية الإسلامية تعني في يوم من الأيام وجوداً "آخر" يقع بالتحديد خارج بلاد الإسلام، ولا ديناً ولا حضارة تمثل "الآخر" بالنسبة للإسلام، وإنما صارت هذه الكلمة تحمل بصورة ما هذه المعاني جميعها من خلال الترجمة من اللغات الأوروبية. وهكذا، فاصطلاح الغرب (بالفرنسية occident وبالإنكليزية west) أي الدول الغربية، والشرق (وهو بالفرنسية orient وبالإنكليزية East) بمعنى دول الشرق، هما معاً ترجمة من اللغات الأوروبية التي ميزت في هذا الأخير (الشرق) بين الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى، وذلك

حسب البعد والقرب من أوربا (١٦).

وفي ظننا، أن المقصود بالغرب اليوم غرب جغرافي وإيديولوجي.. فهو يشمل قارة أوربا كلها، وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلنده حيث يسود السكان المهاجرون من أوروبا. وفي تلك الأماكن، تسود قيم مشتركة تجمعها نزعة موجهة هي النزعة المركزية الغربية.

إن جوهر النزعة المركزية الغربية هو أن "الغرب وفي قلبه أوروبا هو مركز العالم، والمنتج الأوحد للقيم الإنسانية، والحكم المطلق في وضع وتقنين معايير التقدم والتخلف، والمرجع الأوحد في تسجيل انتقال شعب ما أو ثقافة محددة من البربرية والهمجية إلى المدنية" (١٧).

والنزعة المركزية الغربية هي محصلة لمنظومة من تقاليد ثلاثة سادت في الغرب، وهي: التقليد الإغريقي (في حقلي الفكر والفنون)، والقانون الروماني (في الحقوق والسياسة والدولة)، والمسيحية (في حقل الأخلاق) (١٨). وقد أدت تلك التقاليد، على الطريقة الغربية، في شقها الروماني إلى الاستعباد والاستغلال، وفي شقها الإغريقي إلى العنصرية والهيمنة، وفي شقها المسيحي إلى التنصير مدفوع الأجر. وفيما يلي بعض التفصيل في تلك النتائج، وانعكاساتها على الآخر، ونختتم بمواقف من الحضارة الغربية...

* في العنصرية والهيمنة

إن القول بوراثنة الغرب الحديث للإغريق يفسر اصطناع الغرب "نظرية الطبائع"، وهي نظرية عنصرية ومتعصبة، ومؤداها أن للشعوب طبائع تتوارثها. وقد دعمت هذه النظرية مقولاتها بكشوفات علم الأجناس الحيوانية كما ظهر عند داروين، ثم عممت النتائج على الأجناس البشرية اعتماداً على فرضية تقول بوجود سلالات بشرية تترث سمات تتجاوز مراحل التطور التاريخي للمجتمع، وأن تلك السمات الوراثية هي المسؤولة عن اختلاف التطورات الاجتماعية. وقد لعب علم اللغة الذي كان حديث النشأة دوراً هاماً في تأكيد هذا الحكم المسبق. وترجع "نظرية الطبائع" في أصولها إلى الفيلسوف أرسطو، الذي وضع للبشر تقسيماً تراتبياً يتضمن تقسيم الأفراد إلى "حر بالطبيعة" و"عبد بالطبيعة" (١٩).

وقد انتهى الأمر بالغرب إلى تمجيد التفاوت التراتبي بين المجتمعات، مع وضع أوربا في أعلى درجة، ومنحها الحق في الامتداد نحو بقية العالم -بالتفتح والكشف والتبشير والاحتلال- لبناء هوية أوروبا.. فقد جاء (مثلاً) في قاموس تريفو الصادر عام ١٧٧٧:

"الأوروبيون هم شعوب الأرض الأكثر تهذيباً، والأكثر تمدناً، والأحسن صنفاً. وهم يميزون جميع شعوب العالم في العلوم، وفي الفنون، وفي التجارة، وفي الملاحة، وفي الحرب، وفي الفضائل العسكرية والمدنية. إنهم أكثر بسالة، وأكثر فطنة، وأكثر كرمًا، وأكثر نعومة، وأكثر اجتماعية، وأكثر إنسانية" (٢٠)!!!

كذلك، فإن غوستاف لويون (١٨٤١ - ١٩٣١م) صنف الأمم في أربع طبقات نفسية، حسب عناصر اعتبرها ثابتة (منها ما هو راجع إلى الأخلاق، ومنها ما هو راجع إلى الذكاء)، واعتبر أن الأمم الراقية، وهي أعلى طبقة، "لا يندرج فيها إلا الأمم الهندوسية الأوروبية، فهي وحدها التي أظهرت مقدرة على الاختراعات في الفنون والعلوم والصناعة، سواء كان ذلك في الزمن القديم زمن اليونان والرومان، أو في عصرنا هذا. وهي التي أوصلت الحضارة إلى درجة ارتقائها الحالي" (٢١)!!!

وفي عام ١٩٩١، أصدر المؤرخ الفرنسي المعروف جان كريستوف روفان، كتاباً تحت عنوان

"الإمبراطورية والبرابرة الجدد"، واعتبر فيه أن الإمبراطورية هي حضارة الشمال (أو الغرب)، وأن البرابرة هم شعوب الجنوب (أو الدول النامية) التي يتزايد عدد سكانها بوتيرة تخيف دول الشمال. وإن أشد ما يربع روفان هو ما سمي بالتقعر السكاني الذي يحصل في دول الجنوب. ويقول روفان صراحة: "إن ما ندافع عنه في الحقيقة، هو مستوى معيشتنا" (٢٢). وفي المقابلة التي أجرتها في آب (أغسطس) ١٩٩١ مجلة "باري ماتش" الفرنسية مع ردفان، كرر المقولات العنصرية الواردة في كتابه المنوه به، وقال: "... ما دام الإنسان قد أخفق في جهوده لمراقبة النمو الديمغرافي؛ لماذا لا نترك للطبيعة أن تفعل فعلها؟ ستتكفل الحرب، والمجاعة، والفيضانات، والزلازل، والأوبئة، بإقصاء قسم من فائض السكان" (٢٣)، وهو يقصد بطبيعة الحال السكان الفائضين عن مليار السكان أو ما يسمونه بـ "المليار الذهبي" في أوروبا وأمريكا وأستراليا ونيوزيلندا!!!

والواقع، كما يقرر الدكتور عبد الله إبراهيم، هو أن فكرة "السمو الأوروبي" وفكرة "امتدادية أوربا" وفكرة "أوروبا مركز العالم" ستقرض نفسها منذ القرن الثامن عشر، بحيث تصبح أوروبا، حسب ميشال دوفيز "الوسيط للتقدم الكوني" و"السيد المعطاء" الذي ينبغي على العالم أن يكون معتمداً عليه سياسياً وتكنولوجياً. ذلك أن ما تهدف إليه الحضارة الغربية (كما يرى أرنولد توينبي، في كتابه: الإسلام والغرب والمستقبل)، هو "جمع العالم الإنساني كله في مجتمع كبير واحد، والسيطرة على كل شيء فوق هذه الأرض، وفي البحار والأجواء التي ستصل إليها الإنسانية عن طريق التقنية الغربية الحديثة" (٢٤)!!!

* في الاستعباد والاستغلال

إن القول باعتماد الغرب الفقه الروماني في الحقوق والسياسة والدولة يفسر الإقرار بشرعية ما كان سائداً في الإمبراطورية الرومانية، من سيطرة على الآخرين واستعبادهم ونهبهم واستغلالهم، وبالتالي منح تلك الممارسات مصداقية عالية، وقابلية لأن تتخذ أسوة أو قدوة أو مثلاً أعلى.. إذ لم يكن المواطنون أو الأحرار الذين تنطبق عليهم مدونة جوستينيان (التي اندمجت فيها كل الشرائع الإغريقية والرومانية) يمثلون، حسب تقديرات الفيلسوف غارودي، إلا ١% فقط من سكان الإمبراطورية الرومانية، بينما يمثل "العامة" أو العبيد والأجانب، وهم الذين لا يتمتعون بأية حقوق من أي نوع، ٩٩% من سكان الإمبراطورية. وكانت الأدبيات السياسية الإغريقية والرومانية تضع الأجنبي في أحط المراتب مهما كان انتماءه (لاحظ العنصرية تجاه الأجانب المنتشرة حالياً في أوروبا)، وهي توسع كثيراً، وإلى أقصى حد، القاعدة الاجتماعية التي يمثلها العبيد. وإذا أمكن تصور شكل رمزي مستنبط من تلك الأدبيات للتركيب الاجتماعي الإغريقي والروماني، فإنه سيكون شكلاً هرمياً كبيراً وضخماً يتكون من العبيد والأجانب، وعلى ذروته (وفي أضييق نقطة منه) يتربع المواطن الذي هو الإغريقي والروماني الممارس لسلطة فعلية أسندت إليه" (٢٥). لقد كانت معجزتهم إنتاج ما سمي بـ "ديموقراطية عصر الرق" (٢٦)!!!

ولقد أهملت روما تراث الأسلاف، وأحلت محله العناية المبالغ فيها بالنظم التربوية العسكرية، والسيطرة على الآخرين، واستعاضت عن الإبداع بنهب ثروات الآخرين وثقافتهم (٢٧).

* التنصير.. مدفوع الأجر!

أمّا فيما يتعلق بالدين، فقد أمكن في القرن العاشر الميلادي استكمال مشروع تنصير "أوروبا البربرية"

التي يمكن اعتبارها، بصورة عامة، سلف "أوروبا الغربية" بالمفهوم الحديث وطبقاً لشروط الجغرافيا. وكان التحدي الديني الخارجي قد ذوب التعارض الذي كان قائماً في قلب أوروبا، وشد أزرها، فظهرت بوصفها قوة طالعة وجديدة تهدف (من بين ما تهدف إليه) إلى تحقيق مجموعة من الدعاوى ذات الأهداف المزدوجة، وفي طليعتها: القضاء على الوثنية من جهة، ووقف التحديات الخارجية من جهة أخرى.

ويمكن القول إن أوروبا قد أسفرت، بسبب تلك الأهداف، عن وجهها المسيحي، لإيجاد نوع من توازن القوى، وامتصاص التعارض الداخلي القائم آنذاك. ويقول قاموس تريفو الصادر عام ١٧٧٣: "إن أوروبا أصغر قارات العالم، لكن لها على الأجزاء الأخرى مزايا كثيرة.. المزية الرئيسية هي: الدين الحقيقي الذي حفظته على النحو الأفضل، والذي تنشره بشكل رئيس منذ قرنين في أجزاء الكون الأخرى" (٢٨). وكل هذا جعل ميشال دوفيز يضع (في كتابه: أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر) استنتاجه الآتي: "إن أوروبا تتطابق في الهوية أكثر فأكثر مع المسيحية.. إن أوروبا حامل راية، وجندي المسيح. إن التصور الجغرافي لعصر الحملات الصليبية بسيط ولكنه منطقي:

"أورشليم مركز العالم". القدس إذن "سرة العالم". والهدف المسيحي في هذه الحقبة يخضع للفرضية التالية: بما أن "أوروبا بلاد المسيحيين" فإن أفريقيا وآسيا يجب تنصيرهما". والأصح، كما يؤكد دوفيز: "إعادة تنصيرهما، ما دامت هذه الأراضي كانت جزئياً مسيحية في العصر القديم" (٢٩).

ولقد بدا للأوروبيين (في ضوء الاكتشافات الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس عشر) أن العالم خارج أوروبا عالم ثري، وخامل، ووثني.. فقد رافق المستكشفين باحثون عن الذهب، وحاملون للإنجيل.. الفئة الأولى غايتها نقل الثروة إلى أوروبا، وغاية الفئة الثانية بث الحيوية الروحية في ذلك الخمول الوثني. وظهر تبادل غير متكافئ، وقوامه كما يقول ريجيس دوبريه: "ذهبك في مقابل إلهي. أعطني الدراهم، وإليك المطلق. إني أنهب، ولكنني أهديك إلى الحق" (٣٠).

ولعل من أكبر المفارقات خلال القرون الخمسة الماضية، أن أوروبا التي كانت تنتشر فيها أفكار الحرية والأخوة والمساواة، هي نفسها التي كانت (في الوقت نفسه) تمارس في خارج أوروبا أبشع عمليات الاستعمار، وتوطد أفضع نظام للنهب العالمي.

ويظهر السيناريو التالي الذي بلوره المؤرخ الدكتور شاكر مصطفى آليات التحرك للاستعمار والنهب في خارج أوروبا: يدخل المبشر ليتعرف إلى الأرض، ويلحق به الجندي ليدمر كل مقاومة، ثم يصل التاجر (ممثلاً بالشركات الكبرى) لتبدأ عملية ضخ الخيرات. وكل ذلك بينما يقوم المستشرق (والمفكر عموماً) بإيجاد الأرضية المعرفية ومنح المشروعية الأخلاقية لنظام الاستعمار والنهب (٣١). فمن ينسى (مثلاً) تحريض الفيلسوف الألماني ليننتز (المتوفى عام ١٧١٦م) للملك الفرنسي لويس الرابع عشر على غزو مصر (٣٢)؟!؟

**** انعكاسات النزعة المركزية على الآخر:** لقد كانت انعكاسات النزعة المركزية الغربية على باقي العالم (الذي هو الآخر أو كل ما هو غير غربي) كارثية بكل ما في الكلمة من معنى. ويرى المؤرخ الدكتور شاكر مصطفى أن العلاقة بين الغرب والآخر قد مرت بمراحل ثلاث، وهي:

- **المرحلة الأولى** (مرحلة الإبادة والرقيق): فلقد أخذ الغرب عن العرب البوصلة فاستخدمها للاستكشاف في البحار، والبارود فاستخدمه في قتل الآخرين عن بعد.. فقد سرق الغرب أكثر من ٦٠

مليون إنسان أفريقي، واستعبدتهم في إنشاء وتشغيل المزارع والمصانع في القارة الأمريكية، وقد قتل ثلثا هؤلاء أثناء نقلهم في سفن خاصة، بسبب المرض، أو التعذيب، أو الغرق، أو الانتحار. (من ينسى المسلسل التلفزيوني "الجزور" لكاتبه اليكس هيلي؟". ويقول جون نيوتن (وهو أحد قباطنة سفن العبيد)، بعد أن تاب ودخل الدير تكفيراً عن ذنوبه: "كنا نصفد العبيد من أقدامهم بسلسلة واحدة، ونحشرهم على رفوف كأنها التوابيت، في قاع السفينة، مع الفئران والجرذان التي كانت تمتص جراحهم!!! وكنا في كل صباح، نستيقظ لنجد الميت والحي مصفدين معاً في قيد واحد" (٣٣). وقد أباد الغرب، كذلك، أكثر من ١١٢ مليون إنسان من السكان الأصليين في قارة أمريكا (٣٤). وحدث في مؤتمر عن "الأقليات المضطهدة" عقد في جامعة ماديسون عام ١٩٩٨، أن قفز إلى المنصة، أثناء قراءة التوصيات، أحد السكان الأصليين في أمريكا (ويسمونهم الهنود الحمر)، وصاح:

"سمع يا كلينتون (ويقصد الرئيس الأمريكي حينذاك).. إننا نحن السكان الأصليين أصحاب أمريكا الحقيقيون، وما أنتم إلا غزاة" (٣٥).

-**المرحلة الثانية (مرحلة النهب العالمي)**، وتسمى مرحلة الاستعمار من قبيل تسمية الأضداد.. فلقد حول الغرب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى "منجم" يأخذ منه المواد الأولية بثمن بخس، و"سوق" يبيع فيه سلعه بأسعار احتكارية. إنه "التبادل اللامتكافئ".

ومن الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها الغرب في هذه المرحلة، تنفيذ مذابح وحشية في الجزائر، وبطرق منهجية ومعتمدة رسمياً. ومن أفظع تلك المذابح، إبادة قبائل بكاملها في المغاور الجبلية، خنقاً بالدخان والغازات السامة، وبحيث كانت النتيجة استشهاد أكثر من ١,٥ مليون جزائري!!! (وهو، بالصدفة، نفس العدد من العراقيين الذين حصدهم نقص الغذاء والدواء في العراق، بسبب الحصار الجائر الذي دام أكثر من ١٣ عاماً، بضغط من الأمريكيين والبريطانيين، ولم ينته إلا باحتلال العراق)!!! ويقول الفيلسوف غارودي: "لقد أباد ثلاثة ضباط فرنسيون في الجزائر (وهم: كافينياك وبيليسيه وسان أرنو)، في سنة واحدة، وفي ثلاث نقاط مختلفة، ثلاث قبائل عن بكرة أبيها (رجالاً ونساء وأطفالاً)، حين التجأت إلى المغائر، وذلك بإحراقهم وخنقهم بالغاز وهم أحياء (٣٦)!!! ولا بد من التتويه بأن الفرنسيين قد ارتكبوا تلك المذابح الوحشية في الجزائر ولما تمض ٣٥ سنة على صدور إعلان حقوق الإنسان.. في فرنسا!!!

-**المرحلة الثالثة (مرحلة تنمية التخلف)**: من الواضح أن النهب لم يتوقف لحظة واحدة منذ أن بدأ قبل خمسة قرون، وكان من نتائجه أن أقل من ٢٠% من سكان العالم (يعيشون في الغرب) يستأثرون حسب الأرقام المتحدة في تقارير الأمم المتحدة حول التنمية البشرية، بأكثر من ٨٠% من المدخرات العالمية، ومن الدخل العالمي، ومن التجارة العالمية، ومن الطاقة العالمية. وهم يروجون أنماطاً للاستهلاك ترهق اقتصاديات الدول النامية، ويربطون تلك الدول بعجلة التبعية المالية والتكنولوجية والاقتصادية، ويصدرون إليها المصانع الملوثة للبيئة الطبيعية، ويقحمون فيها كل عوامل التمزق والإضعاف والإفقار.. إنها التنمية على الطريقة الغربية.. تنمية التخلف (٣٧)!!!

**** موقف من الحضارة الغربية:**

بعيداً عن الانبهار بمنجزات الحضارة الغربية (وهي في معظمها مادية)، وبعيداً أيضاً عن تضخم تلك المنجزات وجعلها معجزات، فإن أصواتاً كثيرة قد عبرت عن تقييم للحضارة الغربية موضوعي ودقيق،

ونقتطف من مواقف تلك الأصوات ما يلي:

* **يقول المؤرخ الدكتور شاكر مصطفى:** "لم يحدث في تاريخ الإنسان كله أن وجدت حضارة بمثل هذه القوى الشيطانية، ويمثل هذه العالمية من الطغيان. لسنا أمام إمبريالية حضارية تقليدية، ولكن أمام تتين حضاري كوني يتحرك بأقدام المردة.. يتحرك ويدوس النمل وحدود القصب التي تقيهما الجماعات الحضارية الأخرى دونه. هذه الحضارة التي بدأت منذ أكثر من أربعة قرون بنهب القارات الثلاث واستعبادها، ما تزداد نهياً واستعباداً وجبروتاً. وإذا كان ذهب أمريكا المكتشفة وثروات آسيا وأفريقيا المستعمرة ثلاثمائة سنة هي التي بنتها.. فالفائض الحضاري المتراكم في الغرب اليوم هو الذي يفرض التخلف فرضاً على الآخرين، ويفرض معه الاستعباد والتبعية الذيلية. ومن العبارات المعادة، ما تتداوله اللقاءات بين الشمال والجنوب، أو بين الدول المتقدمة والدول النامية، من أن الأغنياء يزدادون غنى، بينما الفقراء يزدادون فقراً!!!" (٣٨)

* **ويرى المؤرخان ناثن روزنبرغ ول. برايدزل،** في كتابهما "كيف اغتنى الغرب؟"، أن "غنى الغرب ورخاءه غير المسبوقين يرجعان إلى سقوط القيود السياسية والدينية، حيث سمح هذا السقوط للمشروعات الصغيرة أن تمارس اختياراتها الخاصة بالنسبة للتجديد والابتكار سواء في المجال التقني أو التنظيمي، أو في التوسع في التجارة، الأمر الذي أدى إلى تنمية اقتصادية سريعة" (٣٩). ونحن نستذكر (تعقيباً على القول بأن سقوط القيود السياسية والدينية سبب غنى الغرب ورخائه) أن شكسبير يقول: "الضمير يجعلنا جبناء!!!"

* **ويقول العالم الصيني "ين فو"** الذي توفي عام ١٩٢١، بعد أن قضى كل حياته مؤمناً بالغرب إلى أن كفر به في آخر حياته، وقال قولته المشهورة: "إن الذي حققته شعوب الغرب في القرون الثلاثة الماضية، تم بناؤه على أسس أربعة:

- أن تكون أنانياً،

- وأن تقتل الآخرين،

- وأن تكتسب أقل ما يمكن من النزاهة،

- وأن تشعر بأقل ما يمكن من الحياء" (٤٠).

* **ويرى الدكتور عبد الله عبد الدايم** أن نموذج الإنسان الذي تنادي به الحضارة الغربية ضمن نطاق العولمة، إنما يقوم على ثلاثة مقومات أو أسس هي:

- القول بالفردية الكاملة المطلقة في مقابل القول بالمواطنة وتغليب الشأن الاجتماعي.

- الأخذ بفلسفة الربح والنجاح، واعتبار الربح هو الموجه الأساسي، بل الغاية الأساسية للسلوك الإنساني. ونجد جذور هذا الاتجاه في الفلسفة البراغماتية.

- اعتبار المنافسة الأساس الذي تقوم عليه الروابط الاجتماعية.. فالأفراد عندها ليسوا أفراداً معزولين ومجزئين فحسب، بل هم فوق ذلك مدفوعون بعضهم ضد بعض في قلب منافسة لا ترحم" (٤١).

* **ويقول الكاتب نصير مروة:** "يوشك الفيلسوف توماس هوبز (١٥٨٨- ١٦٧٩م) أن يمثل روح الحضارة الغربية.. ذلك أن هذه الحضارة هي حضارة هيراقليطية أساساً من حيث أنها تقترض الحرب

والصراع.. سياستها علاقات قوى، وسلامها توازن قوى، يكفي أن يختل قليلاً حتى تنشب الحرب. وديمقراطيتها عملية مراجعة قوى.. أسطورتها الرئيسية بروميثيوس، وديانتها الجبروت. إنها تقترض حرب الكافة ضد الكافة، ولهذا، فهي تنظم الديمقراطية، لأن هذه الأخيرة هي تقسيم للسلطات وتأليب لبعضها على بعضها، بحيث أنه كلما جنحت واحدة منها إلى الغلبة انتقلت الباقيات عليها للجماها" (٤٢).

*ونختم الحديث عن الحضارة الغربية بشهادة للأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا.. "إننا الآن بدأنا ندرك العواقب المدمرة لاستسلامنا للتعاليم والرؤى التي تبنتها الحضارة الغربية" (٤٣).

٣- في المؤامرة

يرى بعضهم أنه لا يوجد في التاريخ شيء اسمه "المؤامرة"، ويقول (مثلاً) الدكتور أحمد زويل، الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء: "نظرية المؤامرة كلام فارغ" (٤٤).

ونحن، ومع تسليمنا بالدور الحاسم الذي تلعبه العوامل الداخلية في تقدم الأمم، فإننا لا نستطيع موافقة الدكتور زويل وأمثاله، الذين يجحدون وجود المؤامرات في التاريخ، ويهتمون أنصار نظرية المؤامرة بالاستسهال، والجهل، والعجز، والحكم دون دليل، وتبرئة النفس بصورة غير موضوعية.. فالمؤامرات موجودة في كل زمان ومكان. وسنبين ذلك فيما يلي، فنبدأ بتعريف المؤامرة، ثم نعرض ما يناسب من شهادات وأدلة على وجود المؤامرات.

***فحسب المعجم الوسيط:** تأمر القوم، وائتمروا، تشاوروا. تأمروا عليه، وائتمروا به:

تشاوروا في إيذائه (٤٥). والمؤامرة في الإنكليزية conspiraey كانت تعني في أصلها اللاتيني: التهامس (٤٦). والمؤامرة حسب قاموس اكسفورد الكبير: اتفاق غير معلن بين طرفين أو أكثر، للإضرار بمصالح أو أمن طرف غيرهم. (٤٧). والمؤامرة اصطلاحاً، هي التخطيط، سراً في العادة، لإيذاء الآخرين. وهي تشمل (في التنفيذ) طيفاً واسعاً من الممارسات الشريرة، تبدأ بالسكوت عن الحق (فيما يسمى مؤامرة الصمت)، وتمر بالتعمية على الآخرين و تضليلهم، وتنتهي بالمشاركة (مادياً و/أو معنوياً) بالعدوان على مصالح الآخرين وأمنهم.

***ويرى المفكر الدكتور حسن حنفي** أن "التآمر موجود في كل مكان.. القوى الكبرى تتآمر فيما بينها، وتتآمر على القوى الصغرى، وهو شيء وارد وجزء من اللعبة السياسية" (٤٨).

***ويقرر الأكاديمي القانوني الدكتور إبراهيم إبراش** أن "كل مطلع وملم بعلم السياسة يعرف أن السياسة هي سعي لتحقيق المصالح.. فالمصلحة هي الهدف الأول الذي تسعى إليه الدول والأنظمة في سلوكها الداخلي والخارجي. وتحقيق المصلحة الوطنية لدولة ما يتم بإحدى طريقتين: إما بالسلم حسب قواعد القانون والأعراف الدولية، أو بالحرب والصراع وما يصاحبهما من خداع ومناورة وتآمر. والوسيلتان معاً هما السياسة، أو هما عملة واحدة هي السياسة.. والقول إن السياسة لا تعرف الصراع والتآمر، هو قول لا يستقيم مع فهم السياسة على حقيقتها كسياسة بشر لا كسياسة ملائكة"، ويخلص الدكتور إبراش إلى أن "التآمر قلب السياسة، ونقصد أن ما لا تستطيع السياسة تحقيقه بالمكشوف عن طريق القانون والاتفاقيات، تسعى إلى تحقيقه عن طريق الحرب والخداع والمناورة. وكل دولة من دول العالم لها سياستان: سياسة معلنة مزينة بشعارات ومبادئ أخلاقية وقانونية، وسياسة سرية أو خفية يرسمها

استراتيجيون وأجهزة مخابرات ويطبقونها في الخفاء، أو يلجؤون إليها وقت الحاجة.. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، هناك التآمر ضد كوبا، وفضيحة ووترغيت، وإيران غيت، وغيرها، وهي أوجه تأمرية من السياسة" (٤٩).

***وفي الاتجاه ذاته، يرى السياسي المصري الدكتور مصطفى الفقي** "التسليم بوجود ما يمكن تسميته بالحكومات الخفية.. فبينما يقصر دور الساسة والدبلوماسيين على إصدار القرارات العلنية وتنفيذ السياسات العامة، وترتيب الأولويات، والتوقيع على المعاهدات، تكون هناك قوى أخرى خلف الكواليس هي التي تضع الخطوط العريضة، ثم ترسم التفاصيل، وتبحث فيما وراء الأحداث، وتقوم بنوع من الدبلوماسية السرية، حتى لو وصل بها الأمر إلى بعض الأعمال التي قد لا يعلم بها السياسيون أحياناً، مثل الاغتيال السياسي، أو الابتزاز الشخصي، أو حتى ترويج الشائعات وإطلاق النكات، وكل ذلك في إطار مصلحة عليا، ومفهوم خاص لأهداف تسعى الدولة لإنجازها على المدى الطويل، في عملية فصل باردة بين السياسة والأخلاق. ولعل السياسة الخارجية الأمريكية المعاصرة تعد مثلاً لذلك.. فما أكثر ما وقفت وراء انقلابات عسكرية، واتصالات سرية، وصفقات دولية. فالعالم اليوم محكوم بشبكة معقدة من الأجهزة المعنية بصنع السياسات الخارجية، وتحقيق المصالح الوطنية، ربما يلعب الجزء الخفي منها دوراً أكثر فاعلية وتأثيراً من الدبلوماسية العلنية، أو شعارات الحكم وخطب الزعماء" (٥٠).

***ولقد اعترفت السيدة مادلين أولبرايت** (التي كانت وزيرة الخارجية في إدارة الرئيس الأمريكي بل كلنتون)، في ٩ / ٣ / ٢٠٠٠، بتورط الولايات المتحدة الأمريكية في الانقلاب الذي أطاح برئيس وزراء إيران، الدكتور محمد مصدق، في عام ١٩٥٣!!! (٥١) كذلك فقد تبين أن بلجيكا (التي كانت تستعمر الكونغو كينشاسا) قد كانت، أيضاً، متورطة في اعتقال رئيس الوزراء الكونغولي "باتريس لومومبا" في عام ١٩٦١، واغتياله بعد ذلك. وقد اعترف مفوض الشرطة البلجيكية، جرار سويكي، في تحقيق أجراه التلفزيون البلجيكي عام ٢٠٠٠، أنه أشرف على إذابة جثة "باتريس لومومبا" بحامض الكبريتيك (٥١)!!!!

***وفي كتابه "حرب الخليج دفعتني إلى الاستقالة"، يقرر جان بيير شوفينمان** (وزير الدفاع الفرنسي الأسبق، الذي استقال احتجاجاً على الحرب ضد العراق عام ١٩٩١)، أنه "في كل مرة أراد العرب استدراك تخلفهم، ولأسباب وجيهة أن يصنعوا وحدتهم، كانوا يجدون الغرب على طريقهم كي يمنعهم من تحقيق أهدافهم، كما حصل غداة الحرب العالمية الأولى (ويقصد هنا مؤامرة سايكس بيكو كما هو واضح)، وأن يبقوهم داخل حدودهم المصطنعة، أو ليرودهم نحو الماضي، بما في ذلك استخدام قوة السلاح.. وفي كل مرة أراد نظام عربي أو مسلم الانفتاح على الحداثة، كان الغرب يسد الطريق عليه أو يسحق شرايينه.. فبالأمس كان ذلك مع محمد علي باشا وخديوية مصر والسلطين المجددين، وبعد ذلك مع جمال عبد الناصر. ولن أنسى بالطبع الدكتور محمد مصدق في إيران.. وكان من النتائج المباشرة لحرب الخليج الثانية (١٩٩١)، "بطح" بلد عربي واحد هو العراق، وهو الوحيد في المنطقة الذي بدأ ينزع عن نفسه رداء التخلف" (٥٣).

ويشرح شوفينمان الممارسات التأمرية الأمريكية قبل الحرب (وبما في ذلك: شيطنة الرئيس العراقي، وتعطيل آلية الأمم المتحدة)، التي هيأت الظروف الدولية والإقليمية لشن الحرب ضد العراق، مستشهداً بسابقة أمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، فيقول: "من المعروف أن الرئيس (الأمريكي) روزفلت، تلقى إنذاراً حول موعد الغارة اليابانية على قاعدة بيرل هاربور البحرية في أيلول ١٩٤١، ولكنه انتظر حتى

وقعت الغارة فعلاً دون أن يخطر عنه أحداً، لكي يتمكن من إقناع الرأي العام الأمريكي بضرورة دخول أمريكا الحرب" (٥٢). وكل ذلك مما يعطي المصادقية للاتهامات الموجهة إلى إدارة الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش الابن)، بأنها لم تتخذ الإجراءات اللازمة تجاه المعلومات الاستخبارية التي زودت بها في وقت مبكر قبل حدوث تفجيرات نيويورك وواشنطن (في ١١ / ٩ / ٢٠٠١)، وفسر الكثيرون ذلك "الإهمال المتعمد" برغبة الرئيس الأمريكي الحالي في اتخاذ تلك التفجيرات ذريعة للحرب على أفغانستان والعراق وغيرهما بحجة مكافحة الإرهاب.

*** وكان السيد سكوت ريتز (المفتش الأمريكي السابق في لجنة الأمم المتحدة المكلفة بنزع أسلحة العراق - أونسكوم) قد أكد في فيلم وثائقي عرضه، في ١٨ / ٧ / ٢٠٠١، في نادي الصحافة في الأمم المتحدة، أن رئيسه في اللجنة، السيد ريتشارد بتلر، أصدر إليه تعليمات في مقر البعثة الأمريكية في نيويورك، في أواخر عام ١٩٩٨، طالباً منه استقاز العراقيين، كي تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية من تنفيذ القصف الأمريكي للعراق (الذي نفذ بعد ذلك، لعدة أيام في شهر رمضان، اعتباراً من ١٦ / ١٢ / ١٩٩٨، وسميت العملية: ثعلب الصحراء)!** فقد قال السيد ريتز في ذلك الفيلم الذي أخرجه بنفسه (وعنوانه: الرمال المتحركة)، إن رئيسه بتلر تلقى من ساندي بيرغر (مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي، في حينه)، مكالمات هاتفية يبلغه فيها رغبة واشنطن في "اختلاق مواجهة، لاستغلالها في البدء بالهجوم على العراق"، فوافق بتلر على ذلك، واصطحب معه فريقاً رفيع المستوى من لجنة "أونسكوم" إلى اجتماع في مقر البعثة الأمريكية في نيويورك، ورسم خطين متوازيين.. جعل أحدهما تحت عنوان "تفتيش"، والآخر "إجراء عسكري". وأوضح بتلر أن على لجنة "أونسكوم" افتعال أزمة تفتيش، كي تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية من تنفيذ القصف" (٥٥).

**** فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله وقائع تاريخية أخرى مثل: تأمر بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني في مدينة "سيفر" الفرنسية لشن العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وتأمر أمريكا مع العدو الصهيوني لشن العدوان على الأمة العربية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ (٥٦)، فإننا سنخرج بالنتيجة المنطقية التالية: "المؤامرة في السياسة الدولية موجودة، ولو جردها الدكتور زويل وأمثاله". وهذا ما جعل أحد الكتاب يعتبر أن "استبعاد نظرية المؤامرة عن الأحداث والوقائع وهي من صنع البشر، يعادل استبعاد المجر من عمليات الفحص المخبري (٥٧)!!!**

ونستذكر، هنا، قصة ذلك المؤرخ الأمريكي (واسمه: ريتشارد كوتوم)، الذي كان يعمل في إحدى الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتخصص في التاريخ الإيراني الحديث والمعاصر. وكان لهذا الأستاذ تلامذة إيرانيون يحضرون صفوفه ويكتبون أبحاثهم تحت إشرافه.

وكان هذا الأستاذ يسأل تلامذته الإيرانيين عن أسباب وقوع حدث ما عند وقوعه في إيران، فكان الطلبة الإيرانيون يجيبونه عادة بأن بريطانيا هي المحرك الأساسي لهذا الحدث أو ذاك. وينقل عن هذا الأستاذ الأمريكي أنه ضاق ذرعاً بتفسير طلابه الذي لا يتغير للأحداث في بلادهم، وأخذ ينظر إليهم نظرة مملوءة بالسخرية. ثم صدف أن عرضت الحكومة الأمريكية على هذا الأستاذ أن يعمل لديها ويتخلى عن وظيفته الجامعية ففعل ذلك لأسباب شخصية. وما أن بدأ يعمل لدى الحكومة الأمريكية حتى أصبح بمقدوره الاطلاع على التقارير السرية التي كانت تصل من السفارة الأمريكية في طهران إلى وزارة الخارجية في واشنطن.

وبعد عدة شهور من الاطلاع على هذه الوثائق، صاح هذا الأستاذ: يا إلهي! لقد كان تلامذتي الإيرانيون على حق (٥٨).

ونختم الحديث عن المؤامرة بما قاله وزير الدفاع ومدير المخابرات المصرية سابقاً، السيد أمين هويدي: "في دهاليز البيت الأبيض بشارع بنسلفانيا بواشنطن، وفي أوكار المخابرات ومراكز العمليات برئاسة القيادة المركزية في تامبا، وعلى مدى ستة أشهر من جمع المعلومات ودراسة التقديرات وإعداد الخطط وتعديلها، تم إعداد المؤامرة الكبرى لغزو العراق.

(ويقصد السيد هويدي -بطبيعة الحال -التخطيط للحرب التي قامت على الأكاذيب الثلاثة: امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وتعاون العراق مع تنظيم القاعدة، وإقامة الديمقراطية في العراق)!!

ثم انطلقت الطائرات، وصوبت الصواريخ، ونقلت الفرق المدرعة والميكانيكية والمنقولة جواً لغزو العراق يوم ٢١ / ٣ / ٢٠٠٣، في عملية أطلق عليها الاسم الكودي "الحرية للعراق"، تحت سمع وبصر العالم ومؤسساته العالمية التي أنشئت في الأصل لمنع العدوان والمحافظة على السلام، انتهت باحتلال العراق" (٥٩)!!!

ثالثاً -خلفية لا بد منها

في البيان الصادر عن اجتماعات المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف، المنعقد في يومي ٣ و ٤ صفر هـ (الموافق ١٦ و ١٧ أبريل /نيسان ٢٠٠٢)، وتحت عنوان "الحملة الشرسة على الإسلام"، جاء ما يلي، وبالحرف الواحد:

"لقد جاء انعقاد هذا المؤتمر في سياق تصاعد الحملة الظالمة والشرسة ضد الإسلام، ديناً وحضارة وأمة، وضد القضايا العادلة لشعوب العالم الإسلامي والأقليات المسلمة في البلاد غير الإسلامية. ولقد بلغت هذه الحملة الظالمة مستويات غير مسبوقة بعد الحادث المأساوي الذي وقع بأمريكا في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١، وهو الحادث الذي أدانته مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، والذي لانزال نتمنى أن تتم بشأنه تحقيقات عادلة تكشف عن فاعليه الحقيقيين، وتقديمهم للعدالة.

"ولقد لاحظ مؤتمر المجمع، بقلق شديد، انزلاق كثير من الكتابات والتصريحات والممارسات الغربية -وخاصة الأمريكية -إلى تأجيج نيران (الصراعات الدينية) و(الحروب الثقافية) و(الصدامات الحضارية)، بدلاً من البحث عن حلول عادلة للصراعات والمشكلات.. حتى لقد استخدمت في هذه الكتابات والتصريحات عبارات (الحرب الصليبية) و(صراع الخير ضد الشر) و(التفوق الحضاري الغربي على البربرية الإسلامية) و(شن حرب داخل الإسلام) والسعي لتغيير طبيعة الإسلام ومبادئه حتى يصبح -كما قالوا - (إسلاماً ليبرالياً) و(حداثياً، يقيم قطيعة مع ماضيه وتراثه) و(قابلاً للعلمانية، وفصل الدين عن الدولة والحياة). بل لقد بلغ الأمر حد المفاضلة بين معبوداتهم وبين إله المسلمين، رب العالمين تعالى سبحانه عن ما به يهرفون.

"ولقد تبع هذه التصريحات والكتابات دعوات غريبة وشاذة للتدخل في أخص خصائص الإسلام والمسلمين، فتجاوزا التدخل في الشؤون السياسية والاقتصادية للعالم الإسلامي، إلى الحديث عن ضرورة تغيير مناهج التعليم الديني، والمدارس القرآنية في بعض البلاد الإسلامية.

"إن الإسلام يصنف هذه الدعوات والكتابات والتصريحات والمسايع في باب (فتنة الناس في دينهم) -والفتنة أشد من القتل- وهي سبب من أسباب الإذن والتحريض على الجهاد، حتى يكون الدين خالصاً له، وحتى تكون الحرية مكفولة لكل صاحب عقيدة وهوية وثقافة، يختار ما يريد ضميره الحر، لا ما يفرضه المتجبرون على المستضعفين، وصدق الله العظيم:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ما ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ الحج: ٣٩ و ٤٠.

"لذلك، يحذر مؤتمر المجمع من العواقب الوخيمة لهذه الحملة الظالمة والشرسة على الإسلام، وعلى التعليم الديني الإسلامي، ويدعو إلى طريق الحوار بين الثقافات بدلاً من الصراع بين الحضارات، وذلك حتى يكون الفكر معيماً على تخفيف حدة التوترات والصراعات التي تسود الكثير من مناطق العالم، بدلاً من أن يكون الفكر مؤججاً لنيران هذه التوترات والصراعات" (٦٠).

رابعاً -في مؤامرة الغرب على الإسلام

المقصود بوجود مؤامرة في الغرب على الإسلام، هو وجود "اتجاه" سلبي لدى الغرب في نظرته إلى الإسلام، وبالتالي في تعامله مع المسلمين. و"الاتجاه" في علم النفس هو "حالة استعداد عقلي وعصبي تنتظم عن طريق الخبرة، وتؤثر بصورة موجهة دينامية على استجابة الفرد لكل المواضيع والمواقف المرتبطة بها" (٦١). وقوام ذلك الاتجاه (أو الاستعداد) لدى أهل الغرب في تعاملهم مع المسلمين: العداء /أو الخوف (اسلاموفوبيا) و/أو الكراهية.

وسنحاول في هذا الجزء من البحث، الإجابة عن الأسئلة التالية: هل مؤامرة الغرب على الإسلام موجودة أم موهومة؟ وإذا كانت موجودة، فما هي الأسباب؟ وما هي الآليات؟

١-مؤامرة الغرب على الإسلام.. هل هي موجودة؟

*نشير، بداية، إلى أن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وفي بيانه الصادر في لندن بتاريخ ١٣ /٧/ ٢٠٠٤، قد "لاحظ بقلق تنامي ظاهر (الخوف من الإسلام) في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، والهجوم المتواصل الذي تتعرض له مؤسسات وأفراد علماء أجلاء لمجرد انتمائهم إلى الإسلام" (٦٢).

*ويرى المستشرق توماش ماستناك أن العداء للإسلام قديم، وأن ذلك العداء كان أساسياً في تشكيل الهوية الأوروبية، ويقول: "إن تشكيل أوروبا بدأ بالحرب المقدسة التي خاضها المسيحيون اللاتينيون ضد المسلمين، إنني أفهم الحروب الصليبية بوصفها تجربة تكوينية حاسمة لما سوف يصبح أوروبا، وأعتبر أن هذه الحروب كان لها أثر عميق على الأفكار والمؤسسات الغربية". ويرى ما ستناك أن أوروبا كوحدة ذات هوية جماعية وقادرة على تنسيق الفعل قد جرى التعبير عنها كقاعدة في العلاقة بالمسلمين كعدو. ويضيف: "ومن زاوية النظر هذه، تظهر الحروب الصليبية بوصفها "الاتحاد الغربي الأول"، ويظهر خلق "جيش صليبي" بوصفه علامة على تقدم مثير نحو السلم والوحدة الأوروبيين. والواقع أن السلم والوحدة الأوروبيين كانا مرتبطتين ارتباطاً حميماً بالحرب.. بالحرب ضد أولئك الذين كان ينظر إليهم على أنهم يهددون تلك الوحدة، ضد أعداء في الداخل والخارج: الكفار، الهرطقة، دعاة الانشقاق

(الذين جرى ضم المتوحشين إليهم فيما بعد). وقد جرى جعل المسلمين العدو من بين جميع الأعداء الممكنين، وجرى، على نحو سافر، اعتبار الحرب ضدهم مخرجاً للعنف الذي كان من شأنه، لولا ذلك، أن يجتاح الجماعة المسيحية وأوروبا، ومن ثم فقد جرى تصور السلم الأوروبي على أنه غير ممكن إلا بالارتباط بحرب ضد العدو الخارجي". ويضيف ما ستاك: "وكانت الحروب الصليبية حروباً دينية ضد الإسلام، حيث لا يعتبر المسلمون كفاراً بين كفار كثيرين، بل يعتبرون العدو الأول للمسيحية.. وما كان جديداً لم يكن هو معرفة الإسلام، بل الإصرار على تدميره عن طريق العنف المنهجي الذي تنظمه أعلى السلطات المسيحية.

ما كان جديداً لم يكن هو أن عدواً قد جرى النظر إليه على أنه الآخر، بل إن آخر محدداً (هو الإسلام) قد جرى تصويره على أنه العدو الشامل" (٦٣). وهكذا، فإن عداء الغرب للإسلام ليس حديثاً، ولم ينشأ نتيجة لأحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ كما يزعمون، ولكنه قديم قدم الحروب الصليبية.

وقد حدث في القرون الخمسة الأخيرة، أن أسقط الغرب غرناطة عام ١٤٥٢م، وشن حملات غزو أحاطت بالعالم الإسلامي وسميت بالاكشافات الجغرافية (وقد لقي الملاح ماجلان حقه وهو يحارب المسلمين على شواطئ الفلبين عام ١٥٢١م). ثم غزا نابليون مصر في قلب العالم الإسلامي، واستعمر الغرب معظم البلدان الإسلامية، وزرع فيها الكيان الصهيوني لكي يجهض (أولاً بأول) أية محاولة لاستعادة الوحدة والنهضة في العالم الإسلامي. وقد احتل (أخيراً) كلاً من أفغانستان والعراق، متذرعاً بحجج ثبت بطلانها (كمكافحة الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل)!!!

يقول المجاهد المعروف والرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة، في رده على سؤال حول الأسباب الحقيقية، وراء الحملة الأمريكية على العراق: "معروف أن العراق يعم فوق بحيرة من البترول، وممتلك ثاني مخزون من النفط في العالم. وأمريكا تريد بسط يدها على هذا المخزون، وتسعى أيضاً للتواجد بالقرب من العملاق الصيني الذي حقق معدل نمو ١٥%، وسوف يكون له شأن آخر إبان السنوات القادمة، خاصة أن معه ملياراً ونصف المليار من البشر وهي قوة يحسب لها ألف حساب، وهدف التواجد الأمريكي الاستراتيجي في المنطقة العربية هدف قديم تسعى لتحقيقه منذ أمد بعيد، وهي في ذلك كله تستهدف الإسلام بشكل أساسي. (٦٤)

***ويلاحظ المفكر الدكتور ناصيف حتي أن ثمة "مكارثية" جديدة ضد الإسلام هي أكثر خطورة من "المكارثية" الأمريكية التي سادت في الخمسينات من القرن العشرين، وخاصة لأن "مكارثية الخمسينات كانت سياسية عقائدية قائمة على الخلط بين كل ما هو ليبرالي بالمفهوم الأمريكي الذي يعني ديمقراطي اجتماعي بالمفهوم الأوروبي من جهة، وما هو شيوعي من جهة أخرى، وربط هؤلاء كلهم بكونهم طابوراً خامساً للاتحاد السوفييتي، في حين أن المكارثية الجديدة ثقافية تقوم على الخلط المتعمد بين الإرهاب والحركات الإرهابية من جهة، والإسلام والعرب والمسلمين من جهة أخرى.. فالعداء والخوف والتخويف لم تعد موجهة ضد موقف سياسي أو عقائدي قادر على أن يتغير، بل ضد هويات أو انتماءات دينية أو قومية، فهو عداء عنصري ويتسم بالثبات والاستقرار، مما ينقل الصراع من المجال السياسي إلى المجال الحضاري. فالمكارثية الجديدة تجسيد عملي لنظرية صراع الحضارات، وهي، بالتالي، مستقرة عبر الزمان والمكان" (٦٥).**

***ويقول المفكر الدكتور شريف حتاته: "منذ انتهاء الحرب الباردة (ضد المعسكر الاشتراكي)،**

صنعت للمسلمين والعرب صورة مرتبطة بالتخلف، والعداء للديمقراطية، واحتقار النساء، والميل إلى العنف والإرهاب. وقد صدرت مئات الكتب وعرضت مئات الأفلام والبرامج التلفزيونية لتؤكد هذه الصورة (٦٦) وفي رده على سؤال حول نظرة وسائل الإعلام في الغرب للإسلام، قال المفكر الأمريكي المعروف جون اسبوزيتو: "تصور وسائل الإعلام أن هناك تصادماً خطيراً بين الإسلام والغرب. وينعكس ذلك في الافتتاحيات والمقالات التي تحمل عناوين متشائمة مثل: "مازالوا يحاربون الحملات الصليبية"، "الإسلام الصاعد يهيمن على الغرب"، "الهلال الجديد في أزمة الانتفاضة العالمية"، "جذور الغضب الإسلامي"، "نزوة الأزمة: صراع الحضارات".

حيث تساهم مثل هذه العبارات في الاستحواذ على الخيال الشعبي والرأي العام، كما أنها وبكل تأكيد تتبالغ وتشوه طبيعة الإسلام والحقائق السياسية في العالم الإسلامي وعلاقاتها المختلفة مع الغرب، وتكرس درجة مدهشة من الجهل والنمط الثقافي للعرب والمسلمين، وغالباً ما تتم مساواة الإسلام بالكرهية والتعصب والعنف والتشرد وقهر المرأة" ويضيف اسبوزيتو: "أن الإعلان بأن الإسلام عدو للولايات المتحدة، سيكون بمثابة إعلان حرب باردة ثانية" (٦٧) وقد حدث في يوم الخميس ٢٣ / ٥ / ٢٠٠٢، أن أساءت إلى الإسلام ثلاث شخصيات إعلامية أمريكية في يوم واحد.. ففي الحادثة الأولى: وصفت المذيعة الأمريكية المعروفة د. لورا سلاسنجر، خلال برنامجها الإذاعي المعروف (والمسمى على اسمها: د. لورا)، العالم الإسلامي بأنه غير متحضر. إذ انتقدت -في إشارة إلى العالم الإسلامي- الشعوب التي تعيش في جزء كبير من العالم والتي تعلم أطفالها وعمرهم سنتان أو ثلاث سنوات، أن يقتلوا "الكفار"، وقارنت هذا الجزء من العالم بشكل عكسي مع المجتمعات المتحضرة!!! وفي الحادثة الثانية: ذكر بول هارفي، المذيع الأمريكي المعروف، أنه وفقاً للثقافة الإسلامية، فإن "كونك مديوناً يجلب عليك العار بينما بيع بناتك ليس كذلك"!!! وفي الحادثة الثالثة: كرر جوزيف فرج، محرر موقع وورلدنت دايلي اليميني المتشدد، بعض الاتهامات الباطلة التي يوجهها اللوبي الموالي للكيان الصهيوني إلى الرسول محمد (ﷺ)، إذ يتهمونه بأنه قد انتهك صلح الحديبية، ويستخدم هذا الاتهام الباطل عادة، في تصوير الفلسطينيين خاصة والمسلمين عامة على أنهم أناس لا يمكن الوثوق بهم!!! (٦٨).

*وقد أجرت الدكتورة مارلين نصر دراسة حول "صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية" نشرت عام ١٩٩٥ (أي قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعدة سنوات!!!)، أظهرت فيها كيف أن العرب والمسلمين يصدرن بشكل سلبي وسيئ للغاية.. "فالمسلم جبان، خائف، متخلف، يعاني من قصور عقلي، دنيء، فقير، متخلف أخلاقياً، ناقص، إما عدو وإما خائن. وهو إما لاجئ في مخيم أو ساكن في مدن من الصفيح، أو راعي غنم في الصحراء، أو صياد.

"المسلمون والعرب كفار، أعداء، خونة، غير مؤمنين، فاشلون، مهزومون، هامشيون، مذعورون، يعيشون في حرمان لأن إلههم بخيل (أمّا إله الغربيين فكريم، وأعطاهم الثروة والمياه الوفيرة)!"

"والعلاقة بين المسلم وبين الآخرين علاقة عدائية خطيرة عندما يفلتون من السيطرة، إذ إنهم بعدها يتحولون إلى أعداء خطرين بعد أن كانوا مخلصين أوفياء، لكنهم عند فقد السيطرة عليهم يتحولون إلى متمردين تارة، وتارة أخرى إلى نهايين، وتارة ثالثة إلى مخربين بل سفاحين.. إنهم قبيلة كريمة من البدو المتعطشين للدماء. الغرب أسياد والمسلمون خدم، لصوص، متطيطرون، يخافون الموت فيستسلمون ويلحقهم عار الموت قتال. ليس لهم أية صفة إيجابية. إنهم إما كسالى مذعورون وإما غزاة سارقون..

خائفون ويهددون غيرهم.. فُرَار بعد الهزائم.. إن المصير المحزن الذي ينتظرهم الموت الجسدي أو الخضوع أو الاستسلام أو الانسحاب... "أحياناً يقاتلون بشجاعة لكن هزيمتهم محققة. وهم يثيرون العطف أحياناً، لكن القدر دائماً ضدهم والحظ. إنهم شخصيات محكومة دائماً بالهزيمة والفشل والخضوع. وهم غازون ومتطفلون وأجانب، حتّى عندما يكونون في بلادهم الخاصة..

"إنهم دائماً في علاقة تناقض مع الآخرين، تتحالف الطبيعة مع القدر ضدهم، ثم يجدون أنفسهم بعد ذلك في صف الأشرار أو ضد الأخيار، دائمي التشاحن مع بعضهم.
"إنهم ضعفاء.. يطلبون الحماية أو يهربون..

"إن طبيعة العلاقة معهم هي الصراع والعداء وشعورهم بالنقص.. إنهم أعداء أو خاضعون" (٦٩)
*إنهم في الغرب يحاربون كل من يعلن إسلامه.. فمثلاً، يقول الملاك المعروف محمد علي كلاي: "رغم حرية الأديان والمعتقدات في أمريكا، فقد حوربت بقوة في البداية.. فقد فوجئت في أولى المباريات بعد إشهار إسلامي، بأنه لا يمكن أن أصعد إلى الحلبة باسم محمد علي، وإنما باسم كاسيوس. وقد فكر منظموا المباراة بالغائها، ولكن خوفهم من الخسارة المادية جعلهم يعدلون عن هذا، فسمحوا لي بالاشتراك شريطة عدم لفظ كلمة "إسلام" على الحلبة.

وبالطبع، فقد رفضت هذا، وصعدت وهتفت "الله أكبر"، وقرأت سورة الكرسي" وبعض قصار السور، وهذا ما أربع المسؤولين في الولايات المتحدة، حيث لم يكونوا يظنون أنني سأذهب أبعد من هذا. وعندما رأوا أن الأمر جدي، عادوا وطرحوا قضية الخدمة العسكرية الإجبارية في فيتنام بعد أن كانوا قد أعفوني منها، ولكنني رفضت وقلت: إن ديني لا يسمح لي بقتل الأبرياء، فهذا محرم في الدين الإسلامي، فقالوا: نضعك في مشفى للإشراف على المرضى والجرحى، فقلت: كيف أعالج أو أشرف على جرحى قتلوا أبرياء؟

وعلى أثر ذلك، تم عزلي من البطولة، وسجنت، وقد خضت معركة قوية في المحاكم الأمريكية إلى أن حصلت على حريتي، وعدت مرة أخرى واستعدت البطولة ثلاث مرات" (٧٠)، ويقول السفير الألماني المسلم الدكتور مراد هوفمان: "إن كل شيء مسموح به في الغرب، إلا أن تكون مسلماً" (٧١)، ويلاحظ المفكر الدكتور هشام جعيط، أن "أوروبا لم تحب الإسلام في يوم من الأيام" (٧٢)!!!

*وتنتشر في الغرب، وخاصة في هذه الأيام، التصريحات والتقوّهات المسيئة للإسلام والمسلمين.. فمثلاً، شن شارلي هاغن (رئيس الحزب التقدمي النرويجي) هجوماً على المسلمين وشبههم بالنازيين (٧٣)، واتهم أعضاء من الحزب القومي البريطاني (في التلفزيون) الفاتحين المسلمين الأوائل بأنهم قوم من "المجانين والمعتوهين" (٧٤)، وقال زعيم ديني مسيحي هو بات روبرتسون: "محمد قاطع طريق، والإسلام خدعة هائلة" (٧٥)، وقال زعيم ديني ثان هو جيمي سوجارت: "محمد ضال انحرف عن طريق الصواب" (٧٦)، وقال زعيم ديني ثالث هو جيمي فالويل: "أعتقد أن محمد كان إرهابياً" (٧٧)، بل إن عضو الكونغرس الأمريكي جون هوكس شبه عمامات علماء المسلمين بحفاضات الأطفال (٧٨)!!!

**لذلك كله، فإنه ليس غريباً أن يقوم الأمين العام للأمم المتحدة (كوفي عنان) بالتحذير من تصاعد العداء بين الغرب والإسلام، ووصف ذلك العداء بأنه "بشع وخطر وخاطيء" (٧٩)، بل إن الدكتور

جورج جبور (وهو أحد المفكرين العرب من غير المسلمين) قد كتب إلى الأمم المتحدة مقترحاً تنظيم عقد مؤتمر دولي لمكافحة "الإسلاموفوبيا" (٨٠).

... وهكذا، فإن مؤامرة الغرب على الإسلام موجودة وليست موهومة، وهي حقيقة وليست وهمًا، إنها ليست حديثة نشأت بعد تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن كما يزعمون، ولكنها قديمة قدم الحروب الصليبية، ولا شك أنها ازدادت حدة وشراسة بعد تلك التفجيرات التي اتهموا بتنفيذها الإسلاميين، ظلماً وعدواناً، ودون أي دليل قانوني حتى هذه الساعة، وقد اتهم الأمريكيون، بعد ساعات فقط من تلك التفجيرات، الإسلاميين بتنفيذ تلك التفجيرات، وهم الذين عجزوا، طيلة أربعين عاماً، ورغم كل إمكاناتهم الأمنية الهائلة، عن معرفة قاتل رئيسهم الأسبق جون كينيدي!!!

٢- في أسباب العداء والخوف من الإسلام

في رده على تساؤل عن أسباب الخوف من الإسلام، لاحظ المؤرخ الفرنسي كلود كاهين أن "أحد عوامل الإقبال الكبير على كتابة تاريخ الحروب الصليبية، يرجع إلى أن ثمة رغبة متواصلة لدى الغرب في تأكيد ذاته في مواجهة الشرق والعرب والمسلمين، وأن عودة الغرب إلى هوية العصور الوسطى ومنطقها أقوى مما هو الحال في بعض بلدان الشرق الإسلامي، وقد تزايدت هذه العودة بعد زوال المعسكر الاشتراكي، وبروز حاجة دول الحضارة الغربية إلى خصم جديد تتهرب من خلاله من حل مشاكلها المزمنة.

وهذا الخصم الجديد هو العرب والمسلمون عامة (٨١)".

ويقول غراهام فولر (النائب السابق لرئيس مجلس الأمن القومي الأمريكي) وإيان ليسير، في كتابهما "الإسلام والغرب.. بين التعاون والمواجهة"، وفي مجال عرضهما لأصل المشكلة بين الغرب والإسلام: "إنه بعد انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، شاع بين الناس اعتقاد بأن الصراع الأيديولوجي العالمي القادم قد يكون بين الإسلام والغرب، وذلك تأسيساً على محاولة الغرب (بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية) فرض هيمنته المطلقة على العالم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وبكل وسيلة أخرى ممكنة، وأن هذه المحاولة لا بد وأن تولد رد فعل . على هيئة ما . تتخذ موقف التحدي من الحضارة الغربية، والمرشح الأرجح للقيام بذلك الدور المتحدي هو الإسلام، لأنه يشكل المنافس السياسي والفكري (الأيديولوجي) الرئيسي للغرب" (٨٢).

ويرصد الكاتب إبراهيم نافع التهم التي تركز عليها آلة الدعاية في الغرب لتشويه الإسلام (ضمن نطاق الحرب ضد "الخطر الأخضر" الذي هو الإسلام)، ويبرز منها التهم التالية:

"- إنه يقوم على القهر والغلبة، ويريد أن يفرض نفسه غصباً على جميع الأجناس والأديان، وإنه توسع بحد السيف وغزو البلاد الأخرى، وفي هذا، ينسى الغرب تاريخه هو نفسه في نشر العقيدة والسيطرة السياسية والاقتصادية عن طريق حروب الإبادة.

"- إنه يحرم حرية الرأي والعقيدة، ويحجر على حرية أبناء الديانات الأخرى في ممارسة عقائدهم، والمقارنة بين ما يحدث في البلاد الإسلامية والبلاد الغربية في هذا الصدد ليست في مصلحة الأخيرة.

"- إن الإسلام في سبيل نشر دعوته، أعلن الحرب ضد جميع الشعوب ومختلف الأديان، بل ويذهبون

إلى أن الحرب من أسس العقيدة الإسلامية.

"- إن الحرب هي وسيلة تعامل المسلمين مع الغير، وإنهم لا يجنحون إلى السلم أبداً، إلا إذا تم قهرهم".

"- إن الإسلام لا يرضى العهد ولا يحترم الموائيق والمعاهدات، وفي هذا الصدد، يكثر حديثهم عن الجهاد باعتباره إعلاناً للحرب كسياسة ثابتة للمسلمين تجاه الغير (٨٣).

وفي ظننا، أن عداة الغرب للإسلام يعود، أساساً، إلى تناقض القيم الاجتماعية السائدة في الإسلام وفي الغرب، وكون الإسلام عامل توحيد، وعامل مقاومة، وضد العولمة، ونقدم فيما يلي بعض التفاصيل في ذلك:

* تناقض القيم السائدة:

من الواضح أن ثمة تناقضاً بين القيم التي تشكل ثقافة الإسلام والقيم التي تشكل ثقافة الغرب . فمثلاً، تسود في الإسلام قيمة "الإنسانية" ومن ثمارها الإخاء والمساواة، بينما تسود في الغرب "العنصرية" وجوهرها النزعة المركزية الغربية، وتسود في الإسلام "الجماعية"، وجوهرها العمل الصالح لمنفعة الناس أو الآخرين، بينما تسود في الغرب "الفردية أو الأثانية" وجوهرها طلب النجاح الفردي ولو على حساب الآخرين، وتسود في الإسلام "العدالة" في كل مجال وحتى مع الأعداء، بينما يسود في الغرب الجري وراء "الريح" بأي ثمن، وباختصار، فإن ثقافة الإسلام هي ثقافة "التعاون"، أما ثقافة الغرب فهي ثقافة "العداء"، ونختتم هذه الجزئية بشهادة للمستشرق المعروف برنارد لويس، وهو المستشار البارز في البيت الأبيض الأمريكي هذه الأيام، حيث يقول: "إننا نواجه مزاجاً وتحركاً سيرفعان إلى حد كبير من وتيرة القضايا والسياسات التي تنتهجها الحكومات، وهذا ليس صدام حضارات، قد يكون ذلك هو رد الفعل اللا عقلاني بل التاريخي لخصم قديم، على تراثنا اليهودي المسيحي، وحاضرنا العلماني، وانتشارهما على نطاق عالمي" (٨٤).

* الإسلام عامل توحيد:

لا يزال الإحساس بالأمة الإسلامية الواحدة يمثل . وإلى يومنا هذا . جزءاً من التكوين النفسي للمسلم، بينما اختفى هذا الإحساس عند المسيحيين تماماً على المستوى الشعبي اللهم إلا إذا لجأت إليه دولة من الدول كذريعة سياسية تبرر بها موقفاً ما كما حدث من كل من أرثوذكس الصرب وكاثوليك الكروات في حروب البلقان الأخيرة... ويدرك المسلمون أن الغرب قد تأمر، ولا يزال يتأمر، للحيلولة دون توحيد الدول الإسلامية في كيان واحد يناظر التكتلات الغربية، ويرى الغرب أنه في الوقت الذي حلت فيه القومية محل الدين، فإن الإسلام لا يزال يؤدي دوره كقوة دينية وسياسية عاطفية تجمع أمة الإسلام . على تباين أعراقها . في نسيج واحد يسمو على كل صور الخلافات العرقية والقبلية والإقليمية، ويقرر الكاتبان فولر وليسر أن إحساس المسلمين بانتمائهم إلى أمة واحدة لا يزال يمثل إلى يومنا هذا صورة مميزة للتكوين النفسي عند غالبية المسلمين، وأن هذا الإحساس بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة يشكل أعظم مخاوف الغرب من الإسلام، ولذلك يعمل الغربيون باستمرار على تقنيت الأمة المسلمة، وعلى الحيلولة دون توحيدها، وهذه واحدة من أخطر القضايا بين الغرب والمسلمين، وخاصة في هذه الأيام التي يحاول فيها الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تحقيق المزيد من التوحيد بين مختلف كياناته، مع تحقيق المزيد من التفنت في

العالم الإسلامي(٨٥).

* الإسلام عامل مقاومة:

يقول رجل القانون والعلاقات الدولية الفرنسي مارسيل بوازار: "لقد ثبت أن الإسلام روح كل مقاومة يبدئها شعب مغلوب سياسياً، ومحك كل مقاومة" ففي إفريقيا، ساهم الدين في إقامة مجتمع جديد خارج النطاق القبلي أكثر جدارة بمقاومة التأثير الأجنبي.

وفي آسيا، تماسك الإسلام المرن ونما في وجه النفوذ الاستعماري، وقد حمل الإسلام في أكثر الأحيان راية الصراع مع الاستعمار"، ويقول بوازار أيضاً: "لقد تأكد أن جميع الانتفاضات التي سادت البلدان الإسلامية في عشرات السنين الأخيرة كانت إسلامية بصورة حقيقية، مهما كانت صبغة الأزياء التي ألبستها(٨٦)".

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن "الحرص على الهيمنة على عصب الحياة في الاقتصاد العالمي (النفط)، دفع ويدفع بكثير من المحليين الغربيين إلى بناء سيناريوهات عدوانية تماماً تتجه مباشرة وبكل صراحة، إلى "الإسلام"، لا بوصفه مجرد دين، بل لكونه عنصر تعبئة يمكن أن يوظف ضد الهيمنة التي يمارسها الغرب اقتصادياً وثقافياً"(٨٧).

ويقول المستشار طارق البشري: "المقصود من الهجوم على الإسلام والشريعة الإسلامية، هو تفكيك قوى التماسك في هذه الأمة، فالقوى المعادية للإسلام في الخارج تعلم أن الإسلام من أفضل العناصر التي تستحث المقاومة ضد الغزو الأجنبي والسيطرة الأجنبية، وأنه أفضل العناصر التي تمكن من الاستقلال، لذلك، فهم يهاجمون الإسلام والمسلمين لهذا السبب"(٨٨).

الإسلام ضد العولمة:

يقول العالم الأنثروبولوجي الدكتور أحمد أبو زيد: "العولمة باعتبارها شكلاً من أشكال الأيديولوجيا نرفض. كما هو شأن كل الأيديولوجيات. أي اتجاه معارض لها، وهذا واضح من موقف الغرب من الإسلام، بحيث يعتبره هو عدوه الأول، لأن الإسلام كثافة وأسلوب للحياة ومنظومة من القيم هو الذي يبدي أشد أنواع المعارضة والمقاومة للقيم الغربية التي يراد فرضها ونشرها من خلال العولمة، التي لا تأخذ بعين الاعتبار اختلاف القيم الثقافية لدرجة أنها تنظر إلى بعض الأمور الخاصة جداً، مثل الحجاب أو رفض الاستماع إلى الموسيقى أو مشاهدة التلفزيون، نوعاً من التحدي الذي يخفي وراءه نزعات إرهابية ينبغي القضاء عليها"(٨٩).

ويقول المؤرخ الدكتور عبد العزيز الدوري: "ثمة صلة بين العولمة وبين إثارة المخاوف من الإسلام واعتباره الخطر الأول، ولا ننسى أن التحدي الإسلامي هو أكثر التحديات جدية للسيطرة الغربية الثقافية وغيرها منذ انهيار الاتحاد السوفييتي"(٩٠).

ويلاحظ المفكر والسفير حسين أحمد أمين أن أهل الغرب "يرون باختصار أن الإسلام يمثل عقبة كأداء في سبيل العولمة وقواعد النظام الدولي الجديد، وأنه من الأفضل إما استئصاله إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، أو إغفال المسلمين من حساباتهم إغفالاً تاماً"(٩١).

.. ونختتم الحديث عن أسباب عداو الغرب للإسلام بما قاله الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي عن أسباب عداو الغرب للإسلام: "إن الحرب بيننا وبين هؤلاء القوم أمر طبيعي اقتضته سنن الله تعالى في الكون وفي

الخلق.. فقد اقتضت سنن الله أن يصّر الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، سنة من سنن الله تبارك وتعالى، فإن الذي خلق آدم خلق معه إبليس، خلق الله مع آدم إبليس، ومع إبراهيم نمرود، ومع موسى فرعون، ومع محمد أبا جهل وأبا لهب وأمثالهما، وقد مات أبو جهل وأبو لهب، ولكن خلفهما كثيرون بأسماء أخرى، والله تعالى يقول: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى هادياً ونصيراً﴾، وقال تعالى أيضاً: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، لكل نبي عدو، ولكل آدم إبليس، هذه سنة الله (٩٢).

٣. عداة الغرب للإسلام.. آلياته

يستخدم الغرب في عداة للإسلام عدة آليات، وأبرزها: التفتيت، التغريب، الاستيطان، مكافحة الإرهاب، والدعوة إلى التجديد الديني، وفيما يلي بعض التفاصيل:

في التفتيت:

يقول المفكر القومي عوني فرسخ: "لا شك أن العثمانيين شكلوا ما بين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وتوقيع اتفاقية قارلو قوجه سنة ١٦٩١م استعادة المسلمين دوراً عالمياً فقدوه مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، وأسهموا (العثمانيون) في نشر الإسلام خارج المدى الذي وصله الفاتحون العرب ومن تفرعوا عن الدولة العربية الإسلامية، كما قدموا (العثمانيون) دعماً للمقاومة العربية في مواجهة طلائع الاستعمار الأوروبي، ولهم . بالتالي . تقدير كل من يعتنق الإسلام ديناً ويتمثله حضارة" (٩٣).

ويقول المستشرق برنارد لويس: "كانت الإمبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها، دولة تركز قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أي اعتداء خارجي، وقد ظل العثمانيون طوال أربعة قرون تقريباً في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي، أولاً لمحاولة فرض حكم إسلامي على جزء كبير من أوروبا وهي محاولة رافقها النجاح (!)، وثانياً لشن حرب دفاعية تأخيرية مديدة نقف في وجه الهجوم المعاكس" (٩٤).

لذلك كله، فقد كان هدف الغرب، كما يعترف كابتن المخابرات البريطانية لورنس العرب، هو "دحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها" (٩٥).

ولم يكن القضاء على الدولة العثمانية، حسب جان بول دو، إلا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوروبيون على الإسلام (٩٦)، وقد أحصى أحد الباحثين "مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية" خلال الفترة ١٢٨١م - ١٩١٣م، تقدم بها سياسيون ومفكرون وقساوسة يقترحون فيها طرائق لتفتيت بلاد الإسلام، لأن الجميع في الغرب كانوا متفقين على إضعاف الدولة العثمانية الإسلامية، وتفكيكها، بل وإزالتها من الوجود، وقد علق على ذلك (حول المشاريع المئة للتقسيم والتفتيت والتدمير) الأمير شكيب أرسلان، في كتاب صدر تحت عنوان: "التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي؟" (٩٧).

ومن المعروف تاريخياً أن أهل الغرب قد فتنوا الدولة العثمانية الإسلامية بعيد انتصارهم عليها في الحرب العالمية الأولى (ومن أسف بمساعدة بعض العرب!!)، ثم حاربوا، بعد ذلك، أية محاولة للوحدة الجدية والنهضة في تركة الدولة العثمانية الإسلامية.

في التغريب

لقد عملت حملة الغرب ضد الإسلام على تصفية وقتل عوامل نهضة الأمة الإسلامية من الداخل.. من داخل الإنسان وداخل المجتمع نفسه.. وبتعبير آخر، عملت على ضرب عوامل المناعة والمقاومة في النفس الإسلامية، حتى لا تتمكن من الرد على التحدي بتحد مضاد ومواز بما يحقق الاستسلام الشامل والكامل للغرب ورسالته، ويصح أن نقول: استهدفت الحملة إصابتنا بمرض "الايدز الحضاري" أو ضعف المناعة، لنحيا على طريقة الغرب ونتقمصه، وبتعبير علم النفس، لنتماهى معه، ونلتحق كأطراف بمركزه ونجمل القول بأن الحملة الغربية المعاصرة كانت حملة "علمية" شاملة تصفوية تغريبية، هدفها الجوهري والنهائي تصفية الهوية الذاتية التاريخية للأمة من خلال عملية تغريب شاملة للأمة ثقافياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، وإلحاقها نهائياً بالمركز الغربي الإمبريالي تحت شعار: إلغاء الذات والهوية الخاصة لحساب ولصالح هوية الغرب وتماهي المغلوب على الغالب، حتى نصبح جزءاً هامشياً متطفلاً لا يملك حتى شرف المشاركة في إعادة إنتاجه، فليس أماننا إلا استهلاكه دائماً وأبداً من جهة، وتسخيرنا واستخدامنا واستعبادنا لحسابه دائماً وأبداً من جهة أخرى، ولكأننا بالغرب يحدث نفسه بأن "فتحه"، أي حملته المعاصرة، هي الرد الشامل أو الرد المضاد والتصفية الشاملة لكل المكاسب التاريخية للفتح الإسلامي منذ ألف وخمسمائة عام (٩٨).

ومن المؤسف والمؤلم أن يؤازر الغرب في عملية التغريب مثقفون من أمتنا يسميهم الدكتور جلال أمين "المفتونين بالحضارة الغربية" (٩٩)، ويسميهم الدكتور أنور عبد الملك "العملاء الحضاريين" (١٠٠)، ونحن نسميهم "التتويرجيين"، لأنهم يبيعوننا التتوير وسلعاً أخرى كالتجديد والحداثة والعلمانية، ومع توصيل الطلبات إلى المنازل، وكل ذلك لحساب الحضارة الغربية!!! وقد كان جمال الدين الأفغاني قديماً يسميهم "طلائع جيوش الغالبيين" (١٠١)، وجاء روجيه غارودي حديثاً فسامهم "جيوش الاستعمار الجديد" (١٠٢)، ومن الواضح أن مثل التتويرجيين العراقيين الذين تحالفوا وتواطؤوا (في بدايات القرن الواحد والعشرين) مع أمريكا وبريطانيا لتدمير الدولة العراقية، كمثل آبائهم من التتويرجيين العربيين الذين تحالفوا وتواطؤوا مع بريطانيا وفرنسا (في بدايات القرن العشرين) لتدمير الدولة العثمانية!!!

في الاستيطان

لقد أوصى مؤتمر كامبل بنرمان (المنعقد سراً في لندن خلال الفترة ١٩٠٥ - ١٩٠٧م)، ومن أجل ضمان مصالح الغرب في منطقتنا بعد إسقاط الدولة العثمانية الإسلامية، بما يلي:

"أ. على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.

ب. ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة (أي المؤتمر) لذلك إقامة حاجز بشري، قوي وغريب، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل، في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة" (١٠٣).

فكان أن أصدر الغرب (في عام ١٩١٧م) وعد بلفور بمنح اليهود الصهاينة وطناً قومياً في فلسطين، وكان أن رعى الغرب إنشاء كيان صهيوني قائم على الاستيطان في فلسطين، لكي يجهض (أولاً بأول) أي

محاولة للوحدة والنهضة في منطقتنا المستهدفة دائماً، وكان أن دأب الغرب على دعم ذلك الكيان الصهيوني، مادياً ومعنوياً، ليكون متفوقاً على كل دول المنطقة، مجتمعة، وفي كل مجال، وبحيث قدر الدعم المادي لذلك الكيان بأكثر من عشرة ملايين دولار يومياً.

في مكافحة الإرهاب

إنهم في الغرب يشيطنون الإسلام ويجعلونه مرادفاً للإرهاب أو متماهياً مع الإرهاب، وبحيث يكون المسلمون إرهابيين بالضرورة... يقرر (مثلاً) المستشرق ذو النفوذ الأكبر في البيت الأبيض حالياً، برنارد لويس، في دراسة له حديثة، أن "الإرهاب يكمن في صميم العقيدة الإسلامية" (١٠٤)، ويلاحظ المفكر الدكتور محمد عابد الجابري أن "المقصود بالإرهاب في الخطاب الأمريكي، وبالدرجة الأولى، هو ما تقوم به جماعات ترفع شعارات الإسلام من تشويش على الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط، تشويش يمس في بعض الحالات المصالح الأمريكية مساً جدياً" (١٠٥).

وقد حذر الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ولي عهد المملكة العربية السعودية، الشباب الإسلامي (في خطابه الموجه إلى المؤتمر العالمي التاسع للندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنعقد في الرياض خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، وضمن نطاق تعقيبه على الحملة الغربية ضد الإسلام والمسلمين والدول الإسلامية)، قائلاً: "لا بد أنكم تعرفون أنكم جميعاً مستهدفون.. ليس السعودية ولا العراق ولا السودان ولا غيرها... المستهدف هو الإسلام، وهذا أكيد" (١٠٦).

وفي خطابه أمام وفد مجلس الكنائس العالمي الذي زار ماليزيا مؤخراً في إطار نشاط لتحفيز الحوار الإسلامي المسيحي، أكد الدكتور عبد الله أحمد بدوي، رئيس الوزراء الماليزي الذي ترأس بلاده (حالياً) منظمة المؤتمر الإسلامي، أن "العديد من المسلمين في العالم يشعرون أن الحرب ضد الإرهاب هي حرب ضد الإسلام، فيما لا يقدم الغرب أية ضمانات تقنعهم بعكس ذلك" (١٠٧).

ولقد تم استغلال هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن أسوأ استغلال، حيث اتهم الأمريكيون الإسلاميين (دون دليل قانوني حتى الآن) بتنفيذ تلك الهجمات، وما ذلك إلا للحصول على "كارت بلانش" يسمح لهم بملاحقة الإسلام والإسلاميين والقضاء عليهم في كل زمان ومكان، وقد اتهم، بحق، الدكتور مهاتير محمد (رئيس الوزراء الماليزي السابق) الغرب بالتذرع بأحداث ١١ أيلول للهجوم على المسلمين والبلاد الإسلامية (١٠٨).

وكذلك، فقد أكد المفكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أن "أحداث ١١ أيلول قد كشفت الخطة المرسومة عند الغرب للقضاء على الإسلام والمسلمين حيثما وجدوا" (١٠٩).

وحيث أن غياب العدل هو السبب الأساس في ما يسمى "الإرهاب"، فإن ثمة مفارقة كبيرة في أن الغرب يحارب المسلمين (الذين هم المظلومون) بحجة مكافحة الإرهاب، بدلاً من إنصافهم!!! لذلك، فإنه ليس غريباً أن الرئيس الباكستاني برويز مشرف (وعلى الرغم من أنه هو نفسه يحارب ما يسمى الإرهاب!)، قد حذر (في خطاب له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢٣/٩/٢٠٠٤)، من احتمال ظهور "ستار حديدي" بين العالم الإسلامي والغرب، إذا لم يتحقق العدل للمسلمين في النزاعات الدولية، وخاصة منها النزاع بين الكيان الصهيوني والفلسطينيين (١١٠).

في الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني

الأصل في التجديد هو إعادة الشيء إلى ما كان عليه في الأصل... فأنت ترمم المبنى لتعيده إلى ما كان عليه، وأنت تصلح الآلة لتعيدها إلى ما كانت عليه، وأنت تجدد الفكرة (أو القيمة) بإزالة ما لحق بها من انحرافات وشوائب لتكشف عن جوهرها أو أصلها الذي هو الحق.. يقول المفكر والخبير التربوي الدكتور عبد الله عبد الدائم: "إن هذه القيم (ويقصد قيم التراث العربي الإسلامي) أصابها بعض الركود والجمود، حتى في النفوس، في عصور التخلف، ففقدت بريقها وإشعاعها، وتراكمت فوقها قيم دنيا. إن صح أن نسميها قيماً. كادت تطفئها وتقضي عليها بوطأتها وثقلها.. ففي عصور التخلف، ينسى الناس المعنى والجوهر والدقة الانفعالية الحية، ويستمسكون بالمظهر والشكل والطقوس، بل بالتقاليد وإن تكن دخيلة، وبالخرافات وإن تكن مردولة، بل لعلهم يمعنون في مثل عصور التخلف هذه بتضخيم الشكل والصورة والظاهر، حماية لهم من هجران الجوهر والأصل، مؤكدين قول أحد المتصوفة: "من رأيته يعنى بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب"، وهكذا، تاهت قيم التراث الحية الكبرى وسط هذا "الرياء" الذي قد لا يشعر به بعض أصحابه، والذي قد يكون من باب خداع النفس للنفس كما يقول علماء النفس اليوم، فإذا بالرماد يغطي الجمر، وكأن ثمة غشاوة رانت على القلوب والعقول، لم تعد بعدها قادرة على رؤية الأمور إلا من خلالها، وكأن الله طمس على قلوب القوم، فغدت لهم أعين لا يبصرون بها الحق، وأذان لا يسمعون بها نداء الرسالة الأصلية" (١١١).

وكذلك، فإن المفكر الفرنسي المرموق، البروفيسور جاك بيرك، يقول: "أعتقد أنه من المستحيل أن يصل شعب من الشعوب إلى مستقبل سليم، بدون احترام وإحياء القيم، سواء سميتها خالدة أو طبيعية، فلا مجتمع بدون قيم، وإننا نشاهد كل يوم الكوارث المخيفة الناتجة عن تهاوت القيم في المجتمعات" (١١٢)، وهكذا، فإن التجديد الحق في مجال القيم ليس تدمير القيم وإحلال قيم أخرى غريبة محلها، وإنما هو الرجوع إلى القيم الأصلية بعد طول انحراف وتشويه، وبذلك، يكون التجديد الديني الحق، عملياً: إصدار أحكام فقهية تلائم التغيرات في الزمان والمكان والعادات، باتجاه العصرية والتيسير في الدين، مع الالتزام بالكتاب والسنة، ونقصد الالتزام بالثوابت والقطعيات الدينية وما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ولعل من أخطر الأمور، أن الدعوات الحالية (المتكاثرة والمتعاضدة) إلى التجديد الديني، ليست إلا صدى لدعوة عدو الإسلام، القس جان كلود بارو، القائل في كتابه: "عن الإسلام والعصر الحديث" عام ١٩٩١م: "إنه لا بد من إعادة صياغة القرآن والحديث والسنة، خلال عقد أو اثنين، بمفاهيم عصرية، أو على الإسلام أن يختفي" (١١٣)!!!

ويلاحظ أن دعاة التجديد (الغربيين والعلمانيين ومن شابعهم) يتجاهلون، عن عمد، إنجازات كثير من مراكز الدراسات والأبحاث الإسلامية والمجامع الفقهية والعلماء والمجتهدين في البلاد الإسلامية... فأنت تجد (مثلاً) في الجزء التاسع من موسوعة الفقه الإسلامي للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي عرضاً لفتاوى واحد فقط من تلك المراكز والمجامع (وهو مجمع الفقه الإسلامي في جدة) خلال عشر سنوات بين ١٩٨٥ و ١٩٩٥م، وعددها ٩٨/ فتوى تتناول طيفاً واسعاً من قضايا العصر، مثل: أطفال الأنابيب، بنوك الحليب، بدل الخلو، تنظيم النسل، ومرض الإيدز، بل إن عالماً مجتهداً واحداً، هو الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله، ألف في القضايا الإسلامية المعاصرة أكثر من ٥٠/ كتاباً، منها كتاب خصص للفتاوى المعاصرة، وكتاب خصص للحلال والحرام في الإسلام أكاد أقول إنه تناول كل قضايا الحياة الشخصية للمسلم (كالأطعمة والأشربة والملبس والزينة)، وقضايا الزواج وحياة الأسرة (كالعلاقة بين

الزوجين وبينهم وبين الأولاد)، وقضايا الحياة العامة للمسلم (كاللهو والترفيه والعلاقة مع غير المسلمين).

فأي تجديد ديني يريده الغربيون والعلمانيون ومن شايعهم؟

لقد أصبح القاصي والداني يعلم أن الإدارة الأمريكية طلبت من عدة دول إسلامية تغيير مناهج التعليم باتجاه إلغاء مادة الدين وإحلال مادة "الأخلاق وحوار الحضارات" محلها، وحذف الآيات القرآنية التي يدعى بأنها تسيء إلى اليهود والآيات القرآنية التي تحض على الجهاد، ويقول الدكتور محمد عمارة: "إنهم في الغرب يحبون عنا علوم التكنولوجيا المتقدمة، ولكنهم يطلبون تغيير عقيدتنا (١١٤)!!!" ونحن نرى أن أمريكا وحلفاءها وعملاءها قد احتكروا السلطة، واحتكروا الهيمنة، واحتكروا الثروة، واحتكروا الحقيقة، واحتكروا كل شيء تقريباً، فليتركوا لنا الدين!

ونستذكر، هنا، أن لجنة الحريات الدينية الأمريكية التي زارت مصر في شهر تموز/ يوليو الماضي، قد أصدرت تقريراً يتضمن عدة مطالب موجهة إلى الحكومة المصرية، ومنها: إلغاء منصب المفتي، وإلغاء عقوبة الردة عن الإسلام، وإلغاء القيود المفروضة على الزواج لأسباب دينية (١١٥).

ومن أخطر الممارسات في مجال "تجديد الخطاب الديني"، أن صدر حديثاً في الولايات المتحدة الأمريكية ووزع في فلسطين المحتلة، كتاب تحت عنوان "الفرقان الحق"، وهو كتاب أمريكي . إسرائيلي، وهدفه التشكيك بالقرآن الكريم، ويحوي الجزء الأول منه أسماء مزيفة بأسماء سور القرآن الكريم، وتحوي الأجزاء الأخرى مفاهيم مغلوطة لتشويه واغتيال العقيدة الإسلامية (١١٦).

ومن مهازل التجديد الديني والداعين إليه في هذه الأيام، أن الدين قد أصبح العوبة في أيدي الجبهة والمغرضين وأعداء الإسلام، ونرصد فيما يلي (وباختصار) ثلاث حالات في هذا المجال:

. حالة الأستاذ جمال البنا: فهذا الرجل غير متخصص في أصول الدين، وليس لديه من المؤهلات ذات الصلة سوى أنه شقيق حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين!!! ومع ذلك، فهو يفتي (مثلاً) بإلغاء حجية السنة النبوية مصدراً للتشريع، علماً أن الصلاة (مثلاً) بركعاتها وأوقاتها وأحكامها قد عرفت من السنة فحسب (صلوا كما رأيتموني أصلي)، فلم يكن من الممكن أن تؤدي الصلاة دون الرجوع إلى السنة، وكذلك، فإن الأستاذ البنا ينادي بالعلمانية الإسلامية، فكأنه (بهذا) يطالب بالثلج المقلبي!!! لأن الإسلام والعلمانية لا يجتمعان.. فمن المعروف أن الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات، وأن العلمانية دين آخر لا يعترف ببند المعاملات، ويقضي بأن يخصص الدين، وقاس الدنيا بالعقل دون النظر إلى ما جاء في الوحي (١١٧).

. حالة الأستاذ محمد حسنين هيكل: هذا الرجل صحفي مرموق وكاتب مرموق وسياسي مرموق، ولكنه غير متخصص في العلوم الدينية، ومع ذلك فهو يفتي في أخطر القضايا الدينية (وخاصة منها دور الدين في الحياة).. ففي يوم الخميس ٢٠٠٤/٩/٩، وضمن برنامجه الأسبوعي على قناة "الجزيرة" الفضائية، ألقى علينا الأستاذ هيكل محاضرة استغرقت نصف مدة برنامجه، وجوهرها ضرورة وأهمية عزل الدين عن السياسة والحياة العامة، وقد استشهد في ذلك بشخص واحد اعتبره فقيهاً وإماماً، ونسب إليه القول: "حيثما توجد مصلحة الناس فهناك شرع الله (١١٨)"، وهذا الشخص هو "البوصيري"، والبوصيري (حسب الموسوعة العربية الميسرة) هو محمد بن سعيد البوصيري، الذي كان شاعراً مصرياً يتكسب من شعره ومن كتابة شواهد القبور، وقد اشتهر بقصيدة البردة (أمن تذكر جيران بذي سلم)، وتوفي عام

١٢٩٦م (١١٩)، ولم يكن فقيهاً ولا إماماً (كما قال الأستاذ هيكل)!!! هذا علماً أن المقولة المذكورة عن المصلحة والشرع تنسب، عادة، وخطأ، إلى ابن القيم الجوزية، والحق أن ابن القيم لم يقل بتلك المقولة لا في كتابه "إعلام الموقعين" ولا في كتابه "الطرق الحكيمة"، ولا في أي كتاب آخر له، ولا في أية مناسبة أخرى، والصياغة الصحيحة للعلاقة بين الشرع والمصلحة هي: "حيثما يطبق شرع الله، فثم مصلحة الناس" (١٢٠).

. وثالثة الأثافي حالة الدكتور رفعت السعيد: فهذا الرجل متخصص في التاريخ لا في علوم الدين، وهو ماركسي (باعترافه) ورئيس حزب التجمع في مصر ومتفرغ لمهاجمة الإسلاميين (وهو يسميهم: المتأسلمين)!!! وقد قال في حوار أجرته معه أخيراً جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية،

"نحن ضد الغلو، وضد التكفير، وضد الإرهاب، وهم (يقصد الإسلاميين) يمارسون كل ذلك، ونحن ضدهم، ليس فقط لأنهم ضلوا وضد المصلحة وضد التقدم وضد المستقبل، ولكن لأنهم ضد صحيح الإسلام، ولأنهم يقومون بتشويه الصورة الجميلة للإسلام"!!! وعندما سأله الصحفي الذي يحاوره: "هل تقول إنك بهذا الهجوم تدافع عن صحيح الإسلام، وأنتك من عدول هذا الزمان الذين ينفون عن الإسلام تأويل المغالين وانتحال المبطلين"؟ أجاب الدكتور السعيد، وبالحرف الواحد: "نعم. ما أقوم به هو دفاع عن صحيح الإسلام" (١٢١)!!! ونحن نقول: يا سبحان الله... الماركسيون لا يعترفون أساساً بالدين، بل يقولون (مع نبيه كارل ماركس): الدين أفيون الشعوب!!! ولكن ذلك لا يمنع أن يقف قيادي ماركسي ليدعي أنه يدافع عن صحيح الإسلام. ترى.. أليس علينا أن ننتظر الساعة؟!؟

ومما يؤسف له، أن ندوة عن "تجديد الخطاب الديني" عقدت مؤخراً في دمشق، خلال الفترة ١٠ - ١٢/٢/٢٠٠٤، وجاء في بيانها الختامي، وبالحرف الواحد: "خلصت الندوة إلى أهمية الحوار بين جميع تيارات الفكر العربي للوصول إلى ما هو مشترك لتحقيق ما تصبو إليه أمتنا، ومن أجل أن يأتي هذا الحوار أكله، أبرزت الندوة أهمية تجديد الفكر العربي عموماً، والخطاب الإسلامي على وجه الخصوص، تجديداً يؤكد الثوابت الوطنية والقومية في الحرية والتحرر والوحدة والديمقراطية" (١٢٢). وهكذا، فالمطلوب، إذن، هو تكييف وتعديل "ثوابت الإسلام" لتلائم الشعارات والسياسات الوضعية المتغيرة بطبيعتها، وهذا هو المعادل الموضوعي لتسييس الدين، بدلاً من تدين السياسة!!!

وفي زبدة القول في مجال الدعوات الحديثة إلى تجديد الخطاب الديني، نقول إن ثمة أهدافاً رئيسة ثلاثة لتلك الدعوات، هي:

. إلغاء كل نص ديني يحض على "جهاد الدفع" الذي هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة عندما ينزل العدو بأرض المسلمين، والذي هو ما يسميه الغرب إرهاباً.

. إلغاء كل نص ديني يرى فيه اليهود إساءة إليهم أو تحريضاً على مقاومة عدوانهم.

- الفصل الكامل بين الدين والدنيا (أو بين الدين والدولة، أو بين الدين والسياسة، أو بين الدين والحياة العامة)، عن طريق خصخصة الدين وسياسة الدنيا بغيره، أي سياسة الدنيا بقوانين وضعية دون التقيد بما جاء في الوحي الإلهي.

فالمطلوب، إذن، في الدعوات إلى التجديد الديني في هذه الأيام: إيجاد إسلام جديد.. إسلام مدجن متكيف مع المصالح والقيم الغربية والصهيونية، والمطلوب (بالتالي) ليس العصرية والتيسير في الدين مع

الالتزام بالثوابت والقطعيات وما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولكن المطلوب، فعلاً، هو رأس الإسلام ذاته!!!

الخلاصة والنتائج:

الإسلام هو التسليم والخضوع والانقياد لما جاء في الوحي الإلهي، والغرب هو أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا حيث تسود النزعة المركزية الغربية، والتآمر هو التواطؤ (سراً عادة) بين اثنين أو أكثر على إيذاء الآخر أو اغتيال الحق والحقيقة، وهو حقيقة تاريخية يمارسها الكثيرون وخاصة منهم الدبلوماسيون ورجال المخابرات.

إن تآمر الغرب على الإسلام حقيقة واقعة باعتراف الكثيرين (حتى في الغرب نفسه) من الزعماء السياسيين والدينيين والعلماء والمفكرين، وهو قديم قدم الحروب الصليبية، وليس وليد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ كما يزعمون، ويتجلى ذلك التآمر (أو الاتجاه السلبي) ضد الإسلام في العداء للإسلام والمسلمين، و/أو الخوف من الإسلام والمسلمين (إسلاموفوبيا)، و/أو الكراهية للإسلام والمسلمين.

ويتجسد ذلك التآمر، عملياً، في خمس آليات شيطانية هي: التقنيت أو تجزئة الأمة الإسلامية ومنعها من الوحدة والتقدم، والاستيطان في فلسطين لإجهاض أية محاولة للوحدة والتقدم (أولاً بأول)، والتغريب أو جعل الغرب نفسه نموذجاً للتقدم وبمساعدة من العملاء الحضاريين المحليين، ومكافحة الإرهاب الذي هو (في نظرهم عملياً) كل مقاومة للظلم والعدوان والقهر والاحتلال، والدعوة إلى التجديد الديني تجديداً شعاره الفتوى التي أصدرها مفتي عموم العالم، الذي هو الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، ومفادها أن فدائيي حركتي حماس والجهاد وغيرهما ممن يقاومون الاحتلال الصهيوني المدعوم أمريكياً وأوروبياً "قتلة وليسوا استشهاديين"!!! ثم كان أن أصدر الاتحاد الأوروبي، بعد ذلك، فتوى مماثلة ضد حركة حماس حيث اعتبرها إرهابية!!!

ومن أبرز أسباب ذلك التآمر على الإسلام: التناقض بين قيم الغرب (القائمة على العداء) وقيم الإسلام (القائمة على التعاون)، وكون الإسلام عامل توحيد للأمة، وعامل مقاومة للسيطرة والهيمنة، وعامل ممانعة ضد العولمة، ولا يعقل أن يكون سبب ذلك التآمر هو جهل الغرب بالإسلام كما يزعم البعض، فنحن مع الأمير تشارلز (ولي عهد بريطانيا)، عندما يقرر في إحدى محاضراته أنه "لا يمكن أن يكون سوء الفهم (حسب توصيف الأمير لحالة العداء ضد الإسلام) بين العالمين الغربي والإسلامي ناشئاً عن الجهل في العالم الغربي" (١٢٣)، ويتساءل الكاتب العربي المقيم في أمريكا، سمير كرم، قائلاً: "كيف نجرؤ على أن نتحدث عن جهل الغرب بالإسلام والمسلمين، ونحن نعرف إلى أي حد تنتشر في الغرب مراكز الدراسات والبحوث الجامعية وغير الجامعية التي تتخصص بالإسلام ديناً وحضارة، تشريعاً وفلسفة، تاريخاً وعلماً وثقافة" (١٢٤)؟!!

ولا شك أن تآمر الغرب علينا هو تآمر على الإسلام والمسلمين، وليس تآمراً على العرب والعروبيين كما يعتقد البعض (١٢٥)، خاصة وأن كل الممارسات والتقوّهات العدائية الغربية تؤكد، وبما لا يدع مجالاً لأي شك أو لبس، أن عداء الغرب هو عداء للإسلام والمسلمين، وأن خوف الغرب هو خوف من الإسلام والمسلمين، وأن كراهية الغرب هي كراهية للإسلام والمسلمين، ولم يصدر عن أهل الغرب ما يدل على عدائهم وخوفهم وكراهيتهم للعرب والعروبيين، أو للعروبة أو للقومية العربية. هذا علماً أن القومية (بالمعنى

الحديث) لم تعرف، حتى في أوروبا، قبل نهايات القرن الثامن عشر (١٢٦)، وأما فيما يتعلق بالعرب، فيقرر المفكر ألبرت حوراني أن "الاعتقاد بأن الناطقين بالضاد يشكلون أمة، وأن هذه الأمة يجب أن تكون مستقلة ومتمحدة، لم ينضج ويكتسب قوة سياسية إلا في القرن العشرين" (١٢٧). فإذا ما استذكرنا أن عدااء الغرب لأمتنا قديم قدم الحروب الصليبية، لأدركنا أن عدااء الغرب لأمتنا ليس بسبب القومية العربية، ولكنه عدااء بسبب الإسلام، ولو فرضنا جدلاً أن عدااء الغرب موجه ضد العروبة لا ضد الإسلام، فلا يتصور أن السبب في ذلك هو كوننا أبناء يعرب (حيث لا ثأر لهم عندنا!)، أو هو كوننا نساكن منطقة بين المحيط والخليج تتمتع بميزات جيوسياسية (فالعداء بين الشعوب لا يكون بسبب اختلاف الأرض التي تسكن)، ولكن عدااء الغرب للعروبة يمكن أن يكون بسبب القيم التي تعتمدها (كالتكافل الاجتماعي، ورفض الظلم، والسماحة الفكرية والاجتماعية) .. القيم التي هي في الأساس قيم إسلامية (١٢٨).

وحيث أننا مستهدفون تداعي الأكلة إلى قصعتنا، فإن مستقبل أمتنا . كما يقرر، بحق، المستشار طارق البشري . يكمن في الاستعداد للتضحية (١٢٩). ويقول الفيلسوف غارودي لأحد المتساءلين حول المقاطعة: "ألا تستطيع أن تمتنع عن سبائير المارلبورو الأمريكية" (١٣٠)؟!؟

الهوامش والمراجع:

- (١) نكره: المستشرق الألماني جيزنوت روتر، الإسلام والغرب .. الجوار المفقود، ترجمة ثابت عيد، مجلة "الفصل" الرياض، العدد ٢٦٤، جمادى الآخرة ١٤١٩، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٨، ص ٩٦.
- (٢) نكره: الدكتور صلاح عبد المتعال، في تعقيب له، في كتاب "ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٥٤٤.
- (٣) نكره: الدكتور منير العكش، حق التضحية بالآخر .. أمريكا والإبادة الجماعية، دار رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ١٤٩، وقد كان جورج بوش (الجد الأكبر للرئيس الأمريكي الحالي جورج دبليو بوش) واعظاً بارعاً وراعياً مشهوراً لإحدى كنائس انديانا، وأستاذاً في اللغة العربية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك، وله عدة كتب ودراسات دينية، ومنها كتابه المعني "حياة محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، وهو . كما يقول ناشره السعودي . كتاب يقرب من أن يكون وثيقة، ويمثل واحداً من أهم مصادر الكراهية الأمريكية للإسلام، التي يغذيها تيار أصولي قديم النشأة، يدعي أن العرب مجرد أعراق منحطة ومتوحشة يستحقون الإبادة كما حدث للهنود الحمر، ويرى الإسلام مجرد بلاء جاء به "الدعي" محمد، ساعد الرب على انتشاره، عقاباً للكنيسة التي مزقتها خلافات الباباوات بهرطقاتهم التي بدأت في القرن الرابع الميلادي، وتصاعدت في القرن السابع، تمزق الكنيسة إرباً إرباً، وتربك العقيدة المسيحية، وتزيد من حدة الخلافات المذهبية التي شابها الانحراف إلى حد دفع الفرق المسيحية المتناحرة إلى العنف صراعاً على المناصب الدينية، ولأن الكنيسة المنقسمة على نفسها أضعفت عقائد الدين المسيحي وأبعدتها عن يناييعها الأولى، اختار الرب محمداً كي يكون سوط عذاب على الكنيسة عقاباً موقوتاً على انحلالها حتى تعود إلى يناييعها الصحيحة، وساعتها ينزاح العقاب، وبزول هذا العذاب المتمثل في دين محمد، وتتم هزيمة الإسلام. لذلك كله، فإنه ليس غريباً أن يصف الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش الحفيد) حربه التي يشنها على "الإرهاب" بأنها: حرب صليبية!!! (انظر

عرض الكتاب المعني في: جريدة "المجد" عمان، ٢٠٠٤/٨/٩.

- (٤) باتريك سيل، التحالف الأمريكي الروسي ضد الإسلام، جريدة "الحياة"، لندن، ٢٠٠١/١/١٨.
- (٥) مما قاله وزير الأوقاف المصري (في مقابلة أجرتها معه مجلة "آخر ساعة" ٢٥ أيلول ٢٠٠٢)، معتبراً أن العالم الإسلامي ما زال يتعرض للغزو الفكري الهدام عبر كل النظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية والتربوية الوافدة من الغرب، والتي تحاول فرض النظرية العلمانية على الشعوب المسلمة (نقلاً عن: جريدة "المستقبل"، بيروت - ملحق "نوافذ"، ٢٠٠٢/٩/٢٨).
- (٦) الدكتور حامد عمار، إلا الإسلام يا أمريكا، جريدة "الأسبوع"، القاهرة، ٢٠٠٣/٧/٢١.
- (٧) الدكتور محمد عابد الجابري، حوار الثقافات في عالم ما بعد ١١ أيلول، جريدة "المستقبل"، بيروت، ٢٠٠٢/١٠/٣.
- (٨) الدكتور محمد أحمد النابلسي، قراءة سيكولوجية في حركة الرأي العام حول صراع الحضارات، جريدة "الكفاح العربي"، بيروت، ١٩٩٩/١٠/٢٨.
- (٩) العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، (القاهرة، دار الرشاد، ١٩٩١)، بتحقيق الدكتور عبد المنعم الحفني، ص ٣٣.
- (١٠) ذكر في: الملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان، تحقيق الشيخ مروان الشعار، (بيروت، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٩٩٧)، ص ١٩.
- (١١) الدكتور الشيخ سيد طنطاوي، في مقابلة أجرتها معه جريدة "الأسبوع"، القاهرة، ٢٠٠٤/٧/١٢.
- (١٢) انظر التفاصيل في: الدكتور يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٩٣.
- (١٣) الدكتور محمد عابد الجابري، نظام القيم في الثقافة العربية الإسلامية، مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، السنة العشرون، العدد ٢١٩، أيار (مايو) ١٩٩٧، ص ص ٤ - ١٦.
- (١٤) انظر: عناية الله إبلاغ، الإمام الأعظم أبو حنيفة المتكلم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٢٩.
- (١٥) الدكتور الجابري، نظام القيم... المرجع الأسبق.
- (١٦) الدكتور محمد عابد الجابري، الغرب والإسلام.. بأي معنى؟ جريدة "الاتحاد" أبو ظبي، ٢٠٠٢/١٢/٢٤.
- (١٧) السيد يس، المركزية الغربية وتجلياتها المعاصرة، جريدة "الأهرام"، القاهرة ٢٠٠١/٨/١٦.
- (١٨) مقولة التقاليد الثلاثة المنكورة هي للشاعر فاليري، انظر: الدكتور عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٧)، ص ٢٢.
- (١٩) الدكتور عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المرجع السابق، ص ٢٥ و ٢٧.
- (٢٠) ذكره: د. إبراهيم، المرجع السابق ص ١٨.
- (٢١) الدكتور غوستاف لوبون، سر تطور الأمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول، (القاهرة دار الفرجاني، دون تاريخ نشر)، ص ٣٠.
- (٢٢) انظر: صلاح ذهني، الإمبراطورية والبرابرة الجدد الذين هم نحن، جريدة "الأسبوع الأدبي"، دمشق، العدد ٢٩٧، ١٩٩٢/١/٢٣.
- (٢٣) ذكره: الدكتور عبد الإله بلقزيز، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.. ما العمل؟

- مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، السنة ١٣، العدد ١٥٤، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩١، ص ١٥.
- (٢٤) انظر: الدكتور إبراهيم، المركزية...، المرجع الأسبق، ص ١٨.
- (٢٥) د. إبراهيم، المرجع الأسبق، ص ٢٨.
- (٢٦) أحمد يوسف داود، التخطيط الفكري العربي، جريدة "الكفاح العربي" بيروت، ٢٨/١٠/١٩٩٩.
- (٢٧) د. إبراهيم، المرجع الأسبق، ص ٢٧.
- (٢٨) ذكره: د. إبراهيم، المرجع الأسبق، ص ١٨.
- (٢٩) د. إبراهيم، المرجع الأسبق، ص ١٤ و ١٥.
- (٣٠) انظر: د. إبراهيم، المرجع الأسبق، ص ١٦.
- (٣١) انظر: الدكتور شاكر مصطفى، تاريخنا وبقايا صور، (الكويت، مجلة العربي، ١٥ أكتوبر ١٩٨٩، الكتاب رقم ٢٥، ص ٤١).
- (٣٢) انظر: محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، (القاهرة، دار الهلال، ١٩٩١)، ص ١٦٥.
- (٣٣) جريدة "المستقلة". لندن (باب: بنك المعلومات)، ١٢/١٢/٢٠٠٠.
- (٣٤) الدكتور منير العكش، حق التضحية بالآخر.. أميركا والإبادات الجماعية، المرجع الأسبق ص ١١.
- (٣٥) هشام فؤاد، أميركا تقذفنا بحجر الأقليات وبيتها من زجاج، جريدة "العربي" القاهرة، ١٣/٧/١٩٩٨.
- (٣٦) روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة محمد مزالي، (بيروت، دار عويدات، ١٩٧٨)، الطبعة الأولى، ص ٦٧.
- (٣٧) بتصرف واختصار عن: الدكتور شاكر مصطفى، تاريخنا...، المرجع الأسبق، ص ٤٣.
- (٣٨) الدكتور شاكر مصطفى، تاريخنا وبقايا صور، المرجع الأسبق، ص ١٩.
- (٣٩) انظر عرض الكتاب وتحليله بقلم الفونس عزيز، في: مجلة "عالم الفكر" الكويت، المجلد ١٩، العدد ٣، أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٨، ص ص ٢٧٣ - ٢٨٨.
- (٤٠) ذكره: الدكتور عثمان سعدي، في: الدكتور أحمد صدقي الدجاني (وآخرون)، أزمة الخليج وتداعياتها على الوطن العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢)، ص ٣٤.
- (٤١) الدكتور عبد الله عبد الدايم، التربية وعصر التقانة والمال، مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، السنة ٢٠، العدد ٢٣٠، نيسان (أبريل) ١٩٩٨، ص ٧٣.
- (٤٢) انظر حوار نصير مروه مع المفكر الفرنسي بيار نافيل، في: مجلة "استراتيجية"، بيروت، العدد ٩٨، نيسان (أبريل) ١٩٩٠، ص ص ١٠٠ - ٧.
- (٤٣) انظر: مجلة "العربي". الكويت، العدد ٤٦٠، مارس (آذار) ١٩٩٧، ص ٨٩.
- (٤٤) انظر جريدة "السفير"، بيروت، ٢٠/٧/٢٠٠٢.
- (٤٥) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، (دمشق، دار الفكر، دون ذكر تاريخ)، ج ١، ص ٢٦.
- (٤٦) محمود منقذ الهاشمي، المؤامرة ونظرية المؤامرة، جريدة "تشرين" دمشق، ١٠/٣/٢٠٠١.
- (٤٧) ذكره: الدكتور سعيد إسماعيل علي، نظرية المؤامرة مظلومة، جريدة "الأهرام" القاهرة: ١٢/٥/١٩٩٩.
- (٤٨) الدكتور حسن حنفي، في حوار أجرته معه: جريدة "الحياة"، لندن، ١/٥/٢٠٠٢.
- (٤٩) الدكتور إبراهيم أبراش، نظرية المؤامرة السياسية بين التحليل العلمي والتهويل السياسي، جريدة "القدس

- العربي"، لندن، ١٩/٥/١٩٩٨.
- (٥٠) الدكتور مصطفى الفقي، التفسير التأمري للتاريخ، جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٢٠/٩/١٩٩٧.
- (٥١) جريدة "الثورة"، دمشق، ١٤/١٠/٢٠٠٠، وهي تنقل عن: جريدة "لوموند ديبلوماتيك" بترجمة حسن حسن.
- (٥٢) جريدة "الأهالي"، القاهرة، ١٧/٥/٢٠٠٠.
- (٥٣) جان بيير شوفينمان، حرب الخليج دفعتني إلى الاستقالة، ترجمة أحمد عبد الكريم (دمشق، دار الأهالي، ١٩٩٢)، ص ٣٨ و ٣٩ و ١٢١.
- (٥٤) شوفينمان، المرجع السابق، ص ٤٨.
- (٥٥) جريدة "الحياة"، لندن، ١٩/٧/٢٠٠١.
- (٥٦) السيديس، فن تزوير التاريخ، جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٢٠/١٢/١٩٩٩.
- (٥٧) أحمد عمري، نظرية المؤامرة، جريدة "البيان" دبي، ١٥/١١/١٩٩٩.
- (٥٨) محمود حداد، المؤامرة كما اللا مؤامرة. موجودة، جريدة "الحياة"، لندن، ٤/٨/٢٠٠٣.
- (٥٩) أمين هويدي، المؤامرة الكبرى.. كيف تم التآمر لغزو العراق؟ جريدة "الأهرام"، ١٠/٨/٢٠٠٤.
- (٦٠) مجلة "رسالة التقريب"، العددان ٣٤ و ٣٥، خريف ١٤٢٣ هـ، ص ٣٨٢. ٣٨٤.
- (٦١) التعريف للعالم ج. آلبرت، ذكره: الدكتور لويس كامل مليكه، سيكولوجية الجماعات والقيادة، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣)، ج ٢، ص ٤٠٨.
- (٦٢) انظر نص البيان في: جريدة "المستقبل"، بيروت، ١٤/٧/٢٠٠٤.
- (٦٣) توماش ماستناك، الإسلام وخلق الهوية الأوروبية، ترجمة بشير السباعي، (الاسكندرية، دار النيل، ١٩٩٥)، ص ٨ و ٩ و ١٦.
- (٦٤) انظر المقابلة مع الرئيس الأسبق أحمد بله في: جريدة "المجد"، عمان، ٢٠/١/٢٠٠٣.
- (٦٥) الدكتور ناصيف حتي، المكارثية الجديدة، جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، ١٤/١٢/٢٠٠٢.
- (٦٦) الدكتور شريف حناته، مشروع القرن الأمريكي الجديد، جريدة "الأهالي"، القاهرة، ٢٠/١١/٢٠٠٢.
- (٦٧) انظر المقابلة مع جون اسبوزيتو، في: جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، ٢٣/٤/٢٠٠٢.
- (٦٨) انظر: جريدة "المجد"، عمان، ١٠/٦/٢٠٠٢.
- (٦٩) الدكتور محمد عباس، بل هي حرب على الإسلام، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢)، ص ١٧٧.
- (٧٠) انظر: مجلة "العالم"، لندن، العدد ٤١٩، ٢٢/٢/١٩٩٢، ص ٦٠.
- (٧١) ذكره: الدكتور محمد عباس، لا للوطن كرامة، جريدة "الشعب"، القاهرة، ٢٩/١٠/١٩٩٩.
- (٧٢) الدكتور هشام جعيط، النهضة وحركات الإصلاح ومفهوم الثورة في العالم الإسلامي الحديث، مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، السنة الرابعة، العدد ٣٨، نيسان (أبريل) ١٩٨٢، ص ١٦.
- (٧٣) جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ١٥/٧/٢٠٠٤.
- (٧٤) مجلة "الكفاح العربي"، بيروت، ١٩/٧/٢٠٠٤، ص ٧.
- (٧٥) و (٧٦) و (٧٧) مجلة "المشاهد السياسي"، لندن، العدد ٣٥٠، ٢٤/١١/٢٠٠٢.
- (٧٨) جريدة "المجد"، عمان، ١٥/١٠/٢٠٠١.

- (٧٩) جريدة "الحياة"، لندن، ١٧/١١/٢٠٠٣.
- (٨٠) ذكر الدكتور جبور اقتراحه في محاضرة ألقاها في دمشق حول حوار الأديان، بتاريخ ٩/٢/٢٠٠٤.
- (٨١) ذكره: الدكتور صالح الحمارنة، انظر مداخلته في: النهضة العربية الثانية (تحديات وآفاق)، تحرير وتقديم غسان عبد الخالق، (عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ٢٠٠٠)، ص ١١٩. ١٢٣.
- (٨٢) ذكره: الدكتور زغلون النجار، الإسلام والغرب في كتابات الغربيين، (القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، ص ٣٣.
- (٨٣) إبراهيم نافع، جنون الخطر الأخضر وحملة تشويه الإسلام /٢/، جريدة "الأهرام" القاهرة، ٩/٢/٢٠٠٤.
- (٨٤) ذكره: الدكتور محمد عابد الجابري، الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية، جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، ٩/٩/٢٠٠٣.
- (٨٥) الدكتور زغلون النجار، الإسلام والغرب في كتابات الغربيين، المرجع الأسبق، ص ٧٤.
- (٨٦) ذكره: الدكتور عماد الدين خليل، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، (بيروت، دار النفائس، ١٩٩٩)، ص ٢١.
- (٨٧) الدكتور محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩)، ص ٢٠٣.
- (٨٨) المستشار طارق البشري، في حوار أجراه معه محمود عشب، في: جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٣١/١٠/٢٠٠٣.
- (٨٩) الدكتور أحمد أبو زيد، العولمة وثقافة اليأس، جريدة "العربي"، القاهرة، ٨/٦/٢٠٠٣.
- (٩٠) الدكتور عبد العزيز الدوري، في كتاب: النهضة العربية الثانية.. المرجع الأسبق، ص ١٠٩.
- (٩١) المفكر والسفير حسين أحمد أمين، في: مجلة "المجلة". لندن، العدد ١١٤١، ٢٣. ٢٩. ١٢/١٢/٢٠٠١، ص ٥٢.
- (٩٢) الدكتور يوسف القرضاوي، لماذا يعادون الإسلام؟ جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي ١٥/١١/٢٠٠٠.
- (٩٣) عوني فرسخ، القوميون والإسلاميون العرب، مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، العدد ٢٦٠، تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٠، ص ٥٤.
- (٩٤) ذكره: موفق زريق، نهضة أم تغريب، (بيروت، دار المنارة، ١٩٩٦)، ص ٤٧.
- (٩٥) ذكره: زريق، المرجع السابق، ص ٥٠.
- (٩٦) ذكره: زريق، المرجع السابق ص ٤٩.
- (٩٧) صدر الكتاب بتقديم وتعليق محمد العبد، ونحن ننقل عن: نجيب البعيني، التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي؟ جريدة "السفير"، بيروت، ١١/٨/٢٠٠٤.
- (٩٨) موفق زريق، المرجع السابق، ص ٤٤ و ٤٥.
- (٩٩) الدكتور جلال أمين، العولمة، مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، آب (أغسطس) ١٩٩٨، ص ٦٠.
- (١٠٠) الدكتور أنور عبد الملك، مصر المحروسة، جريدة "العربي"، القاهرة، ٢٧/٢/١٩٩٤.
- (١٠١) ذكره: الدكتور محمد عابد الجابري، إصلاحيون.. محققون ومخطئون، جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، ١٠/٨/٢٠٠٤.
- (١٠٢) ذكره: الدكتور سلمان قطايه، جيوش الاستعمار الجديد، جريدة "الأسيوع الأدبي"، دمشق، ٢٥/٦/١٩٩٢.
- (١٠٣) ذكره الدكتور ياسين سويد، مؤامرة الغرب على العرب، (بيروت، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ١٩٩٢)،

ص ٢٥.

- (١٠٤) نشرت الدراسة عام ١٩٩٧م في مجلة Foreign Policy، ونحن ننقل عن: غسان بن جدو، في برنامج "حوار مفتوح"، في قناة "الجزيرة" الفضائية، بتاريخ ١٢/٩/٢٠٠٤.
- (١٠٥) الدكتور محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، ٢٠/٧/٢٠٠٤.
- (١٠٦) انظر جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ٤/١١/٢٠٠٢.
- (١٠٧) انظر جريدة "المستقبل"، بيروت، ٤/٨/٢٠٠٤.
- (١٠٨) انظر جريدة "المستقبل"، بيروت، ٢٠/٦/٢٠٠٣.
- (١٠٩) انظر جريدة "آفاق"، دمشق، ٥/١٠/٢٠٠٢.
- (١١٠) انظر جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ٢٤/٩/٢٠٠٤.
- (١١١) الدكتور عبد الله عبد الدائم، في سبيل ثقافة عربية ذاتية (الثقافة العربية والتراث)، (بيروت، دار الآداب، ١٩٨٣)، ص ١٢٥ و ١٢٦.
- (١١٢) البروفيسور جاك بيرك، في الحوار الذي أجرته معه: مجلة "الكويت"، العدد ٦٣، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧، ص ٤١.
- (١١٣) مذكور في: د. زينب عبد العزيز، موقف الغرب من الإسلام (محاصرة وإبادة)، (دمشق والقاهرة، دار الكاتب العربي، ٢٠٠٣)، ص ٣٥.
- (١١٤) جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٥/٣/٢٠٠٤.
- (١١٥) انظر: جريدة "الأُسبوع"، القاهرة، ٩/٨/٢٠٠٤.
- (١١٦) جريدة "الأُسبوع"، القاهرة، ٢٨/٦/٢٠٠٤.
- (١١٧) انظر تفاصيل طروحات الأستاذ جمال البنا، حول العلمانية الإسلامية وإلغاء حجية السنة، في: جمال البنا، نحو علمانية إسلامية، جريدة "القاهرة"، العدد ٨٨، ١٨/٢/٢٠٠١.
- وقد كنا أرسلنا إلى الجريدة المذكورة رداً على طروحات الأستاذ البنا، فرفضت الجريدة نشره.
- (١١٨) نحن ننقل تقوّهات الأستاذ هيكل عن: جريدة "العربي"، القاهرة، ١٢/٩/٢٠٠٤.
- (١١٩) انظر: محمد شفيق غريال (إشراف)، الموسوعة العربية الميسرة، (القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٢)، ص ٤٣٦.
- (١٢٠) انظر تفاصيل قضية العلاقة بين الشرع والمصلحة (وبما في ذلك آراء ابن القيم والطوفي) في: الدكتور يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية، (القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٨)، ص ٧١.
- (١٢١) الدكتور رفعت السعيد، في الحوار الذي أجرته معه جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ٢٠/٦/٢٠٠٤.
- (١٢٢) انظر نص البيان الختامي للندوة، الصادر في ١٢/٢/٢٠٠٤، بتوقيع السيد مدير مركز الدراسات الإسلامية بدمشق والسيد مدير مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية بجامعة دمشق.
- (١٢٣) انظر محاضرة الأمير تشارلز في جامعة أكسفورد، في: جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ٦/١١/١٩٩٣.
- (١٢٤) سمير كرم، ما بين المعرفة والحق، مجلة "الكفاح العربي"، بيروت، العدد ٨١٦، ٢١/٣/١٩٩٤، ص ١٧.
- (١٢٥) أُلّف الدكتور ياسين سويد (مثلاً) كتاباً تحت عنوان: "مؤامرة الغرب على العرب"، وقد سبقَت الإشارة إليه في الحاشية رقم ١٠٣/ من هذا البحث.

(١٢٦) انظر: الدكتور عبد الكريم أحمد، القومية والمذاهب السياسية، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠)، ص ٨٦.

(١٢٧) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ - ١٩٣٩م)، ترجمة كريم عزقول، (بيروت، دار النهار للنشر، ط٤، ١٩٨٦)، ص ٣١١.

(١٢٨) وفقاً للخطة الشاملة للثقافة العربية (التي اعتمدها الوزراء المسؤولون عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، في اجتماعهم بتونس ١٩٨٥م)، فإن "منظومة القيم العربية الإسلامية مجموعة متكاملة من المبادئ تشكل في مجملتها مذهباً خاصاً في الحياة هو الذي منح الهوية الثقافية العربية ملامحها المميزة". (انظر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة الشاملة للثقافة العربية، تونس ١٩٩٠، ص ص ٥٤ - ٥٩).

(١٢٩) المستشار طارق البشري، في المقابلة التي أجرتها معه: مجلة "المستقبل العربي"، بيروت، السنة ٢٥، العدد ٢٨٨، شباط (فبراير) ٢٠٠٣، ص ص ٨٧ - ١٠٢.

(١٣٠) ذكره: المستشار البشري في المرجع السابق.



فكرة أميركا الأم الحاضنة لفكرة إسرائيل

مصطفى الولي

الكتاب : تلمود العم سام

الأساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا

المؤلف : د. منير العكش

الناشر : رياض الرئيس للكتب والنشر.

بيروت ٢٠٠٤

شغلت العلاقة بين أميركا ودولة إسرائيل اهتمام أوساط فكرية وسياسية واسعة، على المستويين العالمي والعربي.

ولقد كان للأبعاد السياسية والاقتصادية والاستراتيجية الأساس المفضل لدى الدارسين والباحثين. أما البعد الفكري الأيديولوجي والروحي، فقليلة المؤلفات التي تناولت هذا الحيز في مجال العلاقة بين البلدين - الفكرتين. وهي (المؤلفات) إن وجدت، على قلتها، افتقرت عموماً إلى البحث الموثق منهجياً، وطمغى عليها الطابع الدعائي، العاطفي والتحريضي.

أما المؤلف منير العكش، فهو ذهب إلى توثيق وتحليل تاريخ فكرة أميركا ونظم فلسفتها ومقولاتها، ليكشف عن ولادة مبكرة للأيديولوجية الصهيونية، قبل ولادة مؤسس الحركة الصهيونية اليهودية "هرتزل" بثلاثة قرون. ففي الاستيطان الأوروبي لأميركا نشأت العلامات الأولى للأيديولوجية الصهيونية.

لم تكن تلك الأيديولوجية تنشد "أرض الميعاد" في فلسطين، لكنها جعلت من أرض أميركا معادلاً "لأرض الميعاد". ومع الولادة المفبركة والمصنعة للحركة الصهيونية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر، كان لابد من رعاية أميركا للحق اليهودي المزعوم في فلسطين.

وإذا كانت الفكرة الجوهرية لترسيخ الحق الصهيوني في أرض فلسطين تقوم على مقولة: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، فالسبق الذي حققه الغزاة الإنجليز على حساب شعوب أميركا الأصلية (الهنود الحمر) كان محركاً عملياً وأخلاقياً وسياسياً لإخضاع العالم للفكرة الصهيونية إزاء أرض فلسطين.

وعلى مدى أكثر من أربعة قرون ظلت فكرة أميركا "تخطف روح الدين وتطوّعه لأهدافها الإمبراطورية الثلاثة التي استعارتها من "فكرة إسرائيل" التاريخية:

١ . اجتياح أرض الغير .

٢ . استبدال سكانها بسكان غرباء أو استعباد من يعصى منهم على الموت .

٣ . واستبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم، الكتاب ص ١١ . لاحقاً رقم الصفحة فقط .

ويُرجع المؤلف بلاغة العنف الأميركية إلى "استعارتها من أدبيات "فكرة إسرائيل" وأساطيرها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها، بدءاً من "العهد المقدس" الذي أبرمه الحجاج في سفينة ماي فلور مع يهوه في عرض المحيط الأطلسي وانتهاءً بالرئيس جورج بوش قبل إعلان الحرب على العراق واعتقاده بأنه "موسى العصر" ص ١٣ .

في المقاربات الفكرية والسياسية لحقيقة دولة إسرائيل ثمة إصلاح مكثف لطبيعة العلاقة التي تجمع بين واشنطن وتل أبيب هو "الحاضنة الأميركية" أو "البلد الأم". ولعل ما أراده الباحثون والمفكرون من هذا التكثيف هو التدليل على الوشائج الاقتصادية والعسكرية والأمنية التي تجمع بين الطرفين. لكن في متن الكتاب الذي نحن بصدد سوف نلاحظ أن "البلد الأم" يمكن أن يرمز أيضاً إلى وشائج الأيديولوجيا "للفكرة الصهيونية اليهودية التي أسسها هرتزل بعد التجربة الأميركية بثلاثة قرون. ولذلك يستنتج المؤلف د. منير العكش أن "هاجس أميركا بتأسيس دولة يهودية في فلسطين أعرق من الحركة الصهيونية اليهودية وأشد تطرفاً وطموحاً (...) صحيح أن فكرة أميركا استمدت مثاليها وأخلاقيها ومعظم إسقاطاتها من حكايات العبرانيين وأساطير "إسرائيلهم" في العهد القديم والتلمود (...) لكن فكرة أميركا التي استنسخت فكرة إسرائيل الأولى، تميزت عنها بشموليتها. ففكرة إسرائيل وتجميع اليهود في فلسطين، وتأسيس دولة يهودية فيها واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة أخرى، كل ذلك ليس إلا عنصراً واحداً من عناصر فكرة أميركا ومشروعها ل"نهاية التاريخ" ص ٢٩ .

ولو توقعنا سريعاً اليوم أمام الممارسات الإسرائيلية لإبادة الشعب الفلسطيني ومحو تاريخه، كما هو واضح، في مسألة القدس، واعتبارها يهودية، والبحث عن هيكل سليمان المزعوم تحت عماراتها المقدسة إسلامياً ومسيحياً، سوف نجد لها فرعاً من أصل أميركي تاريخه ورموزه واضحة وموثقة في خطابات الرؤساء الأميركيين وفي مؤلفات النخب التي تقوم بتسويق تلك الخطابات بأفكار يريدون منها تعميم ما يُسمى بالحضارة الأميركية.

لقد شكّل رمز "المدينة الجبلية" في اللاهوت الاستعماري الإنجليزي واحداً من أقدم رموز "فكرة أميركا" وأنفذها في الزمن، فهو يماهي بين أميركا وبين "أورشليم الجديدة" عاصمة مملكة الله التي سبّنى في آخر الزمان على جبل فوق أنقاض مدينة تكن شنتكه^(٧) ص ٣١ . ويسرد د. منير العكش حكايته مع الرواية الأميركية الواردة في الدليل السياحي للتعرف بتاريخ واشنطن المدينة فيقول: ما زلت أذكر أن صفحته الأولى تحمل صورة الرئيس واشنطن بنظراته الناعسة المتكسرة وابتسامته الموناليزية وبعض المعلومات التاريخية عن المدينة، وأولها أن واشنطن أجمل عواصم العالم انبثقت من مجاهل "مستنقعية". وتخبرنا أيضاً كيف تعثرت تكنولوجيا الحداثة، وهي تحفر مسجاً داخل حديقة البيت الأبيض في عام

(٧) المدينة الهندية التي قامت على أنقاضها مدينة واشنطن بعد إبادة سكانها "المؤلف".

١٩٧٥، بآثار ورمم بشرية تعود لمدينة تكن شتتكة. وسرعان ما انعقدت الألسنة الطويلة وضُودرت الأشباح وأهيل التراب على جثة الفضيحة وامتد بساط من الأعشاب من جديد فوق مقبرة "المجاهل" المعروفة باسم "حديقة الورد" ص ٣٣.

من الافتراس إلى الهضم

من السحق والإبادة التي تلحق بالضحية إلى تماهي الضحية مع الجلاذ، أو مع ما يرسمه من صورة لها، يكتمل جدل العملية الاستعمارية لتكريس "حضارتها" ونشيدتها نحو "الحرية" المزعومة. وإذا كان شرط انتصار الضحية على جلاذها (المُستعمر على المستعمر) نزع اللثام عن حقيقته الموضوعية، فإن العكس تماماً هو ما يسعى له الجلاذ في تعامله مع الضحية. فهو يحولها إن استطاع إلى ثقافته المزيفة التي تبرّر أعماله الوحشية، وتصبح الضحية، أو "تخبة" منها تنطق بلسان حال الجلاذ، وتبارك أعماله الوحشية، باعتبارها خلاصاً وتخليصاً لها من "التخلف" والشر.

ذلك هو ما سنلاحظه في متن الكتاب حين يسترسل المؤلف بعض الشيء في تحليل وعرض تجربة المستعمرين البيض الذين أنشأوا "فكرة أميركا" حيث كانت عملية الإبادة للهنود الحمر مقدمة لتشكيل ما يمكن وصفه "الحكم الذاتي لمن تبقى منهم". ويطلق عليه اليوم في الولايات المتحدة "مكتب الشؤون الهندية".

"ويشبه دافيد هنري في كتابه "سلب الهنود" نشاط هذا المكتب بمستعمرات هائلة من النمل الأبيض تتخر ما تبقى من قواعد البيت الهندي إلى أن ينهار، كما يشبهه أيضاً بسلاح مكتوم الصوت يقتل بدون ضجة" ص ٥١.

ذلك هو ما تحقق في عام ١٨٤٩ إذ أصبح ما يُسمى "مكتب الشؤون الهندية" بمثابة استثمار داخلي تجسده مشيخات وأمراء وقبائل من المنتفعين الهنود يفنكون بأهلهم لحساب الدولة الأميركية. وأصبح، كما يقول الهنود، الإنسان الأبيض وأطماعه يختفيان تحت البشرة الحمراء لموظفي مكتب الشؤون الهندية. "وهو ما حفز أحد زعماء الحركة الهندية المعاصرة (رسل مينز) إلى الإعلان: أن إنقاذ هنود أميركا من فقرهم وشقائهم لن يتم إلا بعد القضاء على مكتب الشؤون الهندية" ص ٥٤. هذا المكتب جعل أكبر هموم الضحية الحصول على شهادة حسن سلوك من جلاذها.

بهذا الخصوص يعرض المؤلف نماذج مفرزة ومرعبة لنشاط ما يُسمى بمكتب الشؤون الهندية، في سبيل الحصول على الفتات من أسياده المستعمرين البيض. فحوادث الاغتصاب والقتل والاتجار بالنساء في مجال الدعارة وتسميم الأغذية وحرق محاصيل الشعوب الهندية، هي الممارسات التي كان مكتب الشؤون الهندية يتستر عليها ويخفي آثارها حتى يفوز برضى الأميركيين البيض.

الثقافة المستباحة

في الفصل الثالث من الكتاب يتوقف المؤلف حيال التزوير الثقافي الذي شكّل عنصراً ضرورياً في تحويل وجود الهنود إلى عدم. وأول خطوة في هذا السبيل تحويل الافتراس الجسدي إلى تلمظ بروح الفريسة "يعجنها ويصهرها ويُعيد خلقها وإحياءها دمية للترفيه والمتعة في سوق الاستهلاك اليومي للروح. إلى درجة أن الهندي صار يتعرّض للسخرية والضحك حين يقف في وجه هذا السيل من التلفيق ليقول

الحقيقة. إنهم لا يكتفون بتكذيبه بل إنهم سرعان ما يوتخونه ويسألونه أن يتعلم تراثه جيداً وفقاً لما كتبه الخبراء (غير الهنود). هناك ثقافات ومعتقدات هندية يختلفها هؤلاء (الخبراء) ويجبرون الهنود أنفسهم على اعتناقها بعد أن صارت لهم وحدهم الكلمة الفصل في ما هو هندي وغير هندي" ص ٧٥. ولقد وصفت الكاتبة الهندية (الكندية) بام كولورادو هذه العملية المبرمجة والمخططة بقولها: إن الحديث عن المذبحة الروحية التي نتعرض لها ليس استعارة بلاغية، فأرواحنا هي التي تُباد الآن" ص ٥٧.

يهود الروح ويهود اللحم والدم

ثمة مصطلح أصبح رائجاً لتعريف علاقة الصهيونية الهرتزلية . وتقريبها . عن الصهيونية السياسية التي نشأت في أوروبا، وهو "الصهيونية المسيحية" فالأولى (اليهودية) وُلدت من الثانية لأغراض وأهداف سياسية استعمارية. د. العكش يضع اصطلاحاً آخر للتعريف والتفريق بينهما، هو: يهود الروح ويهود اللحم والدم.

ففي لندن تأسست أكاديمية الدراسات اليهودية لنشر "فضائل الديانة اليهودية بين أكبر عدد ممكن من الإنجليز وكبح جماح العداوة التقليدية لليهود" ص ٨٧. وعندما بنى جون كيث المستعمرة الإنجليزية الأولى في العالم الجديد (أميركا) كان اليهود والإنجليز على قناعة ضمنية مشتركة بضرورة طي الصفحات المؤلمة لعلاقة المسيحية باليهودية والتي تعود إلى ما جرى من أحداث بين سنة ١ وسنة ٣٢ ميلادية.

"كان الإنجليز يؤمنون بأن لدى اليهود مفاتيح التبرير الإلهي وأسراره. فمنذ بداية الثورة البيوريتانية التي صنعت أميركا وفكرة أميركا ومشروعها كان معظم الإنجليز يصلون مع اليهود في معابدهم ويتعلمون العبرية ويجعلونها لغتهم اليومية (...). كان هناك شبه إجماع بينهم أن اليهود أكثر شعوب الأرض حاجة إلى الحماية والرعاية والتميز لأنهم "شعب الله" والله يحاسب الأمم وفقاً لموقفهم من اليهود. وهذه المقولة ما تزال تتردد شعبياً ورسمياً ولاهوتياً في العالم الأنغلو/أميركي الآن. وكان آخر من رذدها رسمياً الرئيس الأميركي كلينتون حين أكد وصية كاهنة له: إذا تخلّيت عن إسرائيل فإن الله سيغضب عليك" ص ٨٩.

في التنقيب التاريخي عن جذور الزيف الذي جعل من الديانة اليهودية، أمة وقومية، ومهد بذلك لزج اليهود في مشروع إقامة إسرائيل على أرض فلسطين، يبرز المؤلف دور بريطانيا ومفكرها في فبركة مشروع "أمة يهودية".

"فحين كان مجلس المندوبين اليهود يؤكد أن اليهود لا يريدون أكثر من التمتع بالحقوق المدنية في بريطانيا (...) تولى القنصل البريطاني في دمشق تشارلز هنري تشرشل الدعوة علناً إلى إعادة اليهود إلى فلسطين محررة" في سبيل مواجهة أخطار محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام. وكتب رسالة إلى موسى مونتغيور (أحد زعماء اليهود) ألحّ فيها على ترجمة البعد الديني لعودة اليهود إلى فلسطين إلى لغة سياسية عملية، مبدياً رغبته الجامحة في أن يناضل اليهود من أجل أن يصبحوا أمة" ص ١٠٧.

حقيقة الأمر هو ما أكدته الوثائق التاريخية حول انعدام أي مشروع سياسي لليهود قبل هرتزل. فهذا الأخير حين نشر كتابه "الدولة اليهودية" اعتمد على كتاب "عودة اليهود إلى فلسطين كما بشر بها الأنبياء" الذي ألفه موظف بريطاني في السفارة الإنجليزية في فيينا يدعى وليم هكلر. وتروي الموسوعة اليهودية حكاية غرام هكلر بهرتزل بلغة عاطفية مؤثرة، فقد أفردت له مادة خاصة واعتبرته أحد أنبياء

هرتزل واعترفت له بإخلاصه وتقانيه في سبيل الحركة الصهيونية.

أميركا ينبوع العنف وأم الحرب الوقائية

في القسم الثاني من الكتاب يطارد المؤلف ثقافة العنف الأميركية ويكشف جذورها الأيديولوجية "لقد تلبّست "فكرة إسرائيل" جوهر "فكرة أميركا" وصاغت شكلها فمن المسلّمات أن الأمة الأميركية أقرب إلى الإسرائيليين الأوائل من أي شعب آخر على وجه الأرض (...). وبما أنه ليس هناك شعب يعطي بلاده وحرية للغزاة الغرباء تطوّعاً فقد كان لابدّ لفكرة إسرائيل وفكرة أميركا من تقديس العنف. إن كل بلاغة العنف الأميركية كانت وما تزال تستمدّ استعاراتها من أدبيات فكرة إسرائيل وقصصها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها" ص ٢١٢.

إن أخلاق العنف التي برّر بها المستعمرون الإنجليز حربهم من أجل فكرة أميركا "وإبادة الهنود الحمر، استندت إلى فكرة إسرائيل حين ألقى كوتون ماذر خطبة الحرب أمام الكتيبة المتوجّهة لغزو الهنود عام ١٦٨٩، كانت استعاراته تنفخ الحياة في أساطير العبرانيين وتلجّ على المعنى الإسرائيلي لأميركا. فالجنود المتوجّهون لغزو الهنود بنو إسرائيل في مواجهة العماليق وما على بني إسرائيل الجدد إلا أن ينقضّوا على أعدائهم بالطريقة التي انقضّ بها العبرانيون على أعدائهم العماليق" ص ٢١١.

يذهب المؤلف إلى الاعتقاد الراسخ بالمنطقات الواحدة لكلتا الفكرتين "فكرة أميركا" و"فكرة إسرائيل" حيث تستند كل منهما إلى "عقيدة الاختيار وجبرية المصير وتسخر من حقائق التاريخ والحفريات الأثرية ولا تقيم وزناً للوقائع الجيوسياسية. وترفضان علم الطبيعة وعلم التاريخ. وتعتقدان أن نصوصهم المقدسة المرجع الأعلى لأرض كنعان، حيثما كانت أرض كنعان ومستقبلها (...). أما ما قد يحدث للملايين من البشر الذين عاشوا في أرض كنعان وقدها آلاف من السنين قبل أن يعرف التاريخ شيئاً عن فكرة إسرائيل، فتضحيات تافهة ضرورية لتطهير الطبيعة والتاريخ واستبدالهما بطبيعة وتاريخ أعلى" ص ٢١٥.

في بحثه عن صلة الماضي بالحاضر، وعلاقة السياسة بالأيديولوجيا يقارن المؤلف بين ذرائع أميركا لشن "الحرب الوقائية" وشعار النازية في ألمانيا عشية الحرب العالمية الثانية "المجال الحيوي".

"كان جون أوسلفيان، وهو أعظم فلاسفة فكرة أميركا في القرن التاسع عشر، قد بعث حق الحرب من مرقده في عام ١٨٤٥ وأطلق عليه اسم "القدر المتجلّي" وذلك كي ينسب سياسة الاجتياحات الأميركية إلى التدبير الإلهي (...). وسرعان ما تحوّل "القدر المتجلّي" إلى عقيدة تبنّاها سياسيو الحزبين الجمهوري والديموقراطي وتنافسوا على عسكريتها" ص ٢١٣.

ويحيل المؤلف عقيدة النازية في "المجال الحيوي" إلى فكرة "القدر المتجلّي" الأميركية. لكن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ فتأتي المفارقة بمحاكم جرائم الحرب النازية على يد الأميركيين أصحاب فكرة "أميركا" ومبدأ "حق الحرب" لإبادة الهنود في القارة الأميركية تجسيداً لـ "القدر المتجلّي" الخاص بعقيدتهم. ولعل "هذه الحرب الوقائية" (٢) التي أطلقها الرئيس بوش كترجمة لحق الحرب

(٢) يمكن أن يكون اصطلاح الحرب الاستباقية الحرفي هو الأدق من الحرب الوقائية الذي ذكره المؤلف، خاصة وأن الاستباقية تتصل بعلم الغيب الذي تقوم عليه أساطير التوراة. ثم إن الخطاب الصادر عن البيت الأبيض

(١٦١٠) وللقدر المتجلى (١٨٤٥) ليست إلا محاولة جديدة لاغتصاب إرادة الله نفسها، ودليلاً آخر على الوحل الأصولي الذي تغرق فيه الدولة الأميركية كلما تعاملت مع العرب، ومع المسألة الفلسطينية بشكل خاص. ومن المفارقات أن الرئيس دوايت إيزنهاور سُئل في ١٩٥٣ عن اصطلاح الحرب الوقائية، فقال: إنها من اختراع أدولف هتلر "ص ٢١٦.

على امتداد صفحات الكتاب، متناً، وهامشاً، وملحقات، سوف يلحظ القارئ أن الدكتور منير العكش مفعوج ببعض تجليات الثقافة السياسية العربية، تحديداً في ترويج ذات المقولات الأميركية والإسرائيلية إزاء التناقض والصراع الدائر مع شعوب الأمة العربية. فهو إذا كان في متن كتابه ترك المجال للقارئ أن يطّلع على حقائق الأيديولوجيا والسياسة التي تستمد منها أميركا وإسرائيل مسوغات مشاريعهما، ففي الهوامش والملاحق، علّق بشكل مباشر على ما تحمله المطبوعات العربية، أو ما تذيّعه الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى من آراء ومواقف، لكتاب ومفكرين وأكاديميين وإعلاميين عرب، تشبه أكثر ما تشبه تجربة ما يُسمى "دائرة الشؤون الهندية" التي أخذت على عاتقها الافتراس الروحي لتاريخ الهنود في أميركا، ورسم صورتهم كما تقبركها أدبيات الثقافة الأميركية الرسمية ومركزاتها من أيديولوجي "نهاية التاريخ" ومنظري "الحرية والديموقراطية" لبناء حضارة عالمية على الطريقة الأميركية.

فالحوار بين الحضارات الذي تدّعيه واشنطن ولندن "ينطلق من مسلّمات ثلاث لنيمة:

أولها: أننا نحن العرب مذنبون مع الغرب. **وثانيها:** أن ذنوبنا (تجاه أميركا وبريطانيا وإسرائيل أيضاً) لا يقرّها الإسلام لأن أخلاق الإسلام تتطابق تماماً مع ما يريده وحش الغابة ولا بدّ بالتالي من العودة إلى ينابيع الإسلام وتفسير رسالته وقرآنه وتاريخه وبطولاته وأحاديث نبيه بما يرضي وحش الغابة ويقضي على ما تبقى من جيوب مقاومتنا البائسة وخيرات أرضنا. **وثالثها:** وصف ما يجري بأنه صراعه مع الغرب (...). لماذا ينصرف الذهن فوراً عن التفكير في الحضارات أو في حوار الحضارات إلى أوهام خطيرة شائعة، أولها، أن الحوار الحضاري لا يتم إلا في المؤتمرات والندوات (...). وثانيها، أن المستعمرات اليهودية في عقولنا جعلتنا نعتقد بأن العالم ما قبل ظهور الإسلام لم يعرف غير اليهود وما فرضته اليهودية. وثالثها، أن المركزية الأنكلوسكسونية للعالم والتاريخ والطبيعة صارت إحدى مسلّمات عقولنا فحجبتنا عن كلية الحضارة الغربية وعن معظم حضارات العالم "ص ٣٠٦ . ٣١٠.

أما بشأن إسرائيل وثقافة الاستسلام التي تُخفي الوجه الحقيقي لأصحابها، فلقد تناول المؤلف في أحد الهوامش عينة واحدة من المنشورات الصحفية، ورد فيها الجمل والفقرات التالية: "بعد سقوط ننتيا هو ستكون إسرائيل حكومة وشعباً جارتنا الطيبة نقيم معها المشاريع الاقتصادية والثقافية والعلمية المشتركة وسنتعلّم ونستفيد منها أكثر مما تتعلّم وتستفيد منا (...). إنني أضع واعياً كلمة عدونا بين قوسين لأن الإسرائيليين ليسوا أعداءنا بل أبناء عمومتنا وجيراننا ويعملون مئة مرة أفضل مما نعمل (...). نحن العرب لم نعمل مرة على تطوير صورة لنا ذات جاذبية وذات قدرة على دخول عقول الغربيين وقلوبهم وبيوتهم (...). من أين تبدأ الصورة من مهام متواضعة نطرحها على أنفسنا مستقيدين من نجاح المآكل العربية من التبتلة اللبنانية إلى الكسكس المغربي..." ص ٣٥.

ثم يعلّق مؤلّف الكتاب على هذا النهج في التفكير فيقول: "هذا الفخ الذي وقع فيه أصدقاء المؤرّخين الصهاينة الجدد لم ينجّم عن حماسهم لكسب الأصدقاء في المعسكر الآخر، فهذا عمل مشروع وضروري، وإنما نجم عن اعتقاد ساذج بأن ما بيننا وبين الصهاينة هو خلاف في الرأي أو الذوق مثل الخلاف على عمود الشعر ونواقص الضوء وتعريف ما بعد الحادثة. فعلاً هناك تيار إسرائيلي وعربي رسمي يصرّ على أن الخلاف بين العرب والإسرائيليين هو مجرد تباين في وجهات النظر، وبالتالي فإن حل هذا الخلاف يبقى بالضرورة في إطار الحكي" ص ٣٨.

ويجب أن نضيف هنا ما ترّدّه الدعاية الصهيونية في تفسيرها للمقاومة والانتفاضة، حيث تعتبرها نتاج تحريض يبيّنه متطرفون متشدّدون فلسطينيون وعرب، وليس ردّ فعل طبيعي على الاحتلال والإبادة. ولابدّ من أن دعاة حل الخلاف (بالحكي) في الوسط السياسي العربي يوافقون على الادّعاء الإسرائيلي حول التحريض كمصدر للمقاومة.

إن كتاب تلمود العم سام للدكتور منير العكش إضافة نوعية هامة على المستوى الثقافي والفكري، وهو يأتي في توقيت أحوج ما نكون إليه من أجل إزاحة الأقنعة التي تنتزّين بها قوى العولمة الأميركية، والكشف عن الجذور البعيدة والعميقة لسلوك الإبادة الذي تمارسه واشنطن وتل أبيب في العراق وفلسطين. والأهم أن الكتاب يسهم في توضيح طبيعة الصراع بعيداً عن مشاريع البحث عن حلول له على طريقة "مكتب الشؤون الهندية" في الولايات المتحدة. بعد استيطان أميركا قبل أربعة قرون. ليست همومنا على أي حال أن نحصل على شهادة حسن سلوك من جلادينا.



الاستراتيجية الشاملة

للولايات المتحدة

حرب على المنافسين أعداء وأصدقاء

موسى الزعبي

الاستراتيجية: هي فن توزيع الوسائل العسكرية واستخدامها من أجل إنجاز الغايات السياسية.
"ليدل هارت"

التفوق المطلق بالرضى أو بالقوة

يوضح الإستراتيجي برونوكولسون (Bruno colson)، في بحث باهر (١)، هذه الفكرة، بقوله: "بقيت الأهداف الإستراتيجية بالنسبة إلى السياسة الخارجية للولايات المتحدة، ثابتة منذ خمسين عاماً، وهي: "القضاء على الخصوم، الأقوياء منهم أو إضعافهم، سواء أكانوا من "الأصدقاء" أم من "الأعداء"، في سبيل أن تحافظ الولايات المتحدة على وضعها المتفوق والوحيد أطول مدة ممكنة، سواء أكان منافسوها، أو خصومها، من الغربيين. أم لا، وسواء، أكانوا أعضاء سابقين في حلف وارسو، أم حلفاء مقربين من واشنطن، في نطاق منظمة حلف شمالي الأطلسي". ولقد ظهرت هذه العقيدة الاستراتيجية الشاملة" (٢) للولايات المتحدة، بجلاء، في المفهوم الأمريكي الجديد "للاستراتيجية القومية للأمن"، عندما تمّ الكشف عنها، وعن أهدافها، أمام الجمهور الكبير، بتاريخ (٨) آذار عام (١٩٩٢)، بمناسبة صدورها في النيويورك تايمز، مُترجمةً بذلك توجه الخطط الدفاعية للبنتاغون (٣). وقد جرى إعدادها بالتعاون مع مجلس الأمن القومي، المؤسسة الأرفع في الولايات المتحدة للأمن والسياسة الدولية. وإننا نفهم من هذا التوجه، أنه يجب على الولايات المتحدة، القيام بكل شيء من أجل "ردع كل خصم محتمل، من بين البلدان المصنعة المتقدمة، يحاول تحدي هيمنة الولايات المتحدة، وبحيث لن يكون، أمامه أمل كبير بدور أكبر، على النطاق العالمي أو الإقليمي (...). وستصبح رسالة الولايات المتحدة، أن تضمن لنفسها، التفوق، وبشكل لا يسمح لأية قوة منافسة، بالظهور، في أوروبا الغربية، أم في آسيا، أم في مناطق مجموع الدول المستقلة حديثاً، عن الاتحاد السوفييتي السابق، وباختصار يتعلق الأمر، بمنع أوروبا واليابان "الحليفين" لِنَتَي العريكة نسبياً، وكذلك روسيا، التي أضعفت. لكنها لا تزال مرعبة، من أن ترفع رأسها في يوم من الأيام، وتوحي بالقلق "لهيمنة واشنطن". على أن ينتج ذلك، من واقع الآلة الاقتصادية الأمريكية الهائلة. ويوضح التوجيه الخاص بالتخطيط الدفاعي: "أنه يجب على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، أن تحدد لنفسها هدفاً، هو إقناع الخصوم المحتملين بأن لا حاجة بهم إلى أن يلعبوا دوراً كبيراً. كما يجب أن يكون وضعنا أبدياً، كقوة عظمى وحيدة، وذلك عن طريق القوة العسكرية الكافية لردع أية أمة أو

مجموعة أمم، عن تحدي تفوق الولايات المتحدة، أم في البحث عن توجيه الاتهام للنظام الاقتصادي والسياسي القائم (...)، ويجب علينا منع ظهور نظام أوروي، حصراً، يمكنه أن يخلق تشويشاً لمنظمة حلف شمالي الأطلسي، ويجب أن نبقي حذرين، أمام الأخطار، نتيجة عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأقصى، الذي يمكن أن ينشأ عن الدور المتزايد لحلفائنا، خاصة اليابان". لهذا فإنه من المؤكد، أن ليس هنالك من أوهام، حول دور الأمم المتحدة، أو أي شكل آخر، سواء أكان دوراً "جماعياً دولانياً". أم في الخطابات الرسمية لقادة الولايات المتحدة. وإن هذا الدور يجب تجاوزه في كثير من الحالات، كما جرى في حرب الولايات المتحدة على العراق. ويوضح التقرير "السري" بجلاء: "أن ما هو هام هو الإحساس، بأن النظام الدولي، الذي تدعمه الولايات المتحدة، يجب أن تكون فيه في موقع، قادرة على التحرك، بشكل مستقل في نهاية الأمر، عندما يكون هناك عمل جماعي، ليكون مُجَوِّقاً". ونفهم ذلك بشكل أفضل، وفي ضوء هذه الوثائق الاستراتيجية، لماذا تحاول الولايات المتحدة، التحرك في العراق، مثلاً، تحت غطاء تفويض من الأمم المتحدة، عندما تكون قرارات المنظمات الدولية مناسبة لمصالحها، ولا سيما القومية حصراً. والشواهد على ذلك كثيرة، ليس في العراق وحده، بل في يوغوسلافيا السابقة أيضاً، وفي أماكن أخرى عديدة. ويحدث ذلك عندما لا يمكن استخدام الدولانية، أو الجيواقتصادية، كواجهة أو كساتر لاستراتيجيتها الحقيقية، وأنها عندئذ، تتحرك منفردة. ولا يتوقف حكام الولايات المتحدة، عن التأكيد، أن التفوق الشامل لبلادهم، ضروري للإنسانية أيضاً، لأن ذلك مُوجَّه من أجل "ضمان الديمقراطية والسلام في العالم" ومن أجل حماية اقتصاد السوق".

لقد استترت المصالح الإمبريالية والرغبة بالقوة، للحكومات الأمريكية المتعاقبة، خلف قناع من الحجج الأخلاقية شبه الروحية، ببراعة منذ عهد الرئيس ويلسون، بشكل يجبر بقية العالم على الخضوع للطريقة الأمريكية في الحياة، تحت طائلة أن تصبح من يخالف ذلك "مُقَصِي في معسكر الأشرار" أو "البرابرة". في الواقع، لم يتوقف زعماء الولايات المتحدة مطلقاً، عن الاعتقاد بأنفسهم، أنهم حماة الديمقراطية وشعب الله المختار "الجديد، بحيث يتلقون مباركة المشروعات الدنيوية من قبل الإله. فضلاً عن ذلك، فهم مكلفون بمعاينة "الخونة الجدد" الرافضين الخضوع للديمقراطيات المثالية حسب اعتقادهم، ليس لمفهوم النظام الدولي الجديد من أثر، لكي نخضع لتغيير جوهر، لأنه راسخ على الدوام. وكما يوضح فرانسيس فوكوياما، يجب استمرار "العالم الحر" بعد انتصاره على الشيوعية، هذا العالم الحر، المعارض للكتلة الشرقية في الماضي، والذي تهدده اليوم "الدول السوقية أو الوضعية" وكذلك القوى والتحالفات المعادية للهيمنة الأمريكية: "الصين، روسيا، الهند... إلخ.

إن الإستراتيجية القومية المعلقة بالأمن، مصممة كاستراتيجية متكاملة، تمتزج فيها المصالح الاقتصادية والعسكرية والعلمية والسياسية والثقافية، وأبعد من لبوسها الأخلاقي. كما أن "الاستراتيجية الشاملة": في الولايات المتحدة، متلاحمة على نحو لافت للنظر، ومرتبطة حول ثلاثة محاور: استراتيجية اقتصادية عامة، وأخرى استراتيجية عسكرية، وأخيراً استراتيجية ثقافية عامة، حسبما يؤكد ذلك هيرفيه كوتو - بيجاري (Herve Couteau-Begarie) مدير معهد "الاستراتيجية المتكاملة" في فرنسا. كذلك، فإن الهيمنة على باقي العالم، والمسلم بها لواشنطن، حتى اليوم، قائمة على الانسجام في مجالات أربعة رئيسة للقوة الشاملة، وهي: قوة عسكرية، بالتأكيد، تسيطر الولايات المتحدة، على اليابسة، وعلى البحار، وبدونها - لا يبدو العالم قادراً على حل النزاعات المسلحة عالمياً. وقوة ثقافية وإعلامية، لكون "القوة الضاربة

الثقافية" لواشنطن، قائمة على السيطرة الكاملة تماماً، على وسائل الاتصالات "التلماتيك"، والتوابع الكوكبية، والقوة التكنولوجية. إذ ليس هناك من حاسوب في العالم، يستطيع أن يعمل دون اللوجستيك الأمريكي، ولا حتى إقامة الاتصال عن طريق الإنترنت بدونها، أخيراً، خصوصاً، قوتها الاقتصادية العجيبة، إذ تحتل المشروعات الأمريكية، المكان الأول عالمياً، في العديد من القطاعات النشاطية: "السيارات، المواد الغذائية والزراعية، الصناعات الجوية، المصارف التكنولوجيات الجديدة، السمعية والبصرية... إلخ. لكون الولايات المتحدة، البلد الأغنى في العالم، ثلث الإنتاج الخام العالمي". وبفضل دينامية مدهشة، بهذا الصدد، ونظام اقتصادي ليبرالي فعال إلى أبعد حد، بحيث "أنه يتجمع في السوق المالي الأمريكي، ما يزيد عن ثلثي التوظيفات المالية العالمية.

وتتطلق العقيدة الأمريكية الجديدة، المرتبطة بمفهوم الثورة في المجالات العسكرية، من استراتيجية لا تستند فقط على الحرب الاقتصادية، بشكل وثيق، بل على الاقتصاد، في الوقت نفسه، منذ الحرب العالمية الثانية. ومن هنا تقوم مصلحتها في "الحيو اقتصادية"، وفي الثقافة "الإعلامية" وحتى الإنسانية، ويوضح زبيغنيو برززنسكي (Zbigniew Brzezinski) بوجه خاص، ماهية "الاستراتيجية الشاملة" الأمريكية، بقوله: ممارسة القوة [الإمبريالية] الأمريكية، لتتحول إلى تنظيم متفوق للقوة، بتحريك المصادر الاقتصادية والتكنولوجية، ذات الشأن أو الخطر دون تأخير، لغايات عسكرية. مع إغراء غامض أو مبهم، في ممارسة طراز الحياة الأمريكية. كذلك، في دينامية تعترف بها النخبة السياسية (...). باختصار، ما من قوة تستطيع الإدعاء بأنها قادرة على منافسة الولايات المتحدة في المجالات الأساسية الأربعة: العسكرية، الاقتصادية، التكنولوجية، الثقافية، وهي التي تشكل القوة الشاملة (٤). وحتى إذا كانت الولايات المتحدة، إمبريالية وذات نزعة هيمنة، وليس لها مثل مطلقاً. لهذا لا تقتضي استراتيجيتها الشاملة. بالأحرى، الكليانية. تنظيماً سياسياً كليانياً، في بعض الاعتبارات، بالمعنى القطعي للكلمة، لأنه تنظيم متكامل في الواقع، ومتعدد الأشكال، وخصوصاً منتشر عبر أبعاده الثقافية، وبحيث أن الهيمنة الأمريكية، هي شكل جديد للإمبريالية "ديموقراطية استبدادية" أو "دكتاتورية من نموذج ثالث". وكلما ربح هذا الطراز، منطقة من العالم، خلق قرينة ملائمة، غير مباشرة، ومتوافقة مع الهيمنة الأمريكية، حسب الظاهر. هذا ما يوضحه برززنسكي، وتتطوي هيمنة الولايات المتحدة، على بنية معقدة، من المؤسسات المصممة من أجل إحداث التوافق (...) مع التفوق الدولي للولايات المتحدة، وهو تفوق وحيد، سواء من حيث أبعاده، أم من حيث طبيعته (...). ويتعلق الأمر بهيمنة نموذج جديد (٥). والولايات المتحدة، أصبحت الأمة التي لا غنى عنها، على الكرة الأرضية". ونشاهد ذلك، عندما يوضح الاستراتيجيون الأمريكيون، على طريقتهم، الفكرة المشهورة، عن "المصير الواضح" للولايات المتحدة، الراسخ على الدوام، بعمق، في العقلية الأمريكية، منذ أن أطلقها جون سوليفان (John Sullivan) عام (١٨٥٠)، وكما استطاع الرئيس ايزنهاور تكرارها بقوله: "من بين الأمم التي نذرت نفسها للعدل والحرية، قد خصنا القدر، بدور قيادة الأمم الأخرى" (٦). ويكمن طابع الهيمنة للولايات المتحدة في الثقة التي بحسبها "إن طراز الحياة أمريكياً". وتشكل المفاهيم الاقتصادية والسياسية الأمريكية، وحتى الأفعال القهرية، للولايات المتحدة: "غارات وضربات جوية، وتدميراً وقتلاً.. إلخ" حسناً في نظر الكثير من المولعين بالطراز الأمريكي. وكان ريتشارد نيكسون، يكرر القول: "يريد الرب أن تقود الولايات المتحدة العالم"، وأيضاً، كان روبرت كاغان (Robert Kagan)، يقول: "إن الهيمنة التي تمارسها الولايات

المتحدة، جيدة، بالنسبة إلى جزء كبير من سكان العالم" (٧). كذلك "تمتزج" مصالح الولايات المتحدة "الاقتصادية والاستراتيجية والايديولوجية... إلخ"، مع تلك الإنسانية نفسها، ومع ضمان "حقوق الإنسان". لكن تتجم، عن هذه الهيمنة المسيحية الشراسة العجيبة، حتى الغطرسة، لدى المسؤولين الأمريكيين، كذلك، الروح "مقومة الخطايا"، الصادرة عن رعاة البقر، دون تشكيك فيها. ويتحدثون بعد ذلك، عن جواب مشهور للجنرال مايك شورت (Mike short)، القائد الأمريكي للقوات الجوية، التابعة لمنظمة حلف شمالي الأطلسي، لمنطقة جنوب أوربا، عندما جاء للتفاوض مع ميلوسوفيتش (Milosevic) في تشرين أول عام (١٩٩٨)، إذ رَدَّ على سؤال للرئيس اليوغوسلافي، بقوله: "لدي الـ"ب" ٥٢" القاذفة في يد، والـ(U-2) (طائرات التجسس) في الأخرى، أمل أن تختاروا الأفضل" (٨). وهنا يجب إرجاع هذه القرينة الهيمنية الكونية الشاملة، وكذلك تحديد العدد الوافر من "الأعداء". من قبل الولايات المتحدة، أحياناً، لكون هؤلاء "الأعداء" حقاً من ذوي النزعة العدائية، لكن لا وزن لهم، على المستوى الدولي، مثل البوسنة والصرب، والعراق، والسودان، وكوبا، وليبيا سابقاً.. ولهذا، كانت واشنطن تبرر تنوع القوة، كبديل عن الدبلوماسية. في معالجة ما يواجهها من مشاكل. كما خلقت الدبلوماسية الأمريكية ظاهرة (العدو المفيد) لاستراتيجياتها، تحت اسم (العدو المرعب). وقد استخدمت واشنطن هذه الظاهرة، منذ زمن بعيد، لتسويق مشاريعها الهيمنية، أو/و، القيام بأعمال قهرية أو زجرية، لإقناع من ينافسها بأنها قادرة على تحقيق أهدافها. باستخدام كل الوسائل، حتى ولو بالقتل والدمار والتجويع والترجيع. وقد أعد الأمريكيون، استراتيجيات "غير مباشرة" تتجلى فيها الوقاحة والصلافة والذرائعية القصوى، بشكل لا مثيل له، سوى المثالية الكاذبة التي تنتزع بها، عندما تقرر تحقيق مطامعها. فكانت الشيوعية، العدو الحقيقي للولايات المتحدة، لكنها، لم تكن أقل فائدة بالنسبة لواشنطن، كذريعة، من أجل ترشيح وتبرير تقوقها، في أوربا، وفي العالم، وعلى نحو أفضل. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وإمبراطوريته، مباشرة، وهذا هو صدام حسين الذي سيلعب دور "العدو المفيد". ومن الأمور العجيبة أن ينكر الأمر نفسه، في يوغوسلافيا السابقة، فهذا هو سلفوفدان ميلوسوفيتش "جزار البلقان"، الذي كان يعامل بصورة حسنة نسبياً، حتى بداية أزمة كوسوفو، ولم تقم الولايات المتحدة بأي شيء من أجل القضاء عليه جسدياً. وكانت واشنطن أن اقترحت، أهداف الحرب، خلال عملية كوسوفو، على القوى الحليفة، و"جسدت الشر" باسم سلفوفدان، في الرواية البلقانية، كما كان الأمر بالنسبة لصدام حسين "المرعب". وتبقى هذه الأمور، المبررات الرئيسة لتدخل منظمة حلف شمالي الأطلسي، ضد الصرب، للحصول على الموافقات الدولية عند تحقيق استراتيجياتها. وهكذا، أصبح من عادة الولايات المتحدة شخصنة العدو، إلى أبعد الحدود. ثم القيام بعملية شيطنة لهذا العدو، وبالتالي إثارة الرعب، من ذلك العدو المرعب، ثم إدارة الإشاعات: "إنه على وشك أن يسحقنا في كل مكان"، وتوجه الأنظار، إلى من "سينقذنا" من الكارثة في الوقت المناسب تماماً، ولهذا، علينا أن نحترم حكامنا المدهشين، عندئذ. هكذا، يقول ناعوم شومسكي. إنها الطريقة المتبناة على مدى ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، وبالطبع، تستلزم مثل تلك الأمور، أعداداً ضخمة من المهارات والمتخصصين، خاصة، عندما تصبح "الفزاعة" المستخدمة أكثر صعوبة، فأكثر، كما كان عليه الحال. مع الاتحاد السوفييتي السابق. وهكذا، تتكرر شيطنة العدو. فطوراً يكون القذافي وعشيرته، من الإرهابيين الدوليين، وطوراً آخر الغرونادا ونورييغا، وآخر الساندينين المتوجهين إلى تكساس، وأيضاً تجار المخدرات، من الناطقين بالإسبانية الذين يخضعون لنورييغا" (٩). إن دلت هذه الأعمال على شيء، إنما تدل على وقاحة استراتيجية، إنها شيطنة مكشوفة، يطبق فيها قانون الأقوى، وهي ليست إلا التعابير الممزوجة (بالرغبة) الأمريكية في الهيمنة على

العالم.

إنّ ليست "دبلوماسية الغارات الجوية، والحظر، والقتل، والتدمير" التي يجري تنفيذها، في هذه السنوات الأخيرة، في أفغانستان وفي البلقان، وفي العراق، وفي الماضي القريب، في غرونادا، وفي بنما، وفي ليبيا، وفي السودان، ... ليست ظواهر جديدة، في السياسة الأمريكية، فالقادة الأمريكيون، لا عمل لهم إلا متابعة السياسة التقليدية: "العصا الغليظة" التي دشنها الرئيس ويليام ماكنلي (William McKinley)، منذ عام (١٨٩٨)، أثناء الحرب ضد إسبانيا، من أجل السيطرة على كوبا. ثم أصبحت سياسة رسمية، صدرت عن الرئيس تيودور روزفلت (Theodor Roosevelt) منذ مطلع القرن العشرين. وتستهدف (الدبلوماسية القهرية) المُغلَّقة بالتدخل الأمريكي، إعادة الصواب للأمم العاصية، باستخدام القوة، ضد كل من يقف في وجه الهيمنة الأمريكية، ولديه قابلية في أن يتسبب في إزعاج اقتصادياتها ومصالحها الاستراتيجية. وهي تستند على تبريرات أخلاقية واقتصادية في آن واحد. فالأسباب الأخلاقية قائمة على حجة التفوق الحضاري الشمالي، التي يقتضي القيام "بدور الهيمنة المتسامحة" باسم حقوق الإنسان، باسم المجموعة الدولية، وباسم الديمقراطية الليبرالية. وسيصبح أمر فرض القيم الأمريكية على العالم أجمع، أمراً مشروعاً، عندما وضع روزفلت الأسباب الاقتصادية للولايات المتحدة، لتصبح الأكثر شأنًا، والمُغلَّقة بالأسباب الإنسانية فقد كتب المؤرخ جوك سورو (Jacques Seurot): "أصبحت الولايات المتحدة بحاجة إلى مستهلكين خارجيين، من أجل امتصاص ما طُرح من إنتاجها الضخم، منذ نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن تم احتلال الغرب الأقصى [والتخلص من المسألة الهندية، للهنود الحمر، عن طريق إبادة الجماعية، تلك الإبادة التي جرى التطويل لها بصورة مجوقة] (١٠). منذ جرى، التقدير، أن المعامل الأمريكية، تنتج أكثر من حاجة الشعب الأمريكي، الذي لا يستطيع استهلاك ذلك الإنتاج". وبَرَّرَ الاقتصادي الإنجليزي المشهور، السير ويليام بيفريدج (Sir William Beveridge)، روح الهيمنة الأمريكية بالتالي: "تنتج التربة الأمريكية، أكثر مما يمكن استهلاكه، وإن القدر خطط لنا سياستنا. بحيث يجب أن تكون التجارة الدولية تجارتنا. وستكون كذلك. وأنا سنقيم مكاتب صرافة تجارية على سطح الكرة الأرضية، كمراكز لتوزيع الإنتاج الأمريكي. وأنا سنغطي المحيطات ببواخرنا التجارية (...). وستخرج مكاتب الصرافة التجارية التابعة لنا، من المستعمرات الكبرى، لنشر علمنا، والمتاجرة معنا. وستتبع مؤسساتنا علمنا على أجنحة التجارة والقانون الأمريكي، والنظام الأمريكي، والحضارة الأمريكية. وسيصبح العلم الأمريكي مغروساً على كل الشواطئ، وفي مأمن من العنف والظلامية. وإن هذه الملحقات، من الرب؛ تجعلها رائعة وساطعة في المستقبل" (١١). ويبين زيبينيو برزنسكي، وبلغه أكثر عصرية، لكنها أكثر وضوحاً وإمبريالية، أنه "إذا كان يتوجب أن يختفي التفوق الأمريكي، فإن ذلك سيؤدي، إلى نهاية السلام في العالم، والنظام الدولي قطعاً". ويضيف "إن البديل الوحيد للقوة الأمريكية، هو الفوضى الدولية (...). في النظام الدولي الحالي، من واقع خطورة النتائج التي يمكن أن تحدث في حال انسحاب القوات الأمريكية من كوريا الجنوبية، ومن الخليج العربي، أم من العراق، ومن البوسنة، دون الحديث عن دور منظمة حلف شمالي الأطلسي. وهذه أمور لا تعقل عملياً. ويتجلى ذلك، بأنه لا توجد قوة أخرى ذات أهمية، موازية لقوة الولايات المتحدة، ولعب دور مماثل لدورها، في الوقت الحاضر" (١٢).

وتكمن قوة الاستراتيجية الشاملة، للولايات المتحدة، في هذا الميل لدى الأمريكيين، الذي ينطوي على

الرغبة في وضع قناع على نواياهم العجيبة، ورغبتهم بالقوة، خلف حجج أخلاقية أو مسيحية بالأحرى. وأنا نجد هنا

المسألة الجيوسياسية المركزية، للتصورات، مثل (قوات قابلة للتعبئة) و(مشروعيتها)، وذلك حسب العمل السياسي. ومع أن برزنسكي لم يكن من أصول أنجلو - ساكسونية، لكنها أوروبية، كما تماثلته، وزيرة خارجية الولايات المتحدة، في عهد كلنتون، مادلين أولبرايت. فهؤلاء الفاتحون، من البورتينانو - البروستانت، يرتبطون بالمصالح الاقتصادية الأمريكية، مع حماسة دينية، من طراز مسيحي، مع أن أصولهم يهودية، ويدعون أن مهمة الولايات المتحدة، "حضارية، سلمية، ديمقراطية". وقد وضحت أولبرايت، هذا الأمر، بتاريخ (٢٠) أيار (١٩٩٩) أمام مجلس الشيوخ، خلال كلمة موجزة، حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة، بقولها: "إن هدف الولايات المتحدة، هو الحرية، فنحن الأمريكيون، نؤمن بالقانون، ونعلق بالسلام. وإننا نتوخى الرفاه، ونعمل مع الآخرين، من أجل أن نقرب الشعوب إلى المبادئ الأساسية للديمقراطية والقانون والأسواق المفتوحة. إننا نقوم بذلك، لأنه هو العدل. لكن أيضاً، إن من الأمور الأساسية، إقامة حماية أفضل لمصالح شعبنا وأمتنا، أحد الأهداف الأولى لسياستنا الخارجية، وتشجيع اقتصاد عالمي سليم، يتلقى فيه النبوغ والإنتاج، الأمريكيان، ما يستحقانه من الاحترام والتقدير، اضطلعوا معنا، دون أن تشكوا منا، لكن استقبلونا الاستقبال الذي يليق بنا، من الاحترام والتقدير، عند القيام بدور الزعامة التي أقامها أسلافنا".

السيطرة على أوروبا، متابعة للجيوسياسية الأنجلو - ساكسونية

يوضح برزنسكي، في كتابه "رقعة الشطرنج الكبرى" "أن الرهان الرئيس بالنسبة للولايات المتحدة، هو السيطرة على الأوراسيا"، هذا المجال الرحب، انطلاقاً من أوروبا الغربية، حتى الصين، عن طريق آسيا الوسطى. أيضاً، تعبیر الولايات المتحدة، آسيا الوسطى، والأقطار النفطية والغازية المسلمة، من بلدان الاتحاد السوفييتي السابق، كمنطقة استراتيجية، الأكثر أهمية في العالم. ويجب على الولايات المتحدة، أن تقوم بكل شيء، في النتيجة، من أجل أن تبقى القوة المهيمنة الوحيدة، على القارة الأوراسية". ويوضح مستشار الرئيس الأمريكي، السابق كارتر، أنه من الأمور الجوهرية، أن تتابع استراتيجية تستهدف توازناً لمجمل قارة أوراسيا، حيث أهميتها حاسمة، لأن جميع الدول النووية المعلنة، ما عدا واحدة، هي فيها. وإذا أخذنا هذه الأمور جملة، فإنها تمتلك جميع أبعاد القوة، لتتجاوز الولايات المتحدة" (١٣). ويدعو هذا الجيوسياسي الكلاسيكي، برزنسكي، إلى أنه، انطلاقاً من هذا التفوق على هذه القارة الأوراسية، سيؤدي الأمر، إلى الهيمنة الشاملة). وإذا كان من المؤكد للولايات المتحدة، كقوة خارجية بالنسبة للأوراسيا، فإنها من هنا، تعود القوة الأولى، بل الوحيدة، العالمية الأعظم. بفضل حضورها المباشر في ثلاث مناطق محيطية من القارة الأوراسية: "موقع يمتد شعاعه في العمل، حتى دول المنطقة القارية الخلفية، إلى الواقعة، خلف السواحل. مع ذلك تبقى (الأوراسيا) المسرح الوحيد الذي توجه عليه قوة منافسة للولايات المتحدة، يمكنها أن تبرز، حسبما هو محتمل، ومن هنا، مفتاح جميع العقائد الجيوسياسية والجيواستراتيجية الشاملة، للولايات المتحدة، على المستوى الكوني، تتكون من تعزيز نقاط الانطلاق لها، في أوروبا الغربية والوسطى، إلى مدى ما، في محاولة لتصنيف استراتيجيتها بدرجات مختلفة، وذلك بإقامة كتلة أوروبية - أطلسية موحدة، ثلاثية الهدف، من أجل تحييد بناء الوحدة الأوروبية المنافس الجيواقتصادي القوي للولايات

المتحدة. إنها (منطقة مرنة) لكونها أكثر قدرة على التحرك، في الجبهة الأوراسية. ولكون آسيا (المنطقة الصعبة) الرئيسة في العالم، والمنافس الجيواقتصادي، مستقبلاً، فإن السيطرة على الطرق الجديدة للطاقة، في آسيا الوسطى، والشرق الأوسط، والقوقاز هي الهدف الثالث، الذي يتضمن استراتيجية إسلامية خاصة، وفصلاً نسبياً للأعضاء الآخرين، عن الحضارة الغربية الأوروبية. وهناك العنصر السلافي، بصورة رئيسة، الأرثوذكسي، المتاخم للمنطقة الإسلامية الأوروبية. الآسيوية، وهي المنطقة الأكثر أهمية في العالم".

في الحقيقة، إن فكره برززنسكي، يسجل ضمن التقليد الجيوسياسي البريطاني، ويبرز التطور التاريخي. السياسي في العالم. نتيجة الخصومات بين (القوى القارية) و(القوى البحرية)، في المياه الدافئة. وقد نشر أبو الجيوسياسية الكلاسيكية، الجغرافي الإنجليزي هالفورد جون ماكندر (Halford John Mackinder) (١٨٦١ . ١٩٤٧).

النظرية العامة في مجال التفرع الثنائي للنزاعات (بر/بحر) فقد نشر في الجريدة الجغرافية عام (١٩٠٤)، محاضرة داوية، تحت عنوان: "المحور الجغرافي للتاريخ"، بيّن فيها وجود (محور أو قطب عالمي)، أو منطقة (محور)، تقع في قلب أوراسيا، وتشتمل على روسيا الحالية إجمالاً، والصرب والقوقاز، وجزءاً من أوروبا الشرقية، وهي مقافز، غير قابلة للإحاطة، للسيطرة على القارة الأوراسية. ويبين العالم الجيوسياسي هذا، نظريته حول المنطقة (المحور) التي يسمها قلب الأرض (Heart land) (١٤).

ويقع هذا القلب، في الأوراسيا. ثم نشر ذلك في كتابه، تحت عنوان، أفكار ديموقراطية وواقعية، عام (١٩١٩). أمّا ما سماه "الهلال الهامشي الداخلي"، فهو الهدب الغربي والجنوبي. الشرقي من قلب الأرض، أو منطقة الاتصال، بين الأرض القارية والبحار: شبه الجزيرة الآيبيرية، إيطاليا، البلقان، اليونان، تركيا، الشرق الأوسط والأدنى، الخليج العربي/الفارسي، الباكستان، الهند، اندونيسيا، الجزر الصينية الجنوبية.. إلخ. ويقع على أطراف "الهلال الهامشي الداخلي" أرخبيلان أساسيان: هما بريطانيا العظمى واليابان. وقد عُمدت تحت اسم "أرخبيلات الجزر الخارجية" لأنها تبلغ قمتهما بالسيطرة على البحار.. أخيراً، توجد حول هذه "الكتلة المحور" وأطرافها البحرية "الجزر الكبيرة" أمريكا، إفريقيا، اندونيسيا، استراليا. وهي تشكل (الهلال الجزيري الخارجي) مع منطقة توسطية في الوسط، مشكلة من الصحراء. ويخشى ماكندر أن تتوسع منطقة (المحور) (قلب الأرض)، نحو الأطراف الخارجية، وبالتالي، يتم التوصل إلى السيطرة، على القارة الأوراسية كلياً، بسبب مدى مصادرها الضخمة، وبفضل تطوير الطرق والسكك الحديدية، ثم تتوسع على الأثر، بغزوها مجمل البحار واليابسة، للكرة الأرضية. فماذا سيحدث، إذا توحدت القارة الكبرى سياسياً، في يوم من الأيام، وأصبحت قاعدة لأرمادا لا تقهر؟ (١٥). هكذا يتساءل الجغرافي البريطاني. ويعتقد بأنه من المحتم، عندئذ، أن تتحالف (القوى الجزيرية) مع (الهلال الخارجي)، مع تلك التي في [الهلال الهامشي الداخلي]، لمنع أن تلعب قوة وحيدة، بهدف "السيطرة على الأوراسيا". ومنظمة حلف شمالي الأطلسي، هي ذلك التحالف، هذا ما يوضحه الجنرال غالوا، وهنا أيضاً، هو أساس العقيدة الاستراتيجية للولايات المتحدة نفسها، في منطقة الأوراسيا، خلال الحرب الباردة أيضاً، وكذلك بعد سقوط جدار برلين. واعتبر ماكندر، أن الأسوأ في التهديدات الممثلة بالاندفاع نحو الشرق، تأتي من قبل ألمانيا، غليوم الثاني في المرحلة الأولى، ثم حتى من قبل التحالف القاري الروسي. الألماني حسبما هو محتمل.

وهناك، سيناريو هان اثنان قابلان لأن يحدثا الوحدة الجيوسياسية في القارة الكبرى، يضعان حداً للتفوق الانجلو . ساكسوني دولياً، إذ صرح ماكندر في عام (١٩١٩)، أنه يجب إقامة (حزام من الدول) دول أوروبا الشرقية، قابل لأن يشكل منطقة سدّ بين ألمانيا وروسيا، من أجل تجنب أن تدعو ألمانيا النازية إلى الوحدة في (منطقة المحور)، باستخدام السلاح. لكن ماكندر، أعاد تحديد مفهوم قلب الأرض، في عام (١٩٤٣)، بسبب الاضطراب الإيديولوجي والجيوسياسي، الذي أحدثته، الثورة البلشفية: "إنه الطرف الشمالي والداخلي من الأوراسيا": بعبارة أخرى، الاتحاد السوفييتي السابق، أو مجموعة الدول المشكلة من الدول المستقلة حديثاً حالياً، مع بروز باتجاه أوروبا الوسطى والشرقية، على نحو خفيف. ويظهر الاتحاد السوفييتي الشاب آنذاك كـ"قوة قارية" في غاية الجودة، بسبب مطالباته العالمية، فهو أوسع وأرحب من ألمانيا، وأكثر قوة، وأكثر رغبة، في التقدم والتوسع نحو أوروبا الشرقية والبحار الدافئة أيضاً، من أجل السيطرة على مجمل القارة، وطرد (القوى البحرية) منها. ويلخص ماكندر الرهان في صيغة مشهورة، بهذه العبارات: "إن من يسيطر على أوروبا الشرقية، يتحكم في (قلب الأرض)، ومن يسيطر على (قلب الأرض) يتحكم في (جزيرة العالم)، ومن يسيطر على (جزيرة العالم) يتحكم في العالم". وقد شكلت أوروبا الشرقية، في تلك الحقبة، المناطق الاستراتيجية، الأكثر أهمية في العالم: ليس فقط بالنسبة لروسيا، بل بالنسبة إلى أوروبا الوسطى والشرقية. فهي الجسر، ومفتاح القنطرة في الوحدة المحتملة للقارة الكبرى. ويفهم من ذلك، على نحو أفضل، لماذا بذلت بريطانيا العظمى، ثم الولايات المتحدة، بعدها، وهما قوتان بحريتان، وعلى الدوام، جهوداً جبارة، من أجل حرمان روسيا من عمقها الاستراتيجي، ومن منافذها، نحو البحار الدافئة في القوقاز، وفي آسيا الوسطى، وفي البلقان.

أما المُنظّر الأنجلو . ساكسوني الكبير الآخر، في مجال نموذج أرض/بحر فهو البروفسور، في العلوم السياسية، الأمريكي نيكولاس سبيكمان (Nicholas Spykman)، الذي يعرض في كتابه جغرافية السلام الصادر عام (١٩٤٤) فكرة (المنطقة المحورية) الحقيقية التي تدور حولها المنافسات بين القوى البحرية والقارية، وهي الأرض (المحيطية) (Rimland). ويحدد هذا التصور الرئيس الثاني الكبير، بالمنطقة الوسطية، الواقعة بين (قلب الأرض) و"البحار المشاطئة". وهذا مساوٍ لفكرة سبيكمان، بخصوص الهلال الهامشي، الداخلي، لماكندر.

لن يكون للاتحاد السوفييتي، الوسائل، ما دام لم ينجح بالاستحواذ على الأرض المحيطية، حسبما يعتقد سبيكمان، وكذلك الجزر الخارجية، وكان سبيكمان، أكثر تفاؤلاً من ماكندر. فكان يفكر أنه إذا أظهرت القوة البحرية، قدرة على تنظيم ودعم شعوب المنطقة في "الأرض المحيطية"، في سبيل حجز أو محاصرة الزحف نحو البحار، من قبل قوة قارية رئيسية، أو القيام بغزو العالم، من قبل قوة من (قلب العالم) فستبقى مثل هذه الأمور نظرية، وصعبة التحقيق. وبالإعلان عن القاعدة، الخاصة بالمنافسة بر/بحر، أي التأكيد على الفكرة الأساسية، في استراتيجية منظمة حلف شمالي الأطلسي، القائلة: "من يهيمن على الأرض المحيطية، يهيمن على الأوراسيا، ومن يهيمن على الأوراسيا يضع مصير العالم بين يديه". وينكر سبيكمان، أن نصر الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، قد تحقق على الشواطئ، وعلى اليابسة، في الأرض المحيطية، أو (الأرض المؤطرة)، حسب نظرية سبيكمان، متضمنة هنا، القوى القارية، والتي لها نفوذ كبير، في مجال إعداد السياسة الخارجية الأمريكية (١٦). وهي في الواقع أصل عقيدة الولايات المتحدة والمعروفة، باسم (الاحتواء) التي أعدتها واشنطن، خلال حقبة الحرب الباردة. إن

تلاحم (المنطقة المؤطرة)، يشتمل على الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وآسيا الوسطى. ومن المفترض أنها تشتمل على الأهداف التوسعية، العائدة إلى قلب الأرض، والتي كانت تتطابق بين الثوابت الجيوسياسية مع الإيديولوجيات المتنوعة، في نطاق الحرب الباردة. فقد وجب على روسيا أن تصبح في حالة (احتواء)، ليس فقط، من أجل وقف التوسع الإيديولوجي الثوري السوفييتي، بل بسبب المطالب الخاصة بالهيمنة الروسية القارية، بوجه خاص. حيث حاول الاتحاد السوفييتي أن يتوسع في أوروبا الوسطى والشرقية ونحو الجزر الخارجية "آسيا، أمريكا اللاتينية، إفريقيا... إلخ" من أجل "إضعاف المواقع ونقاط الاستناد الخاصة بالقوى البحرية" لكونها الممثلة "للقوى الرأسمالية والاستعمار". من جهة أخرى، كان الهدف، تشكيل سلسلة من المواقف والأحلاف، مع البلدان الواقعة في "المنطقة المؤطرة". من أجل احتواء قلب الأرض، المنطقة الروسية السوفييتية، وهو أصل نظرية منظمة حلف شمالي الأطلسي. ويلاحظ ذلك، في المعاهدة الأطلسية. وبهذا، ترد الأحلاف، الخاصة بـ(القارة الكبرى). على قلق سبيكمان.

وتستند عقيدة الاحتواء، ليس فقط على أعمال ماكندر وسبيكمان المشار إليهما، بل أيضاً، على أعمال البريطاني هومر ليا (Homer Lea) وأعمال الأمريكيين، أمثال كولن س. غراي (Colin s.Gray) وجورج كينان (Georges Kennan)، وجون فوستر دالاس (John Foster Dullaes). إذ يؤيد ليا، فكرة المعارضة بر/ بحر. في مؤلفه، يوم الساكسونيين (The day of the saxons)، الذي عرض فيه أسس الاستراتيجية البريطانية، بشأن نظرية (الاحتواء)، في المنطقة الممتدة من البوسفور إلى الإندوس (Indus). ويشير أنه يتوجب، أن لا يستولي الروس على البوسفور والدرديل بأي ثمن. أو أن يسيطروا عليهما، بطريقة غير مباشرة. وقد جرى تطبيق تلك النظرية، بالممارسة الفعلية، خلال حرب القرم. وإن ما يسمى اليوم، بالغرب "بريطانيا وفرنسا"، كان حليفاً لتركيا، ضد روسيا. وهكذا، فكان رهان النزاع، يدور في البحر الأسود وبحر آزوف، للسيطرة على المضائق التركية. وكان أن حدث القيام بكل شيء من أجل منع بطرسبورغ من الاستقرار في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، في حين كان من أهداف الإمبراطورية القيصريّة الأرثوذكسية "تحرير الأرض المقدسة" مع خرق المضائق التركية، واستعادة القسطنطينية. وكذلك، فُرض على الروس، أن لا يجتازوا القوقاز، أو خط طهران. كإبول، حسب معاهدة باريس عام (١٨٥٦). وأخذ القلق يساور جورج كينان، الذي أصبح مساعداً لسفير الولايات المتحدة، أفريل هاريمان (Averell Harriman) في موسكو، عندما أصبح الاتحاد السوفييتي قوة عسكرية هائلة بعد عام (١٩٤٥) وأشار حينذاك، إلى أنه، يتوجب وقف تقدم السوفييت نحو قلب الأرض، واقتراح تطبيق مبدأ (الاحتواء) على موسكو، عن طريق إعادة تجميع بعض بلدان المنطقة المؤطرة، تحت زعامة الولايات المتحدة، وذلك خلال الفترة (١٩٤٦ - ١٩٤٧). بعبارة أخرى، قبل انقلاب براغ بتاريخ "٢٣ كانون الثاني ١٩٤٨). وأشار إلى وجوب تنوع نقاط الاستناد للولايات المتحدة، بالتوجه نحو قلب الأرض، أي اتباع مفهوم سبيكمان، الخاص بالمنطقة المؤطرة. كما أشار إلى الضعف الأوروبي، آنذاك، وأكد أنه يجب تحييد أوروبا، إلى الشرق، ولو لزمنا ما على الأقل (١٨). ويجب أن لا ننسى أن ألمانيا واليابان حصرتا الإمبراطورية الروسية ع_____ام (١٩٠٥)، في طرفيها. كما تشير عقيدة الاحتواء، أن السيطرة على الجزيرة العالمية، سيؤدي إلى السيادة، على باقي العالم، طبقاً لرأي كولن س. غراي، مؤلف كتاب الجيوسياسية في العصر النووي (Geopolitique de l'ere nueleare) كذلك، حسب ماكندر. فهما يضعان منطقة النزاع الرئيسة، في

(المنطقة المؤطرة)، كما هو الحال بالنسبة لسببكم، وهو الهدف السوفيتي لكون هذه المنطقة، ضمن مدى منع قوى البحر. أي الولايات المتحدة في تلك الحقبة. من العبور إلى القارة الأوراسية، وذلك بإقصاء كل موطئ قدم أمريكي في البلدان الساحلية. ومن المؤكد أن جميع شعوب (المنطقة المؤطرة)، لم تحسم أمرها، بعد، من الناحية الجيوسياسية. لكن سيؤثر فشل أي من الأمريكيين أو السوفييت، في جزء من (المنطقة المؤطرة) على الأماكن الأخرى. فهل كان الأمريكيون يقاتلون، وهم في حالة تراجع، بعد هزيمة الولايات المتحدة، في فيتنام، هذا ما يتساءل عنه غراي، الذي كتب كتابه العمود السابق (EX-ANTE)؟ ويرى ذلك (النقطة) طبقاً لنظرية الدومينو. ويعلق بيير ماري غالوا، بقوله: "لم تكن سياسية الولايات المتحدة الخارجية خرقاء على الدوام. فقد وقعت ونفذت معاهدة واشنطن، وأنشأت منظمة حلف شمالي الأطلسي، ولازمتها العسكرية، وإرساء (المنطقة المؤطرة) تحت سيطرة الغرب بقوة. ويعني ذلك الدفاع عن كوريا الجنوبية وتعزيز تواجدنا في دولة صديقة، إلى الشرق من أوراسيا. كذلك فإن مساعدة فرنسا في فيتنام. بعد الهزيمة السياسية. كانت تستهدف المحافظة على وجود حليف في المنطقة المؤطرة، في الجنوب. الشرقي الآسيوي. كما أن الولايات المتحدة، لا تستطيع الاستغناء عن المحافظة على مواقع وطيدة، عن طريق حلفاء مفروضين، في محيط قلب القارة الأوراسية، باتباع السياسة نفسها، أي باستخدام موانئ المساعدة المشتركة المعقودة بين واشنطن، وعواصم عدد من بلدان (المنطقة المؤطرة). وهنا، يتدخل جون فوستر دالاس، المرشد الكبير في عقيدة الاحتواء، والواقع أن هذا السياسي. قد ارتبط اسمه بتعبير (الاحتواء)، عندما كان ينادي بطرد روسيا السوفيتية إلى مناطق محصورة. ولم يكن هذا الأمر، سوى، استعادة لتطبيق نظريات أسلافه، خاصة (جورج كينان)(١٩). والأمر يتعلق بتطويق الاتحاد السوفيتي عن طريق المنطقة المؤطرة، والجزر الخارجية إلى الجنوب وإلى الشرق، من قلب الأرض. وذلك بتنفيذ سياسة أحلاف متلاحقة، من بريطانيا العظمى، إلى اليابان، من أجل محاصرة (إمبراطورية الشر) آنذاك، ولكن يتكفل البرد والصقيع بشمالي (منطقة المحور) بذلك، حسب رأي هذا السياسي الأمريكي المتعصب. ويقدر فوستر دالاس، أنه بتشكيل هذه (الموانئ المساعدة المشتركة) أي "منظمة حلف شمالي الأطلسي، ومنظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا (Otase) والحلف المركزي (Cento).. إلخ، فإنه يتم الحصول على حزام يحيط بالاتحاد السوفيتي، على طول أهدابه الشاطئية بالكامل. لكن لم يرض عن ذلك الشعب الصيني. وكانت الشوكة الوحيدة في خاصرة تشكيل ذلك التطويق. وهكذا، تبقى الصين، اللغز الاستراتيجي الرئيس، الأكثر إرباباً على مدى. من روسيا، بسبب كتامتتها وقوتها، في آن واحد، فهي كتيمة ومحورية.

فإذا بدلنا النظرية الخاصة الكلاسيكية، بالاحتواء، على المسرح الجيوسياسي المعاصر، يجب على واشنطن، توقع ظهور قوة أوراسية قابلة أن تضع "هيمنتها الشاملة" موضع تساؤل مجدداً. كما يجب الحصول على موقع مهيمن بأي ثمن في الأوراسيا. إن صعود القوة الصينية في آسيا، مما يتوجب حصرها في المستقبل. مع أنها مستحيلة في الوقت الحاضر. عندئذ، على الولايات المتحدة، التخلي عن الهيمنة على مجموع القارة الأوراسية، والتركيز، على جزئها، الغربي والأوسط "الاتحاد الأوربي، بما في ذلك أوروبا الوسطى والشرقية، والبلقان والقوقاز وآسيا الوسطى" إذن تعتبر واشنطن، أن لها أفضليتين على المدى القصير: الأولى، تخليد تبعية التحالف الأوربي (الغربي) "منطقه مؤكدة"، وذلك بالامتداد نحو المنحدر المحيطي، وداخل الإسلام الغربي" عن طريق المنطقة المؤطرة الجديدة، حيث يبقى الجهاز

العسكري الاستراتيجي المشترك، منظمة حلف شمالي الأطلسي. ومن هنا أيضاً، استمرار الولايات المتحدة في ممارسة الضغوط على بروكسل من أجل ضم تركيا للاتحاد الأوروبي. ومن هنا أيضاً، جاء توسيع منظمة حلف شمالي الأطلسي، نحو أوروبا الوسطى. وخصوصاً تعزيز التعاون بين تركيا والولايات المتحدة "عن طريق الاتفاقيات الاستراتيجية التي تسمح لأنقرة الحصول على التكنولوجيات العسكرية المتطورة، من الولايات المتحدة.

ويكشف دانييل بن سعيد، في كتابه: (حكايات وأساطير عن الحروب الأخلاقية) عن الأهداف الحقيقية لعملية قوات الحلفاء في يوغوسلافيا السابقة، ويظهر، كيف وضعت واشنطن يدها على منطقة استراتيجية هامة في العالم، تحت غطاء (الحماية الدولية) و"حقوق الأقليات"، وكيف أعلنت أن عليها السيطرة، من أجل منع كل احتمال لعودة روسيا إلى أوروبا والبحر الأبيض المتوسط، ويتطابق هدف الولايات المتحدة، مع الجيوسياسية الأنجلو . ساكسونية، في القرن التاسع عشر. والتي تتكون من تعزيز استمرار الجيواستراتيجية (بين جزئها الأوروبي) وذلك الذي شرعت بإقامته في القوقاز، وفي آسيا الوسطى، في مواجهة الخصم الجيوسياسي التقليدي نفسه: روسيا، لا أكثر، ولا أقل. ويتعلق الأمر بصورة إجمالية، كما كان ينظر جون فوستر دالاس "إبعاد أو طرد" روسيا والعالم الأرثوذكسي. من "كل معيار غربي السمة". كما ارتأى أن التعلق بالطرز السياسي والجيوسياسي المتبع في الولايات المتحدة، غير كافٍ، لتكون محسوبة على واشنطن. فروسيا تبقى في نظر بعض ساسة الولايات المتحدة، مهددة لمصالح الولايات المتحدة وقيمها. كما يعتبر هؤلاء، أن منع بناء دفاع أوروبي مستقل، يعتبر هدفاً استراتيجياً لها. ويوضح برزنسكي الأوامر الجيواستراتيجية الثلاثة للولايات المتحدة، وباستخدام مصطلحات فظة، وتتلخص في: تجنب تواطؤ الأتباع للإضرار بمصالح الولايات المتحدة. ثم المحافظة على حالة اعتماد الأمن الأوروبي عليها. وأخيراً منع البرابرة من تشكيل تحالفات هجومية ضدها (٢٠).

في الواقع، لم يغير انهيار الاتحاد السوفييتي، من الثوابت الجيوسياسية الأساسية، للولايات المتحدة، خصوصاً في البلقان، حيث أضحت روسيا حاضرة، بعد سقوط جدار برلين، وأكثر مما كانت عليه في حقبة الحرب الباردة، وكون التشكيل العسكري الدفاعي ليوغوسلافيا السابقة. قد تحول ضد الاتحاد السوفييتي السابق، إلى درجة أن تشوش بصورة خطيرة في عهد نيتو. أيضاً استهدفت هجمات منظمة حلف شمالي الأطلسي على يوغوسلافيا السابقة، تحدي ومعارضة (عودة) روسيا إلى هذه المنطقة بصورة رئيسية، باسم حماية الأمم السلافية، والأرثوذكسية الأخوات. وبهذا، أليست الولايات المتحدة في طريقها لإقامة سياسة (احتواء) جديدة لروسيا، بالاعتماد على عدد معين من الحلفاء، لحصر روسيا في بعض المناطق؟. والسؤال يستحق أن يطرح لأن واشنطن تعتمد على التشكيل العام لمنظمة حلف شمالي الأطلسي، من بين الأمور الأخرى، ضمن ثلاث دوائر من التحالف الكبير، لمقاومة الروس في البلقان، وفي القوقاز، وفي الشرق الأوسط وفي آسيا. وتتضمن الدائرة الأولى: ألمانيا . اليابان، تركيا. والثانية: شرق أوسطية، من مصر، والعربية السعودية، والكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، والباكستان. أما الثالثة: فهي في أفريقيا، من نيجيريا، جنوب إفريقيا، وبلدان الغرب الأفريقي [أوغاندا، كينيا، أثيوبيا]. ويؤكد الجيوسياسي، والزعيم الشيوعي الروسي، غينادي زيوغانوف، في بحثه المعنون [روسيا بعد عام ٢٠٠٠]، رؤيا جيوسياسية لدولة جديدة، في مجال الصراع الروسي . الولايات المتحدة، من أجل السيطرة على قلب الأرض. إذ يقول: "سيقرر المخرج من هذا الصراع، نوع العالم، وستحاول الولايات المتحدة، القضاء على

كل نفوذ روسي، بجميع الوسائل، خاصة في منطقة النواة الأوراسية" (٢١). أيضاً هل ستستخدم الولايات المتحدة، استراتيجية احتواء جديدة، خالية من كل إيديولوجية، تستهدف التقليل من نفوذ موسكو على مجموعة الدول المستقلة، حتى الحد الأدنى، وإبعادها عن البحار الدافئة، لا سيما الأسود وقزوين. وطبقاً لرأي هنري كيسنجر: "إن تفوق قوة وحيدة، على أحد الفلكين الأوراسيين، الكبيرين: أوروبا وآسيا، سيستمر في تقديم تحديد جيد للحظر الاستراتيجي الذي ترغب فيه الولايات المتحدة، مع حرب باردة، أو تعلن بدونها. وسيكون لكتلة من هذا النوع، تأثير كبير، على المستوى الاقتصادي، حتى إذا لم تعلن القوة المهيمنة، عن النوايا السيئة (...) وهل يجب أيضاً تشجيع روسيا لكي تركز جهودها على أراضيها الوطنية: على منطقة تمتد من بطرسبورغ إلى فلاديفوستك، وليس هنالك من معاناة أمام رهان الاحتواء" (٢٢).

ولم يستبعد استراتيجيو الولايات المتحدة "الأخطار التي يمكن أن تشع أمام الاستراتيجيين الأوروبيين، في حال صعود الروح القومية الروسية من جديد، أو بذل جهود لضم الجمهوريات المستقلة حديثاً ثانية إلى روسيا، مثل أوكرانيا، وبيلاروسيا، وحتى الجمهوريات الأخرى، هذا ما جاء في تقرير للبنتاغون . وزارة دفاع الولايات المتحدة . عام (١٩٩٢) (٢٣). ويؤكد هذا التقرير أيضاً، أن الأسلحة النووية في الولايات المتحدة، ستستمر لتكون موجهة إلى الأهداف السياسية والآلة الحربية الروسية، "لأن روسيا، ستبقى القوة الوحيدة في هذا العالم القادرة على تدمير الولايات المتحدة" (٢٤). وتعرض هذه الوثيقة، على الأمم التي كانت تابعة إلى حلف وارسو سابقاً، أن تعيد تنظيم نفسها ضد روسيا بكل بساطة. وعلى الولايات المتحدة "مواجهة نشر معدات بهدف إجراءات أمن قومية، مشابهة لتلك التي جرى تبنيها، بحجة الدفاع عن العربية السعودية والكويت، ودول المشيخات النفطية الأخرى، وتنتشر في أوروبا الوسطى والشرقية". ويبدو أن ذلك قد تم الإعلان عنه في الوقت الحاضر، بشأن أوروبا الوسطى والبلقان، وفي أوراسيا، إذ افترض أن ذلك ما يهدف إليه توسيع منظمة حلف شمالي الأطلسي الجاري حالياً، وفي توسيع جهازها الملحق باسم الشراكة من أجل السلام، وتستغل الولايات المتحدة، في الواقع، التراجع، في الدور الروسي الدولي، من أجل غزوها لمجالات نفوذ موسكو السابقة، شيئاً فشيئاً، "حتى قربها القريب". لا سيما، بالاستراتيجيات التي تشكلها للمناطق التي توجد فيها الاحتياطات الهيدروكربونية القابلة لأن تقلل من اعتماد الولايات المتحدة، والغرب عموماً، على مصادر الطاقة، من بلدان الخليج العربي/الفارسي. حيث أصبح تنوع مصادر الطاقة، أحد الأفضليات لواشنطن. وسيكون من الخطأ، الكشف عن بعض المبادئ الخاصة بها، مهما تكن الأسباب من وراء مثل تلك التحليلات، لأن هؤلاء المخططين، هم المسؤولون، في الولايات المتحدة، أمثال برزنسكي، المستشار السابق للأمن القومي في حقبة الرئيس كارتر، حيث كتب: "يجب توسيع منظمة حلف شمالي الأطلسي، لأن هذا سيزيل خطر كل عودة للتهديد الروسي لأوروبا الشرقية (...) إنه إذن من المهم العمل، بحيث لا تبرز أية قوة قارية، على الحدود الإقليمية لروسيا، وبطريقة يمكن لهذه القوة، أن تتوصل إلى تقديم المساعدة لدول أخرى، من ذلك الاتحاد السوفييتي السابق، مساعدة تطور قدراتها، وفي الوقت نفسه، أن تتحرر من كل وصاية لموسكو عليها" (٢٥). وتأخذ استراتيجية الولايات المتحدة الخاصة بالاحتواء، ضد روسيا، استخدام (الحزام الأخضر)، خصوصاً أن لا يكون إسلامياً. وتأخذ مكانها اليوم، وهي تستهدف منع روسيا، من الحصول على ممرات إلى البحار الدافئة، كما كان عليه الأمر في السابق: "قزوين، البحر الأبيض المتوسط، الأدرياتيك..."، وإلى المضائق "البوسفور والدردنيل". ثم حرمان روسيا،

من ممتلكاتها الإسلامية القديمة في آسيا الوسطى والقوقاز، أو طريق النفط "طريق الحرير الجديد". وتشكل هذه الاستراتيجية، حجر عثرة أساسية أمام القوة العظمى، "ويتعلق الأمر، بتطوير جديد تماماً، مشابه، في الواقع، لذلك التطويق الذي جرى في خمسينيات القرن العشرين، حين كانت الولايات المتحدة، تسعى لتطويق أي نفوذ اشتراكي سوفياتي أو صيني. وإنها على خلاف حال اليوم، الذي تخلو فيه استراتيجية الولايات المتحدة، من كل ايدولوجية، وأصبح جهازها الجيوسياسي خفض القدرات الروسية، حتى الحد الأدنى الممكن، وفي طرد روسيا نحو الشمال. فبالنسبة لواشنطن، بقدر ما تكون روسيا بعيدة عن البحار الدافئة "المحيط الهندي، الخليج العربي/الفارسي" سيكون ذلك أفضل (٢٦). وإن توسيع الاتحاد الأوروبي، ليشمل فنلندا وتركيا، يسمح للولايات المتحدة، في الواقع، ولتابعيها الأوروبيين، في منظمة حلف شمالي الأطلسي، بتطويق روسيا جيوسياسياً، من الشمال ومن الجنوب". إن بحر البلطيق وبحر الشمال وبحر البارنت (Barnets)، هي في الواقع بحار رئيسة، بالنسبة لروسيا، مع أنها تحت سيطرة الولايات المتحدة، وألمانيا. أما ما يتعلق بتركيا، التي تسعى للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي وبضغط من واشنطن، لأنها "تشكل حجر الزاوية في الهلال الهامشي الداخلي" وتسمح بالتسلل نحو الصين، ونحو الجمهوريات النفطية الإسلامية، في آسيا الوسطى. إذن سيصبح الاتحاد الأوروبي بعد الآن، على بعد بضعة كيلو مترات من بطرسبورغ. وتحاول روسيا، من جانبها، الاعتماد على صربيا وأرمينيا واليونان والهند، في محاولة، عبثاً، لإقامة سياسة (معاكسة لعمليات التطويق) الجارية، بحيث أن الضعف المالي، والأوضاع الاجتماعية، وحتى الفوضى الاقتصادية، ليست من الأمور التي تسهل المهمات الاستراتيجية الروسية، وفي محاولاتها تزويد روسيا باستراتيجية دفاعية جديدة في الأوراسيا. مع ذلك، تخشى الولايات المتحدة، من قيام تحالف ألماني . روسي، قابل لأن يسيطر على مجمل أوربا، مما يؤدي إلى أن يصبح وجود الولايات المتحدة في أوربا، لا فائدة منه. فقد كتب هنري كيسنجر: "إذا أخفقت الولايات المتحدة في توسيع حلف الأطلسي نحو الشرق، فسيؤدي ذلك، إما إلى صدامات، أو خطر إقامة اتفاقيات سرية بين ألمانيا وروسيا" (٢٧). كما طالب أوجين روستو (Eugene rostow)، عام (١٩٩٥)، بتدخل من قبل واشنطن: "هناك مصالح للولايات المتحدة في البلقان، إذ يمكن أن تسمح الأنظمة غير المستقرة بقيام تحالفات جديدة في الدول الضعيفة، في هذا الجزء من العالم، قد يصبح معادياً للولايات المتحدة، ويسمح بالتالي بالهيمنة على مجمل أوربا، والاحتمال الأكثر، قيام تحالف روسي . ألماني، من أجل السيطرة على قلب أوربا (٢٨).

الوضع الجيواستراتيجي الفعلي للبلقان والقوقاز (طريق الحرير الجديد)

يمكن القول، بصورة إجمالية، إن الأهداف الاستراتيجية للولايات المتحدة في البلقان والقوقاز، هي التالية:

- . منع كل انتشار لروسيا في البلقان وفي قطع من البحر الأبيض المتوسط.
- . حجز الممرات الأوروبية والروسية، نحو مصادر النفط في الجمهوريات الإسلامية، التي كانت تابعة للاتحاد السوفياتي السابق، أي السيطرة إذن على (طريق الحرير الجديد)، المؤدي إلى منابع الغاز والنفط حتى خارجها الغربية.
- . توسيع وتعزيز دور منظمة حلف شمالي الأطلسي، كشرطي لخدمة الولايات المتحدة.
- . إقامة تشكيل إجمالي، لقواعد الولايات المتحدة في الجنوب . الشرقي لأوربا، ليصبح من السهل،

التدخل، انطلاقاً منه: نحو أربعة اتجاهات رئيسية: أوروبا الغربية، الشرق الأوسط، مجموعة الدول المستقلة، البلقان. وهو ملتقى طرق استراتيجي بالنسبة لواشنطن".

غالباً ما يتم الإقلال من الدور الاستراتيجي للبلقان وجميع المناطق الجنوبية . الشرقية الأوروبية، مع أنها نقطة عبور رئيسة بين أوروبا الغربية والقوقاز وآسيا الوسطى. وتمثل يوغوسلافيا السابقة موقعاً استراتيجياً، في طرق المواصلات البلقانية، فهي تقع على مفترق طرق استراتيجية أوروبية ثلاثة: طريق الدانوب، والطريق نحو الشمال، وطريق الجنوب، عبر الجبال البلقانية، ثم الطريق شرق . غرب، عبر هذه الجبال نفسها. وإن التجارة وحركة المرور الدانوبية . النهرية، هي في الواقع، أحد الطرق القارية الاستراتيجية الأكثر أهمية، داخل أوروبا، لأنها تشكل جزءاً مكماً لسياسة أوروبية كبرى مستقلة، ومقيدة لاحتكار النقل البحري، الممارس من قبل مجهزي السفن في البحر الأبيض المتوسط، فالدانوب بطوله من (٢٨٥٠) كيلومتر، هو النهر الأطول في أوروبا دون روسيا. وسيشكل طريق النقل في المستقبل، عند تجنب مشاكل التلوث. كما أن تفتيت يوغوسلافيا السابقة، الذي شاركت فيه ألمانيا، إلى جانب الولايات المتحدة، سمح لها بإيجاد قواعد لها في البلقان، كما أن ذلك، من الأسباب لكي نفصل القنال الجديد الذي يربط الراين بالدانوب، مما ستحصل بذلك على طريق اتصالات رخيص، ويسمح لبواخرها، من وزن (٣٠٠٠) طن، بربط بحر الشمال والبلطيق بالبحر الأبيض المتوسط، ثم بالبحر الأسود، أي نحو منابع النفط في الشرق الأوسط وبحر قزوين وكازاخستان.

فالبلقان مناطق مجاورة للاتحاد السوفييتي السابق، ثم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، هي ثلاثة مجالات ذات أهمية استراتيجية بالنسبة للغرب. وتقدم شبه الجزيرة البلقانية والمضايق التركية وامتداداتها نحو الجزر اليونانية في بحر ايجه، موقعاً استراتيجياً، يسمح بالسيطرة على مخارج الأسطول السوفييتي من البحر الأسود ويوغوسلافيا، كما أنها طريق العبور الطبيعي بين أوروبا الغربية والشرقية. بل أيضاً لاجتياز اليونان وتركيا، عبر شمالي إفريقيا والشرق الأوسط. هذه بعض الخطوط التي تستمر بواسطتها روسيا، لكي تعتبر خطراً، يجب على الغرب أن (يحتويه)، ومن هنا، الأسباب التي من أجلها تخصص لكوسوفو الجهود الهامة عسكرياً. أيضاً، يمكن لألبانيا أن تقدم خدمة كقاعدة لحصر حركة المرور البحرية في الأدرياتيك. وفي البحر الايوني، بل أيضاً لانطلاق العمليات ضد اليونان. إن استراتيجية حلف الأطلسي هي المحافظة على السيطرة، على جميع هذه البلدان . كونها مناطق استراتيجية هامة. وتقود بعض التوقعات، لرؤية روسيا وقد عادت إلى البلقان عن طريق الصرب، وعلى التعاون الأرثوذكسي. وهل ستنتظر موسكو، إلى تعزيز المحور الألماني . التركي . الولايات المتحدة في البلقان كتهديد، ستتخذة ذريعة لدعم حلفائها في البلقان (٢٩)؟.

لقد كشف برزنسكي، أثناء مقابلة تلفزيونية مع مؤسسة سوروس، بقوله: "الواقع إن الرهانات الأكثر أهمية في البلقان، هي مستقبل كوسوفو". ويوافق مستشار كارتر سابقاً: "على تقسيم روسيا إلى ثلاث مناطق: أوروبية، وآسيوية، ووسطى، مع ممر شرق . غرب، عبر البلقان والقوقاز وتركستان. ثم يتساءل: هل يمكن لهذا السائل الثمين المستخرج من بحر قزوين، أن يصل مباشرة إلى الغرب، عن طريق أنبوبين . يجتاز أحدهما القوقاز أو تركيا. ويقطع الآخر، البلقان خصوصاً مروراً بمقدونيا وكوسوفو فألبانيا، دون تأمين ذلك المرور؟.

وباعتبار البلقان، طريقاً برياً ونهرياً وبحرياً أساسياً، تمر به وعلى طول حدوده المضطربة، ثلاث

حضارات غالباً ما كانت في نزاعات فيما بينها، فإنه يبقى ملتقى طرق ومكاناً لصراعات نفوذ بين القوى العظمى، لهذا كله، يبقى منطقته استراتيجية في غاية الأهمية. فبالنسبة إلى موسكو، باستطاعة الصرب ومقدونيا، بل أيضاً بلغاريا، أن تشكل مع اليونان، طريقاً لمرور النفط القادم من بحر قزوين، ومن المناطق الروسية، باتجاه الغرب، عن طريق نوفوروسيسك. خصوصاً عندما تغلق تركيا مضائقها في وجه الملاحة الروسية. مع أن ذلك، يشكل خرقاً فاضحاً لاتفاقيات مونترو (Montreau) لكن، إن ما تريده الولايات المتحدة، حرمان موسكو من المشتقات النفطية، المستخرجة من بحر قزوين، ومن آسيا الوسطى، كما يجب تجنب مرورها من أراضي روسيا، لتمر عبر تركيا وأذربيجان. ومرة أخرى، ولتصبح مقدونيا وألبانيا وكوسوفو، المصبات الغربية، وطريق للنفط، الوارد من تلك المناطق المذكورة، لهذا، تسعى واشنطن ضمها إلى حلف شمالي الأطلسي.

إن تحقيق أنبوب النفط باكو . جيهان "أحد الرهانات النفطية منذ التوقيع على ذلك العقد بتاريخ الـ(١٨) من تشرين الثاني (١٩٩٩). وهنا ينافس، بالتأكيد، الخط الشمالي: باكو . نوفوروسيسك، الكسندر وبوليس، الذي تريد روسيا أن تمده، نحو بلغاريا ويوغوسلافيا السابقة، من أجل الوصول إلى الأسواق الغربية، دون المرور بالبوسفور، نقطة التهديد النفطية ضد روسيا واليونان، والقوة الأرثوذكسية الإقليمية. فهذه الحرب الاقتصادية، هي الوجه الآخر الخفي، والبعد الآخر (للتدخل الإنساني) في كوسوفو، مع توسع وامتداد منظمة حلف شمالي الأطلسي.

حرب أنابيب النفط رهان جديد كبير

لقد تميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بتعبير "اللجنة الكبرى" الناتجة عن الصراعات الدبلوماسية، البريطانية . الروسية، بشأن أفغانستان والنفط (في ذلك الوقت) الآتي من آسيا الوسطى وبحر قزوين. واليوم، أصبح بحر قزوين، ومن جديد، رهاناً نفطياً وغازياً، وأقنية للنقل نحو الأسواق الغربية والآسيوية. ومن هنا كانت المجابهة الروسية . الأمريكية من أجل السيطرة على قلب القارة الأوراسية (٣١) كلعبة كبيرة بين القوتين العظميين القديمتين، زمن الحرب الباردة. وهذا هو اليوم، اللعبة الكبرى الجديدة. ولهذه الأسباب شكلت حكومة الولايات المتحدة مجموعة عمل وزارية مخصصة لدراسة مصادر الطاقة من بحر قزوين، ويرأس هذه المجموعة عنصر من مجلس الأمن القومي وتقوم هذه المجموعة بدراسة أسواق النفط، وإقامة استراتيجية حقيقية بشأن الحرب الاقتصادية، وفي كل ما يتعلق بالنفط (٣٢). وتقدر هذه المجموعة الاحتياطات النفطية من [الخليج العربي/الفارسي الثاني] بـ(٦٠٠٠) مليار برميل، أي (٣٥%) من مخزونات الكرة الأرضية، في حين أن منطقة قزوين ستكون الخزان العالمي الثالث، بعد الشرق الأوسط (٣٣).

وتقدر احتياطات منطقة قزوين بـ(١٧٨ . ٢٠٠) مليار برميل من النفط الخام [تساوي ٨٨ مليار طن، وتشكل ١٦% من الاحتياطات العالمية، وأيضاً من ١٠٠٠ إلى ٧٣٤٠] مليار متر مكعب من الغاز (٣٤).

وقد وطدت واشنطن علاقاتها، مع سبع جمهوريات سوفيتية سابقة، وهي: أذربيجان، جورجيا، كازاخستان، قرخيستان، طاجكستان تركمنستان، أوزباكستان، بشكل هام، في هذه السنوات الأخيرة، بسبب رغبتها كسر العزلة على الصعيد الاقتصادي، في مجال الثروات في آسيا الوسطى، وإعادة الحيوية

والنشاط إلى طريق الحرير. مع إبعاد روسيا. فأقامت معظم تلك الدول، شراكة مع حلف الأطلسي، "باسم الشراكة من أجل السلام". وتقدر الاحتياطات النفطية في كازاخستان، بأكثر من (٥) مليار طن. وقد أقامت الولايات المتحدة فيها شركة تحت اسم تيكساكابانك (Texakabank) (أي بنك تكساس وكازاخستان) أما شركاتها النفطية، فهي: شفرون، وأونيكال، وتبعثها توتال، وبرتش غاز" ومن المقدر "أنها ستستغل حقول النفط في بحر قزوين، وفي إدارة أنابيب النفط (تنفير). نوفوروسيسك) وتترسخ أقوام شركات النفط التابعة للولايات المتحدة في تاتارستان وفي تركمنستان وأذربيجان، حيث توجد فيها احتياطات هامة من المشتقات النفطية. ووصلت قيمة العقود النفطية الموقعة منذ عام (١٩٩٤) إلى (٣٠) مليار دولار، بالنسبة إلى أذربيجان وحدها. وتعتبر أوزباكستان، المنتج الثاني للغاز من بين مجموعة الدول المستقلة بعد روسيا، منذ عام (١٩٩٤)، مع حجم استخراج سنوي، يصل إلى (٥٠) مليار متر مكعب. وتتوقع شركة إكساكسون للنفط والغاز استثمار مليار دولار في مشروع مشترك لمدة ثلاثين عاماً مع شركة أوزبكية، هي (أوزبكنفطغاز). وتنظم تكساكو، على نحو مواز. تصنيعاً مشتركاً للزيوت، وتساهم موبيل ودلتا وأونيكال في استثمار الطاقة في أوزبك، بصورة مباشرة، وتقوم بأعمال تحديث للمنشآت القائمة، والولايات المتحدة، هي المستثمر الأول في أوزباكستان اليوم. مع إجمالي سنوي، يصل إلى (٢) مليار دولار، يحقق في الاقتصاد، منذ عام (١٩٩٥). ولعبت الحكومة الأوزبكية، دور أفضل تلميذ مقرب من روسيا، من بين دول مجموعة الدول المستقلة، حتى قبل عام (١٩٩٣). أما الآن، فهي تلعب بورقة توسيع منظمة حلف شمالي الأطلسي في آسيا الوسطى (٣٥). كما أن تركمنستان التي تجذب انتباه الشركات النفطية الدولية أيضاً. أو توكال، ودلتا أوليل، موبيل، مونيمان، بريداس، بتروناس، نيوك. وهي مرتبطة بمشروعات مختلفة، في مجال أنابيب النفط، ونقل النفط التركماني نحو الباكستان والهند. ويقدر احتياط النفط فيها بما يقارب الـ (٦) مليار برميل في كاركايوم. أخيراً يواجه رهان النفط الأوراسي. مشروعات يابانية وصينية، كونها شركات عالمية. كما يواجه بناء "جسر أرضي أوراسي" يربط الموانئ الغربية مع شمالي الصين، ثم طوكيو. وهناك دراسات لقابلية قيام شبكة من خطوط النفط الجديد، تلتفت حول الأراضي الروسية. وهي موضع دراسة، خصوصاً (مشروع القرن) بكلفة (٢٢) مليار دولار الذي ستشارك فيه اليابان "متسوبيشي" والصين "تاشيونال بتروليوم كوربوريشن". أي الهيئة الوطنية للنفط. ومن الولايات المتحدة "فرع من تكساكو"، من أجل مد خط أنابيب للغاز بطول (٨٠٠٠) كيلو متر، يخصص لنقل الغاز التركماني إلى اليابان، حيث ستتضاعف الحاجات الصناعية اليابانية إلى الغاز، من الآن وحتى (٢٠١٠). وستستقبل مرور غاز كازاخستان، وأوزباكستان، وحوض ناريم في الصين، في المنطقة المسلمة من كسينغيانغ. يضاف إلى ذلك، حيث يقرر الخبراء أن سيبيريا التي تحتوي على ثروات معدنية كبيرة، هي تحت الاستقلال حالياً وتشكل منطقة، ستصبح ذات أهمية استراتيجية واقتصادية أساسية خلال عدة سنوات.

وكانت إدارة كلينتون، عندما كان رئيساً للولايات المتحدة، يبذل جهوداً جبارة من أجل إقامة مشروع طموح بالنسبة لأوراسيا، وذلك حسب معلومات نشرتها وكالة المعلومات التابعة للولايات المتحدة (U.S. information Agency) (U.S.I.A). ويتضمن المشروع مبادرة تتعلق بحوض بحر قزوين، تستهدف تطوير البنية التحتية في المنطقة الآسيوية الوسطى، حول بحر قزوين. فقد عدد المستشار الخاص للرئيس كلينتون، المتخصص بدبلوماسية الطاقة في بحر قزوين، المدعو (رتشارد مورنينغستار)،

الأهداف الأربعة الرئيسية التي تلاحقها واشنطن في هذه المنطقة من العالم. وذلك في خطاب ألقى أمام جمعية كامبردج لوكالة البحوث (CERA) (Cambridge Energy Research Association) بتاريخ (٧) كانون أول عام (١٩٩٨) وهذه الأهداف هي:

١. تعزيز استقلال الدول الجديدة في آسيا الوسطى.
٢. دعم الإصلاحات السياسية والاقتصادية فيها.
٣. تكثيف الروابط الاقتصادية بين هذه البلدان، التي لم يتم التعاون فيما بينها، في الماضي، على الرغم من الروابط الثقافية، بهدف خفض احتمال نشوب نزاعات إقليمية.
٤. ضمان استغلال المصادر الخاصة بالطاقة لمصلحة الولايات المتحدة. وهذه أهداف رئيسة، حسب مورنينغستار، لأن المشتقات النفطية التي ستننتج عنها، ستتمكنها من ربح الأسواق الدولية، دون كثير من العقبات.

يضاف إلى ذلك، إنه من الضروري التفكير في أنه ما من دولة مشاركة، تستطيع أن تشكل احتكاراً وطنياً قابلاً لأن يتعارض مع شركات الولايات المتحدة القائمة، من أجل ضمان أن تستطيع مشروعات واشنطن زيادة نشاطاتها. ويعتقد رئيس تحرير وكالة المعلومات التابعة للولايات المتحدة، المدعو فيليب كوراتا، مثله مثل برززنسكي، بأن إنشاء خط أنابيب شرق - غرب، منطلقاً من الحقول النفطية في القوقاز وآسيا الوسطى، ليتنهي في تركيا، هو العنصر الأساسي في استراتيجية الولايات المتحدة في أوراسيا وفي بحر قزوين. وقد صمم استراتيجيو الولايات المتحدة، وكذلك شركاتها مشروعاً طموحاً، سمي بـ"المر الأوراسي للنقل" في هذه الظروف، يشتمل على نظام كامل من الأنابيب، المنطلقة من آسيا الوسطى حتى البحر الأبيض المتوسط، في جيهان، مروراً بالقوقاز، ثم أذربيجان. وتشكل بهذا مركزاً عصبياً في (لعبة أو رهان كبير) نفطي، في القرن الواحد والعشرين، وستواجه واشنطن، عندئذٍ "لبناء خط أنابيب رئيس للتصدير". وذلك للرد على القلق، تجاه فعالية ذلك المشروع الذي سيكون قادراً على الانطلاق من آسيا الوسطى، حتى الأسواق الغربية، عن طريق تركيا، وحقول أذربيجان النفطية من القوقاز وآسيا الوسطى. وبهذا الصدد ستكون أذربيجان البلد (المحوري) الرئيس، في استراتيجية الولايات المتحدة، الجيواقتصادية، لأنها نقطة العبور الإجبارية لخطوط نقل النفط الرئيسية التي يجري بناؤها. ويتضمن من جهة أخرى، حقولاً نفطية عديدة، حول شبه جزيرة آمبشرون، نقطة الانطلاق لخطين من أنابيب النفط، نحو البحر الأسود، مكان وصول النفط والغاز التركماني. إذ وقع الرئيس الأذري حيدر عالييف، بروتوكولاً يتعلق باتفاقيات نفطية مع الرئيس السابق الأمريكي، كلنتون في آب (١٩٩٧). عندما قام عالييف بزيارة رسمية لواشنطن ووقع مع أصحاب شركة الأموكو "AMOCO" تلك الاتفاقيات. وقررت الولايات المتحدة عندئذٍ، أن تكون القوقاز "منطقة مصالح استراتيجية للولايات المتحدة". وجرت دراسة لإقامة مشروعات لخطوط أنبوبين للنفط، مخصصين لنقل نفط بحر قزوين، أحدهما في (الجنوب): باكو - تبليسي. جيهان، وهي في وضع الاستعداد لبدء العمل فيه. أما الثاني، ففي الشمال: باكو - غروزني، نوفوروسيسك. وأثرت الولايات المتحدة إتمام العمل أولاً في الجنوب. واقترحت بعض المشيخات النفطية العربية خطأً ثالثاً. إذ دفعت الرياض والكويت، اللتان تنظران إلى هذه المنافسة النفطية بعيون غير راضية، منظمة الدول المصدرة للنفط العمل على رفع حصص الإنتاج بمقدار (١٠%) من أجل العمل على خفض الأسعار، مما سيؤدي إلى جعل

خط أنابيب الجنوب خاسراً. وعلى نحو مواز، سيكلف تحديث خط الأنابيب الروسي، والمدعوم من قبل أنقرة وباكوا، أقل من مليار دولار، تخصص للضخ، بتكلفة تقدر ما بين (٢٠ . ٢٥) دولار للطن الواحد. في حين، تقدر تكاليف مشروع باكوا . تبليسي . جيهان، ما بين (٢,٧ . ٣,٣) مليار دولار، وبتكلفة ضخ من (٤٢ . ١١٠) دولار للطن الواحد (٣٦).

وهكذا، تدخل السياسة الأوراسية للولايات المتحدة، ضمن الاستراتيجية الشاملة لها. وهنا يوجد أصل توجه السياسة الدولية ل واشنطن المتصفة بالنزعة الحربية العدوانية، أكثر فأكثر، وقهرية زجرية. ولا تتردد أبداً، في أن تحل هذه السياسة محل منظمة الأمم المتحدة، وغيرها من المنظمات الدولية ذات الشأن، بلا قيد أو شرط، وقد ازداد هذا التصرف، بعد شن الحرب على العراق، وإسقاط نظامه المعترف به دولياً، واحتلاله عسكرياً. وكما جرى قبل ذلك في كوسوفو، مروراً بالغارات الجوية على ليبيا والسودان والصومال، ثم احتلال أفغانستان، وحبل السياسة الأمريكية على الجرار، تتهدد وتتوعد، وكل ذريعة تتبع ذريعة أخرى وعمليات بحجة العمل ضد الإرهاب والمحافظة على السلام وكأن السلام، لا يتم إلا بالقتل والدمار والاحتلال. وكانت أعمالها باستخدام آلتها الحربية المدمرة والفتاكة لا تعتبرها إرهاباً من الطراز الأول، وبشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، ولنستمع إلى ما قاله روبرت دول، أحد الزعماء الجمهوريين، في الولايات المتحدة: "لقد كانت الحرب على العراق رمزاً معبراً عن قلق الولايات المتحدة بالنسبة إلى أمننا، وكذلك حاجتنا إلى النفط والغاز، كما تتوجه أنظارها نحو الشمال، لأن مصالحنا في كازاخستان وفي القوقاز والصرب، تدعونا للعمل لحماية مصالحنا" (٣٧).

ومن المعروف، أن الغارات الجوية الأمريكية والبريطانية . على العراق لم تتوقف منذ عام (١٩٤١)، مع حصار شديد، طال كل مرافق الحياة، وتسبب في قتل مئات آلاف الأطفال جوعاً ومرضاً، لأن الأمر يتعلق برهان استراتيجي أساسي يخدم مصالح الشركات النفطية الأمريكية في المنطقة، تلك التي لأكثرها علاقات مادية مع أعمدة النظام في واشنطن. وأنه من الأمور الحيوية، بالنسبة إلى زعماء الولايات المتحدة، تعزيز حضور شركاتها النفطية في كامل المناطق التي تحتوي على الاحتياطات النفطية. وقد أدت تصرفات الولايات المتحدة، في المناطق العربية والإسلامية، إلى تأجيج الأحقاد ضد همجية واشنطن، وانتشرت الأفكار المعادية للولايات المتحدة بين الأوساط الشعبية الواسعة.

وإن ما جرى ويجري في العراق . حصيلة مقلقة جداً، وجريمة إنسانية سببتها (الدبلوماسية القهرية)، التي يمارسها حكام الولايات المتحدة، ونتج عن ذلك، إصابة الجماهير العربية والإسلامية الواسعة بعقدة معاداة الولايات المتحدة، مما ستؤدي إلى خلق حالة من عدم الاستقرار الدولي، خاصة في المناطق الحيوية من هذا العالم المسمى بالشرق الأوسط، الذي أصبح محل مجابهات وعداوات ومصادمات بين مصالح الولايات المتحدة، والعالم العربي الإسلامي. ويرى العديد من المفكرين، أن هذه السياسة الأمريكية المتعجرفة سوف تنتهي إلى أن تتحول ضد شعب الولايات المتحدة، إذا استمر زعمائها في اتباع سياسة القهر والإذلال للشعوب، بالحديد والنار والقتل والدمار.

الهوامش

1 . Bruno colson, La strategie Americane 1998.

2 . Nou Avdns Defini les concepts Complementaires de politque, stratijique,

Ettacquitique, Lorsque nous parlons de strategie totale.

3 - Defense planning Guidance for the fiscal years (1994 - 1995) Washington fevrier 1992.

4 . Brzezinski le grand echiquier, L'amerique et le reste du monde p.(35).

5 . Brzezinski op cit. p. (249 - 251).

6 . Michel Bugnon - Mondant; L'Amerique totalitaire les etats - unis et la maitrise de monde favre Lausanne 1997.

٧ . cite in le Monde, (30) Juin 1998.

٨ . in le Monde (16) October 1998.

٩ . Noam chomsky, le dessous de la politique de l'oncle sam.p.85.

١٠ . Jaques seurot. 'L'Amerique ux Americains' fondation pour la recherche stratigique op cit p.22.

١١ . ID ibid.

١٢ . Brzezinski "Buissance Americaine Et Stabilite Mondiale" Fondation pour la Recherche Stratigique. op. cit p (22).

١٣ . ID. ibid.

١٤ . Mackinder Amprunta le terme Heartland au geographe britannique james fairgrier qui publia en 1915 geography and world power.

١٥ . ID Ibid.

16 . Pascal Lorot et Francois thual. id. IBID.

١٧ . P.M. gallois, geographic, geopolitique et puissance deMer ET dela Terre Seminaire l'economie national superieure (11) Mei. 1978.

18 . Gallois, geopolitique, les voies de la puissance de la mer et de la terre. ploon 1990. p 273.

١٩ - Remarque fort instruction, george kennan affirmait, en October (1945): "ce n'est pas la puissance Militaire russo-Sovietique qui nous Menace, Mais Bien la puissance politique russe".

٢٠ - Brzezinski, le grand echiquier L'amerique et le reste de mond. p.68.

21 - Guennadi ziouganou, la russie après l'an (2000) vision Geopolitique, d'un Nouvel etat, edition miched. 1998.

22 - Kissinger, Diplomatie. p. (743).

23 - collon. op.cit. p.(149).

24 - Michael opporski "some aspects of the so called new world order" communication au seminaire de brussels (2 - 4) mai 1996.

25 - brzezinski puissance americaine et stabilite mondiale op.cit.p.(23).

26 - Thual le nouvelle caspienne les enjeux post - sovietique. 1998. p.39.

27 - Collon, op. cit. p (151) note (51) kissenger.

28 - Id. p (151). regarder la note (50) (rostow).

29 - Thual, le desir de territoire ellipses (1999) (p 17).

- 30 - Diana Jognstone, maitre du monde ou les dessous de la gurre de Balkans, ouvrage collectif. 1999.
- 31 - Thual, le desir de territoire (dispositifs imperiaux). p.30.
- 32 - Les principales personnalites americaines impliquees dan les affaires de la casienne.
- 33 - Le petrole de la caspienne et ses implications geopolitiques et internationaux pour la russie. (1992 - 1999).
- 34 - The Caspian sea its rssources, opec bulletein nars (1997).
- 35 - cite in le monde (19 - 20) November (1999).
- 36 - Polutique etrangere op.cit. (47).
- 37 - le cout des sanetions est inacceptable.



الانهيار الأمريكي... ما بين الواقع والسننية

أحمد الرمح

المدخل:

القرن المنصرم هو قرن سقوط الإمبراطوريات العظمى بامتياز؛ فقد شهد انهيار الإمبراطورية العثمانية والفرنسية والبريطانية والألمانية واليابانية وصولاً إلى الانهيار البارد للإمبراطورية السوفييتية.

ولو تدبرنا انهيار تلك الإمبراطوريات سنجد أن هناك عوامل مشتركة أدت إلى سقوطها، فالكون من حولنا قائم على مبدأ واضح لا يغيب عن فكر وتدبر كل عاقل ألا وهو مبدأ السننية، وهذا يؤكد مادعا إليه القرآن الكريم وهو أن هناك سنناً تحكم الكون من حولنا، وأن التاريخ له قوانين؛ وقوانين حركة التاريخ لا تقبل استثناءً ولا محاباة؛ وأن المقدمات السيئة لابد أن تؤدي إلى نتائج سيئة والعكس صحيح.

ومن أهم العوامل المشتركة في انهيار كل الإمبراطوريات السالفة أنها غيّبت عن استراتيجيتها وسلوكيتها قيمة عظيمة تتمثل بأن كل من يحاول أن ينال من إنسانية الإنسان أو يستبد به أو يقهره لمأرب حتى ولو كانت دينية لابد أن تفعل فيه سنة الله وقانون حركة التاريخ فعلها؛ لتجعله أثراً بعد عين وعبرة تذكرها كتب التاريخ لينتفع منها أولو الألباب.

والولايات المتحدة ليست بدعاً من الأمم حتى تكون استثناء وقانون حركة التاريخ الذي سرى على الإمبراطوريات السالفة لابد أن يسري عليها، وسنة الله في معاقبة المستكبرين والمستبدين وأعداء الإنسانية بالمرصاد؛ وحاشى للعدل الإلهي أن يدع قوة مستكبرة متجبرة بغير الحق تعيث في الأرض فساداً دون أن تكون لها نهاية.

صعود الإمبراطورية الأمريكية:

لو نظرنا إلى المؤشر البياني لبزوغ نجم الإمبراطورية الأمريكية؛ سنجد أنه ارتبط تاريخياً بضعف وانهيار القوة الأخرى؛ فهي أصبحت قوة اقتصادية عالمية بعد الحرب العالمية الأولى؛ حيث استفادت من الضعف الاقتصادي والعسكري الذي سببته تلك الحرب للقوى العالمية الأخرى؛ كما أن اقتصادها قد انتعش بشكل كبير لأنها كانت خارج ساحة الحرب وتمول الدول المتحاربة.

وتكرر الشيء نفسه في الحرب العالمية الثانية؛ إذ لم تدخل الحرب فعلياً إلا متأخرة؛ بعد أن استطاعت الجيوش السوفييتية قهر القوة الألمانية، وهي دخلت الحرب بذريعة الاعتداء الياباني على

أسطولها العسكري الذي كان قابلاً في ميناء مستعمرة (بيرل هاربور) والحقيقة أنها هي التي اعتدت على اليابان بشكل غير مباشر عندما منعت تصدير النفط والحديد لها إبان الحرب، وبانتهاء الحرب كان الكل منهكاً الراج والخاسر إلا هي؟!...

وعندما انتهت الحرب كانت الولايات المتحدة تمثل لجميع أرض الأحلام فهي بعيدة عن مسرح الصراع العالمي من جهة؛ ومن جهة أخرى كان المواطن الأمريكي يتمتع برفاهية لا تنافس؛ ففي منتصف الأربعينيات أصبح دخل الفرد الأمريكي أعلى دخل في العالم بسبب الطفرة الاقتصادية التي حققتها أمريكا من جراء هجرة رؤوس الأموال إليها من كل مكان تقريباً.

وأصبحت تنتج بعد الحرب العالمية الثانية (٥٠%) من الإنتاج العالمي للسلع والخدمات، وزاد احتياطي رأس المال لديها من (٤٥) مليار دولار إلى أكثر (٨٩٥) مليار دولار؛ وتضاعف ناتجها المحلي من (١٠٠) مليار دولار عام ١٩٤٠ إلى ٢٠٠ مليار دولار عام ١٩٤٥، كما تضاعف عدد السكان من (٤٠) مليون نسمة إلى ١٥٠ مليون نسمة) وكان السبب الرئيس في هذا النمو السكاني هجرة العقول العالمية ورأس المال إليها.

الانهيار مؤشرات وأسابيه؟!...

رغم كل ذلك إلا أن الخبراء الاستراتيجيين كانوا يقولون: إن هذه القوة الأمريكية تحمل داخلها بذور الضعف والانهيار، وبينت تقارير كثيرة ومختلفة أن الضعف قد أخذ يدب في الامبراطورية الأمريكية مع بداية السبعينيات حيث تحدث مجموعة من الباحثين الأمريكيين مثل (بول كيندي وجيمس ديفيدسون وليستر ثرو) وبينوا أن أمريكا تقتقر إلى الخبرة والحس التاريخي، وستدفع ثمن ذلك على المدى البعيد.

وكان خطر الانهيار يشعر به أصحاب القرار الأمريكي، وأول من جاهر بذلك هو الرئيس (نيكسون) عندما أعلن عام ١٩٧١ في خطاب له من البيت الأبيض قال فيه:

هناك مشاكل كثيرة تواجه القوة الأمريكية كالبطالة وانخفاض إنتاج بعض الصناعات وتضاعف بعض التضخم وتراجع الدولار والعجز الخطير في ميزان المدفوعات.

هذا التصريح دق أجراس الخطر؛ وجعل الخبراء والباحثين الاستراتيجيين يدرسون الحالة الأمريكية؛ ووضعوها تحت المجهر وبدأت دراسات كثيرة في هذا الجانب، ومن الطريف أن يكون أول من تنبأ بالانهيار الأمريكي هو الزعيم الفرنسي (شارل ديغول) حينما قال:

تريد الولايات المتحدة الوصول بالاتحاد السوفييتي إلى الخراب والإفلاس عن طريق سباق لا نهاية له في التسليح؛ وقد تتجح في ذلك؛ ولكنها سترهق نفسها كثيراً وقد يوصلها ذلك إلى حالة الإفلاس.^(٤)

وذهب المذهب نفسه الكاتب الأمريكي (ماكس فرانك) في مقالة ألفتها النخب الأمريكية؛ ونشرتها (نيويورك تايمز) على صفحاتها الأولى التي قال فيها:

إن أمريكا تواجه نقصاً في الموارد وانحدار السمعة وضعف الدولار؛ لقد بدأ انحطاط أمريكا كقوة عالمية من فينتام.

(٤) خير الدين عبد الرحمن: القوة الفاعلة في القرن الحادي والعشرين. ص: ١٨، دار الجليل، دمشق. ١٩٩٦.

وبدأت التحليلات تتحدث عن انهيار أمريكي قدمها كَتَّابٌ لهم وزنهم عالمياً مثل (بول كينيدي) في كتابه: (نهوض وسقوط القوى العظمى)، والمحللان الاقتصاديان (هاري فيجي وجيرالد سوانسون) في كتابهما: (سقوط أمريكا قادم فمن يوقفه). وكذلك (رونالد هوايت) في كتابه: (صعود وهبوط أمريكا كقوة عظمى)، و (برجنسكي) في كتابه (خارج نطاق السيطرة أو الانفلات)، والبروفيسور الفرنسي (روجيه غارودي) في كتابه (أمريكا طليعة الانحطاط) والخبير الفرنسي (إيمانويل تود) في كتابه (مابعد الإمبراطورية)؟!..

وإذا كنا نتوقع انهياراً لا محالة من وقوعه للإمبراطورية الأمريكية؛ فلا بد أن نبني ذلك على أسس علمية صحيحة ودقيقة، ولقد وضعنا ثلاثة أسباب نشعر بأنها ستؤدي في المستقبل إلى انهيار الإمبراطورية الأمريكية إن شاء الله، هذه الأسباب الثلاثة هي: أولاً: السبب الاقتصادي. ثانياً: السبب الأخلاقي. ثالثاً: السبب السنني.... نتوقف مع هذه الأسباب تحليلًا.

أولاً: السبب الاقتصادي:

لا يشك أحد أن اقتصاد الولايات المتحدة اقتصاد ضخم وخرافي، وأمريكا تستمد جزءاً كبيراً من تفوقها وقوتها وإمبراطوريتها من ضخامة وقوة هذا الاقتصاد؛ وبالتالي فإن أية هزة أو ضعف أو انهيار في هذا الاقتصاد يعني اهتزاز وضعف وانهيار الإمبراطورية ذاتها.

والاقتصاد الأمريكي وبإجماع الخبراء الاقتصاديين أخذ يعاني في العقد الأخير من ضعف وعجز خطير، ويعود السبب في ذلك إلى حالة التمدد الفرعوني التي تعمل باتجاهه القوة العسكرية الأمريكية في كل قارات المعمورة التي يراد منها فرض (الأجندة) الاستراتيجية الأمريكية بالقوة والإكراه، ستحتاج إلى إنفاق مالي كبير؛ وقد بلغت قيمة الإنفاق العسكري الأمريكي لعام ٢٠٠٤ (٤٠٠ مليار دولار) مقابل (٦٥ مليار دولار) لروسيا، و (٤٧) مليار دولار للصين؛ أما اليابان فقد بلغ إنفاقها (٤٠,٣) و (٣٥,٤) لبريطانيا، و (٣٣,٦) لفرنسا، وبحسبة بسيطة نجد أن إنفاقها العسكري يفوق مرتين هذه الدول مجتمعة، وهي مضطرة لذلك حتى تحافظ على تفوقها العسكري لتبقى قوة سوبر عظمى، وهذا أشبه بالمقامرة الاقتصادية، لأن بقاء حالة التفوق العسكري؛ والبذخ غير المحسوب عليه؛ سيصل بها إلى الوقوع في الفخ الذي وقع فيه الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة، حيث دخل في سباق تسلح مع الولايات المتحدة أرهقه كثيراً، وأثر سلباً على مجالات داخلية حيوية كثيرة حتى وصل الأمر به إلى أنه خسر ثقة مواطنيه به؛ أدى فيما بعد إلى ضعف الإيمان بالأيديولوجية الشيوعية؛ حتى وصل الأمر في نهايته إلى تفكك وسقوط الإمبراطورية السوفييتية.

ولنسمع ما يقوله خبراء الاقتصاد في ذلك:

الخبيران الاقتصاديان (إيريش فولت وجير هارد شيروول) تحدثا في دراسة نُشرت لهما في (الشبيغل) الألمانية الشهيرة عدد كانون الأول (٢٠٠٣)، عن انهيار الإمبراطورية الأمريكية، لقد بنى كل منهما في تلك الدراسة توقعاته على عوامل اقتصادية بحتة، فقد تحدثا عن العجز الاقتصادي الحاصل في الاقتصاد الأمريكي، والأخذ بالازدياد سنة بعد سنة بشكل مخيف وبناءً على ذلك فإنهما يتوقعان أن يرتفع العجز الاقتصادي في العشر سنوات القادمة من (٥٢٠ مليار دولار) في عام ٢٠٠٣ إلى (١٨٠٠ مليار دولار)، وبينما في هذه الدراسة أن الولايات المتحدة من أكثر الدول مديونية عبر التاريخ، وبضعف العالم

الاقتصادي الداعم لبقاء الإمبراطوريات أصلاً؛ سيتقلص نفوذ الإمبراطورية الأمريكية خارجياً، وستصاب بأزمات داخلية خانقة؛ قد تحاول التغطية عليها بحروب محدودة خارجياً مما يؤدي إلى فقدان ثقة الشعب فيها وسيصل بها الأمر إلى الانهيار.

أما الخياران الاستراتيجيان (هاري فيجي وجيرالد سوانسون)، فقد توقعا عام ١٩٩٥ في كتابهما (الإفلاس الأمريكي أو سقوط أمريكا قادم فمن يوقفه) أن العجز الأمريكي الذي بدأت بواكره سيصل قريباً إلى (١٣ ألف مليار دولار)، وهذا ماتعجز عن مقاومته أكبر الإمبراطوريات لأنه سيصبح فوق طاقتها الاقتصادية وسيؤدي هذا العجز إلى تفكك المجتمع الأمريكي ذي النزعة البراغماتية عندئذ ستبحث كل ولاية أمريكية عن النجاة بنفسها.

ويقول فيجي وسوانسون:

إن الولايات المتحدة هي الدولة المدينة رقم واحد في العالم؛ ولا يكفي دخلها القومي لتغطية نفقاتها حيث تنفق على ديونها أكثر مما تنفق على التعليم والتطوير الحضاري والزراعة والمواصلات والعمل مجتمعة؟!...

ويؤكد فيجي وسوانسون أن الولايات المتحدة أصبحت في عام ١٩٨٥ دولة مدينة لأول مرة في تاريخها؛ كما تراجعت نسبة الإنتاج الأمريكي بالنسبة للإنتاج العالمي إذ كانت تنتج ٥٠% من الإنتاج العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن بحلول عام ١٩٧١ أصبحت لا تنتج أكثر من ٢٧% وتدهورت قدرتها التنافسية مع بداية السبعينات بحيث أصبحت لأول مرة وارداتها أكثر من صادراتها (٤٥ مليار دولار واردات مقابل ٤٢ مليار دولار صادرات)^(٥).

إذاً هناك عدة عوامل تنذر بانقراض الاقتصاد الأمريكي، وتبقى حالة فرط التمدد الاستعماري التي تعمل اليوم باتجاهها الإدارة الأمريكية؛ هي التي ستوصلها إلى اللحظة التي تعجز فيها عن سداد نفقات هذا التمدد الإمبراطوري مما يعجل بانقراضها كقوة إمبراطورية، ودليل ذلك الميزانية التي حددتها الإدارة الأمريكية للإنفاق العسكري والمرشحة للارتفاع كثيراً في السنوات القادمة؛ حيث بينت دراسة قام بها خبراء استراتيجيون إبان دعوة بوش الصغير في صيف ٢٠٠٤ إلى إعادة نشر القوات الأمريكية في ألمانيا إلى أن حجم الإنفاق العسكري سيصل في بداية تشرين الأول ٢٠٠٤ إلى (٥٢٦) مليار دولار؛ وهذا الإنفاق يعتبر من أهم الأسباب التي تهدد الاقتصاد الأمريكي بالانهيار؛ لأن ذلك سينعكس على المجتمع الأمريكي وهذا يعني أن قطاعات حيوية في المجتمع الأمريكي ستتأثر بهذا الإنفاق العسكري؛ وخصوصاً في مجال الصحة والبطالة التي يهتم بها الشعب الأمريكي كثيراً؛ وستصاب زوايا كثيرة في المجتمع الأمريكي بالخل نتيجة لتغطية نفقات فرط التمدد الاستعماري، وهذا ما يحدث تماماً اليوم في الولايات المتحدة.

فالولايات المتحدة اليوم لديها (٣٤) مليون مواطناً بلا ضمان صحي، ولديها أيضاً (١١) مليون متشرد بلا مأوى وهناك (٣٢%) من الشباب الأمريكي لا تكفيهم رواتبهم ولا توصلهم إلى مستوى خط الفقر، بمعنى أن هؤلاء الـ (٣٢%) عاجزون عن إعالة أسرة مكونة من أربعة أفراد، وهذا يعني أن نصف

(٥) هاري فيجي وجيرالد سوانسون: سقوط أمريكا قادم فمن يوقفه. القاهرة ١٩٩٣، بتصرف.

هؤلاء الشباب سيكونون غير قادرين على الإبداع وأنهم سيحتاجون إلى تأمين معاشهم بطرق غير شرعية، ويؤكد على ذلك مهندس السياسة الأمريكية (بريجنسكي) إذ يقول: تواجه أمريكا أبارتيد اقتصادي حيث يوجد طفل واحد من بين كل ثمانية أطفال لا يأكل ما يشبعه، وموت الأطفال في أحياء السود الفقيرة تجاوز المعدلات التي تحدث في بلد مثل سيريلانكا وبنما وتشيلي؟؟^(٦)

وزير الزراعة الأمريكي صرح عام ١٩٩٩ أن هناك عائلة أمريكية من أصل عشر عائلات تقتقر إلى الحد الأدنى من الغذاء.

كل هذا يحدث في الوقت الذي سيصل الإنفاق العسكري الأمريكي إلى (٥٠٠) مليار دولار بنهاية عام ٢٠٠٤ ولديها (٣٨٠) ألف جندي موزعين على (٨٣٢) قاعدة عسكرية موجودة في (١٣٠) دولة؛ منهم (١٠٠) ألف جندي في أمريكا اللاتينية و(٢٠٠) ألف جندي في آسيا و(١٣٠) ألف جندي في العراق و(٢٠) ألف جندي في أفغانستان وتدفع أكثر من (٢٦) مليار دولار للدول الأخرى كمساعدات تستخدمها كوسائل ضغط لدعم سياساتها.

وهذا ما جعل نعوم تشومسكي يؤكد أن الإنفاق المتزايد على العسكرة سيؤدي إلى خلل خطير في البرامج الاجتماعية إذ قال:

الجانب المتشدد لمذكرة الأمن القومي رقم ٦٨ تاريخ ١٩٥٠.. يستلزم تضحية والتزاماً بمعنى آخر: إنفاقاً عسكرياً هائلاً وخفضاً في البرامج الاجتماعية وسيكون من الضروري أيضاً تقليص التسامح الذي سيجلب اختلافاً داخلياً أكثر من اللازم^(٧) كما أكد حسنين هيكل أن الاقتصاد الأمريكي يعاني من انهيار واضح لا يمكن أن يُخبا حيث قال:

الاقتصاد الأمريكي بدأ يتآكل ويتناقص؛ فقد خرجت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ولديها من الذهب (٣٧) ألف طن كاحتياطي وفي عام ٢٠٠٤ لم يبق منه إلا (٧) آلاف طن.^(٨)

واليوم نشهد تدهوراً للاقتصاد الأمريكي نتيجة سياسة الولايات المتحدة الاستكبارية؛ التي ترى أن القوة هي السبيل الوحيد لحل كل الأزمات الخارجية للإمبراطورية، والإدارة الأمريكية لا ترى سبيلاً لحل أزماتها في العالم إلا بالقانون التي نشأت عليه والمتمثل بالقوة هي الحق، وهذا سيزيد الأمور تعقيداً، وسيجعل الإدارة الأمريكية تستنزف قدراتها الاقتصادية في حروب غير أخلاقية ولا قانونية؛ يرفضها الرأي العام العالمي.

وقد تنبأ الباحث الاقتصادي الألماني (لوثر كامب) بانتهاء الاقتصاد الأمريكي في افتتاحية صحيفة (بورسين) الدانمركية المتخصصة بأسواق المال عدد (أب ٢٠٠٣) في مقال بعنوان (حفلة الدولار انتهت) أكد فيها أن الدولار الأمريكي في طريقه نحو الانهيار، وأن هبوط قيمة الدولار لها أسباب منها أحداث

^(٦) بريجنسكي: الانفلات: مركز الدراسات الحضارية. القاهرة. بتصرف.

^(٧) نعوم تشومسكي: ماذا يريد العم سام: ص: ١٢. ترجمة عادل المعلم. دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٨.

^(٨) ذكر ذلك محمد حسنين هيكل في الحلقة الخامسة من برنامج (مع هيكل) في قناة الجزيرة والتي بثت في ٥/٨/٢٠٠٤.

الحادي عشر من أيلول، وظهور اليورو؛ وبانهيار الاقتصاد الأمريكي سينهار الاقتصاد العالمي الضعيف أصلاً.

كما أكد على ذلك البروفسور الأمريكي بول كيندي حيث قال:

إن يوم الثلاثاء الحادي عشر من أيلول يمثل نقطة فاصلة في تاريخ الولايات المتحدة ونهاية اعتبارها قوة عظمى وحيدة تهيمن على النظام العالمي.^(٩)

ولكن ما علاقة أحداث أيلول بالانهيار الاقتصادي؟:

تعتبر العلاقة بين بداية انهيار الاقتصاد الأمريكي وبين أحداث أيلول قوية جداً، فمن جهة أن الأحداث أوقعت خسائر جسيمة في الاقتصاد الأمريكي المتعب أصلاً؛ وصلت إلى مئات المليارات من الدولار، تمثلت هذه المليارات بالخسائر الناجمة عن الاعتداء هذا أولاً، وثانياً: التجهيزات الأمنية المكلفة مادياً للاقتصاد الأمريكي التي تلت الأحداث وغزو أفغانستان خوفاً من رد فعل للمسلمين. وثالثاً: تكلفة الحرب الأفغانية والعدوان على العراق.

وقد ذكرت تقارير اقتصادية أن تكلفة العدوان على العراق حتى تشرين الأول ٢٠٠٤ عادت كلفة الحرب العالمية الأولى، كما عادت نصف كلفة الحرب في فيتنام التي استمرت ثماني سنوات هذا من جهة. من جهة أخرى بعد أحداث أيلول بدأت الأموال المودعة في بنوك ومصارف الولايات المتحدة بالهروب إلى خارج أمريكا، تلتها أسهم البورصة والسندات، وكما نعلم أن رأس المال جبان، وشرط وجود مال في الأسواق الاستقرار الأمني للبلد نفسه، وقادة الولايات المتحدة يؤكدون أن الاستقرار الأمني في بلادهم أصبح مهدداً وكل يوم يخرجون بتصريح عن وجود تهديد أمني يستهدف أمن الولايات المتحدة.

وهروب هذه الأموال زادت من معاناة الاقتصاد الأمريكي، مما جعل الإدارة الأمريكية تتخذ قراراً بعد الأحداث تعتبر فيه كل مستثمر يسحب أمواله ممولاً للإرهاب لكي توقف نزيف هروب الأموال.

وجاء اعتماد اليورو كعملة عالمية يتعامل بها الأوروبيون حكومات وشعوباً، ليوجه ضربة أخرى للدولار الأمريكي، مما أدى إلى انخفاض قيمته، وارتفاع قيمة اليورو، كما أن كثيراً من الأموال التي خرجت من أمريكا بعد أحداث أيلول ذهبت باتجاه أوروبا.

كل هذه العوامل ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في انخفاض قيمة الدولار، حتى فقد قرابة ٢٠% من قيمته كعملة عالمية، ويرى عدد كبير من خبراء الاقتصاد أن فقدان الدولار لجزء مهم من قيمته؛ سيدفع بمديري المصارف المركزية في العالم لإعادة ترتيب احتياطهم من جديد، وهذا الأمر سيشكل الخطر الأكبر على قيمة الدولار الاعتبارية العالمية.

ويرى (ستيفن روتش) كبير الخبراء الاقتصاديين في مؤسسة مورغن ستانلي أن الأثر النهائي لانخفاض قيمة العملة الأمريكية؛ قد يكون أشد خطراً؛ إذا ما قرر العالم أن حصة الدولار في احتياطياته البالغة حتى الآن ٧٩% يجب أن تنسجم مع حصة أمريكا في التجارة الدولية والبالغة ٢١%.

وبدأت بعد أحداث أيلول تظهر بوادر الانهيار الاقتصادي منها على سبيل المثال لا الحصر أن

^(٩) بول كيندي في لقاء له مع قناة الجزيرة برنامج (بلا حدود) في ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٣ م.

الناتج القومي الأمريكي قدم أرقاماً مزيفة بدليل إشهار إفلاس شركات عملاقة مثل شركة (أونرون) وشركة (وورلدكوم) وشركات الطيران العملاقة.

وبينت الإحصائيات أن دول (أوبيك) قد خسرت من بيع نفطها بالدولار خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ٢٠٠٢ التي تلت أحداث أيلول نحو (٥,٥ مليار دولار) وهذا الرقم قد يرتفع إلى ثلاثة أضعاف إذا ما تم احتساب نسبة التضخم والخسائر المتحققة من تراجع سلة (أوبيك) وزيادة كلفة الواردات القادمة من المناطق التي تتعامل باليورو أو اللين.

ويرى كثير من المراقبين أن حالة الغطرسة الأمريكية؛ وتهديدها بالعصا الغليظة للجميع، لن يحجب رؤية الحقيقة المتمثلة في أن الولايات المتحدة تعاني من اقتصاد يقف على حافة الانهيار، وأن الأرقام تتضح العنجهية الأمريكية حيث ذكرت صحيفة (الفيغارو) الفرنسية ٢٠٠٣ أن الديون على الولايات المتحدة قد بلغت في عام ٢٠٠٣ (٣٠) ألف مليار دولار مقابل (٥) آلاف مليار عام ١٩٩٢ وأن العجز في الميزانية الأمريكية قد بلغ في عام ٢٠٠٢ فقط (٤٣٥) مليار دولار لسنة واحدة.

كل هذه الحقائق الاقتصادية المدعومة بالأرقام، تجعلنا نقول: إن المسمار الأول في تجهيز نعش الإمبراطورية الأمريكية قد بدأ يُدق، وأن بوادر هذا الانهيار الاقتصادي أخذت تتضح أكثر فأكثر، وإن غداً لناظره قريب.

ثانياً: السبب الأخلاقي؟:

هناك شبه إجماع عالمي على أن الولايات المتحدة تتمتع بسمعة أخلاقية سيئة جداً؛ إن كان في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الحروب؛ وأصبح المجتمع الأمريكي ذا سمعة أخلاقية سيئة نتيجة سلوكيات كثيرة كما وضح ذلك (بريجنسكي) وآخرون؛ وسنأتي عليها بعد قليل.

في عام ١٩٧٦ كتب الباحث الفرنسي (إيمانويل تود) كتاباً تنبأ فيه بانهايار الإمبراطورية السوفيتية، وجاءت توقعات (إيمانويل تود) صحيحة وفي عام ٢٠٠٢ خرج الكاتب نفسه على العالم بكتاب عنوانه (ما بعد الإمبراطورية) يتنبأ فيه بتفكك النظام الأمريكي، ويلخص نبوءته بجملة مهمة وهي أن أمريكا أصبحت بحاجة للعالم أكثر من حاجة العالم إليها.

ويفتح كتابه باستهلال يقول فيه: إن الولايات المتحدة أصبحت مشكلة بالنسبة للعالم، بعد أن كنا نراها تقدم الحل لمشاكله، وكانت تضمن الحرية السياسية والنظام الاقتصادي خلال نصف قرن مضى، أما اليوم فقد بدأت تظهر كعامل فوضى.. فهي تستفز اليوم دولاً كالصين وروسيا، وتحتم على العالم أن يعترف بأن هناك دولاً تمثل محوراً للشر، وتضع حلفاءها في موقف حرج باستهدافها المناطق المجاورة لهم والتي لهم فيها مصالح حيوية كاليابانيين والأوروبيين.

ويبين (إيمانويل تود) انزعاج الأوروبيين من الولايات المتحدة لكونها تريد بقاء منطقة الشرق الأوسط منطقة نزاعات حارة وبؤرة توتر، وهذا يجعل الشعب العربي ينظر بعدائية نحو الغرب؛ وهي القدرة على تسوية القضية الفلسطينية وأن الولايات المتحدة تريد جعل تنظيم القاعدة قوة مستقرة وشريرة لتبرر تدخلها في أي مكان ووقت باسم محاربة الإرهاب.

ويشير (تود) نقطة بالغة الأهمية حيث يؤكد أن اهتمام الولايات المتحدة المتزايد بنفط الخليج العربي

والشرق الأوسط ليس ناتجاً عن أغراض استهلاكية رغم حاجتها المتزايدة للنفط من هذه المنطقة، بل للتحكم بمصادر الطاقة التي تعتمد عليها أوروبا واليابان بشكل أساسي، التي تمكنها من ممارسة ضغوط عليهما. (١٠)

ولو درسنا أسباب سقوط الإمبراطوريات السابقة، سنجد أن هناك أسباباً أخلاقية محددة ساهمت في سقوط تلك الإمبراطوريات وكانت عوامل مشتركة بين كل الإمبراطوريات المندرسية، وهذه العوامل نضعها تحت العامل الأخلاقي؛ وتتمثل هذه العوامل بما يلي: أ) شهوة التوسع عند الإمبراطوريات السابقة لأسباب براغماتية.

ب) العقلية العسكرية التي تسيطر على قادتها.

ج) عدم الاعتراف بالآخرين كشركاء في هذا العالم. د) ضعف الإيمان عند شعوبها بفكرة البقاء كإمبراطورية.

ذ) الاستكبار بغير الحق وقهر الإنسان.

هـ) التحلل الأخلاقي الذي يصيب مجتمعاتها.

ولو حاولنا تطبيق هذه العوامل الستة التي ساهمت بانهايار الإمبراطوريات السابقة وهي عوامل أخلاقية بالدرجة الأولى، إضافة إلى السبب الاقتصادي الذي تقدم الحديث عنه؛ سنجد أن كثيراً من هذه العوامل تنطبق على الإمبراطورية الأمريكية بل هناك عوامل أخرى ستساهم في انهيار الإمبراطورية الأمريكية، لم تتوفر في الإمبراطوريات السابقة.

سنحاول أن نقوم بتحليل هذه العوامل:

أولاً: شهوة التوسع:

إن حالة التوسع التي تسير فيها الاستراتيجية الأمريكية، ستبعثر القوة الأمريكية، وستؤثر عليها اقتصادياً لترهقها، وستجعل الشعوب الأخرى تنتظر إليها بمنظار الثأر والانتقام، وهذا أمر واقع اليوم، فكل شعوب العالم لها ثأر على أمريكا وتتمنى الانتقام منها، وتجلت تلك الصورة عندما وقعت أحداث أيلول، حيث شاهدنا جميعاً الفرحة تعم أوساط الشعوب التي لها ثأر عند أمريكا.

والمشكلة عند واضعي الاستراتيجية الأمريكية أنهم يؤمنون كثيراً بنظرية (ماكندر) والتي تؤؤل سياسياً أن من يسيطر على منطقة أوراسيا يسيطر على العالم، وكان من أشد أنصار هذه النظرية (بريجنسكي) مستشار الأمن القومي في إدارة (كارتر) وأحد أهم مهندسي الاستراتيجية الأمريكية، وإدارة الولايات المتحدة بفرضها لاستراتيجيتها بالقوة واستفرادها في العالم عسكرياً واقتصادياً وسياسياً ستمارس إرهاب الدولة وهو من أخطر أنواع الإرهاب، وستجعل من العالم غابة يتحكم فيها قانون القوة لينسف قوانين كثيرة تحتاجها الإنسانية.

ولقد حذر من ذلك البروفسور الأمريكي (فرنسيس بويل) أستاذ القانون الدولي في جامعة (إلينيوي)

(١٠) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية. باريس. الناشر غاليمار. الطبعة الأولى: ٢٠٠٢. دراسة لكامبريدج بوك ريفيوز. موقع الجزيرة نت.

الأمريكية ألف كتاباً اسمه (مستقبل القانون الدولي والسياسة الخارجية الأمريكية قال فيه:

إن أمريكا تحولت إلى دولة (هوبزية) تعتمد في سياستها الخارجية على الثوابت الهوبزية فهي تنظر إلى العالم من خلال مصلحتها فقط وتستخدم قوتها لتفرض على العالم قوانين تخدم مصلحتها فقط.

وشهوة التوسع ستوصلها في النهاية إلى عدم قدرتها على إدارة أزمات البلدان التي توسعت فيها، فهي تشبه حال من لديه مال كثير، ويريد أن يأكل كل الطعام الموجود على مائدة مفتوحة، فحالة النهم والجشع، ستؤدي به إلى بقاء في النهاية كل ما أكل ويصاب بأمراض كثيرة قد تؤدي بحياته.

بول كينيدي وهو من أبرز المؤرخين الأمريكيين المعاصرين ومدير معهد دراسات الأمن العالمي في جامعة (بيل) في ولاية (كونتيكت) ذهب في كتابه الشهير (نشوء وسقوط القوى العظمى) إلى أن القرن الماضي هو القرن الذي شهد سقوط أكبر عدد من الإمبراطوريات كالعثمانية والفرنسية والبريطانية والسوفيتية والألمانية.

وعندما درس أسباب السقوط لهذه الإمبراطوريات؛ وجد أن هناك ثلاثة عوامل مشتركة ساهمت في سقوط الإمبراطوريات السابقة وهي:

العامل الأول: فقدان القدرة التنافسية والإنتاجية: وتجاوز بلدان أخرى للإمبراطورية

اقتصادياً؛ وأعطى مثالين لبلدين ينموان اقتصادياً، من الممكن أن يشكلا منافساً اقتصادياً حقيقياً للولايات المتحدة؛ وهما الصين التي بلغت نسبة النمو لديها ٨%، والهند التي تنمو بنسبة ٦%؛ وبين أن هذين البلدين سيمتلكان قوة اقتصادية وعسكرية إضافة إلى القوة البشرية الموجودة أصلاً لديهما، وأن الاستمرار الأمريكي بالإنفاق العسكري الذي وصل إلى (٤٠٠ مليار دولار) سيشكل إرهافاً كبيراً للاقتصاد الأمريكي الذي يعاني من مشاكل كثيرة؛ وضعفاً في القدرة التنافسية والإنتاجية في المستقبل.

العامل الثاني: حالة التوسع الشديد في الهيمنة الخارجية:

التي ستؤدي إلى بعثرة القوة الإمبراطورية ممّا يؤدي إلى إرهابها اقتصادياً، وهذا الإرهاف سينعكس على الميدان العسكري، فتلحق بها هزيمة عسكرية عندئذٍ يصبح شعب الإمبراطورية غير مقتنع ولا مؤيد للهيمنة والتوسع الإمبراطوري، بل يبحث عن أمنه الداخلي كما حدث للإمبراطورية السويدية والبرتغالية.

العامل الثالث: الهزيمة العسكرية التي تلحق بالإمبراطورية في حرب ما والتي تعرضها فيما بعد إلى غزو داخلي.

أمّا المفكر السياسي الأمريكي نعوم تشومسكي فينظر إلى انهيار الإمبراطورية الأمريكية من زاوية أخلاقية، حيث يذهب ومعه كذلك كثير من علماء السياسة الأمريكية إلى أن أمريكا يقودها حزب واحد، وهو حزب رجال الأعمال والأثرياء المؤلف من جناح الجمهوريين وجناح الديمقراطيين وبين أن ثمة غالبية من الشعب الأمريكي تفوق نسبة الـ ٨٠% تعتقد أن سياسة الإدارة الأمريكية تخدم مصالح الأثرياء وأصحاب الشركات العملاقة، وأن الانتخابات الأمريكية غدت مسرحية هزلية لم يعد الشعب الأمريكي مقتنعاً بها؛ وأن ٧٥% من الشعب الأمريكي وصفت انتخابات عام ٢٠٠٠ بالمهزلة التي لا علاقة لهم بها.

وبين تشومسكي أن الإدارة الأمريكية تمارس غشاً وتديساً على الشعب الأمريكي لا مثيل له، ويؤكد

تشومسكي أن الولايات المتحدة لم تعد بلداً ديمقراطياً؛ بل هي نظام تحكمه طغمة متعددة الأقطاب، والقرارات فيها تتخذ من قبل الأثرياء وأصحاب الشركات والنفوذ واللوبيات، وأحياناً تتم المصادقة عليها شعبياً، وإلى المذهب ذاته ذهب (جون ديوي) أكبر فلاسفة علم الاجتماع في أمريكا.

بعد شهوة التوسع يأتي عامل العقلية العسكرية التي تسيطر على الإدارة الأمريكية:

صحيح أن الأمريكان قد تطوروا تكنولوجياً، ولكن أخلاقياً بقيت تسيطر عليهم ثقافة رعاة البقر وعقلية الكاوبوي وأيديولوجية البروتستانت وخرافات اليهود الدينية؛ وسابقاً كان يقال عن دول العالم الثالث: إن سبب تخلفها وانحطاطها، أنها ذات قيادة عسكرية، والعسكر لا يجيدون السياسة ويسقطون في الفخاخ التي تنصب لهم وما كانوا يعيرونه على الدول النامية وقعوا فيه. اليوم إدارة بوش الصغير هي إدارة عسكر (تشيوني. باول. وولفويتز وغربونتي وغيرهم) ونظراً لضيق أفق العقلية العسكرية سياسياً؛ وجدنا بوش وإدارته اختاروا في حريهم الكونية الحالية خصماً كونياً، لا يستوطن دولة محددة، ولا محصوراً في بقعة جغرافية معينة، بل يوجد في كل أرجاء المعمورة، وهكذا حال الإسلام، ورغم أن إدارة بوش في تحليلات السياسيين لها مآربها البراغماتية التوسعية في هذا الاختيار، إلا أن هذا الاختيار يعتبر خطأ استراتيجياً؛ فهي من جهة استعدت عليها أكثر من المليار ونصف المليار من المسلمين الذين يؤمنون بهذا الدين، ومن جهة أخرى وضعت كل المسلمين في سلّة واحدة.

وهذا ما نبّه إليه أساتذة جامعة (هارفارد) بوش إليه، إذ أكدوا له أن دخوله في حرب مع مجموعات بشرية تمتلك اعتقاداً لا يعرف المهادنة، وتنتشر في كل مكان، يعدّ خطأ قاتلاً؛ سيضعف من هيبة الولايات المتحدة، وسيجعل أكثر من نصف سكان العالم ينظر إليها على أنها دولة تستعدي الآخرين لأسباب دينية، وهذا عمل لا أخلاقي وسينهك الاقتصاد الأمريكي، وعليه أن يصحح الخطأ بأن يجعل حربه على دولة محددة، واضحة الجغرافية، لا أن يحارب أشباحاً، قادرة على ضرب الولايات المتحدة في عمقها.

والعقلية العسكرية الأمريكية ربّما تنجح في الحرب، إلا أنها تخسر في السياسة والسلام؛ والمهم في الحروب نتائجها السياسية، وأمريكا ما دخلت بلداً لتصلحه على حد قولها، إلا وزادته فساداً، وغالباً ما يولّد النصر العسكري الأمريكي هزيمة سياسية (العراق مثلاً) ويعود السبب في ذلك إلى أن أمريكا دائماً تفقد العامل الأخلاقي في حروبها وهذا أمر واقع من هيروشيما وناغازاكي إلى بغداد وفضيحة اليورانيوم المنضب وسجن (أبو غريب).

الأمر الثالث: عدم اعترافها بالآخرين كشركاء:

وهذا الأمر يدل على غطرسة القوة في العقلية الأمريكية، وسيطرة مفاهيم لا أخلاقية على أصحاب القرار الأمريكي، حتّى غدا شعار (القوة هي الحق) أيديولوجية يؤمن بها قادة أمريكا، لذلك وجدنا شعار بوش (من ليس معنا فهو ضدنا) يلقي ترحيباً لدى أصحاب القرار في الولايات المتحدة، ولأن أوروبا تمتلك خبرة كبيرة عالمياً في تعاملها مع الشعوب الأخرى رفضت هذا الخيار، كما رفضت الذهاب خلف أمريكا في عدوانها على العراق، لعدم توفر السبب الأخلاقي لتلك الحرب ولعدم قبول التبعية لأمريكا.

الرابع: ضعف إيمان أبناء الشعب الأمريكي بفكرة الإمبراطورية:

الشعب الأمريكي شعب براغماتي، ويعيش على اقتصاد السوق، ومثل هذه العقلية تبحث عن الأمن

الداخلي لتتحرك اقتصادياً وعندما يصبح الأمن الداخلي مهدداً، هذا سيؤثر على العقلية البراغماتية للمجتمع الأمريكي وبالتالي ستبدأ بالمطالبة بتأمين أمنها الداخلي؛ وسترفض استراتيجية التوسع الإمبراطوري، وهذا ما حدث يوماً للإمبراطورية السويدية والبرتغالية، ويحدث اليوم للشعب الأمريكي.

ففي الاستفتاء الذي جرى في ١/٨/٢٠٠٤ صوّت الشعب الأمريكي بغالبية رافضاً سياسة التوسع الإمبراطوري التي تنتهجها الإدارة الأمريكية، وأنه أصبح يشعر بالقلق لأنه أصبح شعباً مكروهاً من قبل الآخرين.

المفكر السياسي الأمريكي (برجنسكي) ذهب في حديثه عن انهيار المجتمع الأمريكي مذهباً أخلاقياً داخلياً حيث بيّن في كتابه (الانفلات) أن الخطر الحقيقي الذي يهدد أمريكا يتمثل في التحلل الأخلاقي الذي أخذ ينهش في المجتمع الأمريكي، وبيّن أن غياب المعايير الأخلاقية وانتشار قيم الاستهلاك وانتشار الفساد والمخدرات والجريمة المنظمة هي من تهدد الولايات المتحدة، وأكد أن جرائم القتل تعد العامل الأساسي للوفاة في الولايات المتحدة، وأن المفاهيم التي ترفعها عن حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية مفاهيم زائفة، وأن المبالغة في الإباحية والشذوذ الجنسي التي تنتشر في المجتمع الأمريكي هي التي ستؤدي إلى تفكك الولايات المتحدة.

ويشير الأستاذ كمال حبيب إلى ظاهرة التطرف والعنف التي أخذت تسود في المجتمع الأمريكي ستعجل من انهيار الولايات المتحدة فيقول: التطرف أحد التحديات التي تواجه الأمن القومي الأمريكي..... وفي تقرير لمركز قانون الفقر ذكر أن مؤتمرات المتطرفين الأمريكيين الرامية إلى إخراج قطارات عن القضبان واغتيال شخصيات عامة ونسف جسور؛ زادت زيادة حادة في السنوات الماضية؛ وأورد المركز المذكور تفاصيل أكثر من (٢٤) مؤامرة رصدها منذ حادث أوكلاهوما ثم يقول: تشير الإحصائيات الرسمية إلى أن عدد قطع الأسلحة المنتشرة بين أيدي الأمريكيين تبلغ حوالي (٢٠٠) مليون قطعة سلاح، أي بمعدل قطعة سلاح لكل أمريكي باستثناء الأطفال، وفي عام ١٩٩٦ استخدم السلاح في ارتكاب (٩٣٩٠) جريمة قتل بينما لم ترتكب سوى (٣٠) جريمة مسلحة في بريطانيا و(١٥) في اليابان، وتزيد نسبة ارتكاب الجريمة بين الأطفال دون سن الخامسة عشرة أكثر ١٦ مرة عما هي عليه في (٢٥) دولة صناعية مجتمعة، وكل عام تشهد أمريكا (١٣٥) ألف جريمة قتل أو انتحار أو حادث مسلح^(١١).

ثالثاً: السبب السنني؟

سنة الله جل جلاله في كونه تقول: إن المفسدين وأعداء الإنسانية والمستكبرين والذين يعيشون في الأرض فساداً؛ سيجرفهم تيار الحق عاجلاً أم آجلاً، ومن لا يصدق تلك السنة فليقرأ التاريخ. ليجده ممتلئاً بأمثلة عن هؤلاء، وسيبقى المصلحون الذين يعمرّون الأرض بالخير والصلاح والمحبة؛ وعن تلك السنة يحدثنا القرآن الكريم قائلاً:

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْزَعُ مِنْ حُمُومٍ فَتَكُونُ أَصْنَانٌ يُشْرَبُ مِنْهَا وَيَنْفَعُ النَّاسَ فَبِئْسَ الْكُنُوزُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ عَنْ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

^(١١) محمد حبيب: غروب الحضارة الأمريكية، مجلة البيان العدد ١٣٣، عام ١٩٩٩.

وهذه السنة الإلهية التي تحكم الكون باقية ثابتة، لا تعرف استثناءً؛ ولا تحابي فرداً ولا جماعة، ومقياس البقاء لديها الصلاح والإصلاح؛ لذلك يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

والإنسان جزء من هذا الكون، والحق جل جلاله خلقه سيّداً فيه لا سيّداً عليه، وكل من يحاول أن ينال من إنسانية الإنسان لا بد أن تتحقق فيه سنة الله، ويجري عليه قانون السببية، لتجعله يذهب جفاء كما ذهب هتلر وموسوليني وفرعون ومن حذا حذوهم، وكما ذهبت ألمانيا وفارس وروما والاتحاد السوفييتي ومن سار على نهجهم، وهذا يعني أن الأمم يجري عليها ما يجري على الأفراد، وهي في سيرها الزماني خاضعة لسنة الله جل جلاله، وكما نعلم أن سقوط ثمرة من شجرة ما؛ هو نتيجة حتمية لأسباب محددة أدت لهذا السقوط، وبالتالي فإن السقوط لم يأت عبثاً.

والقرآن الكريم تمتلئ آياته بالحديث عن هذه السنن، وقد تحدث عن فقه تلك السنن أكثر مما تحدث عن فقه العبادات، لذلك وجدنا القرآن كثيراً ما يحدثنا عن قانون السببية، من خلال أقوام استكبروا في الأرض بغير الحق ويبين في نهاية حديثه كيف فعل قانون حركة التاريخ فعله في هذه الأقوام؛ ثم يطلب منا تدبر أسباب النهوض والسقوط، ليحذرننا من أن نقع فيما وقعوا فيه من أخطاء وانحرافات؛ فيقول:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

والمشكلة لدينا كبشر أننا نؤمن ونسلم بالأحداث التي تنتج عن هذه السنن في الأشياء، ولكننا نتغافل عن مثل هذه السنن في الأمم والأفراد، فالكُل مُسَلِّمٌ بأن الماء يتجمد في درجة حرارة معينة، ويغلي في درجة حرارة معينة، ولكننا نتغافل ولا نقوم بدراسة سبب سقوط هذا النظام السياسي، أو اندثار هذه الأيديولوجية الخاطئة، أو تخلف هذه الأمة، أو هزيمة هذا المجتمع، فنشوء وانهيار الأمم له أسبابه المادية البحتة، تلك الأسباب هي التي جعلت سنة الله تعمل فيها سلباً أو إيجاباً.

ولو تدبرنا القرآن الكريم ستجد أن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان وصلة الرحم والحق، أكثر مما يأمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج، وينهى القرآن عن الاختلاف والفحشاء والمنكر والبغي والسعي في الأرض فساداً، أكثر مما ينهى عن أشياء جعلناه من الأولويات.

ومن أسباب هلاك الأفراد والأمم هو الظلم، وأكد جل جلاله أن الأمم التي تظلم الآخرين تحت أية ذريعة حتى ولو كانت نشر الدين، فإن الله سبحانه سيقطع دابرها، والتاريخ القريب والبعيد يعج بأمثلة عن ذلك، ويؤكد جل جلاله أن سبب هلاك مثل تلك الأمم الظلم حيث يقول:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٣٧).

ويبين أن تلك السنة باقية ماضية وكما فعلت فعلها في السابقين، ستعمل الفعل نفسه في اللاحقين حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (يونس: ١٣).

وعندما يتحدث جل جلاله عن إفساد الفاسدين، واستكبار المستكبرين، وظلم الطغاة يذكر أفعالاً لغوية؛ تدل على قوة القهر التي ستنتزل بالمستبدين والظالمين، ويبين أنهم سيستبدلون بأخرين؛ فيقول:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١).

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

والدول كالبشر لها أجل معين، وموت الدول يشبه كثيراً موت إنسان أصيب نتيجة أخطاء اقترفها بمرض عضال، فلم يعد يقوى على الاستشفاء منه فيخر صريعاً والله جل جلاله يقول:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

ويقصد بالأمم هنا هو نظام الحكم الفاسد الظالم، ومثل هذه الأنظمة الفاسدة ستهلك حتماً، أما أجلها فسينقضي باستكمال دورة الفساد والظلم والاستكبار والطغيان.

والقرآن يلفت النظر إلى قضية في غاية الأهمية؛ حيث يبين لك أن الأمم والأنظمة قد تبقى مع الكفر ما دام أهلها لا يتظالمون فيما بينهم، ولكنها لن تدوم مع الظلم حتى ولو كانت مسلمة، لذلك جاء قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧).

ومصلحون هنا في فهمي هم الذين يقدمون خدمات إنسانية تنفع بني البشر.

إذاً الظلم إذا استشرى في دولة ما سيجعلها مستكبرة، تقهر المستضعفين وتذل كبار القوم، وتسعى في الأرض فساداً، عندئذ تبدأ سنة الله تتحقق فيها شيئاً فشيئاً حتى تقهر وتذهب إلى غير رجعة، لذلك يقول تعالى:

﴿اسْتَكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

من هذا القانون السنني الذي يحكم الحق جل جلاله الكون فيه نستنتج ما يلي:

إن الظلم سيولد في هذه الأمة أو تلك، وفي هذا النظام أو ذاك، وفي هذا الإنسان أو غيره عوارض وآثاراً؛ تبدأ بعملية تآكله لتؤدي إلى انهياره، وأول ما يصيب الأمم من هذه العوارض العجز الاقتصادي؛ والتحلل الاجتماعي، ثم الإفلاس الفكري، وهذا ما تحقق في الرومان والألمان والعثمانيين والسوفييت وغيرهم، وستؤثر هذه الأشياء في القدرة على الإبداع والإنتاج عند أبنائها؛ وسيتحولون شيئاً فشيئاً إلى عبادة الأشياء، والبحث عن لقمة العيش، لتتأثر قوة الأمة العسكرية والثقافية؛ وبالتالي ستصاب بالوهن شيئاً فشيئاً؛ لتتداعى عليها الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، ثم ستغدو أثراً بعد عين؛ وهذا ما حدث لأمتنا يوماً ما وعن ذلك يقول تعالى:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٢).

أليست بيوت الأمويين والعباسيين والألمان والرومان وستالين وهتلر وغيرهم خاوية على عروشها، وكذلك إن شاء الله ستكون بيوت أصحاب القرار في الإدارة الأمريكية، والحق جل جلاله كما يستدرج الظلمة والمستبدين والمستكبرين ليقعهم في شر أعمالهم كذلك سيستدرج الدول الظالمة.

فالله جل جلاله استدرج قوم صالح بالدابة، وفرعون إلى البحر، والعثمانيين بفرض الإسلام بالقوة، واستدرج الروس بسباق التسلح كذلك سيستدرج الأمريكان بالإفراط في القوة، واقتصاد خرافي، واستكبار بغير الحق، حتى يأخذهم بغتة، يقول تعالى:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ (القلم: ٤٤ . ٤٥).

والاستدراج هو أحد مقامات قانون السببية، لتحقيق سنة الله في الطاعة والمستبدين والمستكبرين، فالله يكد للول الظالمة والأنظمة الظالمة لأنها تكيد وتمكر بالإنسان. والله جل جلاله يقول في الاستدراج الأممي:

﴿فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرُّوا بِمَا آوَتْوا أَخَذْنَا هُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤).

وبعد: تلك هي سنة الله، وهذا هو قانون حركة التاريخ، وكلاهما تحقق في الإمبراطوريات السابقة، فهل ستكون أمريكا بدعاً من الإمبراطوريات؛ لتكون استثناءً؟.

العلم والعقل والتاريخ كلهم يقولون: سيجري عليها ما جرى على الإمبراطوريات المتجبرة، وكما أسلفنا فإن المقدمات الخاطئة ستؤدي إلى نتائج خاطئة والعكس صحيح، وأمريكا بدأت نشأتها بالغدر والمكر والإرهاب، وقامت بجرائم لم يعرف التاريخ نظيراً لها في البشاعة، فهي التي أبادت ملايين الهنود الحمر، لأسباب براغماتية أيديولوجية، وشبهتهم بالكنعانيين العرب؛ كما شبهت مسلمي الفلبين بالنمل الأبيض؛ والعراقيين العرب بالصراصير.

وهي التي قهرت ولا زالت تقهر أمريكا اللاتينية، وهي التي أبادت هيروشيما وناغازاكي، لتجرب قنابلها، وهي التي تدعم الصهاينة في أرضنا المقدسة، وهي التي أفسدت الحرث والنسل في العراق باليورانيوم المنضب، مروراً بـ (٢) مليون قتيل فييتنامي، ومئات الآلاف من الضحايا في الفلبين وكوريا، وقد شارفت دورة البغي الأمريكي على النهاية عندئذ:

﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)



أمريكا :

صناعة الحبّ قو صناعة الكراهية

د. بسام ساعي *

تذكّرني العلاقة بين الإسلام والغرب بلعبة النّواسة see-saw . ورغم أنّ هذه اللعبة تمثّل أيضاً تبادل الحضارات لمواقعها على خريطة التاريخ (فوق، تحت، فوق..) فإنّي لم أقصد بالتشبيه هذا الجانب من اللعبة، وهو مهمٌّ أيضاً في مساعدتنا على مواجهة الواقع الذي نعيشه الآن، ولكنني أفكر بالمسألة وكأنّ على طرفيّ النّواسة أثقالاً من الفكر والعلم والأدب والفنّ والأنظمة والأخلاق والمأكولات والمشروبات ووسائل المتعة، فإذا ارتفع جانبٌ منها انزلت كلّ هذه الأثقال تلقائياً إلى الجانب الآخر، والعكس صحيحٌ أيضاً.

وخلافاً لرأي الكثيرين فإنّي لا أذهب إلى اتهام الغرب بأنّه يحاول تصدير فكره وثقافته ومبادئه بقصّها وقضيضها إلينا، وهل يحتاج الغرب حقاً إلى بذل أيّ جهدٍ في هذا السبيل؟ من المؤكّد أنّنا سنسعى بأقدامنا جاهدين للوصول إليه والحصول على ما عنده ولو بالقوّة إذا توقّفت عمليّة التصدير التلقائيّة هذه.

إنّهُ مبدأ النّواسة يفرض نفسه علينا. نحن في موقعٍ لا نستطيع معه أن نوقف انحدار ثقافة الغرب ومنتجاته من الطرف الأعلى للنّواسة، ولا يستطيع الغرب من جانبه، حتّى لو أراد، إيقاف هذه الأثقال المتجهة بقوّة نحو الأسفل.

أرجو ألاّ يُفسّر هذا بأنّه دعوة إلى الاستسلام للغرب والسقوط في أحضانه بدون أيّة مقاومة، ومن المهمّ أن ندرك أنّ ما أعدّه الغرب لنفسه، من أفكارٍ ومبادئٍ وفلسفَةٍ تربويّة وإعلاميّة وأفلامٍ وكتبٍ ورواياتٍ ووسائلٍ لهوٍ ومخترعاتٍ ومنتجاتٍ وسلعٍ استهلاكيّةٍ ووجباتٍ سريعةٍ وغيرها، ليس بالضرورة هو الذي يلاثم الشرق، ومن الخطر وضيق الأفق حقاً أن نقبل كلّ ما يسقط فوق رؤوسنا من هذه الأثقال والإفرازات الغريبة ونحاول ابتلاعه وهضمه، بغضّ النظر عمّا سيقع لمعدتنا من اضطرابٍ وأخطارٍ قد تؤدي بها وبنا.

ولا بدّ مع ذلك حين نتحدّث عن الرفض أن نتحدّث عن البديل، والبديل لحضارة الغرب ما يزال بعيداً عن أنظارنا. حتّى أولئك الذين أدركوا أنّ البديل هو الإسلام ما زال أكثرهم يردّها من غير أن يكون في جعبته أيّ قاموسٍ نهائيّ لترجمة معطيات الغرب إلى لغتنا، بحيث يستطيع هذا القاموس أن يقمّ البدائل

* أكاديمية أوكسفورد للدراسات العليا .

الإسلامية لكل الصادات الغربية إلينا، وهي نقطة ضعف خطيرة أخرجت، لا أقول قيام أي حكم إسلامي مستقر حتى الآن، بل قيام أية محاولة إسلامية جادة لتحقيق تفاهم حضاري مع الغرب.

والحوار بين الثقافات في هذا العالم، الذي ما يزال يصغر يوماً بعد يوم أمام عملاقة الاتصالات الإعلامية الفضائية المتنامية، لم يعد مجرد أمر مطلوب على الجميع أن يتحركوا باتجاهه، ولكنه فرض نفسه علينا، وأخذ زمام المبادرة من أيدينا، ودخل غرف نومنا وحشايًا وسائدنا، شئنا أم أبينا. إن الفوارق الفكرية والعقدية والحضارية، بل الدينية أيضاً، بدأت تذوب وتتكرر تحت وطأة موجات الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية والاتصالات الإعلامية الخارقة التي تشترقت حول الكرة الأرضية، وأصبح من المستحيل الخروج من شبكتها المحكمة، ولهذا تحتم علينا أن نتعايش مع الحقائق الجديدة: حقائق إلغاء الحدود السياسية والثقافية والدينية.

ولا أعني بإلغاء الحدود الدينية توحيد الأديان، إن هذا لم يتحقق في الماضي ولا أظنه يتحقق في المستقبل، بل أعني إزالة الحواجز النفسية والمعلوماتية السابقة التي أسهم تاريخنا المشترك، الحافل بالصراع بين الشرق والغرب، في تعميقها وتكريسها، وأتت بعد ذلك الإضافات والتحريفات الحتمية لهذا التاريخ، كأني تاريخ آخر، لتزيد الحواجز والجدران رسوخاً وارتفاعاً.

وبغض النظر عن سوداوية آراء صمويل هنتنجتون Huntington في كتابه المثير عن صراع الحضارات Clash of Civilization فإن الخوف من قيام "كتلة إسلامية" تحل محل "الكتلة السوفييتية" المنهارة قد يكون له ما يسوغه لدى الغرب إذا ظلت الأمور تسير في العالم الإسلامي، كما هي الآن، في الاتجاه الخطأ. فعقدة الجهاد والمجاهدين ما تزال مستحكمة في التفكير الغربي، ومظاهر الجهاد المعاصر وجماعات الجهاد يغلب على معظمها، للأسف، طابع الجهل بحقيقة الجهاد وأغراضه وطبيعته التي يجب أن تواكب معطيات الحياة والعصر. وهكذا اختلط الجهاد الحقيقي والمقاومة من أجل تحرير الأرض والدفاع عن الكرامة العربية والإسلامية المهانة، بالإرهاب الحقيقي الذي يضرب المظاهر الحضارية في العالم ويبطش بالمدنيين بعيداً عن أرض المعركة، ليشوه بذلك صورة الجهاد وصورة الإسلام والمسلمين.

ولكن تشويه صورة الجهاد لا ينبغي أن يكون حاجزاً أمام الغرب عن رؤية الحقيقة. إن ما يسميه الآن "الإرهاب الإسلامي" بوجهيه: الحقيقي والمشوه، ليس إلا إفرازاً للأخطاء التي ارتكبتها بعض دول الغرب في أحكامها على قضايا المسلمين المصيرية وموقفها المشجع ممن ينالون من حقوقهم ويقومون بالاعتداء عليهم.

وقد بدأ الغرب، مع ذلك، يدرك حقيقة هذه المعادلة "النواسية" فعرف كيف يتعامل مع مشكلة أفغانستان أثناء الحكم الشيوعي، رغم بواغث الغرب الأخرى ومصالحه المناهضة للشيوعية آنذاك، ثم عرف كيف يتعامل مع مشكلتي الجزائر والبوسنة، رغم تأخره في تصحيح موقفه منهما. وكان من المهم للغرب أن يدرك منذ البداية أن الإرهاب ليس إسلامي الأصول، وفي اغتيال إسحق رابين على يد متطرف صهيوني إشارة واضحة إلى مصدر آخر، ربما كان هو المصدر الحقيقي والأقدم للإرهاب في العالم، ألا وهو الصهيونية.

لقد حكم إسحق رابين بنفسه على نفسه بالموت منذ أن كان يمارس الإرهاب على سكان فلسطين الأصليين عندما لم تكن قد سمعنا بمصطلح "الإرهاب" بعد. إن مذابح الرجال والنساء والأطفال التي

شهدتها قبية ودير ياسين وقليلية وصبرا وشاتيلا على أيدي رابين وتلاميذ مدرسته لم يعرفها المسلمون في تاريخهم، ولم يمارسوها مع أي شعب حاربوه، حتى مع تلك الشعوب التي بادرتهم بالعدوان والمذابح والتشريد والتكيد.

تعالم رابين هي التي قتله. لقد مارس الأساتذة أسلوباً ابتدعوه وأتقنوه وعلموه، ثم يريدون من تلامذتهم أن يتصرفوا بطريقة مختلفة، وهيئات هيئات.

إنَّ جوَّ الإرهاب الذي أشاعته إسرائيل في المنطقة هو الذي يخرج الآن، أيضاً، هذه الأجيال من القنابل البشرية التي تسميها أمريكا إرهاباً.

لقد كان العرب دائماً ضدَّ إسرائيل، لأنَّ إسرائيل كانت دائماً دولةً مغتصبةً، ولكنهم لم يكونوا يوماً ضدَّ أمريكا. فالولايات المتحدة، منذ أن نالت استقلالها، كانت تمثل نموذج الحرية والديموقراطية والعدالة في عيون الشارع العربي.

وأذكر، وأنا ما أزال في بواكير مرحلتي الإعدادية (أوائل الخمسينات) أنني بدأت أرسل مكتب المعلومات الأمريكي في بيروت وأتلقى منه كلَّ عام عشرات الكتب والمجلات والمنشورات التي تتحدث عن أمريكا، تاريخها وحاضرها وجغرافيتها وسكانها، وقصص الهنود الحمر، ورعاة البقر، وحرب تحرير العبيد، وصناعة الرجال والحضارة والتاريخ.. لا أحد يستطيع أن يتصور عمق النشوة التي كانت تأخذني حين يحمل البريد إليّ كتاباً جديداً عن أمريكا، وقد امتلأت صفحاته الصقيلة اللامعة بأجمل الصور، وازدانت بأزهى الألوان الطباعية، لأقرأ عن جورج واشنطن مؤسس الدولة الأمريكية المستقلة، وإبراهيم لنكولن محرر العبيد، وبنيامين فرانكلين الرئيس المخترع، ومغامرات الاكتشاف المثيرة التي خاضها المهاجرون الأوائل إلى العالم الجديد، وكيف فرض الشماليون الوحدة بالقوة والحرب على الجنوبيين لتشكيل دولة امتدت بعد ذلك لتشمل خمسين ولاية، وتكون منها أقوى دولة على ظهر الأرض، فكان الجنوبيون بهذا كمن يساقون إلى الجنة بالسلاسل!!

ومرّت السنون، ونموت، ونما معي هذا الاهتمام. ويمرّ إعصار الشيوعية فوق الأرض العربية، ويصبح الحديث عن أمريكا والاهتمام بأمريكا نوعاً من المغامرة المجنونة أقل ما يمكن أن تسببه لك هو الاتهام بالعمالة أو الزج بك في السجون، فمن الحكمة والسلامة إذن أن تحتفظ باهتماماتك منذ الآن صامتةً ودقيقةً.

كنت أشد ما أكون إعجاباً بالتواضع والعدالة والحكمة التي يتمتع بها رؤساء أمريكا، فأرى فيهم تأكيداً لوصف القرآن الكريم، حين امتدح في المسيحيين تواضعهم ورهبانية قسوسهم، وأشاد بمودتهم الصادقة للمسلمين:

"وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قُسُوسِينَ وَرُهَبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" [المائدة: ٨٢]

ولكن كثيراً ما كان يحدث أن تذهب بي أفكار بعيداً، فتضعني أمام صورة مرعبة: ماذا سيقع للعالم لو أن رجلاً كهتلر أو شارون امتلك مقدرات الولايات المتحدة الأمريكية، بكنوزها وجيوشها وصواريخها وقنابلها النووية؟ كنت أعلم أن فرصة حدوث شيء كهذا لن تزيد عن فرصة اصطدام كوكب عابر بالكرة الأرضية، ومع ذلك ظلّ افتراضاً حياً ومقلّماً في مخيلتي، مثلما ظلّت صورة الرؤساء الأمريكيين في ذهني

مرتبطة بالاحترام والعدالة والنزاهة والشرف.

كم أعجبت بالرئيس أيزنهاور وهو يوجّه إنذاره إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عام ١٩٥٦ ليقفوا عدوانهم على مصر. وكم أعجبت بالرئيس الشاب جون كينيدي، وبأسرته النموذجية، وبتوجهاته الجريئة نحو القضايا العربية والقضايا الإنسانية، وعلى رأسها قضية السود في أمريكا، وكم صُدمت بعد ذلك، وصُدم العالم، لاغتياله عام ١٩٦٣.

وأخر تعاطف وإكبار مني لسلسلة الرؤساء الأمريكيين كان للرئيس بوش الابن عقب جريمة ١١ أيلول / سبتمبر التي هزّت العالم وهزّت ضمير كلّ عربيّ، فكنت لا تسمع في الشارع العربي إلا من يندّد بهذه الجريمة ويدّعي ويتحسّر على صورة العرب والمسلمين كيف يشوّهاها التطرّف، ويحجب حقيقتها الجهل بالإسلام وبالأخلاق العربية وبتعاليم رسول الإسلام الذي ما أرسله الله "إلا رحمة للعالمين" //الأنبياء: ١٠٧/. ولقد أصرّ معظم الناس آنذاك، وأنا منهم، على أن الفاعلين، أو على الأقل من هم وراء الفاعلين، لا يمكن أن يكونوا إلا مغامرين جهلة، أو خبثاء خطرين يكيّدون للعرب وللمسلمين.

طالما حاولت "استحضار الغائب واستبعاد الحاضر" واضعاً نفسي مكان الرئيس بوش وهو يواجه هذا الموقف: كيف يمكن أن أتصرّف؟ كيف ستكون ردّة فعلي وأنا رئيس أكبر وأقوى دولة في العالم؟ هل أستطيع أن أصبر قرابة شهرٍ لأتأكد من حقيقة الأمر أولاً قبل أن أضرب وأنقذ الكرامة الجريئة لبلدي، كما فعل بوش حقاً، أم أضرب على وجه السرعة أقرب هدفٍ محتملٍ أمامي بدون انتظار تلك التحقيقات الطويلة المملة، كما كان يمكن لشارون رئيس وزراء إسرائيل مثلاً أن يفعل؟ كان ذلك عقب سبتمبر، ولكن الصورة تغيّرت كلياً عقب أكتوبر.

كان الشارع العربيّ بعد أيلول/ سبتمبر متعاطفاً مع أمريكا وهو يرى ذلك السقوط الكارثي لبرجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، بل ظلّ هذا التعاطف على قوّته بعد ذلك حتى حين قرّرت أمريكا مهاجمة أفغانستان والقضاء على طالبان والقبض على بن لادن وبن عمر و . . . إلى آخر القائمة. ولكن ما الذي حدث في أكتوبر؟

لقد صُدمنا جميعاً ونحن نرى الإمبراطورية الحليمة الحكيمة تفقد أعصابها فجأة، وتتحوّل إلى ما يشبه إلهاً من آلهة اليونان، يمسك باليد اليمنى حربةً وباليسرى صاعقةً ليضرب بهما خبط عشواء وفي كلّ الاتجاهات.

إنّها بدأت تهتّد العراق أولاً، ثم إيران، ثم سورية، وامتدّت السلسلة حتى شملت معظم الدول العربية، وبينها دولٌ كانت وما تزال صديقةً للولايات المتحدة. وفي خطوةٍ أكثر جرأةً تناولت الاتهامات والتهديدات معظم دول العالم الإسلامي، بل المسلمين أنفسهم، فما دام الذين فجّروا نيويورك جميعهم مسلمين فالمسلمون إذن كلّهم إرهابيون، وهو قولٌ لا يختلف كثيراً عن قولنا: ما دام كلّ أعضاء المافيا مسيحيين فلا بدّ أن يكون المسيحيون كلّهم مافيا. إنّ كلاً من القولين أشنع وأغبي من الآخر، وإن كان الأول قد قيل حقاً، والآخر لم يقل به أحدٌ أبداً..

الصدمة كانت أكثر من شديدة، وصورة العملاق بدأت تهتزّ في أعين من أحبّوه، وحجمه يتضاءل، واحترامه يتوارى خجلاً، والثقة التاريخية به تتراجع، وما بناه عشرات الرؤساء الأمريكيين في نفوس العرب والمسلمين، على مدى قرنٍ أو أكثر، يوشك أن ينهار، كسَدٍ تصدّعت جدرانها من هنا وهناك وبدأت المياه

المتسرّبة منه تخرج عن السيطرة وتقترب من الانفجار.

وما أزال غير مصدّق لما شاهدته في التلفزيون البريطاني مؤخراً، فقد كان أكثر صراحةً ووضوحاً من أن يُصدّق، أو كما يقول الإنجليز: Too good to be true.

لقد عرض برنامج (بانوراما) سبعة شخصياتٍ يهوديةٍ أمريكيةٍ هامةٍ ممّن سمّوا أنفسهم (المحافظين الجدد) New Conservatives ليعترفوا بصراحةٍ، وأمام العدسة التلفزيونية مباشرةً، بأنّهم يكوّنون (جماعة الضغط على السياسة الخارجية الأمريكية) وأنّ هذه الجماعة هي التي وجّهت أمريكا إلى حافة الحرب لغزو العراق. وحين سألتهم مقدّم البرنامج عمّا إذا كانوا يشعرون بوجود أي تضارب في المصالح عندهم conflict of interest بوصفهم يهوداً ومواطنين أمريكيين معاً، أجابوا بالنفي، وبأنّ كونهم يهوداً لا يمنع أن يكونوا مواطنين مخلصين لأمريكا. ولم يسألهم المقدّم، للأسف: ولكن كيف صادف أنّكم جميعاً من اليهود؟ رغم هذا كلّهُ، ورغم ما وقع من أحداثٍ مؤلمةٍ بعد ذلك، انتهت بالغزو الأمريكيّ. البريطانيّ للعراق، بكلّ تفاصيله المرعبة والمستمرّة حتى الآن، فما أزال أؤمن، كما يؤمن معظم المسلمين المتّقين، بأنّ بذور الخير والحكمة في جذور كلتا الدولتين الصديقتين، بريطانية وأمريكا، وأعماقهما الحضارية، ستتغلّب في النهاية.

لقد كنّا هنا في بريطانيا، وعلى مدى أيام الغزو، نشعر بوضوح أنّ الشارع من حولنا ضدّ الحرب. كان البريطانيون، حين يلتقون بنا نحن العرب، لا يدّخرون وسعاً في الاعتذار عمّا يجري، وانتقاد الحكومة البريطانية لمشاركتها في هذه المأساة التي يتعرّض لها العراقيون. إنه شعبٌ متحضّر حقاً.. وحين زارتنا جارتنا الإنجليزية في المنزل، فقط لتعبّر لنا عن تعاطفها مع الشعب العراقي ومعارضتها لما تتسبّب به الحرب كلّ يوم من مآسٍ وضحايا جديدةٍ لهذا الشعب، قلت لها: إنّنا لسنا قلقين على العراقيين بقدر ما نحن قلقون على البريطانيين والأمريكيين والعالم، فالعراقيون يعيشون مأساةً مستمرّةً لعشرات السنين، وربما كان ما فقده على يد صدام لا يقلّ عمّا سيفقدونه في الحرب، ولكنّ دخول الأمريكيين والبريطانيين إلى العراق، خلال زوبعةٍ من الحملات الإعلامية شُنّت ضدّ مليار مسلمٍ في العالم، كالدخول في عشّ دبابير، لأنّ بن لادن سوف يُستنسخ ويصبح مليون بن لادن، ومن كان يكره هذا الرجل من العرب والمسلمين سوف ينقلب ١٨٠ درجةً ليتحوّل بن لادن في نظره إلى بطلٍ أو أسطورةٍ، بل إنهم بهذا يحولون صدام حسين نفسه إلى بطل، فإذا ما دخل الحلفاء العراق، وحرّروه من صدام، فسوف ينقلب عليهم العراقيون ويحاربونهم ويصبّون عليهم كلّ حقد السنين التي كبّتهم فيها صدام، وهذا ما وقع حقاً.

وأخشى ما نخشاه هو أن يتحوّل العراق بالتدريج إلى مستنقع يمرّغ كرامة أمريكا وبريطانية، وأن تتعرّض مصالح البلدين في كلّ مكانٍ على وجه الأرض إلى الاعتداء والتخريب، وهكذا يدخل العالم في نفقٍ مظلمٍ من الخوف والقتل والتدمير لا يعلم إلا الله متى نخرج منه، ونكون بهذا قد فقدنا أمريكا التي نحبّ، وديمقراطيتها التي نقدّس، ومكانتها العالمية التي نحترم، وفقد العالم نهائياً، وإلى وقتٍ طويل لا يعلمه إلا الله، الأمن والاستقرار النسبيين اللذين كان يتمتّع بهما على مدى عقودٍ عديدة.

لا ندري الآن: هل سيأتي الوقت الذي تفهم فيه أمريكا أنّ حقيقة المشكلة بيننا وبينها شيء اسمه: فلسطين؟ وهل ستدرك يوماً أنّ مصلحة الشعب الأمريكيّ لن تتحقّق أبداً في إرضاء خمسة ملايين مهاجرٍ إسرائيلي، بل لنقل عشرة ملايين صهيونيّ، تتفق على دولتهم سنوياً عشرات المليارات من جيوب

الشعب الأمريكي، ثم إغضاب أكثر من مليار عربي أو مسلم يحبونها ويصوتون في خزانها وبنوكها يومياً المليارات من الدولارات، بل إغضاب ملايين من اليهود الشرفاء، في أمريكا وخارجها، الذين يعدون الصهيونية خروجاً على مبادئ السماء وانتهاكاً لمبادئ اليهودية الحقيقية؟

ويفعل الأمريكيون هذا على حساب من؟ على حساب المسلمين الذين أحبوا المسيح، ونظروا إليه على أنه أحد أعظم أنبيائهم، وأحبوا أمه البتول، ودافعوا عن طهارتها وطهارته، وقديسيته وقديسيته، وباركوهما وصلوا وسلموا عليهما كلما ذكرا. وإذا كان الرئيس بوش يتبع بهذا وصية المسيح الرائعة "باركوا لاعنيكم" فهل قال المسيح أيضاً: "العنوا مباركيكم ومحبيكم"؟

لا نظن أن أمريكا تحتاج إلى من يفهمها أنها بوقوفها مع إسرائيل المغتصبة ضد الفلسطينيين العرب، أصحاب الأرض المغتصبة، ليس أقل سوءاً من أية دولة تقف مع الهنود الحمر لإخراج الأمريكيين من أمريكا، هذا إذا نسينا الفرق بين التاريخ القصير للأمريكيين في أمريكا وهو لا يتجاوز ٥٠٠ عام، والتاريخ الطويل للفلسطينيين في فلسطين الذي يمتد إلى ما قبل المسيح عليه السلام، وإلا فمن أين جاء اسم فلسطين إذن؟

كان سكان فلسطين دائماً شعباً واحداً. كان الجميع على دين موسى، حتى جاءت المسيحية، فأصبح منهم اليهودي ومنهم المسيحي، ثم جاء الإسلام فأصبح منهم اليهودي والمسيحي والمسلم، وبقي من في فلسطين في فلسطين: لم يخرج منها شعب قديم، ولم يدخلها شعب جديد، إلا ما حدث من هجرة جماعية لليهود إليها في العصور الحديثة هرباً من اضطهاد بلاد الغرب لهم في عددٍ من الدول الأوروبية خاصة. [كان آخر تأكيد لهذه الحقيقة ما جاء على لسان أحد كبار أعضاء الوفد اليهودي إلى المؤتمر الذي عقد أواسط شهر شباط/فبراير ٢٠٠٤ في مركز الاتحاد الأوروبي ببروكسل لمناقشة مشكلة تزايد العداء لليهود في أوروبا، حين قال: إن معاداة السامية هو مرض أوروبي]

وإذن كيف اخترعوا للعالم بدعة ما أطلقوا عليه (العداء للسامية) مادام كل سكان فلسطين ساميين، وما دام كل الغربيين كذلك أيضاً، إذا كان جميع البشر حقاً قد انحدروا من أولاد نوح الثلاثة كما جاء في التوراة:

"وكان نوح ابن خمسمائة سنة، وولد نوح ساماً وحاماً ويافث" [سفر التكوين: ٥: ٣٢]

ويؤكد الحديث الشريف أن يافث هو أبو الصينيين والمغول والترك، وحام هو أبو السود، وسام هو أبو من تبقى من سكان الأرض:

عن أبي هريرة (ر) قال: قال رسول الله (ص): "ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فولد سام: العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام: القبط والبربر والسودان" [رواه البزار وابن أبي حاتم والخطيب]

ويقول سعيد بن المسيب: "كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم، ويافث أبو الصقالب والترك والخزر ويأجوج ومأجوج وغيرهم"

ولا ندري إن كان لأمريكا رأي آخر في توزيع الأجناس البشرية على أولاد نوح الثلاثة مختلف عن

هذا التوزيع، ومن سيكون جدّ الغربيين في هذه الحالة يا ترى؟

إنّنا نتمنّى لأمريكا أن تحتفظ بعواطف العرب والمسلمين نحوها كما كانت عقب سبتمبر لا كما تحوّلت إليه عقب أكتوبر.

نتمنّى لأمريكا أن تفهم أن العالم من غير وجود إسرائيل سيكون، عكس ما تتوهّم تماماً، أكثر أماناً وأشدّ ازدهاراً، وأنّ العلاقات بينها وبين العالمين العربي والإسلامي ستغدو أكثر دفئاً وأغنى عطاءً.

إلى متى تستثير أمريكا عدااء المسلمين دولةً بعد دولةٍ، وشعباً بعد شعب، من أجل بضعة ملايين جاؤوا ليعيشوا في أرضٍ لم يملكوها، وهي تعلم أنّ أمل إسرائيل الوحيد، والوحيد جداً، بالبقاء والعيش بسلام، كما علّمتنا العمليّات الحسابية البسيطة والبدهيّات التاريخية المملّة، لن يكون في إيقاف الانتفاضة الفلسطينية، ولا في قتل بن لادن أو صدام حسين، ولا في غزو إيران وسورية ولبنان وما تضمّه قائمتها من أسماء كثيرة أخرى، وإنما في إخماد الأنفاس، وإيقاف تدفق الدم تماماً في شرايين آخر إنسان من مجموع أكثر من مليار مسلم في هذا العالم، وهيهات هيهات.

إلى متى ستستمرّ أمريكا في مدّ يدها إلى غير اليد الممدودة إليها؟



التربية المدنية

دراسة في أزمة الانتماء

والمواطنة في التربية العربية

د. عبد الله مجيدل *

مقدمة:

إذ كانت التربية كما يعرفها جان بياجيه (j.Piage) بأنها مجموعة عمليات النمو والتكيف مع البيئة لحل المشكلات القائمة "فإن التربية المدنية بمفهومها الشامل لا تخرج عن إطار هذا التعريف. فقد كان علم التربية المدنية معنياً في الماضي بعلم الأخلاق وسياسة المدن ولكنه امتد في عصرنا الحالي إلى تناول موضوعات مستحدثة أوجدها التطور التقني والصناعي بما أحدثه من تغيرات في نسق الحياة بكل جوانبه، وما أدخله من عادات وأساليب تعامل لم تكن معروفة من قبل.

إن زيادة العبء التقني والفني في مواد الدراسة ومناهجها لم يغير الهدف الأسمى للتربية وهو إعداد المواطن الصالح. فالطبيب والمهندس والاختصاصي بأي مجال من المجالات قد يكون خطراً ووبالاً على المجتمع والدولة إذا لم يكن مواطناً صالحاً بالدرجة الأولى قبل أن يكون مهنياً، وهذا ما يجعل إعداد المواطن من أولى الأولويات في عملية التربية.

ولا شك في أن وسائل التربية والتعليم والتعامل مع المعطيات الاجتماعية والثقافية، والاقتصادية المعاصرة تتطلب تطويراً في الأساليب والوسائل حتى يتمكن الإنسان في مواجهة كل هذه التغيرات بأن يفرض تعاملاً متوازناً معها، فلا يشعر بالعجز عن التكيف مع متطلبات الحياة الجديدة، وعدم القدرة على تحقيق أهدافه.

لذلك لا يمكن معالجة مسألة التربية المدنية إلا في الإطار الزمني والحضاري اللذين يتحكمان بالإنسان فيمليان عليه ما يجب تعلّمه وممارسته حتى يعيش بتوازن عاطفي وعقلي مع محيطه. هذا ما يدعونا إلى تسليط الضوء على موقع التربية المدنية في تاريخ الحضارة الإنسانية حتى نتمكن من تحديد مضمونها في عصرنا الحالي في ضوء متطلبات الإنسان المعاصر. فالتربية المدنية ترمي إلى تكيف الإنسان مع متطلبات عصره، ومحيطه الاجتماعي. هذه المتطلبات لا يحددها الفرد من منطلق نظري بل يجد نفسه بمواجهتها، فهي متطلبات الواقع التي أفرزتها عوامل مختلفة ومتداخلة تفاعلت فيما بينها، فأوجدت الوضع الاجتماعي الذي يتهيأ الإنسان لدخوله والتعامل معه، وعلى الفرد التكيف معه هذا

* أستاذ مساعد في كلية التربية بجامعة دمشق.

الوضع حتى يدخل محيطه الاجتماعي ويمارس دوره فيه^(١).

ويمكن للإنسان أن يمارس تأثيره في مجتمعه بوساطة الدور الذي يؤديه، فيحدث التغيرات الإيجابية أو السلبية وفقاً لطبيعة هذا الدور. فكما أن الإنسان يتأثر بمحيطه فإنه يؤثر فيه أيضاً لذا فإن بناء حضارة عالمية إنسانية، يستلزم إعادة بناء الإنسان بناءً تمثل القيم الخلقية صلبه وجوهره. وإعادة بناء الإنسان هذه هي في صلب مهمة التربية بل هي أصلها وجوهرها^(٢). حيث تقع على التربية مسؤولية إعداد الإنسان للحياة الاجتماعية الناجحة كعضو في مجتمع معين، ثم كعضو في المجتمع الإنساني، فالتربية تشكل عقول الأجيال وتنمي لديهم قيم العمل والخير والسلوك الاجتماعي والعدل والديمقراطية والحرية وجميع القيم الفاضلة التي تحول الكائن البشري إلى كائن اجتماعي ومواطن صالح.

وقد لوحظ غياب بعض هذه القيم من الحياة الاجتماعية، فأصبحت هذه المجتمعات تعيش أزمات انعكست حتى على التربية فأصبحت هي الأخرى مأزومة، في مركب معقد تفاعلت فيه المؤثرات الاجتماعية السالبة وغدت تعيد نتاج هذا المجتمع أو ذاك بكل ما يعتريه من خلل وفقدت بذلك زمام المبادرة في تكوين المواطن وتربيته على قيم التسامح والديمقراطية والحرية والمواطنة الصحيحة. كما لوحظ تنامي لنزعات التعصب السياسية والمذهبية والمجتمعية التي تلغي مساحات الحوار والتفاهم وقبول الآخر. إن أي مجتمع مبتلى بالتعصب هو مجتمع مريض والحقيقة التي تؤكد التجربة الإنسانية أن الديمقراطية هي المنطلق الحيوي لحل التناقضات السياسية والمذهبية والمجتمعية بشكل سلمي حيث أن الديمقراطية في جوهرها تقوم على مجموعة من القيم والأعراف الإنسانية، كالتسامح والتعايش، واحترام الآخر، والحوار، والحل السلمي للخلافات، مع احترام حقوق الإنسان والاضطلاع بها كأرضية للممارسة الفاعلة في كافة هذه المجالات. ولما كانت هذه المفاهيم تشكل جوهر التربية المدنية، كما أنها ركائز أساسية لبناء المواطن وتأسيس قيم المواطنة لدى الإنسان العربي ولاسيما أنه يواجه في المرحلة الراهنة تحديات كبيرة (في الهوية، والفكر، والاقتصاد، والعلم.....) تستوجب تأصيل قيم المواطنة الصالحة، جاء طرحنا للتربية المدنية كوسيلة قد تسهم في جعل التربية العربية أكثر فاعلية في تحقيق أهدافها بتكوين المواطن العربي الذي يعي دوره الحضاري والإنساني ويكون فاعلاً في الالتزام بمسؤولياته الوطنية والقومية والإنسانية. وإن التربية المدنية ليست مفهوماً مقتصرًا على التربية النظامية بل يتعداها إلى جميع مؤسسات المجتمع، كوسائل الإعلام، والأندية الثقافية، ودور العبادة، والنقابات، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية، ومؤسسات النفع العام.

يكتسب البحث أهميته من أهمية بناء الإنسان المواطن الذي تقع عليه أعباء النهوض الحضاري وبناء الأوطان. فلا تنمية أو تطوير يمكن أن يتم إذا لم نبدأ بالإنسان. وتعد التربية هي المعنية بهذا البناء الصعب الذي يقتضي الاهتمام بكافة جانب الشخصية، المعرفية، والسلوكية، والنفسية، والصحية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية.....

^(١) العوجي، مصطفى (١٩٨٥م)، التربية المدنية كوسيلة للوقاية من الانحراف، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، الرياض. ص ١٢١.

^(٢) عبد الدائم، عبد الله، (١٩٩٨)، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، القاهرة، ص ٨٣.

ويرى الباحث أن التربية المدنية ربما تكون أنجح وسائل البناء لشخصية متوازنة ومواطن يحب الوطن ويتقانى في بنائه كما يدرك دوره الأخلاقي والوطني والقومي والحضاري والإنساني ويبادر بالعمل والفعل والسلوك لممارسة هذا الدور.

مفهوم التربية المدنية:

لا يختلف مفهوم "التربية المدنية" أو "التربية الوطنية" عن التربية بمعناها الواسع إلا بتركيزه على علاقة الإنسان بمجتمعه، وبيئته، ووطنه، وأرضه، فمفهوم التربية الوطنية ينطلق من مبدأ أساسي هو أن الفرد لا يعيش منعزلاً في أية مرحلة من مراحل حياته، بل هو دائماً عضو في جماعة ولا وجود له خارج إطارها، وهو نفسه لا يستطيع أن يدرك نفسه إلا جزءاً في كل، وإلا وحدة في طار هذه الجماعة، وقد اتفق الباحثون التربويون الاجتماعيون على تحديد مضمون "التربية المدنية" وإن اختلفوا في تعريفها أحياناً، فبعضهم يميل إلى تعريفها بقوله: "هي جانب التربية الذي يحدث شعور العضوية في جماعة حتى تتسق حياتها لفائدتها المتبادلة"^(١) في حين يدمج بعضهم الآخر التربية المدنية بالتربية الأخلاقية غير مميّز بينهما معتبراً أن فحواها هو ذاته مع أن التربية المدنية هي أشمل من التربية الأخلاقية، وإن كانت التربية الأخلاقية قاعدة لازمة للأولى فالتربية المدنية مرتبطة بمفهوم المجتمع المدني، والمواطن وحقوق الإنسان، والديمقراطية. هذه المفاهيم التي أسهمت في بلورتها الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر في إعلان الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان ١٧٨٩ . ١٧٩١ والذي جاء في مقدمته أن ممثلي الشعب الفرنسي المشكلين للجمعية الوطنية لما كانوا يعتبرون الجهل بحقوق الإنسان، أو نسيانها، أو ازديادها الأسباب الوحيدة للمصائب العامة، ولفساد الحكومات، فقد عقدوا العزم على سرد حقوق الإنسان الطبيعية المقدسة، والتي لا يمكن التنازل عنها"^(٢).

لقد هدفت الجمعية الوطنية بهذا الإعلان إلى تثقيف كل أفراد المجتمع وإطلاعهم على حقوقهم وواجباتهم كي يتاح لهم تقدير تصرفات السلطات العامة وإرساء مطالبهم على حجج مقبولة^(٣).

وهذا ما دفع فورييه (Fourier)) إلى القول: "لقد اكتسب الإعلان طابعاً دينياً مقدساً، وصار للمعتقد السياسي رمزاً، أنه في كل الأمكنة العامة يطبع، وفي مساكن المواطنين، وفيه يتعلم الأطفال القراءة"^(٤). وليس مفهوم التربية المدنية المعاصر جديداً في مضمونه فقد مارست الشعوب المتحضرة التربية المدنية حيثما وجدت في تاريخ الإنسان إلا أن المصطلحات تختلف، وإن كانت مترامنة ففي تاريخ المجتمع العربي نجد السياسة المدنية التي حددها ابن خلدون بأنها "ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه، وخُلُقِه، حتى يستغنوا في الحكام رأساً"^(٥)، ومعنى هذا أن بلوغ الإنسان درجة من الرقي

^(١) بدوي، أحمد بشير، (١٩٧٣)، منهج التربية الوطنية للمرحلة الثانوية العامة لجمهورية السودان الديمقراطية،

أطروحة جامعية، الجامعة الأمريكية، بيروت، رقم (T58 Ac2)، ص ١١.

^(٢) بيلو، روبير، (١٩٨٣) المواطن والدولة، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ص ١٨.

^(٣) المرجع نفسه، ص ١٨.

^(٤) المرجع نفسه، ص ١٦.

^(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن، (١٩٩٨) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٣٨.

في نفسه، وخلقه تجعله يتصرف اجتماعياً بصورة لا تؤذي الآخرين، وبالتالي لا توجب تدخل الحكام لأن وظيفة الحكام كما يحددها ابن خلدون ردع أفراد المجتمع، ومنعهم من العدوان، والظلم لكي يسود الأمن في المجتمع، ويقول ابن خلدون "ثم أن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جُعِلت دافعةً لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنها لأنها موجودة لجميعهم. فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يمكن من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم، وإلهاماتهم، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة، والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى المُلْك"^(١).

وقد يقترب آخرون من هذا المفهوم، أو يبتعدون عنه تبعاً لتكوينهم الثقافي، فنرى من يعتبر التلازم قائماً بين التربية المدنية، والعلوم الاجتماعية. وهذه الأخيرة بنظرهم هي المدخل إلى التربية المدنية، وإلى التقدم السياسي والاجتماعي، فالتربية المدنية هي التمرس بنسق من المهارات يفضي لبناء المستقبل على قاعدة الديمقراطية، وقوامها التعلق بالوطن، بحيث تترسخ تلك المهارات داخل العائلة، وفي المدرسة، وفي الأندية الاجتماعية بصورة متكاملة بغية تحقيق الأهداف السامية لتلك التربية^(٢). بينما يرى آخرون أنه إذا واجه الإنسان مشاكل الحياة بمفرده دون مساعدة، وتوجيه، فإن مواجهته ستكون غير ناجحة في تحقيق احتياجاته في حين أن الاستعانة بخبرات غيره تجنبه الأخطاء، وتزيد في فرص نجاحه، ويتم نقل هذه الخبرة من شخص إلى آخر بوساطة التربية وإن التمرس في منهج المجتمع، والمشاركة فيه يشكل التربية المدنية.

يتبين لنا من محاولات تحديد مفهوم التربية المدنية أن مضمونها هو صقل الشخصية الإنسانية بتدرب الإنسان على الحياة الاجتماعية وتمرسه بها حتى يقوم بدوره فيها بانسجام تام مع الآخرين ومع متطلبات الجماعة، وانطلاقاً من هذا الواقع كان تعريفنا للتربية المدنية بأنها: إكساب أفراد المجتمع بصورة عملية وفعالة مبادئ ومهارات السلوك الاجتماعي المرغوب فيه في البيت والمدرسة والشارع والأماكن العامة وفي مهنته. وكذلك مبادئ احترام غيره وتقبل رأيه وإعانتته وتجنب ما يضر به. وذلك بخلق ضمير اجتماعي لدى كل مواطن يستند إلى قيم التعاون والعدالة والديمقراطية وحب الوطن والغيرة عليه وتوظيف كل الطاقات لبنائه ورفعته لأداء رسالته الحضارية كجزء من الحضارة الإنسانية والحفاظ على البيئة بكل مكوناتها.

ويشار هنا إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار بأن هناك معايير وطنية للتربية المدنية، ولاسيما أن مبادئها مبنية على مجموعة من الوثائق كالدستور ولائحة الحقوق المدنية والفلسفة العامة القائمة في هذا البلد أو ذاك ومفهوم الديمقراطية والخصوصية التاريخية لكل بلد والتقاليد الخاصة للبلدان ودرجة تطويرها في مختلف المجالات. وفي ضوء هذه المعطيات يحدد كل بلد مفهومه للتربية المدنية.

وفي العودة إلى تعريفنا نجد أنه من المهم أن يكون السلوك المرغوب فيه نابغاً من تمثل الفرد

^(١) ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٩٨) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، مرجع سابق ص ٢٣٨.

^(٢) ربول، أوليفيه، (١٩٧٨) فلسفة التربية، ترجمة د. جهاد نعمان، منشورات عويدات، بيروت، ص ١٢.

للمبادئ وانطلاقاً من رقابة الضمير وليس خشية من العقاب أياً كان، فيصبح احترام القانون والالتزام بكل المبادئ المذكورة نابعاً من كونها قيم سامية، وهنا تكون عملية الإشراف منصبة على إرضاء الضمير الاجتماعي الذي كونه. وليست مربوطة بالإشراف السلبي المتمثل بالعقاب القانوني أو الاجتماعي أو بأي شكل من أشكال العقاب.

والتربية المدنية علم وفن، إنها علم في الأساس وفن في الأداء، علم يرمي إلى بناء الشخصية، وإلى إقامة علاقة جيدة بين هذه الشخصية والمجتمع، وكذلك كونها تحتوي مبادئ ثابتة يجب أن تنقل للإنسان الناشئ بوساطة علم التربية، ولا يمكنه أن يستوعبها إلا بالتعلم، ومن ثم إنها فن لأنها ترمي من جهة إلى صقل الشخصية الإنسانية وتظهر جمالها وتبلور إشعاعها على ذاتها، وعلى غيرها، ولأنها من جهة ثانية تتطلب مهارة، وإتقاناً، وذوقاً، وشعوراً سامياً عند أدائها. إن التاريخ الحضاري العربي عرف التربية المدنية كعلم عملي قائم بذاته فمنهم من أسماها بالسياسة المدنية، ومنهم من دعاها بالعلم المدني، ومنهم من قرنها بعلم الأخلاق وسياسة المدنية، وأجمع الكل على اعتبار هذا العلم علماً أساسياً في تكوين المجتمع الصالح^(١).

وبوساطة التربية المدنية تتكون المواطنة، والتي هي شعور الفرد بالانتماء إلى الجماعة، وشعور الجماعة بجمعها وتركيبها، وشعور كل من الفرد، والجماعة بالروابط المتبادلة، والمصالح المشتركة، إنها شعور الفرد باستمرار هذه الجماعة، وما قدمته من مجهودات في سبيل بناء مدنيته، وما يترتب على هذا الشعور من تصور كحلقة في سلسلة متصلة، وجزء في عملية مطردة^(٢).

المجتمع المدني

شغلت بهذا المصطلح كل من المدرستين الليبراليتين الممثلتين ب: آدم سميث (A.smith)، ريمون أرون... (R. Aron)، والمدرسة الجدلية: الجدلية: هيغل (Hegel)، ماركس (Marx)، غرامشي (Gramsci) وغيرهم، وذلك في القرن التاسع عشر ثم اختفى من الساحة السياسية والفكرية في مطلع القرن العشرين ليعود إلى الظهور في نهاية القرن العشرين بتعريفات متشابهة إلى حد كبير، ويتفق كريم أبو حلاوة مع سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل في تعريف المجتمع المدني بأنه: جملة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي تعمل في ميادينها المختلفة، واجتماعية، وبهذا تكون العناصر البارزة لمؤسسات المجتمع المدني هي الأحزاب السياسية، والنقابات العمالية، والاتحادات المهنية، والجمعيات الثقافية، والاجتماعية^(٣).

وتعرف أمانى قنديل المجتمع المدني بأنه "مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة، والدولة لتحقيق مصالح أفرادها ملتزمة في ذلك بقيم، ومعايير الاحترام، والتراضي،

(١) العوجي، مصطفى، (١٩٨٥) التربية المدنية كوسيلة للوقاية من الانحراف، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٢) أبو الفتوح، رضوان (١٩٦٠)، التربية المدنية، جامعة الدول العربية، المؤتمر الثقافي الرابع، القاهرة، الإدارة الثقافية، ص ١٤.

(٣) أبو حلاوة، كريم، (١٩٩٩) إعادة الاعتبار لمفهوم المجتمع المدني، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج ٢٧، ع ٣ يناير، مارس، ص ١١، ٩، ٢٦.

والتسامح، والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف"^(١).

أما محمود حواسن فيعرف المجتمع المدني بأنه "تنظيم الناس لأنفسهم للمشاركة في حل مشكلاتهم، والتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، والدفاع عن مصالحهم في مواجهة الآخرين بشكل سلمي.. والمدنية التي يشتق منها لفظ مدني تعني الأسلوب المتحضر في التعامل والتسامح مع الآخرين"^(٢).

ومن خلال التعريفات السابقة يتبين لنا أن جوهر المجتمع المدني ينطوي على العناصر الرئيسية التالية:

أ. الطوعية: فالركن الأول أن يكون انتظام الفرد في المؤسسات الاجتماعية فعلاً إرادياً حراً، يختلف في انتمائه عن أشكال الانتماء العرقي والسلافي كالأُسرة، والقبيلة، والعشيرة.

ب. المؤسسية: والمؤسسية هي مجموعة قوانين راسخة يتم وضعها لمقابلة المصالح الجماعية، وهي أنماط مستقرة للسلوك الذي يتم الاعتراف به، وتنميته من قبل المجتمع. إن المؤسسات هي تنظيمات تتمتع بشرعية لإشباع حاجات الناس، والدفاع عن حقوقهم عبر الزمن، ومن هنا فإن تطويرها يأتي في إطار التغيرات في البنية الاجتماعية^(٣)، وتطال المؤسسية مجمل الحياة الحضرية تقريباً، والتي تشمل مناحي الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

ج. الدور: الذي تقوم به المؤسسات في حماية مصالح أعضائها المادية والمعنوية، والدفاع عنها، والالتزام بإدارة الخلاف داخلها، وخارجها سواء أكان مع المؤسسات الأخرى، أو مع الدولة في ضوء قيم الاحترام، والتسامح، والتعاون، والتنافس، والصراع السلمي.

د. ضرورة النظر إلى مفهوم المجتمع المدني باعتباره جزءاً في منظومة مفاهيمية أوسع تشمل المواطنة، وحقوق الإنسان، والمشاركة السياسية وتعزيز قيم السلام والمساهمة بالتطور الاقتصادي والاهتمام بالمنظمات والجمعيات المحلية وخلق ثقافة سيادة القانون.

وقد ظهرت هذه العناصر في المجتمع العربي في مراحل التاريخ المختلفة بدرجات متفاوتة، وأول ملاحظتها تتوضح في المجتمع العربي قبل الإسلام بظاهرة الأندية في المدن التي يجتمع فيها الملأ، أي الأشراف وأصحاب الثروة ومن لهم من أنصار وأتباع أي أصحاب القوة الذين يسنون للناس السنن وكان الانتساب إلى هذه النوادي طوعاً وأهمها نجده في المدينة والطائف ومكة^(٤). أو دار الندوة ويضم الأحرار من أهل مكة والذين لا يقل عمرهم عن الأربعين، كما كان لديهم تنظيم يعرف باسم "نادي القوم" يجتمع فيه كل المواطنين في فناء الكعبة، يناقشون المسائل التي تهم الجميع، ويوزعون المهام المتعلقة بالكعبة وشؤون مكة على عدد من الأسر، ومن أهم هذه المسائل سدانة الكعبة، والسقاية، وسائر الخدمات

^(١) قنديل، أماني، (١٩٩٩) تطور المجتمع المدني في مصر، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٣، يناير، مارس، ص ٩٩. ٩٧. ١٢٤.

^(٢) حواسن، محمود، (١٩٩٩) العالم العربي والمجتمع المدني، الفكر العربي، مجلة الاتحاد العربي للعلوم الإنسانية، ع ٩٥، بيروت لبنان، ص ٢٥٧.

^(٣) قنديل، أماني، (١٩٩٩) الفكر العربي، مرجع سابق، ص ١٠١.

^(٤) خلف الله، محمد أحمد، (١٩٨١) القرآن والدولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٢٣.

الخاصة بالحجيج^(١). وإن كان ذلك لا يخلو من طابع أرستقراطي حيث كان مقتصرًا على نخب محددة من الوجهاء وأصحاب الشأن ولكن الإسلام نظم هذه القيم بروح إنسانية.

وقد أطلق ابن خلدون مصطلح "المدنية" أو "ال عمران" على المجتمع الذي علل وجوده بحاجة الإنسان إلى القوة والدفاع عن النفس، وهذا لا يحصل إلا بتجمع بشري متعاون منظم "فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، كذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه"^(٢). فالتعاون والنظام سمات أساسية للمجتمع المدني وهي لم تغب عن حصافة ابن خلدون، وهكذا فإن كثيراً من سمات المجتمع المدني كانت ظاهرة في مختلف الحقب التاريخية، إلا أن التطورات التي طرأت على حياة الإنسان تطلبت وظائف وسمات جديدة للمجتمع المدني الذي تدأب الأسرة والمدرسة ومؤسسة التنشئة الاجتماعية جميعها على بناء أركانه بما يحقق الوجود الحضاري للإنسان بحياة منظمة تضمن سعادته وتحقق غاية وجوده.

الاتجاهات العالمية في التربية المدنية:

هنا لا بد من التأكيد على أن الإسلام كان سابقاً في طرح القيم المدنية فكراً وممارسة وفق معايير ضمنت الحقوق والواجبات وشكلت الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية. إن تطور المجتمع الإنساني باتجاه المدنية تميز بغرس قيم الديمقراطية التي تعزز بنية الإنسان المنتمي إلى هذا المجتمع، وشعوره بحقه في الحياة وواجباته نحو الآخر، وقد اتضحت هذه القيم في ظل الإسلام الذي رسخ الديمقراطية في مؤسساته عندما أكد على حرية الفرد في ممارسته الحياتية، وحقه في إبداء الرأي "وشاورهم في الأمر"^(٣) وحقه في العيش الآمن الكريم، وواجبه نحو الآخر الذي تمثل بمبدأ "تأمرهم بالمعروف وتنهون عن المنكر"^(٤) مما يمكن أن يلخص فعالية الفرد ضمن الجماعة وقد تحولت هذه القيم من أفكار مجردة إلى واقع اجتماعي يعبر الناس عنه في ممارساتهم الحياتية، وقد شعروا بالعدل، والمساواة على اختلاف عروقهم، وأصولهم فالناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في خطبة الوداع للنبي محمد ﷺ [أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد]^(٥).

وقد كان فهم الإسلام لمسألة الديمقراطية عميقاً وينطلق من مبادئ إنسانية وحضارية في حين أن بعض الديمقراطيات المعاصرة تنطلق من مصالح سياسية أو اقتصادية وزدواجية في المعايير لمفهوم الديمقراطية، ويمكن لنا أن نرصد بعض الاتجاهات المعاصرة لطرق ووسائل التربية المدنية وتحقيق

(١) شريف عمر (١٩٨٦)، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ص ١٤.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن، (١٩٩٨) المقدمة، ت: درويش الجويدي، بيروت، ص ٤٦.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(٤) سورة آل عمران الآية ١١٠.

(٥) د. أبو شهبه، محمد بن محمد، (١٩٨٨) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دمشق، ج ٢، ص ٥٧٤.

الديمقراطية ونلخصها فيما يلي:

١. التربية المدنية بالاعتماد على العناصر الرئيسية الثلاثة ذات العلاقة المتبادلة: المعرفة المدنية، والمهارات المدنية، والفضائل المدنية:

أ. **المعرفة المدنية:** تتكون المعرفة المدنية من أفكار جوهرية، ومعلومات يجب على المتعلمين معرفتها، واستخدامها لتصبح مؤثرة في سلوك مواطن الديمقراطية، وتتضمن المعرفة المدنية . بصورة . عامة مبادئ النظرية الديمقراطية، وعمل الحكم الديمقراطي، وتصرفات المواطن الديمقراطية. إنها تحوي . بصورة خاصة . مفاهيم ومعطيات حول الديمقراطية في بلد المتعلم مع مقارنة ذلك بحال البلدان الأخرى.

ب. **المهارات المدنية:** هي العمليات الإدراكية التي تساعد المتعلم على فهم المبادئ وشرحها ومقارنتها، وتقييمها، وممارسات الحكم والمواطنة، وهناك أيضاً مهارات المشاركة التي تتضمن أفعالاً يقوم بها المواطنون لضبط تأثيرات السياسات العامة، وإيجاد الحلول للقضايا العامة، حيث تتضمن المهارات الإدراكية، مهارات المشاركة واستخدام المواطن للمعرفة في تفكيره، والعمل بأسلوب قادر على الاستجابة للتحديات المستمرة للحكم الديمقراطي، والمواطنة.

ج. **الفضائل المدنية:** العنصر الأساسي الثالث في التربية المدنية فهم السمات الضرورية للشخصية من أجل الحفاظ على الحكم الديمقراطي وتجويده وتعزيز قيم المواطنة، ويتمثل هذا في احترام الثروة، والكرامة لأي مواطن وأيضاً التمدن، والاستقامة، والانضباط الذاتي، والتسامح، وحب الوطن.

٢. التعليم المنظم للمفاهيم:

يقوم التربويون المدنيون بتعليم مفاهيم حول الحكم الديمقراطي، والمواطنة بشكل منظم، وهم يؤكدون المعايير التي يستطيع المرء بوساطتها أن يحدد سمات المفاهيم الأساسية كالدستورية، والديمقراطية، وحقوق المواطنين، يعلمون الطلاب أيضاً استخدام المعايير في تنظيم وعرض المعلومات المتعلقة بالمؤسسات السياسية وطريقة أدائها^(١).

٣. تحليل الدراسات الواقعية:

في هذا الاتجاه يعمد المعلم إلى مطالبة الطلاب بتطبيق المفاهيم الديمقراطية الجوهرية ومبادئها الأساسية في أثناء تحليل الدراسات الواقعية. حيث يبين الاستخدام الصحيح لهذه المفاهيم في تفسير القضايا المتعلقة بالسلوك السياسي للأفراد والجماعات. مدى استيعابهم لمبادئ الديمقراطية ومفاهيمها، وغالباً ما تؤخذ موضوعات الدراسة من الصفحات اليومية للصحف، والمجلات الأسبوعية، والوثائق

^(١) J.Patrick John. (1998) Educaion for Engagement in Civil Society and Government, Eric Digest, Indiana University EDO-SO-September,p.2.

المنشورة عبر التلفزيون، مما يربط المتعلم بالقضايا اليومية فيخلق النشاط والحيوية في الحياة المدنية الحقيقية التي تصبح ممارسة فعلية داخل صف الدراسة. أي تعليم الديمقراطية، كما أن الديمقراطية تعني إيجاد مواطنين متعلمين، إذ يتعزز الاستقرار الوطني حيث توجد الديمقراطية^(١).

٤. تطوير مهارات صنع القرار:

يهدف هذا الاتجاه إلى تطوير مهارات صنع القرار عند الطلاب بوساطة تحليل القضايا السياسية، والقانونية المأخوذة في الواقع، ويعتمد الطلاب إلى منهج تحليل الظروف المتعلقة بالقرارات، والبحث في الاختيارات البديلة، والنتائج المحتملة لكل خيار، والدفاع عن خيار معين يعد في نظر الطالب أفضل الخيارات الأخرى، ونلاحظ أن هذا الأسلوب يؤثر بصورة خاصة في تعليم الطلاب كيفية استخدام مهاراتهم الإدراكية في منهج وتحليل الحقائق الوطنية. فالمواطن الصالح هو الذي يستطيع اتخاذ قرارات هامة وصحيحة ويمتلك مهارات التفكير التي تعد جزءاً لا يتجزأ من التربية المدنية وكذلك مهارات المشاركة والعمل الجماعي في سبيل المصالح العامة.

٥. التحليل المقارن للحكم والمواطنة على المستوى الدولي:

إن انبعاث الديمقراطية الدستورية في مختلف أنحاء كثيرة من العالم خلق منهجاً جديداً في التربية المدنية يعتمد على المقارنة في التعلم حيث يوجه الطلاب إلى إجراء المقارنات بين المؤسسات الديمقراطية الدستورية في بلدانهم الخاص والمؤسسات الديمقراطية الأخرى في مجتمعات مدنية عالمية، ويفيد هذا المنهج في تعميق فهم الطلاب لمؤسساتهم الديمقراطية، وينمي معرفتهم بالمبادئ الديمقراطية كما يؤكد أن المبادئ الديمقراطية يمكن ممارستها. كما يساعد هذا الاتجاه على فهم خصوصيات مفهوم الديمقراطية في كل بلد من البلدان وكذلك ترتيب أولويات المبادئ الديمقراطية في هذه البلدان. ويمكن أن تشكل الوسائل التقنية الحديثة مثل (الإنترنت) أداة هامة في هذا التحليل المقارن.

٦. تطوير مهارات المشاركة والفضائل المدنية عبر نشاطات التعليم التعاوني:

يلجأ هذا الاتجاه في التربية المدنية إلى تنمية الفضائل المدنية بوساطة استخدام مهارات المشاركة بين الطلاب حيث ينشئ المعلمون مجموعات صغيرة من الطلاب تعمل فيما بينها للوصول إلى أهداف مشتركة، ولتحقيق ذلك لا بد لها من حل المشكلات الموجهة من قبل أعضاء الجماعة الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى الخوض في النقد البناء وإجراء المفاوضات، وحل الخلافات، والتسوية، وإلى تعزيز المزايا والفضائل، والتسامح والثقة وغيرها من الفضائل المدنية، فالفضائل الحقيقية والأهداف الحقيقية حسب اعتقاد الفيلسوف الفرنسي هلفنسيوس تقوم على الرغبة في الخير العام. ويكون الإنسان عادلاً،

(١) المجيد، عبد الله، (١٩٩١)، الاتجاهات الأساسية لديمقراطية التعليم في الوطن العربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، أكاديمية العلوم التربوية الروسية، موسكو، ص ٤٣.

عندما تكون كل أفعاله موجهة إلى الخير العام الذي هو القانون الأعلى^(١). وأن العدل مرهون بالإنسان المتنور فقط "خداع الشعب الجاهل أسهل من خداع الشعب المتنور"^(٢).

٧. استخدام الأدب لتدريس الفضائل المدنية:

يعتمد هذا الاتجاه إلى توظيف الأدب في خدمة التربية المدنية إذ أنه يقدم أحياناً . في الرواية خاصة . نماذج أبطال تجسد في ممارستها الحياتية القيم المدنية التي يسعى المجتمع المتلقي إلى غرسها في أفرادها وتكمن فعالية الأدب بما يملكه من عوامل جذب تجعل المتلقي مهياً للتأثر بهؤلاء الأبطال، بل ربما تدفعه إلى تقليدهم، وتمثل أخلاقهم وتؤكد ساندرا ستوسكي (S.Stoski) الخبرة في استخدام الأدب في تعليم الفضائل المدنية على القيمة التعليمية التربوية في تعريف الطلاب بالشخصيات التي تتسم بتلك المزايا من شجاعة،

وأمل، وتفاؤل، وطموح، ومبادرة فردية، وحب الوطن، وحب الأسرة، واهتمام بالبيئة، واستتكار للظلم الاجتماعي^(٣).^(٤)

ويمكن للأدب أن يمارس وظيفته المدنية بوساطة الأجناس الأدبية الأخرى فليس تمثل القيم بالشخصيات الروائية هو الوسيلة الوحيدة وإنما الخطاب المباشر والشعر قد يملكان التأثير إذا ما كانت العناصر الجمالية متوافرة فيهما حيث يتوجه إلى العقل والشعور في آن واحد.

ويمكننا أن نذكر هنا ما يتضمنه الأدب العربي من حكمة، وأمثال شعبية تمثل خلاصة تجربة الشعوب والتي لعبت دوراً فعالاً في ترسيخ القيم السامية، وتوجيه الفرد نحو الفضيلة، كما تتضمن الرسائل المشهورة في تاريخ الأدب العربي كثيراً من القيم التي أسهمت في تهذيب الفرد لكي يكون عضواً صالحاً في المجتمع ونذكر على سبيل المثال بعض ما جاء في نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله^(٥):

* إياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء . أكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ من أهل التجارب، وذوي العقل، والرأي، والحكمة، لا تحقرن ديناً، ولا تمالئن حاسداً، ولا ترحمن فاجراً، ولا تصدقن نماماً، ولا تأمنن غداراً، ولا تحقرن إنساناً، ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو محاباة، أرض الخصم، سلط الحق على نفسك، لا تسرفن بسفك الدماء فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم، فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقها^(٦).

ويلمس من يقرأ هذه الوصية أنها تتطوي على قيم أخلاقية تعتبر متقدمة جداً بالمقارنة مع ما تمارسه

^(١) عبود، راتب، (١٩٩٦)، نظريات التربية في عصر التنوير الفرنسي، ترجمة د. عبد الله المجيدل، دار معد،

دمشق، ص ١١٢.

^(٢) المرجع نفسه ص ١١٧.

^(٣) للمزيد يمكن مراجعة:

^(٤) J.Patrick John, (1997) Global Trends in Civic Education for Democracy, Eric Digest, Indiana University EDO-SO- January. P.76.

^(٥) من كبار الوزراء القواد في عصر المأمون، وهذه الرسالة موجهة إلى ابنه عبد الله لما ولاه المأمون.

^(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن، (١٩٩٣) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٤٢.

المدنيات الحديثة باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

٨ . التعليم الفعال للمعرفة والمهارات والفضائل المدنية:

يتضمن التعليم الفعال مفهوم التعليم المنظم، وتحليل الدراسات الواقعية، وتطوير مهارات صنع القرار، ووظائف التعليم المقارن، عبر المناقشات الجماعية المتفاعلة التي ترافق تعليم الفضائل المدنية، كما يتضمن مهارات إيجاد الحلول البديلة للنزاعات ومهارات العمل الجماعي، من خلال المواقف التعليمية التي تكسب المتعلم هذه المهارات وتصبح جزءاً من سلوكه اليومي المرتبط بجملة المبادئ والقيم والفضائل المدنية. وبذلك تجسد المعرفة بسلوك، والمهارة بممارسة.

٩ وحدة المحتوى والمعالجة في تعليم المهارات والفضائل المدنية:

ينطلق هذا الاتجاه من اعتبار الفضائل، والمهارات المدنية، والفكرية وروح المشاركة متحدة مع المعرفة المدنية، وما تحتويه من قيم، فالمعلمون ينطلقون من فرضية كون التفكير المنطقي، والعمل الفعال المجدي لتحليل قضية ما، يتطلب منهم دراسة شروط نشوء هذه القضية، وظروفها وما يترتب على تغيير الشروط، والظروف من نتائج محتملة، ويتطلب الفهم والتحليل، معرفة الطالب التي تؤمن له القدرة على التفسير والنقويم، وإن هذا التطبيق للمعرفة في التفسير، وحل القضايا يعتمد على مهارات المعالجة الإدراكية لهؤلاء الطلاب، فالمضمون الأساسي، أو موضوع المادة، والعمليات الإدراكية والمعالجات هي عوامل متداخلة متبادلة للتعليم والتعلم، ومحاولة رفع واحد فوق الآخر (المضمون فوق المعالجة، أو العكس) خلل بيداغوجي يطرأ على التربية المدنية الفعالة التي تتطلب تعليماً وتعلماً للمضمون الأكاديمي والمعالجة أي: المعرفة المدنية والفضائل والمهارات في آن واحد من أجل تحقيق وظيفة التربية المدنية المتمثلة في تطوير قدرة الأفراد على بناء الحكم الديمقراطي والمحافظة عليه في ظل الوعي بحقوق المواطنة وواجباتها^(١).

التربية المدنية في المرحلة المعاصرة:

تتميز المرحلة المعاصرة بتغيرات جذرية في البنية الاجتماعية أعقبت تحول المجتمعات البشرية من مجتمعات زراعية إلى مجتمعات صناعية إثر اكتشاف وتطوير الآلة بصورة أحدثت انقلاباً شاملاً في المقاييس الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، فظهر معها المجتمع الإنساني المعاصر بصورة مختلفة اختلافاً تاماً عن تلك التي عرفت في المراحل التاريخية السابقة إذ نجد سيطرة الإنسان على المادة لم ترافقها سيطرة للإنسان على نفسه وعلى نزعاته الشريرة. فاليوم سيطر الإنسان على المادة بصور لم يسبق لها مثيل فقد طوع معظم القوى، والطاقات الطبيعية، وحولها إلى وسائل تخدم وجوده وحياته على هذه

^(١) للمزيد يمكن مراجعة: J.Patrick John. Civic Education for Constitutional Democracy: An Intrnational Perspective, Eric Digest, Indiana University EDO-SO-December 195 p. 41-46.

الأرض، وقد أدت هذه السيطرة إلى تسلط اجتماعي تتحكم فيه المجتمعات التي ملكت القوة بالمجتمعات الضعيفة وتمارس تأثيراتها المادية، والثقافية.

وقد تغيرت القيم الاجتماعية في المجتمع الصناعي وأصبحت حقوق المواطنة مسلوقة والديمقراطية مقصورة على فئة تملك مصادر القوة، وانسحب هذا الاهتمام على المواطن الفرد الذي عليه أن يحقق وجوده بتضخيم الأنا على حساب الآخر وإهمال القيم المدنية التي تربي عليها والتي ربما تكون عائقاً في تحقيق تفرده وسلطته ولم يعد للمجتمع المدني تلك القوة التي تحمي الفرد المواطن المنتمي إليه فخرج عن فضائله وهكذا سيطرت المعايير المادية على المعايير الأخلاقية والمدنية وقد أصبحت هذه المعايير عند بعض أفراد المجتمع المعاصر انتهازية تسلطية أهدافها الكسب والغنى وإن كانا على حساب القيم المدنية والفضائل فالإنسان الباحث عن قيمته الوجودية أصبح يقوم بما يملك لا بما يحمله من معرفة وأخلاق كريمة وسلوك قويم، وأن أخطر مظاهر التغير ما ينال المؤسسات الاجتماعية على اختلاف أشكالها (كالأسرة، ومؤسسات العمل، والمؤسسات النقابية والمهنية)، والعلاقات الاجتماعية، والقيم، والأخلاق، والأيديولوجيات، وسائر أنماط السلوك المادية والمعنوية السائدة في أي مجتمع، ومن هنا فإن الثقافة بوجه عام، وبالمعنى الأنثروبولوجي للكلمة تتعرض أكثر فأكثر لهزات كبرى، وهي عرضة للتآكل والامحاء بعد انتشار العولمة . خاصة . بسبب سيطرة نمط واحد في الثقافة الطاغية هو النمط السائد لدى الدولة المتقدمة^(١). والتي يحاولون تصديرها بمختلف الوسائل كنموذج بشري مثالي، مع ما يكتنف بعضها من زيف وبهتان وما هي في كثير من جوانبها إلا نماذج مشوهة وممسوخة لحقوق الإنسان والديمقراطية والعدل المزعوم. وحرية أقرب إلى الانحلال بكل معانيه والانفلات من كل القيم يراد به تهشيم البنية الثقافية والاجتماعية والدينية العربية.

ومما يميز المجتمع المدني المعاصر تصدع البنية الاجتماعية النواة أي الأسرة واختلال التوازن والاضطراب الناتج عن اتجاه الزوجين إلى العمل لتحقيق الكسب المادي وإهمال تربية الأطفال وقد أصبحت هذه الوظيفة خاصة بطبقة من المسحوقين الجهلة الذين لا يعرفون الحق أو الواجب وبالتالي هم غير مؤهلين لحمل هذه المسؤولية الخطيرة بالإضافة إلى كون غريبتهم عن الأطفال تشكل حاجزاً أمام تقديم ما يحتاجه الأطفال من الحب والرعاية البدائية التي نجدها في المجتمع الحيواني، وهكذا نجد الطفل ينشأ غريباً عن والديه جاهلاً بالقيم التي تجعل منه عضواً اجتماعياً نافعاً، هذا الشرخ الخطير في العلاقة بين الوالدين والأبناء ترك آثاراً خطيرة في المجتمعات الصناعية التي بنت في الجوانب المادية، وهدمت في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية. مما استدعى التركيز أكثر فأكثر على الجوانب التربوية، والثقافية والأخلاقية لدى الإنسان، وهكذا أدرك المسؤولون فداحة الخطر الذي يهدد مجتمعهم فيما إذا استمرت عملية الاختلال، واستمر التصدع المؤدي حتماً إلى انهيار الأنظمة الاجتماعية التي قضت البشرية قروناً في إقامتها مستعينة بالأديان، والأخلاق، والتربية.

التربية المدنية في إطار الأسرة:

يقول كل من برجس (E.Burgess) ولوك (J.locke) في كتابهما الأسرة "لقد نال المجتمع البشري

(١) عبد الله، عبد الدايم، (١٩٩٨)، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، ص ١٠٥.

حضارته بفضل الأسرة وأن مستقبله يتوقف بصورة مباشرة على هذه المؤسسة أكثر من أية مؤسسة أخرى^(١).

ولما كانت الأسرة نواة المجتمع المدني اتجه الاهتمام إلى التربية المدنية ابتداءً منها فهي الركن الأساسي في بنية المجتمع الإنساني، وإن انتماء الفرد لمجتمعه يتم عبر انتمائه لأسرته التي تشكل الخلية الاجتماعية التي يترعرع ضمنها الطفل، ويدخل المجتمع الأكبر مزوداً بما اكتسب من قيم ومبادئ سلوكية تعكس درجة انتمائه إلى مجتمعه، والتربية المدنية هي التي يمكن أن توفر له نشأة صحيحة تبعده عن الانحراف، والواقع أن التربية المدنية التي يمكن أن نتصورها ضمن الخلية العائلية تتصف بصفتين هما التعليم والتعلم: تعليم للولد، وتعلم من الولد، تعليم للوالدين، وتعلم منهما لمسؤوليتهما كوالدين مسؤولين عن حياة ولدهما ومصيره وأخلاقه وشخصيته ونفسيته.

إذاً يمكن القول: إن عملية التربية المدنية في المستوى العائلي تتضمن اتجاهين، الأول علاقة الوالدين بالولد، وواجباتهما نحوه، والثاني: علاقة الوالدين فيما بينهما كزوجين ومربين، وما لهذه العلاقة من تأثير مباشر في تربية ولدهما وتنشئته تنشئة سليمة. وقد اهتم إعلان حقوق الإنسان بحماية الأسرة، وأكد على حقها في التمتع بحماية المجتمع والدولة^(٢)، فالأسرة بوصفها حجر الأساس في بناء الشخصية الإنسانية بحاجة للتوجيه للمحافظة على كيانها الاجتماعي وإضفاء جو من العاطفة، والمحبة، والتفاني بين أعضائها، وبحاجة لإقامة علاقات إنسانية تسودها المحبة بين الوالدين والولد، ولتوفر له الاتزان العاطفي، والبيئة النفسية الملائمة لنموه الجسماني والعقلي والعاطفي، تقول المربية بيني ريردون (B.Rerdon) "إن على التربية أن تواجه التحدي، وأن تعمل على إعداد الصغار لتحمل مسؤولياتهم الكونية والعالمية.. وتقبل مسؤولية العمل على خلق مجتمع عادل تسوده قيم التسامح وحقوق الإنسان"^(٣).

إن إقامة العلاقات الإنسانية بين ذوي الرحم والأقارب المبنية على الاحترام المتبادل، والمحبة، والتسامح والتعاضد، وإعطاء كل ذي حق حقه. يشكل نموذجاً للعلاقات الإنسانية العامة، والسلوك الاجتماعي القويم، وكلاهما مطلوب من الفرد كخطوة أولى لاندماجه في مجتمعه.

ويمكن القول هنا إن الأسرة المصغرة هي المدرسة الأولى للعلاقات الإنسانية التي يتعلم فيها أول دروس الحب والكرهية والعدل والظلم فبقدر ما تبذل هذه المدرسة من جهد في إقامة العلاقات الإنسانية الجيدة بين أفرادها تكتسب الشخصية الإنسانية خبرة ومراساً في تعاملها مع الآخرين. لذلك يترتب على الوالدين تعلم فن الوالدية كوظيفة اجتماعية مطالبين بأدائها فيؤدي كل منهما دوره فيها، ومن جهة أخرى تعليم الأولاد القيام بأدوارهم في الأسرة من خلال ما يطلب منهم من وظائف، وخدمات تخرج الولد من أنانيته الفطرية إلى اجتماعيته المكتسبة.

وقد اهتم المربون بدور الأسرة التربوي ونبهوا إليه حيث أشار المربي الإنكليزي هيربرت سبنسر

(١) ناصر، إبراهيم، (١٩٩٦) علم الاجتماع التربوي، بيروت، دار الجبل، ص ٧٠.

(٢) عالم الفكر، (١٩٩٩) مرجع سابق، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مج (٢٧) عدد ٣، ص ٣١٣.

(٣) هوانة، سمير، (١٩٩٥) قضية السلام في المناهج الدراسية الحديثة، الجمعية الكويتية، تربية التسامح وضرورة التكافل الاجتماعي، الكتاب السنوي العاشر، دولة الكويت، ص ٢٢.

(H.Spencer) إلى الحاجة إلى التربية الأسرية إذ يرى "أن الغرض من التربية هو إعادة الفرد للحياة الكاملة في مختلف نواحيها وأن نواحي هذه الحياة هي التالية مرتبة حسب أهميتها الصحية، والمهنية والأسرية، والوطنية، والثقافية"^(١)، وقد حدد إبراهيم ناصر وظائف الأسرة بست هي: التربية الجسمية والصحية، والتربية الأخلاقية والوجدانية، والتربية العقلية، والتربية الاجتماعية والوطنية والاقتصادية، والتربية الجنسية، والتربية الترويحوية^(٢)، وهذه الوظائف متكاملة في أهميتها في خلق الكائن الاجتماعي المتمدن.

ويمكن لنا أن نلخص وظيفة الأسرة في التربية المدنية بتعليم الأطفال المسؤولية، والمحافظة على البيئة، والمواطنة، ونقل الحضارة والثقافة، وأسس النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، والديمقراطية والعدالة والأخلاق والسلام وحب العمل، وغرس قيم الخير والجمال والتسامح والتعاون لديهم. وينبغي هنا التأكيد على أن هذه القيم لا ينبغي استيرادها ولا تقليد الآخرين في تطبيقها. إذ هي تشكل جوهر تراثنا العربي الإسلامي، وهي معالم أصيلة في حضارتنا العربية علمناها لكثير من الأمم وأسهمنا بها في الحضارة الإنسانية ومع أننا أحوج ما نكون إليها الآن إلا أنه لا ينبغي بأي شكل أن نسترد بضاعتنا التي شوهدت وإنما نستنبطها من إرثنا الحضاري ونصنعها وفق متطلبات تطور الحياة بما يتفق مع مرتكزاتنا الثقافية والاجتماعية والدينية وأرى بأن هذا مخرجنا للخلاص.

أ. التربية على تحمل المسؤولية:

المسؤولية هي الإحساس بالالتزام نحو الأشياء، والأفراد، والأفعال التي تصدر عن الإنسان، وهي شعور مقترن بإحساس الفرد بالحرية والقدرة على اتخاذ القرار، أنها الشعور الذي يخلق الواجب نحو الآخر، ونحو ما يصدر عنه باعتباره كائناً عاقلاً قادراً على التمييز بين الخطأ، والصواب في العرف الاجتماعي السائد وباعتباره حراً، ومالكاً لما هو مسؤول عنه، حيث يضم مصطلح الملكية هنا في بعض الحالات . مفهوم الانتماء: انتماء الأفراد إلى المالك بعلاقة من العلاقات التي تمنح المالك السلطة، كسلطة الحاكم، أو سلطة الأسرة، أو سلطة رجل الدين، فالمسؤولية هي الالتزام، ويكاد يكون هذا الالتزام فطرياً لأنها من أول الروابط التي يشعر بها الطفل عفواً^(٣). وتنمى بالتربية التي تهدف إلى تعليم الطفل الاختيار بعد أن يعطى الشعور بالحرية سواء أكانت هذه التربية مدنية أم طبيعية، ولعل التربية الطبيعية تقدم الشكل الأول للتربية بروح المسؤولية، وهي شكل التربية الذي يمثل روس (J.Rousseau) التربية التي تسعى إلى تعليم الطفل كيف يختار بحرية، ويصبح مسؤولاً، وقد أكد روسو أن "الإنسان يملك حرية الإرادة، ويفضل هذه الحرية فقط يختار الإنسان الأشياء، والأعمال الجيدة والسيئة بنفسه. هل يقوم بالخير، أم يرتكب الشر، أنه مسؤول في ذلك، وحتى إذا ارتكب عملاً سيئاً فإنه يتألم من

^(١) ناصر، إبراهيم، (١٩٩٦) علم الاجتماع التربوي، مرجع سابق، ص ٧٠.

^(٢) المرجع نفسه ص ٦٦.

^(٣) العوجي، مصطفى، (١٩٨٥) لتربية المدنية كوسيلة للوقاية من الانحراف، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، ص ١٣٨.

عذاب الضمير^(١).

وقد كانت المسؤولية أساساً من أسس التربية المدنية الإسلامية التي منحت الإنسان الحرية وحق الملكية، وفرضت عليه واجبات نحو الآخر في المجتمع الذي ينتمي إليه ونحو الإنسان فجاءت الآيات القرآنية والأحاديث والممارسات لتؤكد مسؤولية الإنسان نحو ما يصدر عنه بحق الآخر، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾^(٢)، ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(٣)، [كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته]^(٤).

كما أكدت مواثيق حقوق الإنسان على مسؤولية الفرد، فجاءت المادة ٢٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان "١٩٤٨" لإلزام الفرد بمسؤوليته نحو الجماعة "على كل فرد واجبات إزاء الجماعة التي فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل"^(٥). وجاء في المادة التاسعة عشر من إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام ١٩٩٠ "المسؤولية في أساسها شخصية"^(٦).

وفي المادة الأولى من هذا الإعلان الأخير: "كل الناس سواسية في الكرامة الإنسانية الأساسية، والواجبات، والمسؤوليات ومن دون أي تمييز بسبب السلالة أو اللون، أو اللغة، أو الجنس، أو الاعتقاد الديني أو الانتماء السياسي"^(٧).

وهكذا نتضح لنا ضرورة التربية على تحمل المسؤولية، وتوجيه التربية المدنية في المستوى العائلي إلى بعث الشعور بالمسؤولية لدى الأولاد والوالدين، بتتمة حس المسؤولية لدى الناشئ ليكفل الحفاظ على الآخر، والأشياء ذات القيمة في البيئة الاجتماعية، بل إن على التربية تحمل المسؤولية في تنمية القدرة الإنسانية فمسؤولية الإنسان عن فعل أو شيء أو إنسان أو مجموعة بشرية تعني أنه قادر على حماية ما هو مسؤول عنه وبالتالي تمنحه قيمة ترضي نزعة الإنسان نحو التفوق وبالتالي نجد أن تنمية حس المسؤولية تؤدي إلى زيادة قوة الفرد وتحقيق عنصر أساسي في بنية المجتمع المدني.

ب. التربية من أجل المحافظة على البيئة:

المجتمع المدني ليس مجموعة بشرية منظمة متوائمة في ظل مجموعة من القيم الأخلاقية فحسب، إنه مجتمع ينتمي إلى مكان محكوم بطبيعته، ومدى صلاحيته للعيش الإنساني، وقدرته على تغذية المجتمع بما يملكه من موارد قابلة للاستثمار، لذلك وجب على التربية المدنية أن تتجه منذ البداية نحو

(١) عبود، راتب، (١٩٩٦) نظريات التربية في عصر التنوير الفرنسي، مرجع سابق ص ٧٤.

(٢) سورة الزمر، الآية ٧.

(٣) سورة الزلزلة، الآية ٧، الآية ٨.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) عالم الفكر، (١٩٩٩) مرجع سابق، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مج ٢٧، عدد يناير/مارس ص ٣١٦.

(٦) صادر عن المؤتمر الإسلامي التاسع عشر لوزراء الخارجية المنعقد في القاهرة بجمهورية مصر العربية في الفترة من ٣١ يوليو إلى ٤ أغسطس ١٩٩٠.

(٧) وطفة، علي أسعد، الراشد، صالح أحمد، (١٩٩٩) التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، الكويت، ص ١٦٣.

حماية المكان أو البيئة الطبيعية، ورعايتها لتكون في أفضل حالاتها لخدمة المجتمع ويكون ذلك ببث الوعي بقيمة الطبيعة المادية والجمالية، وتعليم الطفل كيفية المحافظة على البيئة حتى نتجنب كارثة بيئية محققة بسبب اعتدائنا عليها بالهدم، أو التلوث، وإذا كانت مسؤولية الإنسان تتصب على ما يملكه ملكية خاصة، أو ما ينتمي إليه، فإن البيئة أهم ما ينتمي إليه الإنسان، وتسعى التربية المدنية لأن تبرز أثر البيئة في حياة الفرد والمجتمع، ومتانة علاقة الإنسان بها، وكذلك مسؤولية الفرد عن الأجيال القادمة، وبالتالي تخلق لديه دافع حمايتها من التخريب والتلوث، والتشويه، إن على التربية في مستوى الأسرة أن تنمي لدى الطفل القدرة على الاستمتاع بالجمال، والنظافة، لتزيل من داخله الرغبة في إتلاف وإفساد الطبيعة، وأن تخلق لديه الوسائل الكفيلة بالحفاظ على البيئة، حتى لا يشعر بالعجز عن حمايتها، وأن تعزز قيمة الأفعال الإيجابية التي يقوم بها الطفل لحماية ما حوله، وذلك من أجل أن نضمن للمجتمع في النهاية البيئة الصحية السليمة الصالحة للحياة، فالحفاظ على البيئة هدف إنساني أكد عليه الإسلام حتى في حالة الحروب، ونذكر هنا بوصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان قائد جيش المسلمين إلى الشام وجنوده، والتي جاء فيها "إني أوصيك بتقوى الله وطاعته والإيثار له والخوف منه وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم فلا تغلل ولا تمثل ولا تغدر ولا تجبن ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا حرّاً ولا تحرقوا نخلاً ولا تفسدوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعفروا بهيمة إلا لمأكله"^(١).

ج . التربية على المواطنة:

عندما تحلو الأرض في أعين ساكنيها، فينعمون بخيراتها، وثمراتها، ويطمئنون إلى وجودهم عليها، تنبت لهم فيها جذور، تشدهم إلى الأعماق، ويثمرون حباً، وتعلقاً، وغيره، فالحب انتماء، ولا يمكن أن ينتمي الإنسان إلى شيء لا يحبه، كما أنه لا يمكن أن يحب دون أن يشعر بالانتماء إلى ما يحب، أو بانتماء ما يحب إليه، وانتماء الإنسان إلى الأرض يتبلور عبر المواطنة الصحيحة تلك الرابطة بين الإنسان والوطن، وهذه الرابطة لا يدركها الإنسان إلا بالتربية المدنية التي تعلم الإنسان أن يكون حراً خيراً في وطن تسود فيه الحرية والديمقراطية، وقد أكد روسو (J. Rousseau) على العلاقة بين المواطنة وحرية الوطن والفضيلة عندما قال: لا يمكن للوطن أن يقوم بغير الحرية، والحرية بغير الفضيلة، والفضيلة بغير المواطن وستبلغون كل هذا إذا أعددت المواطينين، وبدون هذا الإعداد لن تجدوا إلا عبيداً أشراراً بدءاً من رئيس الدولة، ولكن إعداد المواطن ليس عمل نهار واحد"^(٢) إذ إن إعداد المواطن يعني بناء الكائن الاجتماعي المزود بنسق من الأفكار، والمشاعر والعادات التي لا تعبر عن ذاته الفردية فحسب، وإنما عن الجماعة، أو الجماعات المختلفة التي ينتمي إليها، فالكائن الاجتماعي ليس معطى من معطيات البيئة الفطرية للإنسان، ولا يمكن أن ينمو بشكل عفوي لأن ما يحركه هو التجربة والغريزة، والعاطفة، كما قال روسو (J.Rousseau) إن التجربة والغريزة والعاطفة تحرك الإنسان، كما هو الحال عند الحيوان من أجل

^(١) شعبان، حلمي علي، (١٩٩١) سلسلة أعمدة الإسلام، رقم (١) أبو بكر الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٢.

^(٢) الجيوش فاطمة، (١٩٩٤) فلسفة التربية، كلية التربية . جامعة دمشق، ص ٨٥.

تلبية حاجاته الحيوية^(١) ويجد دوركهيم (E.Durkheim) أن الإنسان "ليس ميالاً بفطرته إلى الخضوع إلى السلطة السياسية، أو إلى احترام النظام الأخلاقي، أو التضحية والإيثار، إذ لا يوجد في بنيتنا الفطرية الأولية ما يدفعنا إلى أن نكون خاضعين لإرادة سماوية، أو شعارات رمزية مساندة في المجتمع... إنه المجتمع الذي استطاع أن يستمد من قدسية هذه الأشياء سلطاته الأخلاقية الكبرى التي تجعل الفرد يشعر بدونية إزاءها"^(٢). لذلك فالتربية المدنية لا تتجاهل البنية الفطرية في سبيل تحقيق غايتها في خلق المواطن، أو الكائن الاجتماعي، هذه البنية الفطرية التي لا تهتم إلا بالأنا، وما يتعلق بغريزة البقاء، وقد رأى هلفتيوس (G. Helvetius) أن "حب الذات هو الأساس الوحيد الذي يمكن أن تبني عليه قاعدة الأخلاق الفريدة" ووافقه على ذلك لوك (W.Locke) وغولباخ (G.olbadh)، حيث علم الأخلاق يبنى على أساس الرغبة الأنانية نحو المتعة التي يعدها مصدر السمات الأخلاقية لأفراد المجتمع^(٣). والانتماء إلى الوطن يرتب واجبات على الإنسان كما يولد فيه شعور المحافظة على ما ينتمي إليه فإذا دعي إلى القيام بدوره في وطنه شعر بأنه يقوم بأداء وظيفة هامة مهما كانت مكانة الوظيفة فالحاكم والقاضي والمعلم والطبيب والمهندس والعامل والفلاح كل منهم يقوم بدوره الذي كلف به وفقاً لمهاراته وقدراته، فإذا شعر هؤلاء بالمواطنة الصحيحة، وبالانتماء إلى وطن حافظوا عليه، وامتنعوا عن العبث بمقدراته، أو استثمار وظائفهم لغايات أنانية وشخصية، وسيشعرون بأنهم مواطنون يتمتعون بحقوق المواطنة في حرية وعدل ومساواة وحق العيش الكريم، فيتجهون إلى حماية المصلحة الوطنية بعد أن ضمنوا حقوقهم المصونة.

د. وظيفة الأسرة تجاه الحضارة والثقافة:

يتعاطم دور الأسرة في تأصيل قيم المواطنة عند الطفل وتزويده بالقيم الحضارية والثقافية، إذ أننا نرى من خلال النظر إلى دراسات علم النفس اللغوي التي تناولت تعلم اللغة بأن هناك سناً محددة تكون فيها إمكانات تعلم اللغة محفزة لدرجة كبيرة، وهي ما تسمى بالزمن الحرج لتعلم اللغة وتضالول عملية التعلم عند فوات هذه الفترة كما أثبتت ذلك دراسات تشومسكي (H. Chomsky) ويمكن أن ننظر بهذا المنظار إلى عملية اكتساب قيم المواطنة على أنها تكون أكثر ثباتاً وتأصلاً ودواماً إذا تمت في سن مبكرة على يد الأسرة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية، ويمكن ملاحظة ذلك بالمقارنة بين القيم الدينية والاجتماعية إذ أنها تبدو أكثر ثباتاً من القيم الوطنية وقد يكون مرد ذلك إلى الأطفال يتعلمون هذه القيم في سن مبكرة وعلى أن هناك مرحلة حرجية أيضاً لتعلم واكتساب قيم المواطنة. وقد أشار الفيلسوف الفرنسي هلفتيوس (G.Helvetius) إلى ضرورة تعليم الفضيلة منذ عمر مبكر حيث يقول "للأسف بأنه إلى الآن لا وجود لمدارس يتم فيها تعليم علوم الأخلاق" ويذكر أن ما يدرس في المدارس أبان عصره الشعر اللاتيني والبلاغة..، أما دروس الأخلاق فلا تعطى أية ساعة. ويجد هلفتيوس (G.Helvetius) إلى ضرورة تعليم الفضيلة منذ عمر مبكر حيث يقول "للأسف بأنه إلى الآن لا وجود لمدارس يتم فيها تعليم علوم الأخلاق"

(١) دوركهيم اميل، (١٩٩٦) التربية والمجتمع، ترجمة د. علي أسعد وطفة، دمشق، ص ٧٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٦٩.

(٣) عبود، راتب، (١٩٩٦) نظريات التربية في عصر التنوير الفرنسي، مرجع سابق ص ١١٨.

ويذكر أن ما يدرس في المدارس أبان عصره الشعر اللاتيني والبلاغة..، أما دروس الأخلاق فلا تعطى أية ساعة. ويجد هلفتيوس (G. Helvetius) بأن التوقيت الأفضل للبدء بالتربية الأخلاقية هو في مرحلة الطفولة المبكرة حيث يمكن أن تغرس في ذاكرة الطفل تعاليم ومبادئ العدالة التي تؤكد التجربة صحتها ومنفعتا يوماً بعد يوم^(١).

ويميل البعض إلى التمييز بين الحضارة Civilization والثقافة Culture ويجدون أن الثقافة هي الجانب الروحي في حياة الإنسان كالأفكار، والأساطير، والدين، والفن، والأدب، وقد عرف وليم كلباتريك (W.kilbatrik) الثقافة بأنها "كل ما صنعتته يد الإنسان وعقله من مظاهر في البيئة الاجتماعية"^(٢)، بينما تعني الحضارة الجانب المادي وما وصل إليه الإنسان من منجزات تكنولوجية، ويجد فيبر A- Weber أن الحضارة "تشكل جملة هذه المعارف النظرية التطبيقية، غير الشخصية، تلك التي يعترف إنسانياً بصلاحياتها، ويمكن تناقلها، أما الثقافة فهي جملة من العناصر الروحية كالمشاعر، والمثل، والقيم المشتركة التي ترتبط خصوصيتها بجماعة معينة وزمن معين"^(٣).. ويستخدم بعضهم المصطلحين بمعنى واحد كما فعل تايلور (Tylor) عندما قال: "إن كلمة ثقافة أو حضارة، بمعناها الانتروبولوجي تشير إلى كل معقد يشتمل العلوم والفنون والعقائد والأخلاق والقوانين والعادات، وكل ما يكتسبه الإنسان بوصفه عضواً في الجماعة"^(٤). ولكن تايلور (Tylor) نفسه يعود ليميز بين المفهومين وذلك في سياق التطور الإنساني حين يتحدث عن الحالة البربرية والحالة الوحشية ثم حالة الحضارة، والحضارة هنا تشير إلى درجة تطور ثقافي متقدم. فالحضارة هنا هي الثقافة حينما تصل هذه إلى درجة عليا من التطور، وغالباً ما يميل المفكرون إلى التمييز بين المفهومين على النحو التالي: الثقافة هي الجانب الروحي في حياة الإنسان كالأفكار والأساطير والدين والفن والآداب بينما تعني الحضارة الجانب المادي والتي يشار إليها من خلال المنجزات المادية للإنسان كالنكولوجيا والعلم والمنشآت المادية^(٥). وهنا يمكننا الإشارة إلى تلازم هذين المفهومين بعلاقة تبادلية يصعب فكها، فكل ثقافة لا بد أن تفرز حضارة ما، وفي الوقت نفسه فإن كل حضارة ستفرز وتصنع ثقافة خاصة بها. وهذا لا ينفي التأثير والتأثر بالحضارات والثقافات الأخرى.

وتتميز المجتمعات بمحتواها الثقافي والحضاري الذي يسماها بسمات التمدن وهكذا يتميز كل مجتمع عن الآخر بطريقة حياته ومعيشته، وتفكيره، وسلوكه، ويقاس رقي الحضارة بتساميها، وتطلعاتها نحو المثالية الإنسانية التي أمرت بها الشرائع السماوية، والتعاليم المدنية والدينية، والناقل الأول للحضارة والثقافة هو الأسرة^(٦)، فإذا كان ما اخترنته منها ضئيلاً لم تستطع إعطاء أكثر مما تملك، فيكون عطاؤها ضحلاً ضعيفاً، أما إذا كان نصيبها من الحضارة والثقافة كبيراً نقلته إلى أبنائها، فشبوا وهم أغنياء بتراث وراثته، رفع من شأن أهلهم كما يرفع من شأنهم، فمن واجب الأسرة تعريف أبنائها بما أطلق عليه سكينر

(١) عبود، راتب (١٩٩٦) نظريات التربية في عصر التنوير الفرنسي، مرجع سابق ص ١١٥.

(٢) William. H.Kilputrick, *Philosophy of Education*, (New Yerk: Macmillan & Co., 1956)p.69.

(٣) وطفة، علي أسعد (١٩٩٨م)، علم الاجتماع التربوي وقضايا الحياة التربوية المعاصرة، الكويت، ص ٨٥.

(٤) هنا، غانم، (١٩٧٩)، فلسفة الحضارة، أملية جامعية، جامعة دمشق، كلية الآداب، ص ٣٥.

(٥) وطفة، علي أسعد (١٩٩٣)، علم الاجتماع التربوي، منشورات جامعة دمشق، ص ٢٣٥.

(٦) P.W Mussgrave, *The Sociology of Education*, Methen and Co., London, 1965, p.31.

"(B.F.Skinner) خير الحضارة"، وهو الخير الذي يدعو أعضاء الجماعة للعمل ابتغاء صون الحضارة، والحفاظ على عظمتها^(١).

وهكذا نصل إلى أن من أولى واجبات الأسرة أن تعلم الأطفال المسؤولية، والمحافظة على البيئة، والمواطنة، وتعرفهم بحضارة المجتمع، وثقافته، وبأسس النظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الأخلاقي وأن تسهم بتشكيل ذهنية الفرد أي "طريقة النظر إلى الأشياء ونموذج التفكير الذي يحكم سيطرته على عقله، والذي يتشكل في المراحل الأولى من حياته"^(٢). وبالتالي تنمي إمكانية الاستيعاب لدى الفرد من أجل عملية التكيف التي يمارسها غالباً بصورة عفوية، أو فطرية، أو بدائية في مضمونها، وأسلوبها.

لا شك في أن هناك نقاط ضعف، ومراكز وهن في الدور الوظيفي للأسرة العربية، وهذا ما يجب استدراكه بغية تعزيز هذا الدور، وتطويره كي يصبح في المستوى الفاعل في حياة الفرد بما يتطلب ذلك من انفتاح فكري ومواجهة واقعية لحقائق الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، ومتطلباتها ويحمل مؤلفا "التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي" الأسرة المسؤولية بالدرجة الأولى عن بناء الروح العصبية والتسلطية عند الأفراد، وتنمية مشاعر الكراهية، والحق، والتعصب بما تبثه من أحاديث تعزز الفخر بالطائفة التي تنتمي إليها، وبالنظرة السلبية للطوائف الأخرى، أو المجموعات المختلفة ثقافياً أو عرقياً، وتشجيع عليها الأحكام الدونية، ونغمة التخويف من هذه الجماعات، ومن ثم تعزيز مشاعر العدوان والعداوة التاريخية، وقد لا يكون كبار الأسرة قد هدفوا إلى تنمية هذه المشاعر السلبية وفي الغالب يحدث ذلك عن غير قصد بسبب جهلهم إثر أحاديثهم العابرة في نفوس أطفالهم وقد نبه دوركهيم (E.Durkheim) إلى ذلك فقال: "وإذا كان الآباء والمعلمون يشعرون دائماً أن كل شيء يمر أمام الأطفال يترك أثراً في نفوسهم، وأن بنية الطفل النفسية، وشخصيته مرهونتان بآلاف الأحداث الصغيرة التي تمر دون أن نشعر بها، والتي تحدث في كل لحظة، والتي قلما نعيدها أي اهتمام بسبب تقاهتها الظاهرية، فإنهم سيولون لسلوكهم ولغتهم مزيداً من الاهتمام"^(٣).

وإذا لم تستدرك الأسرة العربية نقاط الضعف هذه وتعالج ما بها من وهن فسوف تفقد وظيفتها بل سوف تؤدي دوراً سلبياً يدفع الفرد إلى العنف، والانحراف بتحررهم من الضوابط السلوكية السليمة. ومن البدهة بمكان أن الأسرة العربية محكومة على الأغلب بنسق مجتمعي يعزز التميز والقبلية أو الطائفية، والتعصب، وفي مواجهة هذه الوضعية المأساوية يترتب على المعنيين بالأمر سياسيين وتربويين ومفكرين، ورجال دين التصدي لهذا الواقع، وإسقاطه بصورة نهائية، ويمكن لهذه المواجهة أن تأخذ أبعاداً شمولية ترتبط بمختلف المؤسسات التربوية المدرسة، ودور العبادة، ومؤسسات التنشئة الاجتماعية كافة.

وهنا لا بد من التكامل والتضافر بين أدوار هذه المؤسسات كافة وعلى رأسها الأسرة والمدرسة في تفاعل ودينامية تعزز كل منهما دور الأخرى في بناء المواطن وفق الأهداف التربوية المنشودة.

دينامية العلاقة بين الأسرة والمدرسة في تحقيق أهداف التربية المدنية

^(١) الجيوش، فاطمة، (١٩٩٤) فلسفة التربية، مرجع سابق، ص ١٥٥.

^(٢) وطفة، علي، الراشد، أحمد، (١٩٩٩)، التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

^(٣) دور كهيم اميل، (١٩٩٦)، التربية والمجتمع، ترجمة د. علي أسعد وطفة، دمشق، ص ٨٧.

لا شك بأن التربية فعل لا يقتصر على المؤسسات المدرسية، بل يتعداها إلى مؤسسات المجتمع الأخرى، الأسرة، وسائل الإعلام، والمؤسسات، والمنظمات الاجتماعية والثقافية المتنوعة. كما أننا نؤمن بأن التربية ليست منظومة مستقلة عن منظومات الحياة الاجتماعية المتعددة، بل هي نظام فرعي يتبادل التأثير والتأثير بالمنظومات الاجتماعية المختلفة، ولكن هذه النظرة الشمولية للتربية لا تلغي الدور الرئيس للتربية في قيادة الحراك الاجتماعي نحو التطوير كعنصر فاعل ومبادر في تطوير جوانب الحياة كافة. وبطبيعة الحال في طرحنا للتربية المدنية لا ندعو لتعاليم مدرسية تقليدية تلقن وتتسى، وإنما هي منهج متكامل تتشارك في تحقيقه وتنفيذه مؤسسات المجتمع كافة، ويناط بالأسرة الدور الأساسي في غرس منظومة قيم التربية المدنية بأفعال سلوكية إجرائية تتم تنشئة الأطفال عليها من سن مبكرة، وتعزز المدرسة هذه القيم. إن التواصل والتنسيق بين الأسرة والمدرسة أصبح ضرورة ملحة لتحقيق الأهداف التربوية بشكلها الصحيح والفاعل، حيث يمكن للمدرسة أن تسهم في تعزيز هذه القيم من خلال مشاركة طلبة المدارس ببعض الأنشطة الرمزية مثل مساعدة شرطي المرور في يوم المرور والمساهمة مع البلديات في يوم النظافة وكذلك في الأعياد الوطنية والقومية، وتنظيم انتخاب لجان النظافة في الصفوف ولجان التنظيم في المدرسة وأنشطة إجرائية أخرى كل هذه دروس عملية تعزز سلوك التربية المدنية بشكل فعلي وعملي. إن التكامل والتفاعل بين الأسرة والمدرسة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى هي من الشروط الضرورية لتحقيق أهداف التربية المدنية وذلك بدينامية تفاعل تتبادل فيه التأثير والتأثير والتأثر في اتساق وتناغم وتكامل، فالقيم التي تتم تنشئة الأطفال عليها في سن مبكرة، وتعزز المدرسة هذه القيم. أن التواصل والتنسيق بين الأسرة الدور الأساسي في غرس منظومة قيم التربية المدنية بأفعال سلوكية إجرائية تتم تنشئة الأطفال عليها من سن مبكرة، وتعزز المدرسة هذه القيم. إن التواصل والتنسيق بين الأسرة والمدرسة أصبح ضرورة ملحة لتحقيق الأهداف التربوية بشكلها الصحيح والفاعل، حيث يمكن للمدرسة أن تسهم في تعزيز هذه القيم من خلال مشاركة طلبة المدارس ببعض الأنشطة الرمزية مثل مساعدة شرطي المرور في يوم المرور والمساهمة في البلديات في يوم النظافة وكذلك في الأعياد الوطنية والقومية، وتنظيم انتخاب لجان النظافة في الصفوف ولجان التنظيم في المدرسة وأنشطة إجرائية أخرى كل هذه دروس عملية تعزز سلوك التربية المدنية بشكل فعلي وعملي. إن التكامل والتفاعل بين الأسرة والمدرسة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى هي من الشروط الضرورية لتحقيق أهداف التربية المدنية وذلك بدينامية تفاعل تتبادل فيه التأثير والتأثر في اتساق وتناغم وتكامل، فالقيم التي تتم تنشئة الأطفال عليها في سن مبكرة تكون أكثر ثباتاً، وتشكل معيار سلوك الفرد في مستقبل حياته. إن غرس قيم احترام الممتلكات العامة، كما في الحفاظ على الحدائق العامة بالمرتبطة ذاتها التي نهتم ونعتني بحديقة المنزل، والاهتمام بنظافة الشارع وكأنه فناء للمنزل، والنظر إلى أثاث المدرسة بمرتبة الأثاث المنزلي، هذه القيم التي قد تبدو رمزية، إلا أنها في الحقيقة تعزز بشكل عملي احترام الممتلكات العامة، والمواطنة الصالحة، والقيم الجمالية، والحضارية، وتشكل قاعدة للتعليم المدرسي اللاحق في هذا المجال كما أنها تغرس مفاهيم الأمانة والإخلاص للوطن بحيث لا يفكر الفرد بالعبث بمقدراته في أي مستوى من المستويات، لاسيما عندما تسهم المدرسة في تعزيز هذه القيم، بالإضافة إلى مؤسسات المجتمع الأخرى بكافة أنواعها، حيث يتشكل عرف اجتماعي يشتمل جملة هذه المبادئ والقيم يضاف إلى نسق الأعراف الاجتماعية التي يصعب خرقها، لأن العقوبة الاجتماعية مباشرة، كما أن التعزيز الاجتماعي للسلوك المتفق مع تقاليده

مباشر أيضاً وبذلك يكون أكثر فاعلية في تقويم سلوك الأفراد وتصحيحه. والأهم من ذلك عندما ننجح في تكوين الضمير الاجتماعي والرقابة الذاتية لدى الفرد، في الوصول إلى مرحلة تمثل هذه القيم من قبل الفرد وشعوره بالمسؤولية عنها، وهذا لا يتم بجهد مؤسسة اجتماعية أو تربوية واحدة بل بتضافر كافة المؤسسات ذات الصلة، وفق أهداف محددة وواضحة، ووفق توزيع منظم للأدوار والخطوات والمراحل والإجراءات التي تركز هذه القيم، وعلى رأس هذه المؤسسات تقف الأسرة والمدرسة ولاسيما أن العلاقات والسلوكيات التي تدور داخل الأسرة وداخل جدران المدرسة من سيادة لقيم الحوار، والديمقراطية، والنظافة، والحفاظ على البيئة، والقيم الوطنية، ومجموعة المفاهيم المرتبطة بالتربية المدنية تشكل أول الدروس وأهمها في التربية المدنية وتغدو أكثر فاعلية إذا أدركت المدرسة الفروق في الثقافات المرجعية لمرتبديها من الأطفال، وتباين المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للأطفال^(١) وذلك بأن تسهم بفاعلية في عملية التعويض عن النقص في الدور الأسري فيما يخص هذه الجوانب لدى بعض الأطفال، وكذلك في التواصل مع هذه الأسر من خلال النظرة إلى المدرسة على أنها مركز إشعاع حضاري في البيئة المحلية ولا يقتصر دورها على العمل التربوي داخل المدرسة.

التربية المدنية في إطار المدرسة:

المدرسة هي الأداة والآلة والمكان الذي بواسطته ينتقل الفرد من حياة التمرکز حول الذات إلى حياة التمرکز حول الجماعة، أنها الوسيلة التي يصبح من خلالها الفرد الإنسان إنساناً اجتماعياً، وعضواً عاملاً وفعالاً في المجتمع^(٢).

تشكل المدرسة المؤسسة الثانية بعد الأسرة التي تتولى مسؤولية تأهيل الطفل اجتماعياً إلى جانب تأهيله علمياً، وقد أوجد المجتمع هذه المؤسسة لأن الأسرة بمفردها غير قادرة على حمل عبء التأهيل الاجتماعي والعلمي بعد أن يبلغ الطفل سنّاً معينة، إذ لا تملك المؤهلات اللازمة للقيام بهذه المهام ومن وظائفها:

١. تنمية شخصية الطفل في جميع جوانبها.
٢. نقل التراث الثقافي تدريجياً بما يتناسب مع نمو الطفل.
٣. الاحتفاظ بالتراث الثقافي والعمل على تسجيل كل جديد وإضافته إليه.
٤. تبسيط التراث الثقافي، فالثقافة المكونة عبر العصور معقدة ومتشابكة، وهنا يتمثل دور المدرسة في تبسيط هذا التراث وتلك المعرفة.
٥. تطهير التراث الثقافي من الخرافات والأباطيل والعادات والتقاليد الفاسدة.
٦. إتاحة الفرصة للأفراد للاتصال بالبيئة الأكبر "المجتمع".
٧. العمل على توفير بيئة اجتماعية للفرد أكثر ثباتاً واتزاناً من بيئته الخارجية باعتبار أن المدرسة

^(١) وطفة، علي أسعد، (١٩٩٩) بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ص ٣١.

^(٢) النجيجي، محمد لبيب، (١٩٧٨) الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ٧٦.

مجتمع محدد محكوم بسياسة محددة ضمن أنظمة وقوانين من الضبط والمواعيد الدقيقة مما يؤثر في تكوين وتنشئة شخصية الطفل^(١).

ويشير علي وطفة إلى الوظيفة الاقتصادية حيث يرى أن المدارس المهنية تقوم بتأهيل اليد العاملة لاستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة وبالتالي تلعب دوراً في زيادة الدخل القومي، وتحقيق النمو الاقتصادي والوظيفة السياسية المتمثلة في التأكيد على الوحدة القومية للمجتمع وضمان الوحدة السياسية وتكريس الأيدلوجية السائدة، والمحافظة على بيئة المجتمع الطبقية. وتحقيق الوحدة الثقافية والفكرية^(٢). وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الوظيفة الاقتصادية ليست مرتبطة بالمدارس المهنية لوحدها، حيث أثبت علم اقتصاديات التعليم بأن عملية التربية هي أهم الاستثمارات الاقتصادية وأن الربيع الاقتصادي لجميع الأنشطة الاقتصادية في كافة قطاعات الحياة يعود بجزء كبير منه كعائد من عائدات التربية غير المباشرة وبالعودة إلى هذه الوظائف المتعددة والتي تزيد بتطور المجتمع وتعهده لا يمكن أن تؤديها الأسرة بإمكاناتها المحدودة، ويقول ربول أوليفيه (R.Oliviah) في كتابه فلسفة التربية "إذا كانت الأسرة الحديثة تضطلع بالوظيفة الأولى في التربية أي تنشئة المشاعر، فهي تضطلع أيضاً بالوظائف الأخرى إجمالاً، وهي تلقن، وتنشئ، وتعلم، بيد إنها سرعان ما ترى نفسها غير كافية لتلك المهام التي تولف التعليم والتي تأخذها على عاتقها مؤسسات خاصة"^(٣).

ويجد بعض الباحثين أن رسالة المدرسة الأساسية هي غرس الصفات الإيجابية في الشخصية هذه الصفات التي تتضمن مقدمات الصحة النفسية^(٤) والتي تعد بدورها أهم مقومات الشخصية المتوازنة. كما يفصل بعضهم في وظيفتها الحافزة على الابتكار والخلق إذ ينبغي على المدرسة أن تنمي ما يسمى بالطبيعة الثالثة للفرد وهي التي تعبر عن نفسها في نمو ذكاء الفرد ونمو سلوكه على نحو يجعله فريداً في ذاته مبدعاً خلاقاً في ثقافته وبيئته، وقد تعد هذه الوظيفة أعلى وظائف التربية المدرسية مرتبة وخاصة في المجتمعات التي تعيش تغيرات سريعة جذرية تحتاج من الأفراد خلقاً وإبداعاً وابتكاراً وتجديداً في أساليب حياتهم وفي القيم الجديدة وتحقيقها في علاقاتهم وأنظمتهم^(٥). فالمدرسة هي حلقة مكملية للأسرة تتولى الطفل عادة بعد الخامسة من عمره وعلى مدى عشر سنوات على الأقل، أي في مرحلة من العمر يكون فيها الطفل في أقصى حالات التأهب النفسي للتعلم والتقليد والتطبع والانتلاف مع القيم التي يصادفها في مرحلة نموه هذه.

إن التعليم يمكنه أن يلعب دوراً كبيراً في تصحيح الخلل الذي يعانيه نسق القيم الراهن، ولاسيما القيم الإنسانية، ويستطيع أن يعمل على إرساء قيم تنموية. واتجاهات مجتمعية، تساعد المنطقة على مواجهة

(١) ناصر، إبراهيم، (١٩٩٦) علم الاجتماع التربوي، مرجع سابق ٧٨، وما بعدها.

(٢) وطفة، علي، (١٩٩٣) علم الاجتماع التربوي، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٣) أوليفيه، ربول، (١٩٧٨) فلسفة التربية، ترجمة د. نعمان، منشورات عويدات، بيروت. ص ٢٥.

(٤) كرومباخ. س، (١٩٩٥) صحة الأطفال النفسية، ودور المدرسة في حمايتها، ترجمة د. عبد الله المحجيل،

دمشق، دار معد، ص ٢١.

(٥) الهادي، محمد (١٩٧٦)، في أصول التربية، الأصول الثقافية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،

ص ٢٦٩.

التحدي الذي أفرزته سيادة قيم العمل والإنتاج وتراجع قيم التسامح والسلام وحقوق الإنسان^(١) وذلك بما تنقله المدرسة للناشئة من مفاهيم تربوية وأخلاقية واجتماعية وعلوم أساسية مؤهلة لتحصيل أوسع وأدق في المراحل اللاحقة لمرحلة التأسيس العلمي، وعملية النقل هذه لا تتم بأساليب موحدة بل تختلف باختلاف مفاهيم المعلم ونظريته إليها وإدراكه لدورها في التأهيل التربوي كما تختلف باختلاف شخصية كل معلم لما لهذه الشخصية من أثر في الأسلوب التعليمي، وفي نفسية التلاميذ، فالمعلم يشكل في نظر التلاميذ نموذجاً سلوكياً معيناً غالباً ما يسعى التلاميذ للاقتداء به. وتأسيساً على ذلك ومن أجل تطوير تجاربنا التربوية لا بد من الإشارة إلى الجهود التربوية والسياسية الكبيرة التي بذلتها منظمة اليونسكو لتجسيد مبادئ السلام والتسامح وحقوق الإنسان. وهذه بالطبع من ركائز التربية المدنية. لقد أنشأت منظمة اليونسكو نظاماً من المدارس المتعاونة التي تسعى إلى بناء تجربة تربوية حية في بناء مفاهيم السلام والتسامح بين الأطفال الناشئة، حيث تتضمن هذه المدارس برامج متكاملة من أجل غرس قيم السلام والتسامح بين أجيال المتعلمين والدارسين. ويوجد اليوم أكثر من ١٣٠٠ مدرسة للسلام في ٧٤ دولة عضو في منظمة اليونسكو^(٢). عن تحقيق الديمقراطية في إطار الحياة الاجتماعية، مرهون إلى حد كبير بتحقيق التربية الديمقراطية في المؤسسات التربوية، فالنظام الديمقراطي لا يتقرر باللوائح والقوانين وإنما هو بحاجة ماسة إلى نظام تربوي يسانده ويعاضده^(٣).

المعلم الديمقراطي:

وهنا تبرز أهمية المعلم الديمقراطي الذي يشجع ويحمي التعبير عن الآراء الحرة والجريئة في جو يوفر الحرية الأكاديمية، في الوقت الذي يطبق فيه القوانين بوضوح وفقاً لمبادئ الحماية المتكافئة، واستحقاق المعالجة لكل فرد على حدة، فالحرية الحقيقية خاضعة لقوانين وضعية لا يجب تجاوزها، وحرية الأفراد تكمن في الخضوع العادل للقوانين والمساواة بين كافة أفراد المجتمع. والمقصود هنا المجتمع المدرسي. كما يخلق المعلم الديمقراطي جوّاً يكون فيه الاحترام لكرامة كل فرد، ويؤكد المعلم الديمقراطي على مهام التعليم التي يختبر بها الطلاب من أجل تحمل المسؤولية بالنسبة لإنجازهم للأهداف التربوية وتمثلهم لقيمها.

يأخذ المعلم الديمقراطي على عاتقه مسؤولية تطوير الدروس الممتعة والدروس الاختبارية من أجل الطلاب، ويتابع تثقيف نفسه من خلال برنامج القراءة مدى الحياة، وبوساطة التدريب المستمر، والتخطيط لتعزيز قدرته على تعليم المواطنين. وإن "حسن نية المعلم، والكلمات الحسنة، والتي تقال في مكانها والتشجيع، والتقدير العادل للتحصيل. وإن كان صارماً. واحترام التلاميذ في التعامل من أي سن كانوا،

(١) الكواري، علي خليفة، (١٩٨٥) نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١٠٠.

(٢) وطفة، علي، الراشد، صالح، (١٩٩٩) التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، الكويت، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٣) حمادة، عبد المحسن عبد العزيز، (١٩٩٥) مدخل إلى أصول التربية، ط ٤، جامعة الكويت، كلية التربية، ص ١٦٦.

يشكل ما يسمى بالمناخ السيكولوجي المرضي في الصف ويهيئ أجواء انفعالية إيجابية تساعد على استيعاب المعارف من قبل التلاميذ على نحو أفضل^(١).

المتفرحات:

أولاً

: إن المدرسة مجتمع مصغر مهني للمجتمع الأكبر الذي تتوافر فيه جميع عناصر الاتصال البشري والعلاقات الإنسانية والتفاعل بين الفرد والجماعة. فهي عالم قائم بذاته. والتجول في هذا العالم محظور إلا بما هو مسموح به بتدرج مكتسب بالجهد والعطاء. والمدرسة نظام توجد فيه قوى مختلفة ممثلة بالمدير والمعلم والمرشد والناظر والتلميذ وفي هذا الخضم من الحضور والتجاذب والتدافع، تشاد مبادئ التربية المدنية المؤهلة للحياة الاجتماعية فيخطئ من يعتقد أن هذه المبادئ تفرض فرضاً وتقبل دون أن تجد مقاومة ربما كانت لا شعورية، من جانب تلك القوى المتفاعلة في ذهن كل من تصدر عنه أو تنصب عليه. هذه الحقيقة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند إيجاد المراكز النفسانية والنظري والعملية المناسب لتشييد المواطنة الصحيحة لدى التلميذ. إذ غالباً ما تلاحظ نزعات مقاومة للتجديد حتى في مجال التربية.

إن تحقيق كل عمل جديد يتم بانتصارين: انتصار على مراكز المقاومة في النظام القائم، وانتصار في تجسيد العمل الجديد ميدانياً. فكل فكرة جديدة وكل مشروع جديد يلقيان مقاومة عفوية ضمن النظام القائم لأن الإنسان عدو ما يجهل، أو لأن القائمين على النظام يجدون صعوبة في تقبل أفكار جديدة ستخرجهم من رتابة عملهم اليومي إلى أسلوب جديد في العمل. وفي الحالتين يقتضي تحقيق النصر التغلب على تلك المقاومة العفوية، ومن ثم تحقيق الفكرة أو العمل بصورة ميدانية تقنع المترددين بصوابها وبفائدتها، فانتصار كل فكرة جديدة يتأتى من انتصارين: الأول على القوى التي تقاومها والثاني في تحقيقها.

ثانياً

: يجب أن تحدد أهداف التربية المدنية للمعلم قبل المتعلم حتى يدرك الأهمية المعطاة لهذه المادة ضمن البرنامج المدرسي. وأن يوجد جسور الاتصال بمؤسسات المجتمع الأخرى لتحقيق هذه الأهداف وفي مقدمة هذه المؤسسات الأسرة.

ثالثاً

: التربية المدنية هي مدخل فلسفي جديد لمستقبل التربية العربية، في ظروف غياب فلسفة تربوية عربية واضحة. وقد تكون مخرجاً لأزمة التربية العربية بالنظر للظروف الدولية الجديدة، والتداعيات المصاحبة لها وانعكاساتها على واقع الأمة ومستقبلها.

رابعاً

: إن المعلم يقوم بدور قيادي في المدرسة فهو نموذج سلوكي يقتدي به غالباً تلاميذه، كما أنه الأب الروحي لطلابه إن لم يعطهم من قلبه وروحه بقي علمه جافاً ومجرداً من الطابع الشخصي والإنساني، فالتعليم وظيفة اجتماعية إنسانية ويستطيع المعلم من خلال عملية التربية، أن يكسب تلاميذه القيم السياسية المرغوبة من: ديمقراطية، وعدل، وتعاون، وحرية ومسؤولية... الخ، باعتبارها ركائز مهمة لبناء الإنسان الحر، وهنا يترتب على المعلم أن يتيح

(١) كرومباخ، (١٩٩٥) صحة الأطفال النفسية ودور المدرسة في حمايتها، مرجع سابق، ص ٤١.

الفرصة أمام التلاميذ للقيام بدراسة طائفة من المشكلات القائمة فعلاً، وإعطائهم الفرص المتكافئة للتعبير عن آرائهم والدفاع عنها بكل حرية، وإن يعمل على إشراك أولياء الطلبة في هذه الأنشطة.

خامساً

: يجب أن يدرك المعلم أن ما يهيئ لتلاميذه ليس فقط ترنماً بحضارة ماضية بل تهيؤ لحضارة معاصرة متطورة، وبالتالي يجب أن يكون لديه من قوة الإبداع ما يجعله يستبق الحاجات والتطورات فيهيئ التلميذ لمواجهةها.

سادساً

: إن عملية التعليم في الحياة الاجتماعية عملية تدريب وتمرس ابتداء من حمل المسؤوليات الطفيفة في المدرسة وتدرجاً في سلم المسؤوليات حتى تبلغ درجة مسؤولية المواطن نحو وطنه ومجتمعه ذروتها فيصبح ذلك المواطن نموذجاً للمواطنة الصالحة.

سابعاً

: إن التربية المدنية تهدف إلى تنمية وتعزيز العلاقات الإنسانية والاجتماعية وإلى تدريب الإنسان على دوره في الحياة مع أقرانه. وتعزيز قيم التعاون مع مؤسسات المجتمع كافة لتحقيق الخير العام والإسهام في بناء الوطن وتقديم الحضارة وهذا ما يجب أن تتضمنه المناهج وطرق التدريس وكافة الأنشطة التربوية داخل المؤسسات التعليمية وخارجها.

ثامناً

: إن التربية المدنية في المدرسة عمل تكميلي للتربية البيئية، لذلك يجب ألا تتعارض مع هذه التربية بل تتسجم معها بالقدر الذي تكون فيه هذه التربية صحيحة وفقاً لسلّم قيم مشتركة بين المؤسستين الأسرية والمدرسية.

تاسعاً

: إن التربية المدنية في المدرسة تتناول الموضوعات نفسها التي نتناولها في البيت إلا أنها تطورها وتعطيها القاعدة النظرية والعلمية اللازمة لإقامتها بصورة ثابتة ومتمينة وتهيئ لها المجال الحيوي لتحقيق مداها الطبيعي بما يوفره الجو المدرسي من معطيات غير متوافرة في البيت.

عاشرًا

: إن الوقاية من الانحرافات عن طريق التربية المدنية في المدرسة تفترض تقصياً من قبل المعلم لأسباب عدم تكيف تلاميذه مع المتطلبات اليومية في المدرسة ومعالجتها بالطرق المناسبة كي لا تتعاطم فتؤدي لسلوك شاذ وربما منحرف أو مجرم.

حادي عشر: إن برمجة التربية المدنية في المدرسة تتطلب تدرجاً في الاقتراب من الموضوعات بحيث نبداً بالفرد ومن ثم بالأسرة فالمدرسة فالبيئة والمجتمع مع كافة مؤسساته العامة والخاصة، وصولاً إلى الدور الاجتماعي للإنسان.

ثاني عشر: إن تنمية المواطنة الصحيحة لدى الطالب في المدرسة تفترض توجه التعليم نحو خلق الشعور بالنظام والتنظيم لديه، بحيث يتهيأ ذهنياً ونفسياً للتوافق مع متطلبات الحياة الاجتماعية وذلك بوساطة تعزيز التفاعل التربوي بمختلف اتجاهاته، وخلق البيئة الصفية التربوية المحفزة لهذا التفاعل.

ثالث عشر: إن العلاقة بين الإبداع والحرية وثيقة، فالإبداع عطاء خيال حر، وعقل تنفتح له الآفاق، وإرادة تمتلك الاختيار، ولذلك ينمو الإبداع في رحم الحرية، فالطاقات المبدعة لا تنبت في أجواء الظلم الاجتماعي وغياب الحرية والديمقراطية في حقوق الإنسان، والتربية الحقيقية هي جوهر

هذه القيم التي تتعاضد الأسرة والمدرسة لتكريسها.

الخاتمة

في خضم هذه التطورات كان لا بد من التساؤل عن مصير التربية المدنية وأثرها في حياة الأمم ولشعوب المعاصرة.

في الواقع ظهرت الحاجة إلى التربية المدنية الصحيحة في المجتمع المعاصر بصورة ملحة للغاية لم يسبق أن ظهرت عليها في السابق. ففي الماضي كانت الأطر التقليدية المكونة من العائلة والقبيلة والأقرباء والقُدوة والمدرسة تقوم بإحاطة الفرد بما يحتاج إليه في نشأته ونموه وحياته حتى إذا ضعف ركن سنده آخر. أما الإنسان المعاصر فلا شك في أنه شعر بتخلي تلك الأطر عنه أو بتخاذلها عن القيام بواجبها أو بوهنها أو باضمحلالها أو بذهابها. فأصبح في فراغ لا يمكن سده إلا بتدخل أجهزة الدولة المختصة والمؤسسات الاجتماعية لتحل محل الأطر التقليدية أو تساعد في بقى لها من أثر. ولكن هل بإمكان الدولة والمؤسسات أن تحل محل تلك الأطر الأساسية الطبيعية التي كونتها الإنسانية منذ نشأتها؟ إن جملة التطورات التي طرأت على الحياة برمتها في المائة سنة الأخيرة جعلت الإنسان أمام بيئة جديدة لم يألفها البتة مما شكل التحدي الرئيسي لعلم التربية.

فقد انتقلت في الواقع مهام التربية والتنشئة من أرضها الطبيعية إلى أرض لم يثبت الاختبار حتى الآن أنها أرض صالحة لعملية التنمية الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية في حل مشكلات الإنسان وبالتالي في حل مشكلات الأمم والشعوب.

هنا يكمن جوهر المشكلات التربوية في المرحلة المعاصرة، ومن هنا تتطرق عملية حل هذه المشكلات من خلال إيجاد الوسائل الصالحة لحلها.

فهل وفق المجتمع إلى إيجاد الحل السليم. وهل ساهمت التربية المدنية التي اتخذها هذا المجتمع كمحور مركزي لخطط التنمية الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية في حل مشكلات الإنسان وبالتالي في حل مشكلات الأمم والشعوب؟

والله ولي التوفى،،،

المراجع:

١. بدوي، أحمد بشير، (١٩٧٣) منهج التربية الوطنية للمرحلة الثانوية العامة لجمهورية السودان الديمقراطية، أطروحة جامعية، الجامعة الأمريكية، بيروت، رقم (T58 Ac2).
٢. ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٩٨) المقدمة، ت: درويش الجويدي، بيروت.
٣. ابن خلدون، عبد الرحمن، (١٩٩٣) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٤. أبو حلاوة، كريم، (١٩٩٩) إعادة الاعتبار لمفهوم المجتمع المدني، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج ٢٧، ع ٣ يناير، مارس ٩، ٢٦.
٥. أبو شهبة، محمد بن محمد، (١٩٨٨) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج ٢، دمشق.
٦. أبو الفتوح، رضوان، (١٩٦٠) التربية المدنية، جامعة الدول العربية، المؤتمر الثقافي الرابع، القاهرة، الإدارة

الثقافية.

٧. بيلو، وبرير، (١٩٨٣) المواطن والدولة، منشورات عويدات، بيروت وباريس.
٨. الجزري، ابن الأثير (١٩٦٣)، الكامل في التاريخ، ت ابن الفداء عبد الله القاضي ج. ٢.
٩. الجبوش فاطمة (١٩٩٤)، فلسفة التربية، كلية التربية - جامعة دمشق.
١٠. حمادة، عبد المحسن عبد العزيز، (١٩٩٥)، مدخل إلى أصول التربية، ط٤، جامعة الكويت، كلية التربية.
١١. حواسن، محمود، (١٩٩٩) العالم العربي والمجتمع المدني، الفكر العربي، مجلة الاتحاد العربي للعلوم الإنسانية، ع٩٥، بيروت لبنان.
١٢. خلف الله، محمد أحمد، (١٩٨١) القرآن والدولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٣. دوركهائم أميل، (١٩٩٦) التربية والمجتمع، ترجمة د. علي أسعد وطفة، دمشق، دار معد.
١٤. ريول، أوليفيه، (١٩٧٨) فلسفة التربية، ترجمة د. جهاد نعمان، منشورات عويدات، بيروت.
١٥. شريف عمر، (١٩٨٦) نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة.
١٦. شعبان، حلمي علي (١٩٩١) سلسلة أعمدة الإسلام، رقم (١) أبو بكر الصديق، دار الكتب العلمية ببيروت.
١٧. عاقل، فاخر، (١٩٧٧) التربية قديمها وحديثها، دار العلم للملايين، بيروت.
١٨. عبد الدايم، عبد الله، (١٩٩٨) دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، القاهرة.
١٩. عبود، راتب، (١٩٩٦) نظريات التربية في عصر التنوير الفرنسي، ترجمة د. عبد الله المجيدل، دار معد، دمشق.
٢٠. العوجي، مصطفى، (١٩٨٥) التربية المدنية كوسيلة للوقاية من الانحراف، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب الرياض.
٢١. كرومباخ. س، (١٩٩٥) صحة الأطفال النفسية، ودور المدرسة في حمايتها، ترجمة د. عبد الله المجيدل، دمشق، دار معد.
٢٢. قنديل، أماني، (١٩٩٩) تطوير المجتمع المدني في مصر، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج ٢٧، عدد ٣، يناير ومارس ٩٧، ١٢٤.
٢٣. الكواري، علي خليفة، (١٩٨٥) نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
٢٤. المجيدل، عبد الله، (١٩٩١) الاتجاهات الأساسية لديمقراطية التعليم في الوطن العربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، أكاديمية العلوم التربوية الروسية، موسكو.
٢٥. ناصر، إبراهيم، (١٩٩٦) علم الاجتماع التربوي، طبعة ثانية، دار الجيل، بيروت.
٢٦. النجيجي، محمد نبيب (١٩٧٨)، الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٢٧. هنا، غانم، (١٩٧٩) فلسفة الحضارة، أملية جامعية، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق.
٢٨. الهادي، محمد، (١٩٧٦) في أصول التربية، الأصول الثقافية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٢٩. هوانة، سمير، (١٩٩٥) قضية السلام في المناهج الدراسية الحديثة، الجمعية الكويتية تربوية التسامح وضرورة التكافل الاجتماعي، الكتاب السنوي العاشر الكويت.
٣٠. وطفة، علي أسعد، (١٩٩٣) علم الاجتماع التربوي، منشورات جامعة دمشق.

٣١ . وطفة، علي أسعد، (١٩٩٨) علم الاجتماع التربوي وقضايا الحياة التربوية المعاصرة، الطبعة الثانية الفلاح، الكويت.

٣٢ . وطفة، علي أسعد، ١٩٩٩ الراشد، صالح أحمد، التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، الطبعة الأولى، الفلاح، الكويت.

٣٣ . وطفة، علي أسعد، (١٩٩٩) بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت.

المراجع الأجنبية :

- 1- P.W Mussgrave (1965), *The Sociology of Education*, Methen and Co., London.
- 2- J.Patrick John. (1995) *Civic Education for Constitutional Democracy: An International Perspective*, Eric Digest, Indiana University EDO-SO-December.
- 3- J.Patrick John (1998) *Education for Engagement n Civil Society and Government*, Eric Digest, Indiana University EDO-SO-September.
- 4- J.Patrick Johb. (1997) *Global Trends in Civic Education for Democracy*, Eric Digest, Indiana University EDO-SO- January.
- 5- William.H.Kilputrick, (1956) *Philosophy of Education* (New York: Macmillan & Co.

□□□

حدود الحكمة العقلية في الدراسات الأفلاطونية

محمد عرب

ربّما، لو حاولنا أن نبحث فيما وصلنا من الثقافة العقلية القديمة عن أعمق الفلسفات وأفضلها، لن نجد بين الفلاسفة أفضل من أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) بالقياس إلى ثقافة زمنه، والوسائل المتوفرة منها، وبصيرته النافذة في عصره وعصور قادمة والتي تكشف عنها آراؤه في دول العقل، وأنواع الحكومات، وطبيعة كلّ نظام سياسي ومزاياه. وهذا العمق في فهم المشكلات الإنسانية الذي لم يبلغه أي فيلسوف في عصره، هو الذي يدفعنا لعرض وجهات نظر أفلاطون في النظام السياسي الأمثل، لكونه يمثل إلى حدٍّ بعيد قِمة حدود الإدراك العقلاني للضرورات والحاجات الإنسانية. وإنّ دراسة حدود هذا الإدراك ومقارنته بالفهم الروحي لنفس المسائل سيكشف لنا عن الفرق بين مقتنيات العقل، ومقتنيات الروح، وفهم كل منهما للمشاكل الإنسانية، والحلول التي سيبنى بهما كلاهما جمهوريته الفاضلة. ولا خلاف بين الفريقين على بناء هذه الجمهورية، ولكنّ الخلاف هو في الأسس التي سيقوم عليها كل بناء، وهو خلاف ما زال قائماً في عصرنا، ويفرض علينا أن نتعامل معه كأمر واقع لا بدّ منه، وإن كانت نتائجه الظاهرة للعيان تدفعنا بالضرورة للطموح إلى الجمهورية المثلى التي لا تأكل فيها الحروب خبز الإنسان ومأواه ومستقبله. وإذا كان لا بدّ من دوام هذا الخلاف، فليكن، ولكن بصلح كصلح الحبيبية بين الفرقاء، لفتح باب الحوار بدلاً من إطلاق النيران فمن يدري؟ ربما سيكون عدو الأمس صديقاً. وحتى إذا لم يتحول إلى صديق فلا حاجة للتفكير في قتله أو إكراهه على الإيمان، بما يؤمن به كل فريق. وإن من مصلحة الإنسانية تقويض الأمم المتحدة بحلّ الخلافات بين الشعوب وفقاً لمعايير واحدة، بهدف نشر رايات السلام العادل فوق كل ربوع الأرض، لإتاحة الفرصة أمام كلّ شعب للتسابق مع الآخرين على بناء جمهوريته الفاضلة في جو السلام والأمن.

ولا بدّ لتحقيق هذه الأهداف من وقف سباق التسلح، وتحويل كل الأسلحة إلى مناجل وهو أمل قديم وحلم من أحلام البشرية يجب تحقيقه بعد أن توقّرت كلّ الإمكانيات المادية، ونضجت كل الظروف لإنجازه. ولكن ما يلزمنا هو توفر الإرادة العملية لتحقيقه، لأنّ أبسط الأشياء يحتاج إنجازها إلى جهودنا، وإنّ كلّ طريق لا بدّ لنا من تسخير أنفسنا وجهودنا من أجله قبل أن يصبح صالحاً للسير عليه. وربما إنه من الغريب، بل والعجيب أن يفشل قادة، من المفترض أنهم حكماء العالم، في صنع السلام، وأن يستمروا في صنع الحروب والتخطيط للحروب القادمة، بإنتاج مزيد من الأسلحة، رغم أنهم يعرفون أكثر من غيرهم بأن تكلفة السلام أقل بكثير من تكاليف الحروب، وإنّ موارد الأرض تكفي لإطعام أضعاف عدد السكان الراهن. ولكن هل هو مرض قابيل وذريته الذي قتل أخاه رغم سعة الأرض في ذلك الزمان الذي كان

يستطيع فيه قابيل أن يتصرف بقارة كاملة دون أي معارضة. لهذا السبب ستظل الجمهورية الفاضلة ممكنة التحقيق. فماذا أعد لها أفلاطون؟ وكيف رسم معالمها بريشته؟ وهل ستلقي قمة الحكمة العقلية أي الفلسفة مع الشريعة كما رأى ابن رشد.

المدينة الفاضلة:

إن المدينة الفاضلة، التي دعى أفلاطون مجتمعه لإقامتها، أو تلك التي يمكن أن تستمد تشريعاتها من الوحي، لا يعني أنها ستخلو من الشر، لأن الشر لا يمكن إزالته من العالم، وهو جزء أصيل في الطبيعة البشرية. وإنما يعني أن النظام الفاضل سيلحق الأشرار ويحكمهم محاكمة عادلة دون أي مراعاة أو محاباة لموقع الشرير أو منصبه. ومثل هذا النظام ستكون قوانينه سارية على كافة المواطنين، وإن اختلفت مواقعهم في الحياة العامة أو أدوارهم في عملية الإنتاج. وبتجسيد مبدأ المساواة العامة الحقيقي لا يجوز أن تكون السلطة أداة لتحقيق المزايا والمكتسبات، ولا أن يكون المال وسيلة لاستعباد الناس واستغلالهم. ولكن هل بالإمكان بناء مثل هذه الدولة الخالية من القهر في عصرنا، الدولة التي لا يتصرف فيها الحاكمون كعصابة لسرقة أموال الأمة والأمم الأخرى بالتعاون مع الشركات الكبرى، وإن تركوا للناس حق الصراخ، كما يحدث في النظام الرأسمالي. أو كما يحدث في الدكتاتوريات التي تستبيح أموال المواطنين ودماء كل المعارضين، وتتحوّل الدول على أيديهم إلى شركة عائلية، ليس للمواطن فيها أي حقوق، ولا حتى حق الحياة؟. هل ستقودنا جمهورية أفلاطون الفاضلة إلى المساواة والحرية ولو نظرياً؟.

إن أفلاطون ببصيرته النافذة سيضع أمامنا صورة للأنظمة السياسية التي تمثل كل واحدة منها مستوى من الطبيعة الإنسانية "في الفرد ثلاثة عناصر هي العقلي والغضبي والشهوي، يقابلها في الدولة الحكام والمنفذون والمنتجون" (الجمهورية - ١١٣). ولكنه سيعود لتقسيم عناصر النفس الإنسانية تبعاً لوظائفها قائلاً "تدعو علم النفس الذي به تعقل -القوة الذهنية- والقسم الذي به تجوع وتعطف وتختبر تقلب الرغبات الأخرى نلقبه بلقب غير العقلي أو القوة الشهوية وهي حليفة اللذة والانقياد" (١٣٧). ولكن ما هو موقع القوة الغضبية ودورها "فهل المبدأ أو القسم الذي به نغتاظ ثالث متميز عنهم؟ وإلا فإلى أي القوتين هو أميل بطبيعته؟" (٣٨). سيقدر أفلاطون أن "في النفس كما في الدولة ثلاث قوى متميزة هي: المفكرة والمنفذة والمنتجة. يقابلها في النفس ثلاث قوى، ثالثها الغضبية، حليفة الذهن الطبيعية ما لم يُفسد بناء النفس سوء التربية" (٣٩). فالعوامل التي ستوجه تصرفات الإنسان هي النفس وهي القوة الناطقة بلسان الغرائز. أو العقل وهو القوة المفكرة التي ستتخذ القرار في الاستجابة لطلبات النفس أو رفضها وفقاً لموازينه الخاصة. بينما ستكون القوة الغضبية أو الهوى أو الحماسة كما يمكن أن نسميها العنصر الفعال في ترجيح كفة إحدى القوتين، ذلك لأن العقل لا تتغير أحكامه، فالكذب لا يقبله العقل وإن برزته المصلحة، والنفس لا تتغير طلباتها، وهي عندما تطلب الطعام لا يهتمها إن كان حلالاً أو حراماً، كما لا يتغير طعمه لهذا السبب. ولهذا فإن من سيحكم الأمر عند تقابل حكم العقل وحكم النفس وتضادهما، إنما هي العاطفة، الهوى، بالانحياز إلى العقل أو إلى النفس. ولكن ما هو سبب الانحياز السيئ أحياناً؟ إنه "سوء التربية" كما يقرر أفلاطون. وبما أن التربية لا تخاطب النفس وإنما تخاطب العقل فإن المشكلة الرئيسية ستجزم دائماً عن عجز العقل وضعف مقاومته للإغراءات التي ترغب النفس في الوصول إليها. وبما أن الدولة بطبيعتها ماثلة لطبيعة الإنسان، لهذا فإن الدولة الصالحة هي التي تخضع لأحكام العقل

وقراراته. ولكن أيّ عقل هو الذي يجب أن يحكم ما دامت العقول مختلفة؟ سيقول أفلاطون إنّه الفيلسوف، لأنّ الناس ولو كانت لهم عقول جميعاً، إلّا أنّ الإدراكات العقلية تختلف من فرد لآخر، ولهذا فإنّ العمل يمثلون قوّة النفس الشهوية، والجنود الذين يدافعون عن الدولة يمثلون القوّة الغضبية، أمّا الفلاسفة فهم يمثلون سلطة العقل. وبما أنّه لا يمكن إلغاء عناصر النفس الإنسانيّة التي تسبّب الشر الناجم عن الجهل، كما لا يمكن تحويل الناس كلّهم إلى فلاسفة، فإنّه لا بدّ لإيجاد نظام عادل من التنسيق بين قوى الإنسان الثلاث بإعطاء كل واحدة وظيفة في عملية بناء الدولة "إنّ ما يجعل الدولة عادلة هو التزام كل من أقسامها الثلاثة عمله" (١٤٠). ولهذا سيكون "من الجوهرى أن يكون الحكم في قبضة الذهن لكونها حكيمة، فتقوم بتدبير مصالح النفس كلّها، وتكون مملكة الحماسة في النفس بمثابة حليفة ورعيّة" (١٤٠). ولهذا يستنتج أفلاطون بأنّه "لا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الإنساني، ما لم يملك الفلاسفة أو يتفلسف الملوك والحكّام، فلسفة صحيحة تامّة. أي ما لم تتحد القوتان السياسيّة والفلسفيّة في شخص واحد. وما لم ينسحب من حلقة الحكم الأشخاص الذين يقتصرون على إحدى هاتين القوتين" (١٧٢). إنّ أفلاطون سيّشبه الدولة بالسفينة لبيان الخطر المحدق بها في حال تسلّط القوى غير العقلية عليها، ولهذا سيقول لمحاورة "تأمل ماذا تكون النتيجة إذا انتقينا ربابنة السفن باعتبار ثروتهم، دون جدارتهم الفنيّة، ورفضنا ذا الجدارة في الملاحة لفقره.. أفستنتجى الدولة من هذا الحكم، أم ترى أنّه يشملها؟" (٢٤).

إن الدولة التي لا يقودها العقل ستسود فيها الفوضى لأنّ القسم الغضبي أو الشهوي سيقوم بدور العقل، وهو عمل لا يناسبهما ممّا سيؤدّي إلى مرض الدولة، كما يمرض الجسم باعتداء عناصر النفس على بعضها "هذه الظاهرة في النفس كظاهرة الصّحة والمرض في الجسم" (١٤٣). وهي ستنشأ "عن تنازع ناشب بين القوى الثلاث، تنازعاً به تتعدّى هذه القوى حدودها، وتتدخل فيما ليس من اختصاصها" (١٤٣). وهي ستنشأ "عن تنازع ناشب بين القوى الثلاث، تنازعاً به تتعدّى هذه القوى حدودها، وتتدخل فيما ليس من اختصاصها" (١٤٣). إنّ الدولة مثل الإنسان ستمرض إذا لم تقم كلّ قوّة بوظيفتها خير قيام. ولهذا لا بدّ من تحكيم العقل في الدولة التي تسعى لتحقيق سعادة شعبيها، أو في الشعب الذي يريد السعادة لنفسه. وبناء على حكم فلسفة العقل، فإنّ أفلاطون سيضع الأمس النظرية لهذه الدولة.

قوانين دولة العقل:

إنّ أفلاطون سيرفض في دولته الفاضلة أي أساطير تمسّ بمكانة الألوهية كما يفهمها فالدولة بالنسبة إليه لكي تكون صالحة لا بدّ أن تؤسس على الإيمان بالله "كل حروب الآلهة التي رواها هو ميرس، يجب حظرها في دولتنا" (٦٨). لأنّ الواجب أن "يوصف الله في كل حال على ما هو في ذاته. سواء كان ذلك في الشعر القصصي أو الغنائي أو الروائي، هذا هو الحق.. فلا نسند الخيرات إلى غيره، بل نفتش عن علّة الشرور في غيره لا فيه" (٦٨). "قاله تعالى كلي النقاوة والحق في القول والفعل، فلا يغيّر ذاته، ولا يخدع الآخرين، لا بالرؤى، ولا بالكلام، ولا بالظواهر الخادعة، في يقظة ولا في منام (٧٣). إنّ الله في مفهوم أفلاطون هو "علّة الخير" (٦٨). ولهذا يرفض "الإدعاء أنّ الإله الصالح علّة شر كائن من الناس فهو قول يجب أن نحاربه بما أوتينا من قوّة. لأنّ المبدأ الذي تتضمّن أسطورة كهذه شعراً أو نثراً، لا يقال ولا يسمع في المدينة، ولا يبيحه من يروم خير الدولة وارتقاءها شيئاً كان أو فتى. لأنّها أقوال تنافي طهارة الحياة. وهي ضارة ومتناقضة" (٧٠). لقد شاهد أفلاطون ببصره في زمنه، وببصيرته المستقبل، وما

سيؤدّي إليه التجديف على الله، والإلحاد من أخطار على المجتمع، حيث سيصبح كل شيء مباحاً عند من لا يؤمن بالله. وإن كتابات تلك المرحلة التي عاصرها أفلاطون تدلّنا بأن الشعب اليوناني كان يعتقد بتعدّد الآلهة كما تدلّ على ذلك الأساطير، وكان يؤمن بالحساب بعد الموت. ولكن الأساطير كانت تنسب كثيراً من أعمال الشر والغدر إلى الآلهة، كما في الإلياذة والأوديسة، وقد أراد أفلاطون أن يصحح مثل هذه القصص التي تليق بالآلهة، وأن يمنع نشرها وتداولها، ليس لأنها تسيء إلى الآلهة فقط بل لأنها تسيء إلى المجتمع، لأنه إذا كانت الآلهة تخدع وتغدر وتكذب، كما تقول الأساطير، فإن المجتمع سيقترن بها ما دامت الآلهة هي مثله الأعلى. ولهذا سيمنع أفلاطون في جمهوريته مثل هذه القصص غير الصحيحة في نظره، لأنّ الله هو علّة الخير، وإنّه لو كان تغيّره تعالى ممكناً فلا يمكن أن يكون ذلك التغيّر إلى مثل أدنى. لأننا لا نقدر أن نقول بوجه من الوجوه أن نقول بوجه من الوجوه أنّ فيه تعالى شيئاً من النقص جمالاً وسمواً" (٧١). إنّ أفلاطون لا يقدم هذه الآراء لشعوره بحاجة مدينته لفكرة الله والحساب بعد الموت، بل لاقتناعه بوجود إله صانع للكون، وبأنّ هذا الإله يُجسّد الكمال والجمال والخير لا يتغيّر لأنه لا يوجد من يؤثر عليه كي تتغيّر صفاته، وهو المؤثّر على الأشياء: "إن الله جوهر بسيط فلا يتكيّف، ولا يخرج عن المظهر اللائق بذاته "لأنّه كما قال لمحاوّر "إذا تغيّر كائن عن شكله العادي، أفليس بالضرورة أنّ ذلك التغيّر قد حصل، حتماً بفعله هو، أو بتأثير آخر؟" (٧٠). وبما أنّه لا يوجد فاعل مؤثّر على الله، وإذا تغيّر الله فبفعل من ذاته، لهذا فإنّ الكامل لا يقبل النقص، وعلّة الخير، لا يرضى بأن يكون علّة الشر. ولهذا سيقدر أفلاطون في جمهوريته أنّ "أولى الشرائع الإلهية، التي توجب على خطابنا ومؤلفينا أن يطبقوا خطبهم وتأليفهم عليها، هي أن الله تعالى صانع الخير ليس إلا" وسيقول له محاوره: "ولقد أقمت الدليل القاطع على صحتها" (٧٠). إنّ الألوهية عند أفلاطون هي حقيقة قائمة لا يجوز إنكارها، بل إنّه آمن بإله واحد لأنه "جوهر بسيط، فلا يتكيّف" وهو لذلك لا يتعدّد، وإنه سيؤكّد هذا الاعتقاد في كتبه الأخرى، "السفسطائي" و"طيمائوس" و"الفيلسوف" و"فايدروس" و"المأدبة"، كما إنه سيقول بأن النفس الإنسانية خالدة، وبسبب هذا الخلود سيكون نصيبها السعادة أو الشقاء تبعاً لأعمال صاحبها. ولذلك فإن أكبر النعم التي ستحقّقها النفس الواعية لمصيرها، ستكون في تجسيد روح الألوهية بحبها للخير. وهذا ما يكشف عنه الحوار في "ثيائيتوس": "إنّ عقوبة الظلم ليست مجرد آلام جسدية أو موت قد يحدث أحياناً أن يفلتوا منه بل هو عقاب واقع لا مفرّ منه.

ثيودورس: وأي عقاب تقصد..؟

سقراط: هناك نموذجان منه يا صديقي يوجدان في عالم الحقيقة: الأول إلهي سعيد أمّا الثاني فخلو من روح الإله، كلّ تعاسة. وهم لا يتبينون ذلك لأنّ شدة جهلهم تمنعهم من الإحساس بأنهم إنما يتشبهون بالمثال الثاني حين يرتكبون الظلم ويعدّون عن المثال الأول وحياتهم بأكملها التي تشبه النموذج الثاني عقاب لهم" (ثيائيتوس - ٩٢). إنّ أعلى مستويات السعادة ستتحقق للإنسان بتخلقه بصفات الألوهية التي لا يصدر عنها إلا الخير، وإنّ أشدّ أنواع التعاسة ستكون من نصيب من لا يحسّدون مثال الخير الأعظم، وستزداد تعاستهم بقدر بعدهم عنه، لأنّ نفوسهم ستخلو عند ذلك من روح الألوهية. إنّ أسباب هذا الحكم تعود لاقتناع أفلاطون بقدرة الإنسان على الاتصال بالروح الإلهية، بل لأنه يعتبر هذا الاتصال والتواصل هو الهدف الأسمى الذي يجب أن يسعى إليه البشر لتحقيق سعادتهم. حتّى الحبّ الجسدي عند أفلاطون

لا يمثل إلا مرحلة متدنية في حياة غير الحكماء، ولهذا السبب ستكون نظريته إلى العلاقة بين الجنسين في الجمهورية كإنجاز لعمل لا يعلق عليه أهمية كبيرة إلا بقدر ما هو ضروري لتنظيم العلاقات الاجتماعية بما يخدم المدينة الفاضلة. أما الحب الحقيقي فهو حب الحكمة وحب الروح التي تُمثلها، أي الله، لأن كل إبداعات البشر هي فروع مستمدة من الأصل ولهذا سيفاجأ الذين يبحثون في "المأدبة، فلسفة الحب" عن الحب الجسدي حيث سيجدون أنفسهم هدفاً للنقد، وفي موقع متدني روحياً "كلما ارتقى الإنسان زاد حبه للخلود، وقوي الدافع إليه، أما أولئك الذين تتجه غريزتهم الخلاقة اتجاهاً جنسياً محضاً. وتراهم يحسبون أنهم يضمنون لأنفسهم الخلود بإنجاب الأطفال. ولكن هناك غيرهم تكون ميولهم الخلاقة روحية، ويحملون بالروح لا بالجسد، ويخلقون ذرية روحية، وأزديك بأن هذه الذرية هي الحكمة والفضيلة عامة، فالشعراء وأصحاب الحرف الذين يبتدعون أشياء يستحقون من أجلها أن يسموا مبدعين وخلاقين. ولعل أعظم وأشرف فرع من فروع الحكمة هو الذي يتناول تنظيم الدولة والأسرة وهو الاعتدال والعدل" (المأدبة - ٦٧). إن ما قدّمه أفلاطون يكشف عن سبب كتابة الجمهورية، وعن مفهوم الحب كحب روحي ليس فيه للجسد إلا دور الوسيط للانتقال من الصنعة إلى الصانع، من الصورة إلى المعنى "يبدأ المرء بنماذج الجمال في هذا العالم يجعلها درجات يرقى بها عاجلاً غايته ذلك الجمال الأسمى المطلق من نموذج للجمال الحسي إلى نموذجين ومن نموذجين إلى الجمال ككل، ومن الجمال الحسي إلى الجمال الخلقي، ومن الجمال الخلقي إلى جمال المعرفة، ومن المعرفة بفروعها المختلفة إلى المعرفة المطلقة التي يكون موضوعها الوحيد الجمال المطلق فيعرف آخر الأمر ماهية الجمال المطلق.. في ذلك المكان لا في غيره ينبغي للمرء أن ينفق عمره يا سقراط في تأمل الجمال المطلق.. كم تكون سعادة الرجل الذي يحظى برؤية الجمال المطلق، ويطلع على ماهيته طاهراً لا يدنسه دنس، ونقياً لا تشوبه شائبة، بدلاً من الجمال الذي يشوبه ويدنسه لحم الإنسان وألوانه، وهو كتلة من المادة القذرة الفانية. من يصل إلى هنا يستطيع أن يدرك الجمال الإلهي حيث يوجد بمعزل عن كل شيء، وحيداً فريداً. أتحسب أن الرجل الذي يتأمل الجمال المطلق ويتحد به، أتحسب أن حياته تدعو إلى الشفقة والثناء؟. ألا ترى أنه في ذلك المكان وحده الذي يرى الجمال المطلق بالملكة التي يمكنه رؤيته بها ألا ترى أنه يستطيع الإتيان ليس فقط بصور منعكسة للخير بل بالخير الحقيقي، لأنه لا يتصل بظل الحقيقة ولكن بالحقيقة ذاتها؟. وإذا ما جاء بالخير ورباه أصبح أهلاً لحب الله ويتحقق له الخلود إن كان من الممكن أن يظفر آدمي بالخلود" (المأدبة - ٧٠). هذا النص يكشف عن اعتقاد أفلاطون بإمكانية اتصال الإنسان مع الله. وفي نص آخر سيبيّن كيف يمكن أن يكون الإنسان وسيطاً لنقل الرسائل الإلهية "بالملكة التي يمكن رؤيته بها" وهي بالروح. فما هو الحب إذا؟ وما هو دوره في حياة الإنسان؟ ستجيبه ديوتيميا العزّافة - من يعرف - إنه روح عظيم يا سقراط وكل ما من قبيل الروح فهو وسط بين الآلهة والبشر.

سقراط: وما هي وظيفته؟:

ديوتيميا: هو أن يترجم للآلهة وينقل إليهم ما يصدر عن البشر ويترجم للبشر وينقل إليهم ما يصدر عن الآلهة، صلوات البشر وقرايبهم وأوامر الآلهة وحسن جزائها على ما قدّم من قرايين، ومن جهة أخرى حيث كانت الأرواح وسطاً بين الآلهة والبشر فإنّها تملأ ما بينها من فراغ، وتربط أطراف الكل في واحد. وهي الوسيط لجميع النبوات ولفنون الكهنة الخاصة بالقرايين والتلقين والرقي وجميع ضروب العرافة والسحر. ومع أن الإله لا يمتزج بالإنسان فقد يمكن الاتصال والتحدث بينهما عن طريق هذه الروح، إن

في اليقظة أو في النوم ويسمى العارف بهذه الأمور رجلاً روحانياً، على حين يسمى العارف بالأمور الأخرى المتصلة بالفنون أو الحرف صانعاً. وثمة أرواح كثيرة وهي ضروب مختلفة، الحب نوع منها" (فكرة الألوهية عند أفلاطون - ١٥٥ / المأدبة - ص ٦٠). إنَّ اعتقاد أفلاطون بإمكانية اتصال الإنسان مع الله يفتح أمامنا نافذة جديدة لفهم رأي أفلاطون بنفسه ودوره، فهل كان ناقلاً للأفكار الناجمة عن "الاتصال والتحدث مع الله - بالروح"؟. أفلاطون لن يقول شيئاً عن هذا الأمر الغامض، ولكن من يستطيع أن يدَّعي إمكانية الاتصال مع الله غير العارف به والمتدوِّق له..؟ إنَّ علاقة أفلاطون مع أستاذه سقراط ستكشف عن هذه المسألة الغامضة في موقف أفلاطون، فإذا كان أستاذه قد اعتقد بأنَّه يطيع الله فيما يتصرف به وهو بين أيدي قضاة يتوقع منهم أن يحكموا عليه بأقصى العقوبات لاختلافه معهم حول مفهوم العبادة والآلهة، فإنَّه لا بدَّ أن يكون لدى سقراط مثل هذا الوعي أو الظن بإمكانية الاتصال مع الله، وبأنَّه ينفذ أمره، وإلا ما كان سيعرض نفسه لحكم الإعدام. ففي دفاعه عن نفسه قال للأثينيين: "إذا أنتم برأتموني على هذه الشروط فإنني مجيبكم بالتالي: إنني أعزكم أيها الأثينيون وأحبكم، ولكنني أطيع الإله أكثر مما أطيعكم، وطالما بقي فيَّ نفس وكنت قادراً على ذلك، فلن أتوقف عن التسلسل وعن حتكم، موضحاً في كل مناسبة لمن ألقاه في طريقي منكم، ومتكلماً على الطريقة التي اعتدت عليها" (فكرة الألوهية عند أفلاطون - ٦٢). ما هو معنى هذا الدفاع الذي نقله أفلاطون عن أستاذه، وآمن به، وأعاد التأكيد عليه في كتبه..؟ وبذلك ستغدو الجمهورية دولة دينية بكل معنى الكلمة، مما يفسر طبيعة النظام المقرر والغاية منه، في دولة وإن كان دينها العقل إلا أنَّ الفلاسفة الذين سيحكمونها يتلقون من الله بالروح ما يجب عمله لشعبهم. لذلك لن يكون هدف أفلاطون حرية الناس كما تفهمها الأمم الغربية في نظامها الرأسمالي، وكما ظنَّ فرانسيس فوكوياما في كتابه (نهاية التاريخ) مستنداً على تحريف الروح الأفلاطونية، أو سوء فهمه لها، حيث سيمثل النظام الرأسمالي في وعي أفلاطون، سواء في إطلاقه للحريات الفردية والاقتصادية مرحلة من -انحطاط التاريخ- الذي سيقود إلى الديكتاتورية، وليس نهاية التاريخ وكماله.

إنَّ أفلاطون يريد أن يبني دولة العقل والحكمة القادرة على الأخذ بيد شعبها إلى السعادة بوضع كل مواطن في العمل الذي يتناسب مع إمكانياته، وليس بتسليم قيادة السفينة إلى أعمى لأنَّه أكثر ثراء، كما يحدث في النظام الرأسمالي. ولهذا سيرفض أفلاطون في جمهوريته كلَّ أشكال الانحطاط التي تنتشرها الآن الرأسمالية في الحضارة المعاصرة. إنه سيرفض الإلحاد، وكلَّ أشكال الثقافة المنحطة من شعر وقصص وموسيقى وكل ما يقود إلى الانحلال الخلقي والتخلف، مما يعني أنَّ الرأسمالية المعاصرة لو أتيحت لها أن تحاكم أفلاطون فإنَّه لن ينجو من الحكم عليه بالإعدام، لأنَّ من شروط الحكم الصالح "قمع الذات التي تستلزم استرسالهم -أي المواطنين- في الطعام والشراب والهوى" (الجمهورية - ٨١). وهذا يتعارض مع رأسمالية الاستهلاك والأكل والإباحية. كما إنَّ أفلاطون سيحرِّم الغشَّ في جمهوريته "ولا يُسمَح لأحد رجالنا أن يقبض رشوة أو يكون محباً للمال" (٨٢). كما إنه سيقوم رقابة على الفنون "تشمل أساتذة كلِّ فن، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحيَّة، أو الأبنية، أو أي نوع آخر من المصنوعات. ومن لا يستطيع غير ذلك فننهاه عن العمل في مدينتنا، لكي لا ينشأ حُكَّامنا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراعي رديَّة، فتتسرَّب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها، بما تلتهم يوماً فيوماً من الأقوات في مختلف المواقع. فيجتمع في نفوسهم مقدار وافر من الشرِّ وهم لا يشعرون. وعلى الضدِّ من ذلك أولاً يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر، فيتمكَّنون

بقوة عبقريتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال. فينشأ شبابنا بينهم كما في موقع صحي، يتشربون الصلاح من كل مَرْتَعٍ تتبعث منه أي الفنون، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنسمات هابّة من مناطق صحية، فتحملهم منذ حداثتهم، دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي، والتمثّل به، ومطوعة أحكامه" (الجمهورية - ٩٤). ولهذا سيحدد المباح من الآلات الموسيقية والأنغام بما يساعد على الرقي الخلقي وتنمية المشاعر الجمالية "يجب أن يُسنَّ لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان، والآلات الموسيقية فلا يسلم لأمة كاملة آلات موسيقية تُنشئ فيها الرخاوة وتثبط العزائم. فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية، إلا العود والقيثارة والزمير. ويحظر عليهم أيضاً كل الألحان المركّبة والبسيط من هذه هو المباح لهم. وغرض كل هذه القوانين هو أن يترتّب ويرتقي في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاعتزان، وهي صفات تؤثر في سجيّتهم وفي علاقاتهم المتبادلة" (٧٥). إنّ التدريب على الموسيقى سيستمر مدى الحياة كالرياضة، ولكن "الموسيقى يجب أن تنتهي في محبة الجميل" (٩٧). أي المعنى الروحي للجمال، لا الصورة، ولا ما يثير الغرائز ويدفع إلى شرب الخمر، الذي لا يُحبّذه أفلاطون وخاصة للحكام "لأنّ الحاكم، على ما رأى، هو آخر شخص في الدنيا يباح له أن يشرب فيفقد صوابه" (٩٧). إنّ أفلاطون لا يريد أن يبني مدينة محاطة بأجهزة البوليس والمحاكم والمستشفيات بترك الحبل على غاربه للفاسدين والمفسدين. إنه يريد أن يؤسس لحماية المجتمع من الأمراض، والتقليل من الحاجة إلى الدواء، لأنه "إذا انتشرت في المدينة الأمراض وصور الفجور أفلا نضطرّ لإنشاء المستشفيات والمحاكم" (٩٩). إن الحماية من الداء أفضل من المعالجة بالدواء، ولهذا لا بدّ إضافة للقضاء العادل والرياضة والموسيقى من وضع برنامج تعليمي لتهديب النفوس لأنه "إذا لم يتغذّ ذلك الذوق باكتساب المعرفة، أو طلب العلوم، ولم يشترك في المباحث العقلية ومنازع العرفان، ألا تضعف نفسه فيصبح أصم وأعمى البصيرة لافنقاره إلى المنبهات، والغذاء الروحي.. فيصبح رجل كهذا أمياً.. يهجر كل ما هو من ملكوت العقل، ويعمد إلى حلّ مشاكله، كالوحش الضاري، بالقوة والخشونة، ويعيش بالجهل وسماجة النفس بلا اتزان ولا جمال" (١٠٥). كما إنّ دولة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل التي يريدها أفلاطون، لا يصحّ فيها توريث المناصب للأبناء، ويدعو لفتح الباب فيها أمام كافة الشعب لأخذ المواقع التي يستحقونها بجدارتهم لكي تكتمل دائرة العدالة "إنه يجب إقصاء من سفل من مواليد الحكام إلى فئة أدنى، ورفع من تفوّق من أنسال العامة إلى مصاف الحكّام. والقصد من كل ذلك تأهيل كل فرد من سكان المدينة لممارسة الفن الذي أهله الفطرة له" (١١٨) رغم أنه من جهة ثانية أكّد أنّ إمكانات الناس المعرفيّة متساوية من حيث الباطن، أو ما هو فيهم بالقوة، وإن عجزوا عن تحصيلها بالفعل. وذلك بسبب سلوكهم وظروفهم وميولهم التي منعتهم من الاهتمام "بموضوع العلم الأسمى" فكان "الخير الأعظم عند العامة هو السرور، وعند الخاصة هو البصيرة" (١٩٨) ولهذا سيعطي أفلاطون لكل إنسان استحقاقه في دولة العدل. ولكن الخطأ الذي سيرتكبه سيبدو في طلب المستحيل برغبته في تجريد الناس من عواطفهم الإنسانية، حتّى إنّ جمهوريته بإضافة هذه القوانين إليها ستبدو جمهورية آلات، لا بشر. فالزيجات ستقررهما الدولة "قالنساء اللاتي يبدن ميلاً إلى الفلسفة أو الحرب يجب أن يصبحن الحكام أو المساعدين، ويشاركنهم في واجباتهم -أي للقادة- ويصرن أزواجاً لهم. ويجب أن تكون علاقات الجنسين المتبادلة تحت مراقبة القضاة، وأن تبارك بإجراء المراسم الدينية. ويفصل الأولاد عن والديهم، ويربون في معاهد خاصة تنشئها الحكومة" (١٤٦). كما إن أفضل الرجال والنساء في الجمهورية وبما أنهم القادة والقُدوة الحسنّة فإنهم يجب أن يجردوا من المال وحتى العواطف، ولذا يجب "أن تكون أولئك النساء لا استثناء أزواجاً مشاعاً لأولئك الحكام. فلا يخصّ أحدهم نفسه بإحداهن. وكذلك

أولادهم يكونون مشاعاً فلا يَعْرِفُ والد ولده ولا ولد والده" (١٥٧). بل إنه سيفرض على النساء المتميزات أن تتعري أزواج حكامنا في تمرينات الجمباز، لأنهن يستترن ببرد الفضيلة بدلاً من الثياب" (١٥٧). وسوف يسعى مع الشعب إلى "ترويج أفضل الرجال بأفضل النساء، وأن نقلّ تزويج أدنياء الرجال بمثيلاتهم من النساء. وأن يوجه الالتفات إلى تهذيب أولاد الأولين، وإهمال أولاد غيرهم، إذا كنت تروم الحصول على أرقى دولة" (١٦٠). كما أنه سيحدد عدد الزيجات لمنع زيارة الولادات "لكننا نترك عدد الزواجات، لاستحسان الحكام، بحيث يحفظون الموازنة في عدد السكان، من غير زيادة ولا نقصان.. فتظل مدينتنا، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لا أكبر مما هي ولا أصغر" (١٦٠). ولهذا السبب "إذا حبلت إحداهن عرضاً، في غير الحالة المقررة، فلا يرى جنينها النور. وإذا لم تتمكن من ذلك فيلزم التخلص من الطفل على أساس أن ثمرة اجتماع كهذا لا تجوز تربيتها" (١٦٢). وربما سيلقي أبناء من يسميهم الآباء المنحطين نفس المصير، حين يتحدث عن مستقبلهم بشكل غامض حيث "يحمل الموظفون أولاد الوالدين الممتازين إلى المراضع العمومية، تحت عناية مرضعات.. أمّا أطفال الوالدين المنحطين وكل الأطفال المشبوهين، فيخفونهم قاطبة في مواضع مستترة مجهولة ثلاثهم" (١٦١) وبالنسبة لأبناء الممتازين "تتخذ الاحتياطات اللازمة لكي لا تعرف والدته طفلها" (١٦١) وسيُحرّم أفلاطون الزواج من الأبناء والأمهات والجندات والحفيدات.. وحين سيسأله محاوره "ولكن أتى تعرف بناتهم آباءهن والأقارب الآخرين الذين ذكرتهم؟" (١٦٢) في مثل هذا المحيط الذي لا تعرف فيه أنساب المواليد. سيجيب أفلاطون بشكل غامض وكأنّ الفكرة لم تتضح في ذهنه "يحظر على الأخوة والأخوات من بعضهم بعضاً، ولكن الشريعة تبيحه إذا أصابتهم القرعة ووافقت كاهنة -دلفي على ذلك" (١٦٢). هل يفعل أن يتخلى أفلاطون عن الحب والعواطف، وإنسانية الإنسان، وأن يصبح الزواج اقتراعاً، والأبناء دجاجاً بنقلهم إلى مراعي الدول لرعايتهم، لكي تقوم دولة الآلات البشرية؟ هل هذا هو العقل ودولة أفلاطون البائسة؟ وهل شعر أفلاطون كم ناقض نفسه عندما قسّم الأطفال إلى فئتين، فئة تستحق الحياة والتربية والرعاية، وفئة ستساق إلى مصير مجهول لأنها من آباء جاهلين، مع أنه لا ذنب للأبناء فيما فعله أبائهم، ونظرية أفلاطون في المعرفة كما بيّن لنا، تقرر أنّ إمكانيات جميع البشر المعرفية متساوية. سيختم أفلاطون كلامه في النهاية عن نظام الجمهورية بقوله لمحاوره "قد اتفقنا يا غلوكون في النقاط الآتية: إذا أريد انتظام الدولة، أفضل انتظام، وجب تقرير شيوعية النساء والأولاد والتهذيب في كل فروعه. كذلك شيوعية المناصب في حالتي السلم والحرب. وأن يكون الملوك ممن أظهر أعظم مكانة في الفلسفة، وأشدّ ميل إلى الحرب.. يضاف إلى ذلك أننا سلمنا أنه متى رسخ مركز الحكام لزم أن يحلوا جنودهم في مساكن مقررة الأوصاف، ولا يباح فيها، حسب قرارنا، ملك شخصي، بل تكون ملكاً مشاعاً للجميع. وقد قررنا تحديد حال البيوت، إذا كنت تذكر، إلى أي حد تأذن لهم أن يقولوا عن شيء ما إنّه ملكهم الخاص.. إننا قررنا أن لا يمتلك أحدهم ثروة.. وجزمنا أنه يحق لهم كحكام وجنود أن يتناولوا من الأهالي رواتب سنوية مقابل حكمهم. وأن يحصروا جهودهم في السهر على أنفسهم وعلى المدينة" (٢٣٦). ورغم كل الصعوبات التي سيثيرها تطبيق هذا النظام المخالف في بعض تصورات لطبيعة البشر، ومخالفته لما تعارف عليه الناس في حياتهم، فإن أفلاطون مع اعترافه بالصعوبات سيقول إن إقامة مثل هذه الدولة ممكنة في حال وصول فيلسوف إلى السلطة "إن نظريتنا في الدولة والنظام ممكنة التطبيق، وليست مجرد رغبة، وإن يكن تحقيقها صعباً. ويقوم إمكان تحقيقها بوسيلة واحدة، وهي أن تتاط السلطة التامة في الدولة بفيلسوف واحد يشعر شعوراً عميقاً بخطورة الحق والشرف

الناشئ عنه، ويحتقر الفخفة احتقاراً شديداً، ويعتبر العدالة أسمى الواجبات وأحقها، فيُجري -كخادم ومحب خاص للعدالة إصلاحاً كاملاً في دولته" (٢٣٢). إنها أحلام أفلاطون التي بشرت بالحاكم الصالح، أو توقعت ظهوره، ومهدت لكثير من الديكتاتوريات التي حكم عليها أفلاطون بأنها أسوأ أنظمة الحكم في العالم، فادعى قبل أفلاطون وبعده كثير من الحكام بأنهم حكماء وفلاسفة، بل ويمتّون بصلة للآلهة. ولكن برنامج الحكام الصالحين والمطلقى الصلاحية لم يتغير، وعجزت حكمتهم التي زعموا امتلاكها عن إقامة أي دولة صالحة، وضاعت أحلام أفلاطون في الهواء، حين لم يصل هذا الملك، أو الحاكم، الفيلسوف إلى موقع القيادة في بلاد اليونان أو في غيرها طوال التاريخ. وقد ردّد جميع الحكام ما قاله لويس الرابع عشر سراً أو علناً "الدولة أنا" وحين ثار الفقراء في فرنسا، وطالبوا بالخبز سألت ماري أنطوانيت بسذاجة "لماذا لا يأكلون الكاتو". ولكن الرأسمالية الذكية ستقترح حلاً آخر حين سيُضرب العمال لنفس الأسباب في أمريكا، وسيقول توماس سكوت رئيس شركة الخطوط الحديدية، في بنسلفانيا من ١٨٧٤ - ١٨٨٠، لزملائه "أعطوا العمال والمضربين عدة أيام معدودة غذاء من الرصاص والبنادق، وسترون كيف سيمتصون هذا النوع من الخبز" (الحلم والتاريخ - ١٥١). فالرأسمالية لم تكن مضطرة لتجميل صورتها قبل قيام الثورة الشيوعية، ولهذا بطشت بكل من عارضها وإن كانوا من أبنائها. لقد حكمت القوة والمال العالم، وهزمت دولة العقل، والأنظمة التي خاف منها أفلاطون ورفضها بقيت في التاريخ. بل إن الدولة الفاضلة المرسومة بطموح الروح وأنوارها كان مصيرها لا يقل سوءاً عن دولة العقل، فما هو الباقي من الدول والأنظمة والحكومات التي رفضها أفلاطون لأنها دون مستوى العقل..؟

موقف أفلاطون من الأنظمة المعاصرة:

إنّ الدول بأهدافها وسياساتها الخيرة أو الشريرة ستظل قائمة، وكل نظام سيزعم بأنه النظام الأفضل. وقد شاهد أفلاطون كل أنواع الأنظمة في زمنه، وسمع ادعاءاتها، وكان لا بدّ له لتبرير تقديم البديل (الجمهورية) من نقده لها، وإبداء رأيه فيها بالقياس إلى الميزان الوحيد الذي اعتبره صالحاً لبناء أي نظام سياسي، وهو حكم العقل. ولهذا فإنّ أفلاطون وإنّ انتقد كلّ الأنظمة القائمة، فإنّ رفضه لها كقبوله، سيكون على درجات، بقدر قرب كلّ نظام من مفاهيم العقل أو بعده عنه. لقد عاصر أفلاطون خمسة أنواع من الأنظمة "يمكن قسمة الحكومات إلى خمسة أنواع كبرى هي:

الأرستقراطية والديموقراطية والاستبدادية" (٢٣٤) ورأى أفلاطون أنّ كل نظام بسبب غياب حكم العقل والعدل، سيجمل في رحمة الجنين الذي سيقود إلى ولادة النظام القادم بشكل طبيعي. فما هي صفات كل نظام..؟ وما هو النظام الذي سيولد منه ليكون وارثاً له..؟

سيتحدث أفلاطون عن النظام الأرستقراطي بشكل مختصر. وهذا النظام كما يصفه أفلاطون ستمتيز قيادته بالحكمة والشرف والحماسة والكفاءة في إدارة البلاد، ولهذا سيحكم عليه بأنّه "عادل وصالح" (٢٣٧). ولكن مشكلة هذا النظام تكمن في أنّ الحاكم فيه سيورث سلطته لأبنائه الذين سيكونون أقلّ كفاءة وحكمة منه لأنهم لم يعانون ما عاناه، ولهذا سيكون هدف الوارثين الاستقادة من مزايا السلطة المغرية والمتاحة أمامهم بدلاً من متابعة العمل في بناء الدولة، ومن هنا سيظهر القائد التيموكراسي "الإنسان التيموكراسي.. يمكن تمثيله لنفسنا بآبن الأرستقراطي، الذي أغرته العوامل الرديئة على الخروج عن اقتفاء آثار والده. فتنمو محبة الثروة التي أدخلتها التيموكراسية نوعاً. وتتزايد حتّى تحوّلته إلى الأوليغاركية، التي

لبابها جعل الثروة أساس الجدارة" (٢٣٥). إنَّ التيموكراسية ستنشأ من الأرستقراطية حتماً في الجيل الأول أو الثاني عندما "يملك أفضلهم بقوة السلف عن غير جدارة ذاتية" (٢٣٨)، ممَّا سيؤدِّي إلى انقسام في السلطة وصراع بين أجنحتها، ولكن "النزاع المتبادل بين الحزبين ينتهي بالتفاهم المتبادل والاتفاق على اقتسام الأراضي والبيوت، واستبعاد أصحابها المسالمين، وتحويلهم إلى طبقة سفلى كعبيد أرقاء للخدمة في الحرب والدفاع عن سلامة أسيادهم.. فالتيموكراسية، هي مرحلة، وسطاً بين الأرستقراطية والأليغاركية" (٢٣٩). إنَّ "خلق التيموكراسي، الذي يمثِّل الدولة التيموكراسية.. إنَّه ابن رجل فاضل، ولا يبعد أنَّه سكن مدينة ساء نظامها، فتجنب الرفعة والمرافعات، وأمثال ذلك ممَّا يلبس الروح المتمردة، مؤثراً الخسارة على المشاغبة" (٢٤١). أمَّا سبب انحراف الأرستقراطي عن سياسة سلفه فذلك بتأثير الأشرار الذين سيعرضون عليه الشهوات، ممَّا سيقوده إلى "اعتزال أفضل حاكم.. البحث العقلي الممتزج بالفلسفة، وهو وحده بوجوده واستقراره بقي صاحبه، ويمكنه من الاحتفاظ بالفضيلة مدى الحياة" (٢٤٠). هذا الابتعاد عن عالم العقل، والانحدار باتجاه عالم الشهوات سيؤدي بالدولة إلى النظام الأوليغاركي. وفي ظل هذا النظام سيكون "قدر الرجال بثروتهم، فيحتكر الأغنياء الحكم، وليس للفقير فيه حظ ما.. فيتهافتون على حشد المال، فيفقدون الفضيلة ويفقدون قدرهم. ومتى علا قدر الثروة والمثريين في الدولة بُخست الفضيلة والفضلاء.. فيسئون شريعة هي لباب النظام الأوليغاركي.. وينفذون شريعتهم بقوة السلاح، إذا لم ينجحوا قبلها بتأليف الحكومة بالأراجيف التي سبقوا فنشروها.. فتخسر مدينة كهذه وحدتها، وتصير اثنتين، الواحدة مؤلفة من الفقراء، والأخرى من الأغنياء. والفريقان ساكنان معاً يكيان أحدهما للآخر" (٢٤٣). إنَّ انقسام المجتمع إلى فقراء يعملون، وأغنياء مترفون لا يعملون سيؤدي إلى "نشوب حرب أهلية. ولا تضرم منازعات الأحزاب أحياناً دونما تأثير خارجي.. فتتشأ الديمقراطية بفوز الفقراء، فيقتلون بعض خصومهم، وينفون غيرهم، ويتفقون مع الباقي على اقتسام الحقوق والمناصب المدنية بالتساوي ويغلب في دولة أن تكون المناصب بالاقتراع" (٢٤٩). ولكن ما الذي ستحققه الديمقراطية لشعبها. سننقل أهم السمات التي رأى أفلاطون ببصيرته أنَّها تنطبق على كل دولة ديمقراطية، وهي سمات موجودة في ديمقراطياتنا المعاصرة رغم كل التحسينات التي أدخلت عليها لمواجهة الشيوعية. ويقول أفلاطون "الحرية، هي أجمل ما في الديمقراطية... إنَّ الحرية في هذه الدولة تبلغ أقصى مداها" (٢٥٦) ولكن سيكون لهذه الحرية ضريبتها ونتائجها الضارة "الديموقراطية كالأوليغاركية تقتلها الرغبة الزائدة فيما تحسبه خيراً الأعظم" (٢٥٦)، أي الحرية، وما ستسببه من فوضى، حيث "تتسرب عدوى الفوضى الفاشية في الدولة إلى البيت، وتنتشر في كل ناحية، وأخيراً تتأصل حتّى في البهائم" (٢٥٦) ولا يقصد أفلاطون بالبهائم الحيوانات، وإنَّما الناس الذين هم في فهمهم وسلوكهم كالبهائم، ففي هذه الدولة الحرّة سيفلت البهائم من الناس، طالما أنَّ الحرية حطمت كل قيد وإن كان ضرورياً للمجتمع، وستكون النتيجة "أنَّ البهائم تمتلك حرية في هذه الحكومة أكثر من كل حكومة أخرى. وعلى هذا القياس تتماذى الحيوانات الأخرى في الحرية.. إنَّ الأهالي، نظراً إلى شدة إحساسهم، لا يحتملون أدنى إشارة إلى الاستعباد.. إنَّ الأمر ينتهي بهم إلى ازدياد الشرائع المكتتية والشفاهية لئلا يروا، على دولهم ظلَّ سيّد" (٢٥٧) إنَّ الحرية الفردية المطلقة التي لا يقيدتها قيد المعرفة ولا الأخلاق، سيندفع مالکها وراء الملذّات "حيث فشت الإباحة رتب كل فرد نظام حياته وفقاً لملذّاته... وعليه أرى أنه ينشأ في هذه الجمهوريّة أعظم تباين في الخلق.. وقد يكون هذا النظام أجمل النظم، لأنَّه مزخرف بكل أنواع السجایا، فيلوح جميلاً كالثوب المزركش بكل أنواع النقوش. وقد يعجب الكثيرون بهذه الجمهوريّة كأجمل

الأشياء، إعجاب النساء والأولاد بالثياب الزاهية الألوان" (٢٥٠). فالديموقراطية بما تنتجيه من مساواة ستكون على الأرجح "جمهورية مستحبة، ملونة، تعامل جميع الأفراد بالمساواة سواء كانوا متساوين أو لا" (٢٥١). وستؤدي هذه الحرية إلى إفلات المجرمين من قبضة العدالة "أو لم نلاحظ أن أناساً محكوماً عليهم بالإعدام، أو بالنفي، في هذه الدولة، لا يزالون يسرحون في عرض الشارع، ويمرحون مرح الأبطال في ميدان العرض، كأن لا أحد يراهم أو يسأل عنهم" (٢٥١). ما هي الحالة التي ستسيطر على المجتمع عندما تتساوى الفضيلة والرزيلة، والحكمة والجهل، وتصبح قيم الخير والشر نسبية في مجتمع حر لا يتقن على أي شريعة أو حقيقة ويظن أن الخير الأعظم هو جمع المال. من المؤكد أن الفساد سيسود، وسيوصف "الحياة بالحماسة، وتطرده خارجاً كأسير حقير، وتطرد العفاف مهاناً، ملقبة إياه بالجبان. أو لا تبرهن بمساعدة الشهوات الأخرى العديمة النفع، على أن التوفير والاعتزان فظاظة وجهل فتبعدهما إلى ما وراء الحدود؟.. في هذه الصورة تخلي نفس أسيرها + أي المواطن + من الفضائل، وتحل محلها المخازي الكبرى، وتتقدم إلى إرجاع التمرد والتهتك والوقاحة، تصبحها السفاهة والشراسة بحاشية كبيرة وأبهة عظيمة وهي متجهمة فتختمها وتلقبها ألقاباً أنيقة. فتدعو السفاهة حسن التربية، والتمرد دماثة، والفوضى حرية، والتهتك فخامة، والوقاحة شجاعة، أو ليس هذا هو الطريق الذي فيه يهوي الشباب؟.. ومتى تقدم في السن.. وقيل له إن بعض اللذات صالِح شريف، وبعضها سافل شَرير.. يهز رأسه لدى سماع هذه الأقوال هزة الإنكار، مصرّاً على أن الشهوات كلها متماثلة، وتلزم رعايتها على السواء.. فيعيش يوماً فيوماً، يساير الشهوة الطارئة -أونة يشرب على نغمات الموسيقى مع مزاوله التمارين الرياضية - وأونة يكسل فيهمل كل شيء، ثم يعيش عيشة طالب الفلسفة، ويغلب أن يشترك في المصالح العمومية وينهض إلى الخطابة، مدفوعاً إليها بعامل حالي، وتارة يقتفي خطوات كبار القواد، متهافناً على امتيازاتهم، ثم يتحول تاجراً حسداً منه للتجار الناجحين. وليس في حياته نظام ولا قانون رادع. بل يعكف على مسرّاته، وحرّيته وسعادته، إلى نهاية الحياة" (٢٥٤). أليس هذا هو السلوك الذي ستصل إليه كل أنظمة الحرية في العالم، سواء في اليونان القديمة، أو في عصرنا الراهن؟.. لنقرأ هذا الوصف للمجتمع الأمريكي الذي لا يختلف في تفاصيله عما كان عليه الحال في جمهوريات اليونان الحرة قبل ثلاثة آلاف عام تقريباً. يقول هامش ماكري: "إنها لصورة كئيبة للمجتمع الأمريكي تلك التي رسمها أليستركوك، المذيع المحنك البريطاني المولد، والذي قد عاش في الولايات المتحدة لعدة سنوات. إن مشكلة أمريكا كما يزعم، لم تكن ناجمة عن فشل اقتصادي، حتى ولا عن الفكرة التي روجها بول كينيدي والقائلة: "بترهل الإمبريالية" ولكنها ناشئة عن التفسخ الأخلاقي. إن معدل الجريمة تتجاوز بانتظام السنوات الماضية ما عدا الأسوأ منها. والجرائم العشوائية في الشوارع تضاهي ما ورد في مدونات القرن الثامن عشر. كما تشكل المخدرات وباءً يضرب جميع طبقات المجتمع وجميع الأعمار. وقد صحنوا لثونا لنكشف أن نظام التربية والتعليم في أمريكا كان لوقت طويل، وربما لعدة عقود، يعتمد معايير متساهلة ومضطربة، بحيث أن أقلية كبيرة على الأقل وربما أغلبية من خريجي المدارس الثانوية هم أنصاف متعلمين. وقد سجل أليستركوك أعراضاً أخرى للانهايار الثقافي؛ مثل سوء استخدام الحرية، وفشل المحاكم في تعريف وكبح الفجور. والانحطاط السحيق في الأخلاق العامة، وكما جاء في قول جيبون: "الغربة ترتدي رداء الأصالة، والتهور أصبح يدعى حيوية" وينتهي بالقول إلى أنه سوف يكون هناك نقطة انعطاف تاريخية كبيرة، أو نهاية دراماتيكية ما، من مثل حرب أهلية أمريكية ثانية، أو وصول دكتاتور شعبي، أو عودة طارئة إلى الصيغة الخيرة للاشتراكية الوطنية التي أرساها فرانكلين روزفلت" (العالم عام ٢٠٢٠ - ٩٢). هذه هي النتيجة عندما تعطى الحرية

لمن لا يستحقها، ولا يُحسن التصرف بها، ولا ينظر إليها كمسؤولية إنسانية تفرض عليه واجبات نحو نفسه كإنسان أولاً: عليه أن يثبت أنه يستحق منحة الحرية المعطاة له من الله بإثبات إنسانيته التي يتميز بها عن البهائم وهي العقل، وثانياً: نحو مجتمعه والعالم بإثبات هذا التعالي الإنساني بالرحمة والحب والأخلاق والعطف على البشر، وليس بالإساءة إليهم، وإلا فما هو معنى الإنسانية والحرية، إذا لم تجمعنا رابطة الأُنس بالآخرين ومحبة الخير لهم..؟ هل بالوحشية أو الغرائز أو الأتانية نستطيع أن نثبت إنسانيتنا..؟ لهذا لا يجوز أن تكون حبال الحرية طويلة جداً لمن لا يُحسن استخدامها وضبطها بميزان العقل، لأن من يحطمون ميزان العقل لن تُنتج حريتهم إلا البلاء والمصائب لأنفسهم ومجتمعهم. وما حدث في الماضي للمجتمعات الحرة يحدث الآن ما هو أسوأ منه في المجتمعات المماثلة. لنقارن بين ما استنتجه أفلاطون عما سيؤول إليه أمر الإنسان الحر الذي لا تحكمه موازين العقل مع طلبات الإنسان في مجتمعات الحرية. يقول أفلاطون: "إن بعض اللذائذ والشهوات غير الضرورية هي مما تنكره الشريعة، ويظهر أنها تؤلف قسماً أصلياً في كل إنسان. فإن ضبطتها الشرائع والرغبات الفضلى في النفس، بمساعدة الذهن، فإنما أن تزول زوالاً تاماً أو يبقى عدد قليل من الضعيفة منها، ولكنها في قسم آخر من الناس تظل كثيرة وقوية..". إنني أشير إلى الشهوات التي تثور في النوم، حين يكون القسم العقلي الأليف، الحاكم في النفس نائماً. والقسم الحيواني الوحشي المملوء طعاماً وشراباً، قائماً على الخليفتين. وقد طار عنه نومه، اشتغلاً بسد أشواقه الخاصة. ففي تلك الحال ليس هنالك ما لا يجرؤ على عمله، لأنه مطلق اليد، خالٍ من كل شعور بالحياء أو التقوى، فلا يستكف عن شر اتصال نجيس، بوالدته، أو بأي إنسان أو حيوان، ولا يتردد في ارتكاب أنواع القتل، والانغماس في أنجس المأكّل. وبالاختصار لا حدّ لجنونه ووقاحته" (٢٦٦) إن ما توقعه أفلاطون في مجتمع الحرية، أو ما سيمارسه المستبد الذي لا يضبطه العقل ولا يخاف من أي رادع، وشريعته هواه، هو الداء الذي سيجيب مجتمع الحرية إلى درجة أن ما يعتبره أفلاطون مرضاً سيغدو مطلباً صحياً، بل علاجياً على طريقة معالجة السرقة بإباحتها، والاعتراف بأنها طبيعية بدلاً من إدانة اللصوص. لقد استشرى مرض الجنس وانهارت كلّ الضوابط لوقفه، الدينية والأخلاقية، فماذا كانت نتيجة منحة الحرية..؟ إن بعض الناس سيسعون إلى المزيد من الانحدار. سيقول رايموت رايش: "إن أحدث نمط عصري للإصلاح الجنسي البرجوازي يأتي من السويد.. إن كتاب (الأقليات الجنسية) بقلم لارس أولرستام قد أوضح نمو النزعة التي تريد أن تكون جذرية تقدمية في البلدان الرأسمالية، وأن تنتج دونما تمييز جميع الممارسات الجنسية بين البشر، وبين الحيوانات، واعتبارهم متساوين في القيمة ونشر هذه الممارسات الجنسية بين البشر، وبين الحيوانات، واعتبارهم متساوين في القيمة ونشر هذه الممارسات الجنسية، باستثناء الأعمال التي من شأنها أن تؤدي إلى عمليات تعذيب جسدية تمارس على حيوانات أو على بشر" (النشاط الجنسي وصراع الطبقات - ٢٢١) رايموت رايش، سيوافق على مقترحات أولرستام وإن كانت كما قال: "أقلّ تقدمية..". إننا نستطيع حتى الآن الموافقة على هذه المقترحات" (المرجع السابق - ٢٢٢)، وفي رأي أولرستام: "إن كلّ تمييز بين (طبيعي) و(غير طبيعي) أو مرضي في ميدان الحياة الجنسية ليس سوى مسألة تحديد أو تعريف توصي به في أيامنا الدولة والكنيسة والأخلاق. فإذا ما ألغيت هذه التحديدات القسرية فإنّ حدّاً أفضل من السعادة الحقيقية سوف يتحقق تلقائياً" (المرجع السابق - ٢٢٣). يجب إلغاء كل شيء وكلّ قيمة، وكلّ تمييز بين البشر. لا فرق بين من يحكمه العقل، ومن تحكمه الغرائز الجنسية ونقوده إلى كل أنواع الفجور. ولهذا يجب على الكنيسة أن تصمت وعلى الدولة أيضاً طالما أنها تستخدم

هذه المصطلحات الأخلاقية لتقييم المنحرفين. ففي مجتمع الحرية لا يوجد أي فرق، أو يجب أن لا يوجد أي فرق بين القديس والشيطان، بين من ينتصر على نفسه ويكشف عن إنسانيته، وبين من يضع عقله في خدمة عورته، ويصل به الأمر إلى اقتراف كل الموبقات التي لا تفعلها حتى الحيوانات.

سيدافع رايموت رايش عن هؤلاء حتى النهاية وسيجد لهم العذر، بينما لن يعذر الكنيسة والدولة إذا دعت إلى الأخلاق، لأن هذا تمييز، وهو يرفض التمييز، وحتى الاتهام بالمرض، بالقول (طبيعي) و(غير طبيعي)، لأن مثل هذا القول يشير إلى مشكلة.. إلى مرض.. إلى حالة تحتاج للمعالجة، بينما الحالة على خير ما يرام بالنسبة لمن يحدرون بممارساتهم الجنسية إلى مستوى لا تفعله البهائم.. سيقدم لنا رايش حالة من الشذوذ، ومع ذلك فلا شيء يثير غضبه أو معارضته من أجل إنسانية الإنسان، ولا شيء يستدعي حتى العلاج، فهذا مزاج طبيعي "هناك محبون للبول يتأخرون قليلاً في المبالو العمومية. وأكبر ما يحسّون به من رغبة هو أن يعثروا على شخص ما يتلطف بالتبول في قبعاتهم أو جيوبهم" (المرجع السابق - ٢٢٣). ما هو رأي رايش بهؤلاء؟

إنه سيدعو الجمهور إلى الأدب معهم "إن سماح المرء بتلطيخ ثيابه بالبول ليس بالتأكيد حاجة جديرة بالاحترام، لكن الكيفية التي يتجج بها الناس بإساءتهم معاملة هؤلاء الأشخاص هي مثيرة للمشاعر. فإذا لم يكن الشخص يريد أن يستجيب إلى رغبة هؤلاء الأشخاص المتواضعة فإن من الواجب على الأقلّ مقابلتهم بشيء من التهذيب" (المرجع السابق - ٢٢٣) إن هذا الواعظ لا يخجل من تعليم الآخرين كيف يجب عليهم أن يحترموا حرية هؤلاء المرضى، ولكنه يصمت عما تقتضيه مسؤولية الحرية، وعن فائدة هذه الحرية والغاية منها، فما هي فائدة الحرية لأناس سيطلبون من الآخرين مثل هذه الطلبات القذرة؟ حتى على مستوى النظافة والصحة العامة، لا يمكن أن يكون هذا الأمر مقبولاً في مجتمع يحرص على الصحة العامة. ولكن أليست الحرية إذا لم تضبطها الضوابط ستكون بلاء على بعض الناس وعلى المجتمع؟ لهذا السبب رفض أفلاطون دولة الحرية المطلقة، وحذر منها لأنه في مثل هذا الوضع سيأخذ كل فرد من الحرية مما يفهمه وما يلائمه منها. وفي ظلّ السباق المحموم على المال سيروّج الفاشلون، والطفيليون، والذين لا يحبون أن يأكلوا من عرق جبينهم لتجارة الفساد، كما هو الحال في دول الحرية، حيث تنتشر الجريمة، وتجارة المخدرات، ويتمّ الترويج لتجارة الجنس علناً، والتي ستصيب بشروها كلّ فئات المجتمع، وسيكون العلاج لإنقاذ المراهقات من خطر الحمل كما سيقترح رايش وأمثاله هو توفير "آلة توزيع أوتوماتيكية لحبوب منع الحمل توضع في المدارس" (النشاط الجنسي - ٢٢٦) وسيكون من رأي فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الذي طالب بالحرية الجنسية لتخليص المجتمع من الكبت، أي كعلاج طبي ودواء لتحقيق السعادة: "هو أنّ الرجل كيما يكون في حياته الحُبّة حرّاً حقّاً، وبالتالي سعيداً لا بدّ أن يكون تغلب على احترام المرأة، وتآلف مع فكرة العلاقة المحرّمة بالأم والأخت. ومن يخضع نفسه إزاء هذا الطلب لفحص ضميرٍ جاد، فيكتشف بلا أدنى ريب أنه يعدّ الفعل الجنسي في دخيلة نفسه، ورغماً عن كل شيء، فعلاً محطاً لا يلطخ ولا يلوث الجسم وحده" (الحياة الجنسية - ٨٥) سيباح كل شيء، لأنّ السعادة هي أهمّ هدف يجب أن يسعى إليه الإنسان.. السعادة السهلة التي لا تحتاج إلى عناء.. لماذا؟ لأنّ "المذاهب الدينية جميعها أوهام" (مستقبل وهم - ٤٣) حسب رأي فرويد، وإذا كان لا يوجد جزاء ولا ثواب ولا آخرة، وإذا كانت حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيا، فلماذا لا يعيش حياته متحرراً من قيود العقل والأخلاق والدين؟ لماذا لا يستثمر فرصة الحياة التي لن تتكرر في البحث عن متعة الخاصة؟ نعم

هذا هو المجتمع الذي ستكون فيه الحرية وثناً يُعبد، وسيكون من المباح باسمها وتحت رايتها ممارسة أي فعل والإقدام على أي تصرف، وتشويه الأخلاق، ورفض الحكمة وإدانة العقل، لأنه في عالم الحرية لا توجد حدود وضوابط للانحدار، ولهذا ستبدو الحكمة والعقلانية فقط شذوذاً، وإذا ما جَنَّ المجتمع فما هي فائدة العقل ومن سيصغي إليه؟ وما هو المصير الذي سيؤول إليه هذا المجتمع؟ يقول أفلاطون: "الذين لم يتعرفوا الفضيلة والحكمة، ويقضون الحياة في الولايم وأمثالها من أنواع الانهماك قد سفلوا.. ولما كانوا لا يتجاوزونها فإنهم لا ينظرون أو يرتفعون إلى العلل الحقيقية. ولم يمتثلوا قط باللذة الحقيقية، ولا ذاقوا لذة حقيقية صرفاً، بل هم كالسائمة ينظرون أبداً إلى أسفل، ورؤوسهم إلى الأرض، يدنونها من موائد الطعام، حيث يشبعون ويسمنون ويلدون. ولكي يسدوا شهوتهم البالغة بهذا التمتع برفسون بعضهم بعضاً بأطلاف حديدية ويتناطحون بقرون حديدية، حتى يقتل بعضهم بعضاً بتأثير الشهوات الشرهة، لأنهم قد ملؤوا قسم طبيعتهم الشهواني غير الحقيقي بأشياء غير حقيقية" (الجمهورية - ٢٦٨). هل قامت الحربان العالميتان، وكثير من الحروب قبلهما وبعدهما إلا لهذه الأسباب؟.. من أجل المال والشهوات. وهل كان المحرّضون على هذه الحروب يحملون أي رسالة للعالم غير الرغبة في السيطرة والرفاهية المادية؟ لقد أدرك أفلاطون النتائج الطبيعية لمثل هذه الحرية المستهترّة بالقيم والأخلاق التي ستدفع قاداتها إلى العدوانية والحروب في الداخل والخارج، وشاهد بأيّ قرون ستتطاح هذه القوى، وتوقع نهاية هذه الأنظمة وما ستؤول إليه. فالحرية المطلقة ستقود إلى الاستبداد المطلق. فالذين سلبت الحرية كلّ شيء سيبحثون عن زعيم شعبي، إذ "تقضي الضرورة على المسلوبين - أي من سلبت أموالهم - بالتزام خطة الدفاع عن أنفسهم بالخطب في جماهير العامة" (الجمهورية - ٢٥٩). فالعامة الذين سيشكلون الأكثرية في مجتمع الحرية سيبحثون عن مدافع عن حقوقهم، إذ "من عادة العامة اختيار بطل خاص يُؤلونه قضيتهم" (٢٦٠) وعندما سيظهر هذا البطل المغامر وينجح، سيكون قد صار موضع ترحيب، وهكذا ستبدأ أولى خطوات الديكتاتورية بالظهور. ومع الوعود التي سيطلقها للجماهير المحرومة ضد الفئات المالكة، وما سيفعله من "إلغاء الديون، وتوزيع الأراضي على العموم، ولا سيما على أتباعه" (٢٦١) سيرتفع إلى مستوى القدااسة في أعين الجماهير، وهذه المكانة التي سينالها ستساعده بعد البطش بخصوصه الأثرياء من القضاء على كل معارض من الأصدقاء "إذا رام الطاغية أن يستتب له الأمر، وجب أن يُنحّي كل هؤلاء من طريقه، فلا يُبقي على ذي جدارة من أعدائه ولا من أصدقائه.. فيرقبهم مدققاً، ليرى من فيهم رجل، ومن كريم النفس، ومن نبيه، أو غني. ولحسن حظه أنه إن أراد أو لم يرد، فالضرورة قاضية عليه أن يكون عدوّاً للجميع. وأن يكيد لهم حتى يُطهر المدينة منهم.. نعم فإنه يفعل ضدّ ما يفعله الأطباء في تطهير الأجسام، أولئك يُخرجون من الجسم المواد الفاسدة ويبقون الجيدة، أمّا المُستبد فيخرج الجيد ويُبقي الفاسد.. فهو مُقيّد بأقصى ضرورة، إمّا أن يعيش بين أشخاص منحطين، أكثرهم عديم النفع، ويكون مكروهاً منهم، أو إنه لا يعيش" (٢٦٢) إن طبيعة المُستبد لن تسمح إلا للطفيليين بالعيش معه، الذين يحسنون كيل المديح لكل ما يفعل. وبهذا المديح سيصاب المُستبد بجنون العظمة "ونعلم أنّ مَنْ جَنَّ، واختبل عقله، يحلم ويسعى إلى أن يسود الناس والآلهة أيضاً" (٢٦٩). وفي هذه الحالة سيعيش متحرراً من كلّ قيد، وستصيبه أمراض الحرية المطلقة، وسيكون "ديدنه من ثمّ الولايم والأفراح والحفلات والحظايا، وكل ما هو من هذا النوع، وصحبته أناس خضعت عقولهم خضوعاً تاماً للشهوات المستبدة في داخلهم" (٢٦٩). وهكذا "إنّ أشدّ حرية وأعظمها تضع أسس أشدّ استبداد وأثقله" (٢٥٨). فالحرية التي ستخلق الفوضى والبؤس ستسلم نفسها في نهاية

المطاف للديكتاتورية. ما هو الحل إذا كان هذا هو مصير كل الأنظمة التي يصنعها البشر -طفولة فشباب فكهولة وموت -، كما رأى أفلاطون، واستنتج ابن خلدون في تاريخه. سيحيلنا أفلاطون، في نص غريب يدعو إلى التأمل والحيرة، إلى الشريعة الإلهية لبناء النظام الأفضل، سيقول "إنَّ الأفضل للإنسان أن يحكمه مبدأ إلهي عادل. ويجب أن يكون ذلك المبدأ في داخله إذا أمكن، وإلا فرض عليه الحكم من الخارج + أي بالقوة + ليسود التلاؤم علاقاتنا الاجتماعية باعترافنا بسيادة واحدة عامّة. وغرض العادل الخاص حفظ التلاؤم بين الظاهر والباطن، وهو الذي يفرغ نفسه في قالب الجمهوريّة الكاملة، ولا شك، توجد في السماء إن لم يكن على الأرض" (الجمهورية -٢٦٦) إنَّ السؤال المحير الذي يفرضه علينا هذا الرأي، هو هل كان أفلاطون يشعر بأن جمهوريته، التي اقترحها، تستمدّ شريعتها وأحكامها من وحي إلهي؟ وكان كتاب الجمهوريّة محاولة نظريّة لإنزال ما في السماء إلى الأرض، أي إنَّ الجمهوريّة نظام سماوي قبل أن يكون أرضياً.

عالم العقل وعالم الروح

إنّنا لا نستطيع أن نميز بين ما كان في الجمهوريّة أو في كتب أفلاطون الأخرى، من عالم العقل أو من عالم الروح إلا إذا فهمنا الفرق بين العالمين، والفرق بين المعلومات الصادرة عن كل منهما. وإننا باختصار سنذكر بأهمّ مزايا معلومات كل من العالمين لتبيين الميزان الذي ستزن به مستوى العلوم الأفلاطونية ومراحل تطورها ومصدرها. وهذا ميزان يمكن أن نستخدمه للتحقق من صحة كل معرفة روحية. فما هي مزايا المعرفة الروحية؟

١- إنَّ المعرفة الروحية تعتمد على توجّه الإنسان إلى الله للحصول على المعلومات، حيث ستنتهي مهمة الإنسان عند ضبط هذا التوجّه وتحقيقه بالسلوك المعروف، وانتظار التلقّي من الله. ولهذا ستظل أيّ معلومات يطلبها السالك بيد المرسل أي الله لا بيد المستقبل، ولذا لا يستطيع الواصل أن يعرف كل ما يريد، وستظل معلوماته مستمدة من العقل ومن الروح، حتّى وصوله إلى مقام العبوديّة. فإذا وصل، لا ينطق إلا من الروح.

٢- إنَّ المعلومات الصادرة عن العقل تخطئ وتصيب، أمّا المعلومات الصادرة عن الروح فإنّها لا تخطئ أبداً. وبهذا الميزان نستطيع أن نميز بين معلومات أفلاطون الروحية والعقلية، أو غيره من العارفين. ولكن هذا التمييز لا يعرفه إلا الخبير.

وإنّنا لا نعني بهذا الحكم إنكار صحة أحكام العقل أحياناً.

٣- إنَّ معرفة عالم العقل تتعلّق بالظاهر من العالم، أمّا المعرفة الروحية فإنّ تعلقها بباطن العالم، والعالم الظاهر بالنسبة للروح هو جسر للعبور إلى الحقائق، وبالنسبة للعقل هو حجاب لا يستطيع اجتيازه.

إنّ ما نستطيع أن نستنتجه بتطبيق هذه المقاييس على فكر أفلاطون بشكل عام والجمهوريّة بشكل خاص يدلّنا بأنّ أفلاطون كانت له إطلاقات على عالم الروح إلا أنّه لم يتمكّن كلّ التمكن، وظلّ في تأرجح بين عالمه العقلي وعالمه الروحي. ومن هنا جاءت الجمهوريّة لبشر يعيشون في عالم غير الأرض، ولبشر لا تشبه حياتهم حياتنا.

نعم إنَّ الجمهوريّة نظام سماوي إلى حد كبير، ولهذا لا تصلح لأن تكون نظاماً لكوكب موارده

محدودة، وسكانه لا يمكن أن يبلغوا الرقي الروحي الذي تحتاجه مؤهلات الروحانيين، بسبب تفاوت الجهود البشرية المبذولة من أجل المعرفة. وفي الأرض لا بد من تذوق الحب الإنساني للانتقال من الصورة إلى المعنى. ولا بد من الأسرة والأولاد لإدراك العلاقة بين الله والإنسان من خلال العلاقة بين الآباء والأبناء أي الحب الطاهر الذي أساسه العطاء بلا حدود. إنها طبيعة الحياة وتجلي الحقائق الإلهية في الصور المادية، لتحريك المشاعر وإيصال المعاني إلى القلوب. فإذا قطعنا هذه الصلات فإننا سنكون مثل الذي يطالب الطفل بتصور معنى الأبوة وهو غير مؤهل لها كأب وإنما كابن. ثم إننا في عالم الأرض نشاهد بالحواس ولهذا نرغب في مشاهدة من نحب بالعين، وهذه قوانين الأرض التي لا نستطيع أن نتجاوزها حتى لو أردنا، بينما في عالم الروح نشاهد بالبصيرة، ولا يوجد بالنسبة للبصيرة مسافات أبعد أو أقرب، ولهذا لا يغيب عنا من نحب عندما نريد، ولا يخفي الأولاد حتى لو اختفوا. ثم إن أفلاطون ناقض نفسه عندما اقترح قتل الأولاد الذين ولدوا بشكل غير شرعي. فما هو ذنبهم بميزان العدل؟. كما أنه أخطأ عندما اقترح وضع نظامين للتعليم والرعاية، نظام لأبناء الأخيار، ونظام لمن هم في مستوى أدنى. فالعدل يفرض علينا أن نسأل ما ذنبهم؟، ونظريته في المعرفة الإنسانية تتناقض مع حكمه على أبناء الأشرار. فإذا كان قد دافع عن رأيه القائل كل إنسان مؤهل بطبيعته للمعرفة، وبأن المعلم هو كالولادة التي تساعد على توليد ما يعرفه الإنسان وإظهاره، بنقله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وقد دافع عن هذا الرأي في "الثييتس" كما في الجمهورية "وقد أعلن في الجمهورية أن التعليم في حقيقته ليس إيلاج معرفة ما في النفس، غريبة عنها، وإنما إعادة توجيه الروح.. ورد إلى خط النور" (الثييتس - ٢٤). وهذه الحقيقة تطابق الوحي القرآني «وعلم آدم الأسماء كلها» (البقرة / ٣١) فكيف ولماذا وعلى أي مقياس وميزان اعتمد لكي يحكم على أطفال بالقتل، وأطفال بالإهمال؟. وما هي أسباب هذا التخبّط الأفلاطوني، أليس لأن عالم العقل الذي يخطئ ويصيب هو الذي استمد منه أفلاطون أغلب أفكاره، فاقترح بعد الجمهورية أنظمة متعددة للدولة تختلف في تنظيمها عما اقترحه في كتابه الجمهورية، مما يدل إلى أنه لم يتوصل إلى تصور النظام الأمثل بشكل مؤكد ولو نظرياً. ولهذا كان لا بد له من إعادة النظر في جمهوريته وآرائه كلما تعمقت تجاربه، وتغيرت مفاهيمه الفكرية. وهذا ما لاحظته محقق نص "التيثس" المترجم للبريعة بعنوان "طيماوس" الأستاذ "ألبر ريفو" من أكاديمية الفلسفة بباريس.

فقال "في الفن الأفلاطوني، مهما بلغ من دقة المنهج وعمق التفكير، قسط لا يجبر من الحرية والارتجال، يفوت دوماً حكم العلماء المنقبين وحكمهم بالطبع محدود. ومع ذلك، فلا يقدر المرء أن يمتنع عن إبداء هذه الملاحظة: يُستغرب أن يكون أفلاطون قد وصف نظام الدولة المثلى، على أوجه تختلف ذلك الاختلاف كله؟ فالجمهورية والشرائع وأكرتيس ومقاطع من السياسي تعرض لنا ضروباً متباينة من المثال الأفلاطوني. وهذا التباين بالذات نلغيه بين علم التيمس الطبيعي ونفس العلم في الباب العاشر من كتاب الشرائع. ألا يعني ذلك أنه يستحيل في نظر أفلاطون أن يخط للدولة الكاملة مخطط لا يتغير "طيماوس - ٢٥). سيحاول "سوزمل" في معرض دفاعه عن أفلاطون أن يفسر تناقضاته بشكل يزيل هذا الاتهام أو يبرره "لقد فرض سوزمل بهذا الشأن فرضية خيالية لبقية، وادّعى أن الدولة المثلى التي يبغى أفلاطون الكتابة عنها، يستطيع المرء أن يتصورها في شكلين أو حالتين مختلفتين، في الماضي وفي المستقبل. فأكرتيس يعنى بوصف النموذج المستمد من الماضي. وهرمكراتس يكلف بوصف دولة المستقبل المثلى. إلا أن سوزميل يعمد إلى برهان دقة النظر فيه تفوق قوة الحجة. ففي زعم أفلاطون يتم تطور

الكون خلال حقبة، قوام كل منها عشرة آلاف سنة. والحال إن تسعة آلاف عام قد انصرمت منذ بدء العالم، حسب معطيات التيمثس وأكثر تيسر، ألا يعني أفلاطون إذا أننا نقارب من نهاية الحقبة الأولى من حياة الكون، وأنّ طوراً جديداً على وشك أن يبدأ قريباً؟. لقد رذل اشتينهرت صنوف التحايل هذه المفرطة للباقية. ولكنه لم يفعل إلا ليعرض تحايلاً آخر غير مقبول كسواه " (طيماسوس - ٢٤). لقد فشل التبرير، وظلّت تناقضات أفلاطون قائمة في أذهان النقاد بالاستناد إلى نصوصه التي لا يمكن أن تفهم أسبابها إلا بردها إلى العقل الذي يخطئ ويصيب مهما بلغ من الكمال، وليس إلى الروح التي لا تخطئ، لأنّ علمها من مصدر إلهي. لقد حاول أفلاطون أن يعطي للفيلسوف صفة لم يملكها، أي القدرة على المعرفة بالروح. ولهذا مجد الفلسفة والفلاسفة ومنحهم أرفع المناصب لاعتقاده أنّ عقل الفيلسوف لا يخرج من عالم النور إلى الظلمة، أي لا يخطئ، وإن أخطأ فليده القدرة على التصحيح "فالحكماء الذين يهذبهم في جمهوريته، يشبون ولا ريب حكماء، وعليهم أن يستمدوا حكمتهم وسعادتهم على السواء، من تأمل الخير الأسمى. هذا، ولن يبلغوا ذاك التأمل وتلك المعايينة السعيدة، إلا في نهاية مطاف طويل، محطّاته هي بالضبط، درجات الرياضات المتعاقبة، واكتماله هو علم الجدل أي الديالكتيك ولكن هل يطوف بهم هذا المطاف، ليتلبثوا فيه إلى ما لا نهاية؟، كلا، عليهم أن يهبطوا مسرعين إلى "المغارة" وماذا يعملون فيها؟، سوف يألفون "النظر إلى الظلال القائمة، لأنهم بعد استئناسهم بالعمّة، سيرون أفضل من الآخرين بألف مرّة، ويتبينون كلّ صورة وما تمثّله. إذ سبق لهم أن رأوا مثل الجمال والعدل والخير والحقيقة. والآن ما هي العمليات التي يدأب أهل الكهف على القيام بها + إشارة إلى أهل الكهف في الجمهوريّة + وهذه العمليات ينجزها الفيلسوف بادئ بدء إنجازاً سيئاً جداً، إذ لا تزال عيناه مليئتين بضياء الشمس العقلية الساطع. ولكن عندما تعتادان وتألّفان العمّة، فهو عندئذ يتقنها خير إتقان ويبدأ فيها الجميع... وهل هذا إلا علم الطبيعة بالضبط، الطبيعة الكونية أو الطبيعة البشرية؟ وهذا العلم ليس بالعلم الحصري. وما هو، في أدنى درجاته حسب حوار غرغيس، سوى "ذاكرة واقعية لما يحدث عادة". وليس في أعلى درجاته حسب الفيلسوف حوارنا هذا، ولن يكون حسب التيمثس سوى ظن ومحاكاة للحقيقة" (الفيلسوف . ١٠٨). لا شك أن أفلاطون قد دق أبواب الروح كأستاذ سقراط، وفُتحت أمامه إلى حدّ ما، ووصفه لإنجاز الفيلسوف السيئ في البداية لأنّ "عينيه مليئتان بضياء الشمس العقلية الساطع"، أي لاعتماده على المعرفة العقلية، يدل على تمييزه وإدراكه للفرق بين عالم العقل وعالم الروح كمصدر للمعلومات. ولهذا مجد الفلسفة بالقياس إلى عصره، حيث لا توجد شرعية إلهية موثوقة يمكن قبولها عقلياً، فاجتهد على قدر طاقته ليصبغ من العقل والروح جمهوريته التي ظلّت ناقصة، وظلّ يعدلّ فيها، لأنّ الجانب العقلي فيها لم يسمح لها بالاكتمال. لقد كان أفلاطون بالقياس إلى عصره يعرف أكثر من كلّ الفلاسفة، ومن الجمهور، ولهذا عانى ما عاناه من المعارضة، ومن السخرية، ومن الإحساس بالغربة بين قوم لا يفهمونه. وكما قال أوغست ديبس "أفلاطون يلفت نظرنا إلى ذلك، بقوله: . لا نعجب من أن الحكيم الذي ينتقل من التأمل إلى إسفاف وقائع الحياة، يبدو مُغفلاً خليقاً بالهزء، حينما لا تتفكّ عيناه في انبهار ولم تألّف العمّة بعد، ويضطر وهو على هذه الحال، في المحاكم أو في مقام آخر، أن يصارع ظلال العدل، وأشباهاً بيتدعونها، وأناساً يشرحونها، وهم لم يروا قط العدل بالذات . فتلك هي الفترة الزمنية، وتلك هي الحالة، وقد عزلها استطراد الثيتتس، وحبّاهم إن صحّ تعبيرنا بنفحة الأزلية، وأشاد بها ومجّدها، غير أنّ الثيتتس إذ يمجّد فيلسوفه على هذا الوجه في نفوره من عصره، يطبق في فعله هذا مبدأ الجمهورية القائل: "هناك ضربان من المكفوفين: مكفوفون لعبورهم من الظلمات إلى النور، ومكفوفون لعبورهم من النور إلى الظلمات. فهؤلاء دون أولئك، هم

المستحقون امتداح حالهم وإطراء حياتهم" (الفيلسوف . ١٠٩) سيعلق أوغست ديبس على تناقضات أفلاطون وطموحاته بقوله: "إن أفلاطون فنان، وإنه رسول أيضاً" (الفيلسوف . ١١٠).

وسوف نفقد باستمرار عند أفلاطون كما عند الحلاج الشاعر طموح الرسول كلما التقينا بالفنان، والعكس صحيح. ومن هذا التآرجح بين الفن والرسالة، وقع أفلاطون في كثير من الأخطاء لحساب الفن الساحر، الذي لم يتح لصاحبه رؤية ظلال الحقيقة دائماً، وكانت نزعتة العقلية الغالبة قد أغلقت عليه بشمسها الساطعة الجزء الأهم من بوابات عالم الروح، وإن تمكّن من ولوج بعض أبوابها، وقطع مسافة في عالم النبوة بفهمه لحقيقة الرؤيا، حيث قال عنها "إنني أتصوّر أن الإنسان حين تكون عاداته صحيحة عفيفة، وقبلما يذهب للنوم، يثير قسمه العقلي، ويغذيه بالأبحاث الجميلة السامية، وبالتأملات الداخلية... فيواصل هذا دروسه مستقلاً نقيّاً. ويغذّي السير إلى الأمام حتى يفهم ما لا يزال غير مفهوم، إمّا عن الحاضر أو المستقبل.

ومتى سگن ثورة قسمه الغضبي بالطريقة نفسها، متجنباً كل انفجار في الشهوة، ممّا يرسله إلى النوم ثائر العواطف . أقول، فحين يذهب إلى النوم وقد هدأ قسمان من أقسامه الثلاثة، وظلّ الثالث، مقرّ الحكمة، مستيقظاً، فإنك عالم إنّه في أوقات كهذه هو في أتم الاستعداد لفهم الحقيقة، فلا تكون الرؤى التي يراها في أحلامه منكراً (الجمهورية . ٢٦٧) فهذا الفهم لحقيقة الرؤيا ومدلولها أيّدته الروايات المسيحية عن طبيعة رؤيا القديسين، وأشارت إليه التوراة، وأوضح مغزاه الرسول مُحَمَّد (ص) بقوله "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا ممّا يحدث المرء نفسه" (مسلم . ٢٢٦٣ / ج ١٥). وإن فهم أفلاطون لأسباب الرؤيا الصادقة، وغيرها، تدلّ بأنه علم أنواعها وعرف حقيقتها، ورأى منها ما صحّ وقوعه معه، وبذلك فتح باباً من أبواب النبوة التي لم تكتمل معه، وظلّ ينقصه الكثير من العلامات، ولهذا وقع في أخطاء كثيرة وهو يحاول أن يكتب عن عالم الروح، وعن الألوهية، وإن تأكد من وجودهما، وفرّق بين عالم العقل وعالم الروح، فقال: "يوجد عالمان: العالم المنظور الذي تتناوله الباصرة، والعالم العقلي الذي تتناوله البصيرة. وفي كلّ منهما قسمان يتدرجان من الخفاء إلى الوضوح" (الجمهورية . ١٧٩). ولكن مشكلة أفلاطون تكمن في أنّ عالم البصيرة لم يفتح أمامه كاملاً وإنّ عرف طريقة الوصول إليه، كما حددها . بالتأمل . ووصل بالبصيرة لبعض المعلومات، ولكن ما نقصه من المعلومات ملأه بتصوّرات العقل، ومنه نشأ الالتباس والتردد والحيرة في كلّ ما كتبه عن الروح والألوهية، وإن أدرك "أنّ ذاك النظام والانسجام في العالم، ليس مصدرهما الروح فحسب بل حكمة جلى وعقلاً أسمى يسوسان الكون كعلة فائقة" (الفيلسوف . ١١٣). إنّ العقل يستطيع أن يدرك بعض الحقائق، أو إنّه يدرك منها قسمها الظاهر، ولكنه لا يدركها كلّ الإدراك، وهذا ما فهمه أفلاطون "إنّ لم يكن العقل عين الحقيقة، فهو ما يدانيها أعظم مدانة... لن يجد المرء بصورة أكيدة شيئاً ما، يفوق اللذة والتنعم إفراطاً وشططاً. كما لا يجد ما يفوق العقل اتزاناً واعتدالاً... فهل استطاع أحد قط، أن يرى أو يتخيّل حتى في الحلم أنّ العقل أو الحكمة هما قبيحان؟ في حال إن اللذة، حيث تبلغ ذروة المتعة، هي من الخزي ومن القبح الزري بمقدار، نضطر معه أن نأتمن الليل عليها، كأنما لا يليق بالنهار، أو يفرض عليه ألا ينير دماستها..". (الفيلسوف . ١١٤) سيظل هاجس أفلاطون في كل حياته الوصول إلى حقيقة الحقائق، ولكن بأدوات عقلية غالباً لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه المعرفة، وكما أن الصور المادية لا تُشهد إلّا بالعين، فكذلك الروح لا تُعرف إلّا بالروح،

والألوهية لا تُعرف إلا بإمداد إلهي عند تطور الروح إلى حدٍ تصبح معه مؤهلة للتلقي الأقدس. وكما قال ابن عربي:

إذا تجلّى حبيبي بأيّ عين تراه؟
بَعينه لا بعيني فما يراه سواه

لهذا سيخطئ أفلاطون وهو يحاول أن يضفي على الألوهية صوراً من إبداع العقل، وسوف يقع في كثير من التناقضات التي ستكشف للباحثين عن نقص المعرفة الأفلاطونية في هذا المجال وحيرة صاحبها، يقول ألبير ريفو: "في أسطورة السياسي يحدثنا المؤلف عن صانع الكون أو منظّمه بتعابير يستعملها أفلاطون هي ذاتها في التيمثس. وفي السياسي كما في التيمثس إله يدفع الكون إلى دورانه. بيد أن هنالك فوارق هامة بين الحوارين، لا غرو أنّ السياسي يدع جانباً فرضية تظهر في الشرائع، ألا وهي فرضية روح العالم الشريرة. غير أنّ هذا الحوار لا يميز بجلاء بين الإله المنظم والروح بالذات. ومن جهة أخرى يلمح التيمثس إلى انحرافات في حركات الكون تحدث خلال أحقاب طويلة. ولكنه لا يتحدث عن تلك الحركة الرجعية الناشئة أحياناً عن تراخي العمل الإلهي. وأسطورة السياسي تصف وصفاً غريباً نتائج تلك الحركة" (طيماسوس . ٣٣).

وكما تبين لنا عجز أفلاطون عن فهم الألوهية، كذلك سيعاني في فهمه أمام الروح، وسيكون له آراء متباينة حولها، مع أنه ربما كان أول فيلسوف تحدث عنها كحقيقة مستقلة عن العقل، أو وراءه، وإن كنّا نقدر بأنّ أفلاطون قد تلقى هذا التعليم من أستاذه سقراط، الذي كان له قدرٌ من التلقي الأقدس، كما تدل عليه صلابة إيمانه أمام القضاة، وأخباره التي نقلها أفلاطون، وهذا التلقي كما بيّنا لا يمكن أن يحدث إلا بالروح. ولا شك أنّ الأستاذ قد نقل إلى تلميذه هذه المعرفة عندما رآه مؤهلاً لها. وقد ظهر لنا بدلالة حديثه عن الرؤيا أن أفلاطون قطع مسافة في عالم الروح، ولكنه لم ينجح في متابعة الطريق، ولهذا تاه واحتار في فهمها. وهذا ما سيلاحظه الأستاذ البير ريفو "إنّ أفلاطون هو ربما أول من طرح مشكلة اتحاد الروح بالجسد، فكما أنها تظهر في مظهرين متباينين، فهي مزمنة أن تتحد به أيضاً على وجهين متميزين. والروح بصورة عامة إنّ كانت أقدم من الجسد وأكمل، فهي لا تختلف عنه في الجوهر.

فتركيب جسم العالم مثلاً هو أقل نقاءً فقط من تركيبها. بيد أنها تتضمن عين العناصر المكوّنة، إذ يكمن في الروح ذاتها جوهر الأجسام القابل للتقسيم. وبالتالي يشبه اتحاد الروح بالجسد ضرباً من الخليط، تخلط فيه عناصر كيميائية متجانسة، على أن العقل، ومنشؤه إلهي، يعارض الجسد وفي آنٍ واحد الأقسام السفلى من الروح. والجسد حيث يلج، هو له سجن ومنفى ومكان محنة، وأيضاً ((عجلة)) معدة لنقله. لكنه يلبث غريباً عنها" (طيماسوس . ١٣١). هل العقل أدنى من الروح أم أعلى بالقياس إلى صحة المعرفة..؟ لقد تركنا أفلاطون في حيرة لأنه في حيرة، ولكن لنتابع تأويلاته ومحاولاته لكشف الحقيقة المستعصية على المعرفة بأدوات العقل، وإننا لجلاء الحقيقة، والكشف عن مواقف أفلاطون المترددة في هذه المسألة، نحيل القارئ إلى نص معاصر لألبير ريفو، استعرض فيه جميع مواقف أفلاطون من مسألة الروح. وقدّم به

لكتاب ((طيمائوس))^{٨١}.

ثمار التجربة الأفلاطونية:

لقد اخترنا تقديم هذا العرض الشامل عن الروح في النصوص الأفلاطونية لكي تتاح الفرصة أمام القارئ، لتلقي المعلومات من أكثر من مصدر محايد في كل مسألة، حتى وإن كنا لا نتفق في الرأي أو الاستنتاج مع صاحبها، لأن هدفنا كما هو هدف القارئ المعرفة المجردة عن الغايات الشخصية والعقائدية التي تدفع صاحبها للتعصب والتحريف، وتصيّد أخطاء الآخرين، لتوظيف الأفكار لخدمة هدف محدد دون مبرر أخلاقي، ولأن الطامح للكمال يحزن لأخطاء أخوته في الإنسانية كما يسعد صوابهم، ويثني عليه، لأن كل نجاح للإنسان في مكان لا بد أن يصل ذات يوم إلى البشرية، وكل فشل وضلال وانحراف وشر لا بد أن يصل إليها أيضاً وينال من عزيمتها وطموحها. ولهذا فإن الباحث عن الحقيقة، عن النور الذي بذل سقراط وأفلاطون وغيرهم حياته في سبيله، لا ينصب الفخاخ لتصيّد أخطاء الآخرين، لأنهم لم ينجحوا دائماً في الوصول إلى ضفاف الحقائق، ورغم أن الحيادية حزبية، ولا يجوز أن تعني التجرد عن المواقف، إلا أنها كتجرد القاضي العادل عن إبداء أي حكم مسبق قبل معاينة الأدلة، والاستماع إلى الشهود وهو في النهاية لا بد أن ينحاز إلى جانب الحق. فهذه هي الحيادية التي نتوخاها من خلال بحثنا عن الحقيقة، لننحاز في النهاية إلى الصواب بالاستناد إلى الأدلة التي نملكها. وإن الأدلة التي بين أيدينا تكشف عن الأخطاء التي وقع فيها أفلاطون وهو يحاول أن يستكشف طبيعة الروح والألوهية. لقد نجح في بعض الأحيان، إلا أنه فشل عندما أراد أن يفهم الروح والألوهية بأدوات العقل. لأن العقل يستطيع أن يفهم النظام وأن يستنتج وجود منظم وراء النظام، ولكنه لا يستطيع أن يبصر الماهيات وباطن الحقائق المادية.

وهذا وإن أشار إليه أفلاطون، إلا أنه لم يلتزم به لتفسير ما لا يدرك بغير الروح، وربما توهم أنه امتلاك هذا الإدراك والمعرفة، كما حدث ويحدث مع كثير من المفكرين والمتصوفة الذين دافعوا عن قضايا لا وجود لها إلا في تخيلهم فبدت إليهم كالحقائق، ومنها اعتقاد البعض بدوران الكون حول الأرض، ورفضهم للفكرة المعاكسة، لاعتقادهم أن هذا الدوران توجيهه وتفرضه قناعتهم بمركزية الأرض في الكون وكأن مكانة الإنسان في الكون مرتبطة بهذا النوع من الدوران. ولكن إذا كانت أوهام أفلاطون وخياله قد صوّرا له بأن ما تخيله هو الحقيقة، فهل يمكن أن يقع في كل هذه التناقضات دون أن يشعر بذلك؟، ودون أن ينتبه إلى أنه سيعرض جميع أفكاره للنقد والسخرية في مجتمع ممتلئ بالفلاسفة والمتفلسفين الذين سيكشفون عن تناقضاته لينالوا منه، وهو الخبير بفنون التوليد والمنطق.

فهل يمكن لأفلاطون أن يقدم المبررات لخصومه للهجوم عليه والنيل منه بهذه السهولة دون أن يدرك حجم التناقضات التي أوقع نفسه فيها، ودون أن يعمد لإصلاحها؟. إن مستوى أفلاطون المعرفي يدفعنا للشك في ذلك، وإن كانت نصوصه التي وصلتنا لا تدع أي مجال للشك في عيوبها والثغرات التي فيها. فكيف يمكن أن نوفق بين ثقتنا بخبرة أفلاطون، ونقص معرفته؟. أو هل يمكن لمن يعرف أن لا يعرف؟..

^{٨١} راجع كتاب "طيمائوس"، المقدمة من ص (١٢٣ . ١٣٢)، "الروح في نصوص أفلاطون". الروح البشرية . والإشكالات التي بثرتها فهم أفلاطون لعلاقة الروح بالجسد.

ربّما وأقول ربّما لأنّنا لا نملك الدليل، وإنّما الاستنتاج المبني على المنطق، ربّما لأن ثقافة أفلاطون وخبرته كما هو حال أي مفكّر آخر، كانت في تطوّر مستمر، وكان كلّ كتاب يكشف لنا عن إشارات معرفيّة جديدة، كما كان يكشف بالنسبة للنقاد عن تناقض معيّن بين المرحلة الجديدة والمراحل التي سبقتها. وحتى هذه المراحل بين كلّ كتاب وما تلاه اختلف النقاد حولها. وهذا الاختلاف والغموض يفقدنا القدرة عن معرفة تسلسل الإنتاج الأفلاطوني، وبالتالي آخر المعتقدات التي وصل إليها لكي ننظر إلى فكره من خلالها. فالغزالي مثلاً قبل فترة التأمّل هو غير الغزالي بعدها. ومعرفة تسلسل إنتاج أفلاطون ضروري لفهمه والحكم عليه، وهذا ما نفتقده بشكل يقيني. وإن اتّفق بعض الكتاب، ومنهم قسطنطين رتر (١٨٨٨)، ولوتسلافكي (١٨٩٧)، وجومبرز (١٩٠٢)، وناتورب وريدر (١٩٠٣) "أنّ حوارات أفلاطون الأخيرة الخمس قبل الشرائع هي: السفستي والسياسي وفيلسوف وتيمس وأكرتيس" (طيماسوس ٣٠). ولكن هل هذا الاستنتاج هو اليقين الذي سيحول دون صدور آراء أخرى، ما دام لا يوجد دليل عليه؟ ثم هل وصلتنا كل نصوص أفلاطون دون أن يضيع منها أي شيء، أو بعض الصفحات؟ لا توجد إجابة حاسمة، وسيتساءل ألبير ريفو، أليس من المحتمل "أنّ أفلاطون سبق وألّف حواراً، ضائعاً اليوم، عاد فيه إلى ما عالج من موضوعات في الجمهوريّة بعد أن بدّل فيها وغير الأشخاص؟ ولكن لم يأت أحد من الكتاب الأقدمين على ذكر هذا المؤلّف" (طيماسوس ٢٨). وبسبب الخلاف حول تاريخ نشر التثيتس، والتفاوت في أفكاره، وعدم نضجها، قال ديبس "إنّ أفلاطون لم يحظ بمشّع من الوقت لإنهاء هذه التحفة الأدبيّة. وإن كانت الأحوال تستحقّه للمضيّ إلى صقلية، ترك القسم الثاني على حالته التخطيطيّة ونشر الحوار بجملته" (التثيتس ٥٧) هذه الملاحظات التي أبدّاها النقاد تدلّنا، بأنّ أفلاطون إضافة لصعوبة معرفة تسلسل كتبه لمعرفة ما تغيّر في أفكاره، تؤيّد أيضاً احتمال ضياع بعضها، ونشر بعضها قبل نضجها. وهذا وإن كنّا لا نتوقّع أن يفعله أفلاطون، إلّا أنّ تلاميذه فعلوه على الأغلب بعد وفاة أستاذهم. وهذا كلّه سيدخل اضطراباً كبيراً على الفكر الأفلاطوني. ولكن الناقد والقارئ مضطربان للحكم على أفلاطون من خلال نصوصه، وإن كان أفلاطون الحقيقي غير أفلاطون في النص. وإذا أردنا أن نحكم عليه من خلال بعض المعطيات، فإننا نرى بأنّه قد شق طريقه إلى النبوّة بأن حاز على علامة منها، كما أشرنا. كما أنّ مثال الكهف والظلال والحقائق تدلّ على معرفة روحية عالية، وإن كانت غير مفهومة لكل إنسان. وقد تحدّث عن مثال هذا الموضوع الشيخ محيي الدين بن عربي في كتابه الفتوحات المكيّة. وقد جمعنا أهمّ هذه النصوص في كتابنا "الرؤيا بين الوهم والحقيقة" تحت عنوان "نصوص للشيخ محيي الدين بن عربي عن الرؤيا والخيال". وعند المقارنة بين إشارات أفلاطون إلى الظلال كخيال للحقيقة، وإشارات ابن عربي حول هذا الموضوع، سنعرف المستوى الروحي العالي الذي بلغه أفلاطون. وقد اعتبره عبد الكريم الجيلاني من الأحياء الذين لا يموتون لأنّه شرب من ماء الحياة الموجود في مجمع البحرين، كما أنّه هو الذي دلّ الخضر على مكان هذا البحر. وهذه إشارة إلى المعرفة الروحية العظيمة التي بلغها أفلاطون، وإن كانت لا تتفق مع منطق التحقيقات النقديّة والحسابات التاريخية لتسلسل الحوادث. وقد أشار الجيلي إلى رمزيّة هذه الحوادث بعد أن روى قصة الخضر مع أفلاطون لكي لا يظن النقاد أنّه يحدثهم عن التاريخ. فقال عن "مجمع البحرين" "اعلم أنّ عين الحياة مظهر الحقيقة الذاتيّة من هذا الوجود، فافهم هذه الإشارات، وفك رموز هذه العبارات، ولا تطلب الأمر إلّا من عينك بعد خروجك من أنيّتك لعلّك تفوز بدرجة. أحياء عند ربّهم يرزقون". "الإنسان الكامل ٧٣). وبعد هذا التتويه بما تقتضيه قراءة نص الجيلي الرمزيّة عن أفلاطون، نقدّم ما قاله عن الصلة بين أفلاطون والخضر. قال الجيلي: "سافر

الاسكندر ليشرب من هذا الماء اعتماداً على كلام أفلاطون، إِنَّ مَنْ يشرب من ماء الحياة لا يموت. لأنَّ أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل، وشرب من هذا المحل، فهو باقٍ إلى يومنا هذا في جبل يسمّى دراوند. وكان أرسطو تلميذ أفلاطون وهو أستاذ الاسكندر، صاحب الاسكندر في مسيره إلى مجمّع البحرين. فلما وصل إلى أرض الظلمات، ساروا وتبعهم نفر من العسكر وأقام الباقون بمدينة تسمى (ثُبت) برفع الثاء المثناة والباء الموحدة وإسكان التاء المثناة من فوق، وهو حدّ ما تطلع الشمس عليه. وكان في جملة من صاحب الاسكندر من عسكره الخضر عليه السلام، فساروا مدّة لا يعملون عددها ولا يدركون أمدها وهم على ساحل البحر. وكلّما نزلوا منزلاً شربوا من الماء. فلما ملّوا من طول السفر، أخذوا في الرجوع إلى حيث أقام العسكر. وكان الخضر عليه السلام قد ألهم بأن أخذ طيراً فذبحه وربطه على ساقه. فكان يمشي ورجله في الماء.

فلما بلغ هذا المحل انتعش الطير واضطرب عليه، فأقام عنده وشرب من ذلك الماء، واغتسل منه، وسبح فيه. فكتمه عن الاسكندر وكتّم أمره إلى أن خرج. فلما نظر أرسطو إلى الخضر عليه السلام علم أنّه قد فاز من دونهم بذلك فلزم خدمته إلى أن مات واستفاد من الخضر هو والاسكندر علوماً جمّة (الإنسان الكامل . ٧٢). وهذا لا يعني أن الخضر عليه السلام أخفى عن رفاقه سرّ مجمّع البحرين لأنانيّة خاصّة، ولكن لأنّ الآخرين لم يكونوا مؤهلين مثله للاستفادة من الماء حتّى لو أخبرهم بمكانه، وليس كل من جلس في غار حراء سينزل عليه الوحي. وإذا كان أفلاطون دليلاً للخضر عليه السلام إلى مجمّع البحرين، فإنّ أفلاطون لا بدّ أن يكون قد وصل إلى مقامات روحية عالية، وفتح له طريق النبوّة، وإن كانت النبوّة من التنبؤ، حدّها صدق النبوءات عن رؤيا أو عن إلهام باليقظة، ولا تعني صحّة الرأي دائماً. لأنّ الرأي الصائب دائماً لا يمكن أن يتحقّق إلا بالإمداد الروحاني الدائم من مقام "إن هو إلا وحي يوحى". ولهذا لم يكلف الأنبياء بالرسالات لأنّهم لم يصلوا إلى مقام تلقّي العقل المقدّس، أي الروح، من العقل الأقدس. ولكن غيرة أفلاطون وحرصه على دلالة الخلق إلى ما ذاقه من المعرفة الروحية، شأنه في ذلك شأن الأولياء والعارفين الذين يسعون إلى نشر العلم، حرصاً على الناس، غير معصومين من الخطأ. ولا بدّ بعد ظهور شريعة المصطفى (ص) الكاملة، من قياس علومهم على شريعته، لأنّها الشريعة المعصومة عن الخطأ، بينما الأولياء مهما كان شأنهم غير معصومين. ولكن أفلاطون ونظراً لعدم وجود شريعة للقياس عليها في عصره معذور فيما قدّمه من أفكار، بهدف دلالة الناس على الله، وإن أخطأ في اختيار الطريق، أو الأسلوب. وقد بيّنا كمثال في حديثه عن الحب كيف إنّ هدفه كان "حب الخير الأسمى" لا الحب المادي والجسدي الذي يعول عليه الماديون.

وإذا كنّا قد اعترضنا على النصوص الأفلاطونية المدوّنة، فلأنّ بعض أفكارها من إبداع العقل والعقل يخطئ ويصيب، وبعضها من عالم الروح، وهذا ما بيّناه وقبلناه.

ومرّة أخرى يجب أن نعذر أفلاطون لما قد يكون دسّ عليه، أو وصلنا محرفاً، أو قبل اكتمال الكتاب. وهذه كلّها احتمالات تعرّضت لها حتّى بعض رسالات الأنبياء، وإنّ آخر ما سنتّم به هذا البحث هو رأي الشيخ شهاب الدين يحيى السهروردي في أفلاطون فقد قال عنه في كتابه: "حكمة الإشراق" "ما ذكرته من علم الأنوار وجميع ما يُبتنى عليه وغيره يساعدي عليه كلّ من سلك سبيل الله عزّ وجل وهو ذوق إمام الحكمة ورئيسها أفلاطون صاحب الأيد والنور" (حكمة الإشراق . ١٠ / ج ٢) وبين سبب هذا الرأي فقال: "وهو ذوق جميع الحكماء الذين كانوا قبل أفلاطون من زمان هرمس الهرامسة المصري

المعروف بادريس النبي عليه السلام إلى زمان أفلاطون، والعظماء الذين بينهما كانباذقلس وتلميذه فيثاغورس، وتلميذه سقراط، وتلميذه أفلاطون وهو خاتم أهل الحكمة الذوقية، ومن بعده فشيت الحكمة البحثية، وما زالت في زيادة الفروع الغير المحتاج إليها حتى انطمست الأصول المحتاج إليها" (مجموعة مصنفات شيخ إشراق . ٣٠٠ / ج ٢) وقال عن إشادة ابن سينا بأرسطو دون أفلاطون: "لو أنصف أبو علي، لعلم أن الأصول التي بسطها أرسطاطاليس مأخوذة عن أفلاطون، وإن أفلاطون ما كان . والعلم عند الله . عاجزاً عن ذلك، وإنما عاقه عن ذلك شغل القلب بالأمر الكشفية الجليلة والذوقية الجميلة (+) واجتهاده في الرياضات والمجاهدات ومشاهدة جلال الحق والنظر إلى كبريائه، وهذه الأشياء هي الحكمة بالحقيقة، ومن هو مشغول بهذه الأمور المهمة الشريفة النفيسة، كيف يتفرغ لتفريع الأصول وتفصيل المجمل الغير المهم... وتضييع الزمان والعمر فيما لا طائل تحته...؟ قال الشاعر:

تألق البرق نجدياً، فقلت له يا بارق الحي إني عنك مشغول

"بل الصواب والعقل ما فعله الحكم الفاضل أفلاطون الإلهي على أنه غير قاصر في البحث كما ذكره. لكن أكثر كتبه ومصنفاته ما نقلت إلى العربي، بل تلفت وذهبت" (مجموعة مصنفات شيخ إشراق . ٣٠٤ / ج ٢). وقد بين السهروردي بأن: "أصل القواعد الإشراقية ومأخذها هو الكشف والعيان، وأصل قواعد المشائين البحث والبرهان" ولهذا السبب كان حظ أهل البحث الصرف الشكوك، إذ "لعبت بالمعتمدين على البحث الصرف من متقدمي المشائين ومتأخريهم. ألا ترى أنهم كيف اضطربوا وتحيروا من كثرة الأسئلة . الأسئلة . الواردة عليهم، وتختلطوا في القيل والقال وتشكك اللاحق على السابق، ولم يتفقوا على شيء... بل كلما دخلت أمة لعنت أختها ولهذا لم يبق للأذكىاء ثقة بكتبهم ولا بكلامهم، إذ لا يخلو عن الريب والشك، ولا يسلم عن الطعن والقدح" (مجموعة مصنفات شيخ إشراق . ٣٠٨ / ج ٢). هذا هو حال الفلسفة منذ القديم إلى عصرنا الراهن، كل فيلسوف نقض فلسفة من سبقوه وعارضها. ومع ذلك فالفلسفة ليست كلها تتناقض الحقائق، أو تجهلها، وإن كان مصدر الفلاسفة العقل، ومصادر أصحاب الإلهام الروح: "إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلاً" (الفتوحات المكية . ١٤٦ / ج ١، محقق). وحتى لو علمنا بأن الفيلسوف لا دين له فهذا لا يحول دون إصابته في بعض الأمور، كما قال الشيخ ابن عربي: "وأما قولك: إن الفيلسوف لا دين له، فلا يدل كونه لا دين له على أن ما عنده باطل. وهذا مدرك بأول العقل عند كل عاقل" (المرجع السابق . ١٤٦) فكيف سيكون حكمنا على أفلاطون وهو من الذين آمنوا بالله، وسعوا ما وسعهم إلى إقامة دولة الإيمان، وإن أخطأ الطريق، فيما ظن صلاحه من شرائع لهذه الدولة. وإذا كان أخطأ فيما اقترحه من مشاعية النساء والأولاد، وإن لم يكن هدفه نشر الرذيلة والفساد في المجتمع. فقد تبين لنا من رأيه في الحب، أن العلاقات الجسدية كانت عنده محتقرة إلى درجة أنه اعتبرها مُحطّة بمكانة الإنسان، ولا تصلح لأن تكون هدفاً للإنسان العاقل، ولا يليق بها أن تظهر في النهار، ولهذا حرّم كل ما يثير الغرائز من شعر أو موسيقى، وجعل تربية الإنسان على حب الخير الأسمى هدفاً لكل دولة صالحة، وباقي التفاصيل هي أسباب للوصول إلى هذا الهدف.

وكما توافق فكر أفلاطون وروحه مع كثير من الشرائع السماوية التي ستأتي، فإنه في النقطة الأهم من هذه الشرائع قد اتفق معها ووصل بروحه إلى ما وصلت إليه، عندما جعل هدف الإنسانية الجوهري، أو ما يجب أن يكون هدفاً لها "المعرفة". ولهذا اختار دولة لا يجوز فيها للحكام ومن يدافعون عنها أن يتمتعوا بأي ملكية لئلا ينشغلوا عن الهدف الأسمى بالأهداف الدنيوية، وخاصة جمع المال، الذي كان وما

زال سبباً لكل بلاءات الأمم، وحروبها الظالمة، بل كان سبباً رئيساً لكل ظلم واضطهاد بين أفراد الأمة الواحدة، فكان هدف أفلاطون موافقاً لجوهر كل دين. والذي لخصه القرآن بقول الله: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾. وقد قال ابن عباس في تفسيره "ليعبدون" "ليعرفون" وهذا المعنى يؤيده ويفسره قول الله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر / ٢٨). وبما أنه لا بدّ من العلم إذا أردنا أن نبني دولة نعرف الله، لكي نخافه ونعمل بشريعته. وبما أن ما لا يتحقّق إلاّ بواجب يصبح واجباً. فإنّ من المعروف أنّ انشغال الناس بجمع المال يعطلّ عليهم أبواب العلم ويقودهم إلى الجهل، ولهذا فإنّه في دولة الإيمان لا بدّ من إيجاد طريقة لوقف ركض الناس وراء المال، وتضييعهم للعلم، ولا بدّ من الوقوف في وجه الرأسمالية التي تسعى لخلق مجتمعات هدفها الاستهلاك والترّف بدلاً من المعرفة التي تصبح في هذه المجتمعات وسيلة للتجارة والربح. ولا بدّ من إزاحة كلّ الأسباب التي تؤدّي إلى انحراف الإنسان عن أهداف الإنسانية النبيلة، وربط العلم بالأهداف الأخلاقية للارتقاء بالإنسان إلى معرفة نفسه. وهذا لا يمكن أن يحدث في مجتمع يتسابق على الثراء، ويعاني أغلب أفراد من الحرمان. لهذا لا بدّ في الدولة الصالحة من وقف هذا السباق وراء المال، الذي يضرّ بالعقول والأرواح. ولا بدّ من نظام يجعل المعرفة هدفاً والسباق في ساحتها غاية الغايات. وإذا كانت مثل هذه الدولة لم تتحقّق في زمن أفلاطون ولا في زماننا، ووقفت دول الاشتراكية في تعارض مع الإيمان، ممّا أدّى لانحرافها عندما تأسست على منطق المصلحة، لا المعرفة، والإلحاد لا الإيمان، فإن هذا يجب أن لا يمنعنا من الحلم مرّة أخرى بدولة عادلة تجعل المعرفة هدفاً، والإيمان جوهرًا، وتوزيع الثروة بالعدل أسلوباً وسبباً ومقدمة لتفرّغ الأمة للعلم النافع والمعرفة الصالحة. وإذا قسنا أعمال أفلاطون الفكرية بالنوايا لكي نحكم عليه، فإننا لا شك سنجد بأن كلّ أعماله مكرّسة لبناء مجتمع صالح أساسه الإيمان بالله، وهدفه المعرفة، وميزانه العدل، وفي زمن لا توجد فيه شريعة مقررة.

ولهذا سنجد له العذر فيما قاله سواء كان صواباً أو خطأً بالقياس إلى نواياه، وإن كانت معرفته الروحية لم ترتق إلى المستوى المطلوب الذي يؤهله لتجنب عثرات العقل، وإصدار شريعة متكاملة. ولهذا فلسنا مع كلّ ما قاله عبد الكريم أو السهروردي عنه.

وإن كنّا مع بعض ما قالوه. وذلك لأنّه لا عصمة إلاّ للرسول. وأفلاطون ليس له هذا المقام ولا لعبد الكريم أو السهروردي. وربما لم يتح لهما الإطلاع على كلّ أفكاره ولهذا قالوا عنه ما قالوه. وإن كنّا نوافق على حسن الظنّ بنواياه، بل نحن على يقين منها.

المصادر والمراجع:

- . علاء الدين الهندي . كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال . الطبعة الخامسة . مؤسسة الرسالة . بيروت .
- . محيي الدين بن عربي . الفتوحات المكية . تحقيق د. عثمان يحيى . الطبعة الثانية . الهيئة المصرية للكتاب .
- . شهاب الدين يحيى السهروردي . مجموعات مصنفات شيخ إشراق . طباعة إيران .
- . عبد الكريم بن إبراهيم الجيلاني . الإنسان الكامل . مطبعة محمد علي صبيح . القاهرة .
- . مصطفى حسن النشار . فكرة الألوهية عند أفلاطون . الطبعة الثانية . مكتبة مدبولي . القاهرة .

- أفلاطون . جمهورية أفلاطون . ترجمة حنا خباز . الطبعة الثانية . دار الكتاب العربي . بيروت .
- أفلاطون . طيمائوس . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . طبعة ١٩٦٨ . وزارة الثقافة . دمشق .
- أفلاطون . الفيلسوف . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . طبعة ١٩٧٠ . وزارة الثقافة . دمشق .
- أفلاطون . السفسطائي . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . طبعة ١٩٦٩ . وزارة الثقافة . دمشق .
- أفلاطون . التيرميندس . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . طبعة ١٩٧٦ . وزارة الثقافة . دمشق .
- أفلاطون . الثنيتيس . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . طبعة ١٩٧١ . وزارة الثقافة . دمشق .
- أفلاطون . المأذبة . ترجمة د. وليم الميري . منشورات دار المعارف . مصر .
- أفلاطون . فايدروس . ترجمة د. أميرة حلمي مطر . الطبعة الأولى . دار المعارف . مصر .
- رايموت رايش . النشاط الجنسي وصراع الطبقات . ترجمة محمد عيتاني . الطبعة الأولى . دار الآداب . بيروت .
- فرانسيس فوكوياما . نهاية التاريخ والإنسان الأخير ترجم بإشراف مطاع صفدي . مركز الإنماء القومي . بيروت .
- هامش ماكزي . العالم عام ٢٠٢٠ . ترجمة نعمان علي سليمان . طباعة عام ٢٠٠٠ . وزارة الثقافة . دمشق .
- فرويد . الحياة الجنسية . ترجمة جورج طرابيشي . دار الطليعة . الطبعة الأولى ١٩٨٢ . بيروت .



هل للفكر العربي الحديث من فلسفة؟
المشروع النهضوي العربي:
بين تجديد الوعي الفكري...
والتوجهات الليبرالية

ماجد صالح السامرائي

*كلمات أولى

تحاول هذه القراءة للفكر النهضوي العربي، في ما كان له من مشروع تحديتي، أن تقدم نفسها في بعدين، ومن خلال مرحلتين تحققنا لهذا الفكر... وطموحها هو في أن تحلل، وتنقد، بعض الأفكار التي داخلت أطروحات جيلين من النهضويين العرب. وتأخذ هذه القراءة نفسها بمثل هذا التوجه انطلاقاً من/ وتأسيساً على إدراكها لوجوه الصراع، في الحاضر كما بالأمس القريب، التي عاشها الفكر العربي النهضوي في ما كان له من أطروحات أساسية... ويتمثل هذا الصراع في تحديين رئيسين يبرزان اليوم على نحو كبير الخطورة على الأمة ومشروعها النهضوي:

فنحن نواجه اليوم تحدي العولمة، بما هي رؤية للعالم يطرحها الغرب وهو يفكر لنفسه، وتعتمدها الولايات المتحدة الأمريكية أساساً لأمركة العالم.

- والتحدي الاستعماري . الغربي، متمثلاً بعودة الاستعمار إلى الوطن العربي بصورته الكولونيالية (الاحتلالية) القائمة على: نهب الثروات، وتعطيل حركة التنمية والتقدم، وشلّ المشروع النهضوي العربي في أساسياته...

الأمر الذي يضع الفكر العربي المعاصر أمام أزمة فعلية، تمثل مشكلة راهنة على أكثر من طرف وجانب:

- فهناك أزمة/ مشكلة العلاقة بالعالم الحديث، بما يتبنى هذا العالم من قيم كولونيالية يحرك بها توجهاته ومؤسساته...

- وهناك أزمة/ مشكلة العلاقة بتراث الأمة وتاريخها، وبالتالي هويتها الثقافية والحضارية في مواجهة التفكير /التوجه العولمي/ الكولونيالي الجديد.

- ومن جانب ثالث هناك الأسئلة الأساسية التي يطرحها الفكر العربي الحديث بشأن المستقبل، والتي تثير أزمة فعلية في العلاقة مع "الآخر . الغربي" في ما يتحدّد به خطابه تجاه ما يدعوه "بقية العالم".

- وهناك أيضاً هذا التمزّق في الخطاب العربي الراهن بين: اتجاه تغريبي عولمي، يتمثل في ما نجد

فيه تفتيتاً لكيانية الثقافات والحضارات، وإعادة صياغتها وفقاً لمتطلبات المشروع العولمي الجديد... واتجاه سلفي يناهض هذه الحركة من خلال التمسك بالماضي والانطواء عليه... واتجاه فكري . تنويري يأخذ بأساسيات الوجود القومي . التاريخي للأمة في محاولة لتجديد الوعي بكل من الثقافة العربية والتاريخ العربي، وإعادة بناء هذا الوعي على أساس يحكمه تطلع إنسان هذه الأمة إلى دور حضاري وإنساني جديد في العالم المعاصر، وتأخذ فيه الثقافة دوراً أساسياً على صعيد المستقبل.

وإذا كانت هذه القراءة ستتبنى منظوراً فلسفياً من خلال ما تقتضاه في المشروع النهضوي/ العربي، فإنها، من جانب آخر، ستبني نتائجها على كون الفلسفة قائمة في كل خطاب. فبمجرد أن يكون هذا الخطاب خطاباً تغييرياً، فإن الأساس الفلسفي له هو ما تقوم عليه توجهاته الرامية إلى بناء فكر جديد لواقع جديد....

ومع أن من بين مفكرينا من نجد يذهب في تعيين حدود التنوير فيرى فيه عملية فكرية ثقافية، فإنه، في الوقت ذاته، لا ينفي عنه البعد الفلسفي وما له من دور رئيس فيه.

* التأسيس على كيانية واضحة

ستدور هذه القراءة في ما تتبنى من أفكار على ثلاثة محاور:

. وسترصد في المحور الأول حالة الاستجابة الفكرية العربية لحركة (أو لفكرة) الحداثة كما ترشحت من الفكر الغربي الحديث...

- وفي المحور الثاني تحاول تقصي التكوينات المتحققة فعلياً لهذه الاستجابة في الفكر العربي الحديث...

. بينما سيتم التركيز في المحور الثالث على الاتجاه الليبرالي (التحرري) في الثقافة العربية الحديثة، وفي الفكر العربي الحديث، في ما كان له من تعبير عن نزوعات الاتصال بالفكر الغربي، في محاولة لنقل "التجربة" وتبنيها في المجتمع العربي، واعتبار الواقع العربي، المتشكل ذاتياً من خلال تراثيته التاريخية، واقعاً متخلفاً يحكمه تأخر واضح، وأكد، عن مسارات العصر بحضارته الحديثة. وقد رأى هذا "التيار" أن الأخذ بأسباب التقدم، في مثل هذا الواقع، يجب أن يركز إلى "الآخر . الأوروبي"، ويستمد مقوماته الأساسية منه . لأن حضارة هذا "الآخر" وثقافته تتضمنان جميع عناصر التقدم.

فإذا ما تساءلنا عن البعد الفلسفي الذي شكّل إطاراً لهذا كله، فذلك انطلاقاً من فكرة مؤداها أن أي تيار فكري لا يمكن له أن يحقق علاقة تفاعلية مع الواقع، أو يؤسس لـ رؤية مستقبلية لهذا الواقع ما لم يكن قائماً على فلسفة . بمعنى كون "الفلسفة هي الفكر العقلي في أرقى مراتبه وأعظم إدراكاته وأوسع تصوراتها، أي الفكر الأقدر على معالجة أسئلة الحرية والهوية والحقيقة والدولة والتاريخ..." (ناصر: التفكير والهجرة . دار النهار . بيروت . ١٩٩٧ . ص ٣٢٦). ذلك أن ما يؤسس على بُعد فلسفي يكون تأسيسه متيناً بنياناً... بل أن هذا البنيان المتين . كما في نظر بعض مفكرينا . لا يمكن أن يقوم، في الفكر، إلا إذا تأسس على ما يدعوه بـ "الاستقلال الفلسفي". والفكر النهضوي العربي، بمشروعه الثقافي .

الحضاري، كان على وعي بهذا، وهو يحاول نقض التخلّف فكرياً وواقعاً للخروج من حالة التردّي والحبوط. وقد ظهرت معالم هذا الموقف في أساسيات الرؤية النهضوية وهي تنطلق من/ وتبني حضورها على حقيقة أساسية، هي: الإيمان بإمكان تحقيق النهضة... وقد تقدّمت الإمكانيات الذاتية الإمكانيات الواقعية في هذا السبيل. فقد رأى المفكرون النهضويون الأوائل أنه إذا كان التخلّف والتأخر والانحطاط تمثل أزمة أخذت شكل ظاهرة تاريخية مرگبة، فإن عملية تجاوز هذا كلّه إنّما يتحقق من خلال وعي الأزمة وإدراك أبعادها الواقعية، وليس من خلال القفز عليها. لذلك نجد هذا الوعي قد عبّر عن نفسه في تلك الأسئلة التي أثارها الفكر النهضوي العربي في حقبة التأسيسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، معبراً فيها/ ومن خلالها عن "الحل" انطلاقاً من المعطيات التي وجدها كامنة في واقعه ذاته. فقد أحلّوا فكرة الإمكان الممكن نقيضاً، وضدّاً، لحالة العجز المطلق. الذي كان أن تحكّم بحياة الناس وفكرهم على امتداد ما اصطّلحنا عليه تسمية "عصر الانحطاط" الذي ستكون نهايته بفعل فكر هؤلاء النهضويين الأوائل، وفي ما سيحدثونه، بتأثير الحركة الفاعلة لهذا الفكر، من تطوّر في البناء الثقافي للمجتمع العربي الحديث.

* أسئلة النهضة

حين ركّز المشروع النهضوي العربي، في ما تمّ تشكيله بداية، على الثقافة فلأنه كان يدرك أن الثقافة عنصر حيوي في بناء ذات الأمة، تمهيداً لإعادة تشكيل واقعها على أسس تاريخية جديدة... فقد كانت هناك حالة فراغ ثقافي، كما كان هناك فراغ حضاري تسببت فيهما تلك الحقبة الطويلة للانحطاط. ومن الإحساس بهذين الفراغين، والإدراك لخطورتهما، كان السعي قد انصبّ على إيجاد بديل ثقافي في ما للأمة من واقع. يتمثل فيه وجودها التاريخي... فمضت العملية في اتجاهين متوازيين:

- فأولاً: كانت هناك عودة حية إلى تراث الأمة، الأدبي والفكري، وإعادة كشف عمّاله من جوهر حضاري، بكل ما يتضمنه هذا التراث من نزوعات تاريخية، وبوصفه بعداً حياً، يمكن أن يكون فاعلاً في عملية بناء واقع جديد على أسس تاريخية ذات جذور حية.
- وثانياً: كان هناك التوجه نحو معرفة "الآخر . الغربي . بوصفه ثقافة وحضارة تمثل البعد الفعلي/ المتحقق للتقدّم.

ومن هنا سجد المفكرين النهضويين الأوائل وهم يصوغون تصوراتهم الواضحة لهذين البعدين من أبعاد العلاقة بالعصر، كما أرادوها وتمثلوها، ينظرون إلى هذين العاملين نظرة تأكيد لأهميتهما في ما اختطوا من مشروع جديد:

. فإذا كان التراث، كما دعوه وأقبلوا عليه، يمثل حالة حيّة، فإن بعث هذا التراث، وتجديده، يمثل، في حدّ ذاته، حالة تكامل للذات العربية، بما هو إبداع تاريخي لهذه الذات...

. وأما العلاقة بالآخر . الغربي، ثقافياً وحضارياً، فإن النظر إليها قد تمّ من قبل النهضويين الأوائل بوصفها "تجربة" لها واقعها وأفاقها... فحاولوا قراءة هذه التجربة وتمثّل ما هو إيجابي من معطياتها التي قادت، أساساً، إلى إحداث التغير والتحول في حياة تلك المجتمعات الغربية وفي بناها الأساسية.

وقد انعكس هذا الموقف بكلّيته في فكرهم الذي كانت له تجلياته الواضحة في هذا السبيل، فإذا نحن أمام ذات نهضوية كما أرادت التماهي مع تاريخها/ تراثها، فإنها كانت مدركة لأهمية التماهي مع العصر،

بما يتفّح عنه من روح جديدة/ مجدّدة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن تلك المرحلة النهضوية، بما سادها من فكر، كادت تخلو من التناقضات داخل فكرها. أما تناقضها... وأما صراعها فكان، أساساً، من عنصرين/ عاملين وجد هؤلاء النهضويون فيهما مناهضة لروح النهضة، وهما:

. الاستبداد الذي تمثل بواقع السلطة الحاكمة وأساليب سياستها...

. والتخلف الذي عكس حالة هذه السلطة على الواقع وأسلوبها في إدارته...

ومن هنا جاء مفهومهم للتقدم مرتبطاً بمفهوم الحرية، ومرهوناً باستقلالية الذات الإنسانية، في سياق ما رأوا وجوب أن يتحقق من تحول وتطور تاريخيين في حياة المجتمع، وبذلك كان المشروع النهضوي العربي، في مرحلة البداية هذه، قد انتظم مساراً في خطين متوازيين ومتلازمين باتجاه تحقيق النهضة:

. فهناك الدعوة لتحرير الواقع من خلال تحرير الذات الإنسانية من رواسب التخلف والقبول بالسلطة الاستبدادية المطلقة...

. وهناك حركة التنوير القائمة على فكرة الحرية، بشمولها الفكر والواقع، للإسهام في صياغة وتحقيق واقع جديد للأمة وإنسانها.

وبهذا كان مدخل هذا الجيل إلى حياة النهضة ولتحقيق الواقع النهضوي مدخلاً يأخذ بالإقرار بما للإنسان من حقوق إنسانية ووطنية... وفي الوقت ذاته: بما يترتب عليه من مسؤولية تجاه الأمة، وجوداً تاريخياً وواقعاً مجتمعياً، إذ أخذت هذه المسؤولية طابع الحقيقة في الفكر النهضوي نفسه، وانتدب هذا الفكر نفسه للتأكيد عليها. وقد وجد هذا الجيل أن الأمة، بالروح الحية لتراثها وبفاعلية تاريخها في حياتها الحاضرة، يمكن أن تستأنف دورها الفاعل في التاريخ من جديد، وفي عصر جديد تصنعه لنفسها، إن لم يكن للإنسانية جمعاء. وقد جاء مشروع هذا الجيل مشروعاً قومياً، بمعنى: إنه لم ينطلق من انتماءات ضيقة (قطرية، أو إثنية أقوامية، وما شاكل) من غير أن يغفل قضية الصراع التي إذا كانت قد بدأت مع السلطة المستبدة، والممثلة لواقع التخلف... فإنها ستتواصل في حياة الجيل التالي لتصبح صراعاً مع الاستعمار الغربي بصيغته الإمبريالية. الكولونيالية، ومع التخلف أيضاً. والذي سيربطه هذا الجيل بالاستعمار وقواه المساعدة (من أنظمة وسلطات عربية تابعة لهذا الاستعمار...).

فإذا كان لنا، في سياق نظرتنا هذه إلى المشروع النهضوي العربي، أن نعدّ أسئلة النهضويين الأوائل أسئلة تأسيسية لواقع نهضوي جديد... فإن أسئلة الجيل النهضوي الثاني. على وجه التخصيص في حقبة ما بين الحربين العالميتين. ستكون أسئلة الفكر الباحث عن مسارات جديدة لحياة جديدة أراد هذا الجيل أن يكون للعقل دوره في بنائها... فكان البحث عن وسائل التحديث، وسبل تحقيق المعاصرة من الغايات المثلى لهذا الجيل. وهنا يشكل بدايات الموقف النقدي، فكرياً وسياسياً، وسيستند هذا الموقف إلى ما للفكر الإنساني من تاريخ... بل سيجد، في عديد الحالات، أن هذا الفكر الإنساني هو المصدر الأساس، إن لم يكن أهم مصادره.

* التمثّل بالغرب

كان هذا الجيل النهضوي الثاني أن قدم قراءات مغايرة لقراءة الجيل الأول. سواء في ما حمل من

مشروع تنويري، أم في قراءة فكر الآخر . الغربي التي أصدر فيها عن معرفة أوسع وأكثر عمقاً. أما الموقف من التراث العربي . الذي كان أساسياً في بناء فكر الجيل الأول . فإن الموقف منه، هو الآخر، قد اختلف وتباين: فمنهم من قرأه بفكر نقدي عصري مستند إلى أساسيات منهجية غربية (طه حسين)، ومنهم من صفح عنه متجهاً صوب اليونان في القديم وأوروبا في الحديث (أحمد لطفي السيد). ومنهم من ازدراه دون أن يقربه (سلامة موسى)... فتكونت من ذلك حالة معقدة تداخلت فيها المعرفة الغربية الحديثة بتياراتها الفكرية والفلسفية، توأصلاً مع أصولها اليونانية... إلى أفكار التنوير، ومحاولات محاكاة أفكار النهضة الأوروبية...

ومع أن هذا الجيل . الذي جمع أسماء أخرى إلى جانب من ذكرنا . كان أن قدم، على بداياته، مشروع قراءات يمكن وصفها بالتجديد والسعي إلى أن يحقق به تاريخه الخاص... إلا أن انجذابه إلى ما هو فكري وثقافي جديد قاده إلى تبني تيارات غربية الأصل والروح والجوهر. ولعل من أبرز ما ظهر في تلك الحقبة كان التيار الليبرالي الذي سيقوم على فلسفة خاصة به في النظر إلى الواقع العربي، ومن ثمَّ إلى المشروع النهضوي العربي، في محاولة لتشكيل حركة تقدم يمكن أن تتفاعل بأفكارها مع هذا الواقع تفاعلاً يأخذ بأساسيات المشروع النهضوي الغربي في هذا المجال . على الرغم من كونه يمثل نموذجاً ثقافياً وحضارياً يتجاوز، أو يقفز على الأزمة الحضارية الفعلية للمجتمع العربي، النابعة أساساً من العلاقة غير المتكافئة مع هذا "الآخر"... ممّا جعل منها علاقة توتر وصراع، وليست علاقة قائمة على أساس الشراكة الإنسانية والحوار الحضاري.

لقد تمثل الليبراليون العرب النهضة الأوروبية . التي كانت قد تشكلت وابتدأت قبل ذلك بنحو خمسة قرون من الزمن . وقد رأوا أن الواقع العربي الجديد يمكن أن يأخذ بما لها من نموذج حضاري متكوّن، فيسيرون على هدي سيره... ورأوا أيضاً . من غير أن تقوم رؤيتهم هذه على موقف نقدي . أن ما ينبغي أن يتمّ بالنسبة لمجتمعاتهم يمكن أن يجري في المسار نفسه الذي اتخذته الغرب الأوروبي لنهضته... فهي . بحسب نظرة هذا التيار . نموذج كامل التكوين علينا الأخذ به واتباع سننه الفكرية والحضارية.

إلا أن هذا الاتباع الذي دعوا إليه . على أساس القبول المطلق، وخارج أي موقف نقدي . سيجعل الكثير من أفكار هذا الجيل تُحمل على محمل التبعية، الفكرية والثقافية، للآخر . الغربي... وسيتمّ هذا في مرحلة لا يمكن أن تُعدّ "مرحلة مثالية" بالنسبة للحضارة الغربية، وإنما كانت مرحلة نفي للطابع الإنساني عن هذه الحضارة وقد تحركت بوجودها العسكري . الاستعمار نحو "الآخر . غير الأوروبي" بوصفها قوة حضارة متفوّقة عبّرت عن نفسها باستعمار الآخر... الأمر الذي وضع التطوّر الحضاري العربي المأمول، والمشروع النهضوي العربي أمام أزمة فعلية... إذ لم تكن المسألة . كما طرحها الفكر الليبرالي العربي . مسألة تعامل ثقافي وحضاري مع النهضة الأوروبية ما أنتجت . وإنما أضحت، من خلال ارتداداتها السلبية على الواقع العربي مصدراً لأزمة فعلية في هذا الواقع الذي كان يتطلع إلى مجافاة التخلف والانتصار على التأخر فإذا به يقع في قبضة استعمار أعاق هذا كله لصالح استمرار هيمنته. ومن هنا كان ارتباط النموذج الليبرالي بالوجود الاستعماري، في تلك المرحلة، ارتباطاً يشار إليه من باب التأكيد لحصوله.

هنا سيجد الفكر العربي، في توجهه القومي، نفسه، مرة أخرى، في مواجهة مشكلة جديدة ستفاقم في مشكلاته القديمة، وأخصّ هذه المشكلات: التطور الحضاري العربي وفقاً لنموذج مستقل. فقد كان الواقع،

في حقبة ما بين الحربين، يطرح مشكلته بوصفها مشكلة تستدعي المعالجة بطريقة تاريخية وعلى أساس الوجود القومي للأمة، وذلك من خلال تجاوز المشكلات المعيقة للنمو والتقدم الحضاري للمجتمع العربي. ولم يجد هذا الواقع في ما قدمه الفكر الليبرالي من "نموذج بديل" حلاً لأزمته هذه، خصوصاً حين قدم هذا الفكر القضية على أساس كون التطور والتقدم هما حصيلة الحضارة الغربية ونهضتها الحديثة وأن كل رغبة، أو توجه، في تحقيقهما خارج "النموذج . الأصل" لا يمكن أن يحقق رجاء هذا الواقع في النهضة... ففرن، بذلك، فاعلية هذه الذات بالتقليد لا الإبداع.

وعلى هذا، سنجد البحث في الفكر الليبرالي والتيار الذي مثله في الثقافة العربية . في حقبة ما بين الحربين العالميتين . يثير إشكالات فعلية من خلال تعيين وتحديد المفهومات التي تبناها، أو انطلق منها بانياً أطروحته الأساسية عليها في ما أراد أن يُحلّ من مفهومات جديدة في الفكر العربي الحديث يجعلها على علاقة تلازم مع المجتمع العربي في حركيته الجديدة تحقيقاً لما دعا إليه رادة هذا الفكر من صيرورة ثقافية وحضارية مواكبة للعصر الأوروبي في ما يعيش ويعمل...

إلا أن أهم إشكالية ستبرز في هذا السياق هي قضية الصراع الفكري الذي سينطبع بطابع إيديولوجي يتحدّد به الطابع الفكري القومي العربي في ما يحمل من توجهات يتقاطع فيها مع الفكر الغربي الذي ستستثمره المؤسسة الاستعمارية لصالح مشروعاتها الكولونيالية . وهو ما سيجعل الفكر الليبرالي طرفاً في هذا الصراع في ما تبني/ وتقدم به فكر تحديثي قائم على مقابسة نظيره الغربي مقابسة قبول وامتنال... آخذاً بالبعدين الثقافي والحضاري... مهماً، أو صارفاً النظر عن بعده السياسي . وخصوصاً ما ينطوي عليه هذا البعد السياسي من حركية استعمارية. وسيكون هذا الموقف للتيار الليبرالي عاملاً فعالاً في ظهور إشكالية جديدة في الفكر العربي الحديث هي: إشكالية الأصالة والمعاصرة، والتي ستقع بين تيارين يختلفان نظرة، ويفترقان توجهاً... وهما:

. التيار القومي العربي الذي ينظر إلى الأصالة كونها إبداعاً مستمراً معبراً عن روح الأمة ومجسداً لعبقريتها التاريخية . بما يفتح الأبواب لتفكير جديد وفكر جديد سينعكس، بدوره، على فهم هذا التيار للتراث وقراءته له قراءة جديدة...

. والتيار السلفي الذي سيمسك بالأصالة كونها الاتباع لسنن السلف.

* لحظة الصراع الفعلي

إذا كان هذا التيار الليبرالي في الفكر العربي الحديث قد حرص، في جانب من عمله، على توطيد الفكر الغربي في الثقافة العربية، فإن مفهوم هذه الثقافة، من جانب آخر، سيكون مفهوماً شاملاً. ولعل هذا هو ما يدعونا إلى متابعة المضامين الفكرية . من باب دراسة تاريخ الأفكار . لهذا التيار، خصوصاً وأن هذه "المضامين" كان لها دورها في ما اصطلاحنا عليه معركة النهضة الحديثة، من طرف... كما كان لها، من طرف آخر، دور أي دور، في الصراع الفكري الذي دار، ونما في هذه المرحلة من حياة الفكر العربي الحديث، وبما أوجد من تيارات فكرية متعددة الاتجاهات والتوجهات تعدّد أطروحاتها التي تقدمت بها إلى هذا الواقع الذي صار يتخلّق من خلال مفهومات: المعاصرة، والتحديث، والحدث... إذ أضحت هذه المفهومات، بما انتظمت فيه من تيارات فكرية وأخرى سياسية، منطلقاً لمعركة ثقافية ذات بُعد حضاري، عدّها بعض الباحثين العرب "معركة حيّة وذاتية للثقافة العربية" (٢). (أبو يعرب المرزوقي: آفاق فلسفية

عربية معاصرة . دار الفكر . دمشق : ٢٠٠١ . ص ١٨).

ولعل أهم ما جاء به هذا التيار الليبرالي هو أنه جعل من نفسه أساساً لحركة تاريخية بمعنى: تشكله في مجتمع ينتسب إلى أمة، وأن هذه الأمة وإن كانت تمثل وجوداً تاريخياً، حضارياً وثقافياً وإنسانياً... فإن التوجه من داخلها، مع الإقرار بكيانيتها هذه ينبغي أن يتمثل/ ويمثل مشروعاً جديداً يجترح لحظته، الثقافية والحضارية، في هذا الواقع، وذلك من خلال ما يأخذ به مشروعه هذا من تصوّر، أو يتخذ من أساليب التوجه والعمل لتحقيق ذلك (٣).

غير أن الافتراق الجوهرى بين هذا الاتجاه الليبرالي، والاتجاه النهضوي . التحديثي، وامتداده متمثلاً في التيار القومي العربي في الفكر العربي الحديث، سيكون بفعل نظر كل من التيارين إلى واقع الأمة، تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً... إذ سيري هذا التيار الأخير أن للأمة وجوداً منوطاً بدور تاريخي... فإذا كان هذا "الدور" قد تراجع أو انقطع بفعل العامل الاستعماري... فإنه ينبغي أن يستأنف من جديد، وذلك من خلال تجديد روح الأمة وبعث رسالتها. في حين أخذ الاتجاه الليبرالي نفسه بالنظر إلى حاضر الإنسانية ومحاولة مقابستها أفكار نهضتها الجديدة. إذ وجد في هذا الاتجاه/ التوجه مقومات فعلية لدور تاريخي جديد للأمة التي لا يمكن لنهضتها أن تتحقق بعيداً عن "روح العصر"، أو بمعزل عن "حضارة العصر" التي هي الحضارة الغربية الحديثة.

هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإن نظرة التيار النهضوي الأول، بفكره الإصلاحى، ومن ثمّ التيار القومي، بفكره التغييرى الجذري، إلى وجود الأمة من خلال الربط بين تاريخية وجودها . حضورها الثقافى والحضارى الإنسانى، وفاعلية فكرها الحاضر، هو ما جعل شروط نهضتها واضحة محددة وذلك من خلال النظر إلى الأمة في لحظة وجودها في الحاضر، ومن خلال التطلع إلى المستقبل . الذي يتم التأسيس له، بحسب منظور هذا التيار، من خلال معطين:

- معطى النقد الجذري لإشكاليات الواقع العربى، سواء منها تلك التي تتصل بحاضره، أم تلك المتحدرة إليه من ماضيه... نقداً يدعو إلى التخلص من أسباب التأخر الحضارى.
- والمعطى الآخر هو معطى الوعي بالشرط الحضارى الجديد، في ما تتشكل منه السمات الرئيسة لهذا الواقع الجديد من خلال شرطه الحضارى . التاريخى.

ومع أن الفكرين . التوجهين، القومى والليبرالى، كانا يتحققان، ويتعينان، مفهوماً ورؤية، في لحظة تاريخية واحدة، فإن الصراع بينهما كان مصدراً من مصادر إغناء أطروحاتهما، وعاملاً من عوامل تطورهما (٤).

وسيفجر هذا الموقف (بما له من رؤية، وفي ما يتخذ من توجه) أبعاداً جديدة للصراع الفكرى والثقافى، أخصّها، بالنسبة لمبحثنا هذا، هو الصراع بين الثقافة العربية قومية المحتوى والتوجه وبين الثقافة العربية في أبعادها التغريبية، كما انعكست لدى التيار الليبرالى... وهو صراع بين نظامين من المفهومات، ومسارين من التوجه المستقبلى للأمة وإنسانها. وسيصبح، أخيراً، صراعاً بين ثقافة الهوية القومية، بكل ما لها من خصوصيات تاريخية وحضارية، وثقافة العولمة . وهما وجهها الصراع الجديد بين الأمة في ما تطمح فيه من مشروع تاريخى إنسانى النزعة قومى النزوع... ومطلقة غربية . استعمارية التوجه والغايات والأهداف . وهو ما يتجلى اليوم في واقع الصراع الراهن بين: الأمة في ما تريد لنفسها أن تكون بذاتها...

وإرادة الآخر . الاستعمار الذي يريد وجودها مرهوناً بتبعية لها.

* القفز على أسئلة النهضة

إلا أن هذا "الوعي الليبرالي" . وخصوصاً ما يتصل منه بالنهضة والمشروع النهضوي . لم يتحقق لهذا "التيار" من خلال الحقل الفكري العربي، ولا تحدّد، إلا تحديداً شكلياً، بسؤال الواقع العربي... وإنما كان أن تمّ له من خلال النظر إلى التجربة النهضوية الأوروبية التي سيعتمدها معظم أصحاب هذا التيار أساساً لتكوينهم الذاتي، بما ترشح إليهم منها من معطيات ثقافية وفكرية. ومن خلال التركيز على لحظة محددة في تلك التجربة النهضوية الأوروبية، وجدوا فيها نقطة بداية لثقافة جديدة لمجتمع أرادوا له أن يتميز بثقافته، أكثر ممّا يتميز باستقلاله السياسي والفكري والاقتصادي، فنقلوا إلى مجتمعهم "ثوابت" تلك اللحظة التي سيجد فيها التيار الفكري الآخر . القومي حالة قفز لا على مشكلات الواقع الراهن وحدها، وإنما، أيضاً، على أسئلة ذلك الجيل النهضوي الأول . والتي كانت أسئلة واقعية . تاريخية انبثقت عن عقل كان قد فكر بمشكلات واقعه تفكيراً سديداً، وعمل، ما وسعه العمل، على استخلاص أجوبته عنها من خلال دراسة الواقع قامت على التفكير بأهمية وضرورة إعادة بناء الذات الإنسانية للمجتمع، والواقع أيضاً، معتمداً في ذلك "الثوابت القومية" التي تشكل المرجعية الأساسية لوجود الأمة تاريخياً وثقافياً وحضارياً. وهي، فضلاً عن هذا، قد مثلت، بالنسبة للتيار القومي، لحظة مواجهة بين الأمة، إنساناً وتاريخاً وحضارة... و"الآخر . المستعمر" سواء كان هذا المستعمر قد جاء في صورة الاستعمار بشكله الرث الذي هيمن على مقدرات الأمة معطلاً فاعليتها التاريخية (متمثلاً بالأتراك العثمانيين)، أو بصورته الكولونيالية المنهجية، متمثلة بالغرب الأوروبي...

فإذا ما أردنا التخصيص والتحديد بنموذج لهذا التيار الليبرالي، سنجد في طه حسين علماً من أبرز أعلامه، وأوضحهم تمثيلاً لتوجهاته... فقد ذهب الرجل إلى النهايات القصوى في ما تقدّم به هذا التيار إلى الواقع من أفكار، وفي ما أراد أن يسود هذا الواقع من تفكير وتوجهات. وسنجده يعمل على الخروج بثقافة عصره فيضعها في سياق تاريخي مغاير للسياق النهضوي، كما تحدّد في مرحلته الأولى. ولعل الأساس في توجهات طه حسين هذه أنه لم يحصر الصراع في حقل النظرية والفكر النظري، وإنما كان أن تبنى النظرية ثمّ نقل الصراع، وفاقاً لمفهوماتها، إلى الواقع الاجتماعي . الثقافي في بُعديه: الأدبي والتاريخي . وهنا سنجد من أكثر أبناء جيله جرأة في تقدير ما أصبح، بالنسبة له، حقائق يقينية... إذ عمد منذ كتاب "في الشعر الجاهلي" (١٩٢٦) أن يعطي الأولوية والأهمية للعقل في تقدير قضايا الفكر والتاريخ. ومن خلال ذلك كان له أن يشك، ويحكم عقلياً، ثمّ يقرّر... جاعلاً العقل، لا الإيمان المطلق، سبيلاً لبلوغ الحقيقة.

فإذا ما جئنا إلى كتابه الآخر، الذي يتمثل فيه "مشروعه الثقافي" بأبعاده كافة . وأعني به: "مستقبل الثقافة في مصر" (١٩٣٨)، سنجدّه يدعو فيه إلى الأخذ بالنتائج الثابتة للحضارة الغربية وثقافتها، داعياً إلى مصانعة الغربيين في ما فعلوا. وهو في دعوته هذه كان قد أخذ الحضارة الأوروبية وتمثّل فكرها وأفكارها في بعدين: الرؤية المباشرة (إن لم نقل الأخذ عنها والتقليد لها)... والاستيعاب لمعطياتها والانطلاق منها في ما يريد التأسيس له من ثقافة مستقبلية...

بل سنجدّه في هذا الكتاب بالذات يذهب في ما هو أبعد... ذلك أنه حدد جغرافية مشروعه الثقافي

بالجغرافية الغربية من خلال القول بمتوسطية مصر . وقد قدّم "برهانه التاريخي" على صلة مصر بمحيطها المتوسطي (الأوروبي أساساً)، ليجد، في ضوء ذلك، أنها ثقافة وتكويناً ثقافياً أقرب إلى أوروبا منها إلى العرب والثقافة العربية. وبذلك كان قد حسم الأمر فأخرج "مشروعه الثقافي" من محيطه القومي العربي، وأراد لثقافة مصر المستقبل . ومشروع نهضوي لها . أن تلتحق بفضاء آخر يتم لها بعزلها عن فضائها العربي . وعلى هذا فإنه أراد لمعنى المستقبل أن يتحقق لثقافة مصر من خلال انجذابها إلى الإيقاع التاريخي للحضارة الغربية المعاصرة، داعياً إياها إلى الاتصال بلحظتها النابضة بالحياة والحيوية. فقد كان طه حسين يتطلع إلى تحرير العقل وإعادة بنائه على أساس تاريخي آخر محتكم إلى ما وجد فيه شروطاً موضوعية تاريخية هي شروط الحضارة الحديثة الأوروبية، جاعلاً لمصر، بعد أن تكتمل لها شروط مستقبلها الثقافي على هذا النحو، أن تصبح "جسراً" أو "صلة وصل" بين أوروبا والوطن العربي . بما أوكل إليها من مهمة الإشعاع "على جيرانها من العرب" . على ما جاءت به عبارته.

بكلمات أخرى نقول: لقد أخذ طه حسين نفسه وفكره، ووجّه مسارات تفكيره وفقاً لمبدأ التعاصر، وبالزمانية الثقافية التي جعلها أساساً للزمانية الحضارية والتاريخية، ليجد أن التطور الاجتماعي والثقافي والحضاري هو، حصراً، عند "الآخر . الأوروبي" فدعا إلى الاتباع، وإن من خلال الإبداع.

ومع أن طه حسين كان يرى في الثقافة قوة فاعلة بمقدورها أن تتفاعل مع حياة المجتمع فترتقي به، واقعاً وعقلاً وفكراً... إلا أنه ابتعد بهذه الثقافة عن شرط وجودها التاريخي... وجعلها في فضاء مفتوح على الآخر . الغربي، لا يقصد الحوار والتفاعل، وإنما بغاية الأخذ والاتباع.

وأما علاقته بالماضي العربي، تاريخاً وتراثاً، فقد أقامها على أساس كون كلا منهما . التاريخ والتراث . يمثل "حدثاً زمانياً"... ولذلك فإن هذا "الحدث" يخضع للتأويل من جانب... ويتحدّد بـ"معنى"، من جانب آخر . وهو ما يتعيّن عنده في صور من القراءة الجديدة لهذا كله. وكان الأساس لقراءته هذه هو الوعي بالحاضر وعياً أقام على أساسه تصوّره للزمان التاريخي، وهو تصور نسجه على نول ذلك اللقاء / الصدمة بالثقافة الأوروبية في ما عرف لها من شروط حضارية جديدة، أضحت بها عنده وحدها الحضارة التي تمدّ الفكر المعاصر، ومنه الفكر العربي، بما يقدم حلولاً لمشكلاته الثقافية والحضارية... معبراً عن يقينه بأن كل تطلع إلى المعاصرة والتحديث ينبغي أن يعتمد، أساساً، على تلك الحضارة وفكرها، وعلى اتباع ما جاءت به من تطور. فقد وجد في هذا التوجه ما يكسر به "وثوقية العقل" الذي خضع، في مساراته التاريخية، لمسلمات بلغت عنده درجات اليقين، واستوت عليها مدارك هذا العقل الذي أراد له أن يعتمد "الشك" أساساً ومنطلقاً في ما يقدم من قراءة جديدة.

إلا أن المفارقة الفكرية . الموقفية التي انتهى إليها لها طه حسين تدعو إلى مزيد من التأمل: فقد تبنى العقلانية، واعتمدها أساساً في دراسات وقراءات له نستطيع أن نعدّها جذرية، سواء ما كان منها للتراث والتاريخ العربيين، أو في ما اقترح صياغته من توجه أدبي حديث... فقد كان رائده، في هذا وذاك، تحرير العقل من القبلية. إلا أنه في ما كان يحيل إليه من فكر غربي، أو يعيده إلى الحضارة الغربية، كان يأخذ فيه هذه الحضارة، بفكرها وثقافتها، بمنطق التسليم بما تقول... فقد مثلت له حالة اكتمال العقل والعقلانية...

ولعله، بفعل هذا الموقف، كان يعيد تشكيل سؤال التاريخ . بهدف بناء وعي ثقافي وحضاري جديد. فكان سؤال التاريخ عنده سؤال انحراف عن حقائق التاريخ ومساره الفعلي.

* تغاير الأسئلة وانحراف الجواب

إذا كان هذا التيار الليبرالي العربي قد أخذ عن الليبرالية الغربية نزعتها التحررية، فإنه سيعبر عن هذه النزعة، ثقافياً، من خلال ما أثار من تساؤلات بشأن ثقافته (تراثه) وبشأن الواقع الجديد الذي كان أن دعا إلى بنائه. وقد كان مفهوم الحرية الفردية، والاستقلال الذاتي للفرد من أكثر المفهومات التي شاعت في فكر هذا الجيل... فضلاً عما أشاعه من استنارة فكرية لمواجهة الاتجاهات التقليدية والسلفية في المجتمع.

وعلى هذا الأساس، ويمثل هذا التوجه كان يجري إعداد الذات الجديدة لمسألتين/ موقفين:
- المفارقة للتيارات السائدة في الواقع المجتمعي العربي، وخصوصاً تلك التي كان يجد فيها نقياً للعقلانية الفكرية...
- وتحقيق التواصل مع الفكر الحديث، متمثلاً بالفكر الأوروبي. بحثاً في إمكانات نقل تجربته، ورؤاه، إلى واقع المجتمع العربي.

وبهذا كان الفكر الليبرالي قد وضعنا أمام عملية تكوين جديد للذاتية الإنسانية في مجتمعنا: فهذا التيار، الثقافي والفكري، لم يتجه إلى اكتشاف تراثه العربي، بما لنا فيه من إبداع ذاتي. كما فعل الجيل النهضوي الأول الذي حقق التواصل مع جذوره الحضارية في أعماق تاريخية تراثه ونظمه الفكرية، بروح متطلعة إلى تحقيق عصريته... وإنما ذهب مذهباً آخر، مغايراً كل المغايرة في بعض الحالات والمواقف، بحثاً منه عن انتماء آخر، ومرجعية أخرى تربطه أكثر بما كان يتطلع إليه من حياة جديدة يسودها تفكير جديد، ومغاير لما هو سائد. فكان بذلك أن استجاب للمشروع الثقافي والحضاري الأوروبي استجابة وجد فيها التطور المنشود لمجتمعه، بحسب تقديره. فقد كان مفكرو هذا التيار طموحين في تحقيق التفاعل مع الفكر الأوروبي والثقافة الأوروبية. بما لها من سمات حضارية جديدة. وفي الوقت نفسه كانوا يطالبون مجتمعهم بأن يتفاعل مع "أفكارهم" ويتخذ "توجهاتهم". التي كانت، في أساسياتها، نقلاً عن "الآخر". الأوروبي في ما تعرفوا إليه ممّا حقق من نهضة وتقدم.

مع هذا التيار، بتوجهه هذا، كان التساؤل عن السبيل الأمثل لتحقيق مشروع نهضوي عربي قد دخل مرحلة جديدة تأطرت. بحكم ودواعي المرحلة وطبيعة التوجه فيها. بنظرية سياسية وثقافية واجتماعية مغايرة لسابقتها. وفي هذا/ ومن خلاله تحدد المستوى القيمي للعلاقة بالغرب. فقد أرادت هذه "النجبة" لمشروعها الثقافي والحضاري من القيم ما تتحدد به علاقتها بكل من الغرب. بوصفه مرجعاً فكرياً وثقافياً لها. وبالواقع الذي تعيش فيه وتعمل... فكان اختيارها هو: القبول بالغرب، وتبني قيمه الفكرية والثقافية والسياسية. فقد نظرت هذه "النجبة" إلى الغرب من خلال حدثته، وأيقنت أن الحداثة غربية أو لا تكون، وأن طريق التواصل مع منجزات هذه الحداثة هو نفسه طريق التواصل مع الغرب. إلا أنها أخطأت الطريق حين قبلت لهذا التواصل أن يصبح تبعية...

هذا كله كان يجري ويتم في مرحلة من التاريخ كان الوطن العربي فيها قد بدأ واقعاً جديداً من حياته السياسية والثقافية والاقتصادية، وكانت القوى الوطنية والقومية فيه تعمل على "تعديل" اتجاه التاريخ ودفعه نحو سيرورات تكون لصالح اختياراته المستقبلية التي تحددت، على نحو ما، في:

١. تحقيق واقع متحرر، قائم على الاستقلال الوطني، ومتوجه إلى بناء ذاته على أساس الرؤية

القومية لواقع الأمة...

٢ . بناء ثقافة عربية جديدة تأخذ نفسها بموجهات موروثةا، الثقافي والحضاري القديم، وفي الوقت نفسه تعبر عن تطلعات الذات العربية المعاصرة.

٣ . توجيه عناصر اقتصادها لتنمية واقعها تنمية وطنية . قومية مستقلة.

* خلاصة ونتائج

١ . إذا قلنا، تاريخياً، إن الفكر النهضوي العربي قد نشأ وتكوّن في واقع عربي له خصوصيته، كما كانت له إشكالاته السياسية ومشكلاته الثقافية والحضارية، فإننا يمكن أن نقول أيضاً: إن عوامل عديدة كانت قد حركت الفكر العربي باتجاه هذا الواقع. ليتبنى أطروحاته الأساسية، وفي الخصوص منها ما كان يمثل محاولة/ دعوة خروج بهذا الواقع من كل ما كان يعيق حركة تقدّمه وتطوره، ورفض للعوامل التخلف فيه.

٢ . وإذا كان هذا الفكر النهضوي قد عمد، بداية، إلى إنشاء نظام من الأفكار قادر على تحرير الإنسان عقلاً، وتهيئته لاستقبال مفهومات الحرية والتقدم، مع تأكيد على الهوية التاريخية والخصوصية الحضارية... فإنه كان حريصاً، من خلال هذا كله، على إرساء دعائم تفكير مستقل دعت الإنسان العربي إلى إقامة نهضته الجديدة عليه. ولقد ركّز المفكرون النهضويون الأوائل، في هذا، على الثقافة وما هو ثقافي لما قدروا للثقافة من دور إيجابي يمكن أن تلعبه في مستوى الفرد والمجتمع، على السواء، فضلاً عن فاعليتها في عملية التغيير الاجتماعي.

٣ . كما ركزت الكتابات النهضوية الأولى على ما يشكل مفهوماً جمعياً للهوية، فخصّت بالاهتمام الثقافة والفكر في إطاريهما العربي . الإسلامي، لا لتربط هذه الهوية، مكونات وخصائص، بالدين، وإنما لتجعل منها عامل تحريك للمجتمع باتجاه مقاومة الغزو الغربي، وثقافته الكولونيالية . بوصفها نقياً للثقافة العربية روحاً وجوهرًا، ووسيلة استعمار للعقل تمهّد لاستعمار الأمة واقعاً.

٤ . ونظر مفكرو هذا الجيل إلى التحديث، وأطلقوا دعوات التغيير الاجتماعي من خلال تعميق صلة الإنسان بترائه وتاريخه الحضاري، وذلك لكي يجعل هذا الإنسان من "ذاته"، في أبعادها التكوينية هذه، أساساً ومنطلقاً له في عملية إعادة بناء واقع الأمة. فإن تلك العودة جاءت لتأكيد مسألتين: الهوية القومية، والمركز الحضاري والثقافي للشخصية العربية، لكي تستمد منها ثقتها بالحاضر الذي تعيش فيه وتعمل على تطويره، وبالمستقبل التي تتطلع إليه . ولم تكن عودة تراجع عن الحاضر أو انكفاء على الماضي.

٥ . وإذا كان الجيل النهضوي الأول قد تعامل مع الصدمة الحضارية التي أحدثها لقاء الغرب، وتعرفه إلى جوانب من حياته وثقافته وحضارته، في ما طرحت عليه تلك الحضارة من أسئلة، أو قدمت من تصورات... فإن الجيل النهضوي الثاني . الذي سيبدأ مسيرته مع أوائل القرن العشرين . سيتلقى هذه الصدمة الحضارية . وقد تعرّف إليها على نحو أعمق . دفعة واحدة، ليحسّ بنقوّها عليه. وقد ولد هذا عنده إحساساً بتخلّف ثقافته وقصور وضعه الحضاري، الأمر الذي سيدفعه إلى محاولة التماهي معها من خلال "استعارة" العديد من مفهوماتها وأساليبها الفكرية والمنهجية، ليكون بها/ ومن خلالها في ما كان يرمي إليه من وضع جديد.

٦ . من جانب آخر، كانت هناك اختلافات وتباينات في التكوين الثقافي والفكري، وفي المنظور الاجتماعي والحضاري لدى كل من الجيلين عن بعضهما البعض:

- فقد كانت البنية الاجتماعية للمجتمع الذي عاش فيه الجيل النهضوي الأول بنية بسيطة التكوين والتركيب، تعاني من انسحاب التخلف عليها قروناً عديدة... وكذلك كانت "مرجعياتها" الثقافية، وتوجهاتها. وأما احتكاكه بالآخر . الغربي فقد ظل، هو الآخر . محدداً بحدود ضيقة، ويسيرة الشأن...

- أما بالنسبة للجيل النهضوي الثاني، فقد أصبحت البنية الثقافية والاجتماعية على عصره أعقد تكويناً... إذ تناسج البعد السياسي فيها مع البعد الفكري، والاجتماعي مع الثقافي، فشكل ذلك عنواناً لمرحلة جديدة أصبحت "معرفة الآخر" احتكاكاً مباشراً: إما عن طريق البحوث العلمية، أو من خلال الاطلاع الثقافي الذي ستيسره المعرفة باللغات الأخرى... كما كان من خلال الاحتكاك بهذا الآخر . مستعمراً محتلاً.

٧ . ولقد تركز في وعي الجيلين أن التطور والتجديد وبلوغ التحديث لا يمكن أن تتم وتتحقق من غير تفاعل مع العصر بمعطياته الحضارية الجديدة. إلا أن الخلاف/ التناقض سينشأ انطلاقاً من قضية الهوية التي وضعت الذات الثقافية العربية النهضوية كل قوتها فيها. في حين سيمضي التيار الآخر - الذي أخذ نفسه بالفكر الليبرالي ورأى اكتمال مشروعه بتمثل أطروحات هذا الفكر . إلى القول بالتجانس والدعوة إلى المجانسة مع تيارات الفكر الغربي والثقافة الغربية، متخطياً الحدود القومية للثقافات... الأمر الذي جعل عديد الأطروحات (الليبرالية منطلقاً وجوهرًا) لهذا الجيل تنطوي على ميول واضحة، ومؤكدة، نحو الغرب: ثقافة، ورؤية حضارية، ونزوعات فكرية . سياسية، بهدف إحداث تغيير جذري في بنية الواقع، كما في نمط العلاقات السائدة فيه.

٨ . ولعل دعوة التجديد والتحديث التي أطلقها مفكر من طراز طه حسين كان أساسها القبول بالقيم الغربية قبولاً مطلقاً. وقد قاده هذا "القبول المطلق" إلى أن يرسم أفاق الانتماء الجغرافي . التاريخي لمصر بما يحقق التوافق مع هذا الغرب، أو لا ينعزل عن دائرته... فإذا به يذهب إلى أن البعد الثقافي والحضاري لمصر هو بُعد متوسطي، قافراً بذلك على النسق القيمي العربي لها، ومتجاوزاً له... وباحثاً، في الوقت ذاته، عن مشترك ثقافي متوسطي يوثق ارتباطه بالآخر . الغربي.

٩ . إن أهم، وأخص، ما يمكن أن نأخذه على هذا التيار الليبرالي في الثقافة العربية الحديثة مسألتان:

- الأولى منهما: أنه استبدل "معرفة الذات" وتأكيد خصوصيتها العربية، تاريخياً وحضارياً وثقافياً، بمحاولة "معرفة الآخر"، وذلك من خلال ما قدمه هذا "الآخر" عن نفسه... وليس من خلال قراءته قراءة نقدية.

- والثانية: إنه جاء بهذه "المعرفة" ليعتمدها أساساً ومنطلقاً في صياغة "أسئلته" التي حاول فيها مواجهة واقعه/ عصره الحديث.

وبذلك كان أن غيَّب من أفق أسئلته هذه ذلك البعد المعرفي . التاريخي العربي، بما له من معنى وتشكل خاص . أي أن الإنسان العربي، في ما هو ذات حضارية وهوية قومية وثقافة تاريخية، كان غائباً عن أفق تلك الأسئلة.

١٠. وعلى هذا نستطيع القول: إن هذا الجيل كان أن تمثل أزمة عصره الفكرية والثقافية "تمثلاً معرفياً" في إطار ما انفتح له/ أو انفتح عليه من معرفة عصرية مصدرها الغرب، لا أحد سواه.

١١. إلا أن هذا "التيار" الذي ما تزال امتداداته تقول بأننا لا يمكن أن نعرف "ذاتنا" معرفة حقة... كان هذا "التيار" قد وجد، ومنذ أوائل القرن العشرين، من يقلب معادلته بالعودة إلى أطروحات الجيل النهضوي الأول، فيقول بعدم إمكان معرفة "الآخر" معرفة حقة إلا من خلال معرفة "الذات" معرفة حقة. وإذا كانت "استعادة الأصول" بالنسبة لذلك الجيل النهضوي الأول قد اعتمدت أساساً في وضع جواب عن أسئلة النهضة... فإن ذلك هو ما فتح أفقاً رحباً للفكر القومي العربي أفاد منه في صياغة أطروحاته الفكرية والثقافية... التي ستتوجه إلى واقع الأمة، في الوقت الذي كان فيه هذا الواقع "مرجعها الفعلي". في حين عمد الليبراليون العرب إلى صياغة سؤال المطابقة مع "الآخر". الغربي، ولم تمنحهم الهوية القومية في كثير أو قليل... وكانت الرغبة في التماهي مع ثقافة الغرب قد بلغت ببعضهم حدّ التبعية والاستتباع لهذا الغرب.

١٢. وإذا كان التوجه الحضاري الجديد هو الذي طبع أطروحات الجيلين النهضويين، الأول والثاني، مع اختلاف في المرجعيات وتباين في المنطلقات... فإن أطروحات الجيل الثالث ستتطبع بما هو فكري - سياسي بدرجة أساس، حيث أصبح: التحرر من الاستعمار، وبناء الواقع الوطني على أساس قومي، ضمن تأكيد لمفهوم الوحدة القومية، وبالتالي: تأكيد حضور الشخصية العربية حضوراً تاريخياً... هي الموضوعات ذات الأهمية، والأولوية، في فكر هذا الجيل. كما سيرتبط مفهوم النهضة، في فكره وتفكيره، بالمشروع القومي في أبعاده هذه.

* هوامش وتعليقات

(١) إذا أردنا تعريف "الليبرالية"، هنا، بالعودة إلى بعض المراجع الأساسية، سنجد تبايناً واختلافاً واضحاً بين مرجع وآخر من حيث التعريف:

ففي حين يعرفها "قاموس أوكسفورد" من خلال "الإنسان الليبرالي" فيصفه

بأنه "متفتح الذهن، غير متعصب، منحاز للإصلاحات الديمقراطية"... نجد مراجع أخرى تذهب إلى أن الليبرالية "لون من الفلسفة السياسية ظهر في ظل الرأسمالية"، معيدة إياها إلى مذهب "لوك" والتنويريين الفرنسيين. كما نجد من يحدد: إن الليبرالية تمثل البرنامج الإيديولوجي للبرجوازية الفتية التي كانت تتناضل ضد بقايا الإقطاع، وتلعب دوراً تقدمياً نسبياً... وكانت تدعو إلى حماية الملكية الخاصة، والمنافسة الحرة، وترسيخ مبادئ الديمقراطية البرجوازية، وإشاعة الحياة الدستورية".

ولعل أقرب هذه التعريفات إلى موضوعنا التعريف الذي وضعه مراد وهبة في "المعجم الفلسفي"، والذي يذهب فيه إلى أنها "نظرية سياسية ترقى إلى مستوى الإيديولوجيا، إذ تزعم أن الحرية أساس التقدم، فتعارض السلطة المطلقة، سواء أكانت دنيوية أو دينية".

(٢) سيكون التيار القومي العربي، بفكره المرتكز إلى وعي الأمة بهويتها الإنسانية، التاريخية الحضارية بما لها من بعد ثقافي، أبرز التيارات التي واجهت الفكر الليبرالي في الواقع العربي، وقد وضع أساساً بديلاً أقام عليه شروط النهضة. إذ انطلق هذا التيار من النظر إلى منزلة الأمة في التاريخ، ومن التأكيد لشروط وعيها بدورها

التاريخي، مع تأكيد واضح على أهمية "الدور الجديد" الذي رآه لها، بالنسبة لنفسها ولإنسانيتها. وإذا كان هذا التيار قد ركز على وعي الأمة بهويتها، وضرورة بناء هذا الوعي من خلال رؤية تاريخية واضحة، فذلك ليواجهه، رافضاً، جميع الاتجاهات التغريبية، أو ما يقود إلى فرض التبعية للغرب... معتبراً إياها تيارات غربية على روح الأمة ومضمون رسالتها الخالدة.

(٣) ستكون هنا مع الرأي الذي يذهب إلى أن كل فلسفة هي لغتها، كما إن كل فكر هو لغته... لنقول: إن "الهوية" تتحدّد باللغة وثقافتها . بوصفهما الحضور التاريخي الشاخص للأمة. وعلى هذا يمكن الكلام على "ليبرالية عربية" و"حادثة عربية" تماماً كما نتكلم على "فلسفة عربية". وإن كان سيبرز هنا مدى الوعي التاريخي بوجود الأمة شرطاً لهذه "الهوية العربية".

(٤) تجدر الإشارة، هنا، إلى تطور كلا التوجهين واقعاً من خلال أطروحاتهما الأساسية. ففي حين تطور الاتجاه القومي العربي بفعل مساره التجديدي، أخذاً بالمذهب الاشتراكي أرضية لبناء واقع يقوم بكليته المتكاملة من خلال وحدة الأمة... سنجد الاتجاه الليبرالي يتطور فكراً من خلال التنظير للدولة الوطنية . القطرية... وسيلغ في هذا مستوى القبول بالعولمة، سبيلاً لتقدم المجتمع، ولتعميق ارتباطه بالحضارة الإنسانية . على حدّ رؤية بعض منظريه.



محمود حيدر (١) مفهوم الحوار في إشكاليات الاختلاف والتواصل ونظام القيم

يتأسس على مفهوم الحوار كل ما له صلة بالإنسان. به يتعرّف على موقعه في الحياة والوجود من خلال تعرّفه على الآخر الذي يشاطره الحياة والوجود. ذلك أن اقتضاء التعرّف هو الاعتراف بالفطرة والتكوين، أن الذات لا تتكامل إلاّ بوجود الآخر، وكذلك الاعتراف به كشريك طبيعي في بناء الاجتماع البشري، والحضارة الإنسانية.

هذه من البديهيات التي لا جدال فيها. فهي (أي هذه البديهية) تدخل في أصل حضور الإنسان إلى العالم بوصفه كائناً اجتماعياً. وهو بهذه المثابة يستحيل عليه أن يحقق الغاية من مخلوقيته إلاّ ضمن الوجود الاجتماعي. أي على أساس ينتظمه عقد بين الفرد والجماعة، أو بين الجماعة بوصفها مجموعة أفراد، يجمع شملها ميثاق ما، غالباً ما يكون الحوار فيما بينها العنصر المكوّن لمثل هذا الميثاق.

ماهية الحوار:

للحوار، في اصطلاح علماء اللغة والتفسير معانٍ كثيرة وإن استوت في الإجمال، على سياق واحد. "حاورة محاوره وحواراً". فالمحاورة هي المجاورة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة والتحاوّر والتجاوب. لذلك كان لا بد في الحوار من وجود طرفين: متكلّم ومخاطب يتبادلان الدور. فحيناً يكون المتكلم مرسلاً للكلام وحيناً متلقياً له. أي يكون المتكلم مخاطباً حين يصمت ليسمع كلام نظيره. وهكذا يدور الكلام بين طرفين في إطار حلقة تبادلية يكشف كل منهما عما لديه من أفكار. فيتشكّل جزاء ذلك ما يمكن أن نسميه بالخطاب المشترك الذي تستولده القضية المتحاوّر بصددّها.

فالحوار، بهذا المعنى، هو تبادل أفكار بين فريقين أو أكثر في إطار موضوع ما، حول قضية ما، بغية الاتفاق على صيغة حل أو اتفاق أو تسوية في شأن القضية التي هي مدار الحوار.

والآلية التي يسلكها الحوار لا بد لها أن تلاحظ تبادل الكلام ومراجعته بين كل من المتكلم والمخاطب. حيث إن غاية الحوار هي توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم كما في ذهن المخاطب. فالحقائق التي

(١) -باحث في الفكر الفلسفي والسياسي. -رئيس تحرير "مدارات غربية"

تولدها العمليات الحوارية هي ناتج زمان ومكان الحوار أكثر مما هي ناتج الأفكار المسبقة لدى كل محاور. ولعل أهم المعاني التي يقوم الحوار عليها هي تجاوز الأفكار القبلية، والتي غالباً ما تشكل عائقاً في وجه الغاية الأساسية من انعقاد الحوار.

هذا لا يعني بالطبع، أن يتخلّى كل محاور عما يعتقده أو يؤمن به من أفكار ومبان معرفية حول قضايا الوجود والحياة. بل على العكس فقد تكون الاعتقادات الكلية لدى المتحاورين هي التي سهّلت التفاهم حول قضية من القضايا تحقيقاً لأهداف عليا مشتركة بما يفضي إلى التقدم الاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة.

يفترض الحوار، إذاً، وجود قضية تكون موضوعاً للتحاور. وهذه القضية إما أن تكون موجودة وقد اختلف حولها، مما استدعى التحاور بشأنها بغاية استوائها على نسق يناسب المصالح المشتركة للمتحاورين، وإما أن يكون ثمة حاجة لها، لخلل ما في نظام القيم العام للمجتمع، أو لنقص في بنية المؤسسة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

في هذه الحال قد يستوي على أحد هذين القسمين للقضية. قد يقوم بالقسمين معاً في حالة الرغبة بإعادة إحياء قضية وطنية كبرى أدّت المنازعات ودورات العنف الأهلي إلى إقصائها من حقول التداول، كقضية الوحدة الوطنية، وإعادة تأليف النظام الاجتماعي والسياسي على أسس التوافق والديمقراطية والتسامح والعدل الاجتماعي.

آليات الحوار وقواعده:

بسبب من تعدد أوجه استعمال مصطلح الحوار وكذلك بسبب سوء التوظيف في حقول النزاعات السياسية والثقافية والاجتماعية والعقائدية، لحق بالمفهوم التباسات شتى. حتى إننا غدونا نرى إليه في أحيان كثيرة كما لو كان في غير محله، وذلك بعد أن جرى تحويله وتحويل المراد منه وفقاً لأغراض ومصالح الجهات والقوى المختلفة. فالآليات العامة التي تجعل الحوار يفضي بالمتحاورين إلى غاياتهم المنشودة ينبغي لها أن تلاحظ مبدأ التكافؤ والرضى والتوازن فيما بينهم. ذلك أن الحوار في أحواله ومبانيه وغاياته قائم على الاعتراف المتبادل، وحق كل فريق، سواء كان فرداً أو جماعة، في المشاركة المتساوية المتكافئة في تقرير الصياغة النهائية لشكل ومضمون المسألة التي يجري الحوار بشأنها.

إن الانطلاق من هذا المبدأ سوف ينجز نصف المسافة المؤدية إلى الصيغة الفضلى من الاتفاق والحل المفترض. وبالتالي فمن منطوق الأمور ألا يكون الحوار حقيقياً وسوياً في حال وجود الغلبة وعدم التكافؤ، وإلا صارت كل صيغة تنتجها دائرة التحاور، مجرد استلاب يفرضه الأقوى على الأضعف. ما يفضي في النهاية إلى خلل في نظام القوة يفضي بدوره إلى توليد النزاع ويطلق رحلة دراماتيكية متجددة من الأزمات ودورات العنف.

على هذا الأساس فإن استقامة الحوار على مبدأ التوازن والاعتراف والاحترام يفترض مراعاة جملة من الشروط والقواعد والآليات يمكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً: وجود أطراف للحوار يجمع بينها مكان مادي (مساحة ما يلتقي فيها أطراف التحوار وجهاً لوجه) أو معنوي (التحوار عبر وسائل اتصال مباشرة كالهاتف والإنترنت).

وهذا يعني في ما يعنيه، أن الحوار يجب أن يكون مباشراً بين المتحاورين، فلا يكون هناك طرف ثالث أو رابع يشكّل حلقة وصل بين الأطراف. فوجود أطراف أخرى تلعب دوراً يصل الأطراف المتحاورين مع بعض، يجعلنا ندخل في ما يسمى "الوساطة" وليس "الحوار". وعلى هذا فإنّ العلاقة الأفقية المباشرة بين المتحاورين هي التي ينبغي توفيرها أولاً لكي يجري حوارهما على نحو سويّ إلى ذلك فإنّ على أطراف الحوار، أن يكون لديها رغبة بالأمر. فالحوار ليس قراراً يفرض على أطرافٍ عليهم التجاوب معه بدافع واجب ما أو إرادة خارجة عنهم، بل إن الحافز إليه يفترض أن يكون نابعاً من الذات، أي من رغبة ذاتية ناتجة عن قناعة داخلية مؤادها أن التحوار هو باب أساسي يجعلنا نخرج من ذاتنا لنلتقي بالآخر. وبذلك نكون قد ساهمنا في مساعدة خروج الآخر من ذاته كي يلتقي بنا. إنّ الرغبة بالحوار، هي رغبة باكتشاف مستمر للذات من خلال الآخر، بالتوازي مع اكتشاف مستمر وغير نهائي للآخر. ذلك يوصل بنا إلى نقطة أساسية في هذا الإطار، وهي الاستعداد للحوار الذي يسبق أي حوار، فالرغبة تحتمّ استعداداً داخلياً غير واعٍ يمر به المتحاورون قبل ولوج باب الحوار. إنّ هذا الاستعداد هو بمثابة المدخل الضروري كيما يكون الحوار مجدياً وكي يوصل بالتالي إلى نتيجة ما.

ثانياً: إن أحد الشروط الأساسية التي ينبغي التوافر عليها في أي حوار، هو الموضوع المشترك أو المواضيع المشتركة التي يتم التداول بها. فلا يكون كلام أحد الأطراف عن قسم من الصورة، وكلام الآخر عن قسم آخر من الصورة. غير أن ذلك لا يحتمّ أن يكون هناك لغة مشتركة معتمدة، بل لغة واضحة لسائر أطراف الحوار. بمعنى أن تكون اللغة التي يستخدمها كل طرف، مفهومة وواضحة بالنسبة لسائر الأطراف. فتقنيات التواصل التي نستخدمها من شأنها أن تساهم في فهم خاطئ للمقاصد والنوايا، قبل أن تساهم في فهم خاطئ للمعاني، في حال لم تكن مفهومة وواضحة لدى الطرف الذي نحاوره، والعكس صحيح.

ثالثاً: ما ذكر حتى الآن، يشكّل الإطار المادي للحوار. غير أن أسسه وشروطه، ترتبط بالذات وبالموقع الذي منه ننطلق للوصول إلى الآخر بالتوازي مع ارتباطها بالإطار المادي. ولعل أبرز هذه الأسس، هو النظر إلى الآخر كآخر، له وجوده، وشخصيته، له ميزاته السالبة والموجبة. ينبغي أن يكون لديّ القناعة الكاملة، بأنّ الآخر هو كيان كامل منفصل عني. إن لم أستطع النظر إلى ذلك الآخر من هذه الزاوية، فإني أكون كمن يحاور ذاته، أو كمن يحاور كائناً أبغضه وفق ما أريد، وليس طبقاً لكينونته. هذا الآخر، من غير الجائز أن يحول بيني وبينه مستوى ثقافي متعارض، طالما أن الرغبة في الحوار تولدت لديه مثلما تولدت لدي. هذا الآخر، لا يقف حائلاً أمامي دون الوصول إليه، موقع في هزيمة ما، سواء كان هذا الموقع أعلى أم أدنى من موقعي. فأياً تكن المستويات الثقافية، أم الاجتماعية التي يقف عندها

المتحاورون، فإن ذلك لا يشكّل أي فارق في تكوين الأطراف الروحي، سواء وعوا ذلك أم لا. من هنا، نستطيع أن نفهم معنى كلمة "المساواة" التي نضعها كشرط أساسي في مطلق الحوار. رابعاً: إن النظر إلى المساواة من هذه الزاوية، يجعلنا نمضي إلى شرط آخر للحوار، وهو الابتعاد عن التقرُّد بالرأي، كي لا يصبح الحوار "مونولوجاً"، يحاور فيها الفرد مرآة صامتة أمامه. فالحوار هو حديث بين كائنين أو أكثر، يكملان معاً صورة واحدة. كل طرف يمتلك جزءاً من الصورة، فعندما نتحاور، علينا الانطلاق من أن كلاً منا يمتلك جزءاً من الحقيقة. فالحقيقة مطلقة، غير أن رؤيتنا لها هي النسبية والمتغيرة، معاً وبالتحاور نصل إلى فهم جزء أكبر منها يوماً فيوم. فالحقيقة تأتينا حين نقرب منها بالتكامل، وعبثاً نجهد كي نصلها ونحن نقف في زاويتنا، فالالتصاق بالزاوية يسجننا في الزاوية، يعمي عيوننا عن المشهد الآخر من الحقيقة، عن الألوان الأخرى للحقيقة.

أن ننشد الحوار، ونحن على قرار مسبق بأن نتمسك بالقسم الخاص من الصورة الذي نراه أمامنا، هو كمن يرفض أن يرى من أيام السنة إلا أحد فصولها، أو كمن يرفض أن يرى من ساعات اليوم إلا ساعة منه، زاعماً أن تلك الساعة هي اليوم بأكمله، وأن ذلك الفصل هو السنة كلها. من هنا نرى أن أحد شروط الحوار هو الجرأة التي تسمح لي بأن أقبل أن ما لدي ليس إلا الجزء، وما لدى الآخر هو جزء آخر. إن في ذلك إرادة ذاتية للنظر من زاوية أوسع تتخطى رؤيتي الذاتية للحقيقة.

إن توفر النية كأساس قبلي للحوار تؤدي نصف المسافة إلى الهدف. فالنية التي ترافقني قبل ولوج أي حوار، هي شرارة أساسية قد توقد نار الحوار الدافئة، كما أنها قد تولع ناراً حارقة. فالدخول في الحوار، لا يمكن أن يكون باباً يؤدي إلى أي مخرج، في حال كانت النيات أصلاً في عدم الوصول إلى نتيجة. من هنا، يجب علينا البدء في الحوار انطلاقاً من مقصد كامن في داخلنا، مفاده الاستعداد للسير مع الآخر بغية الوصول وإيائه إلى مكان آخر يتسع لكلا الطرفين. ذلك يخيفنا في بعض الأحيان، ويهدد العالم الذي رسمناه والإطار الذي وضعنا أنفسنا فيه. فالطلب من ذواتنا بدء الحوار انطلاقاً من باب النية الحسنة بالوصول إلى مكان آخر، كالطلب منها الخروج من عالم اعتادت على دفئه، وأمنت إلى حرارته، إلى عالم تجهل حدود المحاذير التي يرسمها. فهذا الذي أحاوره يأتي ليهدد العالم الذي رسمته ووجدت فيه الأمان، يأتي بأفكار جديدة توسع أفق المشهد أمامي، فهل أستطيع أن أقبل مسبقاً بهذا؟ شرط البدء بنية الوصول معاً، هو كشرط القبول بكل المحاذير التي يمكن أن يأتيها هذا الموقف أمامي، مغيراً بذلك صوراً رسمتها منذ البدء على أنها حتمية. هو كشرط القبول باعتراف مسبق لذاتي، بأن الصورة التي أراها، لا تمثل إلا جزءاً غير مرئي ربّما إلا لناظري، وبالتالي، الاعتراف بأن ما يراه هذا الذي أتحاور معه، هو أيضاً جزء من الحقيقة ربّما كانت تظهر العكس تماماً لما أراه. من هنا، علينا القبول بأن نلتفت بعقل مفتوح إلى الآخر الذي أمامنا، ثم ندعوه كي يخطو نحونا، من خلال خطوات نخطوها نحوه، بهدف الوصول إلى مساحة

مشتركة دون أن يشعر أياً من الأطراف بأنه فقد شيء، بل ارتقى إلى مكان آخر. إن هذا ليس دعوة إلى التنازل، فالمساواة التي سبق أن ذكرتها، تنفي أصلاً وجود المستويات المتدرجة، وبالتالي تجعلنا نقف كلنا على مستوى واحد، دون نزول أو صعود بين بعض، بل هو دعوة إلى اللقاء بالآخر من خلال خطوة نقوم بها نحوه.

خامساً: في نقطة تعتبر ركيزة للحوار، يعتبر الاحترام الذي يبديه كل من المتحاورين للآخر، أياً كانت الآراء مختلفة، يجري أساساً بالتوازي قبل ومع وبعد الحوار. والمقصود هنا، ليس فقط الاحترام الذي ننظر من خلاله إلى الأطراف، بل كذلك الحرص المتبادل كي يتم النظر إلينا باحترام. ونقطة البداية هنا، تكمن في أن أقبل من أراه أمامي انطلاقاً من حيث هو لا من حيث أريد له أن يكون. أقبله انطلاقاً من كينونته، كما هو موجود وحاضر أمامي. أن أحترم الآخر، هو أن أراه حيث هو، خارجاً عن أي اتهام معلن أو كامن في داخلي. وبالتالي أن أنظر إليه خارجاً عن أي نية بتغييره فأحرره بذلك من أية نظرة عنيفة كانت أم سلسلة يمكن أن أسجنه مسبقاً فيها. أن أحترم الآخر، هو أن أقبل أن له الحياة التي أعطيت لي دون زيادة أو نقصان، فألتقيه حيث هو، وبالتالي أكون بذلك قد دعوته كي ينظر إليّ من حيث أقف، لا من حيث يريد لي الوقوف، أو يفترض أنني أقف. إن ذلك يتطلب استعداداً لضبط النفس، يبدأ به كل طرف على حدة، يتم من خلاله التدرّب على الإنصات كلّ للآخر، بغية أن يعرف كل طرف أين يقف الآخر. لا أستطيع أن أرى ما يراه هذا الواقف أمامي، إلا إذا حاولت أن أرى من زاويته، وبالتالي، لا يستطيع هذا الذي أتجاوز وإياه أن يرى ما أراه، إلا إذا ساعدته كي يرى ما أراه من الزاوية التي أقف عليها. وهذا ما لا تستطيع الأطراف الوصول إليه، إلا انطلاقاً من نظرة احترام لكينونة الآخر أياً يكن وحيث يكن.

سادساً: وأخيراً، لا نستطيع القول بأننا نتجاوز كطرفين، إن نحن نظرنا إلى الآخر انطلاقاً من تعميم، يُخرجه من فرادته، فالآخر هو فرد قبل أن يكون، هو كيان وليس جزءاً. حين أنظر إليه خارجاً عن الكتلة التي يلتصق بها، أكون بذلك أنظر مني إليه، وليس مني إلى مجموعة ذاب فيها، سواء كانت نظرتي إلى تلك المجموعة، سلبية أم إيجابية. بذلك، أساعده كي ينظر إليّ خارجاً عن الكتلة التي أنتمي إليها. فالصور المتراكمة عن الآخرين، التي يساعد على رسمها غالباً أحداث عشناها مع أفراد تنتمي (باعتمادنا) إلى نفس المجموعة التي ينتمي إليها هؤلاء الآخرون، هي سجون لا نستطيع بسهولة أن نخرجهم منها. والحاجة تكمن في أن ننظر إلى بعض ككيانين خارج الكتل. أن أنظر للآخر كآخر، من خلال عيني كفرد، وليس كمجموعة. وبالتالي، أن أرى فيه شخصاً جديداً، ليس فقط الآن، بل في كل لحظة. فكل لحظة حوار مع الآخر، هي لحظة نظرة جديدة إليه، تجعلني أراه مولوداً في كل لحظة. إخراج الآخر من التعميم، ومن الصور التي رسمناها عنه أو رسمها عنه آخرون، هو خطوة أولى في سبيل تحرير ذاتنا من سجن الرؤية المعتمدة بما يؤدي إلى تحرير الآخرين من سجن نظرتنا. إن هذا ما يجعلنا بالتالي نقف أمام بعض ككيانين، دون أن يذوب الواحد بالآخر، فكما يجب أن أنظر

وأرى الآخر كما هو، عليّ أن أساهم في أن ينظر الآخر إليّ كما أنا وليس كما تعكس صورتنا التعميمات والأحكام القيمية المسبقة (٢).

في الفرق بين الحوار والجدال:

إذا كان الحوار هو على النحو الذي وجدناه فيما سبق ذكره من تعريفات وشرائط، فإن الجدل بوصفه طريقة كلامية تقوم على قاعدة "إن قلت كذا... قلنا كذا" يبدو على النقيض من الحوار. فالأول سالب ينهض على أرض التناقض، والتضاد، والإقناع، والإبلاغ، والإرسال، والاستجواب، والمحااجة، ودحض ما لدى الآخر من أفكار، واقتراض النقصان والضعف والبهتان والتهافت في اعتقاداته. وأما الثاني فموجب ينهض على النقيض منه، إذ أنه وكما رأينا يجري ضمن سيرورة متكافئة ومتوازنة تتكامل شيئاً فشيئاً ضمن دائرة ينشئها الطرفان المتحاوران هي في حقيقتها حصيلة منطقية لأفكارهما معاً.

في الفكر الفلسفي الكلاسيكي والحديث عُرفَ الجدل على أنه حرف للحوار عن مساره من خلال تحويل آلياته وأساليبه من دائرة التراكم التكاملي إلى دائرة الصراع بين الأضداد. فحين يتحوّل الحوار إلى علاقة تفاعل بين الأضداد: المجزّد والمشخص، المعقول والمحسوس، الجزئي والكلي، الطبيعي وما فوق الطبيعي (الميتافيزيقي) يغدو هذا الحوار جدلاً. وفي هذا لا يصح التعريف الاصطلاحي الذي يقول إن الجدل هو فن الحوار في سبيل الوصول إلى الحقيقة. وعلى ما نعرف فإنّ الجدل الدقيق عند المنطقيين هو: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة. و"الجدل اللفظي" عند اللغويين يعني السفسطة والمماحكة. و"فن الجدل" يعني فن المناقشة بطريقة الحوار. و"الجدليون" هم أولئك الذين اشتهروا في الجدل كالفلسفائيين بين اليونان والمعتزلة بين المسلمين. وأما الجدل فهو فعليه الجدل، أي الطريقة الشائعة التي مورس فيها الجدل، ويعني: محااجة ومناقشة بين أشخاص لهم آراء مختلفة في المجال العقلي (٣)، وكل من هؤلاء الأشخاص يريد أن يُسقط حجة الخصم عبر استخدام كل أدواته المنطقية واللغوية واللفظية، بينما يسعى إلى إقامة الحجة على صحة وصواب رأيه واعتقاده.

وبحسب الفلسفة الأولى إن الجدل في الأصل كان يعني فن الحوار والمناقشة. والجدلي بنظر أفلاطون هو الذي يحسن السؤال والجواب، والغرض منه الارتقاء من تصوّر إلى آخر ومن قول إلى قول للوصول إلى أعمّ التصورات وأعلى المبادئ.

وبنظر سقراط أن العلم لا يعلم، ولا يدوّن في الكتب، بل يُكشف بطريقة الحوار. إذ لا يمكنك أن تُلزم بنتيجة القياس، إذ استخرجتها من مبدأ مسلم به عنده. ولا يمكنك أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام من دون أن تتيقّن أن الخصم يتبعك.

كان سقراط يدّعي باستمرار أنه لا يعرف شيئاً. وهذا هو السبب في أن كاهنة دلفي قالت عنه أنه "أحكم الناس في بلاد اليونان" وكان يشجع تلاميذه على مناقشة الأفكار ليريهم عادة، كيف يصعب العثور على إجابات مقنعة عن الأسئلة الفلسفية. وهذه الريبة التي كان يثيرها "الحوار السقراطي" في عقول الناس ريثما تفسر اللقب الذي أطلق عليه وهو "ذبابة الخيل" (٤).

فالسؤال عند سقراط هو "ذبابة الخيل" التي ينبغي أن تقض منطقة السكون والحجب في العقل

اليوناني في زمانه.

لكن أرسطو وهو الوارث الأبرز للفلسفة الأولى سيميّز بين الجدل والتحليل المنطقي. لأنّ موضوع التحليل المنطقي عنده هو البرهان، أي الاستنتاج المبيّن على المقدمات الصحيحة، في حين أن موضوع الجدل هو الاستدلال المبيّن على الآراء الراجحة أو المحتملة (٥).

في الفلسفة الحديثة سوف يُنظر إلى مفهوم الجدل نظرة جديدة، فقد لاحظ هيغل مثلاً، أن الجدل هو التطور المنطقي الذي يوجب ائتلاف القضيتين المتناقضتين واجتماعهما في قضية ثالثة. وأحد أركانه التأليف بين الرأيين المتناقضين والجمع بينهما في رأي أعلى منهما. فالأفكار عند هيغل تنمو وتتحرّك تدريجياً نحو إدراك أفضل للواقع في مسار يسميه هيغل بالجدل. وهذا تفسير تطوري وديني للحضارة وللروح البشرية، فهما معاً يسيران في مراحل حتّى يتحقّق "الوعي المطلق" والانسجام الاجتماعي. ويعتقد هيغل أن دراسة التاريخ سوف تكشف في نهاية المطاف شيئاً شبيهاً بروح الله (...) كذلك فإن الوعي البشري نفسه لا يبقى ثابتاً أبداً. بحسب هيغل. بل هو يطرّو ويغيّر مقولات ومفاهيم جديدة. وهذه المقولات هي التي تحدّد كيف نخبر العالم، وهكذا نجد أن المعرفة دائماً من حيث نسيجها والنتيجة باستمرار هي مواقف متصارعة (٦).

على هذا النحو من الفهم الهيجلي للجدل، سيظهر لنا كيف أن جدل السيد والعبد هو التطور الذي يجعل السيد عبداً والعبد سيداً، لأنّ فراغ السيد وسعيه في سبيل الملذات يجعلانه عبداً لحاجاته وشهواته ويهبطان به إلى مستوى الحيوان. في حين أن عمل العبد يكسبه سيطرة على نفسه وعلى الطبيعة ويجعله في النهاية سيداً. وفي هذا المعنى يتضح لنا تهافت أطروحة الحوار عند هيغل لصالح أطروحة الجدل القائمة على التناقض والتضاد والغلبة.

هذه الصفات السالبة التي أنشأها الفكر اليوناني ومن ورثه فيما بعد سوف يطرأ عليها تغيّرات جمة. ففي مراحل متأخرة، من تطور المفاهيم ولاسيما مع ثورة الحداثة، أخذ مفهوم الجدل بعض الصفات الإيجابية ليقترّب من مفهوم الحوار. إلّا أنه بقي في جوهره محتفظاً بمعناه الأصلي القائم على التضاد والتناقض. فثمة من ذهب إلى إطلاق صفة الجدل والجدال على الحالات التالية:

أ- طريقة الفكر الذي يعرف ذاته، ويعيّر عن موقفه بتأليف حكم مركب جامع بين الأحكام المتناقضة.

ب- طريقة الفكر الذي تحركه جهات متعارضة، تؤثر فيه تأثيراً متقابلاً يفضي في النهاية إلى تقدمه.

ج- موقف الفكر الذي يقرر أن حكمه على الأشياء لا يمكن أن يكون نهائياً وأن هناك باباً مفتوحاً لإعادة النظر فيه بصورة دائمة.

د- إنصاف الفكر بالحركة، وميله إلى تجاوز ذاته. على أن تكون طريقته في تفهّم كل شيء تكمن في إرجاعه إلى المحل الذي يشغله في تيار الوجود المتحرك، فالجدلي -بحسب هذا الفهم- هو الحركي أو التقدمي أو التطوري.

الحوار في تداعياته المعاصرة:

أولاً: حوار الأديان: لم يؤدِ الجدل الذي نشأ في العصور الوسطى بين اللاهوت المسيحي والكلام الإسلامي، إلا إلى تعميق النزاع العقائدي، وتوليد ضروب الخوف والحذر والإقصاء بين مسلمي المشرق العربي ومسيحييه. وإذا كان ثمة من الأسباب الداعية إلى الجدل الكثير، فهي في الأغلب الأعم عائدة لمؤثرات موضوعية تاريخية وسياسية أكثر مما هي عائدة إلى مبدأ الإيمان بالله الواحد الأحد وتوحيده، لعلّ مجادلة القديس يوحنا الدمشقي على سبيل المثال لا الحصر (أواخر القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن) في "الهرطقة مئة من كتاب الهرطقات" (٧) قد شكلت نموذجاً للقطيعة في جدال العقائد بين الإسلام والمسيحية في ذلك الوقت. كذلك الأمر بالنسبة لمجادلات العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية الدمشقي (١٢٦٣-١٣٢٨) في رده على بعض عقائد المسيحية معتبراً أن أكثرها بدعة من مثل أن الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون وإنما ابتدعتها قسطنطين. وكذلك بدعة الصليب والألحان في الصلوات بالإضافة إلى قوله أن عامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً الخ... (٨).

لعلّ المشترك بين هذين النموذجين الجدالين في اللاهوت المسيحي والكلام الإسلامي "يوحنا الدمشقي وابن تيمية"، وعلى رغم الفارق الزمني بين الرجلين، هو أنهما يعتصمان بحرفية النص وظاهره. وربما لهذا السبب خلعت على الأول أوصاف ونعوت تقديسية من مثل بطل الكنيسة أو ما أطلقه عليه البابا يوحنا بولس الثاني في رده على خطاب البطريرك الإنطاكي أغناطيوس الرابع هزيم بأنه "البطل المناضل عن الإيمان الأرثوذكسي". وكذلك الأمر بالنسبة لابن تيمية حيث اعتبره كثيرون بأنه مؤسس السلفية في التاريخ الإسلامي. ولعلّ ما عناه في قوله الذي جاء في سياق رسالته إلى سرجيوس ملك قبرص "أنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه وطلب الخير منهم" إنما يتبين مدى اعتداده بنفسه وكذلك فيما يظهر من رسالته إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما معناه أنه مجدد الملة في ختام قرنهما السابع (٩).

لقد تبين من خلال تداعيات الجدل اللاهوتي -الكلامي كم هي واضحة آثار القطيعة بين المسلمين والمسيحيين. وبدأ واضحاً بسبب من ذلك ضمور إمكانيات الحوار، بل واستحالته في ظل سيطرة النزعات الدفاعية التي غالباً ما اقتضت الهجوم على الآخر في ما يعتقد ويؤمن به. لكن سيروية جديدة من النظر المتبادل بين المؤسسات الدينية المسيحية والإسلامية، كان عنوانها المركزي ضرورة الانتقال في العلاقة من طور الجدل والقطيعة إلى طور الحوار والتواصل. ولقد وجد الفريقان أنه من غير الجائز أن يستمر واقع الحال ضمن الأطروحة التالية: عندما يخاصمك الآخر في دينك وهويتك مستعملاً دينه وهويته كسلاح يتكئ عليه في حملته عليك، فإنه من الطبيعي أن يبتعث لديك المنطقة الأكثر حساسية وحدة في دينك وهويتك، ويقمها على نشأة متجددة من العصبية والعنف ورفض الآخر. وإذا كانت الهوية والدين يدخلان في نطاق ما يسميه الاستراتيجي الفرنسي جان غيتون بالميتافيزيقا السياسية، فلا مناص للمسلمين والمسيحيين من الإعراض عن تسييس الدين بما يخدم المصالح السياسية والاقتصادية لهذه الجهة أو تلك.

ثانياً: المجمع الفاتيكاني الثاني كنموذج للحوار: شكل المجمع المنعقد بين أوائل ومنتصف الستينات

نقطة تحول تاريخي في علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالمسلمين وفهمها للإسلام. ولعل الوثيقة التي أصدرها المجمع الفاتيكاني الثاني في ذلك الوقت ستؤسس إلى علاقة جديدة مع المجتمعات الإسلامية خصوصاً مع سائر الأديان غير المسيحية بوجه عام. ولعل أبرز ماتضمنته وثيقة المجمع تركيزها على مايلي:

١- الأمور المشتركة بين المسيحية والإسلام:

كان المسيحيون -بحسب الوثيقة- ينظرون قديماً إلى الإسلام نظرة إجمالية فيقولون إنه دين باطل، وإن محمداً نبي كاذب. أما اليوم فتدعو الكنيسة أبناءها إلى أن ينظروا أولاً إلى الحقائق المشتركة بين المسيحية والإسلام. تقول الوثيقة: "تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلّم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم على كونهم لا يعترفون بالمسيح إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمونه أمّة العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي فيه الله جميع الناس بعدما يُبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرّون الحياة الأبدية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً".

هناك إذن بين المسيحيين والمسلمين أمور كثيرة مشتركة على صعيدي الإيمان والأخلاق. فعلى صعيد الإيمان، يتفق المسيحيون والمسلمون على عبادة الله الواحد الخالق، الذي كلّم الناس بالأنبياء منذ إبراهيم إلى السيد المسيح، ويكرمونه معاً مريم العذراء، ويترجّون قيامة الأموات. وعلى صعيد الحياة الدينية والأخلاق، هناك اتفاق على الصلاة والصدقة والصوم. ويمكننا أن نضيف أن الاتفاق يشمل أيضاً معظم أمور السلوك الأخلاقي.

٢- العلاقات بين المسيحيين والمسلمين:

استناداً إلى الأمور المشتركة بين المسيحية والإسلام، تدعو الوثيقة المسيحيين والمسلمين إلى أن ينسوا المنازعات والعداوات القديمة، ويُقدّموا نحو التقاهم والتعاون على عمل الخير ونشر القيم الروحية والأخلاقية: "ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثيرٌ من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التقاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعزّزوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية".

تلك هي المبادئ الأساسية التي طلبت الكنيسة أن تسير بموجبها العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، لكن الوثيقة تقر بأن هناك أموراً عقائدية لا تزال محل اختلاف، وربما سنبقى مختلفين فيها حتى يوم القيامة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ. فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ، وَأُدْعُ إِلَى رَبِّكَ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ. وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. (الحج ٦٧-٦٩). ولكن هذه الأمور يجب ألا تعيقنا عن التعاون معاً على أعمال البر والتقوى، في سبيل إحلال السلام والعدالة والمحبة بين الناس وبين الشعوب. (١٠).

٣- مركزية الحوار في الإسلام: ينشأ مبدأ الحوار في الإسلام من المقاصد العليا للشرعية. وفي القرآن الكريم من الآيات البيّنات ما يدل ويرسخ هذه الحقيقة.

﴿لا إكراه في الدين﴾ (١١)، ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (١٢)، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (١٣).

وفي التجربة النبوية بدت مواقف الرسول (ﷺ) من النصارى على نسق ثابت من التسامح فيما نهى عن أن يُقتل أهل الكتاب في دينهم. وتدل تحقيقات العصور الإسلامية اللاحقة على التزام المبادئ التي وضعها القرآن ورسختها حقبة الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، وأخصّها أنه لا يُكره أهل الكتاب على اعتناق عقائده وعهده لهم بالمحافظة على أمنهم وحياتهم وأموالهم ودمائهم، وأنه يتمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام، وإنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلّق بالنظام العام ويضيف المفكر الإسلامي سيد قطب أن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفه جهاراً ونهاراً في العقيدة، وهو تسامح لم ينعم به إلا الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي أو تربطهم به روابط الذمة والعهد من أهل الكتاب (١٤).

لقد كانت التجربة التاريخية للإسلام والمجتمع الإسلامي في عهد النبي (ﷺ) وبعده تطبيقاً أميناً وجدياً للتشريع في مجال الحوار وفي مجال التعايش، ابتداءً من تجربة النبي مع اليهود والنصارى في المدينة ونجران وغيرهما مروراً بجميع المراحل التاريخية التي كان المجتمع الإسلامي فيها متماسكاً على أسس الإسلام (١٥).

لا يقتصر أمر التسامح المنطلق من مركزية الحوار في الإسلام على الجانب الإيماني والعقيدة، وإنما يطاول الحيّز الحضاري والإنساني بأوجهه المتعددة. وثمة من المفكرين المسلمين المعاصرين من ذهب في سياق الكلام على جدل الإسلام والآخر لترجيح مبدأ الحوار كأساس في هذا الجدل. فالحوار مفهوم بناه القرآن أولاً في الحضارة الإسلامية وعرّسه في تصور المسلمين وفي رؤيتهم الكلية وجعله جزءاً من بنائهم العقلي والنفسي. بحيث لم يعد ممكناً تصور الاستغناء عنه في أي جانب من جوانب الفكر والتصور والسلوك. وعلى هذا يؤسس القائلون بهذه الحقائق المركزية مفهومهم للحوار. فالحوار المقترح اليوم سواء على مستوى حوار الأديان أو على مستوى الحوار الحضاري هو حوار متوازن ومتسامح في المستوى الأول، هدفه تعرّف المؤمنين على ما تتبني عليه عقائد التوحيد في المسيحية والإسلام بهدف تعزيز قيم الإيمان والأخلاق وفي المستوى الثاني يهدف الحوار إلى إقامة جسور متوازنة ومتكافئة بين الحضارتين الإسلامية والغربية، واستبعاد فكرة الهيمنة والتبعية فضلاً عن الشعور بالخوف والريبة وعقدة التصادم. وهذا الإمكان من الحوار قائم في الواقع خصوصاً لدى أهل الفكر والعلم في الغرب. الأمر الذي عبّر عنه مفكر مثل (تيتلر Teitler) بأن الحوار المتبادل هو طريقة "إقناع" تشوبها الكرامة في تعامل كافة الأطراف والتي وإن اختلفت آراؤها، فإن مصلحة مشتركة تجمعها، تكمن في البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن لعقل أن يتوصل إليها عبر جَوِّ من الثقة والاحترام المتبادل (١٦).

وبعد.. هل ثمة في الأفق المفتوح للقرن الواحد والعشرين أن ينشأ ما يمكن تسميته بـ"أمية للحوار" تتأسس جنباً إلى جنب بين المرجعيات الدينية التوحيدية العليا من جهة وقوى المجتمع المدني والنخب الفكرية والثقافية في الشرق والغرب. بحيث يُعاد الاعتبار لنظام القيم والأخلاق في العالم ويكون لها الدور الفعال في إحداث توازن خلّاق مع مراكز القرار الدولي لمنع الحروب ومكافحة الأوبئة وصون حق الإنسان في الحياة والوجود؟...

ذلك هو السؤال المرجعي الذي ينبغي أن يُعمل على الإجابة عليه في بدايات القرن الواحد والعشرين.

مراجع وإحالات:

- ١- ريتا أبوب، "شروط الحوار"، ملخص اللقاء الثالث حول "الأساليب العملية الآيلة إلى تشجيع الحوار" -معهد الدراسات الإسلامية في جامعة القديس يوسف ١٤/١٠/٢٠٠٣
- ٢- راجع: "المنجد في اللغة العربية المعاصرة" -دار المشرق- الطبعة الثانية ٢٠٠١. ص ١٨٤-باب (جل).
- ٣- هذا اللقب-ذبابة الخيل- هو الذي أطلقه سقراط على نفسه في الواقع. يقول في محاوره الدفاع: "أنا ذبابة الخيل التي أرسلها الله لتقض مضاجع الأثينيين".
- ٤- راجع "ديف روبنسون وجودي جوزف-أقدم لك الفلسفة- ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام-المجلس الأعلى للثقافة- مصر-القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٣،
- ٥- ديف روبنسون وجودي جوزف-المصدر نفسه-(ص ٨٢).
- ٦- يوحنا الدمشقي-كتاب "الهرطقة" "الهرطقة المائة"، (ص ٤٩).
- ٧- راجع ابن تيمية- IBN TAYMIYYA -LETTRE A UN ROI CROISE traduction de l'arabe, introduction, notes et lexique par JEAN.R.MICHOT-TAWHID, LYON.1995.
- ٨- عزيز العظمة (المنتخب من مدونات التراث)، ابن تيمية-دار رياض الريس للكتب والنشر-بيروت- ٢٠٠٠ (ص ١٨-٢٢).
- ٩- راجع وثيقة المجتمع الفاتيكاني الثاني.
- ١٠- سورة البقرة، الآية ٢٥٩،
- ١١- سورة الكهف، الآية ٢٩،
- ١٢- سورة آل عمران، الآية ٩٤.
- ١٣- سيد قطب-في ظلال القرآن-دار الشروق ط ١٠-القاهرة ١٩٨٢
- ١٤- الإمام محمد مهدي شمس الدين "في الاجتماع السياسي الإسلامي، قم ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م (ص ١٠١).
- ١٥- طه جابر العلواني-الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر-دار الهادي ٢٠٠٣-بيروت (ص ١٢٥).

□□□

ملف العدد:

- أربعة أعوام لتغيير العالم استراتيجية، بوش (٢٠٠٥-٢٠٠٨)،
- تأليف: برنيو ترتريه، ترجمة: قاسم المقداد.
- نشوء القوى: المشهد الجيوسياسي المتغير، .. ترجمة: منار إبراهيم الشهابي.

أربعة أعوام لتغيير العالم استراتيجية بوش (٢٠٠٥-٢٠٠٨)

تأليف: برينو ترتريه
ترجمة: د. قاسم المقداد

أربعة أعوام لتغيير العالم: كتاب مترجم. يبدو أنه تقرير يوجز بنية المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة. كتب برؤية أميركية أوربية سطحية. وانتهى بنصيحة للسياسيين الأوروبيين الذين وجه التقرير إليهم: شراكة الإدارة الأمريكية في مشروعها "لتغيير العالم".

ملاحظتنا:

١. تغيب منه الرؤية العلمية التي تحلل الواقع. لذلك يهمل العنصر الاقتصادي الحاسم الذي يفسر غزو العراق وأفغانستان، والهجوم على سورية وإيران ولبنان. لا يستوقفه أن الإدارة الأمريكية تمثل شركات النفط والسلاح.
٢. لا ينتبه إلى هويات الصهيونيين في الإدارة الأمريكية، بالرغم من أنه يذكر في مقطع صغير مجموعات الضغط اليهودية الموالية لإسرائيل. ولا يقيم الصلة بين الإنجليين ودعم إسرائيل.
٣. الصراع العربي الإسرائيلي خط صغير من خطوط الكتاب بالرغم من عالمية هذا الصراع اليوم، ومن دور اليهود في التسرب إلى المراكز المالية والسياسية والتخطيط لغزو العراق. ويتبنى الكتاب النظرة الأمريكية إلى العراق وسورية وإيران.
٣. يفقر إلى الدقة ويخطئ في التحليل: يذكر مثلاً معهد انتربرايز ببساطة دون أن يبين دوره ورجاله الصهيونيين. يسمي المحرضين على غزو العراق "المتعصبين وطنياً". يذكر برنار لويس ببساطة ولا يشير إلى دوره الخطر في صياغة موضوعات الغزو والحرب على العرب والمسلمين. يرى أن ولفوفيتز معتدل في الموقف من "المسألة الفلسطينية الإسرائيلية"! يقول إن "سلطة بوش الشعبية" زادت لأنه رجل حرب! يسمي كوندوليزا رايس "صاحبة السلوك الحذر". ويرى أن سبب قربها من بوش التشابه الأخلاقي بينهما فهي مثلاً منضبطة وتحب الرياضة! يرى أن سبب الامتناع عن توقيع معاهدة كيوتو، نص المعاهدة! ذلك لأنه يستبعد رؤية المصالح المادية خلف السياسة. يقول إن هذه الإدارة ذات "طابع إيديولوجي"!!
٣. ينقل إلى المستوى العاطفي العلاقات التي تجمع رجال الإدارة الأمريكية، مع أن المصالح هي التي تجمعهم، ولا مكان هناك للعواطف مطلقاً. في السياق نفسه يرى أن "القوى الإيديولوجية" هي التي تؤسس سياسة بوش ولا يلاحظ أنها تعبير عن المصالح المادية النفطية.

٤ . من الأمثلة على ستر المصالح بالعواطف: "غزو العراق بمثابة انتقام شخصي قام به بوش الابن من شخص حاول اغتيال أبيه" ص, ٤

٥ . يكرر الموضوعات الأمريكية: دعم الديمقراطية في آسيا. والإعمار! لكن لم تتج الظروف لبوش إعمار العراق!

٦ . يتجاهل أن إدارة بوش اتجهت إلى الخارج لأنها تعبر عن المصالح النفطية. ولا يخمن أن أحداث ١١ أيلول صيغت لتسوغ الحرب، بل يرى أن تلك الأحداث هي سبب إهمال المسائل الداخلية!

نوجز ملاحظتنا: يفتر هذا التقرير إلى تحليل الأحداث ورؤية المصالح تحتها. يغفل أسباب غزو العراق. ويهمل دور المنظمات الصهيونية في صياغة السياسة الخارجية الأمريكية، مع أن الصراع العربي الصهيوني محور عالمي مهم. ويكرر مقولة الولايات المتحدة: "نشر الديمقراطية" في العالم. ويفترض إمكانية تعقل سورية وإيران إذا لم تساعدا "الإرهاب". ينصح الأوروبيين بشراكة المشروع الأمريكي في نشر الديمقراطية في العالم.

الترجمة جيدة، لكن الكتاب غير مقبول للنشر.

أربعة أعوام لتغيير العالم، استراتيجية بوش (٢٠٠٥ - ٢٠٠٨).

تأليف : برينو تيرتريه

تمهيد

لقد أجهز دبليو بوش على أبيه تماماً. لم يسره إسقاط صدام حسين في الوقت الذي توقفت فيه جيوش الأب قبل البصرة. لذا عرف كيف يجمع في صورته صفتي القائد الحربي والمدافع عن القيم الأخلاقية مما جعل من إعادة انتخابه لولاية ثانية أمراً لا يكتنفه الغموض. وبعد أن حصل على أغلبية مريحة في مجلس الشيوخ والنواب أصبح لديه الوقت الكافي ليترك علامة فارقة على دخول الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين ولكي يستمر في تنفيذ برنامجه الطموح حول السياسة الخارجية.

هل هناك ما يبرر طرح كتاب إضافي عن أمريكا في الأسواق؟ الجواب هو نعم. لأن إعادة انتخاب جورج دبليو بوش تشير إلى أن الثورة المحافظة ستستمر من الآن فصاعداً. لقد حملت عودة الجمهوريين إلى البيت الأبيض في كانون الثاني من عام ٢٠٠١ في ثناياها تغييرات عميقة، وأحدثت هجمات الحادي عشر من أيلول تغييراً في السياسة الأمريكية. وعلى هذا، فإن إعادة انتخاب السيد بوش وتعزيز قبضته على روافع السلطة كلها أعادت خلط الأوراق. وصرنا نعرف، من الآن فصاعداً، أن فترة حكم بوش لن تكون مؤقتة بل ستشغل مرحلة زمنية يأمل الجمهوريون الاستفادة منها لكسب الحروب التي يتمنون خوضها سواء على الجبهة الداخلية أم الجبهة الخارجية، وترك بصمتهم على الولايات المتحدة لفترة جيل قادم. إن القوى الإيديولوجية التي أطلقتها أحداث الحادي عشر من أيلول ستستمر في تسنم مقاليد الأمور ولن يكون في نية الإدارة العودة عن خيارها في مجال السياسة الخارجية. لكن هذا لا يعني أنها لن تصطدم بعوائق ومعضلات سنتحدث عنها لاحقاً.

مع أن هذا الكتاب مخصص أساساً للحديث عن مستقبل السياسة الخارجية الأمريكية، وهو كذلك، لكنه سيحاول أيضاً تقديم بعض المعالم المتعلقة بملفات السياسة الداخلية الاقتصادية منها والثقافية والاجتماعية. إنه يهدف إلى فك شفرات آليات السلطة في أمريكا المعاصرة واستشراف ما يمكن أن تتمخض عنه السنوات الممتدة بين ٢٠٠٥ و ٢٠٠٨، واقتراح فرضيات تفكير على أوروبا إزاء هذا التحديث الأمريكي الجديد.

كما يسعى هذا الكتاب إلى مزيد من الفهم لأمريكا اليوم توطئة لفهم عالم الغد بشكل أفضل: ليس بسبب المكانة التي تحتلها الولايات المتحدة اليوم فوق رقعة الشطرنج العالمية فحسب بل أيضاً أن الأفكار الكبرى والإصلاحات التي تصوغ المجتمعات الغربية غالباً ما تأتي في المرحلة المعاصرة من خلف الأطلسي. وحينما يغادر السيد بوش البيت الأبيض نهائياً في شهر كانون الثاني من عام ٢٠٠٩ سيتضح آنذاك أن العالم قد اختلف عن ذلك الذي تركناه عند منعطف القرن سلباً أو إيجاباً.

الفصل الأول: معنى الانتصار إعادة انتخاب لا يكتفها الغموض

بات اليوم جورج دبليو بوش مالكا لروافع القيادة كلها مما يعني تحقيق الأهداف الاستراتيجية التي رسمها كارل روف: فقد كسب اليمين عبر تعبئة الناخبين المحافظين في تنظيم لا خلل فيه استند إلى شبكة مناسبة تتألف من أكثر من مليون مناضل يملكون الحوافز. لذا نجح الحزب في تسجيل ٣,٤ مليون ناخب جمهوري جديد. وبحصول بوش على ٤٨% من الأصوات و ٢٥٢ من أصوات المقتربين الكبار (يقابلها ٨,٥٤ مليون صوت لجون كيري) فإنه بذلك قد ربح ٩ ملايين صوت مقارنة بانتخابات عام ٢٠٠٠ (أي بزيادة قدرها ١٨%)، وأحرز تقدماً لدى فئات الناخبين كلها، بما في ذلك من كانوا أقل ميلاً له مثل المعتدلين والعلمانيين والأقليات القريبة من الحزب الديمقراطي. كما زاد عدد الناخبين اليهود لبوش (بزيادة قدرها ٦ نقاط) مقارنة بعام ٢٠٠٠. وقد يكون هذا ما ساعد الرئيس على كسب أصوات ولايتي فلوريدا وأوهايو Ohio، وعرف بوش كيف يجذب جزءاً لا بأس به من الناخبين ذوي الأصول الإسبانية. وهم في الحقيقة شديداً المحافظون حول قضايا المجتمع. إذ بلغت نسبة من صوتوا له ٤٤%. وكان لهذا الدعم قيمة كبرى في ولايات كولورادو والمكسيك الجديدة ونيفاذا وفلوريدا، وكان سبباً في حصول السيد بوش على أصوات الكاثوليك على الرغم من قربهم تقليدياً إلى الديمقراطيين.

في الثاني من تشرين الثاني ٢٠٠٤ اقترح الشعب الأمريكي بغالبية أولاً على ما اتفق على تسميته بالقيم الأخلاقية مثل مسألة الزواج، التي عبأ التيار الإنجيلي بقوة، كما اقترح لمزايا الرجل بوش المتمثلة في قدرته على الإقناع والقيادة. لاشك أن الإرهاف شكل موضوعاً اتحد الناس حوله (إذ كان المعيار الأول في خيارات الاقتراع بالنسبة لـ ١٩% من الناخبين الذي بلغت نسبة المصوتين منهم ٨٦% لبوش)، أما بالنسبة لـ ٢٢% من الناخبين فكان موضوع القيم هو الحافز الأول للاقتراع حيث بلغت نسبة المصوتين من أجله ٧٩% إننا نقلل من شأن الموضوع حينما نقول إن السيد بوش ربح بفضل استثماره للحرب ضد الإرهاب (علماً أن المسألة العراقية لعبت ضد الرئيس المنتهية ولايته، لأن التدخل الأمريكي شكل عامل تعبئة بالنسبة لناخبي السيد كيري) لقد تأكدت أهمية مسألة القيم في نتائج الانتخابات بعد عدة استفتاءات محلية منه، على سبيل المثال، موافقة إحدى عشرة ولاية على الاقتراحات الرامية إلى

منع الزواج المثلي.

في الجوهري، لعب عامل الخوف دوراً كبيراً في ٢ تشرين الثاني من عام ٢٠٠٤، وغالباً ما كان الخوف من الإرهاب وأحياناً من الهجرة، لاسيما الخوف من إحداث تغيرات في المجتمع الأميركي تضيق فيها معالم أمريكا الحقيقية. إن غالبية اليمين اليوم جاءت كرد فعل على عقود من التقدم الاجتماعي والاقتصادي التي كانت أفكار اليسار وراء حصوله. وتعززت مخاوف أمريكا تلك خلال مراحل زمنية قريبة، حيث ألغت المحكمة العليا في عام ٢٠٠٣ قوانين محلية تمنع بعض الممارسات الجنسية، وصدر أمر إلى ولاية ألاباما يقضي بإزالة النصب التذكاري الذي يمثل الوصايا العشر، الذي أرادت الولاية إقامته وكذلك اعتراف محكمة ولاية ماساشوسيت بحق المثليين في الزواج.

السيد بوش أول مرشح يفوز بانتخابات رئاسية حصدت أغلبية الأصوات منذ عام ١٩٨٨، وهو أول رئيس، منذ فرانكلين روزفلت، يكسب مقاعد في الكونجرس في وقت إعادة انتخابه (٤ في مجلس الشيوخ و ٤ في مجلس النواب) وإن كان ذلك يعود إلى إعادة التوزيع الانتخابي المناسب أما جون كيري الذي يتمتع بشخصية مركبة ولامعة ويمثل الوجه المناقض لبوش، فلم يعرف كيف يشكل حول شخصه رأياً يقلقه التغيرات التي يشهدها العالم. وكان جورج بوش أول ابن رئيس يعاد انتخابه مما يعطي سمة تاريخية لهذا الانتصار ولأبعاده.

أمتان تحت أنظار الله:

كلنا رأى تلك الخرائط الانتخابية الأمريكية الملونة بالأحمر والأزرق (الأبيض والأبيض في الخريطة الواردة آخر هذا الكتاب . م .) والتي تبين انقساماً ثنائياً صارخاً، فتبدو لنا الولايات المتحدة بلدين: بلد ذو غالبية ديمقراطية (اللون الأزرق) يقع على الشاطئ الغربي، وآخر ذو غالبية جمهورية (اللون الأحمر) يحتل باقي الأراضي. لكن تبقى هذه القطبية الثنائية محدودة. بعض الحكام وأعضاء الكونغرس تم انتخابهم في الثاني من تشرين الثاني ٢٠٠٤ في الولايات التي صوتت غالبيتها للمرشح ذي الاتجاه المعاكس. ولا تزال هناك عناصر وفاق في الرأي العام الأمريكي (مناهضة للعزلة، الرقابة على الهجرة وغير ذلك)^(١) لكن، من الآن فصاعداً، صار من الواضح وجود أمريكيتين. إذ يكاد يخلو الجنوب من الديمقراطيين حيث لم يبق لهم في مجلس الشيوخ إلا أربع مقاعد من أصل ٢٢ مقعداً تعزى إلى ولايات الكونفيدرالية القديمة^(٢) وتحول الديمقراطيون إلى نوع في طريق التلاشي. في عام ٢٠٠٤ تم إسقاط نائبين ديمقراطيين كانا يقومان بدور الممر بين الحزبين. ويعود السبب في الهيمنة الجمهورية على مجلس النواب إلى سنوات سابقة تم فيها إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية مما أدى إلى ضمان مقاعد لمدى الحياة أو تقريباً. حصل السيد بوش على أغلبية "الذكور البيض" والنساء المتزوجات والمحاربين القدماء وأكثر الأمريكيين تديناً. واستطاع إقناع من حسم قراره أساساً تبعاً للقيم الأخلاقية والإرهاب. الولايات التي صوتت

(١) روبرت سامويلسون: أساطير الاستقطاب، الواشنطن بوست، ٣ كانون ١، ٢٠٠٣.

(٢) انتخبت ولاية لويزيانا في عام ٢٠٠٤ أول سيناتور جمهوري لها منذ أكثر من قرن هو الشاب المحافظ جداً دافيد فيتز (٤٣ عاماً).

له بأغلبية كبيرة هي أقل الولايات إنتاجاً للثروات وتلك التي تتلقى مساعدة واضحة من الحكومة الفيدرالية. وفي هذه الولايات تطبق عقوبة الإعدام تطبيقاً واسعاً وفيها تقل الرقابة على حمل السلاح كما تنذر فيها عمليات الإجهاض. أما بالنسبة للسيد كيري فقد حصل على ثقة غالبية الأفر . أمريكيين (أكثر من ٨٠%) وذوي الأصول الإسبانية والشباب العازبين. كما صوت له أساساً كل من كانت تشغله الهموم الاقتصادية والصحة والحرب في العراق. وأغلب الولايات التي حصل على أصواتها هي ولايات غنية لها مساهمات واضحة في الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٤، في جوانب كثيرة منها، "صراع بين الحضارات".

لم يحدث هذا الانقسام، في الحقيقة على مستوى الولايات إنما على مستوى المقاطعات (comtés) (انظر الملحق ١): لو ابتعدنا قليلاً في تحليل نتائج انتخابات عام ٢٠٠٤ للاحظنا أن الأرياف والمدن الصغيرة والضواحي الجنوبية تعطي أصواتها للجمهوريين، بينما تصوت الأوساط اليمينية للديمقراطيين. وبالتالي فإن الخط يفصل "أمريكا الريف" عن "أمريكا المدينة" على حد تعبير صاغته الأوساط الديمقراطية.

لكن الحال لم يكن دائماً على هذا النحو إذ هيمن الحزب الديمقراطي رداً طويلاً من الزمن على الجنوب بينما كان ينظر إلى الحزب الجمهوري بوصفه تحديثاً. ولم يبدأ الجمهوريون بالهيمنة على الجنوب إلا بدءاً من عام ١٩٦٨. وشهدت جغرافيا الولايات المتحدة الأمريكية تطوراً كبيراً عبر الزمن، لكنها لم تستقر على شكلها الحالي إلا منذ عهد قريب.

في التسعينيات شكلت شخصية بيل كلينتون دفعة بالنسبة لأمريكا المحافظة. ولا يعود السبب في هذا إلى تجاوزه الجنسية فحسب بل، عموماً، إلى استلام جيل ١٩٦٨ للسلطة في البيت الأبيض وهو ما لا يحتمله الأمريكيون المحافظون. إن فترة حكم كلينتون، التي كانت أيضاً فترة انبثاق جيل جديد من المسؤولين السياسيين الجمهوريين ساهمت في ركلة radicalization الاستقطاب الثنائي في أمريكا. يقتضي الأمر إذاً، في تحليلنا لسياسة الولايات المتحدة، أن نتحدث عن الأغلبية الأمريكية. أمريكا التحتانية، أي النخب الثقافية والفنية المألوفة في نيويورك أو في لوس أنجلوس، هي التي صوتت لكيري بينما كانت النخب السياسية والاقتصادية موالية لبوش. ومن الخطأ وضع أمريكا الجمهورية المتدنية في مقابل أمريكا الديمقراطية العلمانية، بل يمكن القول إنه لم تعد هناك أمة واحدة بل أمتان تحت أنظار الله.

على الديمقراطيين التسليم بالأمر الواقع الذي بين أن حزبهم لم يعد قادراً على كسب الانتخابات. والدليل على هذا خسارتهم مؤخراً لخمس انتخابات رئاسية من أصل سبعة. ولاشك في أن الأخطر من هذا، بالنسبة لهم، هو أن الاستطلاعات تقول للمرة الأولى منذ التسعينات أن عدد المنادين بالحزب الجمهوري يتساوى مع المنادين بالحزب الديمقراطي^(١). وبالتالي فهناك أمريكان، لكن أمريكا اليمين هي المهيمنة اليوم بشكل واضح.

(١) ٣٧% من ناخبي ٢٠٠٤ يتماهون مع الحزب الجمهوري، و٣٧% مع الحزب الديمقراطي. بينما كانت أرقام ٢٠٠٠ تشير إلى حصة الجمهوريين بلغت نسبة ٣٥% و٣٩% للديمقراطيين. خمسة عوامل حاسمة، يو إس نيوز أند وورلد ريبورت، ١٥ تشرين ٢٠٠٤، ٢٠٠٤.

جورج بوش، مسيرة رجل أمريكي

خلال فترة رئاسة والده قدم جورج دبليو بوش نفسه إلى العائلة المالكة البريطانية على أنه العضو المزعج في العائلة. هذه البراءة الخاصة بالشخصية تعني الكثير حول الطريقة التي عاش من خلالها هذا الرجل المرحلة الأولى من حياته. لقد عاش السيد بوش مع عقدة الولد البكر^(١) الذي لم يصبه النجاح ما أصاب أخوته في كنف أم تتمتع بشخصية قوية كان دائماً مقرباً منها، وأب كتوم يختلف عنه كثيراً لكنه لامع في عمله فحاول اقتفاء أثره حتى سن الأربعين: إذ انتسب إلى الجامعة نفسها، وعاش البدايات نفسها (وكانت بدايات صعبة) في مجال صناعة البترول. وكانت النزاعات تشوب علاقة الأب بالابن: إذ كان الأب يحبه ويرفضه في آن معاً، ولم يكن الابن يحتمل تلك الصورة الضعيفة التي كانت تلصق أحياناً بالأب حينما كان رئيساً، وأوشك ذات يوم من عامه السادس والعشرين أن يتشابك معه بالأيدي.

لابد من القول إن الميراث كان ثقيلاً. بدءاً بالاسم. لأن الفارق الوحيد بين الاسمين في إخراج القيد يكمن في حذف الاسم الثاني للأب (هربرت). لم يكن جورج ذلك الإنسان الذي وعدته الأقدار بتسلم أعلى المناصب بل أخوه جيب، الحاكم الأصلي لولاية فلوريدا. أولئك الذين عرفوا جورج دبليو بوش حتى دخوله معترك السياسة، يتفقون على القول بأنهم لم يروه أبداً يتصور أن يضعه القدر على مستوى الوطن. ولاشك في أن القوة التي تتمتع بها شخصية هذا الرجل قد تكونت بشكل كبير، بسبب النضال الذي خاضه لتجاوز ذلك الدور المتواضع الذي كان مرسوماً له.

بوش الابن ليس أكثر من تكسائي بالتبني، لكنه تقمص الشخصية التكسائية بشكل طبيعي عجيب. هذا أيضاً، لابد وأن تكون الحاجة إلى التميز عن أصوله العائلية قد لعبت دوراً كبيراً في تطوره. كان آل بوش ينتمون إلى ولاية نيو إنجلاند، ومع ذلك فقد أصبح جورج دبليو تكساسياً حقيقياً بطبيعته. ترسخت شخصيته على مرحلتين. أولاً خلال الفترة الممتدة بين ١٩٨٥ - ١٩٨٦ التي تميزت بعودته إلى الإيمان وبتخليه عن تعاطي الكحول. وشجعه في توجهه الجديد هذا كل من صديقه دون إيفانز والراعي ببلي غراهام، أحد المقربين من العائلة. أما الفترة الثانية فكانت في عام ١٩٩٤ حينما انتخب للمرة الأولى حاكماً لولاية تكساس حيث لم يتوقع أحد، بمن فيهم والده، أن يهزم آن ريتشاردز.

الكثيرون سخرُوا من تلك الدقائق الطويلة التي بدا خلالها جورج دبليو بوش، أمام تلاميذ إحدى مدارس ساراسوتا، وكأنه في حالة ضياع حينما همس مدير مكتبه أندريو كارد في أذنه بأن طائرة ثانية قد تحطمت فوق مركز التجارة العالمي وأن أمريكا تتعرض الآن للهجوم. لكن تلك اللحظة كانت تشهد انتقالاً إلى مرحلة تاريخية جديدة وسبباً في توطد فترة رئاسية أقلعت بكل شيء، واكتمالاً لاشك فيه في بناء شخصية السيد بوش.

ليس من العبث اعتبار غزو العراق بمثابة انتقام شخصي قام به بوش الابن من شخص حاول اغتيال أبيه (في الكويت عام ١٩٩٣)، مما ترك في نفسه صدمة عميقة. لكن ما تجدر الإشارة إليه، على وجه الخصوص، هو أنه ما أن تم تنصيبه في كانون الثاني ٢٠٠١ حتى بدأ بممارسة سياسة شديدة

(١) لجورج بوش (الذي ولد عام ١٩٤٦) ثلاثة أخوة هم جيب (١٩٥٣) ونيل (١٩٥٥) ومارقن (١٩٥٦) وأخت واحدة هي دوروتي (١٩٥٩).

الاختلاف عن تلك التي اتبعها بوش الأب، ومتعارضة تماماً مع تلك التي اتبعها بعد الحادي عشر من أيلول.

جورج دبليو بوش أبعد ما يكون عن الغباء. فالرجل حائز على شهادتين من جامعتي بيل وهارفارد، لكنه ليس مثقفاً: ولا يحب التعقيد وغالباً ما تستند محاجاته على يقينيات أخلاقية. وإيمانه بالحرية، باعتبارها هبة الله إلى البشرية، ورسالة أمريكا التي يجب نشرها في العالم بما في ذلك استخدام الوسائل العسكرية، ليس مصطنعاً. قبل الحادي عشر من أيلول كان بوش يؤمن بنموذجي تشرشل وإيزنهاور، باعتبارهما قائدان عسكريان. وكان واثقاً من نفسه لدرجة أنه كان يسخر من شخصيته ومن صورته. حتى خصومه يعترفون بأنه صادق في اعتبار نفسه "رئيساً لزمان الحرب". وهو أبعد ما يكون عن مجرد دمية تحركه قوى مشؤومة أقوى منه بل صاحب قرار حقيقي. والوفاء الثابت للثقافة السياسية التي تعتقها النخب المحافظة الجديدة يؤكد عموماً أن قراراته ستوضع موضع التطبيق.

إن تاريخاً شخصياً شهد مثل هذا العذاب، وقدرة على بناء شخصية تكسائية صارمة كان من شأنها إيقاع السيد بوش في كراهية النساء وفي المازوشية. لكن ذلك لم يحدث، فكانت علاقاته الأولى مع النساء صعبة، إذ فقد أخته التي تكبره بثلاثة أعوام وهو في السابعة من عمره، وعاش تحت سيطرة أم متسلطة أفاد منها الكثير كما يقال. وعلى هذا فإن علاقاته المهنية مع النساء تبدو أسلم من علاقات الكثيرين من المسؤولين السياسيين الآخرين من أمريكيين وأوروبيين في هذا المجال. ولاشك أن ما يثير الانتباه هو كثرة مستشاريه المقربين من النساء (كارين هوغز، كوندوليسا رايس، هاربيت ماييرز، مارغاريت سبيلينغ). ويبدو أنه يقيم معهن أفضل العلاقات الإدارية والاحترام المتبادل والكثير من الحنان الذي لا تشوبه أية شائبة. من الملاحظ أيضاً أن السيد بوش هو أول رئيس يضع شخصين ملونين (كولين باول، كوندوليسا رايس)^(١) في منصبين هامين لهما علاقة بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية. أضف إلى ذلك تعاطفه الطبيعي مع الجالية ذات الأصول الإسبانية، هو تعاطف لا يبدو مصطنعاً (فهو يخاطبها باللغة الإسبانية). وبما أنه محافظ وتقليدي فقد برهن على قدرته على تجاهل أو تجاوز الفروق البيولوجية والاجتماعية، وهي سمة لم يكن يتصف بها الحزب الجمهوري المعاصر ولا ثقافة الجنوب الأمريكي.

على هذا فإن الرئيس الأمريكي رجل مركب، مدرك لحدوده، لكنه واثق من خياراته ويتمتع بإرادة حديدية. ومساره الشخصي وصلابة قناعاته تدعو إلى الإعجاب وتجد قبولاً لدى عدد كبير من مواطنيه الذين يرون أنفسهم فيه. خلاصة القول إن السيد بوش "رجل أمريكي".

الفصل الثاني: نهضة اليمين الأمريكي^(٢)

دار الحديث خلال فترة حكم رونالد ريغان عن ثورة محافظة تقتصر إلى قاعدة سياسية متلاحمة كتلك

(١) شغل كولن باول، لفترة من الزمن، منصب مستشار أمني للرئيس رونالد ريغان.

(٢) هذا الفصل يشرح الأفكار التي أشار إليها المؤلف في كتابه "الحرب التي لا نهاية لها. أمريكا في الدائمة" باريس، منشورات، سوي، سلسلة "جمهورية الأفكار" ٢٠٠٤، الفصل الأول.

التي يستند إليها السيد بوش. في السابق لم يكن المحافظون الجدد ولا الإنجليون منظمين ومؤثرين كما هم عليه اليوم، وكانت الإدارة آنذاك تواجه معارضة مجلس النواب. من جانب آخر، كانت الحرب الباردة تمنع اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية على نطاق واسع. نظراً لخطر اندلاع نزاع عالمي ثالث كان يمكن أن يكون نووياً، أضف إلى ذلك أن الولايات المتحدة لم تتعرض إلى هجمات تشبه تلك التي أصابها في الحادي عشر من أيلول. أصابت الثورة المحافظة خلال رئاسة ريغان، المجالين الاقتصادي والاجتماعي لكنها لم تصب مجال السياسة الخارجية، إلا إذا اعتبرنا أن سياسة ريغان جعلت من سقوط جدار برلين وانتهاء الاتحاد السوفيتي والشيوعية المناضلة، أموراً ممكنة (وهي خطوة كان يمكن للمحافظين الجدد أن يقوموا بها).

الثورة المحافظة الثانية التي نشهدها اليوم، بدأت قبل عشر سنوات على إعادة انتخاب جورج دبليو بوش، وحقت انتصاراً كبيراً. إذ تمكن الجيل الجديد المكون من تحالف الجمهوريين من ربح انتخابات الكونغرس لعام ١٩٩٤ تحت شعار contract for America "تعاقد من أجل أميركا، بزعامة نيوت غينغريتش. وأدى هذا الانتصار إلى وضع نهاية لعقود من الزمن كان الجمهوريون خلالها أقلية في الكونغرس^(١). هنا بدأت هيمنة النزعة الأحادية الأمريكية التي كان من علاماتها الأولى انسحاب الولايات المتحدة من عمليات الرقابة البحرية على الحصار المفروض على يوغوسلافيا السابقة. وكانت المرة الأولى التي ينسحب فيها أحد أعضاء حلف شمال الأطلسي من المشاركة في العمليات الأرضية. الضباط الذين كانوا على رأس عملهم في تلك الفترة مازالوا يتذكرون تلك اللحظة التي توقف عندها صنوبر المعلومات التكتيكية بشكل مفاجئ، كاشفاً بذلك عن مدى ارتباط الأوروبيين بالأمريكيين في هذا المجال. وهي الفترة التي شهدت توجيه الاتهامات العلنية للأمم المتحدة بشكل صادم في بعض الأحيان. وكلنا يتذكر السخريّة من اسم أمينها العام آنذاك وهو المصري بطرس غالي^(٢). وكانت هذه الأغلبية هي السبب وراء تعبير الولايات المتحدة، منذ عشر سنوات، عن مخاوفها الدائمة من بدايات الضبط الدولي لميادين التحكم بالتسليح وحفظ السلام والعدالة الجنائية وحماية البيئة.

إن ما حقق الانتصار الإيديولوجي للجمهوريين الجدد هو التعزيز المتبادل لتيارين سياسيين جديدي التنظيم هما التيار المحافظ المجدد والتيار الإنجيلي، ونجح هذان التياران، كرد فعل على عالم المتقنين المنحدرين من سنوات الستينات، في استعادة زمام المبادرة الإيديولوجية من خلال مقولتهم "إن اليمين صاحب أفكار" وهي مقولة ناشئة عن اليقينيّات الأخلاقية والتحليلات الجريئة بالنسبة للتيار المحافظ الجديد وشكل التياران، إضافة إلى "التوجه الوطني" الأمريكي الجديد الذي أنعشته أحداث الحادي عشر من أيلول، حلقاً أيديولوجياً شديداً القوة وهو ما يجسده اليوم السيد بوش.

تغير التيار المحافظ الجديد الأمريكي

(١) كان الديمقراطيون يشكلون الأغلبية في مجلس النواب منذ عام ١٩٥٤، وفي مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٦٠

(باستثناء الواقعة بين ١٩٨٠. ١٩٨٦.

(٢) في الاجتماعات العامة وعلى شاشات التلفزة كان البعض يسخرون من اسم غالي فينادون: "بوووو . طرس . بوووو . طرس . غالي".

شهدت نهاية الأربعينيات بداية احتجاج التيار المحافظ التقليدي الجديد في مجال السياسة الخارجية، لاسيما من خلال أعمال جيمس بونهارم، الذي ساهم مع ويليام بوكلي في تأسيس مجلة National Review. وتضمنت كتب بورنهام الثلاثة التالية: الصراع على العالم (1974, the struggle for word)، (الهزيمة القادمة للشيوعية the coming defeat of communism)، (١٩٥٠)، واحتواء أم تحرير (1953, containment or liberation)، تضمنت نقداً لعقيدة الاحتواء لأن الهدف، من وجهة نظره، ينطوي على تحرير الاتحاد السوفياتي وطرد الشيوعيين من الصين. وهذا ما ترك تأثيره على القرارات الرئاسية التالية (١٩٤٩) . Nsc - 48 Nsc - 1949 - 8 (1950).

لم يتكون التيار المحافظ الجديد إلا في وقت متأخر، وكان نشوؤه تطوراً ذاتياً للديمقراطيين المحبطين، وأحياناً كان مصدره اليسار التروتسكي المتطرف والمتقنين الذي ضاقوا ذرعاً بثقافة الستينات، واليهود المتأثرين بالحرب الإسرائيلية. العربية عام ١٩٦٧ والداعين إلى اتخاذ موقف متشدد إزاء الاتحاد السوفياتي، إضافة إلى طائفة الحذرين من الأمم المتحدة^(١). أما في السياسة الداخلية فتراهم يهاجمون اتجاه المساواة الثقافية، لكنهم يفترون عن اليمين التقليدي حول مسائل دولة العناية الإلهية (وفي هذا يهاجمون المبالغة في هذا الأمر)، والهجرة (التي يرون فيها عامل حيوية لأمريكا) والزواج (حيث يعارضون وضع توصية دستورية تعارض الزواج المثلي).

لقد تشكل تيارهم فكرياً بفضل إيرفينغ كريستول ونورمان بودوريتز من خلال مجلتي the public commentary interest. ورؤيتهم تتعارض مع الواقعية التي يمثلها هنري كيسنجر الذي يعدونه وقحاً وأعمى أخلاقياً فشنعوا عليه، مع أنه كان الوجه الرمزي للواقعية السياسية الأمريكية إبان فترة الحرب الباردة، حيث كان مفهومه للسلام من خلال توازن السلطات يعارض بشكل جذري مفهومهم القائل بتحقيق السلام من خلال التوافق الأخلاقي. ولذا فقد نبذ القائلون "بالعصر الأميريكي الجديد" رؤية هذا المتشائم المقتنع بانحدار الولايات المتحدة.

هناك رجلان هامان سهلا تسرب المحافظين الجدد إلى دوائر القرار هما الاستراتيجي ألبرت وولستيتز والسيناتور الديمقراطي هنري جاكسون. بعد دخولهم إلى إدارة ريغان ساهم المحافظون الجدد (لاسيما إليوت أبرامز وبول وولفويتز) في إعادة توجيه سياسة ريغان نحو دعامه الديمقراطية في آسيا (أندونيسيا، الفلبين، كوريا الجنوبية..) وفي أمريكا اللاتينية.

مع انتصار الجمهوريين في عام ١٩٩٤ قامت الحركة بتنظيم نفسها لخوض الانتخابات الرئاسية لاسيما مع تأسيس مركز بناك (PNAC) Project for a new American century مشروع من أجل عصر أمريكي جديد^(٢) في السنة التالية. وقام كل من ويليام كريستول وروبيرت كاغان بنشر بيان هذا المعهد عام

(١) تمت صياغة مصطلح "المحافظ الجديد" من قبل مايكل هاريمان في مجلة dissent. أما جوشوا مورافشيك وريتشارد بيرل وغاري سميث وجيمس وولسي فكانوا دائماً يقولون عن أنفسهم بأنهم ديمقراطيون. بعض الوجوه التاريخية لهذه الحركة كانت تختلف كثيراً قبل وجود الكاثوليكي المتشدد ويليام بينيت الذي شغل منصب وزير التربية في عهد ريغان، وهو من المتحزبين المتحمسين لمقولة "الوضوح الأخلاقي".

(٢) يقول كريستول رئيس هذا المركز "هو منظمة ترويجية غير ربحية هدفها دراسة بعض المقترحات الجوهرية: السلوك الأمريكي هو سلوك جيد لأمريكا وللعالم، وهو سلوك يقتضي القوة العسكرية والطاقة الدبلوماسية

١٩٩٦ الذي تضمن أطروحات رئاسة بوش الأساسية: رفض مقولة انحدار الولايات المتحدة الأمريكية، إعادة تقييم الأدلة العسكرية، وضع نهاية لمجاملة الديكتاتوريات، الوضوح الأخلاقي، تشجيع الهيمنة المتسامحة^(١)، والبيان يستشهد بالتوجيه الرئاسي (١٩٤٨ . ٦٨ . nsc) الذي يؤكد على ضرورة المحافظة على التفوق في كل الميادين. ورعى هذا المركز PNAC تحضير الرسالة المفتوحة التي وجهت إلى كلينتون (١٩٩٨) وجعلت من تغيير النظام في بغداد مشروعاً رسمياً للولايات المتحدة بعد أن صيغت على شكل قانون تحرير العراق Iraq liberation، وحملت هذه الرسالة توقيع خمسة عشر شخصاً سيضطلعون بمسؤوليات في إدارة بوش أو سيعتمدون كمستشارين مقربين من هذه الإدارة^(٢).

يصعب تمييز المحافظ الجديد عن غيره لأن المنتمين إلى هذه الحركة لا يعترفون دائماً بذلك الشعار الذي أُلصق بهم. على أية حال، المحافظون الجدد الذين يقرون بهذا الانتماء ليسوا كثيرين^(٣) لكنهم أبطال العمل على شبكة الإنترنت Net working^(٤).

معظمهم الأساسي هو (American Enterprise institute (AEI)، وهو مؤسسة قديمة أنشئت عام ١٩٤٣ وساهمت بتشكيل سياسة رونالد ريغان. حينما كان هذا المعهد برئاسة كريستوفر دي موث ضم في صفوفه عدداً كبيراً من الشخصيات المنتمية إلى التيار المحافظ الجديد مثل لين تشيني (زوجة نائب الرئيس ديك تشيني) وتوماس دونلي ودافيد فروم ونيوت غينغرش وجان كيركباتريك ومايكل ليدن (من قدامى العاملين في إدارة ريغان ومقرب جداً من البيت الأبيض) وجوشوا موراكوفيتش وريتشارد بيرل (الذي لم يعد يشغل أي منصب رسمي منذ صيف عام ٢٠٠٤) ودانييل بليتكا، مايكل روبن ووليام شنايدر وجيمس ويلسون.

مركز "مشروع من أجل قرن أمريكي جديد" هو مؤسسة أحدث من معهد أميركان أنتريرايز وأكثر منه تواضعاً، يرأسه ويليام (بيل) كريستول ويديره غاري شميت^(٥) لكنه يمسك بزمام استراتيجيات التأثير السياسي. انتقل مشعل التيار المحافظ الجديد إلى بيل كريستول من أبيه الذي كان أحد المنادين الرئيسيين بهذا التيار. ووظيفته المزدوجة كرئيس لمركز PNAC ومدير لمجلة ويكلي ستاندار الأسبوعية جعلت له تأثيراً خاصاً (يقع البناء الذي يحمل الرقم ١١٥٠ في الشارع ١٧ على مسافة خطوتين من البيت الأبيض

والالتزام بالمبدأ الأخلاقي...). المترجم.

(١) وليام كريستول وروبيرت كاغان: نحو ريغانية جديدة في السياسة الخارجية، مجلة فورن أفيرز، عدد تموز . آب ١٩٩٦.

(٢) رسالة ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٨ حملت توقيع كل من: إليوت أبرامز، ريتشارد أرميتاج، جون بولتون، فرانسيس فوكوياما، روبرت كاغان، زالماي خليل زاد، وليام كريستول، ريتشارد بيرل، بيتر رودمان، دونالد رامسفيلد، جيمس وولسي، بول وولفويتز، روبرت زولبيك.

(٣) بعض شخصيات هذا التيار هم شبه مجهولين في أوروبا لأن اهتماماتهم تتركز على القضايا الاجتماعية والثقافية مثل دافيد هورفيتز الذي يدير مجلة Front Page ويرأس مركز Center For the study of Popular Culture.

(٤) دانييل فراشون وآلان فيرنيه: أمريكا المسييائية. حروب المحافظين الجدد، باريس منشورات سوي، ٢٠٠٤، ص ١٤١.

(٥) القادة الآخرون لمركز PNAC هم: روبرت كاغان، بروس جاكسون، مارك غيرسون وراندي شوينمان.

ويشكل ساحة قوية لسلطة واشنطن الفكرية اليوم، إذ تجد فيه مقرات كل من AEI, PNAC, weekly Standard إضافة إلى مركز الأمن السياسي security policy الذي يرأسه فرانك غافني، المساعد السابق لريشار بيرل في البنتاغون أيام رئاسة ريغان، ويتميز نشاط هذا المركز في المسائل العسكرية.

كثير الحديث عن تأثير الفيلسوف ليفي شتراوس على التيار المحافظ الجديد. صحيح أن هذا الفيلسوف أكد على أن "الحاجز الوحيد الذي يمكن للغرب الوثوق به قليلاً هو حاجز الخوف الذي يعيش عليه الطاغية من القوة العسكرية الضخمة"^(١). والفكرة القائلة بأن الديكتاتوريات والدول المارقة تعمل وفق أنظمة قيم تختلف عن المنظومات المعمول بها في الغرب، يمكن أن تتفق مع فكرة شتراوس. غير أننا لن نجد الجذور الفكرية للاستراتيجية الأمريكية إلا إذا غصنا بعيداً في فكر هذا الفيلسوف. أخذ إيرفينغ كريستول على شتراوس معارضته للحدثة وحنينه إلى الماضي؛ أما مايكل ليدين فيستلهم أفكار ماكيافيللي التي فضل شتراوس عليها أفكار أرسطو (الذي يضعه كريستول في طليعة العدميين)؛ أما ألبير وولستينر فقد كان تلميذاً لفيلار فان أورمان كاين Quine صاحب الفكر المعارض لفكر شتراوس. ويجب ألا ننسى أن شغف المحافظين الجدد بالدفاع عن القيم الأمريكية لم يكن من السمات المميزة لفكر شتراوس. أخيراً، نشير إلى أن رؤية شتراوس الوقحة والأنانية للسياسة الخارجية الأمريكية تذكر بالجاكسونية (نسبة إلى الجنرال أندرو جاكسون الذي أصبح لاحقاً رئيساً للولايات المتحدة) يتبناها المحافظون الجدد في بعض الأحيان.

يبقى أن درس الفلسفي، سواء أ جاء من شتراوس أو من تلميذه اللامع آلان بلوم، قد لعب دوراً في تأهيل التيار المحافظ الجديد. ولابد من الإشارة أيضاً إلى فكر ألكساندر كوجيف الذي كان يرى في التجربة الأمريكية نموذجاً "ما بعد تاريخي" هدفه إشباع الحاجات البشرية ومنها التفوق، وسيؤكد تفوقه على الاتحاد السوفياتي. وقد تأثر فرانسيس فوكوياما، تلميذ بلوم، بأفكار هيجل المتعلقة بموضوع "نهاية التاريخ"^(٢).

هل إدارة بوش محافظة جديدة؟

يمكننا تبين تأثير التيار المحافظ الجديد على السياسة الأمريكية من خلال بعض المواضيع:

* التنكير بسنوات الثلاثينات من قبل المؤيدين للحرب على العراق والتدريج بها.

. تكرار السيد بوش لمقولة "الوضوح الأخلاقي".

* التأكيد الملموس في نص استراتيجية الأمن القومي National Security Strategy الصادر في أيلول من عام ٢٠٠٢، على أن القرن العشرين قد شهد الانتصار الحاسم للديمقراطية الليبرالية في

(١) ليو شتراوس: المدينة والرجل، مطبوعات جامعة شيكاغو، ١٩٧٨، ص ٤ . ٥.

(٢) كانت جامعة شيكاغو بوتقة جمعت وأهلت العديد من المحافظين الجدد، حيث قام بالتدريس فيها كل من ليو شتراوس، آلان بلوم، ألبيرت وولستينر، ومن تلاميذهم نذكر: أحمد الشلبي، زالماني خليل زاد، أبرام شولسكي وبول وولفويتز.

معركة الأفكار^(١).

* خطاب ريغان في تشرين الثاني ٢٠٠٣ حول "الثورة الديمقراطية العالمية". (مدح جورج دبليو بوش رونالد ريغان منذ عام ١٩٩٩ وأكد على أن العالم كان يتضمن "تياراً" أو "إدارة تعمل لمصلحة الديمقراطية"^(٢)). في كانون الثاني من عام ٢٠٠٤ كان نائب الرئيس ديك تشيني يصر على أن "رياح التاريخ تهب في اتجاه الحرية البشرية"^(٣).

التقى المحافظون الجدد في المكان والزمان المناسبين. لكن من غير الممكن اختزال السياسة التي اتبعتها السيد بوش بمجرد وضع الأطروحات المحافظة الجديدة موضع التنفيذ، إذ قد ينسبنا هذا أن المسؤولين الرئيسيين الخمسة عن سياسة البلاد الخارجية خلال الفترة ٢٠٠١ - ٢٠٠٤ (بوش، تشيني، رايس، بول ورامسفيلد) لم يكونوا منتمين إلى تلك الحركة المحافظة الجديدة^(٤). وعدد من يمكن تسميتهم بالمحافظين الجدد ليس كبيراً في كنف الإدارة نفسها، لأن أحداً منهم باستثناء بول وولفويتز، لم يتسلم أية مسؤولية حكومية هامة^(٥). مع ذلك لا بد من ذكر أسماء كل من: ليويس ليبى (مدير مكتب ديك تشيني)، إليوت أبرامز (مسؤول ملف الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي)، زالمان خليل زاد (السفير الأمريكي الحالي في أفغانستان)، دوغلاس فيث (مدير الشؤون السياسية في وزارة الدفاع والمدافع الشرس عن سياسة حكومة شارون) والعديد من مساعديهم، أخيراً باولا دوبريانسكي (المكلفة بما يسمى: الشؤون "الشاملة" في وزارة الخارجية).

ينبغي ألا ننسى تأثير المتعصبين وطنياً على السياسة الأمريكية مثل السيدين تشيني ورامسفيلد إضافة إلى التيارات المنحدرة من الحركة الإنجيلية البروتستانتية (التي تتحمل مسؤولية كبيرة في دعم واشنطن لحكومة شارون).

في النهاية علينا ألا نستعين بدور السيد بوش نفسه الذي تعززت سلطته الشعبية من خلال دوره كقائد حربي. وبوش هذا لم يتبن دائماً أفكار ريتشارد بيرل أو بول وولفويتز، كما أن المحافظين الجدد وجهوا انتقادات إلى سياسة الإدارة إزاء الصين أو دعمها للأنظمة السلطوية مثل نظام المملكة العربية السعودية.

هل التيار المحافظ الجديد زائل أم مؤبد؟

هل سبتعد ولاية بوش الثانية عن التيار المحافظ الجديد^(٦)؟. برهنت أحداث العراق على أن التفاؤل

(١) انتصار حاسم لقوى الحرية. ونموذج وحيد ودائم للنجاح الوطني: الحرية والديمقراطية والشركات الحرة:

The national security Strategy of the united states, September, 2002, introduction.

(٢) In distinctly American internationalism; Roland Regan Presidential, Simi Bailey, 19 November 1999.

(٣) Remarks by the Vice president to the word economic foru; Davos, 24 Janvier 2004.

(٤) غالباً ما قدم جون بولتون، المكلف بنزع الأسلحة وعدم انتشار أسلحة الدمار الشامل في وزارة الخارجية، قدم على أنه من المحافظين الجدد في الوقت الذي ينبغي إلحاقه بمدار التوجه الوطني.

(٥) وصف فوكوياما فكر وولفويتز على الخلاصة أفكار شتراوس وولستيتير. مقابلة تم الاستشهاد بها في كتاب "أمريكا الميسائية" مرجع مذكور سابقاً.

(٦) سبق وأن شرحت هذه المسألة في مقالتي "ما الذي بقي من التيار المحافظ الجديد؟" مجلة النقد الدولي، ت ١ ، ٢٠٠٤.

المفرط الذي اتسم به التيار المحافظ الجديد خلال السنوات الأخيرة كان في غير محله. فرانسيس فوكوياما، رفيق درب الحركة، بدأ نقاشاً دان فيه ما اتسم به مشروع تيار المحافظين الجدد من طموح مبالغ فيه^(١). زد على هذا المشاكل الشخصية التي يعاني بعضهم منها (استقالة ريتشارد بيرل من رئاسة لجنة السياسة الدفاعية Defense policy Board في عام ٢٠٠٣، والصعوبات التي يواجهها الصحفي الكبير كوزناد بليك...) ودعمهم الأعمى لأحمد الشلبي لما أثارت شخصيته من جدل واعتبار سقوطه في حيزران من عام ٢٠٠٤ بمثابة ضربة ترمز إلى فشل هذا التيار.

المحاكمة التي يخضع لها اليوم التيار المحافظ الجديد ظالمة إلى حد ما. إذ من الصعب تحميله مسؤولية مباشرة عن الأخطاء التي ترتكبها وزارة الدفاع في العراق، وكانت تلك الوجوه الباردة توجه النقد إلى رامسفيلد لأنه لم يحضر للغزو باستخدام الوسائل اللازمة ولأنه لم يهتم كثيراً بمرحلة إعادة إعمار البلاد. بعض تلك الوجوه، مثل غاري شميت، توقعوا أن تحتاج الولايات المتحدة إلى عقد من الزمن لتحقيق النجاح في الشرق الأوسط. وبالتالي فإنه من التعقل الانتظار عدة سنوات قبل إصدار حكم نهائي على أطروحات المحافظين الجدد.

أخيراً يقتضي الأمر إعادة وضع التأثير المحافظ الجديد في إطار أوسع. كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن القوى الإيديولوجية التي حررتها أحداث الحادي عشر من أيلول لن تتوارى في وقت قريب. ولاشك أن المحافظ الجديد توم ليندبرغ كان محقاً حينما أكد "أن ١١ أيلول غير الفكر الاستراتيجي الأمريكي لعقد قادم من الزمن"^(٢). تسربت فلسفة الحرب على الإرهاب ومفرداتها إلى مجمل السياسة الأمريكية، وهناك مثقفون ليبراليون عبّؤوا أنفسهم ضد ما يعدونه شمولية جديدة^(٣). وعاد موضوع "ربط الإسلام بالفاشية" إلى الأوساط الديمقراطية وتبدو بعض الشخصيات مثل ريتشارد هولبروك وجوزيف ليبرمان، في بعض الأحيان أقرب إلى المحافظين الجدد منهم إلى عائلتهم السياسية الأصلية. وقد تحدث المعلق ويليام بفاف، في معرض تعليقه على تعليمات زيغنيو بريجنسكي حول السياسة الخارجية، بقوله إن سياسة بوش تحمل وجهاً إنسانياً^(٤). الديمقراطيون لا يرفضون أبداً العمل العسكري وحيد الجانب لصيانة أمن الولايات المتحدة الأمريكية^(٥). إذ قام جون كيري، خلال حملته الرئاسية، بهجوم صارخ على الوهابية السعودية، وفي معرض حديثه عن التهديد الإسلامي ذكر "الصدام بين الحضارة والفوضى"^(٦) وتبنى تعبير "الحرب العالمية على الرعب" مع أن هذا التعبير ينتمي إلى الفكر المحافظ الجديد وسياسة بوش^(٧).

(١) فرانسيس فوكوياما: زمن التيار المحافظ الجديد، مجلة ناشيونال انترست، صيف ٢٠٠٤، ورد تشارلز كروثهامر في مقالته "دفاعاً عن الواقعية الديمقراطية" مجلة ناشيونال انترست، خريف ٢٠٠٤.

(٢) مداخلة في المؤتمر السنوي للمركز الفرنسي حول الولايات المتحدة، باريس كانون أول ٢٠٠٣.

(٣) بول بيرمان: الرعب والليبرالية، ديليو نورتون، ٢٠٠٣، وانظر أيضاً: فراشون وقيرنيه: مرجع مذكور، الفصل ١٣.

(٤) ويليام بفاف: رسالة أميركا the new york review of box، ٨ نيسان ٢٠٠٤.

(٥) سامويل ر. بيرغر: "سياسة خارجية من أجل رئيس ديمقراطي"، مجلة الشؤون الدولية، أيار - حزيران ٢٠٠٤.

(٦) Fighting comprehensive war on terrorism, 24 feb, 2004.

(٧) خطاب أمام المؤتمر الوطني الديمقراطي لعام ٢٩، ٢٠٠٤ تموز ٢٠٠٤.

بشكل أعم هناك عدة محللين يقولون إن الاستراتيجية التي اتبعتها بوش خلال ولايته الأولى، والتي هي أبعد ما تكون عن الاستثناء في التاريخ الأمريكي، تشكل في الحقيقة عودة إلى المعيار، بينما التعددية التي دشنها روزفلت تبدو بمثابة خروج على القاعدة ^(١) من جانب آخر، تبقى الأطروحات المحافظة الجديدة ممثلة في الكونغرس الذي نعرف مدى تأثيره على السياسة الخارجية الأمريكية (لنتذكر أن السياسة الخارجية التي اتبعتها كلينتون خلال ولايته الثانية كانت خاضعة للتأثير الجمهوري). نشير أخيراً إلى أن التيار المحافظ الجديد لم يتضح في السياسة الخارجية فقط، بل اتسع ليعيد النظر، مثلاً في "النسبية الثقافية" التي تميز بها التعليم الجامعي منذ الستينات.

على هذا لا بد من الحذر إزاء التشخيصات المسبقة لغروب شمس هذا التيار. أولم نخطئ حينما دفناه أول مرة قبل عشرة سنوات تقريباً ^(٢)؟ ونعيد اليوم ما سبق وقلناه في تلك الفترة بأن التيار المحافظ الجديد أنجز رسالته ولم يعد له مكان باعتباره تياراً فكرياً مستقلاً: من الآن فصاعداً أصبحت أفكاره مهيمنة في كنف اليمين الأمريكي ^(٣). من جانب آخر، بعثت استقالة كولين باول، أحد مسؤولين الإدارة النادرين الذين عارضوا الأفكار المحافظة الجديدة، السرور في قلوب جماعة هذا التيار.

اليمين التقليدي وشبكاته

إن غموض حدود التيار التقليدي يعني أنه لا يشمل في مجمل الحركة الفكرية المحافظة. اليوم تشهد الساحة تيارين أقلبيين: التيار الانعزالي الذي يقوده كل من المرشح السابق للانتخابات الرئاسية بات بوشانون القريب من اليمين المتطرف وجماعة معهد كاتو الإباحيين (أي المطالبين بالحرية الفردية المطلقة). وتيار الواقعية الذي تجسده وصاية هنري كيسنجر الذي ما يزال مستمراً في نشاطه المهني على الرغم من تجاوزه الثمانين من عمره. في المقابل هناك "الحركة الوطنية" التي تسير بنجاح ويمثلها في الإدارة الأمريكية كل من تشيني ورامسفيلد وهما من رجال الحرب الباردة اللذين نيوان الاستمرار في هذه الطريق.

يرتبط اليمين التقليدي بثلاثة من مراكز التفكير think tanks هي: معهد هيدسون المرموق ومؤسسة هيريتاج المتشبثة بالتفكير الريعاني ومعهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد. أما المجالات الكبرى التي يملكها اليمين فهي: National Review, National interest, Policy Review على الرغم من مغازلة المجلتين الأخيرتين للتيار المحافظ الجديد أخيراً لا بد من الإشارة إلى لوبي اليمين الكلاسيكي المعروف باسم American Conservative Union (الاتحاد الأمريكي المحافظ).

من بين مثقفي اليمين الأكثر تأثيراً اليوم وغير المنتمين بشكل واضح إلى الحركة المحافظة الجديدة هناك برنار لويس الذي يحظى برضى البيت الأبيض من خلال أبحاثه في أسباب الفشل الذي أصاب

(1) Adam Wolfson: 9/11, and all that, Short Big – think books on how everything has changed. The weekly standard, 26 apr. 2004.

(2) John B. Judis, Trotskyism to Anachronism; the new conservative revolution, Foreign Affairs juillet –aout 1995.

(3) Irving Kristol, Neo – conservatism, the autobiography of an idea (New York: Free Press, 1995); Norman Podhoretz. "Neo – conservatism m: a Eulogy" Commentary mars 1996.

الحضارة العربية . الإسلامية^(١) والمؤرخ فيكتور دافيس هانسون، الذي يعزو التفوق العسكري الغربي لأسباب ثقافية والخبير العسكري إليوت كوهين، صاحب تعبير "الحرب العالمية الرابعة". ويقال أن جورج دبليو بوش قرأ أفكاره المتعلقة بالعلاقات بين المدنيين والعسكريين^(٢)؛ والفيلسوف لي هاريس الذي يرى في الاتجاه الإسلامي المقاتل تهديداً لأسس الحضارة الغربية^(٣)، هذا بالإضافة إلى اثنين من أشهر المتقنين الأمريكيين هما صامويل هانتنتغتون وفرانسيس فوكوياما. لقد ركز هانتنتغتون، بعد أن شرح موضوع "صدام الحضارات" (وهي فكرة سبقه إليها برنار لويس) على موضوع الهوية الأميركية في كتاب مثير للجدل والقلق حيث يقول: "إن الهجرة الأسبانية ستقود إلى تهديد الأسس التي تقوم عليها ثقافة البلاد" أما فوكوياما فقد ظل ينتمي كما قلنا، بشكل أو بآخر، إلى الحركة المحافظة الجديدة حتى انفصل عنها عام ٢٠٠٤ بعد توجيه النقد إلى أوهام زملائه ومغالاتهم.

التيار المحافظ الجديد ظاهرة إعلامية أيضاً. وفي هذا لابد من الإشارة إلى كتاب الافتتاحيات مثل شارلز كراوثرهامر في الواشنطن بوست وويليام سافير في نيويورك تايمز. يمكن النظر إلى وجهات نظر الأول على أنها ذات مصداقية عالية إلى حد ما، فهو يدافع بحماسة عن خط وسط بين الواقعية وبين التيار المحافظ الجديد ("الواقعية الديمقراطية")، وهو ما لا ينطبق على الثاني (تقاعد عام ٢٠٠٥) الذي ساهمت مقالاته في تشويه صورة فرنسا في الولايات المتحدة الأميركية بناء على شائعات مشبوهة وأبواق مثقوبة. ونضيف تلك المدافعة العنيفة الجمهورية آن كوتلر ومات دراغ. وفي قعر سلة المهملات هذه نجد الوجه الخفي راش لايمبو Rush Limbaugh الذي يتمتع بانتقاداته الإذاعية الصارمة ملايين المستمعين.

ما كان يمكن لتلك الأفكار التي تنتشرها الشبكات الجمهورية أن يكون لها مثل هذا الدوي لولا الدعم الإعلامي القوي. والدعم غير المشروط للتيار المحافظ الأمريكي الجديد وللسياسة الأمريكية الحالية من قبل مجموعتين إعلاميتين وهو ما يؤكد على وجود شيء من الثقافة الأنجلو . ساكسونية: المجموعة التي يديرها الأسترالي روبرت مردوخ (صاحب قناة فوكس)، والثانية صاحبها كونراد بليك، وهو من أصل كندي^(٤)، وهناك مجموعة يقودها شون ميونغ مون، الذي يسيطر بشكل خاص على صحيفة الواشنطن بوست ووكالة الصحافة المسماة يوناييتد برس انترناشيونال، والتي يقيم معها جورج بوش الأب أروع العلاقات ويمدها بدعم كبير. يضاف إلى ذلك مجموعات أخرى أقل شهرة وانتشاراً هي شبكات Net Works الأمريكية التي تجمع عشرات وسائل الإعلام المحلية وتتمتع بقدرة تأثيرية لا يستهان بها. ولابد من الإشارة إلى مجموعة Sinclair Broad Cast التي تبث اثنتين وستين قناة كلها تقف وراء سياسة الرئيس بوش وينشط اليمين المسيحي، من جانبه، بشكل خاص في وسائل الإعلام السمعية . البصرية مثل شبكة كريستيان

(1) Bernard Lewis, *What Went Wrong. Western Impact And Middle Eastern Response*, Oxford, Oxford University Press, 2001.

(2) Eliot Cohen, "World War IV", *The Wall Street Journal*, 20 November 2002.

وفيه يشبه الحرب على كانت فترة الحرب الباردة، المرجع السابق الإرهاب بحرب عالمية جديدة، على اعتبار أن الحرب العالمية الثالثة.

supreme command. *Solders, statement and leadership in Wartimes*, New York, Free Press, 2002.

(3) Lee Harris, *Civilization and its enemies. The next stage of history*, New York Free Press, 2002.

(4) في عام ٢٠٠١ ترعرع كونراد بليك فوق المراعي البريطانية وتنازل عن جنسيته الكندية، ومجموعته في طريق التفقت.

برود كاستينغ نيتوروك (CBN) التي يملكها روث باترسون وترينيتي كاستينغ نيتوروك (TBN) التي يملكها الأخوان كروش.

انتصار الإنجيليين

لم يسبق للإنجيليين أن تمتعوا بالقوة التي يتمتعون بها اليوم في السياسة الأمريكية. فما هي الإنجيلية يا ترى؟ أصبح التيار الإنجيلي حركة قوية في أمريكا عند منتصف القرن التاسع عشر ونشأت عنه فروع أخرى للبروتستانتية مثل تيار عيد الحصادين (عند اليهود) Pentecotisme في بداية القرن العشرين. في تلك الفترة برز مصطلح الأصوليون "fundamentalistes" ودخل في اللغة الدارجة عام ١٩٢٠ لا في مقابل مصطلح "الحداثيون" modernists أي نسخته المعاصرة التي انشقت عن البروتستانتية الليبرالية للكنائس التقليدية. وبما أن الكنيسة الإنجيلية تطورت من خلال الوعظ الجماهيري ووسائل الإعلام الحديثة فإنها تتجسد اليوم في كنيسة (Southern Baptist Convention) (جمعية الجنوب المعمدانية) التي تعد أول كنيسة بروتستانتية أمريكية. وبالمناسبة فإن الكنائس البروتستانتية وحدها التي وقفت إلى جانب الحرب على العراق، وهي تضم نصف الـ ٣٥ مليون معمداني أمريكي.

الكنيسة الإنجيلية الأمريكية بنسختها الراديكالية والتي تزداد قوتها اليوم تقترح قراءة حرفية للتوراة وتعلن عن نهاية الزمن. ومن مصادر إلهامها العقيدة الغفرانية Disensationnalisme التي نشأت في تكساس إبان القرن التاسع عشر وما تزال تدرس اليوم في المؤسسات الدينية الجنوبية في الولايات المتحدة المعروفة بتشدد البروتستانتية Bible Belt. إذا صدقنا هذه العقيدة، التي تعود إلى آلاف السنين، والمستوحاة من الراعي جون نيلسون درابي، فنحن اليوم نعيش مرحلة الغفران السادس وما قبل الأخير الذي سينتهي بحرب تستمر سبعة أعوام يخوضها المسيح الدجال في معركة هارميجدون^(١) (على عكس الاتجاه التقليدي لدى البروتستانت الكاثوليك، القائل بما بعد الألفية، فإن الغفران يرى أن رجعة المسيح أو الحث الثاني سيسبق حكم المسيح الذي سيستمر ألف عام) ويترتب على هذا الدعم اللامحدود لإسرائيل لأن النبوءات تقول بعدم إمكانية تحقق هذه الرجعة إذا لم تضع دولة إسرائيل يدها على كافة الأرض الموعودة. ومن هنا نشأت "الصهيونية المسيحية" التي أوحى بها، في القرن التاسع عشر، اللاهوتي سايروس سكوفيلد وجسدتها بعض المنظمات المناضلة:

- International fellowship of Christian and Jewx
- Christian for Israel
- Christian action for Israel
- International Christian for Israel
- Apostolic congress

وهي منظمات يتخطى نجاحها حدود التيار الإنجيلي، وتأتلف غالبيتها في "الاتحاد الوطني للتحالف من أجل إسرائيل" National unity coalition في ولاية كنساس ويضم مائتي منظمة يهودية ومسيحية ويزعم أنه يمثل أربعين مليون أمريكي.

(١) ستنتهي هذه المعركة بنجاة قسم من اليهود (١٤٤٠٠٠) بالتحديد) أما الآخرون فمصيبرهم الفناء إلا إذا آمنوا بيسوع المسيح.

تتفاوت التقديرات حول عدد الإنجليين فهناك ما نسبته ٤٠% إلى ٤٥% من البالغين، أي ما يعادل ٨٠ مليون شخص يقولون إنهم عاشوا تجربة "الانبعاث" أو أنهم إنجلييون "التيار الإنجليي، في حد ذاته، يمثل على الأقل من ٢٥ . ٣٠% من عدد السكان البالغين، أي من ٥٠ إلى ٦٠ مليون أمريكي^(١) ينضون في إطار الرابطة الإنجيلية التي يمثل اتجاهها الراديكالي بين ٣٠ و ٥٠ من هذا الطيف.

نجاح التيار الإنجليي يعود بشكل كبير إلى التطور الذي شهده المجتمع الأمريكي خلال النصف الثاني من القرن العشرين مثل: تحديث الجنوب وتطور الدولة الفيدرالية وديونية المؤسسات. ويستند إلى قلق السكان المرعوبين من فقدان نقاط العلام الكفيلة بتحديد دربهم. أغلب الناس لا يفهمون معنى النزعة الإنسانية Humanisme فعلاً، ويرون فيها دماراً للثقافة والعائلة والبلد، ويعتقدون أنها ستأتي ذات يوم على العالم كله [..]. وأن شروور العالم كلها تكمن في النزعة الإنسانية التي استولت على الحكومة وعلى الأمم المتحدة والتربية والتلفزيون [..]. ويرى المناضلون الإنجلييون أن "البلد سيكون على وشك تدمير نفسه". وقلق الذكور من الشعب الأمريكي أمام الاحتجاج على معالم هدايته التقليدية (غياب النموذج الأبوي وتأكيده المساواة بين الجنسين)، يشكل بلا شك جزءاً من الأسباب العميقة الكامنة وراء النجاح الإنجليي. وحركة حماة العهد Promise Kippers التي نظمت خلال التسعينات بضعة أكبر التظاهرات العامة التي شهدتها التاريخ الأمريكي، تعد حركة فريدة في نوعها ضمن هذا المسعى.

الحركة الإنجيلية السياسية هي مسعى احتجاجي ورجعي في الوقت نفسه ويعود السبب في قيامها إلى التخلي عن الحتمية التقليدية التي تؤمن بها جماعة ما بعد الألفية postmillénarismes وهي جزء من حركة أوسع هي حركة "الصحة الدينية" التي تتجاوز مجرد رد الفعل الدفعي عند مسيحيي الجنوب^(٢) يمكن تأريخ هذه الحركة بدءاً من تأسيس جماعة الأغلبية الأخلاقية Moral Majority المستلهمة من بول فيريش عام ١٩٧٩ ويقودها جيرى فالويل الذي وقف إلى جانب ترشيح رونالد ريغان. هناك مرحلة ثانية هامة بدأت مع تأسيس حركة التحالف المسيحي Christian coalition من قبل بات روبرتسون ووالف ريد في عام ١٩٨٩ الذي وضع التيار الإنجليي في منطقة نفوذ الجمهوريين. ويدين نجاح التيار الإنجليي المناضل بالكثير إلى بعض الوجوه البارزة:

- بات روبرتسون رئيس التحالف المسيحي وشبكة تلفزيون ورايو CBN ويتابع برنامجه التلفزيوني الشهير 700 Club عشرات الملايين من المشاهدين^(٣). وفي كتابه الموسوم "النظام العالمي الجديد" (١٩٩١) وهو بمثابة قائمة تضم هواجس أمريكا الذهانية، إدانة لسياسة الرئيس بوش الأب ثم رشح نفسه ضده في الانتخابات الأولية لعام ١٩٩٢. ومع أنه قريب من الأوساط الحاكمة لكن تم استبعاده من حملة إعادة انتخاب جورج دبليو بوش حتى لا يكون عاملاً منفراً في نظر

(١) ٣٧% من الأمريكيين يقولون أنهم يتوقعون أن تكون نهاية العالم خلال فترة حياتهم (استبيان استشهد به فرانك ريتش "حروب بوش الصليبية من أجل البيت الأبيض"، انترناشيونال هيرالد تريبيون، ٢ . ٣ تشرين الأول ٢٠٠٤).

(٢) مع هذا إن ظاهرة تنامي التيار الإنجليي تتجاوز الجماعة الأفرو . أمريكية التي تشهد حركة مناضلة سياسية . دينية هي حركة أمة الإسلام.

(٣) نراها في فرنسا على قناة TV-God المتوفرة على بعض شبكات الكابل.

الناخبين الجمهوريين المعتدلين^(١).

- **جيرى فالويل:** هو الراعي المعمداني لولاية فرجينيا، وسبق له أن كان مديراً لمنظمة الغالبية الأخلاقية التي حلت عام ١٩٨٩، كما كان مستشاراً روحياً لريغان. قام مؤخراً بإعادة إطلاق منظمته المسماة (تحالف الإيمان والقيم) (Faith and Value Coalition)

. **هول لينساي:** كاتب دراسات حول نهاية العالم حققت نجاحاً كبيراً، وبيع من كتابه the late great planet earth (الأرض آخر الكواكب الكبرى) الصادر عام ١٩٧٠ ٣٤ مليون نسخة. ويحرر حالياً زاوية سياسية أسبوعية قناة TBN.

مكانة التيار الإنجيلي في إدارة بوش:

في عام ٢٠٠٤ بلغت نسبة الإنجيليين والمسيحيين الجدد (أو المبعوثين) born again ٣٢% من عدد الناخبين^(٢)، وتوجه ٥، ٢٦ مليون منهم إلى صناديق الاقتراع حيث صوّت منهم ٧٩% لصالح بوش. نصف الأصوات تقريباً التي حصل عليها بوش جاءت من الإنجيليين أو من المسيحيين الجدد، وبالتالي فإن استراتيجية كارل روف حققت النتائج المرجوة، إذ كانت التقديرات التي سبقت الانتخابات تتوقع أن يدلي ١٤ مليون من أتباع التيار الإنجيلي من أصل ٥٠ مليون أميركي لصالح بوش في عام ٢٠٠٠ وأن هناك مخزوناً طبيعياً يتجاوز ٤ مليون ناخب لصالح الرئيس^(٣).

تسبب اليمين المسيحي في عهد بوش أعلى مراتب السلطة السياسية عبر شخصيات مثل جون أشكروفت (وزير العدل السابق) وغال نورتون (وزير الشؤون الداخلية) ومايكل غيرسول (كاتب الخطابات الرئاسية) وكاي كولز جيمس (مديرة شؤون العاملين في الإدارة)، وفي الكونغرس كانت غالبية شخصيات الحزب الجمهورية المرموقة خلال السنوات الأخيرة (ديك أرمي، توم دولاي، بيل فريست، دنيس هاستريت وترنت لون وغيرهم) تنتمي إلى هذه الحركة.

هذا يعني، كما هو الحال بالنسبة للمحافظين الجدد، أننا قد نبالغ في إعطاء أهمية كبرى للبعد الديني في صناعة الاستراتيجية الأميركية. يقول السيد بوش إنه يسير على هدى إيمانه، وهو ما ادعاه عدة رؤساء سبقوه، وينطبق الأمر على بعض المسؤولين الأوروبيين. الذين يتحفظون عموماً على التصريح بهذا الادعاء على الملأ. في المقابل يمكن القول إنه علينا أن نرى في صلاية توجهات السيد بوش وفي أهمية البعد الأخلاقي الذي يتسم به خطابه السياسي تأثيراً مباشراً لقوة قناعاته الروحية. ونحن لا نشك في صدق

(١) Debra Rosenberg et Rebecca Sinderbrand, "of Prayer and Payback", Newsweek, 22 November 2004.

(٢) في عام ٢٠٠٤ أجاب ٢٣% من الناخبين بالإيجاب على السؤال: "هل تعتبر نفسك مسيحي جديد أم مسيحي إنجيلي؟".

Thomas B. Edsall, Exit Polla Datainconclusive on increase in Evangel voters, le Washington post, 8 november 2004. زيادة غير مشجعة في عدد الناخبين الإنجيليين.

(٣) Mark Strichez, Born - again the ranks of Christian conservative are not dwindling, the weekly standard, 17 janvier, 2004 من ١٤% من الناخبين أجابوا بنعم على السؤال: "هل تعتبر نفسك جزءاً من" الحركة المسيحية المعروفة أيضاً باسم حركة الحقوق الدينية؟ Edsall مرجع مذكور

قناعاته في ما يتعلق بخوضه الصراع ضد الشر، وهو ما دفع المواطنين الإنجليين إلى إتباعه بشكل كامل^(١).

إن البيت الأبيض يتعاون بشكل وثيق مع الأوساط الإنجيلية على رؤوس الأشهاد من خلال مكتب المبادرات ذات الأصل الديني والمذهبي (Office of Faith Based and community Initiatives)، كما يتعامل مع تلك الأوساط بشكل سري: يقال على سبيل المثال، أن مسؤول شؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي، إليوت أبرامز، يلتقي دورياً بالمسؤولين الإنجليين لضمان مساندتهم^(٢).

هناك استراتيجيان ينتميان إلى اليمين المسيحي قريبان جداً من الدوائر الرئاسية هما رالف ريد، المدير السابق للتحالف المسيحي وأحد الرجال الأساسيين في حملة عام ٢٠٠٤، وغاري بوير، رئيس مجموعة American Values ومجلس الأبحاث العائلية family research council إضافة إلى بعض جماعات الضغط الإنجيلية المعروفة بقرتها من البيت الأبيض مثل ريتشارد لاند الذي ينتمي إلى Southern Baptist Convention (اللقاء المعمداني الجنوبي)، وشارلز كولسون مؤسس Prison fellowship ministries، وعالم النفس جيمس دوبسون الذي يدير مؤسسة التركيز على العائلة Focus on the family.

اللقاء بين ثلاثة تيارات فكرية:

تضافرت شخصية جورج دبليو بوش مع أحداث الحادي عشر من أيلول لتغيير توازن السلطات في كنف اليمين الأمريكي. وأدت إلى لقاء الاتجاهات الفكرية الثلاثة الغالبة في اليمين الأمريكي وهي: الاتجاه المحافظ الجديد والاتجاه الإنجيلي والاتجاه الوطني. قد يبدو تحالف الاتجاهين الأولين مخالفاً للطبيعة. في عام ٢٠٠٠ ساند المحافظون الجدد ترشيح السيناتور جون ماكين بينما وزع اليمين المسيحي مؤيديه بين ستيف فوريس وغاري بوير. ثقافة الجنوب لا تشجع الديمقراطية تماماً، وحب ليو شتراوس للفلسفة القديمة، أو تمجيد الفضائل الوثنية أو البربرية التي احتلت مكانة خاصة لدى تيودور روزفلت والتي يحتق بها في دوائر المحافظين الجدد، كل هذا تنظر إليه جامعات الجنوب بعين الريبة. المثقفون المحافظون الجدد على الشاطئ الشرقي والمتدينون الأصوليون في الجنوب يتحدرون من أوساط متباينة جذرياً. الدعم الإنجيلي للدولة العبرية لا يخلو من غموض (والإسرائيليون يدركون ذلك) لأن مفاهيم نهاية العالم الإنجيلية eschatologies تتوقع تحول اليهود إلى المسيحية أو فناءهم. لا شك في أن فرانسيس فوكوياما قد ينتابه الضحك إزاء هذا الخلط بين "نهاية التاريخ" وبين "نهاية الزمن" التي قام بتأليفها بعض الإنجليين الناجحين.

مع هذا فإن هذا التحالف يلتقي حول بعض الموضوعات مثل: رفض النسبوية الثقافية لصالح قدسية القيم الغربية؛ مكانة الدين في المجتمع الأمريكي واحترامه له؛ العودة إلى النصوص القديمة والحذر من

(١) هناك فيلم وثائقي عنوانه Georges W. Bush, faith in the white house (جورج بوش: الإيمان في البيت الأبيض) تم إنتاجه في أكتوبر من عام ٢٠٠٤ لاستنفار الناخبين الإنجليين، على أساس أن يكون هذا الفيلم بديلاً عن فهرنهايت ١١/٩ لمخرجه روجيه مور. يقول الفيلم: انظروا كيف يمكن لسلطة الإيمان أن تغير حياة الإنسان وتبني عائلة وتصوغ قدر أمة [...] إن إيمانه سيعلمكم".

(٢) Rick Perlstein, the Jesus landing pad, the village Voice, 18 mai 2004.

أفكار عصر الأنوار؛ الإحساس بواجب أداء الرسالة؛ عدم التردد في استخدام القوة؛ الدعم غير المحدود لإسرائيل.

بدلاً من استثمار نقاط التلاقي تلك مع بداية عهد ريغان من قبل رجال مثل بول وإيريش مؤسس Heritage Foundation وملهم جماعة Moral Majority واليوت أبرامز (مجلس الأمن القومي) من أجل تشكيل الهيكلية الفكرية للحزب الجمهوري، تمت العودة مجدداً إلى تشجيع نقاط التلاقي تلك منذ نهاية التسعينات بدفع من هذين الرجلين نفسيهما (مع تسلم وإيريش إدارة Congress Research and Education foundation وعودة أبرامز إلى مجلس الأمن القومي) إضافة إلى مارفن أولاسكي . وهو يهودي اعتنق الإنجيلية وصاحب مفهوم "التيار المحافظ الجديد الرحيم" الذي أوحى بنص: عقد من أجل أميركا contract for America الذي وضعه نيوت غينغريتش في عام ١٩٩٤ قبل أن يلتحق بسياسة جورج دبليو بوش في عام ٢٠٠٠.

التلاقي بين المواطنين والإنجيليين لم يحدث تلقائياً. كما لم يكن مقدراً أن يصطف المحافظون التقليديون مثل تشيني ورامسفيلد أو صاحبة السلوك الحذر كوندوليسا رايس تلميذة واقعيي الحزب إلى جانب المثاليين مثل كريستول وكيفان. وهنا أيضاً يقوم التحالف على موضوعات مشتركة: في زمن الحرب الباردة التقى هذان التياران على معارضة الانفراج والتمسك بالتمسك ويمثلهما هنري كيسنجر (بعضهم قام بدور "الناقل" بين التيارين مثل وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز). هذا التلاقي أدى إلى نشوء ما سماه الديمقراطي إيفو دالدر "الإمبريالية الديمقراطية"، كما نجده في ذلك التعبير الغريب "توازن السلطات لتيسير الحرية البشرية" الذي جاء في خطاب السيد بوش في ويست بوينت في حزيران ٢٠٠٢، وأصبح محورياً رئيساً في استراتيجية الأمن القومي التي حرر نصها كل من كوندوليسا رايس وستيف هادلي وفيليب زيليكوف في أيلول من عام ٢٠٠٢.

الفصل الثالث:

واشنطن في عهد جورج دبليو بوش

يختلف النظام المؤسسي الأمريكي عن نظيره الفرنسي في عدة نقاط. الناخبون الأمريكيون يختارون الرئيس ونائب الرئيس^(١). هناك توازن وفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية إذ ليس هناك حق في الحل بل إنما اللجوء إلى الإجراء المسمى impeachment (أي توجيه الاتهام). أخيراً تقوم الولايات بنسخ المنظومة الفيدرالية وفقاً لمستواها سواء على صعيد الدستور أو مجلس الشيوخ أو المحكمة العليا وتحافظ على قدراتها الخاصة بكثير من العناية.

لكن المنظمة السياسية الأميركية في ظل رئاسة جورج دبليو بوش، تعمل بشكل بالغ المركزية، والإدارة الاتحادية تهيمن اليوم على المنظمة المؤسسة في غياب أية سلطة مضادة.

ثقافة المدير وثقافة الجندي

(١) هناك اختلاف آخر في ما يتعلق بالسيدة الأولى The first lady (ليس هناك أبداً ما يسمى بالسيدة الأولى first gentleman) لأن هذا اللقب في أمريكا لقب رسمي.

إدارة بوش هي إدارة رجل الأعمال Business people. إذ للمرة الأولى يكون الرئيس فيها حائزاً على الماستر في إدارة الأعمال. وتضم الإدارة عدة مسؤولين مثل تشيني ورامسفيلد وكارد عملوا في مجال الأعمال وغالباً ما حققوا النجاح فيه. وضمت وزارة الولاية الأولى أربع رؤساء شركات على الأقل، وهو رقم قياسي مطلق. وهناك في البنتاغون عدة مسؤولين من قدامى العاملين في الصناعة والتسليح. هذه الإدارة، التي يصح القول بأنها ذات طابع إيديولوجي، غالباً ما تفكر وفقاً لمنطق إدارة الأعمال: محصلة التكاليف، فوائد مختلف الخيارات، معايير الفاعلية والنجاح، خطة مؤلفة من ثلاث أو أربع أو خمس نقاط، سجلات استحقاق دقيقة، تقوم النتائج..... على سبيل المثال، ترى هذه الإدارة أن رفض الانضمام إلى معاهدة كيوتو لا يعود إلى الحذر من الاتفاق المتعدد الأطراف ثم التفاوض عليه بمعزل عنها، بل إلى طبيعة نص المعاهدة الذي لا ترى فيه الإدارة أي معنى من حيث علاقة التكلفة . الفاعلية اللازمة لحماية البيئة. كما تتميز إدارة بوش بميزة ثانية هي عدد المسؤولين أو الشخصيات التي قضت شطراً من حياتها المهنية بالعمل في الشؤون الاستراتيجية، وهما ينطبق على تشيني ورامسفيلد وولفويتز وكوندوليسا رايس وستيف هادلي، وعلى "شخصيات الظل" مثل خليل زاد (السفير في أفغانستان) وليبي (مدير مكتب تشيني). دون أن ننسى كولين باول ومساعدته أرميتاج خلال فترة الرئاسة الأولى. من بين هذه الشخصيات يمكن أن نذكر أيضاً: ريشار بيرل ومعاونيه الأسبق فرانك غافني (وهما لا يشغلان الآن وظائف رسمية). المجموعات السياسية التي وصلت إلى السلطة في كانون الثاني عام ٢٠٠١ والتي كانت تتمتع بتجربة الدفاع وثقافة الجنوب الأمريكي كانت تملك رؤية خاصة حول استخدام القوة وربما كانت أكثر استعداداً "لشن الحرب" أكثر من مجموعات أخرى. وربما ليس من باب المصادفة أن يطلق مستشارو السيد بوش على أنفسهم خلال الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٠ اسم "المبشرون بالصيف vulcains"^(١).

بما إن إدارة بوش لم تكف بنجاحها في صهر الثقافات الفكرية الثلاث المتمثلة باليمين المشار إليه سابقاً مع بعضها البعض، فقامت بوضع تركيبة تتكون من ثقافة الشركة والثقافة العسكرية.

حاشية الرئيس من الرجال والنساء

الحلقة الأولى المحيطة بالرئيس تتألف من ثقات الرجال والنساء الذين حافظ بعضهم على وفائهم له منذ أن كان حاكماً لولاية تكساس. وأهم صفتين يجب توفرهما في العاملين في البيت الأبيض هما الوفاء والانضباط. أقرب مستشاري الرئيس هو كارل روف K. Rove، كارين هوغ Kared Hugues وكوندوليسا رايس. كارل روف الملقب "بالعقل المدبر" أو الاستراتيجي كان وراء الانتصارات الانتخابية التي حققها جورج دبليو بوش. وهو لا يقف عند حدود التدخل في الاستراتيجية والاتصال السياسي بل يغوص أيضاً في أعماق الملفات (لا سيما المتعلقة منها بالسياسة الداخلية)، وقد حافظ على وفائه للرئيس منذ اللقاء الأول بينهما عشية عيد الشكر Thanksgiving^(٢) في عام ١٩٧٣، يليه مات شالاب Matt Shalapp مدير

(١) إشارة إلى تمثال فولكان (وهي فراشة تنشر بقدوم الربيع) المنصوب على مدخل مدينة برمنغهام (ولاية ألاباما) مسقط رأس كوندوليسا رايس، وهي مدينة كانت تشتهر في السابق بصناعة الحديد.

(٢) تقام احتفالات عيد الشكر كل عام في الخميس الرابع من تشرين الثاني إحياء لذكرى ذلك العيد الذي أقامه الآباء الحجاج بمناسبة قطافهم الأول فوق الأرض الأمريكية عام ١٦٢١. في هذه المناسبة يقوم الكثيرون من الأمريكيين بزيارة عائلاتهم وتناول لحم الديك الرومي وفطائر اليقطين.

الشؤون السياسية. كما تعد كارين هونغ واحدة من قدامى المقربين من الرئيس، وهي أيضاً تتدخل في صميم الملفات (مثل مسائل الطاقة وكانت توازن بثقلها تأثير تشيني الميَّال إلى إيلاء الأولوية للمصالح الصناعية قبل أن تغادر البيت الأبيض في عام ٢٠٠٢ إلى تكساس من أجل التفرغ لحياتها الخاصة. لكنها بقيت صديقة يستمع إلى رأيها، لا سيما وأنها قامت بدور هام في حملة ٢٠٠٤ الانتخابية. أما كوندوليسا رايس، فلم تصبح مستشارة مقربة إلا بعد حملة عام ٢٠٠٠ الانتخابية، ولا شك في أن قريبها من الرئيس يعود إلى مزيج من التشابه والتكامل بينهما، فهي منضبطة مثله كما تشترك معه في حبها للرياضة، على الرغم من أن أصولها متناقضة مع أصول الرئيس. وهي سيدة خبرة عملية أكثر منها سيدة أفكار، ويقول عنها صديق قديم لها (إنها تتحدث بالمقاطع [وليس بالكلمات]). ودورها في تنظيم الملفات أكبر من دورها في السياسة الأميركية (علماً أنها، خلال عملها كمستشارة للأمن القومي، لم تقم بدور المنسق الذي تتطلبه هذه الوظيفة). لكنها شديدة الوفاء للرئيس في السراء والضراء.

الآخرون المقربون من الرئيس هم كلاي جونسون الثالث، مساعد مدير المكتب المتخصص بالإدارة والميزانية (وهو زميل الرئيس منذ أيام الدراسة)؛ أندرو كاردين الابن، مدير مكتب وزير المواصلات السابق ألبرتو غونزاليز ويعد بمثابة مدع عام جديد Attorney general؛ سكوت ماكليان، الناطق باسم البيت الأبيض؛ دان برتليت، المكلف بالإشراف على سياسة الاتصال؛ دينا حبيب باول، وهي المديرة الشابة للعاملين في البيت الأبيض؛ مارك راسيكوت، رئيس حملة إعادة انتخاب الرئيس (حاكم ولاية مونتانا سابقاً)؛ كين ميهلمان، وهو شاب لامع تسلم إدارة الحملة الانتخابية واستدعاه الرئيس لرئاسة اللجنة الوطنية الجمهورية منذ عام ٢٠٠٥. أخيراً نذكر من بين جماعة الحلقة الأولى المحيطة بالرئيس مايكل غريسون، رئيس محرري خطابه، وهو إنجيلي مؤمن شارك مع مساعد الرئيس السابق دافيد فروم في صياغة عبارة "محور الشر" الشهيرة. نشير أيضاً إلى المكانة الخاصة التي يحتلها السيد تشيني، الذي يعد نائب الرئيس الأقوى والأكثر خبرة في التاريخ الأمريكي. إنه وإن لم يكن صديقاً للرئيس فهو مكمل له. إنه القسم الملعون فيه إلى حد ما. وهو رجل الحرب الباردة، المتشائم ويؤمن أكثر من الرئيس بإقامة نموذج ذي اتجاه جمهوري تقليدي، وهو أحد أولئك الذين يسيرون بسياسة الإدارة نحو اليمين. الثقة بينهما متبادلة ولا ينفك أحدهما عن رؤية الآخر. لديك تشيني تأثير قوي على السياسة الخارجية والدفاع بما في ذلك تأثيره على التعيينات في الإدارة. نادراً ما يختلف مع الرئيس. وإن كان حذراً، لكونه أحد المحافظين التقليديين، من اتساع سلطات الدولة الفيدرالية، وهو شديد الليبرالية على الصعيد الاقتصادي. فضلاً عن ذلك فإن له خبراؤه الخاصون به والملتقون في فريق رهيب من المستشارين المتخصصين الذين يشكلون "مجلس أمن قومي ملحق" حقيقي. إلى جانب الوفي، المحافظ الجديد مصرف لويس ليببي، هناك رجال ونساء آخرون مثل دافيد وورمسر، جون حنا، وأهارون فريديرغ. وأخيراً نقول إن تشيني يقود سياسة الطاقة بشكل غير مباشر وبطريقة غير ملحوظة.

طريقة عمل السلطة التنفيذية في ظل حكم السيد بوش:

بين أضلاع واشنطن يقع قلب السلطة المتمثل بالمكتب التنفيذي للرئيس Executive Office of the president (EOP) الذي أحدث عام ١٩٣٩ ويضم مجموع المؤسسات التي ترتبط مباشرة بالسلطة الرئاسية

ويعمل فيها حوالي ١٧٠٠ شخص. مكاتب الرئيس والمقربين منه (تضم ٥٠ شخصاً) لا تقع في البيت الأبيض نفسه إنما في الجناح الغربي west wing منه في بناء مجاور. ونظراً لضيق المكان فإن أغلب مؤسسات المكتب التنفيذي للرئيس يقع في ذلك البناء الرمادي الضخم القريب مباشرة من البيت الأبيض والمسمى Executive office Building أو أيضاً حول ساحة لافاييت وهي حديقة عامة مواجهة للبيت الأبيض. ويتصرف الرئيس مباشرة بعشرين مؤسسة عملانية أو استشارية.

الحكومة الأميركية مقتضبة لم يتغير موقعها أو اسمها أو دورها طيلة عقود من الزمن، ولا تضم الحكومة حالياً سوى ١٥ وزارة هي: الزراعة والداخلية والتجارة والعدل والطاقة والمواصلات والصحة والخزانة وأمن الأراضي (أحدثت بعد الحادي عشر من أيلول) والمحاربين القدماء والإسكان والتنمية العمرانية. يضاف إلى الوزراء ستة مسؤولين يتمتعون بمكانة الوزير (rank members) هم: نائب الرئيس، مدير فريق العمل chief staff، مدير وكالة حماية البيئة، الممثل الخاص للتجارة، مدير المكتب لشؤون إدارة الأعمال والميزانية، مدير مكتب السياسة الوطنية للرقابة على المخدرات.

سيختلف توازن السلطات خلال الولاية الثانية للسيد بوش عما كانت عليه الولاية الأولى. وتعيين كوندوليسا رايس على رأس وزارة الخارجية سيساهم في تقليص المسافة التي طالما وجدت بين الأبيض وبين الدبلوماسية الأميركية (وربما دور وزارة الدفاع). كما نجد، إلى حد ما، التشكيل المؤسسي الذي عرفته فترة نيكسون وكيسنجر. ومن الشخصيات الهامة في وزارة الدفاع نذكر: جون بولتون، وهو وطني متشدد عمل طيلة حياته لكي تتخلص أمريكا من ضغط المعاهدات الدولية ومن المتوقع أن يبقى في الإدارة.

أما دونالد رامسفيلد فسيبقى في وزارة الدفاع إلى حين لمتابعة عمله في إحداث التغييرات على الجيوش الأميركية (دون الحديث عن أنه من غير المنطقي أن يتخلى السيد بوش عن وزير دفاعه في غمرة الحرب) بصرف النظر عما يكلفه من مواجهة مع العسكريين الذين تربطه بهم علاقة صعبة، وسيحتفظ الرئيس إلى جانبه برجال ثقات مثل: ستيف كامبون الذي يغطي وفأؤه على فظاظته، وهو يشغل حالياً منصب سكرتير مساعد لشؤون المخابرات بعد أن لازم الرئيس عدة سنوات. إضافة إلى أندرو مارشال الذي يشرف على علية الأفكار في البنتاغون (Office of Net Assessment) منذ عدة عقود، وكين كريغ، مدير تقييم البرامج وتحليلها (Programs Analysis and Evaluation). لكننا نتوقع بعض التغييرات في إدارة الشؤون السياسية التي يقودها دوغلاس فيث على الرغم من الاحتجاجات، إضافة إلى بعض المحافظين الجدد مثل ويليام لوتي وأبرام شولسكي.

لقد ترك خبر رحيل جون أشكروفت عن وزارة العدل التي ترتبط بمكتب التحقيقات الفيدرالي وقعاً سيئاً على الإنجليبين الذين كانوا يعدونه أفضل ممثل لهم في الوزارة. مع أن ألبرتو غونزاليز، المقرب من السيد بوش منذ عقد من الزمن لن يتخلى عن التوجهات الحازمة التي كان يتبعها سلفه في مجال مكافحة الإرهاب ثم حلت هاربيت مايرز، من رعايا تكساس الأوفياء للرئيس، محل غونزاليزا. لكن وزارة الأمن الداخلي التي استحدثت مؤخراً وضمت إليها إحدى وعشرين وكالة موجودة سابقاً، لم تحدد بعد أسلوب عملها.

شهدت الوزارة تعديلاً جوهرياً منذ بداية ولاية بوش الثانية حيث تغير أكبر القائمين على الوزارات التي تعنى بالشؤون الداخلية، فحل كارلوس غيتيريس رئيس Kellogg,s محل دونالد إيفانز في وزارة التجارة. وهو

المقرب الوحيد من الرئيس الذي ترك الإدارة. وحلت السيدة مارغريت سبيلنج، مستشارة الرئيس لشؤون السياسة الداخلية محل رودريغ بيج في وزارة التربية. وأُخِلت السيدة آن فيلمان وزارة الزراعة للمتشدد المسيحي مايك جوهانس حاكم ولاية نبراسكا؛ وحل مايكل ليفيت محل تومي نومسون في وزارة الصحة. أما صامويل بودمان فقد خلف سبنسر أبراهام في وزارة الطاقة، وحل جيم نيكلسون محل أنتوني برينسيبي في وزارة المحاربين القدامى، ومن المتوقع تغيير كل من جون سنو، وزير الخزانة ونورمان مينيتا وزير المواصلات وهو الوزير الديمقراطي الوحيد في الإدارة.

مجلس الأمن القومي

تأسس مجلس الأمن القومي بموجب قانون صادر عام ١٩٤٧ (لكن منصب مستشار الأمن القومي لم يحدد إلا في عام ١٩٥٣). والقانون يخوّل هذا المجلس معالجة شؤون الأمن الخارجي بالمعنى الواسع للعبارة إضافة إلى النظر في شؤون الأمن الداخلي. وهو لا يضم سوى أربعة أعضاء بقوة القانون هم: الرئيس ونائبه ووزير الخارجية ووزير الدفاع إضافة إلى اثنين من المستشارين الدائمين هما رئيس لجنة رؤساء الأركان ومدير وكالة المخابرات المركزية. لكن المؤسسة توسعت عبر السنين حيث تضم اليوم ما يقرب من ١٥٠ شخصاً. وتصدر التوجيهات الرئاسية المتعلقة بالأمن القومي برعاية مجلس توجيهات الأمن القومي الرئاسية (NSPD) Directives National Security Presidential التي يتم تصنيفها بشكل عام إضافة إلى تقرير استراتيجية الأمن القومي National Security Strategy الذي يعد أهم وثيقة عامة في تسلسل النصوص المتعلقة بالأمن الخارجي.

تغير دور مجلس الأمن القومي تبعاً لمختلف الرئاسة. إذ قل دوره في عهد السيد بوش عما كان عليه في عهد كلينتون لأن الرئيس الحالي يفضل اللجوء إلى المداولة المباشرة مع أعضاء الوزارة دون المرور عبر المصفاة المؤسسية لمجلس الأمن القومي. لذلك لا يجتمع المجلس إلا نادراً على مستوى مسؤولي المرتبة الوزارية أو المعادلة لها (principals) بينما كانت هذه التركيبة تتكون من مجلس الأمن القومي/ المجلس الرئيسي (NSC/PC) منذ عام ١٩٨٩ هي العضو الرئيس في تنسيق السياستين الداخلية والخارجية. ويعد تشييني من المواطنين على حضور اجتماعات هذا المجلس باستمرار. ونادراً ما يلتقي أعضاء مجلس الأمن القومي بالرئيس بوش.

ستيف هاليداي، المستشار الجديد للأمن القومي يعد من رجال تشييني، وسبق له أن عمل مساعداً لكوندوليسا رايس، وهو من المتأثرين بثقافة الحرب الباردة وبواقعية إدارة بوش الأب (الذي قام هاليداي على خدمته في وزارة الدفاع)، لكنه، مثل السيدة رايس، تحول إلى الأفكار المحافظة الجديدة تحولاً كبيراً.

المسؤولون الهامون الآخرون في مجلس الأمن القومي لشؤون الاستراتيجية هم: فران تاوسند (مكافحة الإرهاب)، فرانكلين ميلر (سياسة الدفاع) سوزان كوش (منع انتشار أسلحة الدمار الشامل والدفاع المضاد للصواريخ)، إليوت أبرامز (شؤون الشرق الأوسط) وهو ملهم خطاب ريغان الشهير أمام مجلس العموم حول عالمية القيم الديمقراطية في حزيران من عام ١٩٨٢، ويعد مرجعاً للسيد بوش في ما يخص الثورة الديمقراطية العالمية (تشرين الثاني ٢٠٠٣)، بعد ذلك ساهم، منذ وصوله إلى مجلس الأمن القومي في عام ١٩٨٦ في ديمقراطية آسيا وأمريكا اللاتينية وفي التقريب بين الجالية اليهودية وبين اليمين المسيحي.

الكونغرس والمحكمة العليا

كلنا يعرف أهمية الكونغرس في تكوين السياسة الأمريكية. لكن الطريقة التي يمارس دوره من خلالها تطورت إذ أصبحت الغالبية الجهورية شغوفة بفرض العقوبات (التي غالباً ما تعود بالأضرار الكبيرة على المستثمرين الأمريكيين لا سيما العاملين في مجال البترول).

اللجان التي تمسك بالتراخيص والحيازات، وهما حبلا البورصة، تمسك اليوم بالمفاصل المؤثرة في السياسة الخارجية والدفاع على حساب اللجان السياسية. إلا أن الاتجاه العام يسير نحو تعزيز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية. على سبيل المثال نرى اليوم أن مجلس الشيوخ لا يصادق إلا على ١٠% من الاتفاقيات الدولية الموقعة من قبل الولايات المتحدة، على اعتبار أن الاتفاقيات الأخرى تسمى Executives Agreements، وهو تطور نلمسه في الديمقراطيات الحديثة، لكنه يظهر بشكل صارخ في الولايات المتحدة لأن منظومة توازن السلطات فيها منظومة مقدسة تقليدياً. في أمريكا اليوم، التي تعد نفسها في حالة حرب، أدى لقاء الأغلبية الثلاث (الأغلبية الرئاسية، الأغلبية في مجلس الشيوخ، الأغلبية في مجلس النواب) إلى هيمنة مطلقة على السلطة التنفيذية. ويعد الكونغرس اليوم، لاعتبارات مختلفة، تابعاً لإدارة بوش^(١).

للكونغرس الأولوية على مجلس النواب لأنه يتمتع بصلاحيات الموافقة على التعيينات في الإدارة إضافة إلى سلطاته في السماح بالتصديق على المعاهدات. في الوقت الذي يقوم نائب الرئيس الأميركي على رئاسة هذا المجلس نظرياً، فإن أعماله يقودها في أغلب الأحيان خبير دائم Pro tempore منذ عام ٢٠٠٣ هو السيناتور تيد ستيفنس (من ولاية أركانساس)، ولا شك أن سلطته أقل من سلطة بيل فريست (من ولاية تينيسي) المعروف بحافظته الشديدة، وهو زعيم الأغلبية الحالي. منذ انتخابات ٢٠٠٤ يتمتع فريست بأغلبية مريحة (١٠٠/٥٥) حتى لم تبلغ الأغلبية القادرة على التصديق التي ينبغي أن تبلغ الستين صوتاً لمواجهة التكتيكات المعوقة التي تلجأ إليها المعارضة، وهي التي ازداد شيوعها في العقود الأخيرة عما كانت عليه في الماضي^(٢). مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الأغلبية الجمهورية الجديدة لن تعمل على التوافق مع الديمقراطيين ولن تمد يدها إليها.

في مجلس النواب الذي يهيمن عليه الخطيب المفوه ج. دينيس هاستر (من ولاية إلينوا) يتمتع الجمهوريون بأغلبية مريحة تبلغ ٢٣٢ مقعداً من ٤٣٥^(٣) ويقود هذا المجلس أحد المحافظين الجدد شديدي التطرف هو النائب توم دولاي (من ولاية تكساس) ويعد أحد جامعي التبرعات للحزب، ولا شك في أنه سيسعى خلال ولاية بوش الثانية إلى أن يكون رأس حربة الثورة المحافظة الجديدة.

المحكمة العليا تتكون من اثنين من القضاة المحافظين (أنطونينا سكالو وكلايرانس توماس) واثنين من المعتدلين (ساندرا داي أوكونور وأنطوني كندي) وليبرالي واحد (جون ستيفنس) ومن ثلاث قضاة بلا هوية سياسية واضحة هم (دافيد هاكيت سوتر، روث بادر غينسبورغ، ستيفن ج. براير)، وحينما تسلم

(١) "The Contradictory Conservative" The Economist 28 août 2004.

(٢) مجلس الشيوخ الجديد يضم ٥٥ جمهورياً و ٤٤ ديمقراطياً وشخص واحد مستقل.

(٣) مجلس النواب الجديد يضم ٢٣٢ جمهورياً و ٢٠٢ ديمقراطياً وعضواً واحداً مستقلاً.

رينكيسست رئاسة المحكمة في عام ١٩٨٦ تحول إلى وسطي بعد أن كان محافظاً متشدداً. خلال الولاية الثانية للسيد بوش ستكون المحكمة محط اهتمام الجميع لتقدم بعض أعضائها في السن (بلغ ستيفنس الرابعة والثمانين من عمره) أو بسبب تردي أحوالهم الصحية (مثل رئيس المحكمة رنكيسست)، ويمكن للسيد بوش خلال فترة ولايته الثانية تعيين ثلاث قضاة مما يضمن دعماً للخط الذي تسير عليه الإدارة. ومن غير المستبعد أن يكون تعيين ألبرتو غونزاليز في منصب النائب العام Attorney general بمثابة اختبار له قبل تعيينه في المحكمة العليا.

بتعبير آخر، الوضع السياسي ينبئ بولاية ثانية لا تعترض بوش خلالها صعوبات كثيرة لإدارة الأمور، وسيحتاج إلى الحد من غلواء اليمين المسيحي من وقت إلى آخر. ومما لا شك فيه أن الكونغرس والمحكمة العليا لن يكونا مناهضين للسلطة على المدى المنظور. والولايات التي ترتبط ببعضها فيدرالياً فقدت من قدرتها على التأثير بسبب تقليص المساعدات الفيدرالية. إن الرئاسة الأميركية في عهد بوش تستحق اليوم أكثر من أي وقت مضى أن نطلق عليها صفة "الإمبريالية" التي سبق واقترحها آرثر شليزنغر^(١) منذ زمن بعيد.

الأحزاب وجماعات الضغط ومجموعات المصالح ومراكز التفكير

كلنا يعرف أن الأحزاب الأميركية عبارة عن آلات انتخابية ضخمة أكثر من كونها منظومات مناضلة منتجة للأفكار. خلال الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٤ لم يكتثر أحد، أو لم يعبأ إلا نفر قليل، بالبرامج السياسية التي كتبت لدعم المرشحين (من أن برنامج الحزب الجمهوري كان جديراً بالقراءة لأنه أكثر يمينية من برنامج المرشح بوش)^(٢).

إذا تركنا المؤسسات جانباً نرى أن السياسة الأميركية تخضع لمجموعات المصالح وجماعات الضغط ومراكز التفكير^(٣). ومن أقوى جماعات المصالح نذكر:

- Congress or Industrial Organization America Federation of Labor (AFL – CIO)).
- National Rifle Association (NRA).
- National Association for the Advancement of colored people (NAACP).
- American Association of Retired People (AARP).
- American Farm Bureau Federation (AFBF).
- Cuban – American National foundation (CANF).

كما أن عدد مجموعات الضغط يتزايد منذ عام ١٩٤٥، حيث تم تصنيف عشرات الآلاف منها على مدينة واشنطن. بعض مراكز التفكير الخاصة بالمرافعات Advocacy think tanks تقترب في طريقة عملها من طريقة جماعات الضغط التقليدية. وتتركز أهدافها بالدرجة الأولى، وقبل أي شيء آخر، على أعضاء مجلس الشيوخ حيث يتم قصفهم بلوائح من البيانات و وثائق العمل وغالباً باقتراحات التعديل..

(١) "Athur M. Schlesinger □ The Imperial Presidency (الرئاسة الإمبريالية) □ Boston □ Houghton Mifflin Co. 1973.

(٢) نشر هذا البرنامج بسرية حتى لا يشوش على صورة المؤتمر الجمهوري "المعتدلة"، وكان يدعو إلى منع الإجهاض ويعارض الاعتراف بأي شكل من أشكال الاتحاد المدني (المؤتمر القومي الجمهوري America: World and a More Hopeful Asafe □ août 2004).

(٣) أصبح التمييز بين الثلاثة صعباً. لكن لمراكز الضغط، بالمعنى الدقيق للعبارة، مكانة مالية خاصة.

بشكل عام، تغذي مراكز التفكير والشركات الاستشارية الفكر السياسي بشكل حيادي. وممارسة سياسة الباب الدوار تؤمن حركة فاعلة للرجال وللأفكار بين المؤسسات الرسمية ومراكز التفكير: في حال التناوب [على السلطة] سواء في البيت الأبيض أم في الكونغرس، سرعان ما يلجأ مئات المحللين إلى مراكز التفكير وغالباً ما يشغلون مكان المدعويين للخدمة قبل أن يبرد المكان شاغر.

مراكز التفكير الفاعلة فوق أرض السياسة الأمريكية معروفة:

- مجلس العلاقات الخارجية: Council for foreign affairs وهو مؤسسة محترمة تأسست عام ١٩٢١، وتعد معقلاً "لواقعية" والاعتدال، ويديرها اليوم رتشارد هاس رئيس الخلية المستقبلية رئيس مجموعة التخطيط Policy planning staff في وزارة الخارجية حتى عام ٢٠٠٢ ويصدر المجلة الشهيرة Foreign Affairs.

- هناك مؤسستان لهما توجه ديمقراطي هما: مؤسسة بروكينز التي أحدثت في عام ١٩٢٧ وتضم اليوم قدامى المسؤولين في إدارة كلينتون مثل جيمس ستاينبرغ، مسؤول الدراسات الدولية ومساعد المستشار السابق لشؤون الأمن القومي؛ ومؤسسة كارنيجي للسلام الدولي التي تصدر مجلة "السياسة الدولية" وتعد دراساتها حول انتشار أسلحة الدمار الشامل حجة في هذا المجال.

- وهناك أيضاً مؤسستان ليست لهما صفة سياسية كبيرة هما: مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) الذي يصدر مجلة واشنطن كوارتلي، ومؤسسة راند كوربوريشن المشهورة. في البداية تكونت المصادر المالية لهذه المؤسسات من عائدات التبرع السخية (غالباً ما تكون على شكل هبات موصى بها)، ومن تمويل المشاريع الخاصة من قبل الجمعيات والعقود المنظمة مع مؤسسات سياسية أو شركات خاصة.

بعض مراكز البحث تحظى بمكانة خاصة تحت اسم Federally Funded Research and center وهي مكانة تسمح لها بتلقي ميزانية سنوية، بعد موافقة الكونغرس، مقابل تقديمها لبعض الدراسات النوعية، لا سيما لحساب وزير الدفاع^(١). ونجد أحياناً مثل هذه المراكز في كنف شركات تجارية هامة تهتم بالبحث والتنمية مثل Aerospace Corporation أو شركة Mitre Corporation.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى الدور الخاص الذي تقوم به بعض الشركات الاستشارية الكبرى التي تنامت خلال العقدين الأخيرين، حيث أتاحت لها طريقة عملها الموجه Business-Oriented تحقيق انتشار واسع في الأسواق التقليدية الخاصة بمراكز التفكير. ونذكر، على وجه الخصوص، النجاح الكبير الذي حققته شركة Scienced Applications International Corporation، وهي شركة لا مركزية يتكون رأس مالها من مساهمات العاملين فيها، وهناك أيضاً مكتب Booz Allen and Hamilton corporation، وقد انضمنا إلى

(١) تُؤي مؤسسة راند كوربوريشن عدة مراكز من هذا النوع؛ أما المراكز الأخرى فتسمى بمعهد تحليلات الدفاع IDA ومركز تحليلات البحرية CNA.

المحافظين الجديدين: جيمش دوسلي (المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية) ودوف زاخيم (الذي بقي مديراً مالياً لوزارة الدفاع حتى عام ٢٠٠٣). ويطلق أحياناً على مجموع المتعاقدين مع الإدارة في منطقة واشنطن Beltway Bandits، إشارة إلى مكان توضعهم ضمن قطر يحدده الطريق السريع المحيط بالمنطقة.

المصادر المساندة لإدارة بوش

في هذا الركام المختلط، هناك بعض المؤسسات التي تدخل في عداد المساندين لإدارة بوش، وإن لم تكن هذه المساندة منتظمة وغير مشروطة، وهي اللوبي المحافظ American Conservative Union وبعض مراكز التفكير مثل American Enterprise Institute ومركز Project for New America Century و Heritage Foundation و center for Security Policy وغيرها. وهناك الجمعيات المسيحية مثل Christian Family Values و Coalition و American Council on Values و research Council و Family Focud on family^(١). تشير أيضاً إلى جهود بعض الأشخاص الضاغطين مثل الليبرالي المتطرف غروفر نوركيس، رئيس الجمعية الأمريكية لإصلاح النظام الضريبي، ومات دانييلز الذي يدير جمعية التحالف من أجل الزواج، أو الرسالة المفتوحة التي وجهتها البلدان العشرة المرشحة للانضمام إلى حلف شمال الأطلسي (Dix Vilinus) الداعمة للمواقف الأمريكية إبان الأزمة العراقية.

من جانب آخر، يمكن للإدارة الاعتماد على تعاطف قسم كبير من المنظمات اليهودية أو الموالية لإسرائيل، مثل المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (JINSA) Jewish Institute for National Security affairs ومعهد الدراسات السياسية والاستراتيجية المتقدمة Institute for Advanced strategic and political security و studies (IASPS) وكلاهما منحازان بلا تحفظ إلى مواقف اليمين الإسرائيلي. وهناك أيضاً، لكن بدرجة أقل اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشؤون العامة (AIPAC) American Israel public Affairs و Conference of Presidents of Major America Jewish Organization وهما محاميان تقليديان عن قضايا الدولة العبرية في اللعبة السياسية الأمريكية^(٢). هناك تعاون وثيق بين بعض أقسام الإدارة (الموظفون المدنيون في وزارة الدفاع) وبين تلك المنظمات. لكن علينا التذكير بأن أهم مصادر الدعم والأكثر تأثيراً بالسياسة الإسرائيلية اليوم، نجدها عند الإنجليين. عرفت بعض الشركات الصناعية كيفية الدفاع عن مصالحها بشكل شديد الفعالية إبان رئاسة جورج دبليو بوش، وهي متكافلة متضامنة معها تماماً: شركات صناعة التسليح (لوكهيد مارتن، نورثروب غرومان، وتأتي بعدهما كل من بوينغ ورايتون بدرجة أقل)، وشركات الصناعة البترولية (هاليبورتن، كيلوغ براون أندروث) أو الصناعات الصيدلانية (غلاكسو سميث كلاين). هذه الشركات لا تملي أجندتها على الرئاسة، ولا تتعلق المسألة بالإثراء الشخصي للسياسيين الأمريكيين، بل هناك تلاق ثقافي واضح هو غالباً ما يكون تلاقياً في المصالح بين هذه الشركات القوية (وهي رائدة في الميادين التي تعمل فيها) وبين الإدارة الحالية. مثلما كنا نقول منذ عدة عقود إن "ما يصلح لشركة جنرال

(١) بعض المؤسسات الكبرى التي تمولها ثروات خاصة تدعم مراكز التفكير وجماعات الضغط اليمينية، مثل

مؤسسات Scaife □ Adolph Coors □ John Moline □ Lynde and Harry Bradley

(٢) لا يمكن عد بول وولفويتز من هذه الفئة، بل يمكن القول إنه على عكس عدد كبير من زملائه كان دائماً يتخذ مواقف معتدلة نسبياً حول المسألة الفلسطينية. الإسرائيلية.

موتورز يصلح للولايات المتحدة" نقول اليوم من وجهة نظر إدارة بوش "إن ما يصلح لشركة هاليبورتون يصلح للولاية المتحدة".

مصرف كارلايل غروب الاستثماري الذي يدخل الاستثمار العسكري ضمن نطاق اهتماماته يستحق بلا شك أن نشير إليه إشارة خاصة لما له من شهرة براقة. وهذا يعود إلى هوية قاداته ومستشاريه، المنحدرين من الطبقة الحاكمة الجمهورية منذ الثمانينات^(١)، وإلى علاقاته التجارية بالعائلات السعودية الكبرى ومنها عائلة بن لادن. ومن المبالغة القول إن هذه المجموعة تقوم برسم الإدارة الأمريكية (أو العكس). أحد أكبر برامج التسليح الذي ألغاه دونالد رامسفيلد وهو مدفع Crusader تم إنتاجه في أحد فروع شركة كارلايل.. وسبب براعة المجموعة تكمن في تكتيكاتها التي تتطوي إحداها على المشاركة المخططة في الشركات الاستراتيجية، أو الواعدة تكنولوجياً. ولكن قريباً من أوساط السلطة يمكن اعتباره نموذجاً للمجمع الصناعي . العسكري الذي فضحه دوايت إيزنهاور بعد خروجه من البيت الأبيض.

أخيراً، مع أن وسائل الإعلام الأمريكية الأكثر شهرة في أوروبا تنتقد في مجملها إدارة بوش (نيويورك تايمز والواشنطن بوست) أو ذات نبرة حيادية إزاء هذه الإدارة (مثل CNN)، لكن هذا الأمر لا ينطبق على الشبكات الكبرى التي تنتمي إلى اليمين. إذ تبين أن شبكة فوكس نيوز، على سبيل المثال، شكلت منذ أحداث الحادي عشر من أيلول ناقلاً فاعلاً لسياسة إدارة بوش من خلال تركيزها الفاضح على مخاوف الرأي العام الأمريكي.

"رجال الظل الرئيسيون" في رسم الاستراتيجية الأمريكية

* **إليوت أبرامز:** مستشار الرئيس لشؤون الشرق الأوسط. عمل في السبعينات لحساب النائين اللذين يرفعان شعارات المحافظين الجدد، وهما السيناتور جاكسون والسيناتور مونييهان. وكان في وزارة الخارجية أحد ملهمي خطاب رونالد ريغان الشهير حول عالمية القيم الديمقراطية (١٩٨٢)، وساهم منذ وصوله إلى مجلس الأمن القومي عام ١٩٨٦ في ديمقراطية آسيا وأمريكا اللاتينية، كما شارك في التقريب بين الطائفة اليهودية واليمين المسيحي قبل أن يتورط في قضية "إيران . كونترا". انضم إلى مجلس الأمن القومي عام ٢٠٠١ حيث تسلم في البداية ملف الديمقراطية وحقوق الإنسان ثم ملف الشرق الأوسط منذ كانون الأول من عام ٢٠٠٢.

* **ستيفن كامبون:** وهو أوفى مستشاري دونالد رامسفيلد إذ يشترك معه في القدرة على العمل واتباع الأساليب التي غالباً ما تتسم بالفظاظة. سبق له أن عمل في وزارة الدفاع خلال رئاسة بوش الأب (مسؤولاً عن الدفاعات المضادة للصواريخ) وانتقل بعد عدة سنوات ليكون إلى جانب رامسفيلد في مهام التدقيق على انتشار الصواريخ الباليستية والفضاء. وبسبب عداوته للصين انضم إلى أشد التيارات الوطنية تطرفاً. في وزارة الدفاع، عمل في مختلف أقسامها، مثل وظيفة معاون وزير لشؤون

(١) من هؤلاء: فرانك كارلوتشي (وزير الدفاع السابق في عهد ريغان) والرئيس السابق جورج بوش الأب، وجيمس بيكر (وزير الدفاع السابق في عهد بوش الأب).

الاستخبارات، التي استحدثتها رامسفيلد.

* **دوغلاس جاي فيث:** المدير السياسي لوزارة الدفاع، ويعد من المقربين من ريتشارد بيرل، وهو ليكودي منحاز إلى مواقف هذا الحزب الإسرائيلي المحافظ، ويعد من أصلب الداعمين الفاعلين لحكومة شارون في الإدارة الأمريكية، وهو على العكس من غالبية المحافظين الجدد، لا يشتهر بثقافته أو بقيمة تحليلاته.

* **ستيفن هاليداي:** المستشار الجديد لشؤون الأمن القومي. توزع عمله بين القطاع الخاص (الشركة القانونية شي أند غارنر)، وبين وزارة الدفاع، حيث عمل فيها إبان رئاسة بوش الأب مع وولفويتز. ينتمي إلى التيار "الواقعي"، ومتأثر بثقافة الحرب الباردة، لكن ميوله وطنية، وهو مقرب من ديك تشيني، وسبق له أن كان مساعداً أساسياً لكوندوليسا رايس خلال رئاسة بوش الأولى.

* **زالماي خليل زاد:** حالياً يشغل منصب سفير الولايات المتحدة في أفغانستان. هذا المحافظ الجديد ذو الأصل الباشتوني، درس مع وولستيتز وعمل في وزارة الخارجية في الثمانينات (حيث لعب دوراً أساسياً في المساعدة الأمريكية للمجاهدين الأفغان)، وفي وزارة الدفاع إلى جانب وولفويتز. بعد ذلك انضم إلى معهد راند كوربوريشن. في أعقاب انتصار السيد بوش عام ٢٠٠٠ (أصبح مسؤولاً عن الفريق الانتقالي في وزارة الدفاع)، ثم انضم إلى مركز الأمن القومي، حيث تسلم منصب مسؤولية الشرق الأوسط حتى كانون الأول من عام ٢٠٠٢. ومنذ ذلك الوقت ما زال سفيراً في كابول ويعد بمثابة "نائب ملك" حقيقي في البلاد^(١).

* **لويس ليبى الابن (المسمى بالكشاف Scooter):** مدير مكتب تشيني ومستشاره الرئيسي. ويكن إعجاباً شديداً لتشرشل. عمل في وزارة الخارجية خلال رئاسة ريغان، ثم في وزارة الدفاع خلال رئاسة بوش الأب مساعداً لبول وولفويتز. ويعد أحد "الصقور" المؤثرين في ما يتعلق بالشؤون الصينية.

الفصل الرابع: ساحات عمل الولاية الثانية

سيكون السيد بوش ملزماً بالتغلب على ما يسمى اصطلاحاً "لعنة الولاية الثانية". نادراً ما يغير الرؤساء الأمريكيون توجهاتهم بعد انتخابهم لولاية ثانية لأنهم يعتبرون أن شرعيتهم أصبحت أكثر رسوخاً، وغالباً ما يسعون إلى مزيد من المغامرة، بينما تعاني إدارتهم صعوبة في تغيير نهجها. وهو ما يفسر الصعوبات التي غالباً ما تعترض الولاية الثانية. دون حساب المفاجآت التي تبرز على الصعيدين الداخلي والخارجي. لقد شوّه فرانكلين روزفلت صورته حينما عبر عن شعوره في تغيير توازن السلطات في كنف المحكمة العليا. كما واجه ترومان تبعات حرب كوريا، وشهدت فترة رئاسة إيزنهاور انكماشاً اقتصادياً وأزمة طائرة U2. وكانت فيتنام من نصيب جونسون، وابتلى نيكسون بفضيحة واترغيت، وريغان بقضية إيران كونترا، وفضيحة كلينتون مع لوينسكي معروفة، حيث أدت إلى البدء بالالتزامات الرامية إلى عزله Impeachment. ويمكننا التذكير كذلك بأن انتخابات منتصف الولاية نادراً ما كانت لصالح الرؤساء الذين

(١) خلال ترجمة هذا الكتاب عين خليل زاد سفيراً في العراق بعد نقل نيغروبونتي (المترجم).

يعاد انتخابهم.

في المرحلة القادمة، سيستمر الرئيس في توسيع الساحات التي فتحت عام ٢٠٠١ لا سيما وأنه يمسك بكل روافع السلطة ويعتمد على فريق ازداد تماسكاً وتجانساً. ويأمل الجمهوريون تحقيق ما نجح فرانكلين روزفلت بتحقيقه في الثلاثينيات، وهو ضمان استمرار معسكره لعدة عقود قادمة، وتحويل الحزب الديمقراطي إلى حقل من الخرائب ويهدف المغالون في الطموح، والذين لم يقبلوا أبداً التسامح الاجتماعي والجنسي الذي حققته نضالات الستينيات، إلى كسب "الحروب الثقافية" التي تهز أمريكا منذ تلك الفترة، وأبرزهم العطاء والعودة إلى إصلاحات New Deal^(١).

ليس في نية الرئيس بوش التوقف عن إصلاحاته أو حرفها في اتجاهات أخرى. بل يعتبر أنه ربح رأسمال يريد إنفاقه. وإعادة انتخاب قائد سياسي من شأنه أن يقود إلى الديمقراطية حينما يفكر (غالباً)، قبل أي شيء، في المكانة التي سيحتلها في التاريخ، ويعتبر أن مكانته التاريخية ستحدد من خلال استمراره في تطبيق برنامجه.

الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

منعت أحداث الحادي عشر من أيلول جورج دبليو بوش من تركيز اهتمامه على الجبهة الداخلية، وبقي عمله فيها محدوداً باستثناء ثلاثة أمور هي: الإعفاءات الضريبية الكبيرة (أكثر من ٢٠٠٠ مليار دولار)، الإصلاح التربوي، الذي اضطر المدارس إلى تحقيق بعض الأهداف، لا سيما في موضوع القراءة (No Child left Behind)، وإصلاح منظومة الصحة بحيث تتيح للعجزة الغارفين في الفقر إمكانية الحصول على الأدوية. وتقرب رؤيته لدور الدولة من رؤية المحافظين الجدد أكثر من قربها إلى رؤية اليمين الكلاسيكي، لأنه ميّال إلى تدخل الدولة الفيدرالية في حياة الأمريكيين تحت اسم "المحافظة الرحيمة". لكنه، من الآن فصاعداً، يسعى إلى تحقيق ما فاتته لا سيما وأن اليمين المسيحي ينتظر منه الكثير. يقول توم دولاي، زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب: "سنتمكن من قيادة هذا البلد في الاتجاه الذي طالما حلمنا به منذ عقود: [..] وسنعيد وضع الله في الفضاء العام"^(٢). والخيارات التي سيقدمها السيد بوش إلى المحكمة العليا ستكون حاسمة: إذ إن تعيينه لقاض أو لعدة قضاة معتدلين سيشكل فعل مصالحة وطنية. وهو ما قام به روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية، حينما عين هارلان ستون رئيساً للمحكمة. أما تعيين قضاة محافظين سيعني وضع "ثورة بوش" في الزمن الذي قد يستمر لعدة عقود.

إحدى أهم المسائل التي ستطرح خلال الولاية الثانية هي مسألة الزواج المثلي، بعد أن أصبح ملفاً شائكاً منذ ١٨ تشرين الثاني ٢٠٠٣ حينما حكمت المحكمة العليا في ولاية ماساشوسيت، بأغلبية أربع أصوات مقابل ثلاثة، بل هذا الأمر يقع ضمن اختصاص القانون الدستوري، بعد أن تبين للبيت الأبيض جلياً فائدة هذا الجدل، وقف السيد بوش إلى جانب إجراء تعديل دستوري اتحادي استجابة لهذا الغرض، دون أن يحوله إلى صراع، لمعرفة أنه من شأن هذه المسألة استثارة الجماهير الإنجيلية. وهو ما حدث

(١) التفاهم الجديد، أو "التوزيع الجديد" وهو اسم البرنامج الذي وضعه روزفلت بين عام ١٩٣٣، ١٩٣٨.

(٢) DeWayne Wickham "Buch faces keen pressure to reward faithful" USA Today 8 November 2004. مقبوس عن

فعلاً بعد أن رفض مجلس الشيوخ مبدأ مثل هذا التعديل في ١٤ تموز ٢٠٠٤.

يبقى موضوع الإجهاض مسألة مركزية. ومن غير المؤكد أن تعود المحكمة العليا عن قرارها Roe Vs Wade (١٩٧٣) الذي كرس وجود الحق في هذا المجال. أضف إلى ذلك أن بوش لم يقل إنه كان يتمنى هذا الأمر، لكن ممارسة الإجهاض ستكون، دون شك، بمثابة تنقيب حقيقي (إذ يمكن، على سبيل المثال، جعل اقتراح تخدير الجنين إلزامياً).

في المجال التربوي سيشهد تشجيع الأطروحات الدينية انطلاقة جديدة تحت ضغط الكونغرس. وفي هذا المجال نذكر أن الكنائس الإنجيلية تدافع بشدة عن نظرية ثبوت الخلق Crèationnisme، وهي نظرية تسعى للبرهنة على الحقيقة التاريخية للرواية التوراتية، اعتراضاً على الداروينية ونظريتها في التطور. وأصبح أتباع هذه النظرية شديدة التأثير منذ الثلاثين عاماً داخل المنظومة التربوية الأمريكية ولهم مراكز جامعية تسعى إلى إلباس تلك النظرية اللبوس العلمي. وهو رهان رمزي قوي لأنه يشكل موضوعاً (لحرب ثقافية قديمة).

أما برنامج الإصلاحات الاقتصادية فهو أيضاً برنامج طموح. يذكر أحد المعلقين: إن جورج بوش يشبه القطاعة، من حيث راديكاليته الاقتصادية ويتمنى إزالة النظام القائم ليحل نظامه محله^(١). وينوي، على وجه الخصوص، تركيز عمله على المجال المالي. فالتخفيضات الضريبية التي تنتهي مدة صلاحيتها نظرياً في عام ٢٠١٠ قد تصبح دائمة. وإلا هناك خطر الوقوع في عجز إضافي في الموارد يقدر بـ ٢٠٠٠ مليار دولار على مدى عشر السنوات القادمة، لا سيما وأن قانون الضرائب مرشح للتعديل: الخيارات كلها مطروحة على بساط البحث، بعضها جذري (توحيد معدل الضريبة، فرض ضريبة فيدرالية على المبيعات..)، وأخيراً يأمل اليمين في إلغاء رسوم التركات بشكل نهائي^(٢).

من المنتظر القيام بإصلاحين هامين هما: الإصلاح التقاعدي (التأمين الاجتماعي الذي وضع في فترة New Deal وإصلاح المنظومة العامة للصحة أي المساعدة الطبية Medicaled. بالنسبة للتقاعد، تنطوي الخصخصة الجزئية على إمكانية استثمار جزء من الأموال في الأسواق التي بقيت حتى الآن منقولة في منظومة توزيع عامة^(٣). في الحالتين، هناك سعي لتشجيع نشوء "مجتمع الملاكين Owner Ship Society". وقد حدد السيد بوش هدفه في بناء ٧ ملايين سكن بأسعار مخفضة خلال عشر السنوات القادمة. والهدف، كما قال غروفر نوركيست، أحد كبار الضاغطين الجمهوريين، هو تحويل الولايات الزرقاء الديمقراطية التي تعج بالمستأجرين، إلى ولايات حمراء، أي إلى ولايات جمهورية وهي التي تتألف غالبية سكانها من الملاكين^(٤).

الميزة الطموحة لهذا البرنامج تكتسب معناها حينما ننكب على دراسة الحسابات العامة الأمريكية. وفقاً للتوقعات الرسمية الحالية من المتوقع أن ينفجر الاتفاق العام، الذي يمكن الاستدلال عليه من خلال

(١) Allan Sloan "prediction: more Cuts are coming" Newsweek 22 November 2004.

(٢) قد يعني هذا أيضاً العمل على جعل التركات أقل جذباً للجمعيات التي تمول أعمال مراكز التفكير، لأن اليمين برلها متعاطفة تقليدياً مع الأفكار الديمقراطية.

(٣) سبق للجنة الرئاسية حول التأمين الاجتماعي أن أوصت في عام ٢٠٠١ بالتزام الحيطه في فتح هذه الإمكانية.

(٤) We Well Crush them Again 2004 مقابلة مع غروفر نوركيست في مجلة نيوزويك، ٢٢ تشرين الثاني

منظومتى التأمين الاجتماعي والمساعدة الصحية على وجه الخصوص في السنوات القادمة ليصل إلى ١٥% من الناتج الوطني الصافي^(١) PNB في عام ٢٠٤٠؛ عندها قد يرتفع العجز في الميزانية إلى ٢٠% من الناتج الوطني الصافي. وستقتضي الإصلاحات المزمع إنجازها إنفاقاً إضافياً على المدى القصير. ستودي الخصخصة الجزئية للضمان الاجتماعي إلى نشوء مرحلة انتقالية ستصل فيها التمويلات العامة اللازمة إلى ١٠٠٠ مليار دولار خلال عشر سنين، وربما تبلغ ٥٠٠٠ مليار دولار خلال عشرين عاماً.

وبالتالي لن يكون أمام السيد بوش سوى خفض النفقات بشكل كبير. خلال السنة المالية ٢٠٠٤ بلغ العجز في الميزانية ٤١٥ مليار دولار، أي ما نسبته ٣,٦% من الناتج الوطني الصافي (أما العجز في ميزانية المدفوعات فقد بلغ ٥,٧% من الناتج الوطني الصافي). وتلحظ الخطة التي عرضت على الكونغرس تخفيض العجز إلى النصف خلال عام ٢٠٠٨. وبقيت ميزانية الأمن والدفاع معفاة من مجهود النقش المطلوب منذ عام ٢٠٠٤ من الوزارات الأخرى. لكن المؤكد أن هذا الأمر لن يستمر طويلاً. من جانب آخر ترى الإدارة أن هناك منجم اقتصادات في أشكال إدارة العاملين الفيدراليين، وهو ما تنوي إصلاحه كلياً.

هناك إصلاح آخر تنوي الإدارة القيام به (وهو مشروع شخصي يشغل بال السيد بوش منذ فترة طويلة) يهدف إلى توفير عشرات المليارات من الدولارات على الشركات الأمريكية، وهو مشروع يستند إلى مراجعة قوانين الخطأ Tort Laws التي تحدد شروط المسؤولية القانونية في العلاقات التعاقدية وتسمح، كما هو معروف، برفع دعوى ارتكاب خطأ في استهلاك منتج معين أو الخطأ في تقديم الخدمة، على سبيل المثال. وينطبق هذا القرار أيضاً على المسؤولية الطبية وقانون العمل. وهذه الفكرة لا تهدف إلى حماية الشركات الأمريكية فحسب بل أيضاً إلى "وضع الفرد أمام مسؤولياته" وفقاً للتقاليد الليبرالية.

أخيراً، وإن يبدو أن موضوع البيئة لا يحتمل الأولوية المطلقة خلال الولاية الأولى للسيد بوش، إلا أن الإدارة التي استعادت مكانها، قد غيرت نيتها في سن معايير جديدة تقوم عليها الصناعة الأمريكية. وهذا يعني فرض الحد الأقصى من الضرائب على انبعاثات الزئبق وأوكسيد الآزوت وديوكسيد الكبريت على الصعيد الفيدرالي (مبادرة "السموات النقية" Clear Skies، وتشجيع تطوير المفاعل ذي الشوارد الغازية Pile combustibles؛ في الوقت ذاته يبقى السعي إلى تقليص الاعتماد على بترول الشرق الأوسط أولوية مطلقة، وربما لن يتوقف التتقيب عن آبار أخرى في الاسكا ربما لاعتبارات بيئية.

الدفاع والمخابرات: مراجعات مؤلمة

علينا ألا نتوقع من السيد بوش خلال ولايته الثانية تحولاً في عقيدته حول مسألة استخدام القوة. وسيبقى خيار الضرب الاستباقي ممكناً كما كان الأمر عليه إبان الحرب الباردة بالنسبة للسلاح النووي وحتى خلال ولاية كلينتون في ما يتعلق بالحرب على الإرهاب. في المقابل، لا شك أن النسخة المتطرفة لهذه الحرب، أي الحرب الوقائية قد فقدت مصداقيتها بسبب الفشل في العثور على أسلحة الدمار الشامل في العراق.

(1) The third Rail the Economist 9 October 2004.

بالنسبة للجنود الأمريكيين، ستشهد سياسة الدفاع الأمريكية تطورات جديدة بسبب التجربة المكتسبة في تطور ثقافة "الشركة" بالنسبة للجيش الأمريكي. وعلينا انتظار نهاية ٢٠٠٥، بعد نشر تقرير استراتيجية الأمن القومي الجديدة والعدد الجديد من مجلة الدفاع التي تصدر كل أربع سنوات Quadrennial Defense Review، لنعرف كيف سيستخلص كل من البيت الأبيض ووزارة الدفاع العبر من الأزمات الحديثة.

على أية حال، ستشهد سياسة الدفاع الأمريكية تطورات جديدة سببها التخفيضات الإلزامية في النفقات العسكرية. ونتوقع أن تشهد عملية "تغيير" (ما كنا نسميه قبل عدة سنوات "ثورة الشؤون العسكرية") تسارعاً هاماً. وهو ما يفسر جزئياً سبب الاحتفاظ بدونالد رامسفيلد في وظيفته. مما يعني، بالنسبة للبنتاغون، تخفيض عدد الوحدات القتالية الثقيلة ورفع وتيرة التعاون بين مختلف منظومات القوات التي ترتبط بعمود فقري يتكون من وسائل القيادة والمراقبة والاتصالات المدمجة القادرة على الرد المباشر تقريباً عمودياً وأفقياً على معطيات المعلومة المتوفرة. الحملة على العراق وخصوصاً غزو أفغانستان (حيث لم يكن ضرورياً نشر أية قوات ثقيلة) يشكلان نموذجاً لرامسفيلد في هذا المجال، لكن لكي يتسنى خفض نفقات الدفاع سيتوجب على رامسفيلد النضال ضد مؤسسة بيروقراطية محافظة وضد الكونغرس، المعروفين بسهرهما الدقيق، مع الصناعات الدفاعية، على البرامج العسكرية المنجزة في الدولة.

لم تنتشر الطائرات الاعتراضية المضادة للصواريخ الباليستية المخصصة لحماية الأراضي الأمريكية بشكل سري إلا في خريف ٢٠٠٤، بعد أن كان متوقعاً منذ عام ١٩٩٦. حتى هذه المرحلة فإن الأمر يبقى رمزياً لأن الفكرة تقوم على ردع القوى الإقليمية عن الاستثمار في منظومات بعيدة المدى من شأنها ابتزاز الولايات المتحدة. لكن إذا نشأت أزمة جدية مع كوريا الشمالية خلال السنوات القادمة، فإن تلك الطائرات الاعتراضية قد تشكل قدرة أولية للدفاع عن الأرض على الرغم من الصعوبات الفنية.

سيبدأ البنتاغون أيضاً بنشر تقريره عن الوضع العالمي "Global Posture Review" المعلن عنه في أيلول ٢٠٠٤. ويتضمن هذا التقرير إجراء تغييرات على الآلة العسكرية للولايات المتحدة لكي تتلاءم مع تطورات السباق الاستراتيجي والسياسي علماً أن هذه الانتشارت (١٠٠ ألف جندي في أوروبا وما يساوي هذا العدد في آسيا) لم تتطور منذ نهاية الحرب الباردة. وستقل أهمية القواعد الرئيسية Main Operating Bases لحساب مواقع العمليات المتقدمة Forward Operating Sites ومواقع التعاون الأمني Location Cooperative Security. وستتم إعادة ما يقرب من ثلث الجنود المنتشرين إلى الولايات المتحدة، وتقليص عدد القوات الموجودة في آسيا وزيادة عددها فوق الأراضي الأمريكية في المحيط الهادي (غوام، هاواي)، بهدف رفع مستوى الوجود الأمريكي ليكون قادراً على القتال في أي مكان من العالم خلال عشرة أيام، والقضاء على العدو الإقليمي خلال ثلاثين يوماً ولكي يكون الجيش جاهزاً لتنفيذ عمليات كبيرة أخرى خلال ثلاثين يوماً^(١).

سيكون قرار إصلاح المخابرات، الذي وافق عليه الكونغرس في ٩ كانون الأول ٢٠٠٤، أهم قرار في هذا الشأن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. يتكون (مجمع المخابرات) من خمس عشرة وكالة، أهمها عدداً وميزانية وكالة الأمن القومي (NSA) National Security Agency المكلفة أساساً بالنقاط الاتصالات.

^(١) The US Global Posture Review. Eill Deployment Ease The Strain?.. Strategic Comments, September 2004. International Institute for Strategy Studies (IISS)

ويعد مدير المخابرات المركزية، من الناحية النظرية، قائداً لمجمع المخابرات Communauté du renseignement ، لكن أحداث الحادي عشر من أيلول وقضية أسلحة الدمار الشامل العراقية كانت بمثابة الصدمة بعد اكتشاف ضعف التنظيم الحالي لتلك الأجهزة. الفكرة تتألف من شقين: مركزة سياسة الاستخبارات من خلال إحداث منصب ذي مرتبة وزارية في البيت الأبيض، وثانياً: تحسين الاتصال بين مختلف الوكالات، لاسيما بين وكالة المخابرات المركزية CIA ومكتب التحقيقات الفيدرالي FBI في غضون ذلك قام بورتر غوس، المدير الحالي لوكالة المخابرات المركزية بحملة تطهير داخلي أثلجت قلوب المحافظين الجدد.

أما وزارة الأمن الداخلي Homeland Security department، التي أحدثت مؤخراً، فلم تتحدد طبيعة عملها بعد ضمن الجهاز، وهي بعد عامين على إحداثها ما زالت في مرحلة التكون والتعزز، أخيراً... سيكون تجديد قانون المواطنة Patriot Act الذي ستنتهي صلاحيات عدة بنود من أحكامه في عام ٢٠٠٥، مناسبة تدور فيها مناقشات جديدة بهدف الفصل بين الأمن الداخلي وبين الحريات العامة. وبالتالي من المتوقع أن تستمر إصلاحات جهاز الأمن بصعوبة.

حروب الولايات المتحدة:

أولاً: في مجال السياسة الخارجية، من المفيد الحديث عن الثابت خلال الولاية الثانية للرئيس بوش، وهو عدم الرجوع إلى التعددية"، لأن الإدارة في حد ذاتها ليست كذلك، كما يحلو القول لبعضهم: فأحياناً تجدها منفتحة على التسوية مع الحلفاء (على سبيل المثال، المقطع المتعلق بالعراق في الأمم المتحدة كان مستوحى في قسم كبير منه من طوني بلير، ومبادرة أمن انتشار أسلحة الدمار الشامل Proliferation Security Initiative ، أو مراجعة خطة دعم الإصلاحات في الشرق الأوسط). بعد ذلك، ومع إعادة انتخاب بوش ارتاحت الإدارة لخياراتها خلال عام (٢٠٠١ . ٢٠٠٢)، في عهد بوش، أصبح من المؤكد أنه لن يتم التصديق على معاهدات الحظر الكامل للتجارب النووية أو اتفاق كيوتو أو معاهدة إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، ولن تقبل الولايات المتحدة دعم سعر صرف الدولار طالما أن انزلاقه منذ عام ٢٠٠٢، يخدم مصالحها. في المقابل، ستستمر الإدارة في التفاوض على اتفاقيات التبادل الحر على المستويين العالمي والإقليمي وعلى المستوى الثنائي (على الأقل لمكافحة شركائها في الحرب ضد الإرهاب).

إن فرضية "العودة إلى الوضع الطبيعي" قد تضاءلت مصداقيتها لاسيما أن المعيار الأمريكي لم يكن عبر تاريخه ذو توجه تعددي. وكما ذكرنا سابقاً، ربما تكون أحداث الحادي عشر من أيلول، قد وضعت نهاية لما أراده فرانكلين روزفلت، ولن تكون الولاية الثانية للسيد بوش معادلة لولاية ريغان التي يستشهد بها العديد من الأوروبيين كمثال على مساندة آمالهم في إعادة التوجه الأمريكي، ناسين أنه لن يكون هناك غورباتشوف في "المعسكر المقابل"

وتبقى ساحة العمل الرئيسية ما تسميه أمريكا "الحرب العالمية على الإرهاب" Global War on terror التي تتطوي على اللجوء إلى كل الوسائل اللازمة للقضاء على الشبكات الإرهابية والانتشار غير المشروع لأسلحة الدمار الشامل والأنظمة الديكتاتورية، الحرب على الإرهاب . أي الشبكات والدول الداعمة لها، كما تقول عقيدة بوش . النتائج المرجوة منها. في عام ٢٠٠٤ قيل إن ٧٠% من زعماء القاعدة لم يعودوا قادرين على القيام بأعمال مؤذية (بمن فيهم خالد شيخ محمد قائد العمليات فيها) وأنه تم تقليص قدرة هذا

التنظيم بنسبة ٨٠% وقل عدد أعضائه من ١٠٠٠ عنصر، وتم تجنب أكثر من مائة هجوم إرهابي^(١)، وهناك ما بين ٢٠٠٠/و/٣٥٠٠/ مقاتل ينتمي إلى التيار الإسلامي السني تم قتله أو أسره^(٢)، وتم تجميد أو مصادرة بضع ٢٠٠/ مليون دولار تعود ملكيتها إلى إرهابيين^(٣)، كما قامت السعودية بإغلاق مؤسسة الحرمين المشتبه في مساهمتها بصورة غير مباشرة عن تمويل الإرهاب الإسلامي، أضف إلى هذا أن أفغانستان والعراق لم يعودا يشكلان قاعدة خلفية لأية شبكة إرهابية من نمط القاعدة، ساهمت (الحرب على الإرهاب) في إزالة شرعية اللجوء إلى العنف المسلح الذي تنادي به بعض الحركات الانفصالية أو الاستقلالية^(٤)، وتعطلت دول مثل إيران والسودان وسورية جزئياً ربما لخوفها من أن تكون هدفاً للتدخل الأمريكي^(٥). في الوقت نفسه أثارت عمليات أفغانستان والعراق حماية بعض الجماعات المتطرفة وارتفع عدد الأفعال الهامة التي يقوم بها الإرهاب الدولي^(٦)، كانت شبكة القاعدة تقوم بعمليات كل سنتين على الأقل قبل الحادي عشر من أيلول فأصبحت هذه العمليات تنفذ كل ثلاثة أشهر^(٧)، وبلغت هذه الموجة شواطئ أوروبا بدليل العمليات التي تم تنفيذها في كل من تركيا (كانون أول ٢٠٠٣)، وإسبانيا (آذار ٢٠٠٤)، ولم تتمكن القوات الأمريكية والباكستانية من تسجيل نقاط في المنطقة الحدودية الفاصلة بين أفغانستان وجارتها. وهناك ما يقدر بـ ١٨٠٠٠/ مقاتل ينتمون إلى الطيف الإسلامي ما يزالون فاعلين في أكثر من ستين بلداً^(٨).

لقد رفع السيد بوش السقف عالياً حينما أعلن أن هدفه ليس الحد من التهديد بل كسب الحرب ضده، طبعاً، حينما يذكر الرئيس الأمريكي، على غرار المحافظين الجدد، أن الصراع سيمتد إلى جيل فإنه لن يشعر بالحاجة إلى كسب الحرب حينما يغادر البيت الأبيض في كانون الثاني من عام ٢٠٠٩، ترى، هل عدم وقوع هجوم كبير على الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت، والقبض على أسامة بن لادن (أو معاونة أيمن الظواهري وإن لم يكن يرمز إلى الحادي عشر من أيلول بنظر الرأي العام) بالنسبة للناخب الأمريكي حصيلة كافية لإدامة الهيمنة الجمهورية؟...

تتناقض المحصلة أيضاً في مجال انتشار أسلحة الدمار الشامل، فالنشاطات الممنوعة في العراق لم تكن متقدمة كما كانت تعتقد المخابرات الغربية قبل الحرب؛ لكن على أية حال، فإن هذا البلد لم يعد يشكل خطراً محتملاً في هذا الجانب. لاشك في أن تنازل ليبيا عن أسلحة الدمار الشامل يعود في جزء كبير منه إلى الموقف الحربي الذي أبدته الولايات المتحدة وحلفاؤها، والأمر نفسه ينطبق على السودان، أخيراً ساهمت مبادرة الأمن ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل في فضح التجارة النووية غير المشروعة التي قادها العالم الباكستاني عبد القادر خان. لكن السياسة الأمريكية خلقت شعوراً بعدم الأمن لدى

(١) Rohan Gunaratna "The Post –Madrid Face Of Al –Qaeda" The Washington Quarterly, été 2004 .

(٢) ٢٠٠٠/ بحسب المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، وأكثر من ٣٤٠٠ بحسب وزارة الخارجية.

(٣) Jonathan Stevenson, «The New Face of Old –Style Terrorism» , The International Herald Tribune, 3 December 2003.

(٤) David E. Sanger et Neil Mac Farquhart, "Taking Look Back at the axe of evil, The National Herald Tribune, 20 Janvier 2004, et ISSS, "Perspectives" Op. Cit .

(٥) Alan B. Kruger et David Laitin "Faulty Terror Report Card" The Washington Post , 17 mai 2004.

(٦) Rohan Gunaratana, "Al – Qaeda Adapts To Disruption" , Jane's Intelligence Review . Février 2004.

(٧) IISS, Perspectives, Op. Cit.

(٨)

الأنظمة التي تعارض القوة الأمريكية. وعلى هذا فإن رسمي كوريا الشمالية مصممون على تطوير الأسلحة النووية: "لردع أي هجوم استباقي أمريكي [...]، ويقولون بأنهم لا يريدون أن يحل بهم ما حل بالعراق^(١). أما إيران، التي تحوم الشكوك حول حقيقة برنامجها النووي كما بينته الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فهي تفكر بالطريقة نفسها لاسيما وأنها تملك مخزوناً ضخماً من الهيروكاربورات، وسيكون كسب الحرب على عدم انتشار أسلحة الدمار الشامل صعباً كما الحرب على الإرهاب. أضف إلى ذلك أن فكرة الحد من نقل التكنولوجيا النووية لأغراض مدنية (تخصيب اليورانيوم، معالجة النفايات) التي طرحتها واشنطن لتجنب تحويلها إلى غايات عسكرية، لم تلق نجاحاً. من جانب آخر، إيران وكوريا الشمالية، اللتان تشكلان المشكلتين الكبريين في مجال نشر أسلحة الدمار الشامل بنظر إدارة بوش تثيران معضلة جدية، فإما أن تنتكر الولايات المتحدة لمواقفها إن وافقت على شرعية هذين النظامين، وإما توافق على إمكانية امتلاكهما للسلاح النووي. عندئذ تبقى مسألة معرفة ما إذا كان يتوجب عليها اتباع سياسة تشجيع تغيير النظام (كما حدث مع النظام العراقي عام ١٩٩٨) مسألة مفتوحة. في الحالتين، يبقى اللجوء إلى الطريق الدبلوماسي هو الطريق الأفضل على اعتبار أن استخدام القوة مستبعد في الوقت الحالي.

من المؤكد أن نجاح العمليات الجوية على مواقع هذين البلدين النوويين (إيران وكوريا الشمالية) لن يضمن تحييد برامجهما، إضافة إلى أنه لا يمكن توقع ردود فعلهما إزاء مثل هذه العمليات. زد على هذا أن عدداً من المحللين يتفقون على أن زيادة الضغوط الاقتصادية من شأنها ثني بيونغ يانغ وطهران عن مشروعهما. وفي الحالتين تبقى الصين ممسكة بمفاتيح القضية^(٢).

يبقى هناك مجال ثالث أكبر وأوسع هو "الحرب على الديكتاتورية"، أو ما يسميه بول وولفويتز "تحرير القوى الديمقراطية"^(٣)، أحد الموضوعات الرئيسية في السياسة الخارجية الأمريكية القائل بأن ديمقراطية البلدان "المنتجة للإرهاب" وتحديثها من شأنه وضع حد لهذا التهديد. وحققت السياسة الأمريكية بعض التطورات الإيجابية في هذا المجال. فالسلطات الباكستانية والسعودية نفسها التي يتهدها الإرهاب بشكل خاص لم تترك الباب مفتوحاً أمام الحركات التي حاولت استخدامها في السابق، وبدائيات الإصلاحات التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، حتى لو كانت جزئية، تعزى إلى الضغوط الغربية. ومع أن دينامية الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني على حالها لكن تطورات هامة حدثت منذ عام ٢٠٠١ مثل تعيين رئيس وزراء فلسطيني.

في المستقبل تنوي الولايات المتحدة تطبيق خطة تتعلق بالشرق الأوسط الكبير تقوم على دعم الإصلاحات والتحولات الاجتماعية والثقافية في منطقة تمتد من المغرب إلى الباكستان. وتم الاتفاق على أن تهتم عدة أطراف دولية. بعد اجتماع قمة الثمانية G8 في سي إيزلاند ٢٠٠٤ بهذا المشروع، وستكون

(١) Kim Yong Nam *in* Selig Harrison, "Inside North Korea: Leaders Open Ending Crisis", *The Financial Times*, 4, mai 2004.

(٢) أعلنت الصين في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٤ أنها غير مستعدة لدعم نقل الملف الإيراني إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة، بينما بدأ الأمريكيون والأوروبيون مستعدين لذلك إذا لم يتم الاتفاق على تعليق النشاطات النووية الإيرانية.

(٣) *Prospect*, December 2004 لقاء مع بول وولفويتز "We are trying to remove the shackles on democracy"

آثار هذه الخطة محدودة على المدى القصير لأن الأنظمة الشمولية ترى، بحق، أن الديمقراطية تشكل تهديداً لمستقبلها. وستقف هذه الدول عند حدود تقديم الضمانات، لاسيما أن واشنطن تعرف أن إجراء انتخابات بين عشية وضحاها لن تؤدي بالضرورة إلى نتائج تتفق مع مصالحها. لكن، على المدى البعيد، ستعتمد الولايات المتحدة على تأهيل نخب وتمويل حركات ديمقراطية لكي تشارك في تغيير تلك المجتمعات من الداخل.

في الواقع سيندر أن تكون حروب الولايات المتحدة ذات طبيعة عسكرية. أولاً، لأن أساس الحرب ضد الإرهاب يدور في الخفاء (من خلال المخابرات والشرطة والعدالة الخ...)، لأن النضال من أجل (الثورة الديمقراطية العالمية) يجري أولاً وقبل أي شيء فوق أرضيات سياسية واقتصادية واجتماعية. بعد هذا، لأن استخدام القوة على نطاق واسع ليس سوى آخر الخيارات لما ترى واشنطن، أما العراق فقد كانت حالة خاصة، ولم يعد اليوم هناك أية قضية تستحق أن تركز الولايات المتحدة طاقاتها عليها كما ركزتها على العراق. أما إذا كان استخدام السلاح الجوي ضد إيران، على سبيل المثال، مائزلاً ممكناً جداً، فإن شن حرب احتلال جديدة سيكون مستحيلاً طالما بقيت قوات المشاة مستترة في العراق.

ما زلنا نتذكر عبارة "محور الشر"، غير الموفقة التي استخدمها السيد بوش في كانون الثاني من عام ٢٠٠٢، والتي لم يتم تداولها أكثر من شتاء واحد ثم اختفت بعدها نهائياً من الخطاب الأمريكي. لكن البلدان التي تمت الإشارة إليها آنذاك كمثال (العراق وإيران وكوريا الشمالية) ستبقى بارزة في البرنامج الأمريكي خلال السنوات القادمة. مع التركيز على العراق وكوريا الشمالية لأن الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط هي التي ستحدد مستقبل السياسة الخارجية. لولاية السيد بوش المزدوجة.

إدارة الأزمات في الشرق الأوسط:

لاشك أن الأمن في العراق غير مرشح للاستتباب في المدى القريب، وبهذا فإن واشنطن تدفع ثمن عماها السياسي وضريبة الانقسامات الداخلية في دوائرها التنفيذية. لقد ركزت وزارة الدفاع اهتمامها على إسقاط نظام صدام حسين دون أن تفكر بالعواقب، بعد أن استبعدت وزارة الخارجية من عمليات الإدارة، وقللت من شأن انهيار بنى البلاد التحتية وبالغت في تقديرها لقدرة النخب المحلية على تشكيل بديل لنظام صدام حسين. إذ لم يكن في العراق أي كيان سياسي قائم عند وصول القوات الأمريكية بعد انهيار الجيش العراقي. وعدت خياراتها خاطئة أو مهينة حينما انتقلت من ترقية أحمد الجلبي وحزب المؤتمر الوطني العراقي الذي يتزعمه بعد أن كانا منفيين لا يتمتعان بأية صديقة محلية، إلى الإسراع في استصدار قرار من الأمم المتحدة أدى إلى إهمال كامل لسيادة البلد.

في المقابل، لم تتحقق التوقعات المشؤومة المنتظرة بسبب ما جرى في العراق. "الشارع العربي" الأسطوري لم ينتفض، وتمت المحافظة على وحدة العراق. ويمكن مقارنة الحالة في العراق عام ٢٠٠٤ بالحالة الاقتصادية والاجتماعية الكارثية في ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية عام ١٩٤٦. ربما سياسة وزارة الدفاع فاشلة، لكن من السابق لأوانه إطلاق الحكم على نجاح الرهان الأمريكي أو فشله. ربما تكون الإدارة وضعت نفسها في ورطة مخيفة لأن الفشل غير مسموح لها، إلا إذا أعادت النظر في عملية الهندسة الجيوسياسية التي شرعت فيها. وبقيت معايير "النجاح" الدقيقة بالنسبة لواشنطن غير واضحة. لقد اعتبرت الإدارة أن إجراء الانتخابات واعتماد نظام دستوري جديد خلال عام ٢٠٠٥ مرحلتين هامتين على هذه

الطريق. لكن تحقيق الأمن فوق الأراضي العراقية هو الوحيد الذي قد يسمح للولايات المتحدة بالبدء في سحب قواتها. وستسعى الإدارة إلى الشروع بتخفيض عدد قواتها بقدر الإمكان لتخفيف العبء الذي يقع اليوم على كاهل المشاة وجنود الاحتياط لتجنب تأثير الحالة العراقية على مجريات انتخابات الكونغرس في عام ٢٠٠٦.

في ما يتعلق بأفغانستان، وعلى الرغم من أن مطاردة الطالبان والقاعدة تبقى الهدف الأول للولايات المتحدة، لكنها ترغب في الاطمئنان على أن هذا البلد، وإن لم تتحقق فيه الديمقراطية كاملة وتامة (وهو لم يكن أبداً هدفاً لعملية أبدأ، بعكس العراق)، لن يعود في المستقبل قاعدة خلفية للشبكات الإرهابية، الاستراتيجية الأمريكية في هذا القطاع تتمحور حول هذا الهدف؛ ولن تشارك الولايات المتحدة في استعادة الإقطاعات التي يمسك بها زعماء الحرب المحليون أو تغيير زراعة الخشخاش إلا إذا كان مفيداً للحرب على الإرهاب. سبق لرامسفيلد أن تحدث في مذكرة داخلية تعود إلى شهر تشرين أول ٢٠٠٣ قائلاً إن عمل التحالف في أفغانستان والعراق سيكون مشواراً طويلاً وشاقاً.^(١)

هناك ساحة عمل أخرى تلوح في الأفق من الآن فصاعداً هي الساحة الإيرانية، على الرغم من الاتفاق الذي أبرمته إيران مع الأوروبيين في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٤، هناك شكوك في أنها تنازلت نهائياً عن الخيار النووي العسكري، ولا شك في أنها ستتمكن من صناعة عبوة نووية فاعلة خلال عامين أو ثلاثة أعوام على أبعد تقدير في غياب عمليات التفتيش الدولية المفاجئة. المسألة الجوهرية، بالنسبة لواشنطن تبقى في اختيارها أو عدم اختيارها لسياسة رسمية تقضي بتغيير النظام الإيراني. الحقيقة أن الولايات المتحدة ما زالت مترددة لأنها بحاجة إلى إيران من أجل محاربة القاعدة من جهة، ولكي لا تضيف إلى الأوجاع التي تعاني منها في العراق وجعاً آخر.

أضف إلى هذا أن إيران تعد أحد متشدي الداعمين للإرهاب في المنطقة، وفكرة وجود السلاح النووي بين أيدي رجال الدين الإيرانيين تبعث القشعريرة في نفوس الأمريكيين.

إذ ما تعلقت إيران، لاسيما بخصوص دعمها للحركات الإرهابية في الشرق الأوسط، قد يصبح كل شيء ممكناً بل ربما تغمض الولايات المتحدة عينيها عن احتفاظ طهران بما اكتسبته من معرفة علمية تتعلق بالمجال النووي العسكري. قبل الحادي عشر من أيلول، قدّر أكثر من محلل أميركي، بمن فيهم المنتمون إلى الأوساط الجمهورية، أنه يمكن لإيران الشيعية أن تتحول بعد مدة إلى حليف مفضل للولايات المتحدة في المنطقة. لكن استعادة المحافظين للنظام بعد انتخابات ٢٠٠٤، إضافة إلى التحدي الذي وجهته المنظومة الدولية الخاص بالبرنامج النووي، يجعلنا نتوقع نشوء أزمة كبيرة مع هذا البلد خلال ولاية بوش الثانية. ولم تعد فرضية قيام الولايات المتحدة أو إسرائيل بعمل عسكري ضده أمراً مستبعداً: قد لا يكون هدف هذا العمل إزالة المجمع النووي الإيراني من الوجود تماماً (لاحتمال وجود منشآت سرية) إنما تأخيرها ربما، وبالتالي زعزعة النظام. منشآت تخصيب اليورانيوم المعروفة مثل مجمع نانتاز، تقع على رأس مجموعة الأهداف التي يرمي هذا العمل إلى تحقيقه. لا شك في أنه سيتربط على هذا الخيار مخاطر جسيمة، إذ قد لا تتأخر طهران عن القيام بأعمال إرهابية ضد المصالح الإسرائيلية أو الأميركية (بما في

(١) A long, Hard Slog " نص منشور في USA Today , 16 October 2003.

ذلك العراق) من خلال إطلاق صواريخ شهاب ٣ على أراضي الدولة العبرية. وقد لا يتم اللجوء إلى هذا الخيار إلا في المقام الأخير. لكننا لا نعتقد بأن الإدارة الأمريكية ستكتفي بإطلاق التصريحات الحربية خلال أربع السنوات القادمة، عندها ستجد الولايات المتحدة نفسها بين خيارَي كبح البرنامج النووي أو زعزعة استقرار رجال الدين المحافظين بهدف تغيير النظام. الأزمّة الإيرانية ستجد طريقها إلى الحل قبل عام ٢٠٠٩، إما عن طريق التفاوض أو اللجوء إلى العقوبات أو استخدام القوة.

في الشرق الأوسط، أعاد غياب ياسر عرفات خلط الأوراق، منذ فشل المفاوضات التي جرت عند نهاية ولاية بيل كلينتون، كانت الأغلبية في الولايات المتحدة تعد رئيس السلطة الفلسطينية عقبة أمام السلام. لقد صرح السيد بوش بوضوح أنه مع قيام دولة فلسطينية، ووضع مع شركائه في اللجنة الرباعية "خارطة الطريق"^(١)، لكن أفضلياته الشخصية والإيديولوجية المهيمنة على النخب السياسية الأمريكية الحالية تجعل الإدارة غير مستعدة أبداً للمضي في هذا الاتجاه. (نذكر القراء أن الأوساط الإنجيلية كلها تقف وراء سياسة شارون)، لكن لا شك في أن وقتاً سيمر قبل أن يحصل القادة الفلسطينيون الجدد على الشرعية اللازمة لتمرير التنازلات التي ستشكل حتماً جزءاً من حل شامل في المنطقة. مع هذا، فضلاً عن غياب عرفات، هناك ثلاثة عوامل من شأنها دفع الإدارة الأمريكية لبذل جهد جديد في الوساطة. أولاً، لأنه يصعب على رأي رئيس أمريكي مقاومة إغراء أن يذكر التاريخ اسمه باعتباره صانع السلام في الشرق الأوسط، ثم إن السيد بوش يشعر بالتزامه بالوعد الذي قطعه لطنوني بلير حول إعادة إطلاق عملية السلام كضمن لدعمه غير المشروط له في مغامرته العراقية. أخيراً، إذا كانت الفكرة التي تنطوي على القول بأن "طريق القدس يمر عبر بغداد" (الحرب على العراق بما هي عامل إعادة دفع المفاوضات كما حدث في عام ١٩٩١) قد طال تحقيقها، هناك صعوبات مستمرة إزاء العالمين العربي والإسلامي يمكن أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الفكرة المعاكسة، أي يمكن للولايات المتحدة الاعتراف بأن الطريق المؤدي إلى استقرار المسألة العراقية ومتابعة البرنامج الأمريكي في المنطقة تقتضي أن يمر طريق بغداد، في نهاية المطاف عبر القدس.

في كل الأحوال، لا بد أن تلتزم سورية الهدوء، لاسيما وأنها تحت المراقبة المباشرة للإدارة الأمريكية والمحافظين الجدد. قد تفرض عقوبات جديدة عليها بعد تلك التي فرضت في عام ٢٠٠٣ كدليل على الانزعاج. وتتابع الولايات المتحدة باهتمام تطور دور سورية في المنطقة، لاسيما في ما يتعلق بالعراق. أو بلبنان أو بدعمها لحزب الله، وبطبيعة الحال مراقبة استمرارها في برنامجها الصاروخي، وبرنامجها الكيميائي بالتأكيد.

هناك بلدان مازالا يثيران الاهتمام، هما المملكة العربية السعودية والباكستان. ويمكننا تلخيص الغموض الذي يكتنف السياسة الأمريكية حول وضع هذين البلدين. فهما حليفان تقليديان للولايات المتحدة وتقعان على خط المواجهة في الحرب على الإرهاب مع اعتبارهما جزءاً من المشكلة.. بعض المحافظين الجدد لا يترددون في وصف المملكة الوهابية بـ "إمبراطورية الشر"^(٢). وتبقى الباكستان بنظر أمريكا بلد المخاطر النووية. لا شك أن السيناريوهات التي تتوقع انفجار هذا البلد تنطوي على الكثير من التشاؤم،

(١) تضم اللجنة الرباعية كلا من الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمم المتحدة.

(٢) Stephen Schwartz, "the New Evil Empire?". The weekly Standard, 4 December 2004

لكن التطورات التي تجري في عكس المصالح الأمريكية ممكنة أيضاً. عندها يمكن أن تجد واشنطن نفسها، مرة أخرى في مواجهة ما يمكن تسميته بمحور الشر الحقيقي المتمثل بالسعودية والباكستان بسبب ما بينهما من تعاون وثيق في المجالات كلها.

ماذا عن الدول العظمى؟

تبقى الدول العظمى التي كانت تستقطب، قبل الحادي عشر من أيلول، انتباه فريق بوش المقتنع بأن انبثاق الصين سيشكل التحدي الأكبر أمام أمريكا. لا شك في أن سياسة الدفاع المتبعة من قبل الولايات المتحدة مستمرة في تبني فكرة منع الصين من الوصول إلى مكانة المنافسة الاستراتيجية Peer Competitor. لكن إدارة بوش ترى أن لا خيار لديها اليوم على الإطلاق. إذ لا بد من التعاون مع الصين للاستفادة من دعمها لمحاربة الإرهاب الإسلامي وإدارة أزمات التسلح النووي لكوريا الشمالية، وإيران على نطاق أضيق.

لكن قد تتغير الأمور حتى عام ٢٠٠٩. أولاً العقيدة الرسمية القائلة بالاعتراف بأنه لا توجد سوى صين واحدة بدأت تثير الجدل^(١). كما أن توازن القوى حول مضيق فورموزا أخذ بالتطور، حيث بدأت الجهود الصينية المبذولة للتحديث توتي ثمارها في الوقت الذي لا تسمح الأوليات العسكرية الأمريكية لها بتعبئة سريعة لحجم القوات اللازمة للدفاع عن الجزيرة المتمردة في حال نشوء أزمة معينة. قد تكون الفترة الواقعة بين ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ هامة طالما أن الرئيس التايواني الحالي يمكنه استغلال الألعاب الأولمبية لإجراء إصلاحات دستورية قبل نهاية مدة ولايته الأخيرة. وتخشى بكين من حصول تاييبي على وسائل حماية (أو مواجهة) ضد الصواريخ البالستية التي تنشرها الصين على شواطئها، والتي تسمح لها اليوم بإجراء مساومات تتعكس نتائجها على الجزيرة (تايوان). وهناك عوامل توتر أخرى مثل ظهور الصين في النقاش الدائر حول "زحزحة أماكن [الإنتاج] Outsourcing، كما أن العلاقات الصينية - الأمريكية غير متوازنة. أضف إلى هذا أن الشراكات التي تقيمها الصين في الشرق الأوسط وأفريقيا لضمان الحصول على ما تحتاج إليه من البترول والغاز تؤمن لها حضوراً متنامياً فوق الأراضي الواقعة تحت النفوذ الأمريكي (مثل المملكة العربية السعودية) أو في دول تندد بها واشنطن (مثل سورية وإيران والسودان). أخيراً يشكل ضغط الممارسة الدينية مبعث انزعاج للجمهوريين لأن الصين تأتي بعد الولايات المتحدة من حيث عدد الإنجليين^(٢). عندما كتب روبر كاغان "أن الهدف البعيد للسياسة الأمريكية الحالية هو تغيير النظام الحاكم في الصين"^(٣) إنما كان يرى في رغباته حقائق. لأن الصين تبقى نقطة اختلاف بين الإدارة وبين المحافظين الجدد الذين أزعجهم خيار بوش للشراكة الاستراتيجية في عام ٢٠٠١. لكن هذا لا يعني عدم وجود فصام في الإدارة يتمركز في البيت الأبيض: فمن جانب، هناك فريق الرئيس الذي يمثل دينيس فيلدير الذي يميل إلى الالتزام ومن جانب آخر هناك آهارون فرايدبرغ الذي يلتزم الحذر إزاء الصين. لكن اليوم الذي ستحسم فيه الخيارات لا ريب فيه.

(١) انظر أفكار لجنة US-China Economic and Security Review Commission، التي أنشأها الكونغرس في عام

٢٠٠٠، وموقعها على شبكة الإنترنت www.uscc.gov.

(2) Jason Kindopp e Carol Lee Hamrin, God and Caesar in China. Policy implications of church- State Tensions, Washington, Brookings Institution Press, 2004.

(3) Robrt Kagan, "Strategic Dissonance", Survival, 2002 - 2004.

من المهم أن نرى ما إذا كان الأمر نفسه سيحدث مع روسيا. بوش يثق ببوتين، وموسكو شريك ثمين في الملفات الكبرى (الإرهاب، انتشار أسلحة الدمار الشامل، الطاقة) ولذا فمن الصعوبة بمكان أن تعود الحرب الباردة بينهما. لكن التطور السياسي للنظام بدأ بإثارة القلق. في العمق، الصين وروسيا ليستا بعديتين عن كونهما مصدر غموض وإشكال مثلها مثل السعودية والباكستان.

أخيراً، يتوجب على الهند، التي عاد حزب المؤتمر لحكمها بعد انتخابات عام ٢٠٠٤، أن تستمر في تعاونها مع الولايات المتحدة، لكن ليس بدون المزيد من الحذر الذي كانت تبديه سابقاً إزاء إقامة تحالف واسع مع واشنطن، اللهم إلا إذا تحولت الصين ذات يوم إلى مصدر تهديد بنظر نيودلهي.

وبالتالي قد تضع ولاية بوش الثانية خيارات ما بعد الحادي عشر من أيلول على محك التجربة بالنسبة لثلاث دول تنتمي إلى الفضاء الأوراسي وهي الصين وروسيا والهند.

لن تكتمل هذه الجولة السريعة على أكثر المسائل الدولية حساسية خلال الولاية الثانية لجورج بوش دون قول كلمة عن أمريكا اللاتينية. الحقيقة أن استقلالية فنزويلا التي يقودها هوغو شافيز إضافة إلى شوائبها الديمقراطية، والتي تعد من أكبر مصادر توريد البترول إلى الولايات المتحدة، فنزويلا هذه تشكل شوكة في قدم أمريكا، وقد لا يكون مفاجئاً إن حاول الجمهوريون تصفية حساباتهم معها بطريقة أو بأخرى. وهذا ما ينطبق على فيديل كاسترو. إلا إذا انتظر الأمريكيون حل المشكلة بشكل طبيعي أي من خلال وفاة كاسترو.

المفاجآت المحتملة

التوقعات كلها تبقى رهناً بالمفاجآت الاستراتيجية، مثل وقوع عمل إرهابي كبير فوق الأراضي الأمريكية، أو انهيار إحدى دول الفضاء الأوراسي أو نشوب أزمة في مضيق فورموزا، أو قيام كوريا الشمالية أو إيران بتجربة نووية. بات الأمريكيون يعرفون، أن العالم قابل للتغير بسرعة كما قال بول وولفويتز أمام الدفعة الثانية من جنود المشاة في حزيران ٢٠٠١: "تقع المفاجأة في أغلب الأحيان لدرجة أننا ندهش لأنها فاجأتنا أيضاً"^(١). لو تبين، على سبيل المثال، أن المسؤولين عن ١١ أيلول جديدة قد تواطؤوا مع السعودية، فإن فكرة الاستيلاء على مصادر الهيدروكربورات بالقوة تصبح ممكنة، والأثر الذي سينجم عن هجوم كبير ضد المجتمع الأمريكي سيكون عظيماً. ألم يصرح الجنرال تومي فرانكس، قائد عمليات أفغانستان والعراق، والمعروف عنه بأنه غير إيديولوجي وبانتمائه إلى اليمين المتطرف، في عام ٢٠٠٣ بأن الشعب الأمريكي في هذه الحالة، (أي وقوع الهجوم) يمكن أن يعيد النظر في الدستور ويبدأ في عسكرة البلاد [...] الأمر الذي قد يؤدي إلى تغيير دستورنا^(٢).

دون مبالغة نقول، إن النقاش الخاص بالعودة إلى التجنيد الإجباري لم يعد محرماً في واشنطن، والبعض يعتبره القلق مما يسمونه عسكرة المجتمع الأمريكي^(٣).

هناك مفاجأة أخيرة محتملة هي أن يقع ديك تشيني ضحية أزمة قلبية. كما سبق وأن أصابته عدة

(1) Remarks By Deputy Secretary Of Defense Paul Wolfowitz, West Point, New York, 2 juin 2001.

(2) Marvin Shanken, Interview With General Tommy Franks, Cigar Aficionado, December 2003.

(3) Kevin Bader, "we're in the Army now. The G.O.P.'s plan to militarize our culture", Harpers October 2003.

مرات . مما سيتترك عواقب كبيرة على الطريقة التي يعمل بها الجهاز التنفيذي الأمريكي بسبب المكانة التي يحتلها نائب الرئيس الحالي في صناعة السياسة الأمريكية وقيادتها .

الفصل الخامس : أوروبا أمام التحدي الأمريكي^(١)

يرى عدد من الأوروبيين أن إعادة انتخاب جورج دبليو بوش ولدت شعوراً بالانقطاع مع أمريكا . لكن الخلاف مع ما وراء المحيط لم يبدأ مع تسلم بوش للسلطة . إن نخب اليوم الموجودة في السلطة على ضفتي المحيط لم تشهد الحرب العالمية الثانية التي تعد بوتقة مجموعة ما وراء الأطلسي الحديثة . في الولايات المتحدة تبدى تغير الأجيال هذا إبان انتخابات عام ١٩٩٤ التي جاءت بغالبية جمهورية تؤمن بالأحادية إلى سدة الحكم . في أوروبا ، رأينا تغير الأجيال هذا ، لاسيما في ألمانيا ، على اعتبار أن غيرهارد شرودر وبوشكا فيشر قاما ، كل على طريقته ، برسم سياسة ألمانية أكثر استقلالية .

في غياب المنافس المباشر ، تملك أمريكا المعاصرة قوة تفوق نسبياً قوة الإمبراطوريات السابقة ، وتسيطر على الفضاءات المشتركة . وقد أصاب روبيرت كاغان حينما رأى في ذلك اختلافات ثقافية استراتيجية بين أوروبا وأمريكا^(٢) . وهي فرضية تقوم على حتمية لم يثبت التاريخ صحتها ، لكننا لا نجانِب الصواب حينما نقول إن الاختلاف في القوة يغذي تبايناً في الأولويات المتعلقة بالأمن وفهم الشرعية الدولية والاستراتيجية الدبلوماسية . أمريكا ما بعد الحرب ، لاسيما في ظل حكم جورج دبليو بوش ، تفضل الانفراد بالزعامة ، بمعنى أن الرسالة هي التي تحدد التحالف وليس العكس .

لقد تغيرت أوروبا والتزمت الوحدة والاستقلال . وراحت تتصرف استناداً إلى نجاحها الصناعي باعتبارها قوة اقتصادية كبرى ، فلم تعد تتردد في مواجهة الولايات المتحدة فوق هذه الأرضية . أضف إلى هذا أن مسألة الأمن الأوروبي قد انتهت . وسقوط سلوبودان ميلوزوفيتش عام ٢٠٠٠ كان آخر انتفاضة تهدف إلى تحقيق الأمن في القارة العجوز . للمرة الأولى ، منذ زمن طويل ، ربما باستثناء كوسوفو ، تشهد أوروبا ، بمعزل عن الاتحاد السوفييتي ، سلباً مستقراً ودائماً . عندها لا تعود الولايات المتحدة محقة في اعتبار أنها مرتبطة بشكل مباشر بأمن القارة العجوز ، لاسيما في غياب الاتحاد الأوروبي التام عن الحملة الرئاسية التي جرت في عام ٢٠٠٤ .

الاختلافات الثقافية العميقة

الاختلافات الثقافية بين القارتين تضرب جذورها في ماضٍ قديم ، والمكانة التي يحتلها الدين في الحياة العامة تفرق بوضوح بين الثقافتين المهيمنتين على المجموعتين : فأمريكا تمارس الفصل بين الدين والدولة بطريقة لا تفهمها غالبية الأوروبيين (عمق القناعات الدينية يجعل من الولايات المتحدة استثناء من

(١) هذا الفصل يشرح موضوعات تطرقنا إليها في دراستنا "المسألة الغربية" المنشورة في مجلة Aout 2004 Esprit وفي مقالة سابقة عنوانها "اندفاع أوروبا عبر الأطلسي" في صحيفة ليبيراسيون ، ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٤ .

(٢) Robert Kagan, Paradise and Power. America and Europe in the new World Order, Ionder, Atlantic Books, 2003.

بين الدول التي تتميز بالتصنيع العالي^(١). كما بينت أمريكا، بعد الحادي عشر من أيلول، استعداداً كبيراً لتقبل ظاهرات الأصولية الإسلامية التي ينظر إليها الأوروبيون برؤية أكثر. وليس عندنا، في أوروبا ما يعادل العقيدة التكوينية Crétionniste، عند الأمريكيين. الثقافة الأمريكية لا تعبر أهمية كبيرة لتنظيم اللجوء إلى القوة، سواء في داخل المجتمع أم في الإطار العالمي. أما الأوروبيون فميلهم إلى استخدام القوة أقل في ما يتعلق بتسوية النزاعات، بينما تراهم أكثر استعداداً للتدخل لأسباب إنسانية. هناك أيضاً قضية الشرق الأوسط التي أصبحت عنصراً أساسياً في النزاع بين أوروبا مع ما وراء المحيط، إذ لم يفهم الأوروبيون درجة تجذر دعم الدولة العبرية في الثقافة الأمريكية المعاصرة. أضف إلى هذا الاختلاف القائم بين الاقتصادات المعمول بها في كل من القارتين. أمريكا بلد حديث النشأة وموئل الهجرة، أما أوروبا، هي في طريق الشيخوخة، فتتردد في فتح حدودها أمام المهاجرين. الاقتصاد الأمريكي الليبرالي جداً يبرهن عن دينامية تؤمن له، في بعض الأحيان، معدلات نمو لا تماثلها إلا معدلات النمو في بعض البلدان الآسيوية. أما النموذج الأوروبي، الذي يفضل الحماية الاجتماعية، فهو أقل إنتاجاً، لكنه يقدم، عموماً، نوعية حياة أفضل للمستفيدين منه.

هذه الفروق كلها كان يمكن تدبرها في نهاية المطاف، وإبقاؤها ضمن دائرة "المنافسة السلمية بين القوى الكبرى" وهو ما يريده السيد بوش. لكن صدمة الحادي عشر من أيلول والطريقة التي تعاملت بها أمريكا معها خلطت الأوراق بشكل كبير. أوروبا ترى أن الحرب انتهت، أما أمريكا فترى أنها بدأت في خوضها. وشكلت القضية العراقية مؤشراً على التوترات القائمة بين ضفتي الأطلسي ومسرعا لها. وتبلورت مواجهة سياسية بين رؤيتين للعالم: من جهة هناك الخيار الفرنسي. الألماني الداعي إلى الاستقرار، من خلال مفهومه المحافظ للقانون الدولي ولو أدى الأمر إلى استمرار الأنظمة الشمولية؛ ومن جانب آخر تبلور الخيار الأمريكي المنادي بالديمقراطية الفظة والعمل العسكري الوقائي ولو أدى ذلك إلى إعادة النظر في التوازنات الإقليمية والدولية الهشة مع ما يترتب على ذلك من نتائج غير متوقعة.

تركت تلك الأزمة أثراً عميقاً، إذ ازدادت اليوم صعوبة العلاقة الأوروبية. الأمريكية كثيراً عما كانت عليه بين واشنطن وموسكو أو حتى بكين. وأصبحت نواة العلاقة الفرنسية. الألمانية عنصراً فاعلاً في كنف حلف شمال الأطلسي في الوقت الذي لم تكن موجودة سابقاً إلا في كنف الاتحاد الأوروبي. على الضفة الأخرى للأطلسي راح يتكون تيار فكري لا ينظر إلى أوروبا على أنها شريك بل خصم؛ تيار بلغت أهميته درجة جمع الصقور الجمهوريين إلى الأنبياء الإنجيليين المستعدين لاعتبار الدعم الأوروبي للقضية الفلسطينية على أنه رجس من عمل الشيطان^(٢).

(١) تبعاً لتحقيق هاريس، هناك ٦٨% من الأمريكيين كانوا في عام ٢٠٠٣ يؤمنون بالشيطان. وكشفت دراسة أجراها المركز الوطني لأبحاث الرأي في جامعة شيكاغو عام ١٩٩١ عن اختلاف كبير مع أوروبا: حيث ٤٥,٤% من الأمريكيين كانوا يقولون بطريقة مؤكدة أنهم يؤمنون بوجود الشيطان في مقابل ٣,٦% إلى ٤,٨% في أوروبا، وذلك تبعاً للمناطق (باستثناء إيرلندا الشمالية التي بلغت فيها النسبة ٤٣,١%).

(٢) انظر على سبيل المثال: Hall Lindsey "إن نبوءات التوراة تعلمنا أن أوروبا ستتهض ضد الولايات المتحدة" Trinity Broadcasting Network (أيار ٢٠٠٣).

استمرارية الجماعة الأوروبية - الأطلسية

ومع هذا، فإن فرضية "انحراف القارات" تبقى محدودة. الولايات المتحدة وأوروبا تريدان معاً تجاوز النموذج الواقعي المتعلق بتوازن القوى ويتوقان إلى تحقيق السلم الديمقراطي بالنسبة لضعفتي الأطلسي، يشكل الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل أكثر التهديدات الاستراتيجية جدية. كما تتفقان على أهداف تشجيع دولة القانون والديمقراطية الليبرالية والتطور الاقتصادي والتجارة الدولية.

الولايات المتحدة لا تعزل نفسها دائماً عن المنظمات الدولية، فهي فاعل أساسي في منظمة التجارة العالمية (OMC)، كما تسيطر على صندوق النقد الدولي (FMI) والبنك الدولي، ولها حضور قوي في الأمم المتحدة (عادت إلى اليونسكو في ظل رئاسة السيد بوش)، كما أبدت، في بعض الحالات كما رأينا، استعدادها لتطوير المشاريع الاستراتيجية بالتعاون مع حلفائها. ثم إن الرأي العام الأمريكي يبقى تعديلاً ولا يميل كثيراً للدخول في مغامرات خارجية^(١). أخيراً إن تعلق أوروبا المزعوم بالقانون الدولي لا تؤكد الاستثناءات التي تأذن بها للقواعد القائلة بأنها تدافع عنها (عملية كوسوفو تمت بدون موافقة مجلس الأمن الدولي) ولا التشريعات المتشددة التي تخترق مجمل الثقافة الأميركية الحديثة بما في ذلك المسائل العسكرية.

لكثرة حديثنا عن "أوروبا" و"أميركا" ننسى أحياناً أن هذين المسميين لا يشملان إلا الأغلبية الحالية التي تشكل آراء ونخب كل ضفة من ضفتي الأطلسي. لكن الانقسامات السياسية والثقافية موجودة في المجتمعات الغربية كلها. بما في ذلك حول مسائل حساسة مثل استخدام القوة أو المكانة التي يحتلها الدين في الحياة العامة. أميركا الولايات الزرقاء أقرب، في كثير من النواحي، إلى الأوروبيين منها إلى الولايات الحمراء^(٢). وبولونيا وإيرلندا أقرب، في بعض الأوجه، ثقافياً إلى الولايات الحمراء من كثير من الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

كانت الأزمة العراقية بمثابة الشجرة التي تخفي خلفها غابة التعاون بين ضفتي الأطلسي بدءاً بمحاربة الإرهاب، مروراً بالإزمات الإنسانية وصولاً إلى مكافحة أسلحة الدمار الشامل. حينما يتغلب خيار التعاون على الاختلافات فإن أوروبا والولايات المتحدة "تقومان بالتمييز" وهو ما رأيناه منذ نهاية الحرب الباردة عبر إدارة عدة أزمات امتدت من البوسنة إلى كوريا الشمالية، ومن لبنان إلى كوسوفو، ومن هابيتي إلى إيران. الحرب الباردة لم تسبب تباطؤاً في التكامل الاقتصادي بين ضفتي الأطلسي. خلال العقد السابق، زاد عدد استثمارات الشركات الأمريكية في هولندا بمقدار عشر مرات عن استثماراتها في الصين، ومرتين عما تستثمره في المكسيك. وتبقى القارة العجوز، أول مستقبل لرؤوس الأموال الأمريكية. أما استثمارات أوروبا في تكساس فهي أكثر مما تستثمره الولايات المتحدة في اليابان. وأكثر ما تتبدى المجموعة الاقتصادية الأورو - أمريكية في المفاوضات التي تجري ضمن منظمة التجارة العالمية. وعلى الرغم من الأزمة العراقية فقد ازدادت تجارة السلع بين أوروبا والولايات المتحدة بنسبة ١٢% خلال ولاية

(١) انظر تحقيقات مجلس شيكاغو للعلاقات الخارجية التي تكشف عن انقطاع بين النخب وبين الرأي العام حول

هذه النقطة. عنوان الموقع على شبكة الإنترنت ٢٠٠٤ www.ccf.org/globalviews

(٢) انظر التحقيقات التي أجراها German Marshal Fund of the United States، وعنوانه على شبكة الإنترنت www.transatlantictrends.org

بوش الأولى، واستمر تزايد الاستثمار الأمريكي في أوروبا. ويبقى الأطلسي مركز العالم التجاري والمالي، ولا تمثل الاختلافات الأوروبية. الأمريكية إلا ما نسبته ١% من حجم التبادلات بينهما.

كما أن التكامل العسكري مازال مستمراً بين أوروبا وأميركا. إذ أن حلف الأطلسي يقوم بوضع مشاريع مشتركة جديدة (مثل استكشاف الأرض، الدفاعات المضادة للصواريخ وغير ذلك..). ويوحد قياداته العملياتية وينشئ "قوة تدخل سريع" فعلية ودائمة. وقد عرف هذا التحالف كيف يجد له مكاناً في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول بدءاً بحماية الأجواء الأمريكية إلى إعادة بناء أفغانستان مروراً بتدريب القوات العراقية. وبفضل توسعته المتتالية، فإن حلف شمال الأطلسي يستعيد المنطقة الثقافية الغربية الحديثة بأفضل مما كان عليه في السابق. وليس من باب المصادفة أن يكون الناتو الحلف الوحيد التعدد الدائم الذي لم يصبه الخلل، بينما ذابت الأحلاف كلها تدريجياً منذ عام ١٩٧٠. إن المجموع الأوروبي . الأطلسي، في جوهره هو المجموع الوحيد في العالم الذي يضم تحالف المصالح إلى تحالف المثل أو طائفة من الأفكار.

ما العمل؟

إذاً هناك جماعة عبر أطلسية مازالت قائمة. ومع هذا تبقى أوروبا غير مرتاحة للسيد بوش. فما هي أفضل الطرق لإدارة المصالح في كنف هذه الجماعة؟ ما الذي ينبغي على أوروبا القيام به إزاء التحديات التي تقترحها الولايات المتحدة؟

على أوروبا، أولاً، مواجهة الواقع بدون مواربة. أي عليها أن تتقهم خيار الناخب الأمريكي، والاعتراف بأن أمريكا بوش تطرح أسئلة مشروعة حول تنظيم العالم والقانون الدولي واستخدام القوة. إذا افترضنا وجود نظام عالمي، فإن المشهد الاستراتيجي الحالي يختلف تماماً عن ذلك النظام الذي أدى إلى ولادة هذا الأخير قبل ستين عاماً. زد على هذا أن تأثير أمريكا على الساحة الدولية قد ازداد لدرجة أنها أصبحت قادرة على تغيير قواعد اللعبة، من خلال استخدام القوة في وجه كل من له سابقة. في نهاية المطاف، ودون أن ننكر على الأوروبيين قدرتهم وربما مصلحتهم في التصدي لسياسة الولايات المتحدة هنا أو هناك، فإن أوروبا تقف أمام الخيار بين الاشتراك مع أمريكا في تطوير العالم أو الاكتفاء بمراقبة هذا التطوير وهو يجري بمعزل عنها.

على الحكومات الأوروبية، أخيراً، بذل جهودها لتجنب الخيارات الوحيدة الجانب التي من شأنها شق الاتحاد الأوروبي مما يعني تحقيق ما تريده الولايات المتحدة. تاريخياً، ساندت أمريكا البناء الأوروبي لأنها كانت ترى في تلك المساندة مصلحة لها: وكان هذا البناء يسمح بعدم العودة إلى الحرب فوق أرض القارة ويترك أمريكا تأمل في مساهمة الحلفاء بتحمل عبء الدفاع المشترك. وحال الاتحاد الأوروبي اليوم يلائم الولايات المتحدة لأن توسعه لم يبلغ العلاقات المتعلقة^(١) بمسائل الأمن بين الحكومات (أي قفزة نوعية تتعلق بالاندماج السياسي لن تسر واشنطن لأنها لا تعود عندها قادرة على اللعب على الانقسامات بين أعضاء الاتحاد). من هنا ضرورة أن تقوم أوروبا، التي ما تزال هشة على الصعيد السياسي، برص

(١) لمعرفة ما يريده الجمهوريون من أوروبا، انظر John C. Hulsman and Nile Gardiner, A Conservative Vision for US Policy Toward Europe, the Heritage Foundation, 4 October 2004.

صفوفها إزاء أمريكا الجاهزة لاستغلال تلك الانقسامات.

ولا شك في أن من واجب أوروبا أيضاً إيجاد أفضل السبل للدفاع عن مصالحها الخاصة. وليس لدى البيت الأبيض حكماً إيديولوجياً مسبقاً إزاء أوروبا، وهو يعرف أن لديها عدة أوراق تستطيع استخدامها لتحقيق الأهداف الأمريكية، بما في ذلك المجال السياسي (الشرعية الإضافية التي يضيفها دعم أوروبا لما تقوم به الإدارة الأمريكية بحسب اعتراف المحافظين الجدد) والمجال العسكري (على اعتبار أن أمريكا لا تريد ولا تستطيع استنفار جيش المشاة لديها من أجل إعادة الإعمار وحفظ السلام). إذا أرادت أوروبا العمل على الملفات الهامة بعقل بناء، مع احترامها للمنظور الأمريكي الفريد الذي يرى أنه في حالة حرب، فإن رأيها سيكون مسموعاً وتزداد حظوظ الأخذ بمصالحها بعين الاعتبار. أما إذا تشنجت في خطابها الواهم حالياً حول التعددية القطبية وعبرت عن شعورها باستخدام طاقتها كلها لترويج مبادرات مثيرة للاختلاف (مثل رفع الحظر عن بيع الأسلحة إلى الصين) فهي بذلك لا تعمل على تطوير مصالحها.

على أوروبا، بالتالي، إثبات بأنها بناءة، دون أن يعني ذلك تنازلها عن مكانتها وعما تؤمن به. إن استقرار العراق في مصطلحتها ويمكنها مضاعفة جهدها للمساهمة فيه في المجالات غير العسكرية. والنضال ضد ثقافة الخشخاش في أفغانستان مصلحة أوروبية أيضاً. إضافة إلى أن أوروبا لا تتمنى أن يعود هذا البلد ليكون قاعدة للإرهاب، ومن مصطلحتها أيضاً الحد من تدفق الهيروين الأفغاني نحو أراضي الاتحاد الأوروبي.

أما بالنسبة لإيران، فينبغي على البلدان الأوروبية الاستعداد جدياً للمراحل التالية، اللهم إلا إذا عاد سوء الفهم بين ضفتي الأطلسي ليعبر من جديد كما برز خلال أزمة العراق. هل أوروبا مستعدة لفرض عقوبات على إيران؟ هل ستقبل شرعية نظام الملالي إذا اختار التخلي عن خياره النووي العسكري؟ في المقابل، هل ستكون مستعدة لغض الطرف عن أبحاث هذا النظام المتعلقة بهذا المجال إذا تخطى عن الإرهاب واتخذ موقفاً بناء في إدارة أزمات المنطقة؟ هذه أسئلة يجب طرحها، إلا إذا خشينا من وقوع أزمة جديدة بين ضفتي الأطلسي لا يفيد منها سوى النظام الإيراني.

يجب أن تكون إعادة توزيع الأوراق في الشرق الأوسط مدعاة للتفكير حول الالتزام الأوروبي في تسوية النزاع القائم فيه. لأنه إذا قدرنا أن سياسة إدارة بوش غير متوازنة، لا يعود هناك سوى فكرة أن تقوم أوروبا بدور الحكم في الصراع الإسرائيلي. الفلسطيني، وهي فكرة لا يقر بشرعيتها أحد طرفي الصراع على الأرض. أمريكا اليوم ليست منحازة تماماً في إدارة هذا الملف، لكن إذا أرادت أوروبا ألا يقتصر دورها على دور الممول للسلطة الفلسطينية بل المشاركة في الشق السياسي للتسوية، عليها أن تعيد ضبط موقفها. وقد شكلت نهاية مرحلة عرفات فرصة تاريخية من هذه الناحية.

أما حول محاربة الإرهاب، لا شك في أن الخلاف الحقيقي سيستمر بين أمريكا وبين غالبية الأوروبيين (إلا إذا أصيبت أوروبا بمثل ما أصاب أمريكا في الحادي عشر من أيلول). الرأي العام في أوروبا ونخبها يرى أن خطر الإرهاب يهدد أسس المجتمعات الغربية لذا ينبغي القضاء عليه وليس الاكتفاء بالحد منه. الأوروبيون يرون أن الإرهاب شر ينبغي التعايش معه، لعدم إمكانية تحقيق نصر نهائي عليه. على الأوروبيين والأمريكيين أن يضعوا اختلاف نظرتهم إلى الإرهاب جانباً والاعتراف بأنهم يواجهون مشكلة إرهابية يتجاوز مداها كثيراً مما عرفوه في الماضي. وهي مشكلة يمكن معالجتها فقط باعتبارها قضية تتعلق بعمل الاستخبارات والشرطة والأمن الداخلي. وهذا يقتضي وضع حد لتلك الرقوى

المتعلقة بالحاجة إلى "الاستقرار" في الشرق الأوسط. فبالإضافة إلى أن واشنطن لا تريد الاستماع إلى هذا الموضوع أبداً فإن الأوروبيين لم يبرهنوا على فاعلية خاصة تشجع المثل الديمقراطية.

أخيراً، على الأوروبيين مقاومة غواية الانقطاع مع أمريكا. فعلى هذه الضفة من الأطلسي (أوروبا) هناك من عبر بشكل غير ملحوظ عن سروره لإعادة انتخاب السيد بوش باسم استراتيجية يمكن تشبيهها باستراتيجية التصويت الثوري: هؤلاء ينتظرون من أمريكا السيد بوش المحافظة أن تكون دافعاً قوياً لبناء أوروبا تكون أكثر توحداً وأكثر قوة. وسيجدون العزاء في تضخيم الخلافات بين ضفتي الأطلسي من أجل تصليب نوع من الخصوصية الأوروبية ولو أدى هذا إلى تدمير المجموعة الأورو .أميركية. قد لا تكون هذه الاستراتيجية فاعلة بالضرورة بل ربما تكون خطيرة. لأن واشنطن أولاً، قد لا تتردد باللجوء إلى صداقاتها من أجل محاصرة هذه الاستراتيجية. وثانياً، لأن خصوم الحرية والديمقراطية على وجه الخصوص، نادراً ما يميزون بين الأميركيين والأوروبيين، لاسيما حين يلعبون على هذه الاختلافات. ثالثاً وأخيراً، لأن بناء قلعة أوروبية فوق خرائب العلاقة بين ضفتي الأطلسي ستكون رهاناً خاسراً، إذ في غياب إدارة فعالة لقضايا البلقان وأوراسيا والشرق الأوسط وأفريقيا ستدفع أوروبا، عاجلاً أم آجلاً، ثمن الفوضى التي قد تتجم عن هذا الغياب.

لسنا بصدد إنكار وجود خلافات سياسية وثقافية تفصل غالبية الأميركيين عن غالبية الأوروبيين، ولا نريد التنازل عن قوة أوروبا واستقلاليتها، بل الاعتراف بأن أهمية التحديات المشتركة وضرورة الاشتراك في إدارتها تقتضي التعالي عن الأولويات الشخصية والإيديولوجية. الخيار الذي اقترحه البريطاني تيموتي غاردن آش حول اعتماد موقف يتلخص بالعبرة التالية "ثلاثة أرباع بلير وربيع شيرك" (وهي عبارة يمكن تعديلها لتصبح "ثلثان وثلث) يشكلان نقطة انطلاق جديدة^(١).

خاتمة

تبدو إعادة انتخاب بوش بمثابة تحد أمريكي لبقية العالم. والرأي الدولي، كما نعرف، ربما كان يفضل لو كانت النتيجة مختلفة. لكن، بما أن هذا الرأي بدأ يستعد للتعايش مع الإدارة الحالية خلال السنوات الأربع القادمة، على اعتبار أن الولايات المتحدة بدأت تفكر في الاستحقاقات الانتخابية القادمة، لأن طبيعة الدورة السياسية الأميركية تكونت بحيث تبدأ الحملة فوراً لانتخابات الكونغرس في تشرين الثاني ٢٠٠٦ وأن حملة الانتخابات الرئاسية ستبدأ قريباً.

بدأ الجمهوريون يستعدون لمرحلة ما بعد بوش، وستكون الانتخابات الأولية مفتوحة تماماً، لأن المشاكل الصحية التي يعاني منها تشيني ربما تمنعه من التفكير بترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية، وبذلك ستجري انتخابات ٢٠٠٨ بدون رئيس أو نائب رئيس منتهية ولايتهما. شخصيات المستقبل في الحزب الجمهوري معروفة وهي: عمدة نيويورك السابق رودي جولياني، بطل الحادي عشر من أيلول، والسيناتور جون ماكين الذي يحظى باحترام الجميع، وحاكم ولاية كاليفورنيا أرنولد شوارتزجر، الذي يتصور أن مصيره شبيه بمصير ريغان^(٢). حاكم فلوريدا، جيب بوش، الأخ الأوسط لبوش، أعلن أنه غير مهتم

(١) Timothy Gordon – Ash, "Living with America", Newsweek, 22 November 2004.

(٢) ترشيح شوارتزجر إلى الانتخاب الرئاسي يجب أن تسبق بإصلاح يسمح لأمريكي ولد في خارج الولايات المتحدة

بالرئاسة، وهو ما سيجرمننا من رؤية استمرار سلالة آل بوش في البيت الأبيض^(١).

أما الديمقراطيون فقد دخلوا في مرحلة من التأمل الذاتي، التي تشكل دون شك، إعادة بناء حقيقية للحزب. زعيم الأقلية من مجلس النواب، نانسي بيلوزي (التي انتخبها ولاية سان فرانسيسكو في إحدى المقاطعات الأكثر يسارية في البلاد) ينظر إليها على أنها شديدة "الليبرالية"، مما يحرمها من أن تكون شخصية متقدمة في الحزب يبقى هيلاري كلينتون وجون إدواردز وبراك أوباما الذي يعد شخصية شديدة الجاذبية، وهو سيناتور جديد عن ولاية إلينوا، ويبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً وحصل على ٧٠% من الأصوات، وهو خامس أمريكي من أصل أفريقي يصل إلى مجلس الشيوخ. يمكن لهؤلاء الثلاثة إعادة إطلاق الحزب الديمقراطي في حلبة السباق، إضافة إلى أن الأخيرين، على عكس هيلاري كلينتون، وجهان ليبراليان ينتميان إلى الشاطئ الشرقي. الواقع، أنه منذ خمسة وأربعين عاماً لم يصل إلى الرئاسة من الديمقراطيين سوى الجنوبيين. ومع تنامي الطابع الأسباني في الجنوب الغربي من البلاد قد يأمل الديمقراطيون في استعادة الولايات الهامة في عام ٢٠٠٨. غالبية الشخصيات المستقبلية في الحزب يشغله مناصب حكام ولايات مثل: كاتلين سيبيليوس (كنساس)، جانيتا بوليتانو (أريزونا)، بيل ريتشاردسون (مكسيك الجديدة)، توم فيلساك (أيووا)، إد رانديل (بنسلفانيا). ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة النائبة ميليسيا بين (من ولاية إلينوا) التي انتصرت على العتيق بيل كراين والسيناتور إيفان بايه.

من غير المؤكد بعد أن يتمكن السيد بوش من القول، حينما يغادر البيت الأبيض في كانون الثاني من عام ٢٠٠٩، أنه ربح رهانه في إعادة صياغة أمريكا والعالم. لأن برنامج الإدارة يصطدم بعوائق صعبة. فالحالة المزرية للأموال العامة لن تسمح في الاستمرار بتوسيع القوة الأميركية كما يتمنى المحافظون الجدد وتقليص دور الدولة في الاقتصاد كما ترغب غالبية الجمهوريين، والحالة في العراق تقاوم الديون المترتبة على استخدام القوة إضافة إلى أن المصادقية السياسية لمشروع الإدارة الجيوسياسية وعدم فهم الأمريكيين للمجتمعات التقليدية، هذا كله سيعرض رهان الثورة الديمقراطية في العالم للخطر. إذا استمرت الصعوبات فقد تجعل من العراق موضعاً للنقاشات السياسية الوطنية العامة التي قد تمنع السيد بوش من قيادة التحول "الثوري المضاد" للمجتمع الأمريكي وهو ما يتمنى القيام به. ويعود هذا إلى ورطة فيتنام التي لم تمكن ليندون جونسون من الاستمرار في مشروعه المتعلق بالمجتمع العظيم..

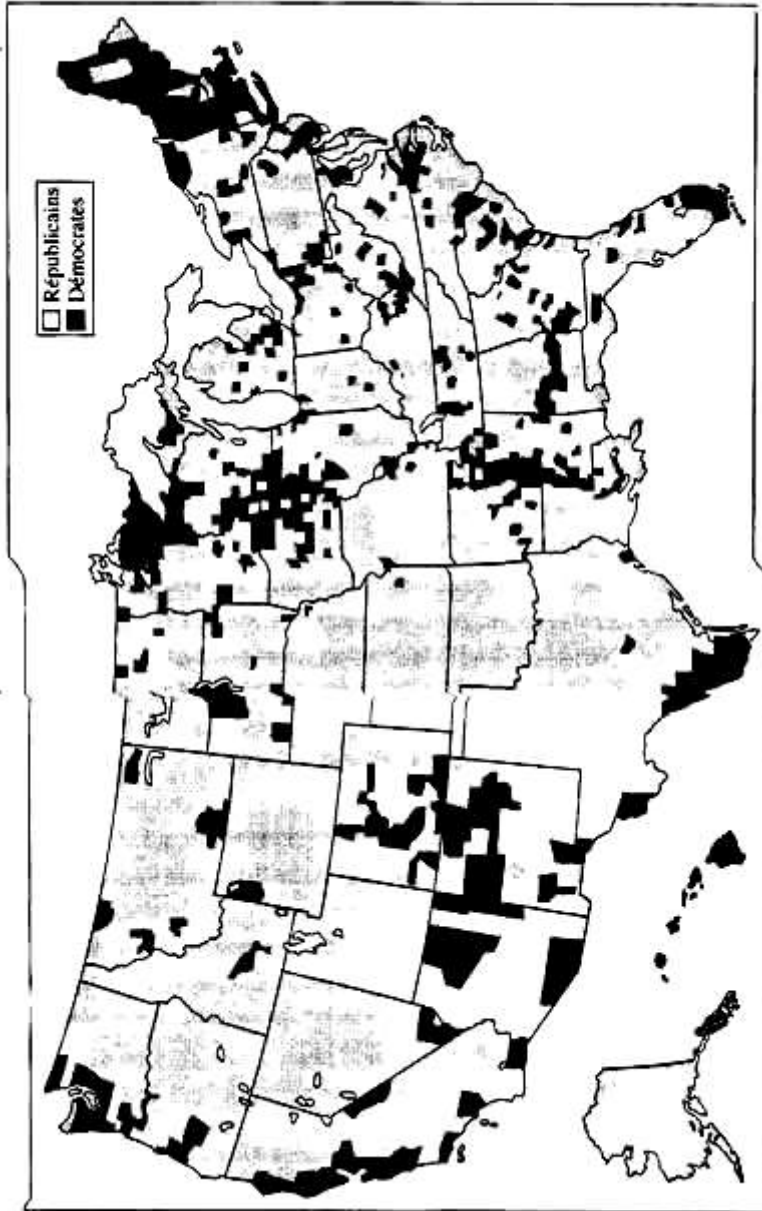
هذا يعني أن قدرة السيد بوش وإدارته قد أوضحتنا، طيلة ولاية الرئيس الأولى، قدرة عظيمة على تغليب الأفكار على الوقائع، والطموحات على الواقع. وهذا يعني، في علم السياسة، الضعف ومؤهلات النجاح. قد نتمنى أن يقبل الواقع، سواء من الجانب الأمريكي أم من الجانب الأوروبي، أي أن تقبل أوروبا واقع أمريكا وأن تقبل أمريكا واقع العالم دون التنازل عن فكرة تغييره.

في أن يكون رئيساً لها.

(١) الشخصيات الجمهورية الأخرى التي يمكن أن تلعب دوراً هاماً هي: السيناتور بيل فريست (من ولاية تينيسي)، وسام برونباك (من ولاية كنساس) وكين سالازار (من كولورادو)، وشوك هاغل (من نبراسكا) وحكام الولايات مايك هوكابي (أركنساس)، وميت رومني (من ماساسوست) وبي أونيز (كولورادو) وهالي باربور (من ولاية ميسيسيبي).

ملحق رقم (١)
نتائج الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤ حسب المقاطعات

Annexe 1 : Le résultat des élections présidentielles de 2004 par comté



الملحق رقم (٢): الكونغرس والمحكمة العليا

Annexe 2 : Le Congrès et la Cour suprême

Le Congrès

• Sénat

Président : Richard B. Cheney

Président *pro tempore* : Ted Stevens (Arkansas)

Républicains : 55 sièges

Chef de la majorité : Bill Frist (Tennessee)

Démocrates : 44 sièges

Chef de la minorité : Harry Reid (Nevada)

Indépendants : 1 siège

• Chambre des représentants

Speaker : J. Dennis Hastert (Illinois)

Républicains : 232 sièges

Chef de la majorité : Tom DeLay (Texas)

Démocrates : 202 sièges

Chef de la minorité : Nancy Pelosi (Californie)

Indépendants : 1 siège

La Cour suprême

NOM	DATE DE NAISSANCE	DATE D'ENTRÉE EN FONCTION	NOMMÉ PAR
William H. Rehnquist (prés.)	1924	1972-1986 (prés.)	Nixon/Reagan
John Paul Stevens	1920	1975	Ford
Sandra Day O'Connor	1930	1981	Reagan
Antonin Scalia	1936	1986	Reagan
Anthony M. Kennedy	1936	1988	Reagan
David Hackett Souter	1939	1990	Bush
Clarence Thomas	1948	1991	Bush
Ruth Bader Ginsburg	1933	1993	Clinton
Stephen G. Breyer	1934	1994	Clinton

الكونغرس

* مجلس الشيوخ

. الرئيس: ريتشارد. ب. تشيني

. الرئيس الدائم: تيد ستيفنز (أركنساس)

الجمهوريون (٥٥ مقعداً)

. زعيم الأغلبية: بيل فريست (تينيسي)

الديمقراطيون (٤٤ مقعداً)

. زعيم الأقلية: هاري ريد (نيفادا)

مستقلون (مقعد واحد)

* مجلس النواب

الناطق الرسمي "ج. دينيس هاسترت (إيلينوا)

. الجمهوريون: ٢٣٢ مقعداً، زعيمهم توم دولاي (تكساس)

. الديمقراطيون: ٢٠٢ مقعداً، زعيمهم نانسي بيلوسي (كاليفورنيا)

. المستقلون: مقعد واحد.

المحكمة العليا

الاسم	تاريخ الولادة	تاريخ بدء العمل	الرئيس الذي عينه
١. ويليام رينكيس (رئيس)	١٩٢٤	١٩٧٢ . ١٩٦٨ (رئيساً)	نيكسون/ ريغان
٢. جون بول ستيفنز	١٩٢٠	١٩٧٥	فورد
٣. ساندرا داي أوكنور	١٩٣٠	١٩٨١	ريغان
٤. أنطونيا سكاليا	١٩٣٦	١٩٨٦	ريغان
٥. أنتوني كينيدي	١٩٣٦	١٩٨٨	ريغان
٦. دافيد هاكيت سوتر	١٩٣٩	١٩٩٠	بوش الأب
٧. كلارانس توماس	١٩٤٨	١٩٩١	بوش الاب
٨. روث بادر غينسبورغ	١٩٣٣	١٩٩٣	كلينتون
٩. ستيف ج. براير	١٩٣٤	١٩٩٤	كلينتون

الملحق رقم (٣) الوزارة والمكتب التنفيذي للرئيس

الوزارة بحسب التتابع الرئاسي

١ . الخارجية: كوندوليسا رايس *

٢ . الخزانة: جون سنو

٣. الدفاع: دونالد رامسفيلد

٤ . العدل: ألبرتو غونزاليس *

٥ . الشؤون الداخلية: غيل آن نورتون

- ٦ . الزراعة: مايك جوناس *
- ٧ . التجارة: كارلوس غوتيريس *
- ٨ . العمل: إيليت شاو
- ٩ . الصحة: مايكل ليفيت *
- ١٠ . الإسكان: ألفونسو جاكسون
- ١١ . النقل: نورمان مينيتا
- ١٢ . الطاقة: صامويل بودومان *
- ١٣ . التربية: مارغريت سبيلينغ *
- ١٤ . المحاربين القدماء: جيم نيكولسون *
- ١٥ . أمن الأراضي: ؟

مسؤولون بمرتبة وزير:

- ١ . نائب الرئيس: ريتشارد ب. تشيني
- ٢ . مدير مكتب الرئيس: أندرو كارد الإبن
- ٣ . مدير وكالة حماية البيئة: شاغر
- ٤ . الممثل الخاص للتجارة الأميركية: روبيرت زويليك
- ٥ . مدير مكتب الإدارة والميزانية: جوشوا بولتين
- ٦ . مدير مكتب السياسة الوطنية والرقابة على المخدرات: جون والترز

المؤسسات الملحقة بالمكتب التنفيذي للرئيس

- . المجلس الاستشاري لشؤون الاقتصاد
- . مجلس نوعية البيئة
- . مجلس السياسة الداخلية
- . المجلس القومي للاقتصاد
- . مجلس الأمن القومي
- . مكتب الإدارة
- . مكتب المبادرات ذات الأصول الدينية والمذهبية
- . مكتب أمن الأراضي
- . مكتب الإدارة والموازنة

الملحق رقم (٤) تشكيل مكتب الأمن القومي

* أعضاء فعليون

- . الرئيس: جورج دبليو بوش
- . نائب الرئيس: ريتشارد تشيني
- . وزير الخارجية: كوندوليسا رايس*
- . وزير الدفاع: دونالد رامسفيلد

* مستشارون دائمون

- . رئيس لجنة أركان الجيوش: الجنرال ريتشارد ماير
- . مدير الاستخبارات: بورتير غوس

* مشاركون منتظمون

- . مستشار شؤون الأمن القومي: ستيفن هادلي
- . وزير الخزانة: جون سنو
- . مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي: روبرت مولر.

فريق مجلس الأمن القومي:

المسؤولون الرئيسيون

- . شؤون الأمن القومي: ستيفن هادلي
- . الشؤون الاقتصادية الدولية: فاريار شيرزاد
- . مكافحة الإرهاب: فرانس فاغوس تاونسند، توماس نيوكومب
- . التنسيق الاستراتيجي: ميغان أو سيلفيان
- . الاتصالات: جيمس ويلكينسون، شين ماك كورماك
- . أمين السر التنفيذي لمجلس الأمن القومي: غريغوري شولت
- . مسؤول الاستخدام Situation room: جيمس ويسكاب.

أقسام وظيفية:

- . سياسة الدفاع والتحكم بالأسلحة: فرانكلين ماير
- . برامج الاستخبارات: دافيد شيد
- . الشؤون الاقتصادية الدولية: روبرت ويكلي
- . الديمقراطية وحقوق الإنسان والدفاع عن الأراضي: سوزان كوش

أقسام جغرافية

- . أفريقيا: سيندي كورفيل
- . آسيا: مايكل غرين
- . أوروبا وأوراسيا: دانييل فرايد
- . الأمريكتان: توماس شانون
- . الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية: إليوت أبرامز.

المصادر والمراجع

- BOULET-Gercourt (Ph), *La machin Bush*, paris, Grasset, 2004
- David (ch. – ph.), Balthazar (L.) et Vaisse (J.), *La Politique étrangère des états – unis. Fondements, acteurs, formulation*, Paris, Presses de Sciences – po, 2003.
- Fath (S.), *Dieu bénisse l'Amérique, La religion de la Maison-Blanche*, paris, Éditions du Seuil, 2004.
- Frachon (D) et Vernet (A), *L'Amérique messianique. Les guerres des néoconservateurs*, Paris, Éditions du Seuil, collection "La couleur des idées", 2004
- Frum (D), *The Right Man. The Surprise Presidency of George W. Bush*, New York, Random House, 2003.
- Hassner (P.) et Vaisse (J.) *Washington et le monde. Dilemmes d'une superpuissance*, Paris, Éditions Autrement, collection ceriAutrement, 2003.
- Kessler (R), *A Matter of Character. Inside the White House of George W. Bush*, New York, Sentinel, 2004.
- Lefebvre (M.), *La Politique étrangère américaine*, Paris, Presses universitaires de France, collection "Que sais – je?", 2004.
- Lind (M.) *Made in Texas. George W. Bush and the Southern Takeover of American Politics*, New York, Basic Book, 2003.
- Mann (J.), *Rise of the Vulcans. The History of Bush's War Cabinet*, New York, Viking, 2004.
- Parmentier (G.) (dir.), *Les états – Unis aujourd'hui. Choc et changement*, Paris, Éditions Odile Jacob, 2004.
- Shogan (R.), *Constant Conflict. Politics, Culture, and The Struggle for America's Future*, Boulder, Westview Press, 2004.
- Tertrais (B.), *La Guerre sans fin. L'Amérique dans l'engrenage*, Paris, Éditions du Seuil, collection "La république des idées", 2004.

المؤلف: برينو تيرتريه باحث فرنسي في مؤسسة البحث الاستراتيجي. كتابه السابق حمل عنوان الحرب التي لا نهاية لها: أمريكا في الورطة.



نشوء القوى:

المشهد الجيوسياسي^(١٨١)

ت: منار إبراهيم الشهابي

المشهد السياسي

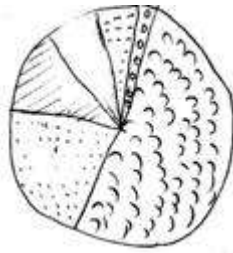
سيحول الظهور المحتمل للصين والهند كقوى عظمى جديدة، مثلما فعل نهوض ألمانيا في القرن التاسع عشر والولايات المتحدة في القرن العشرين، مع احتمال وجود آثار درامية مثل تلك التي ظهرت في القرنين السابقين. وبالطريقة ذاتها التي أشار بها المعلقون إلى التسعينيات بأنها "القرن الأمريكي" فإنه من الممكن أن يكون مطلع القرن الواحد والعشرين هو الوقت المناسب لبعض دول العالم النامي التي تقودها الصين والهند أن تصبح قوية فاعلة.

كما أنه من الممكن للكثافة السكانية للمنطقة والتي تعد المحل الهندسي لمعظم تاريخ القرن العشرين لأوروبا وروسيا أن تتخفف انخفاضاً درامياً نسبياً، كما أن النمو السكاني غالباً ما يحدث في الأمم النامية التي ما تزال حتى وقت قريب تحتل مواقع على أهداب الاقتصاد العالمي. (أنظر الشكل التالي):

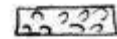
إيجاز لعدد سكان العالم حتى عام ٢٠٢٠

من أجل إدراك خليط سكان العالم الذي يحتل أن يتجاوز ٧,٨ بليون نسمة في العام ٢٠٢٠، فقد أوضحنا هذا التوزيع بالرسم البياني التالي بمجموعات تمثيلية كل منها ١٠٠ نسمة.

^(١٨١) - المصدر: مأخوذ من منشورات CIA. اتجاهات ديمغرافية طويلة الأمد. إعادة تشكيل المشهد الجيوسياسي، تموز ٢٠٠١.



- ٥٦ منها سيكونون من آسيا، متضمنة ١٩ صينياً و ١٧ هندياً.
- ١٦ منها سيكونون من أفريقيا، متضمنة ١٣ من أفريقيا المجاورة للصحراء.
- ١٣ منها سيكونون من نصف الكرة الأرضية العائد إلينا من بينهم أربعة فقط من الولايات المتحدة.
- ٧ سيكونون من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي سابقاً.
- ٥ سيكونون من أوروبا الغربية.
- ٣ سيكونون من الشرق الأوسط.



. كما أنه يمكن للقوى محدثة النعمة مثل الصين والهند وربما أخرى مثل البرازيل وأندونيسيا أن تدخل في مجموعة جديدة من التحالفات الدولية، محققة بذلك انفصلاً حاسماً عن بعض مؤسسات وممارسات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

. لا يمكن لشيء أن يعيق نهضة تلك الدول إلا حركة عكسية مفاجئة في عملية العولمة أو هيجان ضخم في هذه البلدان قد يعيق نهضتها. ومع ذلك فإن كيفية استخدام الصين واليابان لقوتيهما المتنامية وكيفية بناء علاقاتهما بالقوى الأخرى في النظام الدولي على أساس تعاوني أو تنافسي، فتلك مسألة جوهرية غير مؤكدة.

يمكن أن يشكل اجتماع العناصر التالية: النمو الاقتصادي الكبير والثابت، والتوسع في القدرات العسكرية، وتطوير التكنولوجيا العالية، وتعاضد عدد السكان أساساً للنهضة السريعة والمتوقعة للقوى الاقتصادية والسياسية لكل من هذين البلدين.

. بسبب الحجم الخالص لعدد سكان الصين والهند، والمتوقع أن يكون ١,٤ بليون، وعلى الأرجح ١,٣ بليون نسمة في العام ٢٠٢٠ حسب دراسات مكتب الإحصاءات الأمريكي، فإن معايير معيشتها لا تحتاج للمقارنة مع مستويات المعيشة الغربية من أجل أن تكون قوى اقتصادية هامة.

. فالصين، على سبيل المثال، هي أكبر ثالث منتج للمواد المصنعة، فقد ارتفعت حصتها من أربعة بالمئة إلى اثني عشر بالمئة في العقد السابق. فالصين ستتفوق على اليابان خلال بضع سنوات،

ليس فقط بأسهمها في الإنتاج، ولكن بصادراتها العالمية أيضاً. كما أن منافسة أسعار المنتجات الصينية تكبح أسعار الصناعات عالمياً.

. تتخلف الهند بالوقت الحاضر عن الصين بالنسبة لمعظم المقاييس الاقتصادية، ولكن معظم علماء الاقتصاد يعتقدون بأنها ستحتفظ بمستويات عالية من النمو الاقتصادي (أنظر الشرح في المربع التالي)

الهند مقابل الصين: آفاق بعيدة المدة

تتخلف الهند اقتصادياً عن الصين، فوفقاً لمعظم المقاييس كمقياس إجمالي الناتج القومي، وكمية الاستثمارات الأجنبية (جزء يسير منها في الصين)، والدخل الفردي.

تتأخر درجة نمو الهند عن الصين بحوالي عشرين بالمئة في السنوات الأخيرة. ومع ذلك، يعتقد بعض الخبراء بأن الهند ستلحق بالصين كأسرع اقتصاد نام في العالم.

هناك عوامل عديدة مؤثرة في الهند:

. سيتزايد عدد الأشخاص الذين هم في سن العمل بشكل جيد خلال عشرينات القرن الواحد والعشرين، بينما سيتناقص هذا العدد في الصين بسرعة بسبب سياسة الطفل الواحد.

. لدى الهند مؤسسات ترسخ الديمقراطية بصورة جيدة، مما يجعلها إلى حد ما أقل عرضة للتأثر بعدم الاستقرار السياسي، بينما تواجه الصين التحدي المستمر لإنهاء خلاف سكان المدينة والطبقة المتوسطة المتزايدة مع نظام سياسي فاشستي أساساً.

. تمتلك الهند أسواق عمل رأسمالية ومكانة عالمية تترسخ في بعض قطاعات الصناعات ذات التكنولوجيا العالية والتي لم تحققها الصين بعد.

من جهة أخرى، فعلى الرغم من أن الهند قد تجاوزت ما يشير إليه الهنود أنفسهم بمعدل النمو الهندي (٢-٣%) فإن تراث البيروقراطية الخانقة ما يزال موجوداً. لم تعد الهند محط أنظار الاستثمارات الأجنبية، كما أنها تواجه تحديات سياسية صعبة، وهي تضع أقدامها على طريق الإصلاح الاقتصادي. كما تواجه الهند أيضاً عبء وجود أكبر نسبة من السكان الذين يعانون من فقر شديد. يرى بعض المراقبين أن التوتر الطائفي الكامن تحت السطح، والانحدار الإجمالي للعلمانية، ونشوء أحزاب سياسية إقليمية، وأحزاب المنبوذين، ووجود برنامج ٢٠٠٢ ضد الأقلية المسلمة في (جوجارات) كلها تدل على تعاظم الاتجاه السيئ.

هناك عدة عوامل يمكن لها أن تضعف إمكانيات الصين للتطور الاقتصادي، خاصة المخاطر التي تواجه الاستقرار السياسي والتحدي التي تواجه قطاعات الصين المالية وهي تتجه نحو سوق أوسع وأكمل. يمكن للصين أن تشق طريقها نحو (الديمقراطية الآسيوية) التي قد لا تستلزم عجزاً أو تمزقاً في نموها الاقتصادي، ولكن هناك عدد كبير من الأمور المجهولة، من عدة نواح أخرى، لا تزال كل من الصين والهند تشبه دولاً نامية أخرى، فيما يتعلق بالمشاكل التي على كل دولة أن تتجاوزها، متضمنة الأعداد الهائلة التي لم تتمتع بالفوائد الكبرى من النمو الاقتصادي وخاصة في المناطق الريفية.

كما يواجه كل من البلدين احتمال خطر مرض الإيدز السائد الذي يمكن أن يؤثر جدياً على

إمكانات الاقتصاد في حال عدم السيطرة على هذا المرض. ووفقاً لدراسات الأمم المتحدة فإن الهند تتجاوز أفريقيا الجنوبية بوجود أكبر عدد من مرضى الإيدز فيها.

النتيجة النهائية: ستكون الهند بحاجة إلى وقت عصيب لتسارع من معدلات نموها الاقتصادي لتتقوى المستويات التي وصلت إليها الصين في العقد الأخير. ولكن قدرة الصين على الحفاظ على نسبة تقدّمها الحالية قد تكون في خطر أكثر مما تتعرّض له مقدرة الهند. وإذا ما تباطأ نمو الصين عدّة نقاط مئوية، فإن الهند ستبرز وكأنها أسرع اقتصاد متطوّر في العالم.

في الوقت نفسه، هناك تحولات أخرى، ربما تشكل المشهد الجديد. تتضمن هذه التحولات ارتفاع بلدان أخرى، مثل البرازيل وأفريقيا الجنوبية وأندونيسيا وحتى روسيا، والتي يمكن أن تعزز دور التطوّر لكل من الصين والهند على الرغم من أنه سيكون تأثير تلك الدول الجيوسياسي محدوداً أكثر.

وأخيراً، لن نقلل من احتمال وجود أوروبا الموحدة والأكثر قوة، ووجود اليابان الأكثر نشاطاً على الصعيد العالمي، رغم أن اليابان وروسيا وأوروبا ستعاني من ضغط التعامل مع سكانها الآيلة نحو الشيخوخة.

ستدفع الحاجة المتزايدة للطاقة العديد من هذه التحولات المحتملة على المشهد الجيوسياسي. سوف تدفع حاجة الصين والهند المنظورة إلى مصادر الطاقة إلى أن تصبحا قوة عالمية بدلاً من بقائهما قوى إقليمية، في حين سوف يتعزز اعتماد روسيا وأوروبا بعضهما على بعض.

نهوض آسيا:

تتبعكس رغبة الصين في الحصول على مكانة "القوة العظمى" في العالم من خلال قوتها الاقتصادية الأكبر من دول المنطقة، بالإضافة إلى خطواتها لتقوية جيشها. تتكيف دول شرق آسيا مع ظهور الصين الأكثر قوة عن طريق إقامة روابط اقتصادية وسياسة أوثق مع بكين، وتكيف أنفسهم مع أفضلياتها مستقبلاً، وخصوصاً مع القضايا الحساسة كقضية تايوان.

. تحاول كل من اليابان وتايوان وعدد من أمم جنوب شرق آسيا أن تحتكم لبعضها البعض وللولايات المتحدة لموازنة نفوذ الصين المتعاظم.

ستحاول الصين الاستمرار في تقوية قواتها المسلحة من خلال الحصول على أسلحة حديثة وتطويرها بما في ذلك طائرات قتالية وغواصات متطورة وزيادة عدد الصواريخ الباليستية. سوف تتجاوز الصين روسيا وغيرهما بحيث تصبح ثاني أكثر دولة إنفاقاً على الدفاع بعد الولايات المتحدة، وذلك خلال العقدين القادمين، وسوف تغدو بكل المقاييس قوة عسكرية من المرتبة الأولى. يمكن للنكسات الاقتصادية وأزمات الثقة أن تبطئ من نشوء الصين كقوى عظمى بجميع المقاييس. كما سيكون لفشل بكين في الحفاظ على نموها الاقتصادي أثر عالمي.

. قد يحدث فشل الحكومة الصينية في تلبية حاجات الشعب إلى فرص عمل جديدة عدم استقرار سياسي.

. ربما تضطر الصين لدى مواجهتها المجتمع الذي تغلب عليه الشيخوخة في العشرينيات من القرن الواحد والعشرين إلى التعامل مع جميع هذه الإشكالات الديمغرافية الخطيرة. من غير المحتمل

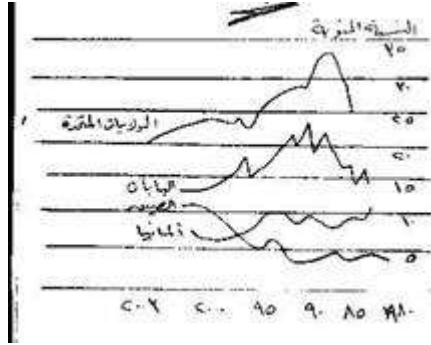
أن تكون الصين قد طوّرت حتى ذلك الحين آليات ملائمة كأنظمة التقاعد والرعاية الصحية المتطورة مماثلة لتلك التي تتميز بها المجتمعات الغربية.

- ربما يؤدي تراجع الاقتصاد الصيني إلى إضعاف الأمن الإقليمي مسفراً عن تضاعف احتمالات عدم الاستقرار السياسي والجريمة وتجارة المخدرات والهجرة غير الشرعية. يمكن للنكسات الاقتصادية وأزمات الثقة أن تبطئ من ظهور الصين كقوة عظمى كاملة...".

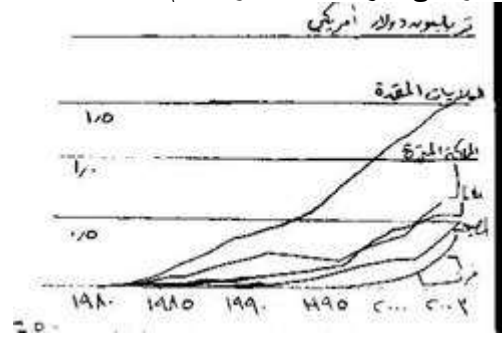
سوف يؤدي نهوض الهند أيضاً إلى تعقيدات استراتيجية للمنطقة. فالهند، كالصين تماماً، ستكون أداة جذب اقتصادي للمنطقة وسيكون لنهوضها تأثير ليس على آسيا فقط بل أيضاً على الشمال، مثل آسيا الوسطى وإيران ودول الشرق الأوسط الأخرى. تسعى الهند لدعم تعاون إقليمي مع الغرب والانضمام إلى منظمات مثل منظمة التجارة العالمية، وذلك لأسباب استراتيجية ولرغبتها بزيادة قوتها.

نهوض الصين:

رأس المال الاستثمار الأجنبي المباشر، الوارد (١٩٨٠ - ٢٠٠٣) حصة الصناعة العالمية ١٩٨٠ - ٢٠٠٣. يمكن أن تلحق اليابان في بضع سنين. نهضت الصين من كون حصتها مهمله في العام (١٩٨٠) إلى ٦% ربما تكون في المرتبة الثانية بحلول العام ٢٠٠٢



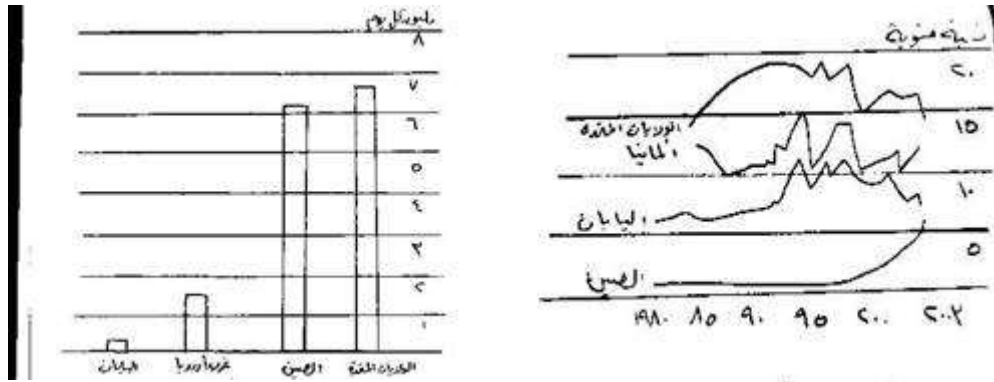
المصدر: الرؤية العالمية



المصدر: تقرير الأمم المتحدة للاستثمار العالمي ٢٠٠٤

نمو الطلب على النفط من ٢٠٠٠ - ٢٠٢٠
ستصل الصين إلى مستوى الولايات المتحدة كرائدة
في الطلب الإضافي للنفط

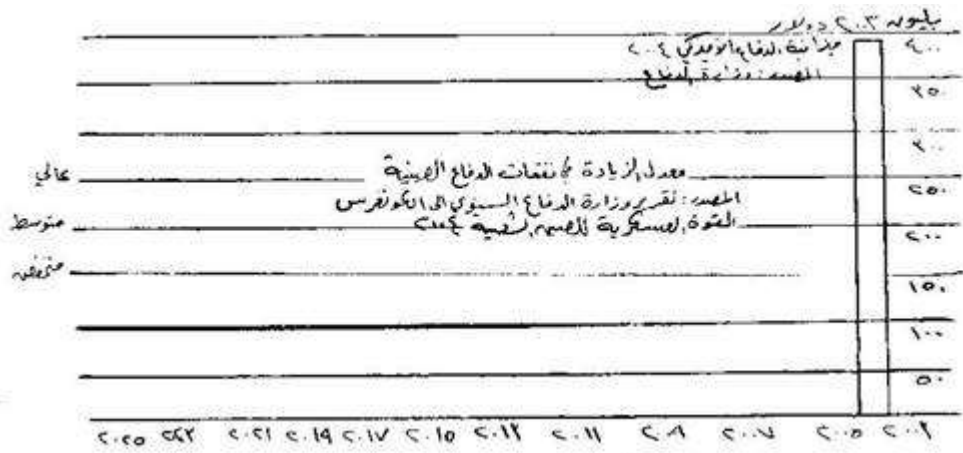
حصة الصادرات العالمية من ١٩٨٠ - ٢٠٠٣
سوف تلحق باليابان أيضاً في التجارة...



المصدر: رؤية عالمية

المصدر: إدارة معلومات الطاقة الأمريكية

الارتفاع المخطط له في نفقات الدفاع الصينية بين العامي ٢٠٠٣ - ٢٠٢٥



لدى نمو اقتصاد الهند، ربما تقترب حكومات جنوب شرق آسيا مثل ماليزيا وسنغافورة وتايلاند ودول أخرى من الهند أكثر لمساعدتها على إنشاء موازنة جيوسياسية ممكنة مع الصين. وفي الوقت نفسه ستسعى الهند لتقوية علاقاتها مع دول المنطقة مع عدم استبعاد الصين.

- بناءً على توقعات غلدمان ساكس (Goldman Sachs) وبعض الخبراء، فإن التجارة الصينية الهندية الثنائية ستزيد من رأسمالها الحالي والذي يبلغ حوالي ٧,٦ بليون دولار أمريكي زيادة سريعة.

قد تتغير الهند، كالصين تماماً، وتعاني من تقلبات سياسية وتجارية كما سيشتد الضغط على مواردها مثل الأرض والماء ومخزون الطاقة كلما ازدادت حداثته، فعلى سبيل المثال، سوف تواجه الهند خيارات شديدة بسبب تزايد عدد سكانها وزيادة تلوث مياهها السطحية والجوفية.

هل من دول أخرى في طريق النهوض؟

كل من البرازيل وأندونيسيا وروسيا وأفريقيا الجنوبية أوشكت على تحقيق نمو اقتصادي على الرغم من أنه من غير المحتمل لتلك الدول أن تمارس النفوذ السياسي ذاته الذي تمارسه الصين والهند. سيفيد نموهم جيرانهم، بلا شك، ولكن من غير المحتمل، على ما يبدو أن تكون قادرة على تحويل سيل القوة الاقتصادية ضمن مناطقها وعبرها. أو أن تشكل عنصراً جوهرياً في النمو الاقتصادي والسياسي للبكين ودلهي الجديدة.

أنظر المربع التالي:

مخاطر النمو الاقتصادي الصيني:

ما زال نمو الصين بصورة سلسلة أمراً غير مؤكد. ففي العام ٢٠٠٣ قامت مؤسسة راند (RAND) بتحديد وتقييم ثمانية مخاطر كبرى يواجهها نمو الاقتصاد الصيني المستمر بسرعة خلال العقد التالي. المعالم غير السليمة في مجال اقتصاد الصين البارزة هي:

١، هشاشة النظام المالي والمشاريع التي تملكها الدولة.

٢، تأثير الفساد على الاقتصاد.

٣، الموارد المائية والتلوث.

٤، التقلص المحتمل للاستثمار الأجنبي المباشر.

٥، مرض الإيدز وغيره من الأمراض السارية.

٦، البطالة والفقر والاضطراب الاجتماعية.

٧، استهلاك الطاقة والأسعار.

٨، النزاع مع تايوان وغيره من النزاعات.

ستتراوح تقديرات راند (RAND) المتعلقة بأثر النمو السلبي لهذه التطورات المعاكسة التي تحدث على أساس منفصل زمنياً، من معدل متدن يتراوح بين (٠,٣%) و (٠,٨%) بالنسبة لمؤثرات الفقر، وعدم الاستقرار الاجتماعي والبطالة إلى معدل عال يتراوح بين (١,٨%) إلى (٢,٢%) بالنسبة للأمراض السارية.

- قَدَّرت الدراسة أن احتمال عدم حدوث أي من هذه التطورات قبل العام (٢٠١٥) ضعيف، كما لاحظت احتمال حدوثها بالجملة بدلاً من حدوثها بصورة فردية، فالمحنة المالية، مثلاً، يمكن أن تزيد الفساد سوءاً وتؤدي إلى بطالة مركبة، وفقر واضطراب اجتماعي، وتقليص للاستثمار الأجنبي المباشر.

- قَدَّرت راند أن احتمال عدم حدوث كل هذه التطورات المعاكسة قبل (٢٠١٥) ضعيف، كما لاحظت أنه إذا ما حدثت كلها فإن أثرها التراكمي سيضعف النمو الاقتصادي الصيني، بمقدار يتراوح بين (٧,٤%) و (١٠,٧%)، الأمر الذي يعني عملياً إزالة النمو الذي حدث خلال ذلك الإطار الزمني.

يعترف الخبراء بأن البرازيل بلد محوري تمتلك ديمقراطية مفعمة بالحياة، واقتصاداً متنوعاً وشعباً ملتزماً وإرثاً وطنياً ضخماً ومؤسسات اقتصادية راسخة. إن نجاح البرازيل أو فشلها في موازنة مقاييس

التطور الاقتصادي المسبق مع برنامج عمل اجتماعي طموح يقضي على الفقر وعدم تساوي الدخل سيكون له أثر عميق على التمثيل الاقتصادي لدول المنطقة وحكوماتها خلال الخمسة عشر عاماً القادمة. إن إغراء الاستثمارات الأجنبية المباشرة وتعزيز استقرار إقليمي ودمج عنصري عادل بما في ذلك التجارة والبنية الاقتصادية التحتية، كلها ربما تظل بدهيات سياسة البرازيل الخارجية. البرازيل بلد شريك طبيعي لكل من الولايات المتحدة وأوروبا وللقوى المناهضة للصين والهند، كما أن لديها إمكانية زيادة مستواها كمصدر صافٍ للنفط. يفترض الخبراء بأنه خلال العقد والنصف القادم قد تعود أندونيسا لنمو عال يتراوح بين ستة إلى سبعة بالمئة، وهي نسب ستجعلها مع التزايد المتوقع لعدد السكان النسبي من ٢٢٦ إلى حوالي ٢٥٠ مليون نسمة، واحدة من أكبر الدول النامية اقتصادياً.

مثل هذا النمو الكبير سيفرض جو استثمار على مستوى عالٍ، بما فيه حماية حقوق الملكية الفكرية والانفتاح على الاستثمار الخارجي. وبفضل نمو اقتصادي أبطأ ربما لا يكون الاقتصاد قادراً على امتصاص القوى العاملة العاطلة أو التي هي تحت سن التوظيف، الأمر الذي يزيد خطر حدوث عدم استقرار سياسي.

أندونيسيا هي مزيج من عروق ومجموعات دينية مختلفة. على الرغم من أن الوحدة الوطنية لأندونيسيا قد تشكلت خلال العقود الخمسة منذ الاستقلال، إلا أنها لا تزال تعاني من الحركات الانفصالية العنيدة.

ستعطي مصادر الطاقة الروسية دفعا للنمو الاقتصادي، ولكن روسيا تواجه تحدياً ديمغرافياً قاسياً ناتجاً عن معدلات الولادة المتدنية والرعاية الصحية الفقيرة واحتمال انتشار الإيدز.

تظهر تقديرات مكتب الإحصاء الأمريكي بأن عدد السكان الذين هم في سن العمل من المحتمل أن يتقلص بشكل درامي مع حلول العام ٢٠٢٠. إن المسار الذي تتخذه روسيا مبتعدة عن التعددية باتجاه نظام فاشستي بيروقراطي يقلل الفرص التي تمكنها من جذب استثمار خارجي بعيداً عن قطاع الطاقة مقيداً آفاق تنويع اقتصادها. من المحتمل أن تسوء مشكلات روسيا خلال الخمس عشرة سنة القادمة مع الدول التي تحدّها جنوباً، بما فيها التطرف الإسلامي والإرهاب والدول الضعيفة ذات الحكومات الفقيرة والصراع. إن الجمهوريات المستقلة في شمال القوقاز داخل روسيا مهددة بالانهيار وستبقى مصدراً لتوتر ونزاع مستوطن. في حين أن هذه العوامل الاجتماعية والسياسية تحد من مدى الدور الذي يمكن أن تلعبه روسيا بوصفها لاعباً دولياً كبيراً، فإنه يمكن أن تكون روسيا شريكاً هاماً للقوى الراسخة كالولايات المتحدة وأوروبا وللقوى الناشئة كالصين والهند، إذا ما عملت من أجل الوصول إلى ذلك. كما أن هناك احتمالاً أيضاً أن تقوم روسيا بتعزيز فعاليتها مع الآخرين كونها مصدراً ضخماً للغاز والبتترول.

آسيا: هل هي مسرح التغيير العالمي؟

وفقاً للخبراء الإقليميين الذين استشرناهم، فإن آسيا ستمثل معظم النزعات التي نرى بأنها ستشكل العالم خلال الخمسة عشر عاماً القادمة. ستتطور كل من شمال شرق آسيا وجنوب شرق آسيا في مسارات متنوعة، إذ سوف تصبح دول الشمال أكثر قوة وثروة، بينما ستعاني عدّة دول في الجنوب على الأقل تخلفاً اقتصادياً وسوف تظل تواجه انشغاقات دينية وعقائدية عميقة. وبينما يمثل شمال شرق آسيا مركز

النقل السياسي والاقتصادي لدول الجنوب، فإن جزءاً من جنوبي شرق آسيا سيكون مصدراً لتهديدات متخفية للحدود القومية، مثل الإرهاب والجريمة المنظمة إلى دول الشمال. من الممكن أن تعكس تقسيمات الشمال والجنوب انقساماً ثقافياً بين شمال شرق آسيا التي لا تدين بالإسلام والتي ستهيئ للانتشار المستمر للعولمة، وجنوب شرق آسيا حيث يمكن لمذهب الأصولية الإسلامي القيام باعتداءات متزايدة في مثل هذه الدول كأندونيسيا وماليزيا وأجزاء من الفلبين.

يمكن أن يحفز تمويل الاستثمارات باتجاه الصين والهند جنوب شرق آسيا على تنفيذ خطط جعلها منطقة استثمار ومجتمعاً ذا نظام اقتصادي واحد.

كما رأى الخبراء أيضاً بأن عوامل ديمغرافية ستلعب دوراً رئيساً في تشكيل تطورات إقليمية. سوف تعاني الصين ودول أخرى من شمال شرق آسيا بما فيها كوريا الشمالية تباطؤاً في النمو السكاني ومن شعب تطغى عليه الشيخوخة خلال الخمسة عشر عاماً القادمة. كما ستعاني الصين من نتائج عدم التوازن الجنسي الناتج عن سياسة الطفل الواحد. في دول جنوب شرق آسيا مثل الفلبين وأندونيسيا ستتحدى زيادة عدد السكان إمكانية الحكومات على توفير الخدمات الأساسية. ستحتضن ضغوط الفقر والكثافة السكانية على الهجرة ضمن المنطقة وإلى شمال شرق آسيا.

ستسهل الكثافة السكانية العالية وزيادة سهولة السفر من انتشار الأمراض المعدية وتفشي الأوبئة.

رأى الخبراء بأن إمكانية حدوث نزاعات داخلية في آسيا ما تزال أعلى من إمكانية حدوثها في المناطق الأخرى. منهم من يرى أن أزمتي شبه الجزيرة الكورية ومضيق تايوان ستبلغان الذروة بحلول العام ٢٠٢٠ مع احتمال أن تكون لهذا النزاع آثار عالمية. وفي الوقت نفسه فإن الخطر المتمثل بالحركات الانفصالية والتمردية والإرهاب سوف يزداد شدة. كما ستواجه الصين اضطراباً مسلحاً بسبب الحركات الانفصالية على طول حدودها الغربية.

وفي النهاية، فإن أدوار قوى المنطقة ستعترض لتغيير هائل بحلول العام ٢٠٢٠.

لدى الولايات المتحدة والصين حوافز قوية لتجنب التحدي، ولكن الوطنية الناهضة في الصين ومخاوف الولايات المتحدة من كون الصين منافساً استراتيجياً ناشئاً، قد تغذي علاقة عداء متزايدة بينهما. إن نهوض الصين وطبيعة أي اتفاق بشأن شبه الجزيرة الكورية وتايوان سيكونان عاملين في تشكيل العلاقة بين اليابان من جهة والصين والولايات المتحدة من جهة أخرى.

"سوف تحدث مصادر الطاقة الروسية ازدهاراً في النمو الاقتصادي، ولكن روسيا تواجه تحدياً سكانياً قاسياً، [خصوصاً وأن قوتها السكانية العاملة تتقلص بصورة درامية]."

سوف يستمر تعرض أفريقيا لتحدي الإيدز، والجريمة المنتشرة، والفقر الشائع، ولكن التوقعات تبدو واعدة بسبب كون اقتصادها هو الأكبر في المنطقة. وفقاً لبعض التوقعات، يُخطط للنظام الاقتصادي لجنوب أفريقيا أن ينمو خلال العقد القادم بمعدل أربعة إلى خمسة بالمئة إذا ما نفذت سياسات الإصلاح. يختلف الخبراء حول ما إذا كان باستطاعة جنوب أفريقيا أن تكون محركاً لما هو أبعد من أفريقيا الجنوبية أو إذا ما كانت ستشكل بدلاً من ذلك علاقات أقوى مع القوى المعتدلة أو القوى الصاعدة والقادمة في المقاطعات الأخرى. يبرع خبراء جنوب أفريقيا في إنشاء السيناريوهات والمراهنة على رؤية مستقبل البلد متوقفاً على مشاركات تشكل خارج المنطقة.

القوى الآيلة إلى الشخوخة:

لقد تحولت مصالح الاقتصاد الياباني في آسيا من جنوب شرق آسيا إلى شمال شرق آسيا خلال العقدين الماضيين، وخاصة الصين ومثلث الصين واليابان وكوريا، ويعتقد الخبراء بأن قوى العمل التي تغلب عليها الشخوخة في اليابان ستعزز استقلالية الاستثمارات الخارجية وتكاملاً اقتصادياً أكبر مع شمال شرق آسيا، وخاصة الصين في الوقت نفسه فإن اهتمامات اليابان بشأن الاستقرار الإقليمي يمكن أن تتزايد بسبب الأزمة الاقتصادية المستمرة في شمال كوريا والاضطرابات المستمرة بين الصين وتايوان وتحدي تكامل الصين الناهضة مع الهند بدون حدوث تمزق ضخم.

يحث اقتصاد الصين النامي على زيادة فعالية اليابان على المسرح العالمي. تشير استطلاعات الرأي إلى تنامي الدعم الجماهيري لليابان، ذلك لأن اليابان أصبحت بلداً عادياً أكثر من ذي قبل ذات سياسية خارجية فعّالة. يرى الخبراء بأن هناك مسارات متعددة يمكن لليابان اتباعها اعتماداً على تلك العوامل مثل مدى قوة الصين المتنامية وانبعث الاقتصاد الياباني الدائم الحيوية أو افتقاره، وعلى مستوى تأثير الولايات المتحدة في المنطقة، والكيفية التي ستنتهي بها التطورات في كوريا وتايوان.

ففي مرحلة ما، مثلاً، على اليابان أن تختار التوازن مع الصين أو الانحياز إليها.

"ربما تكون القوة الأوروبية في طريق تقديم نموذج للحكومة العالمية والإقليمية للقوى الناشئة..."

سيكون لأوروبا الموسعة القدرة على زيادة ثقلها في المسرح الدولي، وذلك بموجب كل المقاييس مثل حجم السوق والعملة الواحدة والقوى العاملة ذات المهارات العالية والحكومات الديمقراطية المستقرة والكتلة التجارية الموحدة وإجمالي الناتج القومي.

إن التنوع المتزايد لسكان أوروبا خصوصاً جذبها لأعضاء جدد، وموقعها على مفترق طرق يزودها بمقدرة فريدة على إقامة روابط قوية باتجاه الجنوب مع العالم الإسلامي وأفريقيا، وباتجاه الشرق مع روسيا وأوراسيا.

إن المدى الذي يمكن لأوروبا أن تزيد من نفوذها على المسرح الدولي يعتمد على مقدرتها على تحقيق تماسك سياسي أكبر. على المدى القريب، فإن ضم عشرة أعضاء جدد من أوروبا الشرقية إلى الاتحاد الأوروبي يمكن أن يكون عائقاً في أعماق مؤسسات الاتحاد الأوروبي الضرورية من أجل تطوير الرؤية الاستراتيجية المتماسكة والمشاركة لسياسة الاتحاد الأوروبي الخارجية والأمنية.

. خلافاً للتوسع الذي حدث عند انضمام أيرلندا وأسبانيا والبرتغال واليونان إلى السوق المشتركة في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، فقد حصلت بروكسل على جزء صغير من الاعتمادات المالية البنوية المتوافرة لرفع سوية سكان أوروبا الوسطى بسرعة إلى المستويات الاقتصادية لباقي أعضاء الاتحاد الأوروبي.

- تطرح عضوية تركيا المحتملة تحديين، بسبب حجمها والاختلافات الدينية والثقافية، كما تظهر حرصاً لتحقيق قبول واتفاق متبادلين. وبالعامل على حل المشكلات يمكن إيجاد طريق يساعد أوروبا على احتواء ودمج سكانها المسلمين المتزايدين. يمكن أن ينخفض الإنفاق على الدفاع في كل بلد أوروبي على حده بما في ذلك المملكة المتحدة وفرنسا كثيراً عن نفقات الدفاع في الصين وغيرها من البلدان في غضون الخمس عشر سنة القادمة. أما بصورة جماعية فإن نفقات الدفاع الأوروبية تبذ الجميع ما عدا الولايات

المتحدة، وربما الصين^(١٨٢).

لدى الدول الأعضاء في الوحدة الأوروبية، عقبات تاريخية أمام تنسيق نفقات الدفاع وترشيدها بطريقة تعزز قدراتها رغم تعاظم الدور الأمني والدفاعي للاتحاد الأوروبي. ما زالت مشكلة تشكيل جيش أوروبي بدون حل لأن تشكيل مثل هذا الجيش يمكن أن يكون تكراراً لقوات حلف الناتو أو بديلاً عنها.

في حين أن قدرة القوات الأوروبية على إحداث تغيير جذري ما زالت قليلة، فإن قوة أوروبا ربما تقدم نموذجاً للحكومة العالمية أو الإقليمية للقوى الناشئة، من خلال التزامها بالتعددية، خصوصاً ما كانت القوى الناشئة تسعى إلى بديل غربي عن الاعتماد القوي على الولايات المتحدة. فمثلاً لم يعد التحالف الصيني - الأوروبي، بعيداً عن التفكير، رغم أنه ما زال غير محتمل.

سوف يكون للشيخوخة السكانية، وتقلص القوى العاملة في معظم الدول أثر هام على القارة مولداً تحدياً سياسياً واقتصادياً خطيراً، ولكن يمكن تجاوزه.

يبلغ معدل نسبة المواليد في أوروبا حوالي ١,٤ وهي في الواقع أقل من المستوى البديل ٢,١. خلال الخمسة عشر عاماً المقبلة ستحتاج الأنظمة الاقتصادية لأوروبا الغربية إلى بضعة ملايين من العمال ليحلوا محل العمال المتقاعدين. وسواء كانت الدول الأوروبية تقوم بإعداد قواها العاملة وتكييفها، وبإصلاح نظام الرفاه الاجتماعي والتربية والضرائب، واستيعاب الأعداد المتزايدة من المهاجرين (من البلدان الإسلامية أساساً)، أو أنها تواجه فترة من الركود الاقتصادي المديد فإن ذلك ربما يهدد النجاحات العظيمة التي أنجزتها أوروبا أكثر توحيداً.

الشيخوخة العالمية والهجرة:

وفقاً لدراسات المكتب الأمريكي للإحصاء، فإن نصف عدد سكان العالم يعيشون في دول وأقاليم حيث معدلات نسبة المواليد فيها غير كافية لإحلال سكان جدد بدلاً من السكان الحاليين. وهذا لا يتضمن أوروبا وروسيا واليابان فقط حيث المشكلة خطيرة بشكل جدير بالذكر، بل تتضمن أيضاً أجزاء من المناطق المتطورة مثل استراليا ونيوزيلاند وشمال أمريكا ودول شرق آسيا مثل سنغافورة وهونغ كونغ وتايوان وجنوب كوريا. كما أن هناك دولاً معينة في العالم النامي تضم دولاً عربية وإسلامية مثل تركيا والجزائر وتونس ولبنان تتناقص فيها النسبة إلى أقل (٢,١) طفل للمرأة الواحدة النسبة الضرورية للحفاظ على استقرار سكاني طويل الأمد^(١٨٣).

الصين حالة خاصة إذ حدث تحول سكاني مفاجئ نحو الشيخوخة، فحوالي (٤٠٠) مليون صيني ستكون أعمارهم في العام (٢٠٢) أكثر من (٦٥) عاماً، وظهر عدم توازن خطير بين الجنسين، الأمر الذي سيكون له ارتدادات اجتماعية وسياسية متزايدة، وحتى عالمية.

إن نظام التقاعد الشامل للأمة والذي لا موارد له، يعني أن العديد من الصينيين قد يضطرون

^(١٨٢) اتجاهات استراتيجية، مركز المعتقدات والمفاهيم المتحدة. آذار ٢٠٠٣.

^(١٨٣) - نيكولاس إيبين شتاد. "أربع مفاجئات في علم السكان العالمي"، هيئة مراقبة الغرب التابعة لمعهد أبحاث السياسية الخارجية، المجلد (٥)، رقم (٥)، تموز ٢٠٠٤.

لمتابعة العمل حتى سن متقدمة.

يمكن للهجرة أن تساعد على حل مشكلة انخفاض القوى العاملة في أوروبا وبدرجة أقل في روسيا واليابان وربما ستصبح سمة أكثر أهمية في العالم في العام ٢٠٢٠ حتى ولو لم يكن وضع العديد من المهاجرين شرعياً.

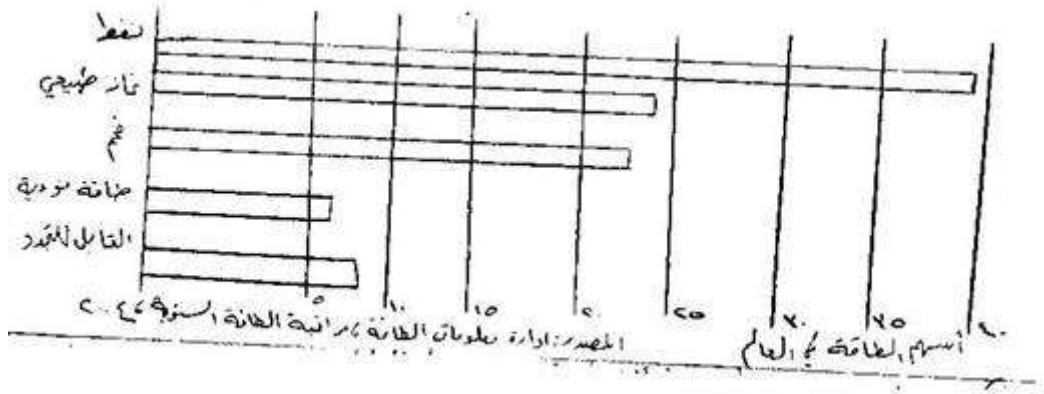
تواجه الدول المستقبلية للمهاجرين تحدياً يتعلّق بدمج المهاجرين الجدد للتخفيف من الصراع الاجتماعي إلى الحد الأدنى.

إن الحوالات المرسلة من العمال المهاجرين تزداد أهمية في تنمية الاقتصاديات.

يعتقد بعض الاقتصاديين بأن الحوالات أكبر من الاستثمارات الخارجية المباشرة في معظم الدول الفقيرة وفي بعض الحالات هي أكثر قيمة من الصادرات.

على أية حال، فإن نصف الأطباء والأساتذة النيجريين والذين ولدوا في نيجيريا يقيمون اليوم في الولايات المتحدة. لم يتوقع معظم الخبراء أن تضعف النزعة الحالية الصريحة المتمثلة في "نزوح العقول" من الشرق الأوسط وأفريقيا. في الحقيقة، يمكن لها أن تتزايد مع النمو المتوقع لفرص التوظيف وخاصة في أوروبا.

سوف يظل الوقود المستخرج مسيطراً في العام ٢٠٢٠



الطلبات المتزايدة على الطاقة:

سيكون للطلب المتزايد على الطاقة وخاصة من قبل القوى الناشئة خلال العام ٢٠٢٠ آثار كبيرة على العلاقات الجيوسياسية. وسيكون العامل الوحيد والأكثر أهمية في تأثيره على الطلب على الطاقة هو النمو الاقتصادي العالمي، وخاصة ذلك الذي في الصين والهند.

- بالرغم من الاتجاه نحو المزيد من الاستخدام الفعال للطاقة، فإن استهلاك الطاقة الإجمالية ربما يزيد حوالي خمسين بالمئة خلال العقدين القادمين مقارنة مع أربعة وثلاثين بالمئة ممتدة منذ العام ١٩٨٠ وحتى العام ٢٠٠٠ مع حصة متزايدة يوفرها البترول.

- ربما تغطي مصادر الطاقة القابلة للتجديد مثل الهيدروجين والمازوت والطاقة الهوائية حوالي ثمانية بالمئة فقط من مخزون الطاقة في العام ٢٠٢٠. بينما خطة الصين وروسيا والهند لتوسيع قطاع القدرة النووية فإن هذه القدرة ربما تضعف عالمياً في العقد المقبل.

تقدر وكالة الطاقة الدولية أن الاستثمار الكبير بطاقة جديدة سيجعل موارد الطاقة كلاً كافية لتلبية الطلب العالمي المتزايد.

إن إمكانية شركات النفط العالمية المحدودة في الوصول إلى الحقول الكبرى ربما يعين هذا الاستثمار، ومع ذلك فإن مناطق عديدة - بحر قزوين، وفنزويلا، وغربي أفريقيا، وبحر الصين الجنوبي - التي يعتمد عليها في تزويد المزيد من النفط، تتضمن مخاطر سياسية أو اقتصادية كبيرة. كما أن المعتمدين الماليين التقليديين في الشرق الأوسط يعانون أيضاً من عدم استقرار بصورة متزايدة. وبالتالي فإن التنافس الشديد على الموارد بدافع الطلب ربما يترافق بتمزق كبير لموارد النفط يعد من بين مصادر القلق الأساسية. يتوجب على الصين والهند اللتين تقتبران إلى مصادر الطاقة المحلية الكافية أن تضمننا وسيلة دائمة للوصول إلى الموارد الخارجية وبالتالي فإن الحاجة للطاقة ستكون عاملاً رئيسياً في تشكيل سياساتها الخارجية والدفاعية، بما فيها توسيع القوة البحرية.

- يعتقد الخبراء أن الصين بحاجة إلى زيادة طاقتها الاستهلاكية بحوالي ١٥٠ بالمئة، وعلى الهند أن تضاعف استهلاكها بحلول العام ٢٠٢٠ من أجل الحفاظ على معدل ثابت لنموها الاقتصادي.

- تحت متطلبات بكون المتزايدة للطاقة الصين على زيادة دورها الفعّال في العالم في الشرق الأوسط.

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوراسيا. وبمحاولة الصين زيادة موارد الطاقة لديها وتنويعها، تشعر بالقلق بشأن تعرضها للضغط من الولايات المتحدة الأمريكية والذي يعدّه الرسمىون الصينيون سياسة عدوانية، يمكن استخدامها ضد الصين.

. منذ أكثر من عشر سنين والرسمىون الصينيون يؤكدون بأن إنتاج الشركات الصينية التي تستثمر أموالاً في الخارج أكثر أمناً من المستوردات المشتراة من السوق العالمية. كما توجه الشركات الصينية إلى توظيف الأموال في مشاريع في منطقة الكاريبي وروسيا والشرق الأوسط وجنوب أمريكا من أجل الحصول على مصدر يمكن الاعتماد عليه أكثر.

من غير المحتمل أن تزداد حاجة أوروبا للطاقة إلى المستوى الذي وصلت إليه حاجة العالم النامي نفسه. ذلك بسبب النمو الاقتصادي المتدني المتوقع لأوروبا من جهة والاستخدام الأكثر فعالية للطاقة من جهة أخرى.

إن تفضيل أوروبا المتزايد للغاز الطبيعي بالترافق مع نفاذ الاحتياطي في البحر الشمالي سيعطي دعماً إضافياً للجهود السياسية الجارية لتقوية الروابط مع روسيا وشمال أفريقيا، ذلك لأن الغاز يحتاج إلى مستوى أعلى من الالتزام السياسي بين كلا الطرفين من أجل تصميم البنية التحتية الضرورية وبنائها.

وفقاً للدراسة التي أجرتها اللجنة الأوروبية، فإن حصة الاتحاد من الطاقة الآتية من الموارد الخارجية سترتفع من حوالي النصف في العام ٢٠٠٠ إلى الثلثين في العام ٢٠٢٠. سيتزايد استخدام الغاز بشكل أسرع نتيجة للهموم البيئية وتقلص استخدام الطاقة النووية الأوروبية تدريجياً.

الجغرافية السيلسية الغازية:

سيكون لمنتجي كلٍّ من النفط والغاز نفوذ أكبر من اليوم، ولكن العلاقة بين منتجي الغاز ومستهلكيه ربما تكون قوية بسبب القيود على تسليم الآليات.

الغاز، خلافاً للنفط، لم يعد مصدراً للطاقة يمكن استبداله، كما أن الاعتماد المتبادل على تسليم خط الأنابيب يدعم التحالفات الإقليمية، فعلى المنتجين أن يرتبطوا بالمستهلكين، لأن أيّاً من الطرفين لا يملك خيارات عديدة.

. أكثر من ٩٥ بالمئة من الغاز المنتج وثلاثة أرباع تجارة الغاز يُوزع عبر خطوط الأنابيب مباشرة من المنتج إلى المستهلك، كما أنه من غير المحتمل لتكنولوجيا تحويل الغاز إلى سائل أن تغير هذه النسب تغيراً كبيراً مع حلول العام ٢٠٢٠.

. سوف تصل أوروبا إلى موارد روسيا وشمال أفريقيا بينما ستكون الصين قادرة على جر الغاز من روسيا الشرقية وأندونيسيا والأحواض الضخمة في استراليا. أما الولايات المتحدة فسوف تتجه نحو كندا أو إلى موارد نصف الكرة الغربي.

"تتضمن العديد من المناطق المعتمد عليها في تزويد منتجات الطاقة المتزايدة مخاطر سياسية واقتصادية كبيرة... وهكذا فإن التنافس الأشد المدفوع بالطلب، وربما المترافق مع استنزاف كبير لموارد النفط، يعد مصدر قلق جوهري".

سيساعد إيصال الغاز عبر خط أنبوب (يامال . أوروبا) وخط أنبوب (بلوستريم) روسيا على زيادة

مبيعات الغاز للاتحاد الأوروبي وتركيا بنسبة تزيد ٤٠ بالمئة عن مستوى المبيعات في العام ٢٠٠٠، وذلك في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ونتيجة لذلك فإن حصة روسيا من الطلب الأوروبي الإجمالي سترتفع من ٢٧ بالمئة في العام ٢٠٠٠ إلى ٣١ بالمئة في العام ٢٠١٠. علاوة على ذلك، فإن كون روسيا أكبر مزود للطاقة خارج منظمة أوبك، يجعلها في وضع جيد يمكنها من تنظيم احتياطاتها من النفط والغاز لدعم أهداف السياسة المحلية والخارجية.

تمتلك الجزائر ثامن أكبر احتياطي للغاز في العالم، وهي أيضاً تسعى إلى زيادة صادراتها إلى أوروبا بنسبة ٥٠ بالمئة مع نهاية هذا العقد.

أحادية القطب الأمريكية - كم تدوم؟

وجود عالم ذي قوة عظمى وحيدة يُعد نادراً في العصر الحديث. بالرغم من قيام حركة مناهضة للولايات المتحدة فإن معظم القوى العظمى تعتقد اليوم بأن الإجراءات المضادة مثل التوازن لا يمكن لها أن تعمل في وضع تسيطر فيه الولايات المتحدة على العديد من روافع القوة. علاوة على ذلك، فإن سياسات الولايات المتحدة لا تبدو أنها تشكل تهديداً كافياً لتسوية مثل هذه الخطوة.

- تعتقد أعداد متزايدة من السكان في جميع أنحاء العالم، وخاصة في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي الأوسع بأن الولايات المتحدة تعقد العزم على الهيمنة الإقليمية أو الهيمنة الاقتصادية والسياسية المباشرة على الدول الأخرى ومواردها.

يمكن لأزمة عدم الثقة المتزايدة أن تحفز الحكومات في المستقبل على اتخاذ مقاربة أكثر عدوانية تتضمن المقاومة ضد دعم مصالح الولايات المتحدة في المنابر متعددة القوميات، وتطوير إمكانيات عسكرية غير متماثلة كحاجز ضد الولايات المتحدة.

"هناك عدد من النظريات ذات الصلة بالسياسة تشير إلى كيف يمكن للولايات أن تتعامل مع الوضع الذي تستمر فيه الولايات المتحدة المحتل الأقوى الوحيد في المسرح الاقتصادي والعسكري والتكنولوجي".

من المرجح أن تقوم معظم الدول بتجريب تكتيكات متعددة ومتنوعة على مختلف المستويات من مقاومة الانخراط في محاولة للتأثير على كيفية ممارسة أمريكا لقوتها.

نتوقع بأن تلك الدول ستتبع استراتيجيات مصممة لاستبعاد أو عزل الولايات المتحدة، ربما بشكل مؤقت، من أجل إجبار الولايات المتحدة أو تحلقها لتلعب دوراً وفق قواعد أخرى.

تعتقد العديد من الدول بأن الطريقة الأكثر نجاحاً للحصول على نفوذ يفوق واشنطن هي بتهديدها بالامتناع عن التعاون. وسوف تحاول الحكومات الأجنبية أن تجد طرقاً للانحياز إلى الولايات المتحدة أو ربط برامجها السياسية ببرامج الولايات المتحدة. كالحرب ضد الإرهاب، مثلاً. وبذلك تتحاشى معارضة الولايات المتحدة لسياسات أخرى.

هل ستصبح أوروبا قوة عظمى؟

وفقاً للمستشارين الإقليميين الذين استشرناهم، فإن دور أوروبا العالمي في المستقبل يعتمد اعتماداً

كبيراً على ما إذا كانت ستقوم بإصلاحات اقتصادية واجتماعية بنيوية لمعالجة مشكلة القوى العاملة الآيلة إلى الشيخوخة فيها. تتطلب الصورة الديمغرافية مقارنة متقدمة الأبعاد لتشمل:

- مزيداً من الهجرة الشرعية واندماجاً أفضل للعمال ربما يأتيان أساساً من شمال أفريقيا والشرق الأوسط. حتى وإن لم يسمح بمزيد من العمال الضيوف فإن على أوروبا الغربية أن تدمج مزيداً من سكانها المسلمين المتزايدين. أما إغلاق أبواب الدخول الشرعية المتزايد فلسوف يؤدي إلى دخول مهاجرين غير شرعيين يصعب دمجهم ويشكلون مشكلة طويلة الأمد. من المحتمل أن نتخيل أن الدول الأوروبية تنجح في تكيف قواها العاملة وأنظمتها المتعلقة بالرفاه الاجتماعي ومواءمتها مع هذه الحقائق الجديدة، من الصعب أكثر رؤية دولة مثل ألمانيا تهضم ملايين من العمال المسلمين المهاجرين الجدد في فترة وجيزة من الزمن.

. مرونة أكثر في موقع العمل، كتشجيع الشباب على أخذ إجازات لمدة سنوات كي يبدأن ببناء أسرة مقابل ضمان عودتهن إلى العمل. كما أن تشجيع الكهول (من سن ٥٠ إلى ٦٥) على العمل مدة أطول أو العودة إلى القوة العاملة ربما يساعد على تيسير مشكلة النقص في الأيدي العاملة.

شعر الخبراء بأن حالة الرفاه الحالية غير دائمة وأن الافتقار إلى أي إنعاش اقتصادي ربما يؤدي إلى التمزق أو في أسوأ الأحوال إلى تفكك الاتحاد الأوروبي ونسف طموحه في لعب دور عالمي ثقيل.

يعتقد الخبراء أن معدل النمو الاقتصادي في الاتحاد الأوروبي ينخفض بسبب ألمانيا وقوانين العمل الصارمة السارية فيها. تظل الإصلاحات البنوية هناك . وفي فرنسا، وإيطاليا بصورة أقل . هي المفتاح الذي يمكن الاتحاد الأوروبي عموماً من الخروج من نموذج النمو الاقتصادي البطيء الذي تعاني منه. ربما لا يكون من الضروري الخروج من حالة الرفاه الاجتماعي القائمة بعد الحرب العالمية الثانية، كما يشاهد في مثال السويد الناجح في تقديم مرونة أكثر للأعمال في حين تحافظ على العديد من حقوق العمال. يشك الخبراء في أن القيادة السياسية الحالية مهيأة لمثل هذا الخروج، معتقدين أن الأزمة المالية التي تلوح في أفق السنوات الخمس القادمة، ربما تكون الزناد الذي يطلق الإصلاح.

وإذا لم تطبق بعض الإصلاحات سوف تعاني أوروبا مزيداً من التباطؤ الإجمالي، وربما تسلك كل دولة طريقها الخاص بها بمفردها خصوصاً فيما يتعلق بالسياسة الخارجية حتى وإن ظلت عضواً اسماً في الاتحاد. في مثل هذا السيناريو، من المحتمل أن يتوقف توسيع الاتحاد عند الأعضاء الحاليين جاعلين الوصول إلى تركيا وبلدان البلقان، ناهيك عن ذكر الاحتمالات البعيدة المدى مثل روسيا أو أوكرانيا. إن الحفاظ على معدل النمو في حدود واحد أو اثنين في المئة ربما يسفر عن بعض التوسع، ولكن أوروبا ربما لا تستطيع أن تلعب دوراً عالمياً كبيراً يتناسب مع حجمها.

يرى العديد من الخبراء، بالإضافة إلى الحاجة إلى نمو اقتصادي متزايد وإصلاح اجتماعي، وإصلاح لنظام الرفاه الاجتماعي، إن على الاتحاد الأوروبي الاستمرار في مسار عملية صنع القرار المعقدة التي تعيق العمل الجماعي. إن ولادة أوروبا فيدرالية . ليس ذلك محتملاً في إطار عشرينات القرن الواحد والعشرين . لا تمكنها بالضرورة من لعب دور عالمي أثقل طالما أنها تستطيع البدء بحشد الموارد وصهر آراء مختلفة في أهداف سياسية جماعية. يعتقد الخبراء أن "قفزة اقتصادية إلى الأمام" . تحرك الثقة المتجددة والحماس في المشروع الأوروبي. ربما تطلق مثل هذا العمل العالمي المعزز.



سيناريو إبداعي: الإمبراطورية الأمريكية

يظهر السيناريو التالي كيف يمكن للهيمنة الأمريكية أن تتجاوز التغييرات الجذرية للمشهد السياسي العالمي، مع بقاء واشنطن المحور الرئيسي للسياسات الدولية. يصور هذا السيناريو على أنه عمل إبداعي ليوميات أمين عام الأمم المتحدة في العام ٢٠٢٠. في هذا السيناريو تخضع التحالفات الأساسية والعلاقات مع أوروبا وآسيا للتغيير. ويتجدد التعاون الأمريكي . الأوروبي بما في ذلك حول الشرق الأوسط. وهناك ترتيبات أمنية جديدة في آسيا، ولكن ما زالت الولايات المتحدة تحمل العبء الأثقل. ويقترح السيناريو أن تناضل واشنطن لتأكيد زعامتها في عالم يزداد تنوعاً وتعقيداً بخطا متسارعة. وفي نهاية السيناريو نكون قد تلقينا دروساً عن كيفية إتمام السيناريو.

تدوين اليوميات الخاصة للأمين العام للأمم المتحدة:

١١/ أيلول (سبتمبر)/ ٢٠٢٠

مضى اليوم عشرون عاماً بالضبط على تغيّر المشهد من الطابق الثامن والثلاثين بتدمير البرجين التوأمين. كنت أقدم الملاحظات عندما هتف رئيس الولايات المتحدة قائلاً: إن أكثر من ألف قد تغيّر منذئذ. لم يُنشأ بناء جديد فقط، يخفي جزئياً الدمار الذي حلّ في ٩/١١، بل إن الولايات المتحدة قد برزت كطائر الفينيق . وإن كان مطوقاً . ويبدو أنها ما زالت القاعدة الوطيدة للنظام العالمي.

لابدّ من القول إن ذلك قد بدأ عندما التقت أوروبا وأمريكا معاً من جديد.

لقد تبين أن كوكبي الزهرة والمريخ يتبادلان مداراتهما من حين إلى حين. كما أن الهجمات الإرهابية التي حدثت في العام ٢٠١٠ في أوروبا لها صلة وطيدة بذلك. لقد تبادلا المواقف وفجأة أصبح الأوروبيون يقيمون الإرهاب الكارثي بصورة أفضل . إذا اعتبروه نوعاً من الفوضى يختلف عما ألفوه. سرعان ما حققت الجماهير بالطاقة والنشاط، خصوصاً عندما أدركوا أن هذه الهجمات لا مسوغ لها إطلاقاً. وكانت هذه الهجمات على درجة من الخطورة بحيث لم تعد أمريكا وأوروبا مجرد حليفين، بل أخذت أوروبا تتوسل إلى أمريكا كي تتشدد أكثر في مسألة الإرهاب.

لقد كان رص الصفوف عبر الأطلسي بدافع أبعد من هذا. إذ توضح أمر واحد هو أن أوروبا كانت موحدة أكثر مما تخيل بعض أصدقائنا الأمريكيين. منذ أن انضمت أوروبا الحديثة لنادي الوحدة الأوروبية، وأخذت ترتاد بروكسل، تبين أنها لا تختلف كثيراً عن أوروبا القديمة.

لقد مرّ النانو ببعض الأوقات الصعبة، ولكنه الآن يعمل بشكل أفضل مع الاتحاد الأوروبي.

هناك قبول بامتعاظ من قبل الطرفين بأن يمتلك النانو الأدوات العسكرية الضرورية، بينما يمكن للاتحاد الأوروبي استحضار الإمكانية لبناء الأمة.

هناك في الجانب الأوروبي الكثير مما له صلة بانتماء تركيا لأوروبا . وهو أمر لا أتوقع حدوثه أبداً . يدرك الأوروبيون أنه بدخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، تصبح حدودهم في الشرق الأوسط مباشرة، وذلك يعني أن عليهم الاستعداد أكثر لمعالجة جميع مشاكل الإرهاب، والأصولية، وتزايد نسبة الشباب..... وغير ذلك.

تحاول أوروبا لدى لقائها ثنائية بأمريكا، إقناع الولايات المتحدة لتخفيف حدة العنف في فلسطين. لأن القضية الفلسطينية، كانت دائماً في نظر الأوروبيين هي أصل المشكلة، ولكن الانقسامات، والافتقار إلى الإرادة كانت عائقاً في طريق القيام بعمل متفق عليه.

كما يلعب تغيير الطاقة والمناخ دوراً متزايداً في الديناميكية الأمريكية . الأوروبية، ولكن ليس بالطريقة التي نتوقعها. يبدو للحظة، أن الأوروبيين يحاولون عزل الولايات المتحدة والإصرار على واشنطن أن تتبع قوانين الاتحاد الأوروبي. ولكن هذا لن يحصل فعلاً، ولم يدخل القادة الأوروبيون في حساباتهم استياء جماهيرهم المتعاطف من تباهي الصين والبلدان النامية الأخرى بمستوياتهم البيئية. خرجت كيوتو فجأة وكان لابد من التفكير في إطار جديد يتضمن الأمريكيين.

لقد تغير الدور الأمريكي بشكل درامي في آسيا، لقد نهضت الصين، ورغم أنها لا تشكل تحدياً مباشراً للولايات المتحدة، فإنها بالتأكيد تحل محلها في المنطقة، وخصوصاً على الصعيد الاقتصادي. كما أنه يبدو وكأن الانشغال الأمريكي المسبق في العراق والإرهاب قد جعل أمريكا تفكر في تقليص دورها أكثر.

فاليابان وقفت إلى جانب أمريكا في العراق ولكنهما تعارضتا بسبب اعتماد اليابان الاقتصادي على الصين. وقد لام الحيل الصاعد في كوريا الجنوبية الولايات المتحدة على التقسيم والمشاكل مع الشمال. يبدو أن دفع الولايات المتحدة إلى الصفوف الجانبية قد أصبحت مسألة وقت لا أكثر .

ومن ثم حصلت سلسلة من الأحداث غيرت الدينامية. فبسبب تخوف اليابان من استمرار المأزق في كوريا الشمالية مسدوداً، تسربت إشاعات مفادها أن اليابان أخذت تفكر جدياً في امتلاك قنبلة نووية خاصة بهم. وفي الوقت نفسه تقريباً أخذت الصين أيضاً تعاني من نكسة اقتصادية أدت إلى تقاوم نبرة التحدي في قضية تايوان وزيادة القلق في اليابان وجنوب شرق آسيا. أرادت الولايات المتحدة بشكل أساسي أن تعزز صورتها، ولكنها وجدت كثيرين يشعرون بالقلق بشأن النزاع الصيني . الأمريكي. لقد أنهت واشنطن تصعيد وجودها العسكري في كوريا واليابان. لا يريد كثيرون لأمريكا أن تغادر، حتى الصين، على ما أعتقد ترى خفية بعض المنافع في بقاء الولايات المتحدة في الجوار بقدر ما يجعل ذلك الآخرين يتقبلون أكثر النفوذ السياسي والاقتصادي المتزايد لبكين.

لم يعقد هذا الزواج الصيني . الأمريكي في السماء، ولهذا ينبغي على الطرفين العمل بجد كيلا يخرجوا عن الخط. إنني أرى في الأفق المزيد من الغيوم المنذرة بقدوم عاصفة. إذ يبدو أن القومية قد أصابت ريحها كل فرد، كما تحول اهتمام الطبقة المتوسطة الصاعدة في الصين عن الديمقراطية واتجهوا أكثر نحو القومية.

كما أن القلق على موارد الطاقة أضيف إلى صالح أمريكا. أصبح استقرار الشرق الأوسط ضرورة للصين بسبب الطاقة تماماً كما هو ضرورة لأوروبا. كذلك غدت الولايات المتحدة تشكل توازناً بين الشيعة والسنة. ربما لم تكن واشنطن مهتأة لمعرفة كيف بدأ العراق الحر الذي يهيمن عليه الشيعة بتحريك الميزان ورفع التوتر في منطقة يأتي منها معظم نفط العالم. إنه موقف لا يحسد عليه الأمريكيون. يتوَلَّد عندي شعور في بعض الأحيان بأن كثيراً من الأمريكيين قد تعبوا من لعب دور شرطة العالم. إذ لا يزال عبء الأمن على أكتافهم، وهذا هو مصدر إحباطهم مع الأوروبيين الذين يريدون التركيز على الاتحاد الأوروبي فقط. اعتقد الأمريكيون بأن لديهم صفقة. وهي أن تتحمل واشنطن العبء الثقيل إلى جانب إسرائيل، أما الأوروبيون فيستعدون لدفع المال وجمع العسكر لتشكيل قوة سلام شرق أوسطية. ولكن هذه الصفقة قد أصبحت بالية.

كم ستدوم الإمبراطورية الأمريكية؟ لست متأكداً.

إنها لا تعني كثيراً مجرد بناء مؤسسات. فأعمال الأمم المتحدة أفضل قليلاً بالتأكيد لأن هناك المزيد من التعاون بين الأعضاء، أما نحن فلم نُجر سوى القليل من الإصلاحات، كما أن الهند قد أحبطت أكثر، وما زال الأفريقيون وأبناء أمريكا اللاتينية والآسيويون الفقراء يشعرون بأنهم لم يقدِّروا حق قدرهم، حتى إن بعضهم أصبحوا مستائين من نهوض الهند والصين الذي استنزف فرصهم. إن لجنة حقوق الإنسان التي اندمجت قبل بضع سنين في لجنة حقوق الإنسان والأخلاق قد أحبطت بفضل عمليات الاستتساخ، وفيما يتعلّق بمنظمات الشباب، وفي موضوع ما إذا كان ينبغي تنظيم استهلاك الطاقة عالمياً.

على الرغم من التعاون العملي الذي تمّ ضد الإرهاب فإننا لا نزال غير متفقين على تعريف يمكن أن يوحد الدول حول استراتيجية مضادة للإرهاب.

ولكي أضع حداً للاحتِمالات أخوض معركة شرسة على جبهتين من أجل البقاء هنا في نيويورك، ضد مجموعات "أمريكا أولاً" التي تدعو لإزالة الأمم المتحدة وضد عدد كبير من الأوروبيين والآسيويين الذين يظنون بأن الأمم المتحدة تحت سيطرة واشنطن بشكل كبير.

وغالبا ما أتساءل كم من التقدّم قد تحقق. ولابدّ لي من التحدّث إلى الرئيس الأمريكي بشأن هذا الأمر في المرة المقبلة التي نلتقي فيها نحن الفتيات.

الدروس المكتسبة:

. إن البيئة الجيوسياسية التي تهيمن عليها القوة الأمريكية ستغدو أكثر تعقيداً.

. قد تضع الصين الناشئة أمريكا في وضع مختلف، لدى قيامها بدور الموازن بين الصين من جهة، واليابان وبلدان آسيوية أخرى، من جهة ثانية.

ربما تتقائل التحالفات المتنافسة بسبب قضايا أخلاقية وعرقية. وربما ينظر إلى الولايات المتحدة لتكون زعيمة العالم، ولكن السيناريو يشير إلى أن ذلك يحتاج إلى براعة للحصول على الإجماع. ولا يعني أن تكون "الإمبراطورية الأمريكية" بالضرورة صفقة حلوة بالنسبة لأمريكا.

من الصعب أن تتغير التوقعات الراسخة المتعلقة بإمكانية قيام الولايات المتحدة بتحمل عبء الأمن الثقيل، خصوصاً وأن الولايات المتحدة تملك في واقع الأمر أكبر قدرة عسكرية في العالم. يوحى السيناريو بأن هندسة البناء العالمية لم تصمم من أجل المشاركة في حمل الأعباء الأمنية. وفيما خلا حلف الناتو الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة، لا يبدو أن هناك منظمات إقليمية أخرى قادرة على العمل في السيناريو.



وئائق

- القرار ١٥٥٩
- بيان لرئيس مجلس الأمن
- تقرير كوفي عنان عن تنفيذ القرار ١٥٥٩
- اتفاق الطائف
- البيان الختامي لمؤتمر القمة العربية
- وثيقة البيان الختامي لمؤتمر الدول العربية وأمريكا الجنوبية

قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩

إن مجلس الأمن، إذ يستذكر كافة قراراته السابقة حول لبنان، وخاصة القرارات ٤٢٥ (١٩٧٨) و ٤٢٦ (١٩٧٨) تاريخ ١٩ آذار ١٩٧٨، والقرار ٥٢٠ (١٩٨٢) تاريخ ١٧ أيلول ١٩٨٢، والقرار ١٥٥٣ (٢٠٠٤) تاريخ ٢٩ تموز ٢٠٠٤، إضافة الى بياناته الرئاسية حول الحالة في لبنان، وخاصة البيان الرئاسي رقم ٢١ المؤرخ ١٨ حزيران العام ٢٠٠٠، وإذ يعيد التأكيد على دعمه القوي لوحدة أرض لبنان وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده الإقليمية المعترف بها، وإذ يلاحظ تصميم لبنان على ضمان انسحاب كافة القوات غير اللبنانية من لبنان، وإذ يعبر عن بالغ قلقه لاستمرار تواجد الميليشيات المسلحة في لبنان، والتي تمنع الحكومة اللبنانية من ممارسة سيادتها الكاملة على التراب اللبناني بأكمله، وإذ يعيد التأكيد على أهمية بسط سلطة الحكومة اللبنانية على كافة التراب اللبناني، وإذ يضع في اعتباره الانتخابات الرئاسية القادمة ويؤكد أهمية إقامة انتخابات حرة وعادلة وفقاً للقواعد الدستورية اللبنانية من دون تدخل أو تأثير خارجي

- ١- يعيد تأكيد دعوته للاحترام الدقيق لسيادة لبنان وسلامة أراضيه ووحدته واستقلاله السياسي تحت السلطة الوحيدة والحصرية لحكومة لبنان في كافة أنحاء لبنان.
- ٢- يطالب جميع القوات الأجنبية الباقية بالانسحاب من لبنان.
- ٣- يدعو الى حل ونزع أسلحة كافة الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية.
- ٤- يدعم بسط سلطة الحكومة اللبنانية على كافة التراب اللبناني.
- ٥- يعلن دعمه لإجراء عملية انتخابية حرة وعادلة في الانتخابات الرئاسية اللبنانية القادمة وفقاً للقواعد الدستورية اللبنانية من دون تدخل أو تأثير خارجي.
- ٦- يدعو كافة الأطراف المعنية للتعاون بشكل كامل وعاجل مع مجلس الأمن من أجل التنفيذ الكامل لهذا القرار وكافة القرارات ذات الصلة المتعلقة باستعادة وحدة أراضي لبنان وسيادته الكاملة واستقلاله السياسي.
- ٧- يطلب إلى الأمين العام تقديم تقرير إلى مجلس الأمن خلال ثلاثين يوماً حول تنفيذ الأطراف لهذا القرار، ويقرر إبقاء هذه المسألة قيد نظره الفعلي.

□□□

بيان لرئيس مجلس الأمن

في الجلسة ٥١٧٥ التي عقدها مجلس الأمن في ٤ أيار/مايو ٢٠٠٥، بصدد نظر المجلس في البند المعنون "الحالة في الشرق الأوسط"، أدلى رئيس مجلس الأمن بالبيان التالي باسم المجلس:

"يشير مجلس الأمن إلى جميع قراراته السابقة المتعلقة بلبنان، لا سيما القرارات ١٥٥٩ (٢٠٠٤)، و٤٢٥ (١٩٧٨)، و٤٢٦ (١٩٧٨)، والقرار ٥٢٠ (١٩٨٢)، والقرار ١٥٨٣ (٢٠٠٥) المؤرخ ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، إضافة إلى البيانات الصادرة عن رئيسه بشأن الحالة في لبنان، ولا سيما البيان المؤرخ ١٨ حزيران/يونيه ٢٠٠٠ (S/PRTST/2002/12) والبيان المؤرخ ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ (S/PRST/4002/63).

يعيد مجلس الأمن تأكيد دعمه القوي لسلامة لبنان الإقليمية وسيادته واستقلاله السياسي داخل حدوده المعترف بها دولياً وفي ظل سلطة حكومة لبنان وحدها بدون منازع.

يرحب مجلس الأمن بالتقرير نصف السنوي الأول المؤرخ ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ (S/5002/272) المقدم من الأمين العام إلى مجلس الأمن عن تنفيذ قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ (٢٠٠٤).

يرحب مجلس الأمن أيضاً بإحراز الأطراف المعنية لتقدم هام وملحوظ صوب تنفيذ بعض الأحكام الواردة في القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤)، ولكنه يُعرب عن القلق إزاء ما خلص إليه الأمين العام من أنه لم يحرز أي تقدم في تنفيذ أحكام القرار الأخرى، ولا سيما نزع سلاح الميليشيا اللبنانية وغير اللبنانية وبسط سلطة حكومة لبنان على كامل الأراضي اللبنانية، وإزاء عدم الوفاء بعد بمقتضيات القرار.

يكرّر مجلس الأمن مطالبته بالتنفيذ التام لجميع مقتضيات القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) ويدعو جميع الأطراف المعنية إلى التعاون بالكامل مع مجلس الأمن والأمين العام لتحقيق هذا الهدف.

يعترف مجلس الأمن بتسلم الرسالة المؤرخة ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ الموجهة إلى الأمين العام من وزير خارجية الجمهورية العربية السورية والتي تقيد بأن سوريا قد أنجزت الانسحاب التام لقواتها وموجوداتها العسكرية وأجهزتها الاستخبارية من لبنان.

يطلب مجلس الأمن من حكومة سوريا وحكومة لبنان التعاون التام مع فريق التحقق التابع للأمم المتحدة الذي أوفده الأمين العام بموافقتهم للتحقق من الانسحاب التام والكامل، ويتطلع إلى تقريره.

يسلم مجلس الأمن بأن الانسحاب السوري التام والكامل سوف يشكل خطوة قيّمة وهامة صوب تحقيق لبنان الاستقلال السياسي الكامل وممارسته لسيادته بالكامل، وهو الهدف النهائي للقرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤)، مما يفتح صفحة جديدة في تاريخ لبنان.

يرحب مجلس الأمن بنشر القوات المسلحة اللبنانية في المواقع التي أخلتها القوات السورية وبتولي حكومة لبنان المسؤولية عن هذه المناطق ويدعو إلى نشر قوات مسلحة لبنانية إضافية في كافة أنحاء جنوب البلد.

يحث مجلس الأمن جميع الأطراف المعنية على بذل قصارى جهدها من أجل صون استقرار لبنان ووحدته الوطنية، ويؤكد أهمية الحوار الوطني بين جميع القوى السياسية اللبنانية في هذا الصدد.

يثني مجلس الأمن على شعب لبنان للطريقة اللائقة التي أعرب بها عن آرائه ولالتزامه بعملية سلمية وديموقراطية، ويشدد على ضرورة تمكين الشعب اللبناني من تقرير مستقبل بلده في منأى عن العنف والتخويف. ويدين في هذا السياق الأعمال الإرهابية التي وقعت في لبنان مؤخراً وأسفرت عن مقتل وإصابة العديد من الأشخاص، ويدعو إلى تقديم مرتكبيها إلى العدالة. يرحب مجلس الأمن بقرار الحكومة اللبنانية إجراء الانتخابات اعتباراً من ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٥، ويؤكد أهمية إجراء هذه الانتخابات وفقاً للموعد المقرر. ويشاطر مجلس الأمن الأمين العام رأيه بأن التأخر في إجراء الانتخابات النيابية من شأنه أن يسهم في زيادة تقاوم الانقسامات السياسية في لبنان ويهدد أمن البلد واستقراره وازدهاره. ويؤكد المجلس أن إجراء انتخابات حرة وذات مصداقية بدون تدخل أو تأثير أجنبي سيشكل مؤشراً رئيسياً آخر على استقلال لبنان السياسي وسيادته.

يشجع مجلس الأمن الأمين العام والحكومة اللبنانية على التوصل إلى ترتيبات من أجل المساعدة الدولية، بما في ذلك المساعدة المقدمة من الأمم المتحدة، لكفالة إجراء هذه الانتخابات بطريقة حرة وذات مصداقية، بوسائل منها خاصة دعوة مراقبي انتخابات دوليين، حكوميين و/أو غير حكوميين، لمراقبة العملية الانتخابية. ويحث المجلس الدول الأعضاء على تقديم المساعدة بناء على ذلك.

يثني مجلس الأمن على الأمين العام ومبعوثه الخاص لجهودهما التي لا تعرف الكلل وتقانيهما من أجل تيسير تنفيذ جميع أحكام القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) ومساعدة الأطراف في ذلك، ويطلب إليهما مواصلة عملهما في هذا الصدد.

يشاطر مجلس الأمن الرأي القائل بأن التنفيذ التام للقرار ١٥٥٩ سيكون له إسهام إيجابي في الحالة في الشرق الأوسط عموماً

تقرير كوفي عنان عن تنفيذ القرار ١٥٥٩

١٧. وفي ٢٦ نيسان/ أبريل، وافقت حكومة الجمهورية العربية السورية برسالة (انظر المرفق) جاء فيها أنها أكملت سحب القوات السورية والعتاد العسكري وأجهزة الاستخبارات السورية بالكامل من لبنان وفاء للالتزامات التي قطعتها على نفسها لي ولما يقتضيه القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) في هذا الصدد. وحتى ذلك التاريخ، ولم يتسن لي بعد التحقق من الانسحاب السوري الكامل؛ أو تأكيد أن حكم القرار الذي يطالب بانسحاب جميع القوات الأجنبية من لبنان قد نُفذ. بيد أنني أوفدت، بموافقة حكومتي الجمهورية العربية السورية ولبنان، بعثة من الأمم المتحدة للتحقق مما إذا كان قد تم سحب جميع القوات السورية والمعدات العسكرية وأجهزة الاستخبارات السورية من لبنان بصورة كاملة وشاملة. وستباشر هذه البعثة المتمثلة في فريق فني يتألف من خبراء عسكريين، عملها في الأسبوع الذي يبدأ في ٢٥ نيسان/ أبريل. وستنجز عملها وتقدم تقريراً لي في أسرع وقت ممكن. وقد طلبت إلى الحكومتين أن تتعاونتا تماماً مع هذه البعثة، وأن تمداها بكل ما يتوافر من معلومات ووثائق مهمة تتعلق بانتشار جميع القوات السورية والمعدات العسكرية وأجهزة الاستخبارات السورية في لبنان في السابق.

١٨. وأكد لي ممثلو الحكومة اللبنانية أنه مع تقدّم انسحاب القوات السورية كانت القوات المسلحة اللبنانية تتولى تدريجياً المسؤولية في المناطق التي تم الجلاء عنها، وقد سبق لحكومتي لبنان والجمهورية العربية السورية أن أبلغتاني بأن القلق يساورهما بشأن الاستقرار في لبنان بعد الانسحاب السوري الكامل من لبنان. ومع ذلك، أكد لي مسؤولون لبنانيون أن القوات المسلحة اللبنانية لديها القدرة اللازمة لضمان الأمن والاستقرار.

باء - سيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته واستقلاله السياسي

١٩. أكد مجلس الأمن مجدداً في القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) مطالبته بالاحترام التام لسيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته واستقلاله السياسي تحت سلطة حكومة لبنان وحدها دون منازع في جميع أنحاء لبنان. وطالب أيضاً جميع الأطراف المعنية بالتعاون تعاوناً تاماً وعلى وجه

الاستعجال مع مجلس الأمن من أجل التنفيذ الكامل لهذا القرار ولجميع القرارات ذات الصلة بشأن استعادة لبنان سلامته الإقليمية وكامل سيادته واستقلاله السياسي.

٢٠ . وفي تقريره إلى مجلس الأمن المؤرخ ١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤، أعطيت وصفاً للدعوات المنتشرة على نطاق واسع في لبنان ومفادها أن الوجود العسكري السوري، الذي يشمل عنصراً ضخماً من مسؤولي الاستخبارات الذين لا يرتدون زياً عسكرياً، أتاح للجمهورية العربية السورية الهيمنة إلى حد كبير على الشؤون المحلية اللبنانية.

٢١ . لقد أوليت مسألة سيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته واستقلاله السياسي الأولوية العليا في الجهود التي بذلتها على مدى الأشهر الستة الماضية. فاجتمعت بالرئيسين الأسد ولحدود، وظللت على اتصال مباشر بممثلين آخرين رفيعي المستوى في البلدين وبأطراف أخرى معنية. قمت بذلك لقلقي من تزايد الاستقطاب السياسي المحلي في لبنان وتدهور الوضع الأمني. وأخذت في الاعتبار أيضاً ما لانسحاب القوات العسكرية السورية، بما في ذلك أجهزة الاستخبارات، من أثر على استعادة سيادة لبنان ووحدته واستقلاله السياسي. واعتبرت كذلك أنه من المهم إبقاء درجة عالية من الأولوية لهذا العنصر من القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) بسبب الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في أيار/ مايو ٢٠٠٥. فإجراء انتخابات حرة تتوافر فيها المصادقية وفق قواعد دستورية توضع دون أي تدخل أو تأثير أجنبي هو مؤشر رئيسي على سيادة أي ديمقراطية ووحدتها واستقلالها السياسي. وأخيراً، يشدد القرار بقوة على هذه المسألة بالذات إذ يدمج في صلبه بشكل صريح جميع قرارات مجلس الأمن ذات الصلة المتعلقة بسيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته واستقلاله السياسي ويؤكد على أهمية إجراء انتخابات حرة ونزيهة وفقاً لقواعد دستورية لبنانية موضوعة دون أي تدخل أو تأثير أجنبي.

أجهزة الاستخبارات السورية في لبنان

٢٢ . وصف العديد من المراقبين تدخل سورية في لبنان، الذي بدأ مع نشر القوات السورية في البلد في شهر أيار/ مايو ١٩٧٦، بأنه يتخطى حدود الممارسة المعقولة لعلاقات التعاون أو الجوار. والتقرير الذي قدمته مؤخراً بعثة تقصي الحقائق في حادث اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، الذي أعطى أيضاً هذا الوصف، ناقش، فضلاً عن ذلك، بعض جوانب العلاقات بين البلدين المتصلة بالحكم في لبنان.

٢٣ . وفي هذا السياق، تجدر بوجه خاص الإشارة إلى الالتزام الذي قطعته على نفسها لي حكومة الجمهورية العربية السورية في ٣ نيسان / أبريل بسحب جميع قواتها، وعتادها العسكري وأجهزة استخباراتها من لبنان في مهلة أقصاها ٣٠ نيسان/ أبريل، وإلى الرسالة التي قدمتها لي الحكومة السورية في ٢٦ نيسان/ أبريل، وذكرت فيها أنها أنجزت انسحابها الكامل والتام (انظر المرفق). كما أن حكومة سورية أعلنت في ٣ نيسان/ أبريل أنها أغلقت مراكز الاستخبارات السورية في بيروت.

٢٤ . وقامت الأمم المتحدة بمعاينة موقع مقر الاستخبارات السورية في بيروت، بالقرب من فندق "البوريفاج" في ٥ نيسان/ أبريل. وإضافة إلى ذلك، أظهر تحقيق أولي اضطلعت به الأمم

المتحدة للتحقق من انسحاب القوات السورية في إطار المرحلة الأولى من خطة الانسحاب بين ٨ و ١٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٥ أن أجهزة الاستخبارات السورية قد أخلت بعض المواقع التي كانت تحتلها سابقاً في أماكن مختلفة في جميع أنحاء البلاد^(١٨٤). وأكد التحقيق الأولي أيضاً أن الحركة جارية لسحب القوات السورية من سهل البقاع إلى داخل سورية، تنفيذاً للمرحلة الثانية من الانسحاب السوري الكامل والتام من لبنان.

٢٥. وأكد لي بعض الدول الأعضاء، وأعضاء في المعارضة اللبنانية كذلك، أن الاستخبارات العسكرية السورية تتخذ لها مواقع جديدة في جنوب بيروت وفي أماكن أخرى، وتستخدم مقر الأحزاب المرتبطة بحكومة سورية فضلاً عن شقق خاصة مستأجرة من الأفراد لخدمة أغراضها. وأكدت لي حكومتا لبنان وسورية أن هذا الأمر غير صحيح. كما أن ممثلي الحكومة اللبنانية وأفرقاء آخرين أكدوا أيضاً أن صعوبات قد تنشأ في إنجاز الانسحاب الكامل لجميع الأشخاص المرتبطين بأجهزة الاستخبارات السورية في لبنان بسبب الروابط الأسرية التي أقامها المسؤولون السوريون في لبنان على مدى السنوات الـ ٣٠ الماضية، ولوجود شبكة من المخبزين بين المواطنين اللبنانيين.

٢٦. وستكون مهمة بعثة الأمم المتحدة التي أوفدتها إلى لبنان هي التحقق من أن جميع القوات والأعتدة العسكرية والأجهزة الاستخباراتية السورية قد سحبت منه.

إرساء تمثيل دبلوماسي متبادل

٢٧. أشرت، في تقريرتي إلى المجلس المؤرخ ١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ أنه لبنان والجمهورية العربية السورية ليس لديهما أي تمثيل دبلوماسي في عاصمة كل منهما. وقد أشار أعضاء سابقون في الحكومة اللبنانية إلى أن مكتباً تمثلياً لبنانياً أنشئ في دمشق في عام ١٩٧٠ كخطوة أولى نحو إقامة علاقات رسمية بين البلدين. ويدعى أن هذا المكتب عمل حتى الثمانينات، ومكتب التمثيل السوري الذي جرى الإعداد لفتحه في بيروت لم ينشأ على الإطلاق.

٢٨. وقد ناقشت هذه المسألة مع حكومتي البلدين، اللتين ذكرتا أنها مسألة ثنائية. لكنهما أكدتا لي أنهما تتطلعان إلى إضفاء الطابع الرسمي على العلاقات بين البلدين، عقب الانسحاب الكامل والتام للقوات السورية.

الانتخابات البرلمانية اللبنانية

^(١٨٤) زارت بعثة التحقق الأولي مواقع كانت القوات السورية منتشرة فيها سابقاً في الأماكن التالية: في منطقة جبل لبنان، ضهر الوحش، عاليه، ضهر العبادية، بجمدون، المديرج، في شمال لبنان، المدفون، حامات/ شكاء، طرابلس (عدة مواقع)، دير عمار، المنية، القليعات، العريضة، وفي منطقة المتن، الدوار، عيرون، ضهور الشوير، بولونيا، المروج، مجدل ترشيش وترشيش؛ في سهل البقاع، قرب قرية سفري، وحول بعلبك (عدة مواقع)، دورس، وما بين بعلبك ودير الأحمر، قرب رياق، قرب قرية طليا، مكسة، وقب النياس.

٢٩ . شدد مجلس الأمن في ديباجة القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) على أهمية إجراء انتخابات حرة ونزيهة وفقاً لقواعد الدستور اللبناني الموضوعة من غير تدخل أو نفوذ أجنبي. وكما أوضحت أعلاه، تعد الانتخابات أيضاً وسيلة لإعادة تأكيد السيادة الكاملة، والسلامة الإقليمية، والوحدة، والاستقلال السياسي في أي ديمقراطية كانت.

٣٠ . وتنتهي فترة ولاية البرلمان اللبناني في آخر أيار/ مايو ٢٠٠٥. تبعاً لذلك، من المقرر أن تجري الانتخابات البرلمانية في لبنان قبل ذلك التاريخ. وفي السياق الحالي في لبنان، اكتسب إجراء انتخابات حرة تتوافر فيها المصادقية في لبنان وفقاً للقواعد الدستورية اللبنانية الموضوعة دون تدخل أو تأثير أجنبي درجة أعلى من الأهمية والأولوية.

٣١ . وفي معرض الإعداد للانتخابات البرلمانية، وافقت الحكومة اللبنانية برئاسة رئيس الوزراء كرامي في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥ على قانون انتخابي معدل، نص على دوائر انتخابية تقوم على أساس مناطق إدارية (القضاء)، وبدا أنه يمثل تسوية مقبولة لدى الحكومة والمعارضة على السواء^(١٨٥). لكن التصويت على مشروع القانون، الذي كان مقرراً إجراؤه في البرلمان في ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٥، لم يتم لأن البرلمان قرر بصورة عاجلة مناقشة تداعيات اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري.

٣٢ . وفي سياق استقالة الحكومة اللبنانية خلال تلك الجلسة وعجز السيد كرامي لمدة طويلة عن تشكيل حكومة جديدة، كان الوقت آخذاً بالنفاد بالنسبة لتنظيم الانتخابات وإدارتها قبل انتهاء فترة الولاية الحالية للبرلمان اللبناني. وقيل تقديم السيد كرامي استقالته مجدداً في ١٣ نيسان/ أبريل ٢٠٠٥، ألمح ما يُسمى بـ "تجمع عين التينة" مراراً إلى نيته سحب مشروع قانون الانتخابات المقدم من الحكومة الذي وافقت عليه حكومة السيد كرامي الأولى في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥، وتقديم قانون انتخابات معدل ينص على اعتماد مبدأ التمثيل النسبي وتقسيم الدوائر الانتخابية على أساس المحافظات اللبنانية.

٣٣ . صرح رئيس الوزراء نجيب ميقاتي أن حكومته ستكون "رمزاً للاعتدال والوحدة الوطنية"، وستكون لديها أهداف أساسية ثلاثة: التحضير للانتخابات البرلمانية القادمة، والتعاون مع لجنة التحقيق الدولية المستقلة المنشأة بموجب قرار مجلس الأمن ١٥٩٥ (٢٠٠٥)، ومعالجة الوضع الاقتصادي وبناء الثقة بلبنان وفيما بين جيرانه بشأن حالة البلد.

حتى ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، لم يكن لدى لبنان بعد قانون للانتخابات البرلمانية، وقد تعهد رئيس الوزراء الجديد بتنظيم الانتخابات وإجرائها في موعدها، أي قبل نهاية أيار/مايو ٢٠٠٥، وشكل حكومة جديدة في ١٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ مهمتها القيام بذلك.

٣٤ . وأبلغتني كل من الحكومة والمعارضة اللبنانية بأن إجراء انتخابات حرة تتوافر فيها المصادقية

^(١٨٥) بات اعتماد قانون انتخابي معدل ضرورياً لأن الانتخابات البرلمانية الأخيرة في لبنان أجريت وفقاً لقانون انتخابات استثنائي يقتصر تطبيقه على انتخابات عام ٢٠٠٠ فقط. فمنذ عام ١٩٩٦، يعتمد لكل انتخابات قانون جديد. وعدد الدوائر الانتخابية اختلف بين ١٩٩٢ (١٢) و ١٩٩٦ (١٠) و ٢٠٠٠ (١٤).

يأتي على رأس أولوياتها. وينبغي إجراء تلك الانتخابات في موعدها وفقاً لقانون للانتخابات يلقي قبولاً واسع النطاق لدى الشعب اللبناني.

٣٥. ولكفالة إمكانية إجراء تلك الانتخابات، استناداً إلى قانون للانتخابات يلقي قبولاً واسع النطاق لدى مختلف المصالح السياسية اللبنانية بطريقة حرة تتوافر فيها المصادقية، وتجاوباً مع تصريحات الرئيس لحدود ورئيس الوزراء ميفاتي، أناقش حالياً مع الحكومة اللبنانية إمكانية أن تقدم لها الأمم المتحدة بناء على طلبها مساعدة تقنية. وشجعت أيضاً فكرة دعوة مراقبين حكوميين دوليين و/أو مراقبين غير حكوميين لمراقبة الانتخابات، وانتظر تلقي طلبها بهذا الشأن من الحكومة اللبنانية.

انتهاك الطيران الإسرائيلي لسلامة لبنان الإقليمية

٣٦. منذ أن قدمت إلى المجلس تقرير المؤرخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، والطيران الإسرائيلي ينتهك بانتظام سلامة الأراضي اللبنانية بتحليقه في المجال الجوي اللبناني. وتصر حكومة إسرائيل على زعمها أن عمليات التحليق هذه تتم لأسباب أمنية. ولم أتوان أنا وممثلي في المنطقة عن تكرار مناشدتنا لإسرائيل وقف عمليات التحليق تلك.

جيم - عملية الانتخابات الرئاسية في لبنان

٣٧. أعلن مجلس الأمن في قراره ١٥٥٩ (٢٠٠٤) تأييده لعملية انتخابية حرة ونزيهة في الانتخابات الرئاسية المقبلة في لبنان تجري وفقاً لقواعد الدستور اللبناني الموضوع من غير تدخل أو نفوذ أجنبي.

٣٨. وفي تقرير إلى المجلس المؤرخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ تناولت بالوصف عملية تمديد ولاية الرئيس لحدود في ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤ لمدة ثلاث سنوات.

٣٩. وفي هذا التقرير أتناول المسألة المتصلة بعملية الانتخابات البرلمانية اللبنانية، المقرر إجراؤها في أيار/مايو ٢٠٠٥ وفي سياق أحكام القرار المتعلقة باحترام وإقرار سيادة لبنان، وسلامته الإقليمية، ووحدته، واستقلاله السياسي بصورة تامة.

دال - بسط سيطرة الحكومة اللبنانية على كل الأراضي اللبنانية

٤٠. في القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) أيد مجلس الأمن بسط سيطرة الحكومة اللبنانية على كل الأراضي اللبنانية. وطالب أيضاً جميع الأطراف المعنية بالتعاون تعاوناً تاماً، وعلى وجه الاستعجال، مع مجلس الأمن من أجل التنفيذ الكامل لهذا القرار ولجميع القرارات ذات الصلة المتعلقة باستعادة لبنان لسلامته الإقليمية وكامل سيادته واستقلاله السياسي.

٤١. وذكرت في تقرير إلى المجلس المؤرخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ أن حكومة لبنان لم تبسط سيطرتها على جميع أراضيها.

٢٤. وأظهرت حوادث عديدة وقعت خلال الأشهر الستة الأخيرة أن حكومة لبنان لا تمارس سيطرتها

الكاملة على جميع أراضيها. بيد أن الحكومة اللبنانية أبلغتني بأنه ليس هناك ما يحول دونها وبسط سيطرتها على جميع الأراضي اللبنانية.

٤٣ . وعلى طول الخط الأزرق، لم يكن هناك تغيير ملحوظ في انتشار القوات المسلحة اللبنانية. وقد أقر ممثلون للحكومة اللبنانية بأنها لم تنتشر بعد قوات في أقصى جنوب البلد. وكما قلت فإن هناك حاجة إلى عمل المزيد من أجل تلبية دعوة مجلس الأمن إلى اتخاذ تدابير ممتدة من أجل ضمان عودة السلطة الحكومية الفعلية في جميع أنحاء جنوب لبنان، وذلك بعدة طرق من بينها نشر قوات لبنانية مسلحة إضافية. وقد حثت حكومة لبنان مراراً وتكراراً على بذل أقصى ما في استطاعتها لضمان الهدوء وممارسة سيطرة كاملة على استخدام القوات في كامل أراضيها.

٤٤ . وعلى الرغم من أن الوضع على طول الخط الأزرق اتسم إلى حد كبير، في الأشهر الستة الأخيرة، بهدوء مشوب بالتوتر كانت هناك انتهاكات منتظمة، تسببت في بعض الأحيان في سقوط قتلى وجرحى. وفي ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، تسبب انفجار عبوة ناسفة، زرعتها حزب الله على جانب أحد الطرق، مستهدفاً سيارة دورية عسكرية إسرائيلية في مقتل جندي في قوات الدفاع الإسرائيلية وجرح ثلاثة آخرين، وأدت النيران التي أطلقتها في وقت لاحق دبابة ورشاشات تابعة لقوات الدفاع الإسرائيلية إلى مقتل ضابط فرنسي يعمل في مجموعة المراقبة التابعة للأمم المتحدة في لبنان وجرح زميل سويدي له. وقد أصدرت بياناً بشأن هذا الحادث والانتهاكات الخطيرة للخط الأزرق، شجبت فيه التصعيد العسكري على طول ذلك الخط، وحث الطرفين على ممارسة أقصى درجات ضبط النفس وذكرت حكومتي لبنان وإسرائيل بضرورة العمل على ضمان سلامة أفراد الأمم المتحدة في المنطقة. وفي ١٤ و ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، فجر حزب الله عبوات ناسفة بمحاذاة الخط الأزرق، دون أن تتسبب، لحسن الحظ، في وقوع أي إصابات. ورداً على هذه الهجمات، شنت إسرائيل فوراً غارات جوية على أهداف لحزب الله في جنوب لبنان، أسفرت، حسبما أفادت به التقارير، عن جرح اثنين من المدنيين اللبنانيين. وفي تطور آخر مقلق، أطلق حزب الله في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤ مركبة جوية بدون طيار من الجانب اللبناني للخط الأزرق إلى المجال الجوي الإسرائيلي، حلقت كما ذكر فوق الأراضي الإسرائيلية قبل أن تدخل مجدداً جنوب لبنان وتهبط في منطقة الناقورة. وأطلق حزب الله مركبة جوية ثانية بدون طيار في ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، فاجتازت الخط الأزرق إلى الأجواء الإسرائيلية قبل أن تعود إلى قاعدتها في جنوب لبنان.

٤٥ . وقامت كذلك العناصر الفلسطينية المسلحة المتمركزة في لبنان بانتهاك الخط الأزرق من الجانب اللبناني. وفي ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، أطلقت العناصر المسلحة الفلسطينية المتمركزة في لبنان صاروخاً عبر الخط الأزرق على الأراضي الإسرائيلية، فانفجر في المنطقة المحيطة بشلومي. وفي ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، أطلقت عناصر فلسطينية مسلحة صاروخاً من طراز كاتيوشا على إسرائيل. وعقب الهجوم الأخير، دعت الأمم المتحدة لبنان إلى "مضاعفة جهوده من أجل ضمان الوقف الفوري للانتهاكات الخطيرة" للخط الأزرق. ولقد

سرّني أن ألاحظ أن السلطات اللبنانية ندّدت بالحادث علناً وبدأت تحقيقاً بشأنه، ولكنني كرّرت دعوتي إلى حكومة لبنان لبسط سلطتها على جميع أراضيها من أجل منع مثل تلك الهجمات.

٤٦ . وبالنسبة لبسط الحكومة اللبنانية لسيطرتها على جميع الأراضي اللبنانية التي جلت عنها القوات السورية، أبلغتني الحكومة اللبنانية بأن القوات المسلحة اللبنانية تتحمل تدريجياً المسؤولية عن المناطق التي تم الجلاء عنها. وأكدت لي الحكومة أن القوات المسلحة اللبنانية لديها القدرة الضرورية لضمان الأمن والاستقرار في المنطقة التي تتسحب منها القوات السورية. وأعربت الحكومة، في نفس الوقت، عن عدد من الشواغل فيما يتعلق ببسط سيطرتها على سهل البقاع، حيث يبقى إنفاذ القانون والنظام مقيداً بعمليات السرقة المنظمة للسيارات، وتجارة المخدرات، والنزاعات القبلية، وعدم الاستقرار المنتشر حالياً بين عناصر الشيعة المحرومين من ضرورات الحياة.

٤٧ . وقد أعربت بعض الأطراف عن قلقها حيال قرار الحكومة الأخير بخفض مدة الخدمة للمجندين إلى ستة أشهر وزيادة حدود الإعفاءات الممنوحة مما يؤدي إلى خفض مجموع عدد الجنود اللبنانيين من ٦٥٠٠٠ في السابق إلى ٤٥٠٠٠ جندي بحلول أيار/مايو ٢٠٠٥، يتألفون من ٣٥٠٠٠ جندي محترف، و ٥٠٠٠ مجند و ٥٠٠٠ من المتطوعين الجدد. وأبلغتني الحكومة بأنها تزيد النفقات الدفاعية من أجل إيجاد توازن مع خفض قوام القوات، وبأنها واثقة من أن زيادة الاحتراف في القوات المسلحة اللبنانية ستكون لها بالمثل آثار إيجابية.

هاء - حل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية ونزع سلاحها

٤٨ . يدعو مجلس الأمن في القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) إلى حل جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية ونزع سلاحها.

٤٩ . وذكرت في تقريرتي إلى المجلس المؤرخ ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤، أنه على الرغم من الجهود الناجحة المبذولة من جانب الحكومة اللبنانية لخفض عدد الميليشيات الموجودة في البلد بصورة ملموسة، ما زالت هناك عناصر مسلحة عدة. وذكرت أيضاً أن أبرز تلك الجماعات هي حزب الله.

٥٠ . وخلال الفترة التي يغطيها التقرير، أقامت الأمم المتحدة حواراً مع بعض الأطراف ذات الصلة بشأن قضية حل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية ونزع سلاحها، ولكنها لم تصل بعد إلى نتائج عملية في هذا الصدد. والجدير بالملاحظة أن اتفاق الطائف لعام ١٩٨٩ يدعو شأنه شأن القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) إلى حل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية، وتسليم أسلحتها إلى الحكومة اللبنانية.

٥١ . وبالنسبة لما في إمكاني أنؤكد، لم يحدث أي تغيير ملحوظ في موقف حزب الله منذ أن قدمت إلى المجلس تقريرتي المؤرخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤. وقد تمسكت الحكومة اللبنانية بموقفها من حزب الله، على النحو المبين في ذلك التقرير، ومؤداه أن حزب الله حركة مقاومة

تقاتل من أجل "تحرير" منطقة مزارع شبعاء. غير أن هذا الموقف يتعارض مع قرارات مجلس الأمن. وقد اعترف المجلس بصلاحيته الخط الأزرق لأغراض تأكيد انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي اللبنانية تطبيقاً للقرار ٤٢٥ (١٩٧٨). وينبغي لحكومة لبنان أن تستجيب لنداءات المجلس المتكررة التي تدعو الأطراف إلى احترام الخط الأزرق بكامله وببسط سيطرة حكومة لبنان وسلطتها وحدها دون منازع على جميع أراضي لبنان.

٥٢. وكما ورد في الفقرة ٤٤ أعلاه، أبرزت أنشطة حزب الله على طول الخط الأزرق على مدى الأشهر الستة الأخيرة الحاجة إلى قيام الحكومة اللبنانية ببسط سيطرتها على جميع أراضي لبنان في ظل سلطتها وحدها دون منازع. وقد احتفظ حزب الله بتواجد ظاهر، ولا سيما قرب الخط الأزرق، من خلال شبكة من نقاط التفتيش المتحركة، والمواقع والدوريات الثابتة. وقد أقام حزب الله علاوة على ذلك مواقع جديدة ونقاط مراقبة عديدة، بعضها بالقرب من مواقع الأمم المتحدة.

٥٣. ويدير حزب الله أيضاً حزباً سياسياً له ممثلون في البرلمان. وفي سياق الوضع السياسي الراهن في لبنان، أعرب قادة حزب الله عن استمرار التزامهم باستقرار لبنان ووحدته الوطنية، ولكنهم أكدوا تمسكهم بموقفهم المسلح إزاء إسرائيل في الوقت الراهن. على أنني لاحظت أيضاً أن كبار ممثلي حزب الله قد بدأوا بالنظر في إمكانية نزع سلاح جماعتهم^(١٨٦).

٥٤. إضافة إلى حزب الله، ذكرت في تقريرتي إلى المجلس، المؤرخ ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، أن هناك جماعات فلسطينية مسلحة في لبنان. ولم يطرأ أي تغيير ملحوظ على وضع هذه الجماعات منذ ذلك الوقت. وأكدت حكومة لبنان موقفها من هذه الجماعات على النحو المحدد في ذلك التقرير.

٥٥. وأدى الوضع السياسي الذي يزداد توتراً في لبنان إلى تشكيل وتسيير ما يُدعى بالجماعات الأهلية المسلحة. وهذه الجماعات ليست ميليشيات رسمية، ولكن تشكيلها قد يعني بداية العودة إلى أيام انتشار وجود الجماعات والميليشيات المسلحة في لبنان، وقد حذرنا من هذا التطور المقلق وناقشناه مع ممثلي حكومة لبنان، فأكدوا أنهم سيتخذون إجراء وقائياً.

رابعاً - ملاحظات

٥٦. لم تُستوف حتى ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ متطلبات القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤). بيد أن الأطراف المعنية أحرزوا تقدماً مهماً وملحوظاً نحو تنفيذ بعض الأحكام الواردة في القرار. ومن الأمور البالغة الأهمية الالتزام الذي قطعه لي حكومة سوريا على نفسها بسحب جميع قواتها، وعتادها العسكري وأجهزة استخباراتها من لبنان في موعد أقصاه ٣٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٥،

^(١٨٦) في مقابلة مع صحيفة لوموند، نُشرت في ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، أعلن الأمين العام لحزب الله الشيخ نصر الله أن الجماعة "مستعدة لمناقشة أي موضوعات مع الأحزاب اللبنانية الأخرى بما في ذلك قضية أسلحة المقاومة الإسلامية".

والرسالة التي وجهتها إلي، المؤرخة ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، وذكرت فيها أنها أكملت سحب جمع قواتها ومعدات العسكرية وأجهزة استخباراتها (انظر المرفق). ولم يُحرز تقدم بشأن تنفيذ الأحكام الأخرى من القرار.

٥٧. ولقد وصل لبنان إلى منعطف حرج في تاريخه بعد الحرب الأهلية. وأعربت في تقريرتي الأخير إلى المجلس عن شعوري بأنه بعد أكثر من ١٤ عاماً على انتهاء القتال وبعد نحو خمس سنوات من الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، حان الوقت لجميع الأطراف المعنيين أن يضعوا جانباً ما تبقى من مخلفات الماضي، وأن ينهوا، بشكل قطعي، هذا الفصل المحزن من تاريخ لبنان.

٥٨. ويشكل انسحاب القوات السورية والعتاد العسكري وأجهزة استخباراتها انسحاباً كاملاً وتاماً خطوة كبيرة وهامة نحو تحقيق هذا الهدف وإنهاء التدخل الأجنبي الثقيل الوطأة الذي ميّز السياسات اللبنانية طوال عقود من الزمن. وخلال محادثاتي مع الرئيس الأسد، توصلت إلى اتفاق حول إرسال بعثة تحقق فنية تابعة للأمم المتحدة للتحقق من صحة الانسحاب السوري الكامل (انظر الفقرة ١٧ أعلاه). وسوف أقدم إلى المجلس استنتاجاتي، استناداً على تقرير هذه البعثة، كإضافة لهذا التقرير لكي ينظر فيها.

٥٩. إن الانسحاب الكامل والتام للقوات السورية والمعدات العسكرية وأجهزة الاستخبارات من لبنان تطبيقاً للالتزامات التي قطعته لي حكومتا لبنان والجمهورية العربية السورية وامتثالاً كاملاً للقرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤)، يتطلب أيضاً من حكومتي لبنان والجمهورية العربية السورية أن تعيدا تحديد العلاقة المميزة القائمة بينهما، وفي هذا الخصوص، أتوقع من البلدين أن يحرزا تقدماً مهماً نحو إقامة تمثيل دبلوماسي متبادل وإضفاء الشكل الرسمي المناسب على علاقتهما المتميزة قبل أن أقدم تقريرتي المقبل إلى مجلس الأمن عن تنفيذ القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤).

٦٠. وقد أعطيت في الجهود التي بذلتها طوال الأشهر الستة الماضية أولوية قصوى لانسحاب القوات الأجنبية من لبنان، وخصوصاً سحب القوات السورية، ومسألة سيادة لبنان ووحدة أراضيه، ووحدته واستقلاله السياسي. وركزت جهودي على مسألة الاستقلال بسبب تزايد الاستقطاب السياسي في لبنان وتردي الوضع الأمني. وكنت مهتماً أيضاً بما لتردي الوضع الأمني من تأثير على الاقتصاد. إضافة إلى ذلك، كنت مهتماً بشكل خاص بإجراء الانتخابات البرلمانية باعتبارها محكاً لسيادة لبنان ووحدته واستقلاله السياسي.

٦١. ومما يدعو إلى بالغ الأسف برأيي أن تؤدي أزمة سياسية دامت ستة أسابيع في لبنان إلى إثارة شبح تأخير الانتخابات البرلمانية. فمن شأن هذا التأخير أن يسهم في زيادة تقادم الانقسامات السياسية في لبنان وتهديد أمن البلد واستقراره وازدهاره. وقد أبلغتني الحكومة اللبنانية والمعارضة كلاهما أنهما توليان أولوية قصوى لإجراء انتخابات حرة ونزيهة، وينبغي أن تجري هذه الانتخابات في موعدها واستناداً إلى قانون انتخابي يقبل به الشعب اللبناني على نطاق واسع. وفي هذا السياق، أرحب بتعهد رئيس الوزراء ميقاتي بإجراء الانتخابات في موعدها المقرر.

٦٢ . وكنت أناقش مع حكومة لبنان إمكانية قيام الأمم المتحدة بتقديم مساعدة فنية بناء على طلبها كغالة لإجراء هذه الانتخابات بشكل حر وتتوافر فيه المصادقية. كما شجعت فكرة دعوة مراقبين انتخابات حكوميين دوليين و/أو غير حكوميين لمراقبة الانتخابات، وإنني أنتظر أن تقدم لي حكومة لبنان طلباً في هذا الخصوص.

٦٣ . وأحث جميع الأطراف المعنيين على الامتثال لكل متطلبات القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) دون تأخير وأن ينفذوا تنفيذاً كاملاً هذا القرار وجميع القرارات الأخرى المتصلة باستعادة لبنان لوحدة أراضيه وسيادته الكاملة واستقلاله السياسي.

٦٤ . وإنني لا أزال أعتقد أن تنفيذ القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) يجب أن يتم بطريقة تضمن على نحو أفضل استقرار ووحدة لبنان وسوريا والمنطقة بوجه عام. وفي هذا السياق، فإنني لا أزال ملتزماً بتنفيذ جميع قرارات مجلس الأمن وتحقيق سلام عادل ودائم وشامل في الشرق الأوسط في آخر المطاف.

٦٥ . وسأظل تحت تصرف مجلس الأمن وأقف على أهبة الاستعداد لمواصلة تقديم المساعدة إلى أطراف لتنفيذ القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤) تنفيذاً كاملاً.

المرفق

رسالتان متطابقتان مؤرختان ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ موجهة إلى الأمين العام ورئيس مجلس الأمن من الممثل الدائم للجمهورية العربية السورية لدى الأمم المتحدة.

يهدى الممثل الدائم للجمهورية العربية السورية لدى الأمم المتحدة تحياته إلى الأمين العام للأمم المتحدة، وإلى رئيس مجلس الأمن لشهر نيسان/أبريل، وبالإشارة إلى تنفيذ الجمهورية العربية السورية لقرار مجلس الأمن ١٥٥٩ (٢٠٠٤)، يتشرف بإحالة رسالة من فاروق الشرع، وزير خارجية الجمهورية العربية السورية، متصرفاً باسم الحكومة السورية، يؤكد فيها الانسحاب الكامل للقوات السورية والجهاز الأمني والعتاد من لبنان إلى مواقعها في الجمهورية العربية السورية في ٢٦ نيسان/أبريل عام ٢٠٠٥.

وأرجو تعميم هذه الرسالة وضميمتها، باللغتين العربية والإنكليزية باعتبارها من الوثائق الرسمية لمجلس الأمن.

(توقيع) فيصل المقداد

السفير الممثل الدائم

الضميعة

[الأصل: بالعربية] - [٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥]

تود حكومة الجمهورية العربية السورية إبلاغكم رسمياً أن القوات العربية السورية العاملة في لبنان بطلب لبناني وتفويض عربي، قد عادت بكامل قواتها العسكرية والأمنية معداتها إلى مواقعها في سورية هذا اليوم الموافق ٢٦/٤/٢٠٠٥، بعد أن استكملت انسحاباتها المتتالية التي بدأت منذ أعوام.

كما تود حكومة الجمهورية العربية السورية أن تؤكد لمجلس الأمن عبر هذه الرسالة، أن تنفيذ قواتها

العسكرية والأمنية كل ما يتعلق بها من قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ دون تأخير، إنما أملت حقيقة التزام سورية بميثاق الأمم المتحدة والقرارات الصادرة عنها. وإن هذا الالتزام موثق في سجلات الأمم المتحدة، لاسيما خلال كافة مراحل الأزمات والنزاعات التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط.

وفي هذا السياق، يحق لسورية بل من واجبها أن تلفت نظر مجلس الأمن إلى الدور الإيجابي الذي لعبته في إنهاء الحرب الأهلية في لبنان، وفي الحفاظ على وحدة أرضه، والمساهمة إلى جانب بعض الدول الشقيقة والصديقة في تحقيق الوفاق الوطني في لبنان في ظروف بالغة التعقيد ومحفوفة بأشد المخاطر، كما يحق لسورية أن تشير أيضاً إلى أن من بين أهم منجزاتها في لبنان التي تؤكد مصداقيتها وحرصها على رؤية لبنان دولة تتمتع بالسيادة والاستقلال، هو المساهمة الطوعية والقيّمة التي قدمتها سورية لبناء جيش وطني في لبنان يفخر به الشعب اللبناني بكل أطيافه.

السيد الأمين العام

السيد رئيس مجلس الأمن

في هذا اليوم، يحق لسورية التي قدمت نموذجاً يحتذى به في الالتزام بتنفيذ قرارات الشرعية الدولية، أن تتوقع من مجلس الأمن أن يسجل هذا الحدث بما يتناسب مع أهميته، وأن تحت مجلس الأمن على بذل الجهود وإظهار ذات العزم والجدية لتنفيذ بقية قرارات مجلس الأمن وخاصة تلك المتعلقة بانسحاب القوات الإسرائيلية التام من الجولان السوري المحتل، ومزارع شبعا اللبنانية، ومن الأراضي الفلسطينية المحتلة حتى خط الرابع من حزيران ١٩٦٧، وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني. وستكون سورية جاهزة باستمرار للتعاون مع هذه الجهود الدولية، وستعمل على تنفيذ ما يترتب عليها من التزامات من أجل إنجاحها.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير...

(توقيع) فاروق الشرع

وزير الخارجية

الجمهورية العربية السورية

□□□

اتفاق الطائف

وثيقة الوفاق الوطني اللبناني

صدقت في جلسة مجلس النواب بتاريخ ١٩٨٩/١١/٥

أولاً : المبادئ العامة والإصلاحات.

١- المبادئ العامة.

أ - لبنان وطن سيد حر مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، واحد أرضاً وشعباً ومؤسسات، في حدوده المنصوص عنها في الدستور اللبناني والمعترف بها دولياً.

ب - لبنان عربي الهوية والانتماء، وهو عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم بمواثيقها، كما هو عضو مؤسس وعامل في منظمة الأمم المتحدة وملتزم بميثاقها. وهو عضو في حركة عدم الانحياز. وتجسد الدولة اللبنانية هذه المبادئ في جميع الحقوق والمجالات دون استثناء.

ج - لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، تقوم على احترام الحريات العامة، وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد، وعلى العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين دون تمايز أو تفضيل.

د - الشعب مصدر السلطات وصاحب السيادة يمارسها عبر المؤسسات الدستورية.

هـ - النظام قائم على مبدأ الفصل بين السلطات وتوازنها وتعاونها.

و - النظام الاقتصادي حر يكفل المبادرة الفردية والملكية الخاصة.

ز - الانماء المتوازن للمناطق ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ركن أساسي من أركان وحدة الدولة واستقرار النظام. ح - العمل على تحقيق عدالة اجتماعية شاملة من خلال الإصلاح المالي والاقتصادي والاجتماعي.

ط - أرض لبنان أرض واحدة لكل اللبنانيين. فكل لبناني الحق في الإقامة على أي جزء منها

والتمتع به في ظل سيادة القانون، فلا فرز للشعب على أساس أي انتماء كان. ولا تجزئة ولا تقسيم ولا توطين.

ي- لا شرعية لأي سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك.

٢- الإصلاحات السياسية.

أ- مجلس النواب.

ب- مجلس النواب هو السلطة التشريعية يمارس الرقابة الشاملة على سياسة الحكومة وأعمالها:

١- ينتخب رئيس المجلس ونائبه لمدة ولاية المجلس.

٢- للمجلس ولمرة واحدة بعد عامين من انتخاب رئيسه ونائب رئيسه وفي أول جلسة يعقدها أن يسحب الثقة من رئيسه أو نائبه بأكثرية الثلثين من مجموع أعضائه بناء على عريضة يوقعها عشرة نواب على الأقل. وعلى المجلس في هذه الحالة أن يعقد على الفور جلسة لملء المركز الشاغر.

٣- كل مشروع قانون يحيله مجلس الوزراء إلى مجلس النواب، بصفة المعجل، لا يجوز إصداره إلا بعد إدراجه في جدول أعمال جلسة عامة وتلاوته فيها، ومضي المهلة المنصوص عنها في الدستور دون أن يبت به، وبعد موافقة مجلس الوزراء.

٤- الدائرة الانتخابية هي المحافظة.

٥- إلى أن يضع مجلس النواب قانون انتخاب خارج القيد الطائفي توزع المقاعد النيابية وفقاً للقواعد الآتية:

أ- بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين.

ب- نسبياً بين طوائف كل من الفئتين.

ج- نسبياً بين المناطق.

٦- يزداد عدد أعضاء مجلس النواب إلى (١٠٨) مناصفة بين المسيحيين والمسلمين. أما المراكز المستحدثة، على أساس هذه الوثيقة، والمراكز التي شغرت قبل إعلانها، فتملاً بصورة استثنائية ولمرة واحدة بالتعيين من قبل حكومة الوفاق الوطني المزمع تشكيلها.

٧- مع انتخاب أول مجلس نواب على أساس وطني لا طائفي يستحدث مجلس للشيوخ تتمثل فيه جميع العائلات الروحية وتتحصر صلاحياته في القضايا المصيرية.

ب- رئيس الجمهورية.

رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ورمز وحدة الوطن. يسهر على احترام الدستور والمحافظة على استقلال لبنان ووحدته وسلامه أراضييه وفقاً لأحكام الدستور. وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة التي تخضع لسلطة مجلس الوزراء. ويمارس الصلاحيات الآتية:

١- يترأس مجلس الوزراء عندما يشاء دون أن يصوت.

- ٢- يرأس المجلس الأعلى للدفاع.
- ٣- يصدر المراسيم ويطلب نشرها. وله حق الطلب إلى مجلس الوزراء إعادة النظر في أي قرار من القرارات التي يتخذها المجلس خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ إيداعه رئاسة الجمهورية. فإذا أصر مجلس الوزراء على القرار المتخذ أو انقضت المهلة دون إصدار المرسوم أو إعادته يعتبر المرسوم أو القرار نافذاً حكماً ووجب نشره.
- ٤- يصدر القوانين وفق المهل المحددة في الدستور ويطلب نشرها بعد إقرارها في مجلس النواب، كما يحق له بعد اطلاع مجلس الوزراء طلب إعادة النظر في القوانين ضمن المهل المحددة في الدستور ووفقاً لأحكامه، وفي حال انقضاء المهل دون إصدارها أو إعادتها تعتبر القوانين نافذة حكماً ووجب نشرها.
- ٥- يحيل مشاريع القوانين، التي ترفع إليه من مجلس الوزراء، إلى مجلس النواب.
- ٦- يسمي رئيس الحكومة المكلف بالتشاور مع رئيس مجلس النواب استناداً إلى استشارات نيابية ملزمة يطلعه رسمياً على نتائجها.
- ٧- يصدر مرسوم تسمية رئيس مجلس الوزراء منفرداً.
- ٨- يصدر بالاتفاق مع رئيس مجلس الوزراء مرسوم تشكيل الحكومة.
- ٩- يصدر المراسيم بقبول استقالة الحكومة أو استقالة الوزراء أو إقالتهم.
- ١٠- يعتمد السفراء ويقبل اعتمادهم. ويمنح أوسمة الدولة بمرسوم.
- ١١- يتولى المفاوضات في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها بالاتفاق مع رئيس الحكومة. ولا تصبح نافذة إلا بعد موافقة مجلس الوزراء. وتطلع الحكومة مجلس النواب عليها حينما تمكنها من ذلك مصلحة البلاد وسلامة الدولة. أما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بمالية الدولة والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة، فلا يمكن إبرامها إلا بعد موافقة مجلس النواب.
- ١٢- يوجه عندما تقتضي الضرورة رسائل إلى مجلس النواب.
- ١٣- يدعو مجلس النواب بالاتفاق مع رئيس الحكومة إلى عقد دورات استثنائية بمرسوم.
- ١٤- لرئيس الجمهورية حق عرض أي أمر من الأمور الطارئة على مجلس الوزراء من خارج جدول الأعمال.
- ١٥- يدعو مجلس الوزراء استثنائياً كلما رأى ذلك ضرورياً بالاتفاق مع رئيس الحكومة.
- ١٦- يمنح العفو الخاص بمرسوم.
- ١٧- لا تتبع على رئيس الجمهورية حال قيامه بوظيفته إلا عند خرقه الدستور أو في حال الخيانة العظمى.

ج- رئيس مجلس الوزراء.

رئيس مجلس الوزراء هو رئيس الحكومة يمثلها ويتكلم باسمها، ويعتبر مسؤولاً عن تنفيذ السياسة

العامّة التي يضعها مجلس الوزراء. يمارس الصلاحيات الآتية:

- ١- يرأس مجلس الوزراء.
- ٢- يجري الاستشارات النيابية لتشكيل الحكومة ويوقع مع رئيس الجمهورية مرسوم تشكيلها. وعلى الحكومة أن تتقدم من مجلس النواب ببيانها الوزاري لنيل الثقة في مهلة ثلاثين يوماً. ولا تمارس الحكومة صلاحياتها قبل نيلها الثقة ولا بعد استقالتها ولا اعتبارها مستقيلة إلا بالمعنى الضيق لتصرف الأعمال.
- ٣- يطرح سياسة الحكومة العامة أمام مجلس النواب.
- ٤- يوقع جميع المراسيم، ما عدا مرسوم تسمية رئيس الحكومة ومرسوم قبول استقالة الحكومة أو اعتبارها مستقيلة.
- ٥- يوقع مرسوم الدعوة إلى فتح دورة استثنائية ومراسيم إصدار القوانين، وطلب إعادة النظر فيها.
- ٦- يدعو مجلس الوزراء للانعقاد ويضع جدول أعماله، ويطلع رئيس الجمهورية مسبقاً على المواضيع التي يتضمنها، وعلى المواضيع الطارئة التي ستبحث، ويوقع المحضر الأصولي للجلسات.
- ٧- يتابع أعمال الإدارات والمؤسسات العامة وينسق بين الوزراء، ويعطي التوجيهات العامة لضمان حسن سير العمل.
- ٨- يعقد جلسات عمل مع الجهات المختصة في الدولة بحضور الوزير المختص.
- ٩- يكون حكماً نائباً لرئيس المجلس الأعلى للدفاع.

د- مجلس الوزراء.

تتأط السلطة الإجرائية بمجلس الوزراء. ومن الصلاحيات التي يمارسها:

- ١- وضع السياسة العامة للدولة في جميع المجالات ووضع مشاريع القوانين والمراسيم، واتخاذ القرارات اللازمة لتطبيقها.
- ٢- السهر على تنفيذ القوانين والأنظمة والإشراف على أعمال كل أجهزة الدولة من إدارات ومؤسسات مدنية وعسكرية وأمنية بلا استثناء.
- ٣- إن مجلس الوزراء هو السلطة التي تخضع لها القوات المسلحة.
- ٤- تعيين موظفي الدولة وصرفهم وقبول استقالتهم وفق القانون.
- ٥- الحق بحل مجلس النواب بناء على طلب رئيس الجمهورية، إذا امتنع مجلس النواب عن الاجتماع طوال عقد عادي أو استثنائي لا تقل مدته عن الشهر بالرغم من دعوته مرتين متواليتين أو في حال رده الموازنة برمتها بقصد شل يد الحكومة عن العمل. ولا يجوز ممارسة هذا الحق للأسباب نفسها التي دعت إلى حل المجلس في المرة الأولى.
- ٦- عندما يحضر رئيس الجمهورية يترأس جلسات مجلس الوزراء. مجلس الوزراء يجتمع دورياً في مقر خاص. ويكون النصاب القانوني لانعقاده هو أكثرية ثلثي أعضائه. ويتخذ قراراته توافقياً،

فإذا تعذر ذلك فبالنصويت. تتخذ القرارات بأكثرية الحضور. أما المواضيع الأساسية فإنها تحتاج إلى موافقة ثلثي أعضاء مجلس الوزراء. ويعتبر مواضيع أساسية ما يأتي:

حالة الطوارئ والغاؤها، الحرب والسلم، التعبئة العامة، الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، الموازنة العامة للدولة، الخطط الإنمائية الشاملة والطويلة المدى، تعيين موظفي الفئة الأولى وما يعادلها، إعادة النظر بالتقسيم الإداري، حل مجلس النواب، قانون الانتخابات، قانون الجنسية، قوانين الأحوال الشخصية، إقالة الوزراء.

هـ- الوزير.

تعزز صلاحيات الوزير بما يتفق مع السياسة العامة للحكومة ومع مبدأ المسؤولية الجماعية ولا يقال من منصبه إلا بقرار من مجلس الوزراء، أو بنزع الثقة منه إفرادياً في مجلس النواب.

و- استقالة الحكومة واعتبارها مستقيلة وإقالة الوزراء.

١- تعتبر الحكومة مستقيلة في الحالات التالية:

أ- إذا استقال رئيسها.

ب- إذا فقدت أكثر من ثلث عدد أعضائها المحدد في مرسوم تشكيلها.

ج- بوفاة رئيسها.

د- عند بدء ولاية رئيس الجمهورية.

هـ- عند بدء ولاية مجلس النواب.

و- عند نزع الثقة منها من قبل المجلس النيابي بمبادرة منه أو بناء على طرحها الثقة.

٢- تكون إقالة الوزير بمرسوم يوقعه رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة بعد موافقة مجلس الوزراء.

٣- عند استقالة الحكومة أو اعتبارها مستقيلة يعتبر مجلس النواب حكماً في دورة انعقاد استثنائية حتى تأليف حكومة جديدة ونيلها الثقة.

ز- إلغاء الطائفية السياسية.

إلغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية، وعلى مجلس النواب المنتخب على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين اتخاذ الإجراءات الملائمة لتحقيق هذا الهدف وتشكيل هيئة وطنية برئاسة رئيس الجمهورية، تضم بالإضافة إلى رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء شخصيات سياسية وفكرية واجتماعية مهمة الهيئة دراسة واقتراح الطرق الكفيلة بإلغاء الطائفية وتقديمها إلى مجلسي النواب والوزراء ومتابعة تنفيذ الخطة المرحلية.

ويتم في المرحلة الانتقالية ما يلي:

أ- إلغاء قاعدة التمثيل الطائفي واعتماد الكفاءة والاختصاص في الوظائف العامة والقضاء والمؤسسات العسكرية والأمنية والمؤسسات العامة والمختلطة والمصالح المستقلة وفقاً لمقتضيات الوفاق الوطني باستثناء وظائف الفئة الأولى وفي ما يعادل الفئة الأولى فيها وتكون هذه الوظائف مناصفة بين المسيحيين والمسلمين دون تخصيص أية وظيفة لأية طائفة.

ب- إلغاء ذكر الطائفة والمذهب في بطاقة الهوية.

٣- الإصلاحات السياسية.

أ- اللامركزية الإدارية.

- ١- الدولة اللبنانية دولة واحدة موحدة ذات سلطة مركزية قوية.
- ٢- توسيع صلاحيات المحافظين والقائمقامين وتمثيل جميع إدارات الدولة في المناطق الإدارية على أعلى مستوى ممكن تسهياً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً.
- ٣- إعادة النظر في التقسيم الإداري بما يؤمن الانصهار الوطني وضمن الحفاظ على العيش المشترك ووحدة الأرض والشعب والمؤسسات.
- ٤- اعتماد اللامركزية الإدارية الموسعة على مستوى الوحدات الإدارية الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرأسه القائمقام، تأميناً للمشاركة المحلية.
- ٥- اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصادياً واجتماعياً، وتعزيز موارد البلديات والبلديات الموحدة والاتحادات البلدية بالإمكانات المالية اللازمة.

ب- المحاكم.

- أ- ضماناً لخضوع المسؤولين والمواطنين جميعاً لسيادة القانون وتأميناً لتوافق عمل السلطتين التشريعية والتنفيذية مع مسلمات العيش المشترك وحقوق اللبنانيين الأساسية المنصوص عنها في الدستور:
- ١- يشكل المجلس الأعلى المنصوص عنه في الدستور ومهمته محاكمة الرؤساء والوزراء. ويُسنّ قانون خاص بأصول المحاكمات لديه.
- ٢- يُنشأ مجلس دستوري لتفسير الدستور ومراقبة دستورية القوانين والبت في النزاعات والطعون الناشئة عن الانتخابات الرئاسية والنيابية.
- ٣- للجهات الآتي ذكرها حق مراجعة المجلس الدستوري في ما يتعلق بتفسير الدستور ومراقبة دستورية القوانين:
- أ- رئيس الجمهورية.
- ب- رئيس مجلس النواب.
- ج- رئيس مجلس الوزراء.
- د- نسبة معينة من أعضاء مجلس النواب.
- ب- تأميناً لمبدأ الانسجام بين الدين والدولة يحق لرؤساء الطوائف اللبنانية مراجعة المجلس الدستوري في ما يتعلق بـ:
- ١- الأحوال الشخصية.

٢- حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية.

٣- حرية التعليم الديني.

ج- تدعيماً لاستقلال القضاء: ينتخب عدد معين من أعضاء مجلس القضاء الأعلى من قبل الجسم القضائي.

ج- قانون الانتخابات النيابية.

تجري الانتخابات النيابية وفقاً لقانون انتخاب جديد على أساس المحافظة، يراعي القواعد التي تضمن العيش المشترك بين اللبنانيين وتؤمن صحة التمثيل السياسي لشتى فئات الشعب وأجياله وفعالية ذلك التمثيل، بعد إعادة النظر في التقسيم الإداري في إطار وحدة الأرض والشعب والمؤسسات.

د- إنشاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي للتنمية.

يُنشأ مجلس اقتصادي اجتماعي تأميناً لمشاركة ممثلي مختلف القطاعات في صياغة السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة وذلك عن طريق تقديم المشورة والاقتراحات.

هـ- التربية والتعليم.

١- توفير العلم للجميع وجعله إلزامياً في المرحلة الابتدائية على الأقل.

٢- التأكيد على حرية التعليم وفقاً للقانون والأنظمة العامة.

٣- حماية التعليم الخاص وتعزيز رقابة الدولة على المدارس الخاصة وعلى الكتاب المدرسي.

٤- إصلاح التعليم الرسمي والمهني والتقني وتعزيزه وتطويره بما يلبي ويلئم حاجات البلاد الإنمائية والإعمارية. وإصلاح أوضاع الجامعة اللبنانية وتقديم الدعم لها وبخاصة في كلياتها التطبيقية.

٥- إعادة النظر في المناهج وتطويرها بما يعزز الانتماء والانصهار الوطنيين، والانفتاح الروحي والثقافي وتوحيد الكتاب في مادتي التاريخ والتربية الوطنية.

و- الإعلام.

إعادة تنظيم جميع وسائل الإعلام في ظل القانون وفي إطار الحرية المسؤولة بما يخدم التوجهات الوفاقية وإنهاء حالة الحرب.

ثانياً: بسط سيادة الدولة اللبنانية على كامل الأراضي اللبنانية.

بما انه تم الاتفاق بين الأطراف اللبنانية على قيام الدولة القوية القادرة المبنية على أساس الوفاق الوطني. تقوم حكومة الوفاق الوطني بوضع خطة أمنية مفصلة مدتها سنة، هدفها بسط سلطة الدولة اللبنانية تدريجياً على كامل الأراضي اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية، وتتسم خطوطها العريضة بالآتي:

١- الإعلان عن حل جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية وتسليم أسلحتها إلى الدولة اللبنانية خلال ستة اشهر تبدأ بعد التصديق على وثيقة الوفاق الوطني وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطني. وإقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية.

٢- تعزيز قوى الأمن الداخلي من خلال:

أ- فتح باب التطوع لجميع اللبنانيين دون استثناء والبدء بتدريبهم مركزياً ثم توزيعهم على الوحدات في المحافظات مع اتباعهم لدورات تدريبية دورية ومنظمة.

ب- تعزيز جهاز الأمن بما يتناسب وضبط عمليات دخول وخروج الأشخاص من وإلى الحدود براً وبحراً وجواً.

٣- تعزيز القوات المسلحة:

أ- إن المهمة الأساسية للقوات المسلحة هي الدفاع عن الوطن وعند الضرورة حماية النظام العام عندما يتعدى الخطر قدرة قوى الأمن الداخلي وحدها على معالجته.

ب- تستخدم القوات المسلحة في مساندة قوى الأمن الداخلي للمحافظة على الأمن في الظروف التي يقررها مجلس الوزراء.

ج- يجري توحيد وإعداد القوات المسلحة وتدريبها لتكون قادرة على تحمل مسؤولياتها الوطنية في مواجهة العدوان الإسرائيلي.

د- عندما تصبح قوى الأمن الداخلي جاهزة لتسلم مهامها الأمنية تعود القوات المسلحة إلى ثكناتها.

هـ- يعاد تنظيم مخابرات القوات المسلحة لخدمة الأغراض العسكرية دون سواها.

٤- حل مشكلة المهجرين اللبنانيين جذرياً وإقرار حق كل مهجر لبناني منذ العام ١٩٧٥م بالعودة إلى المكان الذي هجر منه ووضع التشريعات التي تكفل هذا الحق وتأمين الوسائل الكفيلة بإعادة التعمير. وحيث أن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الأراضي اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية المتمثلة بالدرجة الأولى بقوى الأمن الداخلي. ومن واقع العلاقات الأخوية التي تربط سوريا بلبنان، تقوم القوات السورية مشكورة بمساعدة قوات الشرعية اللبنانية لبسط سلطة الدولة اللبنانية في فترة زمنية محددة أقصاها سنتان تبدأ بعد التصديق على وثيقة الوفاق الوطني وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطني، وإقرار الإصلاحات السياسية بصورة دستورية، وفي نهاية هذه الفترة تقرر الحكومتان، الحكومة السورية وحكومة الوفاق الوطني اللبنانية إعادة تمركز القوات السورية في منطقة البقاع ومدخل البقاع الغربي في شهر البيدر حتى خط حمانا المدير ج عين داره، وإذا دعت الضرورة في نقاط أخرى يتم تحديدها بواسطة لجنة عسكرية لبنانية سورية مشتركة. كما يتم الاتفاق بين الحكومتين يجري بموجبه تحديد حجم ومدة تواجد القوات السورية في المناطق المذكورة أعلاه وتحديد علاقة هذه القوات مع سلطات الدولة اللبنانية في أماكن تواجدها. واللجنة الثلاثية العربية العليا مستعدة لمساعدة الدولتين في الوصول إلى هذا الاتفاق إذا رغبتا في ذلك.

ثالثاً: تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلي.

استعادة سلطة الدولة حتى الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً تتطلب الآتي:

أ- العمل على تنفيذ القرار ٤٢٥ وسائر قرارات مجلس الأمن الدولي القاضية بإزالة الاحتلال الإسرائيلي إزالة شاملة.

ب- التمسك باتفاقية الهدنة الموقعة في 23 آذار ١٩٤٩م.

ج- اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتحرير جميع الأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي وبسط سيادة الدولة على جميع أراضيها ونشر الجيش اللبناني في منطقة الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً والعمل على تدعيم وجود قوات الطوارئ الدولية في الجنوب اللبناني لتأمين الانسحاب الإسرائيلي وإتاحة الفرصة لعودة الأمن والاستقرار إلى منطقة الحدود.

رابعاً: العلاقات اللبنانية السورية.

إن لبنان، الذي هو عربي الانتماء والهوية، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين وسوف تجسده اتفاقات بينهما، في شتى المجالات، بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين في إطار سيادة واستقلال كل منهما. استناداً إلى ذلك، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة، فإنه يقتضي عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا وسوريا لأمن لبنان في أي حال من الأحوال. وعليه فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممراً أو مستقراً لأي قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا. وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأي عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته.



القمة العربية في الجزائر (إعلان الجزائر)

مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة
الدورة العادية (١٧)
الجزائر - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
١٢ و ١٣ صفر ١٤٢٦هـ الموافق ٢٢ و ٢٣ مارس/ آذار ٢٠٠٥م

نحن قادة الدول العربية المجتمعون كمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة في دورته العادية السابعة عشرة بالجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية يومي ١٢ و ١٣ صفر ١٤٢٦هـ الموافق ليومي ٢٢ و ٢٣ مارس (آذار) ٢٠٠٥م.

- تخليداً للذكرى الستين لتأسيس جامعة الدول العربية وتعظيماً للإنجازات التي تحققت في إطارها وتمسكاً بمبادئ وأحكام ميثاقها ومواصلة العمل على تحقيق أهدافها وتوسيع مهامها وتعزيز دورها.
- والتزاماً منا بالقيم الإنسانية السامية التي كرسها ميثاق منظمة الأمم المتحدة وأحكام الشرعية الدولية.
- وسعياً منا لتعزيز التضامن العربي وتمسكاً بالروابط القومية وأواصر الأخوة التي تجمع أبناء الأمة العربية ووحدة الهدف بين شعوبها.
- وانطلاقاً من مسؤولياتنا العربية، في الارتقاء بالعلاقات العربية وتمتين أواصرها وترسيخ أسسها بما يدعم الأهداف العليا للأمة ويحقق تطلعات شعوبها، ويحفظ أمنها القومي، ويصون كرامتها وعزتها.
- وتأكيداً على مركزية قضية فلسطين وضرورة استعادة الحقوق العربية وإقامة السلام العادل والشامل في المنطقة.
- وتجسيدا لإرادتنا المشتركة على تطوير منظومة العمل العربي المشترك.
- وبعد أن قمنا بتقييم شامل للوضع العربي العام والظروف المحيطة به وللعلاقات العربية وما يواجه أوطاننا وأمتنا من تحديات تحمل في طياتها العديد من المخاطر التي ينبغي أن نعمل جميعاً على درء أخطارها بعمل جماعي ناجع وإرادة مشتركة فاعلة.

نعلن:

- تمسكنا بالتضامن العربي ممارسة ومنهجاً، بما يكفل صون الأمن القومي العربي، واحترام سلامة كل دولة عربية وسيادتها وحقوقها في الدفاع عن مواردها ومقدراتها وحقوقها، ومنع التدخل في شؤونها

الداخلية، أو استخدام القوة أو التلويح بها.

- مواصلة الجهود الرامية إلى تطوير وتحديث جامعة الدول العربية وتفعيل آلياتها لمسايرة التطورات العالمية المتسارعة، ومواصلة بناء مجتمع عربي متكامل في موارده وقدراته، وتحقيق التنمية الشاملة المستدامة، وتمكين الجامعة العربية وكافة مؤسساتها وأجهزتها من تطوير أساليب عملها والارتقاء بأدائها، والاضطلاع بمتطلبات الشعوب العربية وتطلعها إلى مزيد من تشابك المصالح بينها، ومواكبة المستجدات على الساحتين العربية والدولية.

- تثمين ما أنجزناه من خطوات في إطار إصلاح منظوماتنا العربية والمتمثلة في إنشاء برلمان عربي انتقالي وهيئة لمتابعة تنفيذ القرارات وتعديل قواعد اتخاذ القرارات ونظام التصويت وتمكين المجتمع المدني من المشاركة في نشاطات الجامعة العربية ومؤسساتها، والمصادقة على وثيقة "استراتيجية للأسرة العربية"، وإنشاء قمر صناعي عربي علمي لمراقبة كوكب الأرض من النواحي البيئية ورصد الكوارث الطبيعية ومواصلة عملية الإصلاح بشكل متدرج لمنظومة العمل العربي المشترك ومنهجية عملها.

- مواصلة مسيرة التطوير والتحديث في الوطن العربي تعزيزاً للممارسة الديمقراطية وتوسيعاً للمشاركة السياسية وترسيخاً لقيم المواطنة والثقافة الديمقراطية وترقية حقوق الإنسان وفسح المجال للمجتمع المدني وتمكين المرأة من لعب دور بارز في كافة مجالات الحياة العامة.

- تأكيد سعينا لتحقيق التكامل العربي، من خلال تفعيل آليات العمل العربي المشترك وتنفيذ المشروعات المشتركة في المجال الاقتصادي، خاصة منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى وتنمية الشراكة والاستثمار بما يعزز الاقتصادات والتجارة العربية، وجعلها قادرة على مواجهة الاختلالات القائمة في نظم التجارة الدولية.

- إطلاق مبادرات واستراتيجيات وخطط عمل تهدف إلى تحقيق المساواة، وتعزيز الوعي بالمبادئ والقيم العربية الإسلامية التي تكفل حقوق المرأة ودورها في المجتمع وسن التشريعات اللازمة لحمايتها ورفض كل أشكال التمييز ضدها، وضمان مشاركتها في صنع القرار على قدم المساواة مع الرجل في كافة الأنشطة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

- التأكيد مجدداً على التمسك بالسلام العادل والشامل في منطقة الشرق الأوسط كخيار استراتيجي لحل الصراع العربي الإسرائيلي مؤكداً في هذا السياق على المبادرة العربية للسلام التي أقرتها القمة العربية في بيروت عام ٢٠٠٢، وقرارات الشرعية الدولية ومرجعية مدريد القائمة على أساس الأرض مقابل السلام وخارطة الطريق، واستغلال الأجواء المستجدة التي أنعشت الآمال في استئناف العملية السلمية وما يمثل ذلك من فرصة لإعادة قوة الدفع لها من أجل التوصل إلى السلام العادل والشامل الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بانسحاب إسرائيل الكامل من الأراضي العربية المحتلة في فلسطين والجولان العربي السوري المحتل ومزارع شبعا إلى خط الرابع من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حلاً عادلاً يتفق عليه طبقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨، ورفض كل أشكال التوطين الفلسطيني والذي يتنافى ومبادئ القانون الدولي والوضع الخاص في البلدان العربية

المضيقة.

- التشديد على أن عملية السلام كل لا يتجزأ، وأن السلام العادل والشامل الذي تتطلع إليه شعوب المنطقة لن يتحقق إلا بعودة الحقوق العربية كاملة غير منقوصة إلى أصحابها.
- إعلان الدعم الكامل والمساندة التامة، للشعب الفلسطيني في تعزيز وحدته الوطنية وصلابة جبهته الداخلية، والإعراب عن التأييد لجهود الحوار الوطني الفلسطيني ودعم صموده في مواجهة ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي.
- تـمـثـين دور صندوقي الأقصى وانتفاضة القدس في دعم الاقتصاد الفلسطيني ومساعدة مختلف فئات الشعب الفلسطيني، والدعوة لتوسيع قاعدة مواردهما ودعوة أعضاء البنك الإسلامي للتنمية للانضمام للصندوقين وإتاحة الفرصة للمؤسسات الطوعية لتمويل برامج ومشاريع تستجيب لأولويات الحاجة لدى الشعب الفلسطيني.
- الإشادة بالأجواء التي جرت فيها الانتخابات الرئاسية الفلسطينية والتي تعكس الخيار الديمقراطي والتأكيد على مواصلة الدعم للسلطة الوطنية الفلسطينية وتعزيز مواردها والتضامن المطلق مع الشعب الفلسطيني لاستعادة حقوقه الشرعية في إطار الثوابت والمبادئ التي أرسنها القمم العربية.
- الإعراب عن تضامننا المطلق مع سورية الشقيقة إزاء ما يسمى "قانون محاسبة سورية" واعتباره تجاوزاً لمبادئ القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، والتأكيد على ضرورة تغليب منطق الحوار والتفاهم لحل الخلافات بين الدول.
- تجديد التأكيد على وحدة أراضي العراق واحترام سيادته واستقلاله والدعوة إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم (١٥٤٦) لعام ٢٠٠٤، القاضي بتمكين العراق من استعادة كامل سيادته، وإنهاء الوجود العسكري الأجنبي فيه.
- الحفاظ على علاقات الأخوة العربية . الإيرانية، ودعمها وتطويرها، ودعوة الحكومة الإيرانية إلى التجاوب مع موقف دولة الإمارات العربية المتحدة الداعي إلى اتباع الإجراءات القانونية والوسائل السلمية لاستعادة جزرها الثلاث.
- الترحيب بالتوقيع على اتفاق السلام في جنوب السودان والتأكيد على التضامن معه ومساندة الجهود التي تبذلها الحكومة السودانية لمعالجة الوضع في إقليم دارفور، ودعوة كافة الأطراف الإقليمية والدولية المعنية للعمل على إيجاد حل سلمي عاجل لهذه القضية بما يحقق وحدة السودان ويحفظ سيادته وسلامته، بعيداً عن أساليب الضغوط الأجنبية.
- الإشادة بالتطورات الإيجابية في الصومال والمتمثلة في انتخاب رئيس للجمهورية وبرلمان فيدرالي انتقالي كخطوة هامة في طريق استرجاع الصومال لوحده واستقراره وأمنه وإقرار دعم مالي عاجل للحكومة الصومالية عن طريق صندوق دعم الصومال لمواجهة الاحتياجات العاجلة لها.
- التأكيد على الوحدة الوطنية لجمهورية القمر المتحدة وسلامة أراضيها وسيادتها الإقليمية.
- التشديد على ضرورة إصلاح النظام الدولي، بما يمكن الأمم المتحدة من زيادة فعاليتها وكفاءتها وقدرتها، والمطالبة بتوسيع العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي وتمكين مختلف التجمعات

والثقافات في العالم من المشاركة في إدارة النظام الدولي، وبما يعكس مبدأ الشراكة الدولية ويحقق التوازن والعدالة والمساواة في المنظومة الدولية.

-الإدانة الشديدة للإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره، واستنكار الجرائم التي ترتكبها المجموعات الإرهابية التي تشكل انتهاكات جسيمة للحقوق الأساسية للإنسان، وتمثل تهديداً للسلامة الوطنية للدول العربية وأمنها وزعزعة استقرارها، والدعوة لعقد مؤتمر دولي تحت إشراف الأمم المتحدة ووضع تعريف للإرهاب وعدم الخلط بين الإسلام والإرهاب والتفريق بين هذا الأخير وحقوق الشعوب في مقاومة الاحتلال.

-الترحيب بعقد القمة الأولى بين الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية لإرساء فضاء من التعاون والتضامن والحوار البناء بين المجموعتين.

-مواصلة بذل الجهود لتعزيز التعاون العربي الإفريقي وتنقيته بما في ذلك عقد اجتماع اللجنة الوزارية الدائمة تمهيداً لعقد مؤتمر القمة الثاني للتعاون العربي الإفريقي.

-استئناف الحوار العربي الأوروبي وتكثيف الاتصالات لتنشيط العلاقات بين المجموعتين.

-العمل على إقامة جسور للتعاون والشراكة بين الدول العربية والدول الفاعلة في العالم.

-تثمين الجهود التي بذلتها الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في سبيل دعم العمل العربي المشترك، وخاصة من خلال استضافتها ودعمها المستمر والمتواصل للمعهد العربي العالي للترجمة، ومشروع الذخيرة اللغوية العربية، والمركز العربي للوقاية من أخطار الزلازل والكوارث الطبيعية الأخرى والمعهد العربي للثقافة العمالية وبحوث العمل.

-الإعراب عن بالغ الامتنان للجزائر أرض النضال والتحرر ول فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهورية وللحكومة والشعب الجزائري على استضافة مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة في دورته العادية السابعة عشرة والتقدير العالي لما وفرتة الجزائر من رعاية كريمة وعناية فائقة ودقة في الإعداد للقمة العربية بالتشاور مع باقي الدول العربية والأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

-الإشادة بالجهد المتميز الذي بذله فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في إدارته لجلسات قممتا والحكمة والتبصر اللذين تحلى بهما في تسيير أعمال هذه القمة وإنجاحها، والتأكيد على الثقة الكاملة في قيادته الرشيدة على رأس القمة العربية لدفع دفة العمل العربي المشترك نحو تحقيق المزيد من الإنجازات واستعادة روح المبادرة الجماعية التي تعزز التضامن والتآزر بين أفراد الأسرة العربية، وتصون مصالحها المشتركة، مع التنويه بالجهود التي يبذلها السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية في النهوض بالعمل العربي المشترك.

صدر في الجزائر يوم ٢٣ مارس ٢٠٠٥

□□□

مؤتمر قمة الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية (إعلان برازيليا)

بدعوة من السيد لويس ايناسيو لولا دا سيلفا رئيس جمهورية البرازيل الاتحادية، وبترحيب من الدول العربية، ودول أمريكا الجنوبية، اجتمع رؤساء دول وحكومات أمريكا الجنوبية والدول العربية في برازيليا، خلال الفترة من ١٠ إلى ١١ مايو/ أيار ٢٠٠٥، بهدف تعزيز العلاقات بين الإقليمين، وزيادة التعاون بينهما، وإقامة شراكة سعيًا لتحقيق التنمية والعدالة والسلام العالمي وفقاً للأسس التالية:

١- مقدمة:

١. ١ يعلن المجتمعون، أنهم متفقون على وضع جدول أعمال من أجل السعي لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة تتم متابعتها إقليمياً ومن خلال التنسيق في المحافل الإقليمية والدولية ذات الصلة.

٢. ١ يؤكدون على أنه من أجل تحقيق السلم والأمن والاستقرار في العالم فإن التعاون بين الإقليمين، ينبغي أن يقوم على أساس الالتزام بالعلاقات المتعددة الأطراف، واحترام القانون الدولي، ومراعاة حقوق الإنسان، والقانون الإنساني الدولي، ونزع السلاح وحظر انتشار الأسلحة النووية وأيضاً أسلحة الدمار الشامل الأخرى، ومواصلة التنمية المستدامة، جنباً إلى جنب مع تحقيق العدالة الاجتماعية وعلى وجه الخصوص القضاء على الفقر والجوع؛ والحفاظ على البيئة.

٣. ١ يؤكدون مجدداً على التزامهم الكامل، باحترام مبادئ سيادة الدول ووحدة أراضيها والتسوية السلمية لكافة النزاعات والقضايا الدولية والإقليمية والثنائية طبقاً للقانون الدولي، وميثاق الأمم المتحدة وعبر الطرق الدبلوماسية المتبعة ومنها المفاوضات والتحكيم المباشرين واللجوء إلى محكمة العدل الدولية عند الاقتضاء.

٤. ١ يؤكدون مجدداً التزامهم بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة دون انتقاء ويعلمون معارضتهم للإجراءات أحادية الجانب وفرض المقاطعة غير القانونية ضد الدول.

ويؤكدون في هذا الصدد تمسكهم بأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وعلى وجه الخصوص منع استخدام القوة أو التهديد باستخدامها في العلاقات الدولية.

١ . ٥ . يؤكدون على أهمية بناء الثقة والتفاهم المتبادل من أجل التعايش السلمي بين الأمم، مدركين، في هذا السياق، أبعاد العولمة وأهمية المحافظة على الهوية الوطنية واحترام التعددية الثقافية والدور الذي يقوم به التبادل الثقافي وحوار الحضارات في بناء عالم واحد يسوده التسامح والاندماج، وفي هذا الصدد يساندون أيضاً المبادرات الأخيرة مثل مبادرة "تحالف الحضارات" المقترحة من أجل تدعيم الحوار الثقافي والسياسي بين الحضارات، ومبادرات دولة قطر بشأن الحوار بين الحضارات والأديان.

١ . ٦ . يؤيدون الجهود والآليات الدولية الرامية إلى القضاء على الفقر والجوع وتعزيز التنمية، وخاصة الصندوق العالمي للتضامن الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها ٢٦٥ / ٥٦ ومبادرة "العمل ضد الجوع والفقر" التي تمخض عنها إعلان نيويورك في ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٤.

ويحثون الحكومات والمؤسسات الدولية والإقليمية والمجتمع المدني على بذل الجهود في كافة أرجاء العالم، من أجل إيجاد مصادر تمويل إضافية ممكنة لتحقيق التنمية.

١ . ٧ . يؤكدون أهمية توسيع نطاق المشاركة على أعلى المستويات لكافة الأطراف المعنية في المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي ستعقد في تونس خلال الفترة من ١٦ . ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥ اعتباراً لأهمية دور تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات في عالمنا المعاصر، وأثرها الإيجابي في تعزيز التعاون بين الدول المساهمة في تقليص الفجوة الرقمية بينها بما يسهم في دعم استقرارها.

١ . ٨ . يؤكدون الحق الثابت للدول في التحكم في مواردها الطبيعية المنصوص عليه في مختلف قرارات الأمم المتحدة، وأيضاً الحق السيادي للدول للتصرف في مواردها بما يخدم مصالحها، وفي هذا المجال يعترفون بحق الدول في وضع المساهمات التي يعتقدون أنها أكثر ملاءمة، وأيضاً تنسيق سياساتها دفاعاً عن أسعار عادلة لصادراتها الزراعية، ويرفضون كل الإجراءات التمييزية والحمائية.

٢- تعزيز التعاون بين الإقليمين والعلاقات المتعددة الأطراف والسلام والأمن الدوليين:

٢ . ١ . يبرزون أهمية احترام القانون الدولي والالتزام بميثاق الأمم المتحدة وعلى نحو خاص ما يتعلق بمبدأ احترام سيادة الدول، وتعزيز دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن من أجل الحفاظ على السلم والأمن الدوليين، كما يتفقون على أن الدبلوماسية هي أكثر الوسائل الملائمة من أجل تحقيق هذا الهدف.

٢ . ٢ . يؤكدون مجدداً على الحاجة إلى وقف التهديدات التي يتعرض لها السلم والأمن الدوليان طبقاً لميثاق الأمم المتحدة والمعاهدات القانونية التي هم أطراف فيها.

٢ . ٣ . يرحبون بدخول معاهدة منع الأسلحة النووية في أمريكا اللاتينية والكاريبي (معاهدة تلاتيلوكو) حيز

النفاذ في دول أمريكا الجنوبية، ويؤكدون على أهمية معاهدات تلاتيلوكو، وراروتونجا، وبانكوك، وبليندابا التي تسعى إلى إنشاء مناطق خالية من الأسلحة النووية، وكذلك معاهدة انتركيتكا التي تهدف ضمن أمور أخرى، إلى إيجاد عالم يخلو تماماً من الأسلحة النووية.

٢ . ٤ . يؤكدون مجدداً على مواقفهم المبدئية، بشأن نزع السلاح وحظر انتشار الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل، ويعبرون أيضاً عن قلقهم العميق، بشأن تباطؤ التقدم في نزع الأسلحة النووية، ويؤكدون مجدداً على عدم شرعية استخدام الأسلحة النووية أو التهديد باستخدامها من قبل أي دولة، وضرورة توفير الضمانات الأمنية للدول غير النووية، والتحرك بفاعلية نحو التزام عالمي بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، والسعي تجاه عالمية الاتفاقات ذات الصلة التي أجريت بشأنها مفاوضات متعددة الأطراف في مجالات نزع السلاح وعدم انتشارها.

٢ - ٥ يؤكدون أهمية التنسيق في إطار المحافل الدولية المعنية بنزع السلاح، بهدف تحقيق مواقفهم المشتركة فيما يتعلق بضرورة تقدم المجتمع الدولي نحو تحقيق النزع الشامل للأسلحة النووية.

٢ . ٦ . يؤكدون أن تحقيق الأمن والاستقرار الإقليمي في الشرق الأوسط، يتطلب إخلاء كل المنطقة من الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل. وفي هذا الإطار يطالبون الأطراف المعنية كافة والمجتمع الدولي باتخاذ الإجراءات العملية والعاجلة لإنشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط ويشددون على أهمية انضمام دول المنطقة كافة دون استثناء إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وإخضاع كافة منشآتها النووية للرقابة الشاملة للوكالة الدولية للطاقة الذرية، سعياً لتحقيق هدف الالتزام العالمي بالمعاهدة في الشرق الأوسط كما يعبرون عن مساندتهم للمبادرة العربية التي تدعو إلى جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل.

٢ . ٧ . يذكرون بأن الأمم المتحدة، كي تقوم بالدور المنوط بها، بحاجة إلى إصلاح شامل واسع النطاق، وبوجه خاص فيما يتعلق بالجمعية العامة ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي لجعل هذه الأجهزة أكثر كفاءة وديمقراطية وشفافية وأكثر تمثيلاً وفقاً لما تتطلبه طبيعتها ووظائفها والغاية من إنشائها.

٢ . ٨ . يؤكدون مجدداً على ضرورة تحقيق سلام شامل وعادل ودائم في منطقة الشرق الأوسط على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام ووفقاً للقرارات ذات الصلة التي أصدرها مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، خاصة قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧، ورقم ٣٣٨ لسنة ١٩٧٣ فضلاً عن مرجعية مدريد و"مبادرة السلام العربية" التي تكفل تحقيق الأمن لجميع دول المنطقة كما أبرزوا أهمية التطبيق الكامل "لخريطة الطريق" ويؤكدون الحاجة إلى تحقيق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ١٥١٥ لسنة ٢٠٠٣، وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة على أساس حدود ١٩٦٧، تعيش جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل، وانسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة حتى حدود ٤ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وإزالة المستوطنات ومن ضمنها مستوطنات القدس الشرقية. كما يأخذون في الاعتبار الرأي الاستشاري الذي أصدرته محكمة العدل الدولية بتاريخ ٩ يوليو/ تموز ٢٠٠٤ بشأن "العواقب القانونية لبناء الجدار الفاصل في الأراضي الفلسطينية المحتلة"، ويطالبون كافة الأطراف المعنية بالالتزام بهذا

الرأي الاستشاري.

٩ . ٢ يعبرون عن قلقهم، من استمرار التوتر والعنف والعمليات العسكرية والأعمال الإرهابية، التي تجتاح حالياً الشرق الأوسط، والتي تعرّض السلام الإقليمي والدولي للخطر. ويؤكدون دعمهم للجهود التي يبذلها الأمين العام للأمم المتحدة، والأطراف الأخرى في المجتمع الدولي التي تعمل من أجل استئناف عملية السلام، ويدعون الأطراف المعنية للقيام بالجهود اللازمة لدعم مسار التفاوض الذي يقوم على أساس المبادئ والمعايير الأساسية للقانون الدولي.

١٠ . ٢ يؤكدون على أهمية احترام وحدة وسيادة العراق واستقلاله وعدم التدخل في شؤونه الداخلية، واحترام إرادة الشعب العراقي وخياراته في تقرير مستقبله بنفسه، والتي تم التعبير عنها في الانتخابات العامة التي جرت في ٣٠ يناير/ كانون ثاني ٢٠٠٥، والتي تُعد إنجازاً كبيراً على طريق الانتقال السلمي للسلطة لإقامة نظام دستوري ديمقراطي اتحادي (إذا ما قرر الشعب العراقي ذلك) واستكمال العملية السياسية كما يؤكدون على دعم الحكومة العراقية الانتقالية المنتخبة ويحثون الأسرة الدولية على توفير الدعم للحكومة لعملية الاستقرار والبناء الجارية في البلاد.

ويدينون العمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين ومؤسسات البنية التحتية وعملية بناء الديمقراطية.

كما يؤكدون على الدور المحوري للأمم المتحدة وكذلك لدور أكبر لجامعة الدول العربية في إعادة إعمار العراق وبناء مؤسساته.

١١ . ٢ يعربون عن قلقهم العميق بشأن العقوبات أحادية الجانب المفروضة على سوريا من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ويرون في القانون المزعوم لمحاسبة سوريا انتهاكاً لمبادئ القانون الدولي وتعدياً على أهداف ومبادئ الأمم المتحدة مما يشكل سابقة خطيرة في التعامل مع الدول المستقلة.

١٢ . ٢ يؤكدون على وحدة السودان أرضاً وشعباً وسلامته الإقليمية ويدعون كافة الأطراف المعنية لدعم جهود تحقيق السلام الشامل وجهود إعادة الإعمار والتنمية في السودان ويرحبون بالإجراءات التي اتخذتها حكومة السودان لتسهيل عملية المساعدة الدولية لمعالجة الأزمة الإنسانية في دارفور، ويعربون عن اهتمامهم الشديد بالدور الذي تقوم به كل من جامعة الدول العربية والاتحاد الإفريقي في هذا الصدد.

١٣ . ٢ يرحبون بإنجازات عملية المصالحة الوطنية الصومالية، ويعبرون عن مساندتهم للمؤسسات الدستورية التي انبثقت عنها، بالإضافة للجهود المبذولة لإعادة الأمن والاستقرار إلى الصومال تمهيداً لتمكينه من إعادة الإعمار والتحول الديمقراطي السلمي.

١٤ . ٢ دعوة جمهورية إيران الإسلامية إلى الاستجابة لمبادرة دولة الإمارات العربية المتحدة للتوصل إلى حل سلمي لقضية الجزر الثلاث طنّب الكبرى وطنّب الصغرى وأبو موسى التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك عبر الحوار والمفاوضات المباشرة وطبقاً لميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولي.

٢ . ١٥ يدعو قادة ورؤساء الحكومات في الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية، جمهورية الأرجنتين والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية، إلى استئناف المفاوضات وذلك للوصول بأسرع وقت ممكن، إلى إيجاد حل سلمي وعادل ودائم للخلاف حول السيادة على جزر الملاويين، وفقاً لقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة.

كما يعتبرون أن إلحاق جزر الملاويين وجورجيا الجنوبية وجزر ساندوتش الجنوبية بوصفها جزء من أوروبا، وفقاً لما ورد في الملحق الثاني المتعلق بالعنوان الرابع "إلحاق البلدان والأراضي لما وراء البحار" الواردة في الجزء الثالث من اتفاقية الدستور للاتحاد الأوروبي، لا يتفق والخلاف القائم حالياً حول السيادة على هذه الجزر.

٢ . ١٦ يشددون على ضرورة التصدي للإرهاب بكل صوره وجميع أشكاله، وذلك من خلال تعاون دولي نشيط وكفء ضمن منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية المعنية، على أساس من الاحترام لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، والالتزام الصارم بالقانون الدولي ومبادئ حقوق الإنسان، كما يؤكدون مجدداً على أهمية تعزيز التعاون والتنسيق في تبادل الخبرات والمعلومات وتطوير القدرات للأجهزة المختصة بمكافحة الإرهاب، ويدعون إلى عقد مؤتمر دولي تحت مظلة الأمم المتحدة لدراسة هذه الظاهرة، ووضع تعريف لجريمة الإرهاب وأخذون في الاعتبار التوصيات الصادرة عن المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب الذي استضافته المملكة العربية السعودية بمدينة الرياض خلال الفترة من ٥ . ٨ / فبراير / شباط ٢٠٠٥م والتي تشكل منهجية شاملة للتصدي لظاهرة الإرهاب، ويدعمون اقتراح صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية بإنشاء مركز دولي لمكافحة الإرهاب.

٢ . ١٧ يؤكدون مجدداً رفضهم للاحتلال الأجنبي، ويعترفون بحق الدول والشعوب في مقاومة الاحتلال الأجنبي، طبقاً لمبادئ الشرعية الدولية، والالتزام بالقانون الإنساني الدولي.

٢ . ١٨ الترحيب بمبادرة دولة قطر والمفوضية السامية لحقوق الإنسان بشأن استضافة دولة قطر مركز الأمم المتحدة لحقوق الإنسان لجنوب غربي آسيا والمنطقة العربية.

٢ . ١٩ يقررون بالدور الجوهري، للتعاون الدولي في تناول المشكلات العالمية المتمثلة في العقاقير غير المشروعة والجرائم المتعلقة بها، ويعلنون عزمهم على ضمان إتباع نهج متوازن، ومتعدد الأطراف، وشامل، وغير انتقائي في معالجة هذه القضايا، على أساس مبدأ المسؤولية المشتركة وطبقاً للقانون الوطني.

٢ . ٢٠ يتفقون على العمل معاً في المحافل متعددة الأطراف من أجل تعزيز الأعمال المنسقة التي يقوم بها المجتمع الدولي بهدف تحقيق الأهداف التنموية للألفية التي تم الاتفاق عليها في قمة الأمم المتحدة للألفية. ويعلنون عن إرادتهم في تنسيق الجهود لتحقيق التطبيق الكامل لما جاء في جدول أعمال الدوحة وتدعيم نظام التجارة متعددة الأطراف الذي ينبغي أن يتصف بالعدل وأن يكون مبنياً على القواعد التي من شأنها تسهيل الاندماج المنصف للدول النامية في الاقتصاد العالمي.

٢ . ٢١ بمناسبة انعقاد قمة رؤساء الدول والحكومات المنعقدة في برازيليا، اتفقت الدول العربية ودول

أمريكا الجنوبية على تأييد ترشيحي بيرو وقطر للعضوية غير الدائمة في مجلس الأمن الدولي عن الفترة ٢٠٠٦ . ٢٠٠٧

٣ - التعاون الثقافي:

٣ . ١ يقرون بأهمية التفاعل الثقافي بين الشعوب لإثراء الحضارة الإنسانية، ويرون أن قمة الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية تمثل فرصة لتعزيز التفاهم بين شعوب الإقليمين، وثقافتهم، وفي هذا الصدد يعربون عن تقديرهم للدور الإيجابي لمواطني دول أمريكا الجنوبية المتحدرين من أصول عربية في توثيق الصلات بين الإقليمين.

٣ . ٢ يؤكدون مجدداً، على الأهمية المتزايدة لدور الثقافة كجسر بين الشعوب، وبوصفها نشاطاً اقتصادياً لحفز التنمية وتعزيز التعاون المشترك.

٣ . ٣ يقرون بضرورة الحفاظ على هوياتهم الثقافية ونشر أهم الجوانب ذات الصلة بتراثهم الثقافي فيما بينهم، وفي هذا الصدد، يقررون تعزيز آليات التبادل الثقافي، لتشمل كل جوانب الإنتاج الفني، مثل مهرجانات السينما، ومعارض الفنون، وحفلات الموسيقى الشعبية والكلاسيكية، إلى جانب أشكال التعبير الأخرى عن المظاهر الثقافية المتأصلة في تقاليد شعوبهم.

٣ . ٤ يرحبون بالنتائج الصادرة عن توصيات الندوة الثقافية التي تم عقدها في مراكش، على هامش اجتماع وزراء خارجية الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية، كما يرحبون باستضافة المملكة المغربية لمعهد البحوث حول أمريكا الجنوبية.

٣ . ٥ يقررون في هذا الإطار عقد اجتماع خبراء من الإقليمين، لاختيار مراجع مكتوبة باللغة العربية، وأخرى باللغات الرسمية لبلدان أمريكا الجنوبية لتبادل ترجمتها، وذلك من أجل تأسيس مكتبة أمريكية جنوبية . عربية في المستقبل.

٣ . ٦ يرحبون بدعوة الجزائر استضافة اجتماع وزاري لدراسة المحور الثقافي ومتابعة التوصيات الخاصة بالتعاون الثقافي بين الدول العربية ودول أمريكا الجنوبية الواردة في إعلان القمة.

٣ . ٧ يرحبون بدعوة سوريا لعقد الندوة التأسيسية للمكتبة العربية الأمريكية الجنوبية المشار إليها في إعلان القمة في مدينة حلب في ٢، ٣ أكتوبر/ تشرين أول ٢٠٠٥

٣ . ٨ يؤكدون على أهمية تعزيز التعاون والتبادل في المجال السمعي والبصري، لنشر ثقافتهم ولغاتهم بطريقة أكثر فاعلية.

٣ . ٩ يقررون تعزيز تبادل البرامج الثقافية، والتفاعل بين المثقفين في كلا الإقليمين وتشجيع مشروعات القطاع الخاص في مجال الاستثمار الثقافي، لكي تتمكن كلتا المنطقتين من الإطلاع على واقع مجتمعاتهما عبر القنوات المناسبة والمباشرة.

٣-١٠ يقررون تعزيز التعاون في مجال التعليم والمجال الأكاديمي من خلال تقديم المنح الدراسية، وتبادل زيارة أساتذة الجامعات وخاصة في مجال تعليم اللغات، وغير ذلك من الأنشطة، مثل تنظيم المؤتمرات والندوات حول الموضوعات ذات الاهتمام المشترك.

٣-١١ يقدرون أهمية تنوع التراث الثقافي لبلدانهم، والحاجة إلى الحفاظ عليه. وتحقيقاً لهذه الغاية، يقررون

تعزيز التعاون التقني في مجالات التتقيب عن الآثار التاريخية والتراث المعماري والأعمال الفنية وترميمها، وكذلك دعم سبل التعاون والتنسيق المشترك في مكافحة تهريب الآثار والتراث.

١٢-٣ يتفقون على ضرورة تشجيع الإنتاج الثقافي المشترك، والعمل على تبادل الخبراء بين بلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية من أجل إقامة مشروع واسع النطاق لحماية التراث الإنساني ونشر ثقافة السلام.

١٣-٣ يتفقون على دعم تبادل البرامج في مجال الرياضة باعتبارها وسيلة للتقريب بين الأجيال الشابة في كلا الإقليمين.

٤-التعاون الاقتصادي:

١-٤ يؤكد الجانبان على أن السلام والأمن والاستقرار في منطقتيهما يشكلان الركيزة الأساسية لدفع الازدهار الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، ويعلمون عن عزمهم على التعاون فيما بينهم في جميع المجالات، ومن بينها تسوية النزاعات التي تؤثر بشكل مباشر على ذلك، والتعاون مع الأطراف الدولية الأخرى من أجل زيادة إسهام المنطقة العربية ومنطقة أمريكا الجنوبية في عملية اتخاذ القرارات الاقتصادية على المستوى الدولي.

٢- ٤ يلتزمون بتكثيف عملية تنسيق مواقفهم في المحافل الاقتصادية والتجارية، وذلك لمناقشة القضايا المشتركة طبقاً للأهداف الواردة في هذا الإعلان. وفي هذا الصدد، يؤكدون مجدداً التزامهم بتقوية المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية للأمم المتحدة، من أجل العمل على وضع جدول أعمال دولي طموح وواسع النطاق للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتنفيذ القرارات ذات الصلة التي تم تبنيها في المؤتمرات الرئيسية للأمم المتحدة.

٣-٤ يؤكدون على التزامهم بحماية الملكية الفكرية، ويقررون أن حماية الملكية الفكرية يجب ألا تحرم البلدان النامية من الوصول إلى الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الأساسية، ومن اتخاذ الإجراءات اللازمة لتعزيز التنمية الوطنية، وعلى نحو خاص ما يتعلق منها بسياسات الصحة العامة.

٥-التجارة الدولية:

١-٥ يتفقون على أن التجارة الدولية وسيلة لتعزيز التنمية الاقتصادية، وتوفير فرص العمل وزيادة الدخل وخفض الفقر وتحسين مستويات المعيشة. وإدراكاً لحقيقة توسع التدفقات التجارية وقوتها على امتداد العقود الماضية، ونتيجة للاختلالات التجارية الدولية ولعدم اتساق القواعد المعمول بها، فإن هذا التوسع لم يؤدي إلى مكاسب عادلة وبنفس القدر للاقتصاديات الصغيرة والهشة، الأمر الذي أدى إلى توسيع الفجوة بين البلدان المتقدمة والنامية.

٢-٥ يؤكدون على أن إنشاء نظام تجاري متعدد الأطراف، يعتمد على قواعد محددة يتسم بالشفافية وعدم التمييز والإنصاف، أمر حيوي لتعميم فوائد العولمة على البلدان النامية، ويعربون مجدداً عن دعمهم لمنظمة التجارة العالمية وتعزيز دورها، والعمل على إنجاح المفاوضات الرامية إلى تنفيذ

جدول أعمال الدوحة للتنمية بما يفيد الدول النامية بما في ذلك القطاعات التي يتمتعون فيها بالميزة التنافسية.

٣-٥ يعربون عن دعمهم المشترك، في أن تتمكن جميع الدول المشاركة في هذه القمة، والتي طلبت الانضمام إلى منطقة التجارة العالمية أن تتمكن من ذلك بطريقة مرضية وفي أقرب وقت.

٤-٥ وإذ يدركون أهمية التفاعل بين البلدان العربية وبلدان أمريكا الجنوبية، يؤكدون أن لهذا التفاعل دوراً أساسياً في جولة المفاوضات التجارية متعددة الأطراف من أجل التوصل إلى نتائج إيجابية من شأنها ضمان مراعاة تأثير التجارة الدولية على التنمية وأن تصبح أداة فاعلة للتقليل من أوجه عدم المساواة بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية، وأن تكون كذلك عنصراً جوهرياً لتقدم مجتمعاتهم ورفاهها.

كذلك يشددون على الحاجة إلى التخفيف من التشوهات الرأبنة في النظام التجاري متعدد الأطراف، وبصفة خاصة في مجال الزراعة، الأمر الذي يحول بين البلدان النامية والاستفادة من المزايا النسبية التي تتمتع بها.

٥-٥ يقررون دعم طلبات المنظمات الإقليمية في منطقتيهما، للحصول على صفة المراقب في أجهزة منظمة التجارة العالمية، وفقاً للقواعد والإجراءات المعمول بها في منظمة التجارة العالمية.

٦-٥ يعلنون دعمهم الخاص للدور الذي تضطلع به الأونكتاد كجهة اتصال داخل الأمم المتحدة، من أجل المعالجة المتكاملة للتجارة والتنمية والقضايا المتداخلة في مجالات المال والتكنولوجيا والاستثمارات والتنمية المستدامة على نحو ما أكدته إجماع ساو باولو، والبيان الوزاري لمجموعة السبع والسبعين، وهما الوثيقتان اللتان اتفق عليهما في مؤتمر الأونكتاد الحادي عشر في ساو باولو، في شهر يونيو /حزيران الماضي، ٢٠٠٤.

٦- النظام المالي الدولي:

١-٦ يؤكدون مجدداً، على ضرورة تعزيز الإصلاحات في هيكل النظام المالي الدولي من أجل دعم جهود البلدان النامية، لتحقيق نمو اقتصادي يتسم بالإنصاف الاجتماعي. ويدركون أن هذه الإصلاحات لا بد أن تتضمن أدوات أكثر ملاءمة لمنع الأزمات المالية وإدارتها، وتحديد آليات جديدة وتنفيذها لضمان التدفقات المالية، وإعطاء البلدان النامية دوراً أكبر في عملية صنع القرار في المنظمات المالية متعددة الأطراف.

٢-٦ يعربون عن قلقهم إزاء عدم استقرار الأسواق المالية الدولية، ويدركون أن جهوداً إضافية يجب أن تبذل في المحافل الدولية بهدف تعاون أفضل بين البلدان المتقدمة والنامية لتعزيز التفاهم المشترك حول القضايا المالية الدولية الرئيسية، ويتفقون على أن إحراز مزيد من التقدم، خاصة فيما يتعلق بإنشاء آليات مالية مبتكرة لدعم مشروعات التنمية والسياسات والبرامج التي تتبناها البلدان النامية أمر حيوي، وذلك دون أن يضر باقتصاداتهم.

٣-٦ يؤكدون على أهمية ضمان موارد مالية مستقرة ومستمرة لتعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية خاصة في مجالات البنية الأساسية والقضاء على الفقر والجوع، ويشددون على نحو خاص على

الحاجة إلى أن تعي المؤسسات المالية متعددة الأطراف أن الإنفاق العام في المجال الاجتماعي ومشروعات البنية التحتية يجب أن يتم التعامل معها على أنها استثمارات وليست ديوناً عامة.

٧- التنمية المستدامة:

١-٧ يؤكدون مجدداً على التزامهم بالمبادئ والأهداف الواردة في الوثائق الأساسية متعددة الأطراف بشأن التنمية المستدامة، مثل إعلان ريو عن البيئة والتنمية والأجندة (٢١)، اللذين تم إقرارهما في مؤتمر ريو عام ١٩٩٢، وكذلك تنفيذ خطة مؤتمر القمة العالمي حول التنمية المستدامة، الذي انعقد في جوهانسبرج عام ٢٠٠٢.

٢-٧ يرحبون بالنجاح الذي حققته الدورة الثانية عشرة للجنة الأمم المتحدة للتنمية المستدامة، التي ناقشت خلالها القضايا ذات الصلة بكلا الإقليمين، مثل موارد المياه، والصرف الصحي، والمستوطنات البشرية، وآثارها على الرعاية الصحية، وخفض الفقر، والتغيرات في أنماط الاستهلاك والإنتاج.

٣-٧ يشيرون إلى ضرورة وفاء البلدان المتقدمة بالتزاماتها، فيما يتعلق بتمويل التنمية ونقل التكنولوجيا، وتوسيع الفرص لوصول صادرات البلدان النامية إلى الأسواق، بما يساهم في بلوغ أهداف التنمية المستدامة التي وافق عليها المجتمع الدولي.

٤-٧ يلاحظون بتقدير وجود مبادرات في كلا الإقليمين، تتناول القضايا البيئية والتنمية المستدامة ويعبرون عن مصالحتهم المشتركة لتعزيز التعاون، وتبادل الخبرات في تنفيذ هذه المبادرات، ويبرزون الحاجة إلى إجراءات فاعلة على مستوى التعاون الدولي لخفض تعرض البلدان للكوارث الطبيعية في أوطانهم.

٥-٧ يقررون أيضاً بأهمية الاتفاقيات متعددة الأطراف والإجراءات التي اتفق عليها المجتمع الدولي، لحماية النظام المناخي، وطبقة الأوزون والتنوع البيولوجي، ويدعون كافة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، والوكالات المتخصصة ليشاركوا بفاعلية في هذه المساعي.

٦-٧ يعربون عن قلقهم الشديد إزاء عمليات دفن النفايات الكيماوية لما تؤديه من تلوث للبيئة وإتلاف للثروات وما تشكله من خطورة بالغة على حياة السكان وخرقاً للاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية البيئة.

٧-٧ لكلا الإقليمين تاريخ طويل من العناية بالقضايا المتعلقة بجدول الأعمال الدولي المتزايد البنود في شؤون البيئة ولا سيما العمل الدؤوب من أجل دعم الأعمال المبينة في الاتفاقية الإطارية بشأن تغير المناخ وفقاً لمبدأ المسؤوليات المشتركة وإن كانت متباينة، ويرحبون في ضوء ذلك بدخول بروتوكول كيوتو مؤخراً إلى حيز التنفيذ.

٨- تنمية التعاون جنوب -جنوب:

١-٨ يؤكدون على أهمية التعاون جنوب -جنوب ويدركون حاجة كلا الإقليمين إلى الاستفادة من فرص التعاون العديدة المتاحة لبلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية والعلمية والثقافية، ويشددون على أن ثروات مجتمعاتهم وتنوعها، تساعد على

تعزيز العلاقات فيما بينهم.

٢-٨ يرحبون بمبادرة دولة قطر باستضافة قمة الجنوب الثانية في الدوحة (١٢-١٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٥)، ويؤكدون على أهمية المشاركة الفاعلة للقادة في هذه القمة، الأمر الذي من شأنه تعزيز تعاون جنوب -جنوب في مختلف المجالات.

٣-٨ يدركون أن ترسيخ التكامل بين اقتصاداتهم والاستفادة من الإمكانيات الواسعة المتاحة لزيادة التدفقات التجارية فيما بين الإقليمين من شأنها أن تخدم مصلحة شعوبهم، ويقررون دراسة كافة الوسائل الكفيلة بتعزيز التجارة بين الإقليمين.

ويبرزون أهمية التقدم في عمليات التكامل داخل كلا الإقليمين، مع الأخذ في الاعتبار أوجه عدم الإتساق في الاقتصادات الوطنية وكذلك الاحتياجات الخاصة للاقتصادات الصغيرة والاقتصادات الهشة وما تعانيه من قيود خاصة ما يتعلق بالدول النامية التي لا سواحل لها.

٤-٨ يعترفون أن من المصلحة المشتركة الاعتماد على آليات مشتركة للاستثمار والشاركة في الإقليمين في القطاعات الاستراتيجية مثل الطاقة والاتصالات والنقل باعتبارها رافعة للتنمية.

٥-٨ يعربون عن ضرورة اتخاذ التدابير الملائمة لتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الإقليمين وبما فيها تحديد آليات للتعاون بين الوكالات ذات الكفاءة في مجالات النقل النهري والبحري والجوي وذلك مثل مذكرة التفاهم بين الهيئة العربية للطيران المدني واللجنة الأمريكية اللاتينية للطيران المدني، وأهمية تفعيل هذه الآليات. كما يؤكدون على الحاجة إلى اتخاذ الخطوات الضرورية لتعزيز التعاون في مجال السياحة والترويج لها بين /في الإقليمين، بما فيها زيادة المشاركة في المعارض وتنظيم مناسبات الترويج المشتركة.

٦-٨ يتفقون على زيادة الجهود نحو نشر البيانات المحدثة بشكل منهجي في بلدانهم والمتعلقة بفرص التجارة والاستثمار والسياحة من خلال إقامة معارض شبه دائمة، وعقد اتفاقيات للتعاون بين الوكالات المسؤولة عن ترويج الصادرات والاستثمار، والقيام بإيفاد البعثات من أصحاب المشروعات وتنظيم ندوات مشتركة، ويعبرون عن اهتمامهم بتبادل المعارف والتجارب التي تسهم في تنمية الخبرات القائمة حالياً في مؤسسات البلدان العربية وبلدان أمريكا الجنوبية.

٧-٨ يدركون الأهمية العظمى للتعاون جنوب -جنوب، باعتباره فعلاً في تكامل النظام التجاري متعدد الأطراف وفي دعم القدرة التنافسية والنمو لاقتصادات البلدان النامية، ويرحبون ببدء الجولة الأخيرة الثالثة للمفاوضات التجارية، في إطار اتفاقية النظام العالمي للأفضليات التجارية، ويدعون كافة المشاركين إلى تقديم تنازلات تجارية كبيرة أثناء هذه الجولة، بهدف إضفاء مزيد من الدعم والتوسع في التجارة جنوب -جنوب.

٨-٨ يؤكدون على أن القطاع الخاص وقطاع الأعمال، يجب أن يقوموا بدور رئيسي في التنفيذ الفعال لفقرات الإعلان في القطاعات ذات الصلة بالتجارة والاستثمار، كما يؤكدون على أن حكوماتهم سوف تتخذ كل الإجراءات الممكنة لتسهيل وتعزيز هذا الدور.

٩-التعاون العلمي والتقني:

٩-١ يؤكدون مجدداً، على تفهم أن تعاون جنوب -جنوب له تكلفة قليلة وآلية عالية الفاعلية، والتي ربما تسهم بكفاءة في تنمية القدرات في البلدان العربية وأمريكا الجنوبية.

٩-٢ يعبرون عن هدفهم المشترك من أجل زيادة التعاون العلمي والتقني بين الإقليمين، آخذين بعين الاعتبار المعرفة والخبرة المتراكمة في كلا الإقليمين، وما بينهما من تكامل وقدرة على الابتكار، ويؤكدون على الحاجة الماسة لتنسيق برامج التعاون في الجامعات ومراكز البحث الهامة في إقليميهما، وكذلك تشجيع تبادل الخبراء

والباحثين وأساتذة الجامعات. كما يعلنون عن استعدادهم لإيجاد آليات مالية لتنفيذ برنامج تطوير التعاون العلمي والتقني فيما بينهم، ويحددون المجالات التالية لبدء هذا البرنامج والتي تمخضت عنها ندوة الأراضي القاحلة والموارد المائية (مدينة فورتا ليزا/البرازيل/سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤): (١) التصحر والأراضي شبه القاحلة، (٢) إدارة الموارد المائية، (٣) الزراعة المروية، (٤) الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية (البيولوجية)، (٥) التنبؤ بالمناخ، (٦) تجهيز التربة، (٧) تربية الماشية.

٩-٣ يقررون اهتمامهم المشترك، بتكثيف تبادل المعلومات والخبرة في مجال الزراعة المروية من أجل زيادة المعرفة بنظم الري الكفؤة التي تسمح باستخدام أفضل للاستثمار، ويعربون عن عزمهم على توسيع نطاق تبادل المعلومات والخبرة، في استخدام النماذج الهيدرولوجية للتنبؤ بالمتغيرات المائية، مثل مصبات الأنهار.

٩-٤ يؤكدون على أهمية المبادرات الرامية إلى تطوير التكنولوجيا المبتكرة والإدارة المتكاملة للموارد المائية. ومن هذا المنطلق يحددون برنامج العمل الذي يشكل إطاراً للتعاون بين الإقليمين منها: (١) تطوير معدات ري تتسم بالكفاءة، (٢) تعزيز الصرف الصحي الحضري ومعالجته بما يناسب احتياجات كل بلد، (٣) السيطرة على الهدر والتسربات في نظم الإمداد العامة، (٤) تطوير الأدوات المنزلية لتقليل استهلاك المياه، (٥) استخدام أدوات صحية من أجل الاستخدام الرشيد للمياه وإعادة استخدامها.

٩-٥ يعربون عن اهتمامهم بعملية الإمداد المستديم واللامركزي للمياه التي تمت تلبيتها حيث أنها ضرورية لمعيشة السكان في المجتمعات المنعزلة. ويؤكدون على عزمهم على قيام تعاون في مجال تكنولوجيا الضغط الأسموزي العكسي، التي تنتج مياهاً عالية الجودة من منظور صحي وعضوي.

٩-٦ يؤكدون مجدداً على أهمية تنمية الثروة الحيوانية في تعزيز الأمن الغذائي، كما يؤكدون على الحاجة إلى نشر المعرفة بين المجتمعات المعنية وكيفية استخدام التكنولوجيا الملائمة لتحسين الوراثة للقطعان وإنتاجيتها.

٩-٧ يؤكدون على الحاجة إلى تعزيز التعاون في مجالات التصحر والأراضي شبه القاحلة، وكذلك الاستفادة من صور الأقمار الصناعية، من أجل تقييم الوضع الراهن للمناطق التي يزحف عليها التصحر، واقتراح البدائل الملائمة من أجل التنمية المستدامة التي تأخذ في الاعتبار الجوانب البيئية والاجتماعية والاقتصادية.

٨-٩ يؤكدون على أهمية دعم التعاون بين المراكز العلمية والبحثية في الإقليمين من أجل توفير التكنولوجيا المتاحة التي تستخدم في تحلية المياه والتي تؤمن التوسع في استخدامها للأغراض التنموية بما فيها الزراعة.

٩-٩ يؤكدون على الحاجة إلى تعزيز التعاون بين الإقليمين في مجالات الطاقة، وتحديد قنوات الاتصال والتعاون بينهما في كافة المجالات المتعلقة بها، بما يجعل التعاون يسهم في تعظيم فوائد الطاقة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلدانهم.

٩-١٠ يعربون عن التزامهم بتكثيف الجهود للإسراع بتطوير ونقل واستخدام التكنولوجيا وذلك بقصد تحقيق مزيد من الكفاءة في إنتاج الطاقة.

١٠- مجتمع المعلومات:

١٠-١٠ يؤكدون مجدداً على التزامهم ببناء مجتمع شامل للمعلومات مكرس للتنمية، وفقاً لما جاء في إعلان المبادئ وفي خطة عمل مرحلة جنيف لمؤتمر القمة العالمي بشأن مجتمع المعلومات.

١٠-٢ يعتبرون أن تكنولوجيا المعلومات والاتصال تتيح فرصة للتغلب على معوقات التقدم، وأن تطبيقها سيكون له آثار اجتماعية عالية، وتشكل أدوات لا غنى عنها لبلوغ الأهداف التنموية للألفية. وإذا يأخذون هذا الأمر في اعتبارهم، يقررون بذل جهود إضافية نحو تحقيق التنسيق في المحافل الدولية، وبصفة خاصة في المرحلة الثانية لقمة مجتمع المعلومات في تونس (١٦-٢٠٠٥/١١/١٨) من أجل سد الفجوة الرقمية في أبعادها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، ويدعون إلى الحضور المكثف والمشاركة الفعالة فيه.

١١- العمل على التصدي للفقر والجوع:

١١-١ يعبرون عن قلقهم العميق بشأن الفقر والجوع في العالم، حيث أن الفقر والجوع يفاقمان من انتشار الأمراض، ويضعفان القدرة على العمل، ويحدان من قدرة الطفل على الإدراك، ويعملان على تفكيك المجتمعات، ويعززان العوامل التي تحول دون تحقيق النمو الاقتصادي المقترن بالعدالة في البلدان النامية.

١١-٢ يؤكدون مجدداً على أن التنفيذ الكامل والفوري للأهداف التنموية للألفية، ينبغي أن تكون له الأولوية بالنسبة لكل البلدان المتقدمة والنامية، ويعبرون عن تصميمهم السياسي القاطع على العمل معاً نحو توسيع التعاون الدولي، وكذلك حشد الدعم السياسي من أجل توفير المزيد من التمويل، بالإضافة إلى ما تمت الموافقة عليه في مؤتمري مونتيري وجوهانسبرج. وتحقيقاً لهذه الغاية، يؤكدون على دعمهم للمبادرات الجارية لإيجاد مصادر جديدة مبتكرة لتمويل التنمية.

١١-٣ يؤكدون على الحاجة الماسة، إلى أهمية العمل على إيجاد مصادر جديدة للتمويل من أجل تحقيق الأهداف التنموية للألفية بحلول عام ٢٠١٥، ولاسيما فيما يتعلق بضرورة خفض الفقر والجوع وتعزيز النمو الاقتصادي المستدام في البلدان النامية.

- ١١- ٤ يدركون على نحو خاص، أهمية مواجهة الفقر والجوع في العالم، ليس بوصفه هدفاً في ذاته، ولكن أيضاً بوصفه طريقاً لتعزيز الأمن والاستقرار في البلدان النامية والبلدان المتقدمة على حد سواء، ويشددون في هذا الصدد على الحاجة الملحة لتحديد مصادر جديدة لتمويل التنمية ويكررون دعمهم لكافة المبادرات الرامية لتحقيق هذا الهدف.
- ١١- ٥ يؤكدون على ضرورة توفير الدعم المالي للصندوق العالمي للتضامن ومكافحة الفقر وتفعيله، بوصفه آلية مناسبة لخفض الفقر في الدول النامية.
- ١١- ٦ يرحبون بالزخم السياسي الذي برز في اجتماع قادة العالم، لمناقشة آليات مبتكرة لتمويل القضاء على الجوع وخفض الفقر، التي قدمها رئيس البرازيل لويس ايناسيو لولا دا سيلفا، في نيويورك في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤، ويدعون الحكومات التي لم تقم بعد بذلك، للالتحاق بهذا المسعى.
- ١١- ٧ يؤكدون على استعدادهم لتوحيد جهودهم، من أجل الحصول على زيادة ملموسة في حجم الموارد العامة والخاصة، المقدمة للمساعدة في تحقيق نمو اقتصادي مستدام في البلدان النامية، وذلك في مؤتمر عام ٢٠٠٥، المكرس لمراجعة الأهداف التنموية للألفية.
- ١١- ٨ يرحبون باقتراح إنشاء صندوق إنساني دولي، مع مراعاة الأفكار التي تم الإعراب عنها في هذا الشأن خلال المؤتمر الدولي لتمويل التنمية ومؤتمر القمة العالمي بشأن التنمية المستدامة.
- ١١- ٩ يؤكدون على أهمية المزيد من التنسيق بين مختلف المبادرات التي سبق ذكرها لتفادي الازدواجية في الجهود.

١٢- القضايا التنموية والاجتماعية:

- ١٢- ١ يحثون الدول المانحة على زيادة مساعدات التنمية، من حيث النوع، وجعلها أكثر فعالية لإنجاز الأهداف التنموية للألفية، وتنفيذ تعهداتها لتمويل هذه الأهداف وغاياتها.
- ١٢- ٢ يؤكدون مجدداً، على تأييدهم لإلغاء الديون كل ما كان ذلك مناسباً، بالنسبة للبلدان ذات الدخل المنخفض، وخفضها على نحو كبير للبلدان متوسطة الدخل، وذلك من أجل حشد الموارد المالية الضرورية التي تستجيب للأهداف التنموية المتفق عليها دولياً.
- ١٢- ٣ يدركون الحاجة إلى العمل المشترك للتعامل مع ظاهرة الهجرة، من أجل اتباع نهج إيجابي لتدفقات الهجرة، آخذين بعين الاعتبار أثرها على التنمية، ويقرون بالأهمية القصوى للتعاون الدولي لحماية الحقوق الإنسانية للمهاجرين وأسرهم، بما ينسجم مع أنظمة الدول وقوانينها ذات الصلة.
- ١٢- ٤ ويلاحظون أيضاً أن التهديدات للصحة العامة على الصعيد الدولي، التي يمثلها على نحو خاص وباء نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) والملاريا والدرن، والأوبئة الأخرى، تتطلب دعماً فاعلاً وسخياً من المجتمع الدولي، يتجاوز الحدود والقيود المنبثقة عن المصالح الصناعية والتجارية الخاصة.

- ١٢- ٥ يحثون على حشد موارد مالية أكبر من أجل التعاون العلمي والإنساني لمكافحة مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، وبوجه خاص لدى شعوب بلدان القارة الإفريقية.
- ١٢- ٦ يقررون أن الفساد، يؤدي إلى إضعاف المؤسسات العامة والخاصة، وتآكل القيم الاجتماعية، ويضعف من دور القانون، ويصيب الاقتصادات بالخلل، ويؤثر على تخصيص الموارد للتنمية. وبالتالي فإنهم يتعهدون بتكثيف الجهود لمواجهة الفساد والممارسات اللاأخلاقية الأخرى، في القطاعين العام والخاص، وتعزيز ثقافة الشفافية، وضمان إدارة عامة أكثر كفاءة.
- ١٢- ٧ يقررون أن اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، تمثل آلية مناسبة، للتصدي لظاهرة الفساد، ويدعون كافة الدول للتوقيع أو المصادقة عليها، وذلك لوضعها موضع التطبيق في أقرب وقت ممكن. ويؤكدون مجدداً على ضرورة أن يقوم المجتمع الدولي بجهود مشتركة ضد الفساد واجتثاثه، من خلال تعاون شامل في إطار تطبيق الاتفاقيات والتشريعات الدولية.
- ١٢- ٨ يحثون على تقديم دعم دولي أكبر، من أجل التعاون لتوفير المساعدات اللازمة لتقديم القروض الصغيرة، لأصحاب الأعمال والمشروعات الصغيرة والمتوسطة في بلادهم، التي ستسهم في إنجاز عملية التنمية الشاملة.

١٣- آلية التعاون:

- ١٣- ١ ضماناً لمتابعة ما تمّ الاتفاق عليه والوارد في هذا الإعلان يقررون:
- . عقد القمة الثانية لدول أمريكا الجنوبية والدول العربية في المملكة المغربية عام ٢٠٠٨.
- . عقد الاجتماعي القادم لوزراء خارجية دول أمريكا الجنوبية والدول العربية في بيونس آيرس في الأرجنتين في عام ٢٠٠٧.
- . يمكن عقد اجتماعات استثنائية لوزراء الخارجية، كلما كان ذلك ضرورياً.
- . عقد اجتماع لكبار المسؤولين في وزارات الخارجية في مقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في القاهرة في نوفمبر/تشرين ثاني ٢٠٠٥.
- ١٣- ٢ إمكانية عقد اجتماعات قطاعية على المستوى الوزاري في مجالات التجارة والاستثمار والنقل والسياحة والطاقة والثقافة والعلوم والتكنولوجيا من بين قطاعات أخرى لمتابعة برامج التعاون. ولهذا الغرض يتم التشاور بين رئاسة القمة العربية والأمانة العامة لجامعة الدول العربية ورئاسة تجمع دول أمريكا الجنوبية.
- ١٣- ٣ يرحبون بدعوة المملكة العربية السعودية للمشاركة في الاجتماع الذي سينعقد بين المستهلكين والمنتجين للطاقة، في الرياض في الربع الأخير من عام ٢٠٠٥.
- ١٣- ٤ يقررون عقد اجتماع للوزراء المعنيين بالشؤون الاقتصادية في الإقليمين لمتابعة الموضوعات الاقتصادية الواردة في هذا الإعلان، ويقدمون الشكر لجمهورية الإكوادور لاستضافتها الاجتماع في كيتو، في وقت يتم تحديده لاحقاً.

□□□

متابعات

- کتاب أهل الإسلام.....محمد قرانيا

كتاب أهل الإسلام

محمد قرانيا

من الجميل أن يعترف المفكرون الغربيون بحضارتنا وتراثنا العربي والإسلامي، ومن ثم يُعملون فكرهم للوقوف على معطيات هذه الحضارة وهذا التراث، ويقفون بأنفسهم على ما فيها من كنوز وجواهر، يمكن للإنسانية جمعاء أن تستفيد منها، فيما لو أعطتها حقها من الرعاية والاهتمام.

المؤلف والكتاب:

مؤلف الكتاب " لويس غارديه" مفكر فرنسي معاصر تخصص بالفكر والحضارة الإسلامية، واهتم بالمجتمع الإسلامي، وله في ذلك عدة مؤلفات بالفرنسية (الحاضرة الإسلامية) و (الإسلام دين وجماعة) وقد زار أقطاراً عربية، وحاضر في عدد من جامعات المغرب والجزائر والقاهرة.

يشتمل الكتاب على دراسة موسعة لعالم الإسلام، يثبت فيها أن هذه العقيدة هي الخلاص للبشرية التائهة المعذبة، وأن الدين الإسلامي يصلح لكل زمان ومكان وهو (دين ودنيا) والكتاب فوق ذلك يبحث في طريقة عيش المسلمين مع قيمهم الروحية خلال تاريخهم الطويل، وكيفية تجسيد هذه القيم في عالم الواقع الحي المتطور بتطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية.

يحتوي الكتاب على أربعة أقسام مطوّلة، يبدؤها المؤلف بسؤال هام هو: هل في قيم الإسلام ادّعاء بعقلية مشتركة، وحسب أيّ خطوة مميزة؟ وللإجابة عن ذلك يعود إلى التاريخ القديم، فينبش الركام عن بوارق ذهبية زاهية ساعدت على تهيئة المناخ المناسب لانبثاق عصر الرسالة الإسلامية، وظهور رجال عملوا على حمل الرسالة، ورفع مشاعل الفتوح، لينيروا للبشرية الطريق، ثم يعود المؤلف ليؤكد على هذه الفكرة، فيرجع إلى كتابات ابن خلدون والباحثين العرب القدامى، وينظر في الملاحظات فيرى فيها وجهاً أدبياً مضيئاً للعرب، وفي محتوياتها تبرز الخصال العربية الكريمة؛ كالحلم والشجاعة والمروءة والعزة والكرامة ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف والضيافة... وتلعب المرأة دوراً بارزاً في الحياة الجاهلية، ويتضح هذا الدور في العصر الإسلامي، حيث برزت بعضهن ممن اشتهرن بإصابة الحق وسداد الرأي وصدق النظرة... ويرى المؤلف في ذلك أن الإسلام جاء ليحتضن الخصال الحميدة وينميها في الفرد المسلم، وأنه باحتضانه العروبة أولاً ثم سريانه إلى بقية الشعوب ومعاملتها بالأخوة والمساواة، غدا الإسلام (عالمياً) وقد أعطى الموالي منذ اللحظات الأولى للرسالة حقوق العيش والحرية والحياة الكريمة.

لقد ولج المسلم التاريخ، ومع أنه مخلوق ضعيف هلوع مخلوق من طين، فقد أعلت الآيات الكريمة

من شأنه «ولقد كَرَّمنا بني آدم» كل ذلك ليكون خليفة الله في الأرض، يعمرها بالإيمان والتوحيد، ويدعو إلى العلم والتعلم، وإعمال الفكر والبصيرة في الكون وآياته.

ثم احتضنت الشعوب الأخرى . من غير العرب . رسالة السماء فتعلم، أبناؤها اللغة العربية، وسكن العديد منهم ديار العرب، وخلال مدةٍ معينة كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للفرس المسلمين، كما كانت معرفة اللغة العربية ضرورية لأبناء تلك الشعوب من فرس وهنود وأتراك وغيرهم، لأداء الصلوات وقراءة القرآن الكريم، ومن ثم الاتصال بالدوائر الحاكمة.

تطور الذهنيات الاجتماعية والثقافية:

حفلت الحياة العربية الإسلامية في العصر العباسي بألوان النشاط الاقتصادي والثقافي والفكري، وأصبحت بغداد لأول مرة في التاريخ أنموذجاً للعواصم الدولية في العالم، فنشطت فيها العلوم الإنسانية الباهرة، واستفادت من علوم الأمم المجاورة ذات الحضارات القديمة ومعارفهم، كما استفادت من مجالس العلم وحلقات الدرس والمناقشات التي كانت تُعقد بمعرفة الخلفاء، ويشارك بها في بعض الأحيان أناس من غير المسلمين، فيناقشون وهم متأثرون بماضيهم الفكري. كاليهود والمسيحيين الذين وقف الإسلام منهم موقفاً إنسانياً خالداً، باعتبارهم (أهل كتاب) وكان أن دخل بعض دواوين الدولة عددٌ من أهل الذمة كموظفين، فعوملوا معاملة حسنة، لكن قدوم الحملات الصليبية . فيما بعد . لغزو الشرق العربي الإسلامي، جعل المسلمين يغيرون نظرهم إلى الذميين، حيث اعتبروا النصارى بمنزلة الحلفاء الطبيعيين للغزاة، وزاد في الريبة أن المغول . الذين اعتنقوا الإسلام من بعد . اعتمدوا على المسيحيين في أثناء غزوهم سورية والعراق، وزاد الأمر سوءاً أن المبشرين الصليبيين قد لاقوا مع المستعمرين الأوروبيين في العصر الحديث تسهيلات كثيرة بسبب الدور الذي لعبه هؤلاء في تهيئة الأجواء المناسبة داخل العالم الإسلامي.

الرق:

وُجد الرق في المجتمع الجاهلي، وجاء الإسلام فعمل على تحرير الرقيق، واعترف للعبيد بحق الزواج والسكن، وغير ذلك من الحريات الاجتماعية والأخلاقية، وعاملهم بالحسنى، واعتبرهم من أفراد العائلة، وأباح لهم الحق في تسلّم الوظائف التنفيذية والإفتاء، وعندما يُعتق العبد يتمتع بجميع حقوقه المدنية والسياسية، ويغدو مواطناً كامل الصفة، إذا كان من أهل الكتاب، وقد ضمن له العصر الأموي أن يلحق بالأسرة، وتضمن له الحماية والأمن، حتى إن عدداً من العبيد تبدّلت أحوالهم الاجتماعية بعد العتق، واحتلوا مراكز أعلى من مراكز أسيادهم.

نصرة الفنون والآداب:

أدى استقرار الدولة إلى ازدهار العلوم فيها، وظهور عددٍ لا يحصى من الكتاب والفقهاء والأدباء والعلماء والفلاسفة الذين لاقوا عنايةً فائقةً من رجال البلاط، مما ساعد على إعلاء قيمة العمل الفكري والثقافي والترجمة، لكن هذه الرعاية أدّت ببعضهم إلى الانحراف والميل إلى اللهو وحياة الترف والبذخ، فظهرت في القصور الجوّاري والقيان، الأمر الذي أدّى إلى وجود الدسائس، وسيطرة الحريم في بعض الأحيان، وتدخلهن في شؤون الحكم.

الشعب:

ويشمل عالم الطلبة في الجوامع التي كانت بمنزلة جامعات عامة، والمدارس التي تعلّم العلوم الدينية وعلم الكلام والنحو والحساب والفلك، حيث يتخرج الشباب فيكونون علماء أو كتبة أو أدباء أو ورّاقين أو معلمين في الكتاتيب أو المكاتب الخاصة، وقد كان عدد كبير من طلاب العلم من أصل فقير يجد في العلم خلاصاً من الفاقة والفقر.

وهناك أصحاب المهن والدكاكين الذين يشكّلون العنصر الجوهري في الحياة المدنية، وقد شارك بعضهم في النشاطات الاجتماعية والسياسية، وكثيراً ما كانت مذكرات هؤلاء تدور حول الهموم الأكثر يومية، وقد تتعرض لانتقاد رجال الحكم، والحديث عن ارتفاع الأسعار وفقدان السلع.

ولم ينظر المجتمع الإسلامي إلى أصحاب المهن إلا نظرة التقدير والاحترام، فالمهنة كريمة شريفة في ذاتها، وكان الفخر بالعمل المنجز مستحباً.

ولم يكن الجيش صنفاً اجتماعياً في الحواضر الإسلامية، فقد كان مؤلفاً في البداية من العرب، ثم من غالبية خراسانية، ثم دخله المرتزقة والأرقاء الذين اعتبروا (جسماً أجنبياً) محصوراً في دسائسه الخاصة.

الرحالة:

اتسعت مجالات الحياة العامة في الدولة الإسلامية، فازدهرت التجارة، واتسعت آفاقها، فمخرت السفن العربية عباب البحار إلى بلاد فارس والهند وبيزنطة، ونمت الموانئ، واستقبلت وفود الزوّار والتجار والحجاج، وحفظت لنا الروايات العربية نموذجاً للمسافر في طلب العلم، الذي يعبر الجبال والسهول والبحار والبادي ليقابل (محدثاً) موثقاً.

وكثُر الرحالة وتعدّدت الأغراض من حب المعرفة والاغتراب، وطلب العلم والتجارة والسفارة، مما ساعد على وجود تأليف في الجغرافيا والبلدان والروايات التي تحكي عن الاكتشافات المعرفية والبلدان الجديدة والبعيدة.

التفرقة:

فرّق الإسلام بين الدين بمعناه الصحيح وبين الدخيل على الأصول المحددة في القرآن الكريم والحديث الشريف، فوقف موقفاً متشدداً من الأمور التالية:

١. الكفر، وكان التكفير من أخطر الاتهامات الممكن توجيهها للعدو.
 ٢. الشرك، أي المس بوحداية الله.
 ٣. البدعة، وهي التي تنحرف بالعقيدة وتقّسها حسب اختيارات شخصية لا تترسخ جذورها في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- وقد كان كل من الكفر والشرك والبدعة أسلحة تُشهر في وجوه أصحاب الفرق والمذاهب التي وجدت فيما بعد.

المذاهب والاتجاهات:

يعتمد المؤلف في كتابه على دراسة التاريخ الإسلامي من منظور أهل السنة، التي تأخذ بالنصوص القرآنية والسنة النبوية، ويذكر بعض الخصائص لمذاهبها، فيرى في:

الحنفية: بعض توسع في القياس المبني في نظرها على (العلة) المبررة للحكم المصدر.

المالكية: يبرز فيها السعي إلى توحيد (إجماع فقهاء العصر) و(القياس) و(الرأي) والرجوع المحتمل إلى (العرف) حرصاً على (المصلحة العامة).

الشافعية: تعتمد على (الإجماع) لكنها سترتاب في (الرأي) وتستشد على (القياس).

الحنبلية: وتدعو إلى الالتزام (بمذاهب السلف الصالح) ولا تقبل بغير (إجماع) صحابة رسول الله، وهو ما لا يخالف مطلقاً نوعاً من حرية التحري، حيث لا نص يسترشد به في التقدير.

والورع الصارم من صفات الحنبلية التي ستزداد حظوتها الشعبية، ونسبتها تعود إلى أحمد بن حنبل؛ العربي الأصل الذي عاش في العراق، والذي ترك مجموعة عقائد مستمدة من آثار السنة النبوية في (مسنده) وقد اضطهده الخليفة المأمون إبان انتصار المعتزلة، لكنه ما لبث أن استعاد اعتباره في عهد الخليفة المتوكل، وسيظل أنموذج المسلم الملتزم بنهج السلف الصالح.

الإصلاح:

مع إطلالة عصر النهضة، وجد العالم العربي والإسلامي نفسه محاصراً بالأطماع الاستعمارية الأوروبية، ولما كانت الدولة العثمانية تعاني حشرجات الموت، فقد نهض بعض دعاة الإصلاح في أكثر من صقع ينادون بالتححر والإصلاح، فقامت في الجزيرة العربية جماعة (توحيدية) بدعوة من داعيتها (محمد بن عبد الوهاب) الحنبلي المتحمس لآراء ابن تيمية، ونادى بالعودة إلى (الأصول)... إلى إسلام نقي مطهر من كل (البدع المنكرة) التي علقت به من توالي الأجيال، وقد ساعد في انتشار هذه الدعوة تبنيها من قبل الأسرة السعودية المالكة. يقول المؤلف: "وسيصبح ابن سعود -زعيم الدرعية- وولده عبد العزيز، القوة الزمنية لابن عبد الوهاب، دفين له حتى ما بعد الوفاة، وبعد حروب دامية ضد السلطة العثمانية أسس السعوديون في نجد مملكة عاصمتها "الرياض" وحافظ (التوحيديون) خلال العصرين الأخيرين من عهد الانحطاط على أقصى مطالب العقيدة والفكر الإسلاميين، ويشمل حكم الأسرة الآن كامل الجزيرة العربية متمسكاً بدعوة ابن عبد الوهاب... وقد صبغت الوهابية بدرجة أو بأخرى العديد من اتجاهات الإصلاح متجاوزة حدود شبه الجزيرة العربية، فانتشرت في الهند في القرن التاسع عشر..."

خاتمة:

ويمر المؤلف مروراً عابراً بالحركات الإصلاحية التي قامت على أيدي كل من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، والفاضل بن عاشور، وعلال الفاسي، حيث ارتبطت دعوات هؤلاء بالاتجاهات الوطنية التي عملت على النهوض بالأوطان من رقعاتها، وبعثت

العقيدة حية في النفوس، والتخلص من الاستعمار الأوربي وأطماعه المتنوعة. ثم يعرض المؤلف للتجديد وتحول الذهنيات، فيرى أن تنوع ذهنيات أهل الإسلام وسلوكهم اليوم أكبر منه في أي زمن مضى، فهناك تحولات وتناقضات وصراعات متعددة، بعضها يدور بين المسلمين أنفسهم، وبعضها الآخر يدور بينهم وبين العدو الإسرائيلي الصهيوني، وقد حدثت انقلابات جذرية سياسية وأيديولوجية واجتماعية واقتصادية، وظهرت الثورة الفلسطينية المسلحة إلى الوجود وأثبتت المقاومة المسلحة جدواها فوق الأرض المحتلة، وغدت هذه الثورة إلى جانب (الأصالة) فكرة وقوة متميزة...

ثم ينتهي الكتاب بخاتمة قصيرة، يتساءل فيها المؤلف من جديد عما إذا كان الإسلام باعثاً أو مساعداً على تكوين نموذج إنساني، أم أنه يتدخل كعامل اختمار روحي لا يغير من الذهنيات الأساسية والسلوك اليومي.

ويجب المؤلف عن ذلك، بأن الإسلام دين سماوي يحمل قيماً لا مثيل لها من العقيدة، والثقافة والحضارة، وأن الذهنية الإسلامية يغذيها موقف واحد مشترك نحو الله، ثم المجتمع والعالم..

ويستشهد بقول الفيلسوف المسيحي (أوليفيه لاكمب) الذي يرى أن أوربا المنزوعة الإيمان لا بد من أن تتفكر ملياً، وتتنظر إلى الرسالة الإسلامية التي هي جوهر الحياة والإنسان، هذه الرسالة السماوية التي يجب نشرها وتعميمها بعد تخليصها من البدع.. لكي تكون خلاصاً ومنقذاً للبشرية المتخبطة في دياجير الظلام.



